

رَحْلَةُ أَبْنَى بِطْوَاطْشَ

تَحْفَةُ النَّظَارِ
مِنْ عَرَائِبِ الْأَمْضَارِ وَعَجَابِ الْأَنْسَارِ

رَاجِعَةٌ وَأَعْدَادٌ فَهَا يَسِّرُ
الْأَسْتَاذُ مُصطفَى القِصَاصُ

قَدَّمَهُ وَحْقَفَهُ
الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْعَرَبِيُّ

حَارِّ الْحَيَاءِ الْحَلَوْدُ
بِسْرِيُوت

الحلقة ابن رجب وخطتها

تحفة النظار
في غرائب الأمصار وعجائب الأرض

ابحث ز الأول

راجعته وأعد فهراسه
الأستاذ مصطفى القصاص

قدمه وحققه
الشيخ محمد عبد المنعم العريان

دار الحكمة
بيروت

الطبعة الأولى
م ١٤٠٧ - ١٩٨٧ هـ

جُمْهُورِيَّةُ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ
صُبَّ : ٥٧٥١ - بَيْرُوتُ ، لِبَنَان

الحلة ابن بطوطة
تحفة النظار
مِنْ عَرَبِ الْمُصَارِ وَعَجَابِ الْأَسْفَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه الطيبين الطاهرين ، والتابعين له بياحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،

فقد خلق الله آدم عليه السلام ، وصوره فأحسن تصويره ، ونفع فيه من روحه ، وأودع فيه من المawahب والقوى ، والقدرات والاستعدادات ما يمكن معه من أداء الدور ، والقيام بالمهام ، وتحقيق الأهداف التي خلق من أجلها .

وقد ميزه الله على غيره من الكائنات بالعقل ، وعلمه الأسماء كلها : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا إِنَّمَا يُسَمُّونِي بِأَسْمَاءٍ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سَبِّحْنَاكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ اسْأِلْهُمْ بِإِسْمَائِهِمْ ﴾ « البقرة / ٣١ - ٣٣ » ، وجعله خليفة له في الأرض ، وأمر بالسجود له : ﴿ قَسَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ « ص / ٧٣ -

. ٧٤

ومن بعد آدم كان بنوه خلفاء الله في الأرض ، كرمهم ، وحملهم في البر

والبحر ، ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على كثير من خلقه ، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جيئاً منه .

ومنذ وجد الإنسان وفي نفسه الرغبة الملحة في التنقل والارتحال ؛ لأنه مفطور على حب الاستطلاع والتshawوF والتلشوF إلى معرفة كنه المجهول ، والبحث وراء الحفييات ، للتعرف على أسرارها ، والإحاطة بشأنها ، والإفادة مما يكتسب من المعرفة .

وببدأ الإنسان يجوب البحار ، ويقطع العوامر والقفار ، ويتجول في آفاق الأرض ويتشهي في مناكبها ، ساعياً وراء رزقه ، أو متاماً في ما خلق الله - متنطلاً الدلائل على عظيم قدرته ، وبديع صنعته ، ليطمئن منه القلب ، ويزداد لديه اليقين - أو مرضياً لأشواق نفسه إلى المعرفة .

والله - جل وعلا - قد حث عباده على السير في الأرض ؛ لتحصيل أرزاقهم ، وللتعرف على الإبداع في خلق الكون ، وإيجاده من العدم ؛ ليؤمنوا بقدرته علىبعث للموتى ، وإحياء من في القبور ، ولمشاهدة آثار الذين خلوا من قبلهم ليكون لهم فيها موضع العظة والاعتبار : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلِكُلَا فَامْشُوا فِي مَنَابِكُهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النَّشُورُ﴾ « الملك / ١٥ » .

﴿فُلْ سِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِي هُنَّا إِلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ « العنكبوت / ٢٠ » .

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفَسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ « الروم / ٩ » .

وقد عَدَ الله تعالى ، ما وفق إليه قريشاً - من الرحلة إلى اليمن في فصل

الشّتاء ، وإلى الشّام في فصل الصّيف ؛ للتجارة ، وابتغاء فضله - من جلائل النعم ، وعظيم المّنـنـ التي تستوجب الإيمان بالنعم - جل وعلا - ، وإفراده بالعبادة ؛ شكرًا له على هذه الأفضال .

﴿لِإِلَّا فِي قَرِيشٍ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيفِ فَلَيَعْبُدُوا رَبَّهُمَا الْبَيْتَ الَّذِي أَطْعَمُهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ « سورة قريش » .

وكما عرفت الأمم الانتقال والترحال عرفت أمتنا العربية والإسلامية التّنقل والترحال ، بل لقد فاقت غيرها من الأمم ، وبزّتها في هذا المصمار ، إذ تحولت الرحلة والتنقل إلى سجية من سجاياهم ، وجزء من حياتهم اليومية ، فهم بين مرتاحلين في طلب الماء ، والمراعي الخصيب ، أو مغيرة بعض قبائلهم على بعضها الآخر ، أو ناقلين للتجارة ، أو قائمين بحمايتها وختارتها .

ثم زاد اعتمادهم للإسلام ، وإيمانهم بتعاليمه من رسوخ تلك السجية ، وثباتها واستقرارها ، فتنقلوا وارتاحلوا ؛ دعاة إلى هذا الدين ، ناشرين لمبادئه ، مجاهدين في سبيله ، متعرفين إلى إخوانهم في الدين ، ومشاركיהם في العقيدة ، حققين الأخوة التي وصفهم الله بها ، مبرزين لآثار هذه الأخوة التي ذكرها المصطفى ﷺ في حديثه .

، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ « الحجرات / ١٠ ». .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَارَفُوا﴾ « الحجرات / ١٣ ». .

وقد وعـتـ الـذاـكـرـةـ ما حـفـظـناـ فـيـ الصـغـرـ تـلـكـ الـأـبـيـاتـ المـنـسـوـبـةـ إـلـىـ الـإـمـامـ مـحـمـدـ

ابن إدريس الشافعي رضي الله عنه ، والتي يحث فيها على السفر والارتحال ، مبيناً
مزایاها ، وفضلها فيقول :

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب فإن لذذ العيش في النصبِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده
إن سال طاب وإن لم يجر لم يطِبِ
الأسد لولا فراق الغاب ما قنصلت
والسهم لولا فراق القوس لم يصبِ
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة
للهَا النَّاسُ مِنْ عِجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ
والتبور كالتربي ملقى في معادنه
والعود في أرضه نوع من الخطبِ
فإن تغرب هذا غز مطلبه
وإن أقام فلا يعلو على رتبِ

ولقد فتح الله على المسلمين ، ومكن لهم في الأرض ، فاتسعت رقعة دولتهم
شرقاً وغرباً ، وامتدت أملاكهم طولاً وعرضأً ، وأصبحت تضم أكثر الأجزاء
المعمورة من الأرض .

وانطلق الرحالة المسلمين يجوبون أقطار الدنيا ، يتعرفون إليها ، ويلمون
بأخبارها ، وذلك إلى جوار قيامهم بأداء ما افترض الله عليهم من الحج إلى بيته
الحرام ، وما تهفو إليه نفوسهم من زيارة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وكان على رأس أولئك الرحالة أبو الحسن محمد بن أحد بن جبير الكناني الأندلسي المولود في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ مـ)، المتوفى في الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ مـ)، وقد زار بلاد المشرق الإسلامي ثلاث مرات فيما بين سنتي ٥٨١ و٥٧٨ الهجريتين، وخلف لنا من بعده الكتاب الرائع: رحلة ابن جبير.

وكان من بين الرحالة المسلمين، أو قُل: أميرهم - كما تلقبه جمعية «كمبردج» في كتابها وأطالتها : *«Prince of moslems travellers»*

- أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، وقد بدأ رحلته هذه في شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ وانتهت بوصوله إلى فاس في ذي الحجة سنة ٧٥٤ هـ (أي: أنها استغرقت تسعة وعشرين عاماً ونصف العام تقريباً)، وهي في الحقيقة مجموعة من الرحلات، وليس رحلة واحدة، وإنما أطلق عليها رحلة، لأنها لم يعد إلى موطنها في المغرب إلا بعد انتهائها، ليستقر فيه، ويلقى عصا التسيير، ويقر عيناً بالإياب، وقد طوف في هذه الرحلات بأكثر بلدان العالم المعروف في عصره، وزار بلدان قاري آسيا وإفريقيا، وبعضاً من بلدان قارة أوروبا، ولم يزور الأمريكتين وأستراليا لأنهما لم تكونا قد عرّفنا واكتشفنا بعد.

وقد دون رحلته هذه، وتحدث فيها عن البلدان التي زارها، والشعوب التي عرفها، متتحدثاً عن موقع البلدان، والمسافات بينها، وعن أحداث من تاريخها، وعن العادات والتقاليد السائدة فيها، والعلاقات بينها، كما وصف مظاهر العمران، وألوان الحضارة، مما لا نعتبر معه مغالين، ولا مبالغين إذا قلنا: إنها تكاد أن تكون دائرة معارف مصغرة لهذا العصر الذي عاش فيه ابن بطوطة.

ولذلك لقيت من عناية الباحثين ما هو جدير بها من الاهتمام ، فطبعت عدة طبعات ، وترجمت إلى الإنجليزية ، والفرنسية ، والبرتغالية ، كما ترجمت فصول منها إلى الألمانية ، ونشرت بها ، فضلاً عن نشر الترجمة الإنجليزية .

إلا أن الكمال لله وحده ، فلم تخل أي طبعة منها من بعض الأخطاء ، مطبوعة في بعض الأحيان ، وراجعة في البعض الآخر إلى عدم الإحاطة بمعرفة البلدان ، بالنسبة إلى من ليس من أهلها ، ومن الأمثلة على ذلك : تسمية القرية التي زارها ابن بطوطة بعد خروجه من الإسكندرية قاصداً زيارة الشيخ أبي عبد الله المرشدي ، فقد ذكر أنها : فروجه ، وليس اسمها كذلك ، بل اسمها : تروجة ، أو : تروجي ، وهي إحدى قرى محافظة البحيرة في مصر ، وبها آثار رومانية . كذلك تعقب بعض المعلقين على الرحلة بأن مدينة منوف كانت تسمى : ممفيس ، مع أن منوف غير ممفيس ، فهي إحدى مدن محافظة المنوفية في مصر ، وإليها تنسب المحافظة ، أما ممفيس فهي مدينة منف عاصمة الدولة القديمة في مصر ، ومكانها الآن قرية البدريين في محافظة الجيزة .

لذلك صحت النية ، وقوى العزم على إصدار طبعة مصححة يتلافى فيها ما يمكن - تلك الأخطاء ، وتشرح فيها بعض الكلمات الغامضة ويعلق على ما يدعو الأمر إلى التعليق عليه ، وتبين أرقام الآيات القرآنية ، والسور التي جاءت فيها ، وتضبط بعض الكلمات التي تحتاج إلى ضبط ، حتى يسهل فهم المراد منها ، وتسند بعض الأحاديث الواردة فيها - إن تيسر ذلك - .

كما ألحقنا بالكتاب فهرسين أحدهما للأعلام والآخر للأماكن لتعين القارئ على البحث والقراءة والاطلاع .

وها هي الرحلة بين يدي القارئ نقدمها إليه ، راجين أن يصفح عما يجد
من زلات ، وما تقع عليه عينه من أخطاء ، فذلك مبلغ جهدنا .
والله نسأل أن ينفع به ، وأن يجعله من العلم المنتفع به ، وهو - سبحانه - من
وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

في يوم الخميس

٢٦ من ذي القعدة ١٤٠٦ هـ

الموافق ٣١ من تموز (يوليو) ١٩٨٦ م

محمد عبد المنعم العريان
من علماء الأزهر الشريف
وعضو بعثة الأزهر في
لبنان - بيروت

ابن بطوطة

بالرغم من هذا العمل الرائع العظيم الذين حققه ابن بطوطة ، وبالرغم من أهمية هذه الرحلة لم تثبت له ترجمة في كتب معاصريه ، اللهم إلا الترجمة المحدودة ، التي لا تتجاوز الأسطر المعدودة ، التي جاء بها الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه : « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » ، وإلا ما كتبه العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته المشهورة - لكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، وهو تعليق وجيز لم يترجم فيه لابن بطوطة ، بل ذكر خبر عودته من رحلته ، ووروده على المغرب في زمن السلطان أبي عنان ، وما تحدث به من الغرائب ، وما أثارته من الاستنكار والتکذيب له ، وما تحدث به إليه في شأن هذه الأخبار الوزير فارس ، مبيناً رأيه فيها ، (وستثبت نص ما كتبه ابن خلدون عقب هذه الترجمة لابن بطوطة ومدون رحلة ابن جزي).

ويبدو - والله أعلم - أن المترجمين للأعلام اكتفوا برحلة ابن بطولة ، كأن ترجمة له ، لا يكون بعدها حاجة إلى الترجمة له .

- وإن كان غيره من الأعلام قد ترجم لنفسه وتحدث عن حياته ، ومع هذا حظي بترجم عديدة كتبت له ، مثل الإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد الغزالى ، فقد ترجم لنفسه في كتابه « المنقد من الضلال » وتکاثر المترجمون له ، حتى لم يغفل التعريف به واحد من المؤرخين والكتابين عن الأعلام ..

وقد جاء ذكر ابن بطوطة في كتاب « الأعلام » لخير الدين الزركلى .

وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي (نسبةً إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر).

مولدः

كان مولد ابن بطوطة في مدينة طنجة، (هي إحدى مدن المغرب العربي، وتقع على الشاطئ الإفريقي لبحر العدوة (بحر الرزاق) الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي، والذي يعرف الآن باسم: مضيق جبل طارق. وكانت ولادته - كما ذكر ابن جزي - في يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ٧٠٣ هـ (٢٥ شباط «فبراير» سنة ١٣٠٤ مـ).

واللقب الذي اشتهر به (ابن بطوطة) ليس خاصاً به، بل كانت تلقب به أسرته، ويستفاد هذا مما ذكره هو في الجزء الثاني من الكتاب، فقد ذكر أن قاضي رندة ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى ابن بطوطة، ويظهر أن هذا اللقب ظل يطلق على أفراد هذه الأسرة على تواли أحياها - وإن حدث له بعض التحريف - فقد ذكر خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام» أن «في مدينة نابلس في فلسطين أسرة تدعى بيت بوط - وتعرف أيضاً ببيت المغربي، وبيت كمال - تقول: إنها من نسل ابن بطوطة.

وقد ولد لأسرة تولى كثير من أفرادها القضاء، ولذلك تعهده والده بالرعاية، وعملاً على تعليمه، ليتهما لتولي القضاء كما تولاه غيره من أفراد أسرته، ولكنه ما إن أتم الثانية والعشرين من سني حياته حتى هفت نفسه إلى أداء فريضة الحج، فابتدأ رحلته.

وكان مولد ابن بطوطة في عهد السلطان أبو يوسف ابن عبد الحق أحد سلاطين الدولة المرinية.

بنو مرين:

وبني مرين سلالة من البربر حكمت مراكش من سنة 592 هـ (1195 م) إلى سنة 874 هـ (1468 م)، وقد قامت دولتهم على أنقاض دولة الموحدين، فاحتلوا مراكش سنة 668 هـ (1269 م) وغزوا الأندلس، وكانت عاصمتهم مدينة فاس. ومدينة فاس أسسها إدريس بن عبد الله، وابنه إدريس بن إدريس، وخضعت بعد الأدارسة للأمويين في الأندلس، حيث احتلها ببربر زناتة.

ثم استولى عليها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين، ووّقعت بعد ذلك في يد الموحدين، وظلت تحت سلطانهم، حتى استولى عليها المرينيون، واتخذوها عاصمة لهم، وقد ازدهر بلاطها في عهدهم، ولمع فيه من أعلام الفكر الإسلامي لسان الدين بن الخطيب، وابن بطوطة، وابن خلدون، وابن جزي الكلبي، وغيرهم، والمرينيون هم الذين أسسوا في فاس جامع القرويين.

رحلة ابن بطوطة:

ورحلة ابن بطوطة - أو رحلاته - التي استغرقت تسعة وعشرين سنة ونصف السنة - على وجه التقرير - والتي بدأت في يوم الخميس ٢ من رجب عام ٧٢٥ هـ، وانتهت بوصوله إلى مدينة فاس عاصمة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة عام ٧٥٤ هـ، قد زار فيها كل بلاد العالم المعروفة في عصره، وطوف فيها بقارتي إفريقيا وآسيا وجزء من قارة أوروبا، فقد جاب فيها المغرب العربي، أقصاه (المغرب، وموريطانيا)، وأوسطه (الجزائر)، وأدناءه (تونس) كما زار ليبيا، وزار مصر بدءاً بالإسكندرية، ومروراً بشمال الدلتا، ووسطها حتى وصل القاهرة، وزار صعيد مصر، واتجه إلى ساحل البحر الأحمر متوجهاً إلى ميناء عيذاب، وعاد أدراجه إلى القاهرة، واتجه منها إلى صحراء مصر

الشرقية ، فسينا ، ودخل فلسطين فزار أهم مدنها ، وزار بيروت وسهل البقاع ، وطرابلس ، وجبل لبنان ، وبعلبك ، وزار مدينة دمشق ، وحمص ، وحماة ، ومعرة النعمان ، وحلب ، كما زار الساحل السوري ، ومدنه ، وحصون الإسماعيلية ، ومن دمشق اتجه إلى الحجاز ماراً بالأردن ، وأدى فريضة الحج في موسم عام ٧٢٦ هـ ، وغادر الحجاز إلى بلاد العراق حيث زار مدائها الهامة مثل : الكوفة ، والبصرة ، وبغداد ، وتكريت ، والموصل ، وخرج إلى الحجاز مرة ثانية مع الركب العراقي ، فحج للمرة الثانية سنة ٧٢٧ هـ ، وجاور مكة عام ٧٢٨ هـ ، وأدى مناسك الحج للمرة الرابعة ، وجاور كذلك عام ٧٣٠ هـ وفي الموسم وقعت فتنة تحدث عنها ، وذكر أنه خرج في تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن ، ويفهم من كلامه أنه لم يحج عام ٧٣٠ هـ ، ومن جدة أبحر في البحر الأحمر ماراً بشواطئ السودان ، وزار اليمن ومنه توجه إلى شرق إفريقيا ، فزار الصومال وكينيا ، وتanzانيا ، وعاد أدراجه إلى جزيرة العرب ، فزار ظفار في اليمن الجنوبي ، ومدن عُمان ، ومن سلطنة عمان توجه إلى إيران ، ثم عبر الخليج ، وزار البحرين ، والقطيف ، والحساء ، واليامامة بالملكة العربية السعودية ، وتوجه إلى مكة ، فحج للمرة الخامسة في موسم عام ٧٣٢ هـ ، ومن مكة رحل إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن ، متوجهاً إلى بلاد الهند ، لكن لم تيسر له تلك الرحلة ، وكأنما أراد الله أن يتوجه إلى الهند عن طريق آخر ، ليتسنى له زيارة بلدان أخرى ، ليطرف قاريء الرحلة بأوصافها ، وأخبارها ، فاجتاز البحر الأحمر من جدة إلى عيذاب ، متوجهاً إلى القاهرة ، ثم بلاد الشام ، فزار غزة ، والخليل ، وبيت المقدس ، والرملة ، وعكا ، وطرابلس ، وجبلة ، واللاذقية ، (وقد سبق له زيارة معظم هذه المدن) ، ومن اللاذقية يم شطر آسيا الصغرى (تركيا) فزار مدنه ، وطاف جميع أنحائها ، وزار بعد ذلك مدينة القلزم ، (في جنوب روسيا) ، كما زار مدينة السرا عاصمة ملك

السلطان محمد أوزبك (والسرا تقع على نهر الفولغا) ، وزار مدينة بلغار (وكان موقعها في جنوب مدينة قازان ، قريباً من الشاطئ الشرقي لنهر الفولغا) ، وقد حاول بعد وصوله إلى بلغار أن يزور أرض الظلمة (ويقصد بذلك التسمية: المناطق في شمال قارة آسيا ، أي مناطق سيبيريا وما يتصل بها) ، وحين لم يتيسر له ذلك عاد من بلغار إلى مدينة الحاج ترخان (استراخان حالياً) ، ثم رحل إلى القسطنطينية ، فزارها ، وعاد منها إلى جبال القوقاز ، ومنها يم شطر آسيا الوسطى ، فزار المناطق الإسلامية التي تقع الآن ضمن حدود الإتحاد السوفييتي ، ومن مدن تلك المناطق التي زارها: خوارزم ، وبخارى ، وسمرقند ، ونصف ، وترمذ ، ومن ترمذ توجه لزيارة مدن خراسان : (خراسان الآن هي أفغانستان ~ وشرق إيران) فزار بلخ ، وهراة ، والجام ، وطوس ، وسرخس ، ونيسابور ، وبسطام ، ثم توجه إلى كابل ، وغزنة ، ثم إلى بلاد الهند ، حيث أقام بها تسعه أعوام تقريباً ، وحظي فيها بالرضا والقبول لدى سلطانها محمد شاه ، الذي عينه قاضياً للمذهب المالكي ، ثم أرسله سفيراً عنه لتلبيغ رسالة منه إلى ملك الصين ، وفي طريقه من دهلي عاصمة الهند إلى بلاد الصين زار مدن وسط الهند مثل: كاليلور ، ثم زار مدينة دولة آباد ، ومدن ساحل المليبار مثل: هنور ، وأبو سرور ، وفاكتور ، ومنجرور ، وهيلي ، وجورفتن ، وده فتن ، وبدفقن ، و قالقوط (ميناء كلكتا حالياً) ، ومن قالقوط أبحر لزيارة جزائر ذيبة المهل (جزر المالديف حالياً) ، وقد أقام في هذه الجزر ، وتزوج ، وأكره على تولي القضاء ، وبقي في وظيفة القضاء مدة عام ونصف العام ، وغادر جزر المالديف إلى جزيرة سرنديب (سيلان ، وهي الآن جمهورية سري لانكا) ، فزارها ، وزار سواحل المعبر بالهند ، وعاد إلى ساحل المليبار ، فزاره مرة ثانية ، ومنه إلى جزائر ذيبة المهل ، ومنها رحل إلى بنجاله (بنجلادش) ، وجبال كامرو (ولاية آسام الهندية حالياً) ، وذهب بعد ذلك فزار بلاد البرهناكار (بورما) ، ومنها توجه إلى بلاد

جاوة (إندونيسيا حالياً)، وقد أطلق عليها اسم أكبر جزرها، وهي جزيرة جاوة، وكانت عاصمة الجزر في جزيرة سومطرة، وكانوا يطلقون عليها: (جاوة الصغرى)، ومن بلاد الجاوة اتجه إلى مل جاوة (شبه جزيرة الملايو، وهي جزء من جمهورية ماليزيا الآن)، ثم رحل إلى الصين، فزار في جنوبها مدن الزيتون (شوان شوفو) وصين كلان، وقنجنفو، والخنسا (هانك شو)، ومنها توجه إلى بلاد الخطأ (شمال الصين)، فوصل العاصمة خان بالق (تسمى أيضاً: خانقو، وهي مدينة بكين حالياً)، ولما وصل إليها لم يتمكن من القيام بسفارته، لخروج ملك الصين لقتال ابن عمّه الخارج عليه، وانتهى القتال بمقتل الملك، وتولى ابن عمّه الملك، وقد اخذ له عاصمة جديدة، فثبتت الفتن ضده، وعاد ابن بطوطة أدرجه دون أن يؤدي رسالته بناء على نصيحة بعض المخلصين له، فارتاحل من الصين إلى سومطرة، ومنها إلى مدينة كولم بساحل المليبار، ثم إلى قالقط.

وفي قالقط تدبر ابن بطوطة في أمره، فخشى أن يغضب عليه سلطان الهند إن عاد إليه، ولم يقم بسفارته، فقرر أن يعود إلى بلده في المغرب العربي، فأبحر في المحيط الهندي من قالقط، فوصل ظفار في شهر المحرم سنة ٧٤٨، ومن ظفار اتجه إلى مسقط، والقرىات في سلطنة عمان، ومنها إلى هرمز بإيران، ومنها إلى البصرة، فالكوفة، فالحلة، وبغداد، ومن بغداد توجه إلى الأنبار قاصداً بلاد الشام ماراً بهيت، والحديثة، وعانية، والرحبة، والحسنة، وتدمير، ووصل دمشق، وكان مغييه عنها - كما ذكر - عشرين سنة كاملة^(١).

ومن دمشق توجه إلى حمص فحمة، فمعرة النعمان، فحلب، وعاد ثانية إلى

(١) كان مغييه عن دمشق في الحقيقة أكثر من اثنين وعشرين سنة؛ إذ غادرها مع ركب الحج الشامي في شوال سنة ٧٢٦ هـ، وعاد إليها في أواخر سنة ٧٤٨ هـ، أو أوائل سنة ٧٢٩.

حصن ، فدمشق ، ومنها إلى عجلون (الأردن) ، فبيت المقدس ، فالخليل ، فغزة ، ومن غزة سافر بالبر إلى دمياط ، ثم فارسكور ، فسمنود ، فأبي صير ، فالمحلة الكبرى ، وإيبار ، ودمنهور ، ووصل الإسكندرية ، ^{لـ}غزارها لثانية مرة ، وعاد منها إلى القاهرة ، واجتاز مدن الصعيد حتى وصل عيذاب ، فاجتاز البحر الأحمر منها إلى جدة ، وذهب إلى مكة المكرمة حيث حج للمرة السادسة والأخيرة ، في موسم سنة ٧٤٩ هـ ، ومن مكة توجه إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فنعم بالزيارة ، وغادرها إلى تبوك ، فبيت المقدس ، فالخليل ، فغزة ، ومن غزة اجتاز سيناء ، وصحراء مصر الشرقية إلى القاهرة .

وفي القاهرة عرف بتولي أبي عنان فارس السلطة في الدولة المرinية ، فشد رحاله للقياه ، والتمتع بأرض وطنه الحبيب ، فغادر الإسكندرية بحراً في صفر سنة ٧٥٠ هـ ، ووصل جربة ، ومنها إلى قابس ، فصفاقس ، فلبانة ، ومنها سافر بالبر إلى تونس ، وأبحر منها إلى جزيرة سردينية ، ومن سردينية توجه إلى تنس ، فمازونة ، فمستغانم ، فتلمسان ، فتازى ، ووصل في أواخر شعبان سنة ٧٥٠ هـ إلى فاس .

وقد تحدث ابن بطوطة فأضاف في الثناء على بلاد المغرب مفضلاً لها على غيرها من البلدان عمارة ورخاء ، كما تحدث مثنياً ومادحاً لسلطانها أبي عنان .

وبعد مكثه زمناً في فاس توجه إلى مدينة طنجة مسقط رأسه ، ومنها إلى سبتة حيث عبر بجر العدوة ، وزار جبل الفتح (جبل طارق) ورندة ، ومربلة ، وسهيل ومالقة وبخش ، ثم غرناطة ، وارتخل من الأندلس عائداً مرة ثانية إلى المغرب ، فوصل سبتة ، ومنها إلى أصيلا ، فسلا ، فمدينة مراكش ، ووصل إلى فاس ، ومن فاس انطلق مسافراً إلى بلاد السودان^(١) ، فوصل سجلماسة ، ومنها إلى تغازي وقد زار من هذه البلاد مالي والنiger .



(في جمهورية مالي)، ثم ايسواتن (في جمهورية موريتانيا)، ثم إلى مدينة مالي (اندثرت هذه المدينة، وكانت مقرًا لملك السودان، وتسمى جمهورية مالي الحالية باسمها)، وقد أقام بها سنة واحدة وسبعة شهور تقريبًا، وغادرها في ٢٢ من المحرم سنة ٧٥٤ هـ، وقصد بعد مغادرتها ميمة، فتبكّتو، فكوكو، ومن كوكو إلى مدينة تكدا (في جمهورية النيجر)، ومنها إلى بلاد قبيلة بردامة البربرية، ثم إلى بلاد الهكار، وهم من البربر، واتجه إلى سجلماسة، ومنها رحل إلى مدينة فاس فوصلها في أواخر ذي الحجة سنة ٧٥٤ هـ، وكانت عودته إجابة لأمر السلطان أبي عنان الذي وصل إليه وهو في تكدا.

وقد سجل ابن بطوطة تفاصيل هذه الرحلات الطويلة من ذاكرته، فلم يكن يدون أحدها كيوميات، ولكن بالرغم من اعتماده على ذاكرته لم تخنه ذاكرته - إلا قليلاً - فلو طبق خط سير الرحلات كما ذكرها ابن بطوطة - على خرائطنا لما وجدنا كبير اختلاف بينها ، وإن كان يتبع عليه الأمر في بعض الأحيان في حديثه عن البلدان التي زارها أكثر من مرة، فيخلط بين هذه الرحلات المتعددة، ولا يميز إحداها عن الأخرى تمييزاً دقيقاً، فيضع بعض الأحداث في غير موضوعها.

وابن بطوطة دقيق الملاحظة، بارع في وصف ما شاهده، ورواية ما سمعه، وإن لم يقف مما رواه موقف الناقد، فهو جامع أخبار، وليس ناقداً، ولذلك كان موقف الكثرين من أخبار رحلته موقف المستغرب، ودفع ذلك البعض إلى تكذيبه.

كما يلاحظ على ابن بطوطة صوفيته المفرق فيها إلى حد التعصب - والتي دفعته للتتجنّي والتحامل في بعض الأحيان، والبعد عن الإنصاف.

وهو كغيره من قدامى كتاب الرحلات والمؤرخين لا يولي الشعوب،

وتتطورها ، وعاداتها ، وتقاليدها اهتماماً إلا من خلال حديثه عن الملوك والسلطين كما يلاحظ عليه المدح المبالغ فيه للملوك والسلطين - خاصة سلطين الدولة المرinية - مما يكاد يصل إلى حد الملقب ، وإن كان يعتذر عنه بأن هذا كان العادة الجارية ، والسنة المتّعة في تلك الأزمان.

لكن هذه الملاحظات لا تنقص ، ولا تقلل من قيمة هذا العمل العظيم الذي خلفه من بعده ، فأفاد به الفكر العالمي كله ، وكفاه فخاراً أن هناك بعضاً من بقاع العالم لم تعرف الشعوب الأخرى عنها شيئاً إلا من خلال رحلته ، فكان أول من كتب عنها ، وعرف بها ، ومن بين تلك البقاع جزر المالديف.

كتاب رحلة ابن بطوطة :

أمر السلطان أبو عنان فارس المريني ابن بطوطة أن يدون تلك الرحلة ويقيدها ، فاستجاب للأمر ، وانتهى من تقييدها - كما ذكر في نهايتها في ٣ من ذي الحجة سنة ٧٥٦ هـ ، وعهد السلطان إلى كاتبه محمد بن أحمد بن جزي بتنقيحها ، وصياغتها صياغة أدبية ، فأنم ذلك في صفر سنة ٥٧٧ هـ .

مقدمة الرحلة :

يختفي البعض : فينسب المقدمة التي في بداية الكتاب إلى ابن جزي ، وليس الحقيقة كذلك ، فالذى يقرأ المقدمة بإمعان يدرك أن ابن بطوطة قد كتب جزءاً منها ، وأضاف ابن جزي جزءاً آخر ، فما كتبه ابن بطوطة يبدأ بالحمد لله ، وينتهي بدعائه للسلطان أبي عنان ، وثنائه عليه ، وآخر كلامه تلك الجملة : «والعمل المفيد بالإخلاص والأعمال بالنيات» ، ويبداً ما كتبه ابن جزي بهذه الجملة - عقب الجملة السابقة - وهي : «ولما كانت حضرة العلية مطمح الآمال» ، وينتهي بنهاية المقدمة ، فهنا قد اشتراكاً في كتابتها ، كتب ابن بطوطة

الجزء الأول منها ، وأضاف ابن جزي الجزء الأخير ، فنسبتها كلها إلى ابن جزي من قبيل الخطأ .

نهاية ابن بطوطة :

لا يعرف الكثير عن ابن بطوطة بعد الانتهاء من رحلته وتدوينها ، وجاء ما ذكره المترجمون له أن بعد انتهاء رحلته تولى القضاء في الدولة المرينية بقية حياته ، وأنه كان جواداً محسناً ، وأنه توفي في سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) رحمه الله .

ابن جزي

أورد لسان الدين بن الخطيب في «الإحاطة»، والمقرى في «نفح الطيب» وابن حجر في «الدرر الكامنة» ترجم لابن جزي فذكروا أنه : محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي ، واختلفوا في ضبط كلمة جزي على أقوال ثلاثة :

أوّلها : أنه على وزان علي ، بفتح الجيم وكسر الزاي وتشديد الياء .

وثانيها : أنه على وزان سُمي ، بضم الجيم ، وفتح الزاي وتشديد الياء .

وثالثها : أنه مضموم الجيم مفتوح الزاي ، وبعدها ياء ساكنة وهمزة (كأنه تصغير لكلمة : جزء) .

وذكرروا أنه يكتنى بأبي القاسم ، وأنه من أهل غرناطة ، وأنه شيخ لسان الدين ابن الخطيب ، وأنه فقيه من العلماء بالأصول واللغة ، وأن له مؤلفات في مجالات عدّة : في الفقه ، والأصول ، والعقائد ، واللغة ، والتراجم ، والحديث ، القراءات وعلوم التنزيل ، وأن له شعراً صوفياً كثيراً ، وأن من أعظم مؤلفاته : القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية ، الذي اشتهر باسم قوانين ابن جزي .

ولم يتحدث أي منهم عن علاقة ابن جزي هذا بابن جزي الذي لخص رحلة ابن بطوطة ، وصاغها في صورتها التي بين أيدينا .

وقد أوقع ذلك بعض محققين كتاب ابن بطوطة في الوهم ، فظنوا أن المترجم

له صاحب قوانين ابن جزي هو كاتب الرحلة، ولو أنهم تمعنوا ومحصّوا لأدركون أن هذا غير ذاك، فالمترجم له ولد في سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م)، وتوفي وهو يشارك في الدفاع عن شبه جزيرة طريف سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م)، وكاتب رحلة ابن بطوطة انتهى من كتابتها في صفر سنة ٧٥٧ هـ، فهل يا ترى قد لقي ابن بطوطة في غرناطة، وخدم السلطان أبا عنان، وكلفه بعد انتهاء ابن بطوطة من تقييد رحلته في نهاية عام ٧٥٦ هـ، أن يلخصها ويصوغها، وهو بين الأموات.

إن العقل لا يتصور هذا، ولا يتقبله، والحق أن هذا غير ذاك، والأقرب إلى التصور أن يكون ابن جزي الثاني (كاتب رحلة ابن بطوطة) ابنًا لابن جزي الأول (صاحب القوانين الفقهية).

والله وحده الذي يعلم الحقيقة، وهو الذي يهدي إلى سواء السبيل.

محمد عبد المنعم العريان

تعليق ابن خلدون على رحلة ابن بطوطة

ذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة لكتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر» ما يلي بالنص :

«ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان، من ملوك بني مرин رجل من مشيخة طنجة، يعرف بابن بطوطة، وكان قد رحل عنها منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق، وتقلب في بلاد العراق، واليمن، والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، واتصل بملكها لذلك العهد، وهو السلطان محمد شاه، وكان له منه مكان، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب، واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بملك الأرض، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند، ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون مثل : أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدینته من الرجال، والنساء، والولدان، وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود، يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد، ويطوفون وينصب أمامه في ذلك الحقل منجنiqات على الظهر، يرمي بها شکائر الدراهم والدنانير على الناس، إلى أن يدخل ديوانه، وأمثال هذه الحكايات، فتتاجى الناس في الدولة بتكذيبه، ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس ابن ودرار، البعيد الصيت،

ففاوضه في هذا الشأن ، وأريته إنكار أخبار ذلك الرجل ، لما استفاض في الناس من تكذيبه ، فقال الوزير فارس : « إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن ». .

وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ، فمكث في السجن سنين ، ربي فيها ابنه في ذلك المحبس ، فلما أدرك وعقل سأله عن اللحمان التي كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه : « هذا لحم الغنم » يقول : « وما الغنم ؟ » ، فيصفها له أبوه بشياتها ونحوتها ، فيقول : « يا أبت تراها مثل الفأر ؟ » ، فينكر عليه ويقول : « أين الغنم من الفأر ؟ » ، وكذا في لحم البقر والإبل ، إذ لم يعاين في محبسه إلا الفأر ، فيحسبها كلها أبناء جنس للفأر ، وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار ، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب - كما قدمناه أول الكتاب - فليرجع الإنسان إلى أصوله ، ول يكن مهيناً على نفسه ، وميزة بين طبيعة الممكن والممتنع بصرىح عقله ، ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان ، وما خرج عنه رفضه ، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق ، فإن نطاقه أوسع شيء ، فلا يفرض حداً بين الواقعات ، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء ، فإذا نظرنا أصل الشيء ، وجنسه ، وفصله ، ومقدار عظمته ، وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله ، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه ». .

رحلة

ابن بطوطة

المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة الناسك الأبر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة رحمه الله ورضي عنه وكرمه آمين.

الحمد لله^(١) الذي ذلّل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً ، وجعل منها وإليها تاراهم الثالث نباتاً وإعادة وإخراجاً . دحاماً بقدرته فكانت مهادأ للعباد ، وأرساها بالأعلام الراسيات والأطواد ، ورفع فوقها سمك السماء بغير عباد ، وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر . وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً ، ثم أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد الممات . وأنبت فيها من كل الثمرات . وفطر أقطارها بصنوف النبات ، وفجر البحرين عذباً فراتاً ، وملحاً أجاجاً ، وأكمل على خلقه الإنعام بتذليل مطايها الأنعام ، وتسخير المنشئات كالأعلام لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثجاجاً . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجاً . وطلع نور هدايته وهاجاً . بعثه الله تعالى رحمة للعالمين واختاره خاتماً للنبيين وأمكن صوارمه من رقاب المشركين حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأيده بالمعجزات الباهرات ، وأنطق

(١) هذه المقدمة من إملاء أبي عبد الله ابن بطوطة، وصياغة محمد بن جزي إلى قوله: «أوليائنا الأبرار»، وبهذه العبارة ينتهي كلام ابن بطوطة ليبدأ كلام ابن جزي بقوله: «فأملي من ذلك ما فيه نزهة الخواطر»، إلى نهاية المقدمة.

بتصديقهم الجمادات ، وأحياناً بدعوه الذمم البالىات ، وفجر من بين أنامله ماء ثجاجاً . ورضي الله تعالى عن المترفين بالانتفاء إليه أصحاباً وألاً وأزواجاً ، المقيمين تقاة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجاً ، فهم الذين آزروه على جهاد الأعداء ، وظاهروه على إظهار الملة البيضاء ، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والإيواء ، واقتحموا دونه نار البأس حامية ، وخاضوا بحر الموت عجاجاً ، ونستو هب الله تعالى مولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين المتوكلا على رب العالمين المجاهد في سبيل الله المؤيد بن نصر الله - أبي عنان فارس ابن موالينا الأئمة المهتدية الخلفاء الراشدين نصراً يوسع الدنيا وأهلها ابتهاجاً ، وسعداً يكون لزمانه الزمان علاجاً ، كما وهبه الله مألاً وجوداً لم يدع طاغياً ولا محتاجاً ، وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجاً . وبعد ، فقد قضت العقول ، وحكم العقول والمنقول ، بأن هذه الخلافة العلية ، المجاهدة المتوكلة الفاسية . هي ظل الله المددود على الأنام ، وحبله الذي به الاعتصام ، وفي سلك طاعته يجب الانتظام ، فهي التي أبدأت الدين عند اعتلاله ، وأغمدت سيف العداون عند انسالله ، وأصلحت الأيام بعد فسادها ، ونفت سوق العلم بعد كсадها ، وأوضحت طرق البر عند انتهاجها ، وسكنت أقطار الأرض عند ارتجاجها ، وأحيت سنن المكارم بعد مماتها ، وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها ، وأحمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، وأنقضت حكام البغي عند استقلالها ، وشادت مباني الحق على عياد التقوى ، واستمسكت من التوكيل على الله بالسبب الأقوى ، فلها العز الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء ، والمجد الذي جر أذياله على مجرة السماء ، والسعادة الذي رد على الزمان غض شبابه ، والعدل الذي على أهل الإيمان مد يد أطنايه ، والجود الذي قطر سحابه للنجين والنضار ، والبأس الذي فيه غمامه الدر الموار ، والنصر الذي تفض كتائبه الأجل ، والتأييد الذي بعض غنائمه الدول ، والبطش الذي سبق سيفه العدل ، والأناة التي لا يمل عندها الأمل ، والحزم الذي

يسد على الأعداء وجوه المسارب ، والعزم الذي يفل جوعها قبل قراء الكتائب ، والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب ، والرفق الذي جمع على محنته بنات القلوب ، والعلم الذي يجعل نوره دياجبي المشكلات والعمل المفيد بالإخلاص والأعمال بالنيات .

ولما كانت حضرته العلية : مطعم الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحظ رحال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ، ومنية السائل ، توخي الزمان خدمتها ببدائع تحفه ، ورائع طرفه ، فانثال عليها العلماء انتيال جودها على الصفات ، وتسابق إليها الأدباء تسابق عزماتها إلى العداة ، وحج العارفون حرمها الشريف ، وقد صد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجا الخائفون إلى الامتناع بعز جنابها ، واستجرارت الملوك بخدمة أبوابها ، فهي القطب الذي عليه مدار العالم ، وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم ، وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم ، وبإكمال حasanها الرائقة يفصح كل معلم ، وكان من وفد على با بها السامي ، وتبعى أوشال البلاد إلى بحرها الطامي ، الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوقي ، جوال الأرض ، ومحترق الأقاليم بالطول والعرض ، أبو عبدالله محمد ابن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين ، وهو الذي طاف الأرض معتبراً ، وطوى الأمصار مختبراً ، وبباحث فرق الأمم ، وسر سير العرب والجم ، ثم ألقى عصا التسيير بهذه الحضرة العليا ، لما علم أن لها مزية الفضل دون شرط ولا ثانيا ، وطوى المشارق إلى مطلع بدرها بالغرب ، وأثرها على الأقطار إيثار التبر على الترب ، اختيارةً بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبة اللحاق بالطائفة المثلث ، التي على الحق فغمراه من إحسانه الجزييل ، وامتنانه الحفي الحفيل ، ما أنساه الماضي بالحال ، وأعناه عن طول الترحال ، وحقر عنده ما كان من سواه يستعظم ، وحقق لديه ما كان من فضله يتوجه ، فensi ما كان ألفه من جولان البلاد ، وظفر بالمراعي الخصب بعد طول

الإرتياح ، ونفذت الإشارة الكريمة بأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار ، وما علق بمحفظه من نوادر الأخبار ، ويدرك من لقيه من ملوك الأقطار ، وعلمائها الآخيار ، وأوليائها الأبرار ، فأعلى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والتواظر ، من كل غريبة أفاد باحتلاتها ، وعجبية أطرف بانتها . وصدر الأمر العالمي لعبد مقامهم الكريم ، المنقطع إلى بايهم المترشّف بخدمة جنابهم . محمد ابن محمد بن جزي الكلبي ، أعاذه الله على خدمتهم ، وأوزعه شكر نعمتهم ، أن يضم أطراف ما أملأه الشيخ أبو عبد الله من ذلك مشتملاً في تصنيف يكون على فو شتملاً ، ولنيل مقاصده مكملاً ، متوكلاً تقيق الكلام وتهذيبه ، معتمداً إياضه وتقريره ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ، ويعظم الانتفاع بدرّها عند تجريده من الصدف . فامتثل ما أمر به مبادراً ، وشرع في منهله ليكون بمعرفة الله عن توفيق الغرض منه صادراً ، ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بالفاظ موفقة للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ، فلم أخل بأصله ولا فرعه ، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ، على أنه سلك في إسناد صحاحها أقوام المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك وقيدت المشكل من أسماء الموضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أفع في التصحيح والضبط ، وشرح ما أمكنني شرحه من الأسماء العجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويختلط في فك معها معهود القياس ، وإنما نرجو أن يقع ما قصدته من المقام العلي ، أいで الله بمحل القبول ، وأبلغ من الإغضاء عن تقصيره المأمول ، فعوايدهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن هفوات كفيلة ، والله تعالى يديم لهم عادة النصر والتمكين ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

بدء الرحلة والخروج من طنجة

قال الشيخ أبو عبد الله: كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعيناً، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضـل الصلاة والسلام. منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيـازم. فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور. وكان والدـاي بـقيـد الحياة فـتحملـت لـبعـدهـا وصـباـ، ولـقـيـت كـما لـقـيـاـ من الفـراقـ نصـباـ وسـنيـ يومـئـذـ اـثـنـانـ وـعـشـرـونـ سـنةـ. قال ابن جـزيـ: أـخـبـرـنـيـ أـبـوـ عـبـدـ اللهـ بمـديـنـةـ غـرـنـاطـةـ أـنـ مـوـلـدـهـ بـطـنـجـةـ فـيـ يـوـمـ الـاثـنـيـنـ السـابـعـ عـشـرـ مـنـ رـجـبـ الـفـرـدـ سـنةـ ثـلـاثـ وـسـبـعـاءـ.

وكان ارتخالي في أيام أمير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذي روـيـتـ أـخـبـارـ جـودـهـ موـصـولةـ الإـسـنـادـ بـالـإـسـنـادـ، وـشـهـرـتـ آـثـارـ كـرـمهـ شهرـةـ وـاضـحةـ الإـشـهـادـ، وـتـحـلتـ الـأـيـامـ بـحـلـيـ فـضـلـهـ، وـرـتـعـ الـأـنـامـ فـيـ ظـلـ رـفـقـهـ وـعـدـلـهـ، الإـمامـ المـقـدـسـ أـبـيـ سـعـيدـ اـبـنـ مـوـلـانـاـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ وـنـاـصـرـ الـدـيـنـ الـذـيـ فـلـ حدـ الشـرـكـ صـدـقـ عـزـائـمـهـ، وـأـطـفـأـتـ نـارـ الـكـفـرـ جـداـولـ صـارـمـهـ، وـفـتـكـتـ بـعـبـادـ الـصـلـيـبـ كـتـائـبـهـ، وـكـرـمـتـ فـيـ إـخـلـاصـ الـجـهـادـ مـذاـهـبـهـ، الإـمامـ المـقـدـسـ أـبـيـ يـوسـفـ اـبـنـ عـبـدـ الـحـقـ، جـددـ اللـهـ عـلـيـهـ رـضـوانـهـ، وـسـقـىـ ضـرـائـحـهـ الـمـقـدـسـةـ مـنـ صـوبـ الـحـيـاـ طـلـهـ وـتـهـتـانـهـ، وـجـزاـهـمـ أـفـضـلـ الـجـزـاءـ عـنـ الـإـسـلـامـ وـالـمـسـلـمـينـ، وـأـبـقـىـ الـمـلـكـ فـيـ

عقبهم إلى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمر أسن بن زيان . ووافقت بها رسولي ملك إفريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله ، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن إبراهيم النفزاوي ، والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي - بضم الزاي نسبة إلى قرية بساحل المهدية ، وهو أحد الفضلاء وكانت وفاته عام أربعين . وفي يوم وصولي إلى تلمسان ، خرج عنها الرسولان المذكوران ، فأشار علي بعض الاخوان بمرافقتها ، فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثة في قضاء ماري ، وخرجت أجد السير في آثارها ، فوصلت مدينة مليانة ، وأدركتها بها ، وذلك في إبان القيظ . فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرأً ، ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منها ، فأقمنا ببعض المياه على مسافة أميال من مليانة ثلاثة وقضى القاضي نحبه ضحى اليوم الرابع ، فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي إلى مليانة فقروه بها . وتركتهم هنالك ، وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، وال الحاج العدولى ، ومحمد بن الحجر ، فوصلنا مدينة الجزائر ، وأقمنا بخارجها أيامأً ، إلى أن قدم الشيخ أبو عبد الله ، وابن القاضي . فتوجها جميعاً على منبجة جبل الزان ، ثم وصلنا إلى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله الزواوي ، ونزل أبو الطيب ابن القاضي بدار الفقيه أبي عبد الله المفسر ، وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب ، وكان قد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره ، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب ، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ، ليوصلها إلى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور فانتزعها من يده ، وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم . ولما وصلنا إلى بجاية كما ذكرته ،

أصابتي الحمى ، فأشار علي أبو عبد الله الزبيدي بالإقامة فيها حتى يتمكن البرء مني ، فأبىت وقلت إن قضى الله عز وجل بالموت ف تكون وفاتي بالطريق وأنا قاصد أرض الحجاز . فقال لي أما إن عزمت فيع دابتكم وثقل المتع ، وأنا أغيرك دابة وخباء وتصحبتا خيفاً ، فإننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق ، فعلت هذا ، وأغارني ما وعد به ، جزاه الله خيراً وكان ذلك أول ما ظهر لي من الألطاف الإلهية في تلك الوجهة الحجازية . وسرنا إلى أن وصلنا مدينة قسنطينة ^(١) ، فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود فاضطررنا إلى الخروج عن الأخيبة ليلاً إلى دور هنالك . فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن ، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر ، فأمر بغسلها في داره . وكان الإحرام منها خلقاً ، فبعث مكانه إحراماً بعلبكيّاً وصرّ في أحد طرفيه دينارين من الذهب . فكان ذلك أول ما فتح به على وجهي . ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها ، وأقمنا بها أياماً ، ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار لأجل الخوف في الطريق ، وتجددنا للسير ، ووصلنا الجد ، وأصابتي الحمى ، فكنت أشد نفسي بعثامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكنني النزول من الخوف ، إلى أن وصلنا إلى مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبد الله النفزاوي ، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم علي أحد ، لعدم معرفتي بهم ، فوجدت من ذلك النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة واشتد بكائي ، فشعر بحال بعض الحاجات فأقبل علي بالسلام والإيناس ، وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبين . قال ابن جزي : أخبرني شيخي قاضي الجماعة أخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد ابراهيم السلمي هو ابن الحاج البلفيقي أنه جرى له مثل هذه الحكاية . قال قصدت مدينة بلش

(١) تعرف الآن باسم : قسنطينة ، بجذف الياء الأخيرة منها .

من بلاد الأندلس في ليلة عيد ، برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبد الله ابن الكهاد ، وحضرت المصلى مع الناس ، فلما فرغت الصلاة والخطبة ، أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام ، وأنا في ناحية لا يسلم علي أحد ، فقصد إليّ شيخ من أهل المدينة المذكورة ، وأقبل علي بالسلام والإيناس ، وقال : نظرت إليك ، فرأيتك منتداً عن الناس ، لا يسلم عليك أحد فعرفت أنك غريب فأحبيت إيناسك جزاهم الله خيراً

ذكر سلطان تونس

وكان سلطان تونس عند دخولي إليها السلطان أبي يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص رحمه الله . وكان بتونس جماعة من أعلام العلماء ، منهم قاضي الجماعة بها أبو عبد الله محمد ابن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الأنباري الخزرجي البلنسي الأصل ، ثم التونسي هو ابن الغماز ، ومنهم الخطيب أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع ، وولي أيضاً قضاء الجماعة في خمس دول ، ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قداح الهاوري ، وولي أيضاً قضاءها وكان من أعلام العلماء . ومن عوائده أنه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس في المسائل . فإذا أفتى في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك ، وأظلني بتونس عيد الفطر ، فحضرت المصلى ، وقد احتفل الناس لشهود عيدهم ، ويزروا في أجل هيئة وأكمل شارة . ووافي المسجد السلطان أبو يحيى المذكور راكباً وجميع أقاربه وخواصه ، وخدم مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب ، وصليت الصلاة ، وانتقضت الخطبة ، وانصرف الناس إلى منازلهم . وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه ويعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من

بلاد إفريقيـة ، وأكثـر المصـامـدة . فـقدـمـوني قـاضـياً بـيـنـهـم ، وـخـرـجـتـاـ منـتونـسـ فيـأـوـاـخـرـ شـهـرـ ذـيـ القـعـدـةـ سـالـكـينـ طـرـيقـ السـاحـلـ ، فـوـصـلـنـاـ إـلـىـ بلـدـةـ سـوـسـةـ ، وـهـيـ صـغـيرـةـ حـسـنـةـ مـبـنـيـةـ عـلـىـ شـاطـئـ الـبـحـرـ ، بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـدـيـنـةـ تـونـسـ أـرـبـعـونـ مـيـلـاـ ، ثـمـ وـصـلـنـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ صـفـاقـسـ وـبـخـارـجـ هـذـهـ الـبـلـدـةـ قـبـرـ الإـمـامـ أـبـيـ الـحـسـنـ الـلـخـميـ المـالـكـيـ مـؤـلـفـ كـتـابـ التـبـصـرـةـ فـيـ الـفـقـهـ . قـالـ أـبـنـ جـزـيـ فـيـ بـلـدـةـ صـفـاقـسـ : يـقـولـ

علي بن حبيب التنوخي:

وفي عكس ذلك يقول الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبي قيم و كان من المجددين المكثرين :

ولا سقى أرضها غيث إذا انسكبا
عاني بها العاديين الروم والعربا
وبات في البحر يشكو الأسر والعطبا
فكلا همَّ أن يدنو لها هربا

صفاقس لا صفا عيش لساكنها
ناهيك من بلدة من حل ساحتها
كم ضل في البر مسلوباً بضاعته
قد عاين البحر من لؤم لقاطنها

ثم وصلنا إلى مدينة قابس ونزلنا بداخلها، وأقمنا بها عشرة لتوالي نزول الأمطار ، قال ابن جزي في ذكر قابس : يقول بعضهم :

لهفي على طيب ليال خلت
جانب البطحاء من قابس
كان قلبي عند تذكارها
جذوة نار بيد القابس

ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس ، وصحبنا في بعض المراحل إليها نحو مائة فارس أو يزيد ، وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب ، وتحامت مكانتهم ، وعصمنا الله منهم ، وأظللنا عيد الأضحى في بعض تلك المراحل . وفي الرابع بعده وصلنا إلى مدينة طرابلس ، فأقمنا بها مدة وكانت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس ، فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ، ومعي Ahli ، وفي صحبتي جماعة من المصامدة ، وقد رفعت العلم ، وتقدمت عليهم ، وأقام الركب في طرابلس خوفاً من البرد والمطر ، وتجاوزنا مسلاة ومسراة وقصور سرت . وهنالك أرادت طوائف العرب الإيقاع بنا ثم صرفتهم القدرة ، وحالت دون ما راموه من أذيتنا ، ثم توسطنا الغابة ، وتجاوزناها إلى قصر برصيصا العابد ، إلى قبة سلام ، وأدركتنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ، ووقع بيني وبين صهري مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتاً لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية ، وأولت وليمة حبست لها الركب يوماً وأطعنتهم ، ثم وصلنا في أول جادى الأولى إلى مدينة الإسكندرية حرسها الله ، وهي الثغر المحروس ، والقطار المأнос العجيبة الشأن الأصيلة للبنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحسين ، وما ثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معاناتها ، وجمعت بين الصخامة والإحكام مبانيها ، فهي الفريدة في تحلي سناها ، والخريدة تحلي في حلاتها ، الزاهية بجمالتها المُغَرِّب ، والجامعة لمفترق المحاسن ، لتوسيتها بين المشرق والمغرب ، وكل بدعة بها اختلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهازها . وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوها في عجائبهها فأغربوا وحسب المشرف^(١) إلى ذلك ما سطره أبو عبيد في كتاب المسالك .

(١) في بعض طبعات الكتاب : وحسب المشوق إلى ذلك .

ذكر أبوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب : باب السدرة وإليه يشرع طريق المغرب ، وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر ، وليس يفتح إلا يوم الجمعة ، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور . ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا مثله إلا ما كان من مرسي كولم و قاليلقوط ببلاد الهند ، ومرسى الكفار بسرادق بلاد الأتراك ومرسى الزيتون ببلاد الصين ، وسيقى ذكرها .

ذكر المنار

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدماً . وصفته أنه بناء مربع ، ذاuber في الهواء ، وبابه مرتفع على الأرض وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ، وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها إلى بابه ، فإذا أزيلت لم يكن له سبيل . وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار . وداخل المنار بيوت كثيرة . وعرض الممر بداخله تسعه أشبار ، وعرض الحائط عشرة أشبار ، وعرض المنار من كل جهة من جهاته الأربع مائة وأربعون شبراً وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في بر مستطيل يحيط به البحر إلا من المدينة وفي يصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل إلى المنار في البر إلا من هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الإسكندرية . وقصدت المنار عند عودي إلى بلاد المغرب عام حسين وسبعين ، فوجده قد استوى عليه الخراب ، بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله يازانه ، فعاقة الموت من إقامته .

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها ، المسمى عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل . وقد امتاز عن شجراتها سمواً وارتفاعاً . وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد أقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه . قال ابن جزي : أخبرني بعض أشياخي الرحاليين أن أحد الرماة بالإسكندرية صعد إلى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكتانته واستقر هنالك وشاء خبره ، فاجتمع الجمع الغفير لمشاهدته ، وطال العجب منه ، وخفى على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفاً ، أو طالب حاجة ، فأذنخ له فعله الوصول إلى قصده لغراية ما أتى به . وكيفية احتياله في صعوده أنه رمى بنشاشة قد عقد بفوقها^(١) خيطاً طويلاً ، وعقد بطرف الخيط حبلًا وثيقاً ، فتجاوزت النشاشة أعلى العمود معتبرضة عليه ، ووُقعت من الجهة الموازية للرامي ، فصار الخيط معترضاً على أعلى العمود ، فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود مكان الخيط ، فأوثقه من إحدى الجهتين في الأرض ، وتعلق به صاعداً من الجهة الأخرى ، واستقر بأعلاه وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله ، فلم يهتد الناس لحيلته ، وعجبوا من شأنه . وكان أمير الإسكندرية في عهد وصولي إليها يسمى بصلاح الدين وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان أفريقيا المخلوع ، وهو زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني . وأمر الملك الناصر بإنزاله بدار السلطنة من إسكندرية ، وأجرى له مائة درهم في كل يوم . وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندرى وحاجبه أبو زكريا بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين . وبالإسكندرية توفي اللحياني المذكور ، وولده الإسكندرى وبقي المصري

(١) الفُوقُ: موضع الوتر من السهم أ. هـ. من القاموس المحيط.

بها. قال ابن جزي: من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندرى والمصري فمات الاسكندرى بها ، وعاش المصرى دهراً طويلاً بها وهي من بلاد مصر . وتحول عبد الواحد لبلاد الأندلس والمغرب وأفريقية ، وتوفي هنالك بجزيرة جربة .

ذكر بعض علماء الإسكندرية

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي ، إمام من أئمة علم اللسان . وكان يعم بعامة خرقـتـ المـعتـادـ للـعـائـمـ لمـ أـرـ فـيـ مـشـارـقـ الـأـرـضـ وـمـغـارـبـهـ عـامـةـ أـعـظـمـ مـنـهـ رـأـيـهـ يوماً قاعداً في صدر محراب ، وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب ومنهم فخر الدين بن الريغي وهو أيضاً من القضاة بالإسكندرية فاضل من أهل العلم .

حكاية

يذكر أن جد القاضي فخر الدين الريغي من أهل ريفيـةـ ، وـاشـتـغـلـ بـطـلـبـ الـعـلـمـ ، ثم رحل إلى الحجاز ، فوصل الإسكندرية بالعشـيـ . وهو قليل ذات الـيدـ ، فأـحـبـ أـنـ لـاـ يـدـخـلـهـ حـتـىـ يـسـمـعـ فـالـأـحـسـنـاـ فـقـعـدـ قـرـيبـاـ مـنـ بـاـهـاـ ، إـلـىـ أـنـ دـخـلـ جـيـبـ النـاسـ . وـجـاءـ وقتـ سـدـ الـبـابـ وـلـمـ يـقـيـقـ هـنـالـكـ سـوـاهـ فـاغـتـاظـ المـوـكـلـ بـالـبـابـ مـنـ إـبـطـائـهـ ، وـقـالـ مـتـهـكـمـاـ أـدـخـلـ يـاـ قـاضـيـ فـقـالـ: قـاضـ إـنـ شـاءـ اللهـ ، وـدـخـلـ إـلـىـ بـعـضـ الـمـدـارـسـ ، وـلـازـمـ الـقـرـاءـةـ وـسـلـكـ طـرـيقـ الـفـضـلـاءـ ، فـعـظـمـ صـيـتهـ ، وـشـهـرـ اـسـمـهـ ، وـعـرـفـ بـالـزـهـدـ وـالـورـعـ ، وـاتـصـلـتـ أـخـبـارـهـ بـمـلـكـ مـصـرـ . وـاتـفـقـ أـنـ تـوـفيـ قـاضـيـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ وـبـهـ إـذـ ذـاكـ الجـمـ الغـفـيرـ مـنـ الـفـقـهـاءـ وـالـعـلـمـاءـ ، وـكـلـهـمـ مـتـشـوـفـ لـلـوـلـاـيـةـ ، وـهـوـ مـنـ بـيـنـهـمـ ، لـاـ يـتـشـوـفـ لـذـلـكـ فـبـعـثـ إـلـيـهـ السـطـانـ بـالـتـقـلـيدـ ، وـهـوـ ظـهـيرـ الـقـضـاءـ ، وـأـتـاهـ الـبـرـيدـ بـذـلـكـ ، فـأـمـرـ خـدـيـهـ أـنـ يـنـادـيـ فـيـ النـاسـ مـنـ كـانـتـ لـهـ خـصـومـةـ فـلـيـحـضـرـ لـهـ وـقـعـدـ لـلـفـصـلـ بـيـنـ النـاسـ . فـاجـتـمـعـ الـفـقـهـاءـ وـسـوـاهـمـ إـلـىـ رـجـلـ

منهم كانوا يظنون أن القضاء لا يتعداه، وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره، ومخاطبته بأن الناس لا يرتضونه. وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم: لا تفعلوا ذلك فإني عدلت طالع ولايته، وحققه ظهر لي أنه يحكم أربعين سنة. فأضرموا عما هموا به من المراجعة في شأنه. وكان أمره على ما ظهر للمنجم. وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة. ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشهور بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنبسي فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه إذا سلم من صلاته. ومنهم الإمام العالم الزاهد الخاشع الورع خليفة صاحب المكافئات.

كرامة له

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله ﷺ في النوم. فقال يا خليفة: زرنا فرحاً إلى المدينة الشريفة، وأتى المسجد الكريم، فدخل من باب السلام، وحيث المسجد، وسلم على رسول الله ﷺ، وقعد مستندًا إلى بعض سورى المسجد، ووضع رأسه على ركبتيه، وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق. فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة، وآنية فيها لبن، وطبقاً فيه تمراً، فأكل هو وأصحابه وانصرف عائداً إلى الإسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج، من كبار الزهاد وأفراد العباد، لقيته أيام مقامي بالإسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثة.

ذكر كرامة له

دخلت عليه يوماً فقال لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فقلت له: نعم إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاسية من الهند

والصين. فقال لا بد لك إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند ، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند ، وأخي برهان الدين بالصين . فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام فعجبت من قوله وألقى في روعي التوجه إلى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه . ولما ودعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة . ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها مني كفار الهندو ، فيما سلبوه لي في البحر . ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي ، من أفراد الرجال . وهو تلميذ أبي العباس المرسي . وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية .

كرامة لأبي الحسن الشاذلي : أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن أبو الحسن كان يحج في كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انتضاء الحج ، ويزور القبر الشريف ، ويعود على الدرب الكبير إلى بلده . فلما كان في بعض السنين ، وهي آخر سنة خرج فيها ، قال لخديء : استصحب فأساً وقفه وحنوطاً ، وما يجهز به الميت . فقال له الخديم : ولم ذا يا سيدى ؟ فقال له : في حميثرا سوف ترى . وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب ، وبها عين ماء زعاق . وهي كثيرة الضباع . فلما بلغا حميثرا اغتنسل الشيخ أبو الحسن ، وصل ركعتين ، وقبضه الله عز وجل في آخر سجدة من صلاته ، ودفن هناك . وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبة متصلةً بالحسن بن علي رضي الله عنه .

ذكر حزب البحر المنسوب إليه : كان يسافر في كل عام كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة ، فكان إذا ركب السفينة يقرؤه في كل يوم ، وتلامذته إلى الآن يقرؤنه في كل يوم ، وهو هذا : يا الله يا علي يا عظيم يا حليم يا علیم ، أنت ربى وعليك حسي ، فنعم الرب ربى ، ونعم الحسب حسي ، تنصر من تشاء ،

وأنت العزيز الرحيم . نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات
 والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن
 مطالعة الغيوب فقد ابتهل المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، ليقول المنافقون
 والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، فثبتنا وانصرنا وسخر
 لنا هذا البحر ، كما سخرت البحر لموسى عليه السلام ، وسخرت النار لإبراهيم
 عليه السلام ، وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام ، وسخرت الريح
 والشياطين والجبن لسلیمان عليه السلام ، وسخر لنا كل بحر هو لك في الأرض
 والسماء ، والملك والملائكة ، وبحر الدنيا وبحر الآخرة ، وسخر لنا شيئاً يا من بيده
 ملوكوت كل شيء . كهيعص حم عسق ، انصرنا فإنك خير الناصرين ، وافتح لنا
 فإنك خير الفاتحين ، واغفر لنا فإنك خير الغافرين ، وارحنا فإنك خير الراحمين ،
 وارزقني فإنك خير الرازقين ، واهدنا ونجنا من القوم الظالمين ، وهب لنا رحمة
 طيبة كما هي في علمك ، انشرها علينا من خزائن رحمتك ، واحلنا بها حمل
 الكرامة مع السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، إنك على كل شيء قادر .
 اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا ، والسلامة والعافية في ديننا
 ودنيانا ، وكن لنا صاحباً في سفرينا ، و الخليفة في أهلنا ، واطمس على وجوه
 أعدائنا ، وامسخهم على مكانتهم ، فلا يستطيعون المضي ولا المجيء إلينا ، ﴿وَلَوْ
 نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصَّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ
 عَلَىٰ مَكَانِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾^(١) ﴿يَسَ﴾ إلى ﴿فَهُمْ لَا
 يُبْصِرُونَ﴾^(٢) شاهت الوجوه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيْوَمِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ
 ظُلْمًا﴾^(٣) طس طس حم عسق ﴿مَرَّاجُ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا
 يَبْغِيَانِ﴾^(٤) حم حم حم حم حم الأمر ، وجاء النصر فعلينا لا

(١) يس: ٦٦، ٦٧ .

(٢) الرحمن: ٢٠ .

(٣) يس: ١ - ٩ .

ينصرُون ﴿١﴾ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ
 شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾ بِاسْمِ اللَّهِ بَابِنَا ، تَبَارَكَ
 حِيطَانُنَا يَسِّ سقْفَنَا . كَمْ يَعْصُ كَفَائِنَا . حم عَسْقَ حَمَائِنَا : ﴿٣﴾ فَسَيَكُفِّرُهُمُ اللَّهُ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ سُرُّ الْعَرْشِ مَسْبُولُ عَلَيْنَا ، وَعَيْنُ اللَّهِ نَاظِرَةٌ إِلَيْنَا ، بَحْوَلِ
 اللَّهِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْنَا ﴿٥﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بِهِ قُرْآنٌ مُجِيدٌ فِي لَوْحٍ مُحْفَظٍ ﴿٦﴾
 ﴿٧﴾ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ إِنَّ وَلِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ
 يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ فَإِنَّ تَوَلَّوْا فَقْلٌ حَسْبِيَّ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ
 وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . وَصَلَى
 اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

حكاية

وما جرى بمدينة الإسكندرية سنة سبع وعشرين . وببلغنا خبر ذلك بمكة
 شرفها الله، أنه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة . وكان واي
 الإسكندرية رجلاً يعرف بالكركي . فذهب إلى حماية الروم، وأمر المسلمين
 فحضروا بين فصيلي باب المدينة . وأغلق دونهم الأبواب نكالاً لهم . فأنكر الناس
 ذلك وأعظموه، وكسروا الباب، وثاروا إلى منزل الوالي، فتحصن منهم،
 وقاتلهم من أعلىه، وطير الحمام بالخبر إلى الملك الناصر، فبعث أميراً يعرف
 بالجباري، ثم أتبعه أميراً يعرف بطوغان، جباراً قاسي القلب متهمًا في دينه . يقال:
 إنه كان يعبد الشمس . فدخل إسكندرية، وقضى على كبار أهلها وأعيان التجار
 بها، كأولاد الكوبك وسواهم . وأخذ منهم الأموال الطائلة وجعلت في عنق عباد

(٤) يوسف: ٦٤ .

(١) غافر: ١ - ٣ .

(٥) الأعراف: ١٩٦ .

(٢) البقرة: ١٣٧ .

(٦) التوبة: ١٢٦ .

(٣) البروج: ٢٢ - ٢٠ .

الدين القاضي جامعة حديد . ثم إن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلاً . وجعلوا كل رجل قطعتين ، وصلبواهم صفين وذلك في يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم . فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم . وكان في جلة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة . وكان له قاعة معدة للسلاح . فمتي كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الأسلحة . وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثرة من أهلها . فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به ، وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال . فأنكر الأميران قوله ، وقالا : إنما ت يريد الثورة على السلطان وقتلاه . وإنما كان قصده رحمة الله إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه وكنت سمعت أيام إقامتي بالإسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبي عبد الله المرشدي ، وهو من كبار الأولياء المكاففين وأنه منقطع عنيةبني مرشد له هنالك زاوية ، هو منفرد فيها ، لا خديم له ولا صاحب . ويقصده الأمراء والوزراء ، وتأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم ، فيطعمهم الطعام . وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاماً أو فاكهة أو حلوى ف يأتي لكل واحد بما نواه ، وربما كان ذلك في غير إبانه . ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة ، فيولي ويعزل ، وذلك كله أمر مستفيض متواتر . وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه . فخرجت من مدينة الإسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به ، ووصلت قرية تروجه (وضبطها بفتح التاء الفوقية وواو وجيم مفتوحة)^(١) ، وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الإسكندرية . وهي قرية كبيرة بها قاضٍ ووالٍ وناظر ، ولأهلها مكارم أخلاق ومروءة . صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلاً من

(١) صحة ضبط « تروجه أنها بفتح التاء ، وضم الراء ، وواو ساكنة ، بعدها جم مفتوحة وها » وهي إحدى قرى محافظة البحيرة ، وبها آثار رومانية .

أهلها يسمى ببارك ، وينعت بزین الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء
 كبير القدر يسمى عبد الوهاب . وأضافني ناظرها زین الدين بن الواقع وسألني
 عن بلدي وعن مجاه ، فأخبرته أن مجاه نحو اثني عشر ألفاً من دينار الذهب .
 فعجب وقال لي :رأيت هذه القرية فإن مجاهها اثنان وسبعين ألف دينار ذهباً .
 وإنما عظمت مجاهي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال . ثم خرجت من هذه
 القرية ، فوصلت مدينة دمنهور ، وهي مدينة كبيرة ، مجاهاتها كثيرة ، ومحاسنها
 أثيرة ، أم مدن البحيرة بأسرها ، وقطبها الذي عليه مدار أمرها ، (وضبطها بdal
 مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في
 ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية ، وتولى قضاء الإسكندرية
 لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها^(١) . وأخبرني الثقة أن
 ابن مسكين أعطى خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف
 دينار على ولية القضاء بالإسكندرية . ثم رحلنا إلى مدينة فوا . وهذه المدينة
 عجيبة المنظر ، حسنة المخبر ، بها البساتين الكثيرة ، والفوائد الخطيرة الأثيرة ،
 (وضبطها بالفاء والواو المفتوحين مع تشديد الواو)^(٢) . بها قبر الشيخ الولي أبي
 النجا الشهير الاسم ، خبير تلك البلاد ، وزاوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي
 قصده بمقربة من المدينة . يفصل بينها خليج هنالك . فلما وصلت ، تعديتها ،
 ووصلت إلى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر ، وسلمت عليه ، ووجدت
 عنده الأمير سلف الدين يلملك ، وهو من الخاخصية . وأول اسمه ياء وآخر
 الحروف كاف ، ولاته الأولى مسكنة ، والثانية مفتوحة ، مثل الميم ، والعامة تقول فيه

(١) لم يسبق لابن بطوطة أن قص علينا الواقعة التي كانت سبباً في عزل قاضي الإسكندرية عماد الدين بن مسكين ، وذلك سهو من ابن جزي ، وجل من لا يهو .

(٢) وتعرف الآن بفُؤَّة (بضم الفاء وواو مفتوحة مشددة ، وتأه مربوطة) وهي من مدن محافظة كفر الشيخ .

الملك فيخطئون . ونزل هذا الأمير بعسكره خارج الزاوية وما دخلت على الشيخ رحمه الله قام إلي وعائقني ، وأحضر طعاماً فواكلي . وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمي للصلوة إماماً ، وكذلك لكل ما حضرني عنده حين إقامتي معه من الصلاة . ولما أردت النوم قال لي : إصعد إلى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك أوان القبط فقلت للأمير : بسم الله . فقال لي : وما منا إلا له مقام معلوم . فصعدت السطح ، فوجدت به حسيراً ونطعاً^(١) وأنية لل موضوع ، وجرة ماء وقد حاد للشرب فنم هنالك .

كرامة هذا الشيخ :رأيت ليلي تلك ، وأنا نائم بسطح الزاوية ، كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة . يتيمان ثم يشرق ، ثم يذهب في ناحية الجنوب ، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق ، وينزل في أرض مظلمة خضراء ، ويتركني بها . فعجبت من هذه الرؤيا ، وقلت في نفسي : إن كاشفني الشيخ برؤياني فهو كما يحكى عنه . فلما غدوت لصلاة الصبح قدمي إماماً لها . ثم أتاه الأمير يلملك فوادعه وانصرف . ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعكات صغاراً . ثم سبحت سبحة الصبح . ودعاني وكاشفني برؤياني ، فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي ﷺ ، وتجول في بلاد اليمن وال伊拉克 وببلاد الترك ، وتبقى بها مدة طويلة ، وستلقى بها دلشاد الهندي ، ويخلصك من شدة تقع فيها . ثم زودني كعكات ودراماً ووادعه وانصرفت . ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري إلا خيراً ، وظهرت علي بركاته . ثم لم ألق فيمن لقيته مثله إلا الولي سيدي محمدآ الموله بأرض الهند . ثم رحلنا إلى مدينة الحرارية ، وهي رحبة الفناء ، حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرؤية ، (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين) ، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي ،

(١) النطع : بفتح النون ، وسكون الطاء ، وفتحها : بساط من الجلد .

وولده في خدمة ملك الهند ، وسنذكره . وقضيتها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر إلى العراق ، وولي قضاء البلاد الغربية ، وله هيئة جليلة وصورة حسنة . وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين . ورحلت منها إلى مدينة أبيار ، وهي قديمة البناء ، أرجة الأرجاء كثيرة المساجد ، ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح المهمزة وإسكان الباء الموحدة وباء آخر الحروف والف وراء) ، وهي بقرية من النحرارية . ويفصل بينها النيل وتصنع بأبيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قرب النحرارية منها . والثياب التي تصنع بها غير معترضة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بأبيار قضيتها عز الدين المليجي الشافعي ، وهو كريم الشسائل كبير القدر . حضرت عنده مرة يوم الركبة ، وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان . وعادتهم فيه أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ، ويقف على الباب نقيب المتعمدين ، وهو ذو شارة وهيئة حسنة . فإذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه ، تلقاء ذلك النقيب ، ومشى بين يديه قائلاً : بسم الله ، سيدنا فلان الدين^(١) فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به . فإذا تكاملوا . هنالك ، ركب القاضي وركب من معه أجعون ، وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة ، وهو مرتفع الهلال عندهم ، وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش ، فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتبون الهلال ، ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس . ويؤكد أهل الحوانيت بحواناتهم الشمع ، ويصل الناس مع القاضي إلى داره ، ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة . ثم توجهت إلى مدينة المحلة الكبيرة وهي

(١) هذه العبارة غير واضح معناها ، ويبدو أن المراد منها : سيدنا فلان ، ويضيف إليه النقيب لقباً مضافاً إلى الدين مثل : عز الدين ، وفخر الدين ، وهكذا ، والله أعلم .

جليلة المقدار ، حسنة الآثار ، كثير أهلها ، جامع بالمحاسن شملها ، واسمها **بيّن** .
 ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالى الولاية وكان قاضي قضاتها أيام وصولي إليها في
 فراش المرض بيستان له على مسافة فرسخين من البلد ، وهو عز الدين بن
 الأشمر بن فقصدت زيارته صحبة نائب الفقيه أبي القاسم ابن بنون المالكي
 التونسي ، وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف . وأقمنا عنده يوماً ، وسمعت
 منه ، وقد جرى ذكر الصالحين أن على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس
 ونسترو ، وهي بلاد الصالحين ، وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاففات .
 فقصدت تلك البلاد ، ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل
 والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبورى ومدينتهم تسمى ملطين^(١) ، وهي
 على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماه البحر المعروفة ببحيرة تنيس^(٢) .
 ونسترو بمقربة منها . نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوى من
 الصالحين ، وكانت تنيس بلداً عظيماً شهيراً ، وهي الآن خراب . قال ابن جزي
 (تنيس بكسر التاء المثلثة والنون المشددة وياء وسين مهملاً) ، وإليه ينسب الشاعر
 المجيد أبو الفتح ابن وكيع ، وهو القائل في خليجها :

قم فاسقني والخليج مضطرب والريح تني ذواشب القصب
 كأنها والرياح تعطفها صب قنا سندسية العذب
 والجو في حالة مُمسَكة قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) ، والبرلس
 بباء موحدة وراء آخره سين مهملاً ، وقيده بعضهم بضم حروفه الأول الثلاث
 وتشديد اللام^(٣) . وقيده أبو بكر بن نقطة بفتح الأولين - وهو على البحر ومن

(١) وتعرف هذه المدينة الآن باسم : بلطم .

(٢) تعرف بحيرة تنيس الآن باسم : بحيرة البرلس .

(٣) وهكذا ينطقها الناس اليوم .

غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه أن قاضي البرلس ، وكان
رجالاً صالحاً ، خرج ليلة إلى النيل . فبينما اسْبَغَ الوضوء ، وصلَ ما شاء الله أن
يصلِّي ، إذ سمع قائلاً يقول :

لولا رجال لهم سرد يصومونا وأخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحراً لأنكم قوم سوء لا تبالونا

قال : فتجوزت في صلاتي ، وأدرت طرفي ، فما رأيت أحداً ، ولا سمعت
حسناً ، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى . ثم سافرت في أرض رملة إلى
مدينة دمياط . وهي مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الشوار ، عجيبة الترتيب ، آخذة
من كل حسن بنصيب . والناس يضبطون اسمها بإعجمام الذال . وكذلك
ضبه الإمام أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي . وكان شرف الدين الإمام
العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام المحدثين يضبطها ياهمال
الذال ، ويتبع ذلك بأن يقول خلاف الرشاطي وغيره . وهو أعرف بضبط اسم
بلده . ومدينة دمياط على شاطئ النيل ، وأهل الدور الموالية يستقون منه الماء
بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل . وشجر الموز بها كثير ،
يحمل ثمره إلى مصر في المراكب . وغمها سائمة هملاً بالليل والنهار . ولهذا يقال
في دمياط : سورها حلوى ، وكلابها غنم . وإذا دخلها أحد ، لم يكن له سبيل إلى
الخروج عنها إلا بطريق الوالي فمن كان من الناس معتبراً ، طبع له في قطعة
كاغد ، يستظهر به لحراسها . وغيرهم يطبع على ذراعه ، فيستظهر به . والطير
البحري بهذه المدينة كثير ، متناهي السمن . وبها الألبان الجاموسية التي لا مثل لها
في عذوبة الطعم وطيب المذاق . وبها الحوت البوري يحمل منها إلى الشام وببلاد
الروم ومصر . وبخار جها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ . بها مسجد
وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه

جامعة من القراء الفضلاء المتعبدين الأخيار. قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكراً. ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها الإفرنج على عهد الملك الصالح. وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي، قدوة الطائفة المعروفة بالقلندرية^(١)، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجزهم. ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التكروري.

حكاية

يذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الساوي إلى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جيل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة، وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها، وهو يمتنع ويتهاون، فلما أعيتها أمره دست له عجوزاً تصدت له إزاء دار على طريقه إلى المسجد، وبيدها كتاب مختوم. فلما مر بها قالت له: يا سيدي أتحسن القراءة؟ قال: نعم. قالت: له الكتاب وجهه إلى ولدي، وأحب أن تقرأه علي. فقال لها، نعم. فلما فتح الكتاب، قالت له: يا سيدي إن لولدي زوجة، وهي بأسطوان الدار، فلو تفضلت بقراءته بين بابي الدار بحيث تسمعها. فأجابها لذلك. فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب، وأخرجت المرأة حواريتها فتعلقنا به، وأدخلته إلى داخل الدار. وراودته المرأة عن نفسه، فلما رأى أن لا خلاص له، قال لها: إني حيث تريدين. فأرiny بيت الخلاء. فأرته إياه. فأدخل معه الماء. وكانت عنده موسى جديدة، فحلق لحيته وحاجبيه، وخرج عليها، فاستقبحت هيئته، واستنكرت فعله، وأمرت بإخراجه وعصمه الله بذلك، فبقى على هيئته فيما بعد، وصار كل من يسلك طريقته أن يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه.

(١) القلندرية: طريقة صوفية أسسها قلندر يوسف ببلاد الأندرس، وجاء بها إلى دمياط الشيخ جمال الدين الساوي.

كرامة هذا الشيخ: يذكر أنه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها . وكان بها قاض يعرف بابن العميد . فخرج يوماً إلى جنازة بعض الأعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة . فقال له: أنت الشيخ المبتدع . فقال له: وأنت القاضي الجاهل ، تمر بدارتك بين القبور ، وتعلم أن حرمة الإنسان ميتاً كحرمه حياً . فقال له القاضي: وأعظم من ذلك حلرك للحيثك . فقال له: إياتي تعني . وزعق الشيخ ، ثم رفع رأسه ، فإذا هو ذو لحية سوداء ، عظيمة . فعجب القاضي ومن معه ، ونزل إليه عن بغلته . ثم زعق ثانية فإذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ، ثم زعق ثالثاً ورفع رأسه . فإذا هو بلا لحية كهيته الأولى فقبل القاضي يده ، وتتلذذ له ، وبني له الزاوية الحسنة^(١) ، وصحبه أيام حياته حتى مات الشيخ . فدفن بزاوته . ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية ، حتى يكون كل داخل إلى زيارة الشيخ يطأ قبره . وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا ، (فتح الشين المعجمة والطاء المهملة) ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية . وله أيام في السنة معلومة لذلك . وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان . قصدت زاويته وبت عنده . وكان بدمياط أيام إقامتي بها والـ يعرف بالمحسني من ذوي الإحسان والفضل . بني مدرسة على شاطئ النيل بها . كان نزولي في تلك الأيام . وتأكدت بيني وبينه موعدة . ثم سافرت إلى مدينة فارسكور ، وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذي في اسمها مضموم) . ونزلت بخارجها . ولحقني هناك فارس وجده إلى الأمير المحسني ، فقال لي: إن الأمير سأل عنك ، وعرف بسيرتك ، فبعث إليك بهذه النفقة . ودفع إلى جملة دراهم ، جزاه الله خيراً . ثم سافرت إلى مدينة أشمون الرمان ، (وضبط اسمها بفتح الممزة وإسكان الشين المعجم) . ونسبت إلى الرمان لكثرته بها . ومنها يحمل إلى مصر . وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خلنج

(١) في بعض طبعات الكتاب: زاوية حسنة بدون تعریف بالألف واللام.

النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فإذا كان العصر رفعت تلك الخشب، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة. وبهذا البلد قاضي القضاة وواли الولاية. ثم سافرت عنها إلى مدينة سمنود، وهي على شاطئ النيل، كثيرة المراكب حسنة الأسواق وبينها وبين المحلات الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهملة والميم وتشديد التون وضمها وواو وdal مهملاً). ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر، ما بين مداين وقرى منتظمة، المتصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد. لأنه منها أراد النزول بالشاطئ، نزل للوضوء والصلاوة وشراء الزاد وغير ذلك. والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد. ثم وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد، وقراررة فرعون^(١) ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضاراة، وجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تمواج موج البحر بسكنها، وتکاد تضيق بهم على سعة مكانتها وإمكانها. شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوکها من نواصي العرب والجم. ولها خصوصية النيل الذي أجل خطراها، وأغناها عن أن يستمد قطرها،

(١) مدينة مصر في زمن ابن بطوطة هي مدينة القاهرة، وتتكون من أربع مدن أنشئت في العصر الإسلامي هي الفسطاط التي أنشأها عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر، والعسكر، وأنشأها صالح بن علي من بني العباس، والقطائع التي أنشأها أحد بن طولون، والقاهرة التي أنشأها جوهر الصقلي قائداً المعز لدين الله الفاطمي، وعلى هذا فلم يسكنها فرعون من فراعنة مصر الأقدامين، ويظهر أنه أراد بفرعون: حاكم مصر. وكلمة فرعون كانت تطلق على كل حكام مصر، ومعناها في اللغة المصرية القديمة: ملك.

جزي : وفيها يقول الشاعر :
وأرضها مسيرة شهر لمجد السير . كريمة التربة ، مؤنسة لذوي الغربة . قال ابن

لَعْمَرُكَ مَا مَصِّرْ بَصَرٌ وَإِنَّا
هِيَ الْجَنَّةُ الدُّنْيَا لَمْ يَتَبَصَّرُ
فَأَوْلَادُهَا الْوَلْدَانُ وَالْحُورُ عَنْهَا
وَرَوْضَتْهَا الْفَرْدَوْسُ وَالنَّيلُ كَوْثَرٌ

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض:

ما مثلها من بلد	ساطى مصر جنة
بنيله المطّرد	لا سيما مذ زُخرفتْ
سوابغ من زَرَد	وللرياح فوقه
داوده ببرد	مسرودة ما مسّهَا
يرعد عاري الجسد	سائلة هواهها
ن حادر ومُصْعَد	والفالك كالأفلاك يَـ

ويقال: إن بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعاية، تمر صاعدة إلى الصعيد، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة. وأهل مصر ذوق طرب وسرور وهو. شاهدت بها مرة فرحة بسبب براء الملك الناصر من كسر أصابعه. فزین كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بجوانبهم الحلل والخليل وثياب الحرير ويقووا على ذلك أياماً.

ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر ، تقام فيه الجمعة . والطريق يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي . وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها : وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصل عن حماسته . وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصى . يذكر أن جباء ألف دينار كل يوم : وأما الزوايا فكثيرة . وهم يسمونها الخوانق . واحدتها خانقة^(١) . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وأكثرهم الأعاجم . وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف . ولكل زاوية شيخ وحارس . وترتيب أمورهم عجيب . ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً ، فيعين له كل واحد ما يشتته من الطعام . فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد . وطعامهم مرتان في اليوم . ولهن كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين . ولهن الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل أنفاسهم ، والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستباح . وهم أعزاب . وللمتزوجين زوايا على حدة . ومن المشرط عليهم حضور الصلوات الخمس ، والمبيت بالزاوية ، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية . ومن عوائدهم أن يجعلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به . وإذا صلوا صلاة الصبحقرأوا سورة الفتح ، وسورة الملك ، وسورة عم ، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة ، فيأخذ كل فقير جزءاً ، ويختتمون القرآن ، ويدركون ، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق . ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر . ومن

(١) صحة هذا المفرد : خانقة ، وهو كلمة تركية الأصل .

عوايدهم مع القادم أنه يأتي بباب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه العكاز، وبيسراه الإبريق. فيعلم الباب خدم الزاوية بمكانه فيخرج إليه، ويسأله من أي البلاد أتي، وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية، وفرش له سجادته في موضع يلقي به، وأراه موضع الطهارة، فيجددوضوءه، ويأتي إلى سجادته، فيحل وسطه، ويصلّي ركعتين، ويصافح الشیخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك. ويخرون مجتمعين، ومعهم شیخهم فیأتون المسجد، ويصلّي كل واحد على سجادته. فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم. ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شیخهم.

ذكر قرافة مصر ومزاراتها

ولنصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها. وقد جاء في فضلها أثر أخرجه القرطبي وغيره، لأنها من جملة الجبل المقطم الذي وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة. وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة، و يجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت، ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان. ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة، ويخرون كل ليلة جمعة إلى البيت بأولادهم ونسائهم، ويطوفون على الأسواق بصنوف المأكل. ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليها السلام، وعليه رباط ضخم عجيب البناء، على أبوابه حلقة الفضة وصفائحها أيضاً. كذلك، وهو موافق الحق من الإجلال والتعظيم. ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام. وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة. وهذه التربة أنيقة البناء، مشرقة الضياء،

عليها رباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه ، وعليها رباط كبير . ولها جرأة ضخمة . وبها القبة الشهيرة البدعة الاتقان ، العجيبة البنيان ، المتناهية الإحكام ، المفرطة السمو ، وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعاً . وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين ما لا يضبوه الحصر . وبها عدد جم من الصحابة ، وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم ، مثل عبد الرحمن بن القاسم ، وأشيب بن عبد العزيز ، وأصيغ بن الفرج ، وابني عبد الحكم ، وأبي القاسم بن شعبان ، وأبي محمد عبد الوهاب . لكن ليس لهم بها اشتهر ، ولا يعرفهم إلا من بهم عناية . والشافعي رضي الله عنه ساعد الجد في نفسه وأتباعه وأصحابه في حياته وماته ، فظهر من أمره مصدق قوله :

الجد يدفي كل أمر شائع والجد يفتح كل باب مغلق

ذكر نيل مصر

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة . والمدن والقرى بصفتيه منتظمة ، ليس في المعمور مثلها . ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل . وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره . قال الله تعالى : ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾^(١) فسماه يمّا وهو البحر . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى ، فإذا في أصلها أربعة أنهار : نهران ظاهران ، ونهران باطنان . فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال : أما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات . وفي الحديث أيضاً النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة . وجري النيل من الجنوب إلى

(١) القصص : ٧

الشمال خلافاً لجميع الأنهر. ومن عجائبها أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الأنهر وجفوفها، وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها. ونهر السندي مثله في ذلك، وسيأتي ذكره. وأول ابتداء زиادته في حزيران وهو يونيه، فإذا بلغت زиادته ستة عشر ذراعاً تم خراج السلطان. فإن زاد ذراعاً كان الخصب في العام والصلاح التام، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع، وأعقب الوباء. وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان، وإن نقص ذراعين استسقى الناس، وكان الضرر الشديد. والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار، وهي النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون. وتماثلها أنهار خمسة أيضاً: نهر السندي ويسمى بنج اب ونهر الهند ويسمى الكنك، وإليه تحج الهند. وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه. ويقولون هو من الجنة. ونهر الجون بالهند أيضاً، ونهر اتل بصحراء قفجق، وعلى ساحله مدينة السرا، ونهر السرو بأرض الخطأ، وعلى صفتة مدينة خان بالق، ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا ثم إلى مدينة الزيتون بأرض الصين، وسيذكر ذلك كله في مواضعه إن شاء الله. والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاء وصيفاً. وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فإذا مد أذرعها ففاقت على المزارع.

ذكر الأهرام والبرابي

وهي من العجائب المذكورة على مر الدهور. وللناس فيها كلام كثير، وخوض في شأنها، وأولية بنائها. ويزعمون أن العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت من هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ويسمى اخنون وهو ادريس عليه السلام. وأنه أول من تكلم في الحركات الفلكية، والجواهر العلوية، وأول من بنى المياكل، ومجد الله تعالى فيها، وأنه انذر الناس بالطوفان، وخفاف

ذهاب العلم و دروس الصنائع فبني الأهرام والبرايي و صور فيها جميع الصنائع والآلات ، و رسم العلوم فيها لتبقى مخلدة . ويقال : إن دار العلم والملك بمصر مدينة منف^(١) ، وهي على بريد من الفسطاط . فلما بنيت الإسكندرية انتقل الناس إليها ، و صارت دار العلم والملك . إلى أن أتى الإسلام فاختطَ عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة الفسطاط ، فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد . والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السمو مستدير متسع الأسفل ، ضيق الأعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها . وما يذكر في شأنها أن ملكاً من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته ، وأوجبت عنده أنه بني تلك الأهرام بالجانب الغربي من النيل ، لتكون مستودعاً للعلوم ، ولجئث الملوك ، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع ، فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالي ، وعينوا له الموضع الذي تفتح منه ، وبلغ الإنفاق في فتحه . فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه أنه ينفق في فتحه ، واشتد في البناء ، فأنه في ستين سنة . كتب عليها بنيها هذه الأهرام في ستين سنة فليهمها من يريد ذلك في ستمائة سنة ، فإن الهدم أيسر من البناء . فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المؤمن أراد هدمها ، فأشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلتج في ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ، ثم يرشونها بالخل ، ويرمونها بالمنجنيق ، حتى فتحت الثلمة التي بها إلى اليوم ، ووجدوا بإيازء النقب مالاً أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب ، فوجدهما سواه . فطال عجبه من ذلك و وجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

(١) كانت منف مدينة العلم والملك بمصر في عهد الدولة القديمة ، ثم خلفتها في هذه المكانة مدن أخرى مثل طيبة (الأقصر حالياً) ، وبعد هذه المدن بنيت الإسكندرية .

ذكر سلطان مصر

وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبا الفتح محمد بن المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي . وكان قلاوون يعرف بالألفي لأن الملك الصالح اشتراه بـألف دينار ذهباً وأصله من قفقق . وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة . وكفاه شرفاً انتهاؤه لخدمة الحرمين الشريفين ، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي . وبنى زاوية عظيمة بسرياقص^(١) خارج القاهرة . لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين ، خليفة الله في أرضه القائم من الجihad بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره ، وأظهره ، وسنّ له الفتح المبين ويسره ، بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور ، في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص ، بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله . وسيأتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه .

ذكر بعض أمراء مصر

منهم ساقي الملك الناصر ، وهو الأمير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتأء معلوة مضمومة وآخره راء) ، وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم ، وسيذكر ذلك ، ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدودار ، وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة ، (وضبط اسمه بفتح المعزة وإسكان الراء وضم الغين المعجمة) ، ومنهم طشط المعروف بمحص أخضر ، (واسمه بطاءين مهملين

(١) تعرف حالياً بسرياقوس .

مضمومين وبينها شين معجم). وكان من خيار الأمراء. وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة من يعلمهم القرآن. وله الإحسان العظيم للحرافيش، وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة^(١). وسجنه الملك الناصر مرة، فاجتمع من الحرافيش آلاف، ووقفوا بأسفل القلعة، ونادوا بلسان واحد يا أخرج النحس، يعنينون الملك الناصر، أخرجه فأخرجه من محبسه، وسجنه مرة أخرى. ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه. ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي بفتح الجم. ومنهم بدر الدين بن البابه. ومنهم جمال الدين نائب الكرك. ومنهم تُقْرَدُّمُور (واسمها بضم التاء المثلثة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وأخره راء)، ودمور بالتركية الحديد. ومنهم بهادر الحجازي (واسمها بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهملة وأخره راء). ومنهم قوصون^(٢) (واسمها بفتح القاف وصاد مهمل مضموم). ومنهم بشتك (واسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الشين المعجم وتاء معلوقة مفتوحة). وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا. ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبته فخر الدين القبطي، وكان نصراً من القبط، فأسلم وحسن إسلامه، وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل. ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلسه له بأسطوان داره على النيل ويليه المسجد، فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوثق بالطعام. ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائناً من كان. فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكاً له يدعى بدر الدين، واسمها لؤلؤ، يصبحه إلى خارج الدار، وهنالك خازنه معه صرر الدراما

(١) الدعارة: الفجور وسوء الخلق والخبث والفسق والفساد، وإنما وصف الحرافيش بها لشدة جرأتهم وجرأتهم وتجاوزهم الحد في التعامل مع الحاكفين وغيرهم.

(٢) يجري اسمه على ألسنة الناس: قيسون بالياء بدلاً عن الواو.

فيعطيه ما قدر له . ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فإذا صل العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه.

ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي إليها

فمنهم قاضي القضاة الشافعية ، وهو أعلاهم منزلة وأكبرهم قدرأ ، وإليه ولالية القضاة بمصر وعزهم ، وهو القاضي الإمام العالم بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين هو الآن متولي ذلك . ومنهم قاضي القضاة المالكية الإمام الصالح تقي الدين الإخنائي . ومنهم قاضي القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري ، وكان شديد السلطة لا تأخذه في الله لومة لائم . وكانت الأمراء تخافه . ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوماً لجلسائه . إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري . ومنهم قاضي القضاة الحنبلية . ولا أعرفه الآن إلا أنه كان يدعى بعز الدين .

حكاية

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المشكين كل يوم اثنين وخيس . ويقعد القضاة الأربعه عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ، ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين^(١) أيده الله في ذلك مسلكاً لم يسبق إليه ، ولا مزيد في العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم ، وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله أن يحضرها سواه ، أدام الله أيامه . وكان رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلاهم منزلة في الجلوس : قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية ثم قاضي الحنبلية . فلما

(١) يقصد به أبا عنان فارس ، وهكذا يفعل ابن بطوطه وابن جزي في كل مناسبة يقارنان فيها بيته وبين غيره من الملوك والأمراء ، تزلقاً إليه .

توفي شمس الدين الحريري ، وولي مكانه برهان الدين عبد الحق الحنفي أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه وذكروا أن العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد ، فأمر الناصر بذلك . فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك ، فأنكر الملك الناصر مغيبه ، وعلم ما قصده ، فأمر بإحضاره . فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده ، وأقعده حيث نفذ أمر السلطان ، مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك .

ذكر بعض علماء مصر وأعيانها

فمنهم شمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في المعقولات ، ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي ، ومنهم برهان الدين ابن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ، ومنهم ركن الدين بن القويع التونسي من الأئمة في المعقولات ، ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ، ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير ، ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي ، وهو أعلمهم بال نحو ، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ، ومنهم برهان الدين الصفاقي ، ومنهم قوام الدين الكرماني ، وكان سكتاه على سطح الجامع الأزهر ، وله جماعة من الفقهاء والقراء ، يلازمونه ويدرسون فنون العلم ، ويفتي في المذاهب ، ولباسه عباءة صوف خشنة ، وعمامة صوف سوداء ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى موضع الفرج والنزهات ، منفرداً عن أصحابه ، ومنهم السيد الشريف شمس الدين ابن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهمشيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الأقصرائي ، نسبة إلى أقصرا ، من بلاد الروم ، ومسكنه سرياقص ، ومنهم الشيخ جمال الدين الحوизائي . والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ، ومنهم نقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف

المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقبة الإمام الشافعي مجد الدين بن حرمي، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهري من كبار الفقهاء، وله بمصر رياضة عظيمة وجاه.

ذكر يوم المحمل

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الأربع، ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم، ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة، ويقصدون جميعاً باب القلعة، دار الملك الناصر، فيخرج إليهم المحمل على جمل، وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة، ومعه عسكته والسؤاولون على جماهم، ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء، ثم يطوفون بالحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينة القاهرة ومصر، والحداة يحدون أمامهم، ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات، وتبعث الأشواق، وتحرك البواعث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهب لذلك والاستعداد. ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف. فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين، وهو رباط عظيم بناء على مفاخر عظيمة، وأثار كرية، أودعها فيه وهي قطعة من قصة رسول الله ﷺ، والميل الذي كان يكتحل به، والدرفش وهو الأشفا الذي كان يخصف به نعله، ومصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي يخط يده رضي الله عنه. ويقال: إن الصاحب اشتري ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم، وبنى الرباط، وجعل فيه الطعام للوارد والصادر، والجرایة لخدمة تلك الآثار الشريفة، نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكور، ومررت بمنية القائد، وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل. ثم سرت منها إلى مدينة بوش

(وضبطها بضم الباء الموحدة واحدة شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كثاناً، ومنها يجلب إلى سائر الدنيا المصرية، وإلى إفريقيا. ثم سافرت منها، فوصلت إلى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهملة)، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضاً، كمثل التي ذكرناها قبلها. ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقيا. ثم سافرت منها إلى مدينة ببا (وضبط اسمها بباءين موحدتين أولاهما مكسورة). ثم سافرت منها إلى مدينة البهنسا، وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، (وضبط اسمها بفتح الموحدة وإسكان الهاء وفتح التون والسين). وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة. ومن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين، وهو كريم النفس فاضل. ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي، ونزلت عنده وأضافي. ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب^(١). وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطئ النيل. وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل. بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر الخصيب.

حكاية خصيب

يدرك أن أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر. فآل أن يولي عليهم أحقر عبيده، وأصغرهم شأناً، قصداً لإرذالم والتنكيل بهم. وكان خصيب أحقرهم إذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه، وأمره على مصر، وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء، ويقصدهم بالإذابة، حسبما هو المعهود من ولی عن غير عهد بالعز. فلما استقر خصيب بمصر، سار في أهلها أحسن سيرة، وشهر بالكرم والإيثار. فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه، فيجزل العطاء

(١) تعرف الآن بمدينة المنيا، وهي عاصمة محافظة المنيا في صعيد مصر.

لهم، ويعودون إلى بغداد شاكرين لما أولاهم. وأن الخليفة افتقد بعض العباسين
وغاب عنه مدة ثم أتاه، فسأله عن مغيبه، فأخبره أنه قصد خصيماً. وذكر له ما
أعطاه خصيماً. وكان عطاء جزيلاً. فقضى الخليفة، وأمر بسميل عيني خصيماً،
وإخراجه من مصر إلى بغداد، وأن يطرح في أسواقها. فلما ورد الأمر بالقبض
عليه حيل بينه وبين دخوله منزله وكانت بيده ياقوته عظيمة الشأن فأخبأها
عنه، وخطتها في ثوب له ليلاً وسملت عيناه، وطرح في أسواق بغداد. فمر به
بعض الشعراً فقال له يا خصيماً: «إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر
مادحًا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها، وأحب أن تسمعها». فقال: كيف
بساعها وأنا على ما تراه؟ فقال: إنما قصدي سماحك لها. وأما العطاء فقد أعطيت
الناس وأجزلت جراك الله خيراً قال فافعل فأنسد :

أنت الخصيماً وهذه مصر فتدفقاً فكلاكمَا بحر

فلما أتى على آخرها قال له: افتق هذه الخياطة، ففعل ذلك. فقال له: خذ
الياقوته. فأبى، فأقسم عليه أن يأخذها. فأخذها وذهب بها إلى سوق
الجوهريين. فلما عرضها عليهم قالوا له إن هذه لا تصلح إلا للخليفة. فرفعوا
أمرها إلى الخليفة، فأمر الخليفة بإحضار الشاعر واستفهمه عن شأن الياقوته،
فأخبره بخبرها. فتأسف على ما فعله بخصيماً وأمر بثوله بين يديه، وأجزل له
العطاء، وحَكَّمه فيما يريد. فرغب أن يعطيه هذه المنية، ففعل ذلك، وسكنها خصيماً
إلى أن توفي وأورثها عقبه إلى أن انقرضوا. وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي
إليها فخر الدين التوييري المالكي، وواليها شمس الدين أمير خير كرم. دخلت
يوماً الحمام بهذه البلدة، فرأيت الناس بها لا يسترون. فعظم ذلك علي وأتيته،
فأعلمته بذلك. فأمرني ألا أُبرح، وأمر بإحضار المكترين للحمامات، وكتب
عليهم العقود، أنه متى دخل أحد الحمام دون مثزر، فإنهم يؤخذون على ذلك.
واشتد عليهم أعظم الاشتداد. ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيماً إلى

مدينة منلوى^(١) وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وبスピط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح اللام وكسر الواو). وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعى. وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بنى أحدهم جاماً أنفق فيه صمم ماله. وبهذه المدينة إحدى عشرة معصرة للسكر - ومن عوائدهم أنهم لا يعنون فقيراً من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة، فيطرحها في القدر التي يطبع السكر فيها، ثم يخرجها، وقد امتلأت سكراً فينصرف بها. وسافرت من منلوى المذكورة إلى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواها، مؤنق بناؤها على صفة النيل، شهرة البركة (وبスピط اسمها بفتح الميم وإسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل).

حكاية: أخبرني أهل هذه المدينة أن الملك الناصر رحمه الله، أمر بعمل منبر عظيم، محكم الصنعة بديع الإنشاء، برسم المسجد الحرام، زاده الله شرفاً وتعظيماً. فلما تم عمله، أمر أن يصعد به في النيل ليجاز إلى بحر جدة، ثم إلى مكة شرفها الله، فلما وصل المركب الذي احتمله إلى منفلوط، وحاذى مسجدها الجامع وقف، وامتنع من الجري مع مساعدة الريح. فعجب الناس من شأنه أشد العجب، وأقاموا أياماً لا ينهض بهم المركب. فكتبوا بخبره إلى الملك الناصر رحمه الله، فأمر أن يجعل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط، ففعل ذلك. وقد عاينته بها، ويصنع في هذه المدينة شبه العسل، يستخرجونه من القمع ويسمونه النيدا. يباع بأسواق مصر. وسافرت من هذه المدينة إلى مدينة أسيوط. وهي مدينة رفيعة أسواقها بدعة (وبスピط اسمها بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وضم الياء آخر الحروف واو وطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب

(١) تعرف الآن باسم: ملوي يادغام اللام، وهي إحدى مدن محافظة المنيا بصعيد مصر.

(بحاصل ما ثم)، لقب اشتهر به وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها، فيعطيه ما قدر له. فكان القاضي إذا أتاه الفقير يقول له حاصل ما ثم^(١) أي لم يبق من المال الحاصل شيء فلقب بذلك ولزمه. وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ، أضافني بزاوته. وسافرت منها إلى مدينة أخيم، وهي مدينة عظيمة أصيلة البناء عجيبة الشان، بها البري المعروف باسمه، وهو مبني بالحجارة، في داخله نقوش وكتابات للأوائل، لا تفهم في هذا العهد، وصور الأفلاك والكواكب. ويزعمون أنها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب. وبها صور الحيوانات وسواها. وعند الناس في هذه الصور أكاذيب لا يرجح عليها. وكان بأخيم رجل يعرف بالخطيب، أمر على هدم بعض هذه البراي، وابتني بمحاجتها مدرسة. وهو رجل موسر معروف باليسار. ويزعم حсадه أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البراي. ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر، وبها تربة جده عبد الظاهر. وله من الأخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين. ومن عادتهم أن يجتمعوا جميعاً بعد صلاة الجمعة، ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده، وقاضي المدينة الفقيه مخلص، وسائر أهلها، فيجتمعون للقرآن، ويدركون الله إلى صلاة العصر. فإذا صلواها، قرأوا سورة الكهف، ثم انصرفوا. وسافرت من أخيم إلى مدينة (هو) : مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الماء). نزلت منها بمدرسة تقي الدين ابن السراج. ورأيتهم يقرأون بها في كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن، ثم يقرأون أوراد الشيخ أبي الحسن الشاذلي وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسني من كبار الصالحين. كرامة له : دخلت إلى هذا

(١) ثم هنا ظرف مكان بمعنى هنا، والمراد ما هنا من الحاصل شيء حق أعطيكه.

الشريف متبركاً برؤيته والسلام عليه، فسألني عن قصدي، فأخبرته أني أريد
 البيت الحرام على طريق جدة. فقال لي: لا يحصل لك هذا في هذا الوقت،
 فارجع. وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي. فانصرفت عنه، ولم أعمل على
 كلامه. ومضيت في طريقي حتى وصلت إلى عيذاب. فلم يتمكن لي السفر،
 فعدت راجعاً إلى مصر ثم إلى الشام. وكان طريقي في أول حجاتي على الدرب
 الشامي، حسبما أخبرني الشريف نفع الله به. ثم سافرت إلى مدينة قنا، وهي
 صغيرة حسنة الأسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون). وبها قبر الشريف
 الصالح الولي صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيرة عبد الرحيم القناوي
 رحمة الله عليه. ورأيت بالمدرسة السيفية حفيده شهاب الدين أحمد. وسافرت من
 هذا البلد إلى مدينة قوص (وهي بضم القاف). مدينة عظيمة لها خيرات عميقة،
 بساتينها مورقة، وأسواقها مونقة، ولها المساجد الكثيرة، والمدارس الأثيرة، وهي
 منزل ولاة الصعيد. وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار، وزاوية
الأفروم^(١)، وبها اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل سنة، ومن علمائها
 القاضي جمال الدين بن السيد، والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد
 الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق في ذلك، لم أر من يكاثله إلا خطيب
 المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى، وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين المشاطى،
 وسيقع ذكرهما، ومنهم الفقيه بهاء الدين عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية،
 ومنهم الفقيه برهان الدين إبراهيم الأندلسى، له زاوية عالية. ثم سافرت إلى
 مدينة الأقصر^(٢) (وضبط اسمها بفتح الممزة وضم الصاد المهمل)، وهي صغيرة
 حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الأقصري. وعليه زاوية، وسافرت
 منها إلى مدينة أرمانت (وضبط اسمها بفتح الممزة وسكون الراء وميم مفتوحة

(١) في إحدى طبعات رحلة ابن بطوطة: زاوية الأفروم.

(٢) تعرف الآن بالأقصر بضم الممزة والصاد وسكون القاف.

ونون ساكنة وناء فوقية)، وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل. أضافني قاضيها، وأنسيت اسمه. ثم سافرت منها إلى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان السين المهمل ونون)، مدينة عظيمة متعددة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجواجمع، لها أسواق حسان، وبساتين ذات الفنان. قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكن. أضافني وأكرمني، وكتب إلى نوابه يأكراامي. وبها من الفضلاء الشيخ صالح نور الدين علي، والشيخ الصالح عبد الواحد المكتسي، وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص. ثم سافرت منها إلى مدينة أدفو^(١) (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الدال المهمل وضم الفاء). وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة أدفو إلى مدينة العطوانى، ومنها اكترينا الجمال. وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) في صحراء لا عمارة بها إلا أنها آمنة السيل. وفي بعض منازلها نزلنا حيثرا حيث قبر ولی الله أبي الحسن الشاذلي، وقد ذكرنا كرامته في أخباره أنه يموت بها. وأرضها كثيرة الضباع. ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع. ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلاً كان به، واجتررت منه جراب تمر، وذهبت به. فوجدناه لما أصبحنا مزقاً مأكولاً معظم ما كان فيه. ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا إلى مدينة عيذاب، وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن، ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر. وأهلها البجا^(٢)، وهم سود الألوان يلتحفون بملائف صفراء، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعاً وهم لا يورثون اثبات. وطعمهم ألبان

(١) يضبط اسم مدیني: إسنا وإدفو بكسر الهمزة لأن كما هو متداول بين الناس.

(٢) ويقال لهم أيضاً: البُجَّة، وهم قبائل تعشش بين النيل والبحر الأحمر وبين القاهرة وحدود السودان، يعيش بعضهم في جمهورية مصر العربية، وبعضهم في جمهورية السودان، ومعظمهم لا يتكلمون العربية.

الإبل ويركبون المهاري ، ويسمونها الصهب . وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها
 لملك الجاجة ، وهو يعرف بالحدري (بفتح الحاء المهمل وإسكان الدال وراء
 مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهر
 البركة . رأيته وتبركت به . وبها الشيخ الصالح موسى والشيخ المسن محمد
 المراكشي . زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش ، وأن سنه خمس وسبعين سنة .
 ولما وصلنا إلى عيذاب وجدها الحدري سلطان الجاجة يحارب الأتراك ، وقد خرق
 المراكب ، وهرب الترك أمامه فتذرع سفرنا في البحر . فبعنا ما كنا أعددناه من
 الرزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكتربنا الجمال منهم إلى صعيد مصر ، فوصلنا
 إلى مدينة قوص التي تقدم ذكرها ، وانحدرنا منها في النيل ، وكان أوان مدة ،
 فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص إلى مصر ، فبيت بمصر ليلة واحدة ، وقصدت
 بلبيس^(١) ، (وضبط اسمها بفتح الموحدة الأولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف
 مسكنة وسين مهملة) ، وهي مدينة كبيرة ، ذات بساتين ، كثيرة ، ولم ألق بها من
 يجب ذكره . ثم وصلت إلى الصالحة . ومنها دخلنا الرمال^(٢) ، ونزلنا منازلها ، مثل
 السوادة والورادة والمطليب والعريش والخروبة . بكل منزل منها فندق . وهم
 يسمونه الخان . ينزله المسافرون بدواهم . وبخارج كل خان ساقية للسبيل ،
 وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته . ومن منازلها قطعاً المشهورة
 وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وباء آخر الحروف مفتوحة وألف . والناس
 يبدلون ألفها هاء تأنيث) . وبها تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتش أمتعتهم ،
 ويبحث عما لديهم أشد البحث . وفيها الدواوين والعهال والكتاب ، والشهدود .

(١) المتداول بين الناس في نطقها الآن: بلبيس بكسر الباءين الأولى والثانية، وبينهما لام ساكنة، وهي مدينة تابعة لمحافظة الشرقية.

(٢) يقصد بالرمال: شبه جزيرة سيناء.

و مجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر . ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس ، و توقياً من الجواهيس العراقيين . و طريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه . فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الأمير صباحاً ، فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مؤثره ، فيذهبون في طلبه ، فلا يفوتهم فيأتون به الأمير ، فيعاقبه بما شاء ، وكان بها في عهد وصولي إليها عز الدين أستاذ الداراقماري من خيار الأمراء ، أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معه . وبين يديه عبد الجليل المغربي والوقاف ، وهو يعرف المغاربة وببلادهم ، فيسأل من ورد منهم من أي البلاد هو لئلا يلبس عليهم ، فإن المغاربة لا يعرضون جوازهم على قطيا . ثم سرنا حتى وصلنا إلى مدينة غزة ، وهي أول بلاد الشام مما يلي مصر متعددة الأقطار ، كثيرة العمارة حسنة الأسواق ، بها المساجد العديدة والأسوار عليها . وكان بها جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الأمير معظم الجاوي . وهو أنيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الأبيض وقاضي غزة بدر الدين السلطاني الحوراني ومدرسهها علم الدين بن سالم . وبنو سالم كبراء هذه المدينة ومنهم شمس الدين قاضي القدس . ثم سافرت من غزة إلى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسلماً ، وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الأنوار حسنة المنظر عجيبة المخبر ، في بطن وادٍ ، ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع ، مبني بالصخر المنحوت . في أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبراً . ويقال إن سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفي داخل المسجد الغار المكرم المقدس . فيه قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب صلوات الله على نبينا وعليهم . ويفقابلها قبور ثلاثة ، هي قبور أزواجهم . وعن يمين المنبر ، بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل إلى مسلك ضيق ،

يفضي إلى ساحة مفروشة بالرخام ، فيها صور القبور الثلاثة . ويقال : إنها حاذية لها . وكان هنالك مسلك إلى الغار المبارك ، وهو الآن مسدود . وقد نزلت بهذا الموضع مرات وعشر ذكره أهل العلم دليلاً على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ، ما نقله من كتاب علي بن جعفر الرازى الذى سماه : المسفر للقلوب عن صحة قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب . أنسد فيه إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أسرى بي إلى بيت المقدس مرّ بي جبريل على قبر إبراهيم فقال : انزل فصل ركعتين . فإن هنا قبر أبيك إبراهيم . ثم مرّ بي على بيت لحم وقال : انزل فصل ركعتين ، فإن هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام . ثم أتى بي الصخرة » وذكر بقية الحديث . ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الإمام الخطيب برهان الدين الجعبري ، أحد الصالحة المرضيin ، والأئمة المشهورين . سأله عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي : كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور إبراهيم وإسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام ، وقبور زوجاتهم ، ولا يطعن في ذلك إلا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه ، ويدرك أن بعض الأئمة دخل إلى الغار ، ووقف عند قبر سارة ؛ فدخل شيخ فقال له : أي هذه القبور هو قبر إبراهيم ؟ فأشار له إلى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك ، فأشار له إليه . ثم دخل صبي فسأله أيضاً فأشار له إليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر إبراهيم عليه السلام لا شك . ثم دخل إلى المسجد فصلى به وارتحل من الغد . وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف عليه السلام . وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام . وهي تل مرتفع ، يشرف منه غور الشام . وعلى قبره أبنية حسنة . وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه . وهنالك بجيرة لوط^(١) ، هي أجاج . يقال إنها موضع ديار قوم لوط وبقريبة من تربة لوط مسجد اليقين ، وهو على تل مرتفع له نور

(١) وتعرف الآن باسم : البحر الميت ، لعدم وجود حياة فيه ، لشدة ملوحة مائه .

وإشراق ليس لسواء ولا يجاوره إلا دار واحدة يسكنها قيمه . وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قد هيء فيه صورة محراب ، لا يسع إلا مصلياً واحداً ، ويقال : إن ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكرأً لله تعالى عند هلاك قوم لوط ، فتحرّك موضع سجوده ، وساخت في الأرض قليلاً . وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام وبأعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في أحدهما مكتوب منقوش بخط بديع باسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ما ذرأ وبراً وعلى خلقه كتب الفناه . وفي رسول الله أسوة . هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه . وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر . وتحت ذلك هذه الأبيات :

أسكت من كان في الأحشاء مسكنه بالرغم مني بين الترب والحجر
يا قبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر
يا قبر ما فيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة إلى القدس . فزرت في طريقي إليه تربة يونس عليه السلام ، وعليها أبنية كبيرة ومسجد . وزرت أيضاً بيت لحم ، موضع ميلاد عيسى عليه السلام ، وبه أثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة . والنصارى يعظمونه أشد التعظيم ، ويضيفون من نزل به ، ثم وصلنا إلى بيت المقدس ، شرفه الله ، ثالث المساجدين الشريفين في رتبة الفضل ، ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلماً ، ومحرجه إلى السماء . والبلدة كبيرة مبنية بالصخر المنحوت . وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً ، لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها . ثم استنقض الملك الظاهر ^(١) هدمه خوفاً أن

(١) يبدو - والله أعلم - أن المراد : وأم الملك الظاهر هدمه خوفاً أن يقصدها الروم فيمنعوا بها ، والملك الظاهر هو : ركن الدين بيبرس البندقداري رابع سلاطين دولة المماليك البحرية بمصر .

يقصدها الروم فيتمنعوا بها . ولم يكن بهذه المدينة نهر فيها تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين تنكizer أمير دمشق .)

ذكر المسجد المقدس

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن ، يقال : إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه ، وإن طوله من شرق إلى غرب سبعين مائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية وعرضه من القبلة إلى الجوف أربعين مائة ذراع وخمس وثلاثين ذراعاً . وله أبواب كثيرة في جهاته الثلاث ، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً ، وهو الذي يدخل منه الإمام ، والمسجد كله فضاء وغير مسقف إلا المسجد الأقصى فهو مسقف في النهاية من إحكام الفعل وإتقان الصنعة مموه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وفي المسجد مواضع سواه مسقفة .

ذكر قبة الصخرة

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغرتها شكلاً . قد توفر حظها من المحاسن ، وأخذت من كل بدعة بطرف ، وهي قائمة على نشر في وسط المسجد ، يصعد إليها في درج رخام . ولها أربعة أبواب . والدائر بها مفروش بائز خام أيضاً محكم الصنعة ، وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة^(١) ورائق الصنعة ما يعجز الوالصف . وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهي تتلألأ أنواراً ، أو تلمع لمعان البرق . يختار بصر متأملها في محاسنها ، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها . وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار . فإن النبي عليه السلام عرج منها إلى السماء . وهي صخرة صماء ، ارتفاعها نحو قامة . وتحتها مغاربة مقدار بيت صغير .

(١) الزواقة مقصود بها : التزويق والتجميل والتزيين .

ارتفاعها نحو قامة أيضاً ينزل إليها على درج. وهنالك شكل حراب. وعلى الصخر شباكان اثنان محكمَا العمل، يغلقان عليها أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة من حديد بدبيع الصنعة والثاني من خشب. وفي القبة درقة كبيرة من حديد ، معلقة هنالك . والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه .

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادي جهنم في شرقي البلد ، على تل مرتفع هنالك ، بنية يقال: إنها مصعد عيسى عليه السلام إلى السماء . ومنها أيضاً قبر رابعة البدوية ، منسوبة إلى البدية وهي خلاف رابعة العدوية الشهيرة . وفي بطن الوادي المذكور كنيسة يعظمها النصارى ، ويقولون: إن قبر مريم عليها السلام بها . وهنالك أيضاً كنيسة أخرى معظمة ، يحجها النصارى ، وهي التي يكذبون عليها ، ويعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها . وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين . وضرائب من الإهانة يتحملها على رغم أنفه . وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به .

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزي (فتح الغين) ، وهو من أهل غزة وكثيراً منها . ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين التابلسي . ومنهم المحدث المفتى شهاب الدين الطبرى ، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاہ الكريۃ أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين . ومنهم الشيخ الصالح العابد کمال الدين المراغي . ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن

مصطفى من أهل أرز الروم، وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي. صحبه ولبست منه خرقة التصوف. ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان، وهو خراب. قد عاد رسوماً طامسةً، وأطلالاً دارسة. وقل بلد جع من المحسن ما جمعته عسقلان إتقاناً وحسن وضع، وأصالة مكان، وجعماً بين مرفق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام، قبل أن ينقل إلى القاهرة، وهو مسجد عظيم سامي العلو، فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيد، وكتب ذلك على بابه وفي قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه إلا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها في الحسن وهي ما بين قائم وحصيد ومن جملتها أسطوانة حراء عجيبة، يزعم الناس أن النصارى احتملوها إلى بلادهم، ثم فقدوها، فوجدت في موضعها بعسقلان. وفي القبلة من هذا المسجد بئر تعرف بئر إبراهيم عليه السلام، ينزل إليها في درج متعددة، ويدخل منها إلى بيوت، وفي كل ناحية من جهاتها الأربع تخرج من أسراب مطوية بالحجارة. ومؤاها عذب، وليس بالغزير. ويدرك الناس من فضائلها كثيراً. وبظاهر عسقلان وادي النمل، ويقال: إنه المذكور في الكتاب العزيز. وبجيانة عسقلان من قبور الشهداء والأولياء ما لا يحصر لكثرة، أو قفنا عليهم قيم المزار المذكور. وله جرایة يجريها له ملك مصر، مع ما يصل إليه من صدقات الزوار. ثم سافرت منها إلى مدينة الرملة وهي في فلسطين مدينة كبيرة، كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق. وبها الجامع الأبيض. ويقال: إن في قبلته ثلاثة من الأنبياء، مدفونين عليهم السلام. وفيها من كبار الفقهاء مجده الدين النابلسي. ثم خرجت منها إلى مدينة نابلس، وهي مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار مطردة الأنهر، من أكثر بلاد الشام زيتوناً. ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق. وبها تصنع حلواً الخروب، وتجلب إلى دمشق وغيرها. وكيفية عملها: أن يطبخ الخروب، ثم يعصر، ويؤخذ ما يخرج منه من الربّ فتصنع منه

الحلواء . ويجلب ذلك الرب أيضاً إلى مصر والشام . وبها بطيخ المنسوب إليها وهو طيب عجيب . والمسجد الجامع في نهاية من الإتقان والحسن . وفي وسطه بركة ماء عذب . ثم سافرت منها إلى مدينة عجلون (وهي بفتح العين المهملة) ، وهي مدينة حسنة لها أسواق كثيرة ، وقلعة خطيرة . ويشقها نهر ماوه عذب . ثم سافرت منها بقصد اللاذقية ، فمررت بالغور ، وهو وادٍ بين تلال به قبر أبي عبيدة ابن الجراح أمين هذه الأرض رضي الله عنه ، زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لأنباء السبيل . وبيتنا هنالك ليلة ، ثم وصلنا إلى القصیر ، وبه قبر معاذ بن جبل رضي الله عنه ، تبركت أيضاً بزيارته . ثم سافرت على الساحل ، فوصلت إلى مدينة عكة^(١) ، وهي خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الإفرينج بالشام ، ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى ، وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال : إن الله تعالى أخرج منها البقر لأدم عليه السلام . وينزل إليها في درج . وكان عليها مسجد بقي منه محرابه . وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام . ثم سافرت منها إلى مدينة صور ، وهي خراب وبخارجها قرية معمرة وأكثر أهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء . فأتي بعض أهل تلك القرية ليتواضأ فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه في فعله فقال لي : إن البناء إنما يكون ابتداؤه من الأساس . ومدينة صور هي التي يضرب بها المثل في الحصانة والمنعة . لأن البحر يحيط بها من ثلاثة جهاتها . ولها بابان أحدهما للبر ، والثاني للبحر . ولبابها الذي يشرع للبر أربعة فصلات كلها في ستائر محيطة بالباب ، وأما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين . وبناؤها ليس في بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شأننا منه ، لأن البحر يحيط بها من ثلاثة جهاتها . وعلى الجهة الرابعة سور ، تدخل السفن تحت

(١) وتعرف الآن بعكا بالآلاف بدلاً عن التاء المربوطة ، وهي إحدى مرافئ فلسطين المحتلة -

حررها الله وأعادها إلى الإسلام -

السور ، وترسو هنالك . وكان فيها تقدم بين البرجين سلسلة حديد معرضة ، لا سبيل إلى الداخل هنالك ، ولا إلى الخارج إلا بعد حطتها ، وكان عليها الحراس والأمناء ، فلا يدخل داخل ، ولا يخرج خارج ، إلا على علم منهم . وكان لعكة أيضاً ميناء مثلها ، ولكنها لم تكن تحمل إلا السفن الصغار ، ثم سافرت منها إلى مدينة صيدا ، وهي على ساحل البحر ، حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر : نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري ، وهو حسن الأخلاق كريم النفس . ثم سافرت منها إلى مدينة طبرية . وكانت فيها مضى مدينة كبيرة ضخمة ، ولم يبق منها إلا رسوم تنبئ عن ضخامتها ، وعظم شأنها . وبها الحمامات العجيبة ؛ لها بيتان أحدهما للرجال ، والثاني للنساء . ومؤاها شديد الحرارة . ولها البحيرة الشهيرة ، طوها نحو ستة فراسخ ، وعرضها أزيد من ثلاثة فراسخ . وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الأنبياء ، فيه قبر شعيب عليه السلام ، وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام ، وقبر سليمان عليه السلام ، وقبر يهودا ، وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم . وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام ، وهو في صحن مسجد صغير وعليه زاوية . والجب كبير عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضاً . ثم سرنا إلى مدينة بيروت وهي صغيرة ، حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحسن ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه . وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب . وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يطعم بها الوارد . ويقال : إن السلطان صلاح الدين وقف عليها الأوقاف . وقيل السلطان نور الدين كانوا من الصالحين . ويدرك أنه كان ينسج الخصر ويقتات بشمنها .

حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور

يحكى أنه دخل مدينة دمشق، فمرض بها مرضًا شديداً، وأقام مطروحاً بالأسواق. فلما برأه من مرضه، خرج إلى ظاهر دمشق ليلتمس بستانًا يكون حارساً له. فاستأجر حراسة بستان الملك نور الدين، وأقام في حراسته ستة أشهر فلما كان في أوان الفاكهة أتى السلطان إلى ذلك البستان، وأمر وكيل البستان أبا يعقوب أن يأتي برمان يأكل منه السلطان، فأتاه برمان. فوجده حامضاً، فأمره أن يأتي بغيره، ففعل ذلك. فوجده أيضاً حامضاً. فقال له الوكيل: أ تكون في حراسة هذا البستان منذ ستة أشهر ولا تعرف الحلو من الحامض؟ فقال: إنما أستأجرتني على الحراسة لا على الأكل، فأتى الوكيل إلى الملك فأعلمه بذلك فبعث إليه الملك، وكان قد رأى في المنام أنه يجتمع مع أبي يعقوب، وتحصل له منه فائدة، فترس أنه هو. فقال له: أنت أبو يعقوب؟ قال: نعم. فقام إليه، وعانقه، وأجلسه إلى جانبه، ثم احتمله إلى مجلسه، فأضافه بضيافة من الحال المكتسب بكم يمينه، وأقام عنده أياماً. ثم خرج من دمشق فارضاً بنفسه في أوان البرد الشديد، فأتى قرية من قراها. وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل. وصنع له مرقة، وذبح دجاجة فأتاه بها، وبخز شعر فأكل من ذلك، ودعا للرجل، وكان عنده جملة أولاد، منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها. ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها، ويكون معظم الجهاز أوابي النحاس، وبه يتفاخرون، وبه يتبايعون. فقال أبو يعقوب للرجل: هل عندك شيء من النحاس؟ قال: نعم، قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت، قال أتئني به. فأتاه به. فقال له: استعير من جيرانك ما أمكنك منه، ففعل، وأحضر ذلك بين يديه فأوقد عليه النيران. وأخرج صرة

كانت عنده فيها الإكسير^(١). فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهباً، وتركه في بيت مقفل وكتب كتاباً إلى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك. وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء، ويوقف عليه الأوقاف، ويبني الزوايا بالطرق، ويرضي أصحاب النحاس، ويعطي صاحب البيت كفایته، وقال له في آخر الكتاب: وإن كان إبراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فأنا قد خرجت من ملك المغرب، وعن هذه الصنعة والسلام. وفرّ من حينه، وذهب صاحب البيت بالكتاب إلى الملك نور الدين، فوصل الملك إلى تلك القرية واحتمل الذهب، بعد أن أرضى أصحاب النحاس، وصاحب البيت. وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثراً ولا وقع له على خبر. فعاد إلى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله. ثم وصلت إلى مدينة طرابلس، وهي إحدى قواعد الشام، وبلداتها الضخام. تخترقها الأنهر، وتحفها البساتين والأشجار، ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة، والبر بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة. والبحر على ميلين منها. وهي حديثة البناء. وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملّكتها الروم زماناً فلما استرجمها الملك الظاهر خربت، واتخذت هذه الحديثة. وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك. وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك النساء. ومسكه منه بالدار المعروفة بدار السعادة. ومن عوائده أن يركب في كل يوم اثنين وخيس ويركب معه الأمراء والعساكر، ويخرج إلى ظاهر المدينة، فإذا عاد إليها، وقارب الوصول إلى منزله، ترجل النساء، ونزلوا عن دوابهم، ومشوا بين يديه، حتى يدخل منزله، وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل أمير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم، وتتقد المشاعل. ومن كان بها من الأعلام كاتب السر بهاء الدين بن غانم

(١) وهو مادة كيميائية كانوا يتوهمون أنها تحول المعادن الخصيبة إلى معادن نفيسة، وذلك محض وهم وخيال لا ظل له في الحقيقة.

أحد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم ، وأخوه حسام الدين هوشيخ القدس الشريف ، وقد ذكرناه ، وأخوها علاء الدين كاتب السر بدمشق . ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال . ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام . وبهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي . وحمام سندمور . وكان سندمور أمير هذه المدينة . ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنایات . منها أن امرأة شكت إليه بأن أحد مالكيه الخواص تعدى عليها في لبن كانت تبيعه فشربه ، ولم تكن لها بينة . فأمر به فوسط فخرج للبن من مصرانه . وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب . واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان . ثم سافرت من طرابلس إلى حصن الأكراد ، وهو بلد صغير كثير الأشجار والأنهار بأعلى تل . وبه زاوية تعرف بزاوية الإبراهيمي نسبة إلى بعض كبراء النساء . ونزلت عند قاضيها ولاحقت الآن اسمه . ثم سافرت إلى مدينة حص وهي مدينة مليحة ، أرجاؤها مونقة ، وأشجارها مورقة ، وأنهارها متعدفة ، وأسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها تميز بالحسن الجامع ، وفي وسطه ماء . وأهل حص عرب لهم فضل وكرم . وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء . وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجل الناس صورة وأحسنتهم سيرة . ثم سافرت منها إلى مدينة حماة إحدى أمهرات الشام الرفيعة ، ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجනات ، عليها التوابع كالآفلال الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي . ولها ربع سمي بالمنصورية أعظم من المدينة ، فيه الأسواق الحافلة ، والحمامات الحسان ، وبجمة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي ، إذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة . قال ابن جزي : وفي هذه المدينة ونهرها ونوعايرها وبساتينها يقول الأديب الرحال نور الدين أبو

الحسن علي بن موسى بن سعيد العبي العماري الغرناطي نسبة لumar بن ياسر
رضي الله عنه :

وَقَفْتُ عَلَيْهَا السَّمْعَ وَالْفَكْرَ وَالْطَّرْفَا
وَتَرَهِي مَبْنَىٰ تَمْنَعَ الْوَاصِفَ الْوَصْفَا
بَهَا وَأَطْبَعَ الْكَأسَ وَاللَّهُوَ وَالْقَصْفَا
أَحَاكِيهِ عَصِيَانًا وَأَشْرَبُهَا صِرْفَا
وَأَغْلَبُهَا رَقْصًا وَأَشْبَهُهَا غَرْفَا
تَهِيمُ بِرَآهَا وَتَسْأَلُهَا الْعَطْفَا

حَىَ اللَّهُ مِنْ حَمَةَ مَنَاظِرًا
تَغْنَىٰ حَمَامُ أَوْ تَمِيلُ خَائِلٌ
يَلْوَمُونِي أَنْ أَعْصَىٰ الصَّوْنَ وَالنَّهَىٰ
إِذَا كَانَ فِيهَا النَّهَرُ عَاصِ فَكِيفُ لَا
وَأَشْدُو لَدِي تَلْكَ النَّوَاعِرِ شَدُودَهَا
تَئِنُّ وَتَذْرِي دَمَعَهَا فَكَاهْنَاهَا

ولبعضهم في نواعيرها ذاهاً مذهب التورية :

وَنَاعُورَةٍ رَقَّتْ لِعِظَمِ خَطِيئَتِي وَقَدْ
عَابَنْتْ قَصْدِي مِنَ الْمَنْزِلِ الْقَاصِي
وَخَسِبْكَ أَنَّ الْخَشْبَ تَبَكِي عَلَى الْعَاصِي

بَكَتْ رَحْمَةً لِي ثُمَّ باحَتْ بِشَجْوِهَا

ولبعض المتأخرین فيها أيضاً من التورية :

يَا سَادَةً سَكَنُوا حَمَةَ وَحَقَّكُمْ
مَا حَلْتُ عَنْ تَقوِيَ وَعَنْ إِخْلَاصِ
وَالْطَّرْفُ بَعْدَكُمْ إِذَا اذَّكَرَ اللَّقا

يُجْرِي الْمَدَامِعَ طَائِعًا كَالْعَاصِي
ثُمَّ سَافَرَتْ إِلَى مَدِينَةِ الْمَعْرَةِ، الَّتِي يَنْسَبُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ أَبُو الْعَلَاءِ
الْمَعْرِيُّ، وَكَثِيرٌ سُواهُ مِنَ الشَّعْرَاءِ. قَالَ ابْنُ جَرِيٍّ: وَإِنَّمَا سَمِيتَ بِمَعْرَةِ النَّعْمَانِ لِأَنَّ
النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ الْأَنْصَارِيِّ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَفَّ لَهُ وَلَدٌ أَيَّامٌ إِمَارَتِهِ عَلَى
حَصْنٍ، فَدُفِنَ بِالْمَعْرَةِ، فَعَرَفَتْ بِهِ . وَكَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ تَسْمَى ذَاتَ الْقَصُورِ . وَقَيْلَ:
إِنَّ النَّعْمَانَ جَبَلٌ مَطْلَعٌ عَلَيْهَا سَمِيتَ بِهِ .

وَالْمَعْرَةُ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ حَسَنَةٌ ، أَكْثَرُ شَجَرَهَا التَّينُ وَالْفَسْقَى وَمِنْهَا يَحْمِلُ
إِلَى مَصْرَ وَالشَّامِ . وَبِخَارِجِهَا عَلَى فَرْسَخٍ مِنْهَا قَبْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ

العزيز . ولا زاوية عليه ولا خديم له . وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافة أرجاس ، يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، ولعن ببغضهم ، ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصاً عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي رضي الله عنه - ثم سرنا منها إلى مدينة سرمين . وهي حسنة كثيرة البساتين ، وأكثر شجرها الزيتون . بها يصنع الصابون الأجري ، ويجلب إلى مصر والشام . ويصنع بها أيضاً الصابون المطيب لغسل الأيدي ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسن إليها . وأهلها سبابون يبغضون العشرة . ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادي ساسرتهم بالأأسواق على السلع ، فإذا بلغوا إلى العشرة قالوا تسعه وواحد . وحضر بها بعض الأتراك يوماً فسمع سمساراً ينادي تسعه وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال : قل عشرة بالدبوس . وبها مسجد جامع فيه تسع قباب . ولم يجعلوها عشرة قياماً بمعذهبهم القبيح - ثم سرنا إلى مدينة حلب ، المدينة الكبرى والقاعدة العظمى . قال أبو الحسين بن جبير في وصفها : قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ، وملحها من النفوس أثير ، فكم هاجت من كفاح وسلّ عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع منحوته الأجزاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، قد طاولت الأيام والأعوام ، ووسيط الخواص والشعوب ، أين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ فني جميعهم ، ولم يبق إلا بناؤها . فيا عجباً لبلاد تبقى ويدهب ملوكها ، ويهلكون ولا يقضي هلاكها ، وتخطب بهم فلا يتذرع أملاكها ، وترام فيتيسر بأهون شيء إدراها . هذه حلب كم أدخلت ملوكها في خبر كان ، ونسخت صرف الزمان بالمكان . أنت اسمها ، فتحلت بحلية الغوان ، وأمنت بالعذر فيمن دان والنجلت عروساً بعد سيف دولتها ابن حдан . هيئات سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها بعد حين خرابها . وقلعة حلب تسمى

الشهباء . وبداخلها جبلان ينبع منها الماء ، فلا تخاف الظلام ويطيف بها سوران .
وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء . وسورها متداين الأبراج وقد انتظمت بها
العلالي العجيبة المفتحة الطيقان . وكل برج منها مسكون . والطعام لا يتغير بهذه
القلعة على طول العهد . وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يقال : إن الخليل عليه
السلام كان يتعبد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق التي على
الفرات بين الشام والعراق . ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه
القلعة أيامًا ، ونكص عنها خائباً ، قال ابن جزي : وفي هذه القلعة يقول الخالدي
شاعر سيف الدولة :

بِمِرْقَبِهَا الْعَالِي وَجَانِبِهَا الصَّعْبِ
وَبِيُّلْسِهَا عِقْدًا بِأَنْجِمِهِ الشَّهْبِ
كَمَا لَاحَتِ الْعَذْرَاءِ مِنْ خَلَلِ السُّبْحِ
وَذِي سَطْوَاتِ قدْ أَبَانَتْ عَلَى عَقْبِ
وَخَرْقَاءَ قدْ قَامَتْ عَلَى مَنْ يَرُومُهَا
يَجْرِي عَلَيْهَا الْجَوُّ جَبَ غَامَةً
إِذَا مَا سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ مِنْ خَلَالِهِ
فَكُمْ مِنْ جُنُودِ قدْ أَمَاتَتْ بِغَصَّةٍ
وَفِيهَا يَقُولُ أَيْضًا وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ النَّظَمِ :

وَجَازَ مَنْطَقَةَ الْجُوزَاءِ عَالِيَّهَا
أَرْضًا تُسوِّطًا قَطْرَيْهِ مَوَاسِيَّهَا
حِياضُهَا قَبْلَ أَنْ تَهْمِي عَوَالِيَّهَا
لَوْ أَنَّهُ كَانَ يَجْرِي فِي مَجَارِيَّهَا
وَنَصَرَتْ لِدَوَاهِيَّهَا وَنَصَرَتْ مَكَايدُهَا
وَقَلْعَةٌ عَانِقَ الْعَنْقَاءِ سَافِلُهَا
لَا تَعْرِفُ الْقَطْرَ إِذْ كَانَ الْغَامُ هَا
إِذَا الْغَامَةُ رَاحَتْ غَاضِنَ سَاكِنَهَا
يَعْدُ مِنْ أَنْجِمِ الْأَفْلَاكِ مِرْقَبِهَا
رَدَّتْ مَكَايدَ أَقْوَامِ مَكَايدُهَا
وَفِيهَا يَقُولُ جَمَالُ الدِّينِ عَلَيْهِ الْمُنْصُورُ :

تَسْتَوْقُفُ الْفُلْكَ الْمُحِيطَ الدَّائِرَا
وَرَدَّتْ قَوَاطِنُهَا الْمَجَرَّةَ مَنْهَلًا
كَادَتْ لِيَسُونَ سَمْوَهَا وَعَلَوَهَا

ويظلُّ صَرْفُ الدَّهْرِ مِنْهَا خَائِفًا وَجِلًا فَمَا يُمْسِي لَدِيهَا حَاضِرًا

ويقال: في مدينة حلب حلب إبراهيم، لأن الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا عليه كان يسكنها. وكانت له الغنم الكثيرة. فكان يسقي الفقراء والمساكين، والوارد والصادر من ألبانها، فكانوا يجتمعون ويسألون: حلب إبراهيم، فسميت بذلك، وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع، وإتقان الترتيب، واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائمًا في ظل ممدوح وقيساريتها لا تثنى حسناً وكبراً، وهي تحيط بمساجدها وكل ساط منها حاذٍ لباب من أبواب المسجد. ومسجدها الجامع من أجمل المساجد في صحنها بركة ماء، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع. ومنبرها بديع العمل، مرصع بالجاج والآبنوس. وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع، وإتقان الصنعة. تُنسب لأمراءبني حدان، وبالبلد سواها، ثلاث مدارس، وبها مارستان. وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض، به المزارع العظيمة، وشجرات الأعناب منتظمبة به، والبساتين على شاطئ نهرها. وهو النهر الذي يمر بجمة، ويسمى العاصي^(١)، وقيل: إنه سمي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل إلى علو. والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحًا وسروراً ونشاطها لا يكون في سواها، وهي من المدن التي تصلح للخلافة. قال ابن جزي: أطبنت الشعرا في وصف مخاسن حلب، وذكر داخلها وخارجها. وفيها يقول أبو عبادة البحتري :

يا برقُ أَسْفَرْ عن قُوَيْقَ فَطَرَّتِي
حَلَبٌ فَأَعْلَى الْقَصْرِ مِنْ بَطِيَّاسٍ
عَنْ مَنْبَتِ الْوَرَدِ الْمُعْصَفَرِ صَبَغَةٌ
فِي كُلِّ ضَاحِيَةٍ وَمَجْنَسِيَّ الْأَسِّ
أَرْضٌ إِذَا اسْتَوْحَشْتُكُمْ بِتَذْكِيرِ

(١) هذا وهم من ابن بطوطة، إذ إن نهر العاصي لا يمر بحلب، إنما النهر الموجود فيها هو نهر قويق يتدفق في الشتاء وينصب في الصيف.

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبري :

فَكُمْ وَصَلَتْ طَرِبًا بِالْطَّرْبِ
بِهَا إِذْ بِهَا الْعِيشُ لَمْ يُسْتَطِبْ
بِهَا وَمَطَارِفُهُ وَالْعِذَبُ
تَرُوقُ وَأَوْسَاطُهُ مِنْ ذَهْبٍ

سَقَى حَلْبُ الْمَزْنِ مَغْنَى حَلْبِ
وَكُمْ مَسْتَطَابٌ مِنْ الْعِيشِ لَذِ
إِذَا نَشَرَ الزَّهْرُ أَعْلَامَهُ
غَدَا وَحْوَاشِيهِ مِنْ فِضَّةٍ

وقال فيها أبو العلاء المعري :

وَهِيَ لِلْغَادِرِينَ نَارٌ سَعِيرٌ
نَيْنِيهِ مِنْهَا قَدْرُ الصَّغِيرِ الصَّغِيرِ
وَحَصَّاً مِنْهُ مَكَانٌ ثَبِيرٌ

حَلْبُ الْلَّوَارِدِ جَنَّةُ عَدْنِ
وَالْعَظِيمُ الْعَظِيمُ يَكْبُرُ فِي عَيْدِ
فَقْوِيقٍ فِي أَنْفُسِ الْقَوْمِ بَحْرٌ

وقال فيها أبو الفتىان بن جبوس :

فَلَقِيَانِي نَسِيمُ الرِّيحِ مِنْ حَلْبِ
فِيهَا وَكَانَ الْهَوَى الْعَذْرِي مِنْ أَرْبَى

يَا صَاحِبِي إِذَا أَعْيَاكُمَا سَقَمِي
مِنَ الْبَلَادِ الَّتِي كَانَ الصَّبَّا سَكَنَا

وقال فيها أبو الفتح كشاجم :

كَمَا أَمْتَعْتُ حَلْبَ جَارَهَا
فَزُرْهَا فَطُوبَى لِمَنْ زَارَهَا

وَمَا أَمْتَعْتُ جَارَهَا بِلَدَةَ
بِهَا قَدْ تَجَمَّعَ مَا تَشَهَّى

وقال فيها أبو الحسن علي بن سعيد الغرناطي العنسي :

سُقْ فَرْوَحِي مَنْ بُعْدِهِمْ فِي سِيَاقِ
وَمَرَامِي وَقِبْلَةُ الْأَشْوَاقِ
مِنْ كُلِّ وَابْلِ غَيْدَاقِ
فِيهِ سَقِيُ الْمُنْى بِكَأسِ دِهَاقِ

حَادِيَ الْعِيشِ كَمْ تُنْيِخُ الْمَطَايَا
حَلْبَ إِنَّهَا مَقْرُ غَرَامِي
لَا خَلَا جَوْشَنُ بَطِيَاسَ وَالْعَبْدِ
كَمْ بِهَا مَرْتَعٌ لَطَرْفِ وَقْلَبِ

وتفنّى طيوره لارباح وتنّى غصونه للعناق
وعلو الشباء حيث استدارت أنجم الأفق حولها كالطاق
ويجلب ملك الأمراء أرغون الدوادار ، أكبر أمراء الملك الناصر . وهو
من الفقهاء ، موصوف بالعدل ، لكنه بخيل . والقضاة يجلبون أربعة للمذاهب
الأربعة . فمنهم القاضي كمال الدين بن الزملکاني ، شافعي المذهب ، عالي الهمة ،
كبير القدر ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، متفنن بالعلوم . وكان الناصر قد
بعث إليه ليوليه قضاء القضاة بحضور ملكه ، فلم يقض له ذلك ، وتوفي ببلبيس ،
وهو متوجه إليها . ولما ولي قضاء حلب ، قصدته الشعرا من دمشق وسواها .
وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد بن الشيخ المحدث
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن نباتة القرشي الأموي الفارقي فامتدحه بقصيدة
طويلة حافلة أولاً :

أَسِفَتْ لفَقِدِكَ جِلْقُ الْفِيحَاءُ
وَعَلَى دِمْشَقَ وَقَدْ رَحَلْتَ كَآبَةُ
قَدْ أَشْرَقَتْ دَارُ سَكْنَتِ فِنَاءِهَا
يَا سَائِرَا سَقِيُ الْمَكَارِمِ وَالْعَلِيُّ
هَذَا كَمَالُ الدِّينِ لُذْ بِجَنَابِهِ
قَاضِي الْقَضَاءِ أَجْلُ مِنْ أَيَامِهِ
قَاضٍ زَكَا أَصْلًا وَفَرْعَاعًا فَاعْتَلَى
مَنْ إِلَّاهُ عَلَى بَنِي حَلَبِ بَهِ
كَشَفَ الْمُعَمَّى فَهُمُّهُ وَبِيَانِهِ

وَتَبَاشَرَتْ لِقْدُومِكَ الشَّهَباءُ
وَعَلَا رُبَّى حَلَبَ سَنَاءُ وَسَنَاءُ
حَتَّى عَدَتْ وَلَنْوَرِهَا لِلأَلَاءُ
مَنْ يَبْخَلُ عَنْهُ الْكَرْمَاءُ
تَنَعَّمْ فَثَمَّ الْفَضْلُ وَالْتَّعَاءُ
تُغَنَّى بِهَا الْأَيْتَامُ وَالْفَقَرَاءُ
شَرَفَتْ بِهِ الْأَدْبَاءُ وَالْأَبْنَاءُ
لَهُ وَضَعُ الْفَضْلِ حَيْثُ يَشَاءُ
فَكَانَا ذَاكَ الذِّكَاءُ ذُكَاءُ (١)

(١) ذكاء هي : الشمس ، شبه ذكاء الذي يكشف المعنيات بالشمس التي تذهب الظلام ، وتكشف ما أخفاه وعمّاه على الرائيين .

يَا حَامِ الْحَكَامِ قَدْرُكِ سَابِقٌ
إِنَّ الْمَنَاصِبَ دُونَ هِمَّتِكَ الْتِي
لَكَ فِي الْعِلُومِ فَضَائِلٌ مَشْهُورَةٌ
وَمَنَاقِبٌ شَهَدَهُ الْعَدُوُّ بِفَضْلِهَا

سُوْهِي أَزِيدُ مِنْ خَسِينِ بَيْتًا . وَأَجَازَهُ عَلَيْهَا بِكْسُوتَةٍ وَدِرَاهِمٍ . وَانْتَقَدَ عَلَيْهِ
الشُّعُرَاءِ ابْتِداَهُ بِلِفْظِ أَيْسَفٍ . قَالَ ابْنُ جَزِيٍّ : وَلَيْسَ كَلَامَهُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ
بِذَاكَ وَهُوَ فِي الْمَقْطَعَاتِ أَجْوَدُ مِنْهُ فِي الْقَصَائِدِ وَإِلَيْهِ انتَهَتِ الرِّيَاسَةُ فِي الشِّعْرِ عَلَى
هَذَا الْعَهْدِ ، فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْمَشْرُقِ . وَهُوَ مِنْ ذُرِيَّةِ الْخَطَّيْبِ أَبِي يَحْيَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
تَبَانَةِ ، مَنْشِئِ الْخَطَبِ الشَّهِيرَةِ ، وَمِنْ بَدِيعِ مَقْطَعَاتِهِ فِي التُّورِيَّةِ قَوْلُهُ :

عَلَقْتُهَا غَيْدَاءَ حَالِيَّةَ الْعِلِّيِّ
تَجْنِي عَلَى عَقْلِ الْمُحَبِّ وَقَلْبِهِ
فَغَدَتْ مَطْوِقَةً بِمَا بَخْلَتْ بِهِ
بَخْلَتْ بِلَؤْلَؤِ ثَغَرِهَا عَنْ لَاثِرِ
وَمِنْ قَضاَةِ حَلْبِ قاضِي قَضاَةِ الْخَنْفِيَّةِ الْإِمامِ الْمَدْرَسِ نَاصِرِ الدِّينِ بْنِ
الْعَدِيمِ ، حَسِنِ الصُّورَةِ وَالسِّيرَةِ ، أَصْبَلِ مَدِينَةِ حَلْبِ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جَئَتَهُ مَتَهَلَّاً
كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلَهُ
وَمِنْهُمْ قاضِي قَضاَةِ الْمَالِكِيَّةِ ، لَا أَذْكُرُهُ . كَانَ مِنَ الْمُوْثَقِينَ بِمَصْرِ . وَأَخْذَ الْخَطَّةَ
عَنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقِهِ . وَمِنْهُمْ قاضِي قَضاَةِ الْخَنَابَلَةِ ، لَا أَذْكُرُ اسْمَهُ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ
صَالِحَيْةِ دَمْشَقَ ، وَنَقِيبُ الْأَشْرَافِ بِحَلْبِ بَدْرِ الدِّينِ بْنِ الزَّهْرَاءِ . وَمِنْ فَقَهَائِنَهَا
شَرْفُ الدِّينِ بْنِ الْعَجمِيِّ ، وَأَقْارِبُهُ هُمْ كُبَرَاءُ مَدِينَةِ حَلْبِ ، ثُمَّ سَافَرَتْ مِنْهَا إِلَى
مَدِينَةِ تَيْزِينِ^(١) . وَهِيَ عَلَى طَرِيقِ قَنْسُرَيْنِ (وَضَبَطَ اسْمَهَا بِتَاءً مَعْلُوَةً مَكْسُورَةً وَيَاءً

(١) وَهِيَ قَرِيَّةٌ مِنْ نَوَاحِيِّ حَلْبِ ، كَانَتْ مِنْ أَعْمَالِ قَنْسُرَيْنِ ، ثُمَّ صَارَتْ فِي عَهْدِ الرَّشِيدِ مِنَ الْعَوَاصِمِ
مِثْلِ مَنْبِعِ ، وَرَغْمَ أَنَّهَا تَقْعُدُ فِي جَهَةِ قَنَافِرِ قَنْسُرَيْنِ كَمَّا ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَسَافِرَ إِلَيْهَا ابْنُ
بَطْرُوطَةِ عَنْ طَرِيقِ قَنْسُرَيْنِ وَهِيَ طَرِيقٌ غَيْرُ مَبَارِكٍ ، وَقَدْ لَوْحَظَ ذَلِكَ فِي أَسْفَارِهِ .

مد زاي مكسورة وباء مد ثانية ونون)، وهي حديثة اخذها التركمان. وأسواقها حسان، ومساجدها في نهاية من الإتقان. وقاضيها بدر الدين العسقلاني. وكانت مدينة قسرین قدية كبيرة، ثم خربت، ولم يبق إلا رسومها، ثم سافرت إلى مدينة أنطاكية. وهي مدينة عظيمة أصيلة وكان عليها سور محكم، لا نظير له في أسوار بلاد الشام. فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها. وأنطاكية كثيرة العمارة، ودورها حسنة البناء، كثيرة الأشجار والمياه. وبخارجها نهر العاصي. وبها قبر حبيب التجار رضي الله عنه. وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر. وشيخها الصالح المعمم محمد بن علي سنه ينبع على المائة، وهو ممعن بقوته، دخلت عليه مرة في بستان له وقد جمع حطبًا، ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة، ورأيت ابنه قد أناف على الثنين، إلا أنه محدودب الظهر، لا يستطيع النهوض، ومن يراها يظن الوالد منها ولداً، والولد والدأ - ثم سافرت إلى حصن بُغْراس، (وضبط اسمه بباء موحدة مضسومة وغير معجمة مسكنة وراء وأخره سين مهملاً)، وهو حصن منيع لا يرام، عليه البساتين والمزارع، ومنه يدخل إلى بلاد سيس، وهي بلاد كفار الأرمن، وهم رعية للملك الناصر، يؤدون إليه مالاً ودراماً فضة خالصة تعرف بالبلغية. وبها تصنع الثياب الدبيلية^(١). وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني. وله ولد فاضل اسمه علاء الدين، وابن أخي اسمه حسام الدين، فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرّصُص (بضم الراء والصاد المهمل الأول)، ويحفظ الطريق إلى بلاد الأرمن.

(١) نسبة إلى دبيل بفتح أوله وكسر ثانية، وهي مدينة بأرمينية تتاخم أرَان فتحها حبيب بن مسلمة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وغلب عليها وعلى قراها، صالح أمها وكتب لهم كتاباً.

حكاية

شكا الأرمن مرة إلى الملك الناصر من الأمير حسام الدين، وزوروا عليه أموراً لا تليق. فأنفذ أمره لأمير الأمراء جلب أن يخنقه. فلما توجه الأمير بلغ ذلك صديقاً له من كبار الأمراء فدخل على الملك الناصر وقال: يا خوند إن الأمير حسام الدين هو من خيار الأمراء، ينصح للمسلمين، ويحفظ الطريق، وهو من الشجعان، والارمن ي يريدون الفساد في بلاد المسلمين، فيمنعهم ويقهرونهم. وإنما أرادوا إضعاف شوكة المسلمين بقتله. ولم يزل به حتى أنفذ أمراً ثانياً بسراحه والخلع عليه ورده لوضعه. ودعا الملك الناصر بريدياً يعرف بالأفوش، وكان لا يبعث إلا في مهم، أمره بالإسراع والجد في السير. فسار من مصر إلى حلب في خمس. وهي مسيرة شهر. فوجد أمير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه إلى الموضع الذي يخنق به الناس، فخلصه الله تعالى، وعاد إلى موضعه. ولقيت هذا الأمير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي، بموضع يقال له: العمق، متوسط بين أنطاكية وتيزين وبغراس، ينزله التركمان بمواشبهم، لخصبه وسعته. ثم سافرت إلى حصن الشعْرُبِكَاس، (وضبط اسمه بضم الشين المعجم وإسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة)، وهو منيع في رأس شاهق، أميره سيف الدين الطنطاش فاضل، وقاضيه جمال الدين بن شجرة، من أصحاب ابن تيمية. ثم سافرت إلى مدينة صهيون، وهي مدينة حسنة بها الأنهر المطردة، والأشجار المورقة، ولها قلعة جيدة، وأميرها يعرف بالإبراهيمي، وقاضيها محيي الدين الحموي، وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله، وقد

زرت قبره. ثم سافرت منها، فمررت بمحصن القدموس، (وضبط اسمه بفتح القاف وإسكان الدال المهمل وضم الميم وآخره سين مهمل)، ثم بمحصن الميّتقة، (وضبط اسمه بفتح الميم وإسكان الياء وفتح النون والقاف)، ثم بمحصن العليقة، واسمه على لفظ واحدة العليق، ثم بمحصن مصياف (وصاده مهملة)، ثم بمحصن الكهف. وهذه الحصون لطائفة يقال لهم: الإسماعيلية، ويقال لهم الفداوية. ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم. وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من يudo عنه من أعدائه بالعراق وغيرها، ولم يرتبوا. وإذا أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدو له أعطاهم ديته، فإن سلم بعد تأكيده ما يراد منه فهي له، وإن أصيب فهي لولده. وهم سكاكيين مسمومة يضربون بها من بعضها إلى قتلهم. وربما لم تصح حيلهم فقتلوا. كما جرى لهم مع الأمير قراسنكور. فإنه لما هرب إلى العراق بعث إليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لأنّه بالحزم.

حكاية

كان قراسنكور من كبار الأمراء، ومن حضر قتل الملك الأشرف أخي الملك الناصر، وشارك فيه. ولما تهدى الملك للملك الناصر، وقربه القرار، واستندت أواخي سلطانه، جعل يتبع قتلة أخيه، فيقتلهما واحداً وواحداً، إظهاراً للأخذ بثار أخيه، وخوفاً أن يتجرسوا عليه بما تجاسروا على أخيه. وكان قراسنكور أمير الأمراء بحلب. فكتب الملك الناصر إلى جميع الأمراء أن ينفروا بعساكرهم. وجعل لهم ميعاداً يكون فيه اجتماعهم بحلب، ونزل لهم عليها، حتى يقبضوا عليه. فلما فعلوا ذلك، خاف قراسنكور على نفسه، وكان له ثمانمائة ملوك، فركب فيهم، وخرج على العساكر صباحاً، فاخترقهم وأعجزهم مقاً. وكانوا في عشرين ألفاً، وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى، وهو على مسيرة يومين من حلب. وكان مهنا في قنص له، فقصد بيته، ونزل عن فرسه، وألقى العمامه

في عنق نفسه ، ونادي الجوار يا أمير العرب ، وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له : قد أجرناك وأجرنا من معك . فقال : إنما أطلب أولادي ومالي . قالت له : لك ما تحب ، فانزل في جوارنا . ففعل ذلك . وأتى مهنا ، فأحسن نزله وحَكَّه في ماله . فقال : إنما أحب أهلي ومالي الذي تركته بحلب . فدعا مهنا ياخوته وبني عمه ، فشاورهم في أمره . فمنهم من أجابه إلى ما أراد ، ومنهم من قال : كيف تحارب الملك الناصر ، ونحن في بلاده بالشام ؟ فقال لهم مهنا : أما أنا فأفعل لهذا الرجل ما يريد ، وأذهب معه إلى سلطان العراق . وفي أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بأن أولاد قراستقور سُرّروا على البريد إلى مصر . فقال مهنا لقراستقور : أما أولادك فلا حيلة فيهم ، وأما مالك فنجتهد في خلاصه . فركب فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفاً ، وقصدوا حلب ، فأحرقوا باب قلعتها ، وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراستقور ومن بقي من أهله ، ولم يتعدوا إلى سوى ذلك . وقصدوا ملك العراق ، وصاحبهم أمير حصن الأفروم . ووصلوا إلى الملك محمد خدابنده سلطان العراق ، وأعطي قراستقور مصيغه المسمى قراباغ (فتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) ، وهو ما بين السلطانية وتبريز ، فأكرم نزفهم ، وأعطي مهنا عراق الصغيرة ، وأعطي الأفروم همدان . وأقاموا عنده مدة مات فيها الأفروم . وعاد مهنا إلى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود ، أخذها منه . وبقي قراستقور على حاله . وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة ، فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ، ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه . وقتل بسببيه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبداً ، ولا ينام إلا في بيت العود والحديد . فلما مات السلطان محمد وولي ابنه أبو سعيد وقع ما سذكره من أمر الجوبان ، كبير أمرائه ، وفار ولده الدمرطاش إلى الملك الناصر . ووقعت

الراسلة بين الملك الناصر وبين أبي سعيد ، واتفقا على أن يبعث أبو سعيد إلى الملك الناصر برأس قراسنكور ، ويبعث إليه الملك الناصر برأس الدمرطاش . فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش إلى أبي سعيد ، فلما وصله أمر بحمل قراسنكور إليه ، فلما عرف قراسنكور بذلك أخذ خاتماً كان له محففاً ، في داخله سم ناقع ، فنزع فصه ، وامتص ذلك السم فمات لحيته ، فعرف أبو سعيد بذلك الملك الناصر ، ولم يبعث له برأسه . ثم سافرت من حصون الفداوية إلى مدينة جبلة ، وهي ذات أنهار مطردة وأشجار ، البحر على نحو ميل منها . وبها قبر الولي الصالح الشهير إبراهيم بن أدhem رضي الله عنه ، وهو الذي نبذ الملك ، وانقطع إلى الله تعالى ، حسبما شهر ذلك . ولم يكن إبراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس إنما ورث الملك عن جده أبي أمه . وأما أبوه أدhem فكان من الفقراء الصالحين السائرين المتبعدين الورعين المنقطعين .

حكاية أدhem

يذكر أنه من ذات يوم بيساتين مدينة بخارى ، وتوضأ من بعض الأنهر التي تتخللها ، فإذا بتفاحة يحملها ماء النهر . فقال : هذه لا خطرا لها . فأكلها ، ثم وقع في خاطره من ذلك وسوس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان ، فقرع باب البستان فخرجت إليه جارية . فقال : أدعني لي صاحب المنزل فقالت : إنه لامرأة . فقال : استأذني لي عليها ، ففعلت فأخبر المرأة بخبر التفاحة . فقالت له : إن هذا البستان نصفه لي ، ونصفه للسلطان ، والسلطان يومئذ بليخ ، وهي على مسيرة عشرة من بخارى وأحلته المرأة من نصفها ، وذهب إلى بلخ فاعتراض السلطان في موكيه فأخبره الخبر ، واستحله . فأمره أن يعود إليه من الغد . وكان للسلطان بنت بارعة الجمال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمتنعت وحبيت إليها العبادة وحب الصالحين . وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهر في الدنيا . فلما عاد

السلطان إلى منزله أخبر ابنته بخبر أدهم ، وقال : ما رأيت أورع من هذا ، يأتي من بخارى إلى بلخ لأجل نصف تفاحة . فرغبت في تزوجه . فلما أتاه من الغد ، قال : لا أحلك إلا أن تتزوج بيتي . فانقاد لذلك بعد استعصاء ، وتمتنع ، فتزوج منها ، فلما دخل عليها وجدها متزينة . والبيت مزين بالغرسن وسواها . فعمد إلى ناحية من البيت ، وأقبل على صلاته حتى أصبح ، ولم يزل كذلك سبع ليال . وكان السلطان ما أحله قبل فبعث إليه أن يحمله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك . فلما كان الليل واقعها ، ثم اغتسل ، وقام إلى الصلاة فصالح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتاً رحمه الله ، وحكت منه ، فولدت إبراهيم . ولم يكن لجده ولد فأسند الملك إليه . وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر . وعلى قبر إبراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء ، وبها الطعام للصادر والوارد وخدمتها إبراهيم الجمي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ، ويقيمون بها ثلاثة . ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم ، فيه من كل شيء ويقدم القراء المتجردون من الآفاق لحضور هذا الموسم ، وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي خادمها شمعة ، فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة . وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله ، وهم لا يصلون ولا يتظهرون ولا يصومون . وكان الملك الظاهر أ Zimmerman بناء المساجد بقراهم ، فبنوا بكل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه . وربما أوت إليه مواشיהם ودواههم وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد ويؤذن إلى الصلاة فيقولون لا تنعق علفك يأتيك وعددهم كثير .

حكاية

ذكر لي أن رجلاً مجهولاً وقع ببلاد هذه الطائفة ، فادعى الهدایة ، وتكلاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد ، وقسم بينهم بلاد الشام ، وكان يعين لهم البلاد ،

يأمرهم بالخروج إليها ، ويعطىهم من ورق الزيتون ، ويقول لهم : استظهروا بها ، فإنها كالأوامر لكم فإذا خرج أحدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له : إن الإمام المهدى أعطاني هذا البلد ، فيقول له : أين الأمر فيخرج ورق الزيتون . فيضرب ويحبس . ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وأن يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم أن يأخذوا عوض السيف قضبان الآس ، ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيفاً عند القتال فعدروا مدينة جبلة ، وأهلها في صلاة الجمعة ، فدخلوا الدور ، وهاكوا الحريم . وثار المسلمون من مسجدهم ، فأخذوا السلاح وقتلوا هم كيف شاءوا واتصل الخبر باللاذقية ، فقبل أميرها بهادر عبد الله بعساكره ، وطيرت الحمام إلى طرابلس ، فأتى أمير الأمراء بعساكره واتبعوهم حتى قتلوا منهم نحو عشرين ألفاً ، وتحصن الباقيون بالجبال . وراسلوا ملك الأمراء والتزموا أن يعطوه ديناراً عن كل رأس ، إن هو حاول إبقاءهم . وكان الخبر قد طير به الحمام إلى الملك الناصر . وصدر جوابه أن يحمل عليهم السيف . فراجعه ملك الأمراء ، وألقى له أنهم عمال المسلمين في حراثة الأرض ، وأنهم إن قتلوا ضعف المسلمين لذلك ، فأمر بالإبقاء عليهم . ثم سافرت إلى مدينة اللاذقية وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر . يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً . وكانت إنما قصدها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الإسكندرى - فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف . فلقيت من أصحابه الشيوخ الصالحين سعيد البجائي ويحيى السلاوي ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبارها ، صاحب الصدقات والمكارم ، وكان قد عمر لها زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر . وقضيتها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصري المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الأمراء فولاه قضاها .

حكاية

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه، متهم في دينه، مستخفٌ يتكلّم بالقبائح من الإلحاد. فعرضت له حاجة عند طيلان ملك النساء، فلم يقضها له. فقد صد مصر، وتقول أموراً شنيعة، وعاد إلى اللاذقية. فكتب طيلان إلى القاضي جلال الدين أن يتخيّل في قتله بوجه شرعي، فدعاه القاضي إلى منزله وباحثه واستخرج كامن إلحاده، فتكلّم بعظامه أيسراً يوجب القتل، وقد أعد القاضي الشهود خلف الحجاب ليكتبوه عقداً بمقائه، وثبت عند القاضي وسجين، وأعلم ملك النساء بقضيته، ثم أخرج من السجن، وتحقّق على بابه، ثم لم يلبث ملك النساء طيلان أن عزل عن طرابلس، وولى لها الحاج قرطية من كبار النساء، ومن تقدّمت له فيها الولاية، وبينه وبين طيلان عداوة، فجعل يتبع سقطاته، وقام لديه إخوة ابن المؤيد شاكين القاضي جلال الدين، فأمر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فأحضروا وأمر بختقهم، وأخرجوا إلى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس، وأجلس كل واحد تحت مخنته، وزرعت عيالهم. ومن عادة أمراء تلك البلاد أنه متى أمر أحدهم بقتل أحد من الناس يمرّ الحاكم من مجلس الامير سبقاً على فرسه إلى حيث المأمور بقتله، ثم يعود إلى الأمير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثة، فإذا كان بعد الثلاث أنفذ الأمر، فلما فعل الحاكم ذلك قامت النساء في المرة الثالثة وكشفوا رؤوسهم وقالوا: أيها الأمير هذه سبة في الإسلام يقتل القاضي والشهدود. فقبل الأمير شفاعتهم وخلّ سبيلهم. وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيغونه. وطعامهم الخبز والجبنة والزيتون والخل البكر. ومنيناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد، ولا يخرج منها حتى

تحط له السلسلة . وهي من أحسن المراسيم بالشام . ثم سافرت إلى حصن المربج ، وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك . ومبناه على جبل شامخ ، وخارجته ربض ينزله الغرباء ، ولا يدخلون قلعته . وافتتحه من أيدي الروم الملك المنصور قلاوون ، وعليه ولد ابنه الملك الناصر . وكان قاضيه برهان الدين المصري من أفضل القضاة وكرمائهم ، ثم سافرت إلى الجبل الأقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول ما يظهر منها من البحر ، وسكناه التركمان . وفيه العيون والأنهار . وسافرت منه إلى جبل لبنان ، وهو من أخصب جبال الدنيا ، فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الواقفة ، ولا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا إلى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

حكاية

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال : كنا بهذا الجبل مع جماعة من القراء أيام البرد الشديد ، فأوقتنا ناراً عظيمة ، وأحدقنا بها . فقال بعض الحاضرين : يصلح لهذه النار ما يشوى فيها . فقال أحد القراء من تزدريه الأعين ولا يعبأ به : إني كنت عند صلاة العصر بمبعد إبراهيم بن أدهم ، فرأيت بمقدمة منه حار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب ، وأظنه لا يقدر على الحراك ، فلو ذهبت إليه لقدرتم عليه وشويت لحمه في هذه النار . قال : فقمت إليه في خمسة رجال ، فلقيناه كما وصف إلينا ، فقبضناه وأتينا به أصحابنا ، وذبحناه وشوينا لحمه في تلك النار ، وطلبنا الفقير الذي نبه عليه فلم نجده ، ولا وقعنا له على أثر ، فطال عجبنا منه . ثم وصلنا من جبل لبنان إلى مدينة بعلبك . وهي حسنة قدية من أطيب مدن الشام ، تصدق بها البستان الشريفة والجනات المنيفة ، وتحترق أرضها الأنهر الجارية ، وتضاهي دمشق في خبراتها المتناهية . وبها من حب الملوك (١)

(١) ثمار الكرز .

ما ليس في سواها . وبها يصنع الدبس المنسوب إليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب وهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها ، فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منه الحلواء ، ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن ، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس . وهي كثيرة الألبان ، وتحلب منها إلى دمشق ، وبينها مسيرة يوم لل Mage وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني ، كثيرة الفواكه ويغدون منها إلى دمشق ، ويصنع بعلبك الثياب المنسوبة إليها من الأحرام وغيره ، ويصنع بها أواني الخشب ، وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، وهم يسمون الصحاف بالدسوت . وربما صنعوا الصحافة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها ، وأخرى في جوفها ، إلى أن يبلغوا العشرة ، يخيل لرأيها أنها صحفة واحدة ، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة ، واحدة في جوف واحدة ، ويصنعون لها غشاء من جلد ، ويسكها الرجل في حزامه ، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك ، فيظن رأيه أنها ملعقة واحدة ، ثم يخرج من جوفها تسعة ، وكان دخولي لبعلك عشية النهار . وخرجت منها بالغد ، ولفترط اشتياقي إلى دمشق وصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان معظم عام ستة وعشرين إلى مدينة دمشق الشام ، فنزلت منها بمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية ، ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جالاً ، وكل وصف ، وإن طال ، فهو قاصر عن محسنه . ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى في ذكرها قال : وأما دمشق فهي جنة المشرق ، ومطلع نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام متى استقريناها^(١) ، وعروض المدن التي اجتبناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين وتحللت في حل سندسية من البساتين ، وحلّت موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزيينت في منصتها أجمل تزيين ،

(١) تبعناها لمعرفة خواصها ومزاياها .

وتشرفت بأن أوى المسيح عليه السلام وأمه منها إلى ربوة منها ذات قرار ومعين^(١)
 وظل ظليل ، وماء سلسيل : تناسب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض
 يحيى النفوس نسيمها العليل ، تتبرج لنظرتها بمحبتل صقيل ، وتناديهن هلموا إلى
 معرس للحسن ومقليل ، وقد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت إلى الظماء .
 فتكاد تناديك بها الصم والصلاب : اركض برجلك ، هذا مفترس بارد وشراب .
 وقد أحدق البستين بها إحداق الهالة بالقمر والأكام بالشمر ، وامتدت بشرقيها
 غوطتها الخضراء امتداد البصر ، وكل موضع لحظت بجهاتها الأربع نضرته اليانعة
 قيد البصر والله صدق القائلين عنها : إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك
 فيها ، وإن كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها . قال ابن جزي : وقد نظم بعض
 شعرائها في هذا المعنى فقال :

إن تكون جنة الخلود بأرض فدمشق ولا تكون سواها
 أو تكون في السماء فهي عليها قد أبدت هواءها وهواها
 بلد طيب ورب غفور فاغتنمها عشية وضحاها

وذكر شيخنا المحدث الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن
 حسان القيسي الوادي آشي ، نزيل تونس : نص كلام ابن جبير ، ثم قال : ولقد
 أحسن فيما وصف منها وأجاد . وتتوقد الأنفس للتطلع على صورتها بما أفاد . هذا
 وإن لم تكن له بها إقامة . فيعرب عنها بحقيقة وعلامة . ولا وصف ذهبيات
 أصيلها . وقد حان من الشمس غروبها ولا أزمان جفوها المنوعات . ولا أوقات
 شرورها المنبهات ، وقد اختص من قال : ألفيتها كما تصف الألسن . وفيها ما

(١) القول بأن دمشق هي الربوة ذات القرار والمعين التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة «المؤمنون» في الآية رقم ٥ هو أحد أقوال أربعة بقيتها أنها مصر أو الرملة أو بيت المقدس ، وأنظر الأقوال وأرجحها هو الأخير .

تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. قال ابن جزي : والذى قالته الشعرا فى وصف
محاسن دمشق لا يحصر كثرة . وكان والدى رحمه الله كثيراً ما ينشد فى وصفها
هذه الأبيات ، وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى :

وإن لـجَّ وـاـشِ أو أـلـحَّ عـذـولُ
عـبـيرٌ وـأـنـفـاسُ الشـمـالِ شـمـولٌ
وـصـحـ نـسـيمـ الروـضـ وـهـوـ عـلـيلـ

دمـشـقـ بـنـاـ شـوـقـ إـلـيـهـاـ مـبـرـحـ
بـلـادـ بـهـاـ الـحـصـبـاءـ دـرـ وـتـرـبـهـاـ
تـسـلـسـلـ فـيـهـاـ مـاـؤـهـاـ وـهـوـ مـطـلـقـ

وهذا من النمط العالى من الشعر . وقال فيها عرقلة الدمشقى الكلبى :

إـنـسـانـ مـقـلـتـهـاـ الغـضـيـضـةـ جـلـقـ
وـمـنـ الشـقـيقـ جـهـنـمـ لـاـ تـخـرـقـ

الـشـامـ شـامـةـ وـجـنـةـ الدـنـيـاـ كـمـاـ
مـنـ آـسـهـاـ لـكـ جـنـةـ لـاـ تـنـقـضـيـ
وـقـالـ أـيـضاـ فـيـهـاـ :

لـلـطـالـبـينـ بـهـاـ الـوـلـدـانـ وـالـحـورـ
إـلـاـ يـغـنـيـهـ قـمـرـيـ وـشـحـرـوـرـ
أـنـامـلـ الـرـيـحـ إـلـاـ أـنـهـاـ زـوـرـ

أـمـاـ دـمـشـقـ فـجـنـاتـ مـعـجـلـةـ
مـاـ صـاحـ فـيـهـاـ عـلـىـ أـوـتـارـهـ قـمـرـ
يـاـ حـبـذاـ وـدـرـوـعـ الـهـاءـ تـنـسـجـهـاـ

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك . وقال فيها أبو الوحوش سبع بن خلف
الأستدي :

مـنـ مـسـتـهـلـ دـيـةـ دـهـاقـهـاـ
فـيـ سـائـرـ الدـنـيـاـ لـاـ آـفـاقـهـاـ
مـنـهـاـ لـاـ تـعـزـىـ إـلـىـ عـرـاقـهـاـ
وـزـهـرـهـاـ كـالـزـهـرـ فيـ إـشـرـاقـهـاـ
فـكـ أـخـاـ الـهـمـومـ مـنـ وـتـاقـهـاـ

سـقـىـ دـمـشـقـ اللـهـ غـيـثـاـ مـحـسـنـاـ
مـدـيـنـةـ لـيـسـ يـضـاهـىـ حـسـنـهـاـ
تـوـدـ زـوـرـاءـ الـعـرـاقـ أـنـهـاـ
فـأـرـضـهـاـ مـثـلـ السـيـاهـ بـهـجـةـ
نـسـيمـ روـضـهـاـ مـتـىـ مـاـ قـدـ سـرـىـ

قد رفع الربيع في ربوعها
وسيقت الدنيا إلى أسواقها
لا تسام العيون والأذوف من
رؤيتها يوماً ولا استنشاقها
وما يناسب هذا للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيشاني فيها من قصيدة، وقد
نسبت أيضاً لابن المير:

يا برقُ هل لك في احتمال تحيةٍ
 باكرٌ دمشق يمشق الحياة
 وأجرر بيرون ذيولك واحتخصص
 حيث الحياة الرابع محلول الحياة
 وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسبي الغرناطي المدعو نور
 الدين :

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا
القصب راقصة والطير صادحة
وقد تجلت من اللذات أوجهها
 وكل واد به موسى يفجره
 مكملاً وهو في الآفاق مختصرٌ
 والزهر مرتفع والماء منحدر
 لكنهـا بظلال الدوح تستتر
 وكل روض على حفافاته الخضر

في جنة هي ملء السمع والبصر
وروض الفكر بين الروض والنهر
واسمع إلى نغمات الطير في الشجر
ادعني فإنك عندي سُوقَة البشر

خيّم جلق بين الكاس والوتر
ومتّع الطرفة في مرأى حاسنه
وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها
وقل لام في لذاته بشرأ

وقال أيضاً فيها :

أما دمشق فجنة ينسى بها الوطن الغريب

لله أيام السبوت
 بها ومنظرها العجيب
 أنظر بعينك هل ترى
 إلا محبأً أو حبيب
 في موطنِ غنى الحمام
 به على رقص القصيب
 وغدتْ أزاهرُ روضهِ
 تختالُ في فرح وطيب

وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، إنما يخرون إلى المتزهات
 وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار، بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون
 بها يومهم إلى الليل، وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع إلى كلام
 الشيخ أبي عبد الله.

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية

وهو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة
 وكمالاً، ولا يعلم له نظير، ولا يوجد له شبيه، وكان الذي تولى بناءه وإتقانه
 أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان. ووجه إلى ملك الروم بقسطنطينية
 يأمره أن يبعث إليه الصناع، فبعث إليه اثني عشر ألف صانع. وكان موضع
 المسجد كنيسة. فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه
 من إحدى جهاتها بالسيف، فانتهتى إلى نصف الكنيسة. ودخل أبو عبيدة بن
 الجراح رضي الله عنه من الجهة الغربية صلحاً، فانتهتى إلى نصف الكنيسة. فصنع
 المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً، وبقي النصف الذي
 صالحوا عليه كنيسة. فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم
 أن يبيعوا له كنيستهم تلك بما شاءوا من عوض، فأبوا عليه. فانتزعها من
 أيديهم. وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها ي恨ن، فذكروا ذلك للوليد فقال: أنا
 أول من ي恨ن في سبيل الله، وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه. فلما رأس المسلمين

ذلك تتبعوا على المدم . وأكذب الله زعم الروم . وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء ، تخلطها أنواع الأصبغة الغريبة الحسن ، وذرع المسجد في الطول من الشرق إلى الغرب مائتا خطوة ، وهي ثلاثة ذراع ، وعدد عرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهي مائتا ذراع ، وعدد شمسات الزجاج الملون الذي فيه أربع وسبعون . وبلاطاته الثلاثة مستطيلة من شرق إلى غرب ، سعة كل بلاط منها ثمانية عشرة خطوة . وقد قامت على أربع وخمسين سارية ، وثمانى أرجل حصية ، تخللها ، وست أرجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون ، قد صور فيها أشكال محاريب وسواها . وهي تقل قبة الرصاص التي أمام المحراب المسماة بقبة النسر كأنهم شبهوا المسجد نسراً طائراً ، والقبة رأسه ، وهي من أعجب مباني الدنيا .

ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاتية في الهواء منيفة على جميع مباني البلد ، وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية ، سعة كل بلاط منها عشر خطى . وبها من السواري ثلاث وثلاثون ، ومن الأرجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع ، وهو من أجل المناظر وأتمها حسناً ، وبها يجتمع أهل المدينة بالعشایا ، فمن قارئ ومحدث وذاهب . ويكون انصاراً لهم بعد العشاء الأخيرة وإذا لقي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباً له أسرع كل منها نحو صاحبه وقبل رأسه . وفي هذا الصحن ثلاثة من القباب إحداها في غربيه ، وهي أكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين . وهي قائمة على ثمانى سوارٍ من الرخام مزخرفة بالفصوص والأصبغة الملونة مسقفة بالرصاص .

ويقال : إن مال الجامع كان يختزن بها . وذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع وجايته نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كل سنة . والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الأخرى ، إلا أنها أصغر منها قائمة على ثمانٍ من سواري الرخام ، وتسمى قبة زين العابدين . والقبة الثالثة في وسط الصحن ، وهي صغيرة

مئنة من رخام عجيب محكم الإلصاق، قائمة على أربع سوارٍ من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد في وسطه أنبوب نحاس، يمْجَد الماء إلى علو، فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين. وهم يسمونهم قفص الماء. ويستحسن الناس وضع أفواههم فيه للشرب. وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي إلى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويقابلة من الجهة الغربية حيث يلتقي البلطان الغربي والجوفي موضع يقال: إن عائشة رضي الله عنها سمعت الحديث هنالك.

وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يُؤْمِن فيها إمام الشافعية وفي الركن الشرقي منها إزاء المحراب خزانة كبيرة فيه المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الشام. وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم. وهنالك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئاً. وعن يسار المقصورة محراب الصحابة. ويدرك أهل التاريخ أنه أول محراب وضع في الإسلام - وفيه يُؤْمِن إمام المالكية - وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يُؤْمِن إمامهم، ويليه محراب الحنابلة وفيه يُؤْمِن إمامهم. ولهذا المسجد ثلات صوامع إحداها بشريقيه، وهي من بناء الروم. وبابها داخل المسجد، وبأسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والمتزمرون للمسجد ويتوضاون.

والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم.

والصومعة الثالثة بشماله، وهي من بناء المسلمين. وعدد المؤذنين به سبعون مؤذناً. وفي شرقي المسجد صومعة كبيرة فيها صهريج ماء وهي لطائفة الزيالية السودان. وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام، وعليه تابوت معترض بين أسطوانتين مكسو بثوب حرير أسود معلم فيه مكتوب بالأبيض: ﴿يا زكريا إنا

نبشرك بغلام اسمه يحيى^(١) وهذا المسجد شهير الفضل . وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وفي الأثر عن النبي ﷺ أنه قال : « يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة ». ويقال : إن الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام ، وأن قبره به . وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له : الأحلاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر ﷺ . ومن فضائل هذا المسجد أنه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاحة إلا قليلاً من الزمان ، كما سنذكره . والناس يجتمعون به كل يوم إثر صلاة الصبح فيقرأون سبعاً من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثيرية ، يقرأون فيها من سورة الكوثر إلى آخر القرآن . وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجري لهم وهم نحو ستمائة إنسان . ويدور عليهم كاتب الغيبة ، فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته . وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر ، لا يفترون عن ذلك . ويتوطدون من المطاهير التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها . وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك ، وفي هذا المسجد أربعة أبواب : باب قبلي يعرف بباب الزيادة ، وبأعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانين السقاطين وغيرهم ، ومنه يذهب إلى دار الخيل . وعن يسار الخارج منه ساط الصفارين ، وهي سوق عظيمة تتد مع جدار المسجد القبلي ، من أحسن أسواق دمشق . وبموقع هذه السوق كانت دار معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه ، وكانت تسمى الخضراء . فهدمتها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقاً . وباب شرقي وهو أعظم أبواب المسجد ، ويسمى بباب جبرون . ولله دهليز عظيم يخرج منه إلى بلاط عظيم

(١) مرم : ٧

طويل أمامه خمسة أبواب لها ستة أعمدة طوال . وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه . ويليه مسجد صغير ينسب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وبه ماء جاري . وقد انتظمت أمام البلاط درج ينحدر فيها إلى الدهلiz ، وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال وجانبي هذا الدهلiz أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البازارين وغيرهم . وعليها شارع مستطيلة فيها حوانين الجوهررين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة . وفي الرحبة المتصلة بالباب الأول دكاكين لكتاب الشهود ، منها دكان للشافعية ، وسائرها لأصحاب المذاهب . يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول ، والعائد للأنكحة من قبل القاضي ، وسائر الشهود مفترقون في المدينة . وبمقربة من هذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والأقلام والمداد . وفي الدهلiz المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لاسقف لها ، تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يموج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الإنسان يسمونه الفوارة ، منظره عجيب . وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات ، غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتوحة لها أبواب على عدد ساعات النهار . والأبواب مصبوغ باطنها بالخضرة وظاهرها بالصفرة ، فإذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الأخضر ظاهراً والظاهر الأصفر باطناً . ويقال : إن بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات . والباب الغربي يعرف بباب البريد ، وعن يمين الخارج منه مدرسة الشافعية . وله دهلiz فيه حوانين للشماعين ، وساط لبيع الفواكه . وبأعلاه باب يصعد إليه في درج له أعمدة سامية في الهواء . وتحت الدرج سقاياتان عن يمين وشمال مستديرتان . والباب الجوفي يعرف بباب النطفانيين ، وله دهلiz عظيم . وعن يمين الخارج منه خانقاہ تعرف بالشمعانية ، في وسطها صهريج ماء . ولها مظاهر يجري فيها الماء . ويقال : إنها

كانت دار عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . وعلى كل باب من أبواب المسجد الأربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة .

ذكر الأئمة بهذا المسجد

وأئمته ثلاثة عشر إماماً . أولهم الشافعية ، وكان في عهد دخولي إليها إمامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء ، وهو الخطيب بالمسجد ، وسكناه بدار الخطابة ، ويخرج من باب الحديد إزاء المقصورة ، وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية . وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية ، بعد أن أدى عنه الملك الناصر نحو مائة ألف درهم كانت ديناً عليه بدمشق . وإذا سلم إمام الشافعية من صلاته أقام للصلوة إمام مشهد علي ، ثم إمام مشهد الحسين ثم إمام مشهد الكلasa ثم إمام مشهد أبي بكر ثم إمام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ثم إمام المالكية . وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجبي ، القرطبي الأصل ، الغرناطيي المولد ، نزيل دمشق . وهو يتناوب الإمامة مع أخيه رحمهما الله . ثم إمام الحنفية ، وكان إمامهم في عهد دخولي إليها الفقيه عmad الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ، وهو من كبار الصوفية . وله شياخة الخانقاه الخاتونية ؛ وله أيضاً خانقاه بالشرف الأعلى . ثم إمام الخنابلة وكان ذلك العهد الشيخ عبدالله الكيفي أحد شيوخ القراء بدمشق . ثم بعد هؤلاء خمسة أيام لقضاء الفوائت فلا نزال الصلاة في هذا المسجد من أول النهار إلى ثلث الليل ، وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر الجامع المبارك .

ذكر المدرسين والمعلمين به

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم. والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسٍ مرتفعة. وقراء القرآن يقرأون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً . وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم . وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى ، وإنما يقرأون القرآن تلقيناً . ومعلم الخط غير معلم القرآن ، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ، فينصرف الصبي من التعلم إلى التكتيب ، وبذلك -اد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره . ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي ، ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح . ولما ولي القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه إلى أبي اليسر الخلعة والآمر بقضاء دمشق ، فامتنع من ذلك . ومنهم الإمام العالم شهاب الدين بن جهيل من كبار العلماء . هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضايتها خوفاً من أن يقلد القضاء فاتصل بذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القووني وهو من كبار الفقهاء . ومنهم الإمام الفاضل بدر الدين علي السخاوي رحمة الله عليهم أجمعين .

ذكر قضاة دمشق

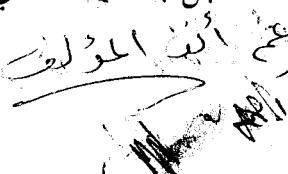
قد ذكرنا قاضي القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني . وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين ، خطيب الفيوم ، حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء . وهو شيخ شيوخ الصوفية ، والنائب عنه في القضاء شمس الدين بن القفصي ، و مجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية . وأما قاضي قضاة الخفية فهو عماد الدين الحوراني . وكان شديد السلطة . وإليه تحاكم النساء

وأزواجهن . وكان الرجل إذا سمع اسم القاضي الحنفي أنسف من نفسه قبل الوصول إليه . وأما قاضي الحنابلة فهو الإمام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله عليه السلام لما توجه للحجاج الشريف .

حكاية

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم في الفنون . إلا أن في عقله شيئاً . وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، ويعظمهم على المنبر . وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء ، ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإدخاله إلى القاهرة ، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر ، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال : إن هذا الرجل قال كذا وكذا ، وعدد ما أنكر على المنبر ابن تيمية ، وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية : ما تقول ؟ قال : لا إله إلا الله فأعاد عليه فأجاب بعثل قوله . فأمر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواماً . وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه البحر المحيط ، في نحو أربعين مجلداً . ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر ، وشكى إليه ، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية . وكانت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة^(١) وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويدركهم . فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ونزل

(١) يظهر من خلال كلام ابن بطرطة تحامله الشديد على شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ، وتضاربه في كلامه ، فبینا يصفه بأنه من كبار الفقهاء الحنابلة يقول : إلا أن في عقله شيئاً ، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ، فكيف يتفق أن يكون من كبار فقهاء الحنابلة وموضع تعظيم أهل دمشق مع أن في عقله شيئاً ؟ ثم إنه يزعم أنه حضره يوم الجمعة يعظ الناس على منبر الجامع ويدركهم وأن من جملة كلامه : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ، يزعم هذا رسم أنه لم يصل دمشق إلا في يوم الخميس تاسع رمضان ، وابن تيمية اعتقل وسجن بقلعة دمشق - باتفاق المؤرخين - في يوم الإثنين سادس عشر شعبان ، جنبنا الله الزلل .

درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء ، وأنكر ما تكلم به . فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً حتى سقطت عمامته ، وظهر على رأسه شاشية حرير ، فأنكرروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الخانبلة ، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك . فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيزه ، ورفعوا الأمر إلى ملك النساء سيف الدين تنكizer ، وكان من خيار النساء وصلحائهن . فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بأمور منكرة ، منها أن المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزم إلا طلقة واحدة ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيباً لا يقصر الصلاة ، وسوى ذلك ما يشبهه ، وبعث العقد إلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة ، فسجن بها حتى مات في السجن  السجن مرحلة الراحل عزمه عنده . سمع ابن المؤذن

ذكر مدارس دمشق

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس ، أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة . وتقابلاً لها المدرسة الظاهرية ، وبها قبر الملك الظاهر ، وبها جلوس نواب القاضي . ومن نوابه فخر الدين القبطي وكان والده من كتاب القبط وأسلم . ومنهم جمال الدين بن جملة ، وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك ، وعزل لأمر أوجب عزله .

حكاية

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي . وكان سيف الدين تنكizer ملك النساء يتتلمذ له ويعظمه . فحضر يوماً بدار العدل عند ملك النساء ، وحضر القضاة الأربع . فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية . فقال

له ظهير الدين : كذبت . فأنف القاضي من ذلك وامتعض له . فقال للامير : كيف يكذبني بحضرتك ؟ فقال له الأمير : احکم عليه ، وسلمه إليه وظنه انه يرضى بذلك فلا يناله بسوء . فأحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مائتی سوط ، وطيف به على حمار في مدينة دمشق ، ومتناهٍ ينادي عليه ، فمتي فرغ من ندائها ضربه على ظهره ضربة ، وهكذا العادة عندهم . فبلغ ذلك ملك الأمراء ، فأنكره أشد الإنكار ، وأحضر القضاة والفقهاء ، فأجعوا على خطأ القاضي ، وحكمه بغير مذهبة . فإن التعزير عند الشافعی لا يبلغ به الحد . وقال قاضي المالکیة شرف الدين : قد حكمت بتفسیقه فكتب إلى الملك الناصر بذلك ، فعزله . وللحنفیة مدارس كثيرة . وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين ، وبها يحکم قاضي الحنفیة . وللماکیة بدمشق ثلاثة مدارس إحداها الصمصاصیة ، وبها سکن قاضی قضاة المالکیة وقعوده للأحكام ، والمدرسة التوریة عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنکی ، والمدرسة الشرابشیة عمرها شهاب الدين الشرابشی التاجر ، وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها النجمیة .

ذكر ابواب دمشق

ولمدينة دمشق ثمانية أبواب ، منها باب الفراديس ، ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير . وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء ، فمن بعدهم .

قال محمد بن جزي : لقد أحسن بعض المتأخرین من أهل دمشق في قوله :

دمشق في أوصافها	جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها	قد جعلت ثمانيه

ذكر بعض المشاهد والمزارات بها

فمنها بالمقبرة التي بين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين ، وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية ، وقبر بلاط مؤذن رسول الله عليه السلام ، ورضي الله عنهم أجمعين ، وقبر أويس القرني ، وقبر كعب الأحبار رضي الله عنها . ووُجِدَتْ في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي أن جماعة من الصحابة صاحبهم أويس القرني من المدينة إلى الشام ، فتوفي في أثناء الطريق في برية لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره ، فنزلوا ، فوجدوا حنوطاً وكفناً وماء ، فعجبوا من ذلك ، وغسلوه وكفونه وصلوا عليه ودفونه . ثم ركبوا فقال بعضهم : كيف نترك قبره بغير علامه فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر . قال ابن جزي : ويقال : إن أويساً قتل بصفين مع علي عليه السلام ، وهو الأصح إن شاء الله ويلي باب الجابية باب شرقى عنده جبانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله عليه السلام ، وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الأشهب .

حكاية في سبب تسميته بذلك

يحكى أن الشيخ الولي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بأم عبيدة بمقدمة مدينة واسط ، وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة . ويقال : إن كل واحد منها كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساء فيرد عليه الآخر . وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته ، فلما كان في إحدى السنين جذها على عادته وترك عذقاً منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بال موقف الكريم بعرفة . ومع الشيخ أحمد خديه أرسلان ، فتفاوضا الكلام . وحكي الشيخ حكاية العذق فقال له أرسلان عن أمرك يا سيدي آتى به . فأذن له . فذهب من حينه وأتاه به ووضعه بين أيديها ،

فأخبر أهل الزاوية أنهم رأوا عشية يوم عرفة بازاً أشهب قد انقضى على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء . وبغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء . فيها قبر أبي الدرداء وزوجة أم الدرداء ، وقبر فضالة بن عبيد ، وقبر وائلة بن الأسعق ، وقبر سهل بن حنظلة من الذين بايعوا تحت الشجرة رضي الله عنهم أجمعين . وبقرية تعرف بالمنيحة شرقى دمشق وعلى أربعة أميال منها قبر سعد ابن عبادة رضي الله عنه ، وعليه مسجد صغير حسن البناء ، وعلى رأسه حجر مكتوب عليه هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلماً وبقرية قبلى البلد وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام . ويقال : إن اسمها زينب وكناها النبي عليه صلوات الله عليه أم كلثوم لشبهها بخالتها أم كلثوم بنت رسول الله عليه صلوات الله عليه ، وعليه مسجد كبير ، وحوله مساكن ، وله أوقاف . ويسمى أهل دمشق قبر الست أم كلثوم . وقبر آخر يقال : إنه قبر سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام . وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشريقة قبر يقال : إنه قبر أم مريم عليها السلام . وبقرية تعرف بداريا ، غرب البلد وعلى أربعة أميال منها قبر أبي مسلم الخوارزmi ، وقبر أبي سليمان الداراني رضي الله عنها . ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام ، وهو في قبلى دمشق ، على ميلين منها ، على قارعة الطريق الأعظم الآخذ إلى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله أوقاف كثيرة ، ويعظمه أهل دمشق تعظيمًا شديداً . والأقدام التي ينسب إليها هي أقدام مصورة في حجر هناك يقال : إنها أثر قدم موسى عليه السلام . وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى عليه صلوات الله عليه في النوم فيقول له هنا قبر أخي موسى عليه السلام . وبمقدمة من هذا المسجد موضع يعرف بالكتيب الأخضر ، وبقربة من بيت المقدس وأريحا موضع يعرف بالكتيب الأحر تعظمه اليهود .

حكاية

شاهدت أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين من تعظيم أهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه، وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر منادياً ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام، ولا يطبخون بالسوق. فقام الناس ثلاثة أيام متالية، كان آخرها يوم الخميس. ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع، حتى غص بهم، وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصلٍّ وذاكر وداعٍ، ثم صلوا الصبح، وخرجوا جميعاً على أقدامهم، وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة. وخرج جميع أهل البلد ذكوراً وإناثاً، صغراً وكباراً، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى يأنجيلهم، ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبئائه، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم إلى قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، وصلوا الجمعة. وخفف الله تعالى عنهم عندما انتهى عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد - وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد - وبالباب الشرقي من دمشق منارة بيضاء يقال إنها التي ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد في صحيح مسلم.

ذكر أرباض دمشق

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات، دوائلها أملح من داخل دمشق ، لأجل الضيق الذي في سككها . وبالجهة الشمالية منها ربض الصالحية ، وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير له منه ، وفيها مسجد جامع ومارستان ، وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيخوخ والكهول . وتجري لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل

والملابس وبداخل البلد أيضاً مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحة كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

ذكر قاسيون ومشاهده المباركة

وقاسيون: جبل في شمال دمشق ، والصالحية في سفحه وهو شهر البركة ، لأنه مصعد الأنبياء عليهم السلام . ومن مشاهده الكريمة الغار الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق ، عليه مسجد كبير ، وله صومعة عالية ، ومن ذلك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد في الكتاب العزيز وفي ظهر الغار مقامه الذي كان يخرج إليه . وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ، ما بين الخلة وبغداد يقال : إن مولد إبراهيم عليه السلام كان بها وهي بمقربة من بلد ذي الكفل عليه السلام ، وبها قبره . ومن مشاهده بالغرب منه ، مغارة الدم ، وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام ، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثراً محراً وهو الموضع الذي قتله أخوه به ، واجتره إلى المغارة . ويدرك أن تلك المغارة صلٍ فيها إبراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلٍ الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح في كل يوم اثنين وخيس والشمع والسرج توقد في المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بغار الجوع يذكر أنه أوى إليها سبعون من الأنبياء عليهم السلام ، وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم ، وكل منهم يؤثر صاحبه به ، حتى ماتوا جميعاً صلٍ الله عليهم ، وعلى هذه المغارة مسجد مبني والسرج توقد فيه ليلاً ونهاراً ولكل مسجد من هذه المساجد أوقف كثيرة معينة ويدرك أن فيها بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعين نبي ، وبعضهم يقول سبعين ألفاً ، وخارج المدينة المقبرة العتيقة ، وهي مدفن الأنبياء والصالحين

وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غالب عليها الماء يقال: إنها مدفن سبعين نبياً وقد عادت قراراً للهاء ونرثت من أن يدفن فيها أحد^(١).

ذكر الربوة والقرى التي تواлиها

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والممعن ، وملأى المسيح عيسى وأمه عليها السلام . وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والملائكة المبارك ، مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير ، وإزاءها بيت يقال : إنه مصل الخضر عليه السلام يبادر الناس إلى الصلاة فيها . وللملائكة باب حديد صغير والمسجد يدور به قوله شوارع دائرة وساقية حسنة ، ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ، ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر لل موضوع يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق ، وبها منابع مياهاها ، وينقسم الماء الخارج منها على سبعة أنهار ، كل نهر آخذ في جهة ، ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم ، وأكبر هذه الأنهار النهر المسمى بتويرة وهو يشق تحت الربوة ، وقد نحت له مجاري في الحجر الصلد ، كالغار الكبير ، وربما انغمس ذو الجسارة من العوامين في النهر من أعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة ، وهي مخاطرة

(١) لا أدري كيف انساق ابن بطوطة وراء المغافلات والأكاذيب التي تتناقلها العوام عن دمشق، وذكر ما يزعمون من ولادة إبراهيم الخليل عليه السلام فيها ومولده بالعراق لا في دمشق وذكر كذلك ما يزعمون من كهف آدم، ومغارة الدم وصلة عدد من الأنبياء فيها: ومدفن الآلاف الكثيرة من الأنبياء في جامع قاسيون، إن مكة أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسوله ليس لها من المناقب وليس بها من المشاهد ما زعموه في دمشق، وكان عليه ألا يكون حاطب ليل يجمع ويسجل كل ما يصل إلى سمعه، كان عليه أن يمحض وينقد، ويستخدم فكره قبل إبراد ما أورده.

عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ، ولها من الحسن واتساع مسرح الأ بصار ما ليس لسوها ، وتلك الأنهر السبعة تذهب في طرق شتى ، فتحار الأعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها . وجال الربوة وحسنها التام أعظم من أن يحيط به الوصف . ولها الأوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرابع ، تقام منها وظائفها للإمام والمؤذن والصادر والوارد وبأسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت أشجارها فلا يظهر من بنائها إلا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام ، وفيه سقاية رائعة الحسن ومطهرة ، فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلب نسبة إلى قبيلة كلب ابن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة وكانت إقطاعاً لهم وإليها ينسب الإمام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزّي وكثير سواه من العلماء وهي من أعظم قرى دمشق بها جامع كبير عجيب ، وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامدة والأسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناخيهم ، وفي شرقي البلد قرية تعرف بيت الأهة وكانت فيها كنيسة يقال : إن آزر كان يجلب فيها الأصنام فيكسرها الخليل عليه السلام ، وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزيين الثمام .

ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم

والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفایته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون

ويلبسون ويتوذدون لبلادهم، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون، وتمر الركبان بين ذلك، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير.

حكاية

مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم، إجمع شقفها واحلها معك لصاحب أوقاف الأولى فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشتري به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا. وأهل دمشق يتنافسون في عمار المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالغارة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهليين والأولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأنى له وجه من المعاش، من إمامية مسجد، أو قراءة بمدرسة أو ملازمته مسجد، يجيء إليه فيه رزقه أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق، تجري له النفقه والكسوة فمن كان بها غريباً على خير لم يزل مصوناً عن بذل وجهه محفوظاً عما يزري بالمرءة ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب آخر، من حراسة بستان أوأمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك. ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده ألبته فمن كان من الأماء والقضاة والكبار، فإنه يدعوا أصحابه والفقراء يفطرون عنده، ومن كان من

التجار وكبار السوق^(١) صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فإنهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم او في مسجد ، ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعاً ، ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغرب مني أن أفتر عنده في ليالي رمضان فحضرت عنده أربع ليال ثم أصابني الحمى فغبت عنه ، فبعث في طليبي ، فاعتذررت بالمرض ، فلم يسعني عذر^(٢) فرجعت إليه وبت عنده فلما أردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي : احسب داري كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك ، وأمر بإحضار طبيب وأن يصنع لي بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء ، وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد ، وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما أصابني .

وقد كان ما عندي من النفقه نفد ، فعلم بذلك فاكترى لي جالاً وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي : تكون لما عسى أن يعتريك من أمر مهم ، جزاء الله خيراً. وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصري من عاداته أنه متى سمع أن مغرياً وصل إلى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن إليه ، فإن عرف منه الدين والفضل أمره بملازمته . وكان يلازمه منهم جماعة . وعلى هذه الطريقة أيضاً كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غام وجامعة غيره .

وكان بها فاضل من كبارها وهو الصاحب عز الدين القلايني ، له مأثر ومكارم وفضائل وإيثار ، وهو ذو مال عريض وذكروا أن الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجمع أهل دولته وماليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه اذ ذاك بالصاحب . وما يؤثر من فضائلهم أن أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت

(١) المراد بالسوق هنا : العاملون في الأسواق : وليس الرعاع كما يتبدّل إلى الذهن .

(٢) أي : لم يقبل اعتذاري .

أوصى أن يدفن بقبلة الجامع المكرم، ويغلى قبره. وعين أوقافاً عظيمة لقراء يقرأون سبعاً من القرآن الكريم في كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تقطع أبداً، وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلداً ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد أنهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة، فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بنى أمية وسواها، ويقف بهم أئمتهم كashiFi رؤوسهم داعين خاضعين خاسعين ملتزمين البركة، ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات، ولا يزالون في خصوع ودعاء وابتهاج وتسل إلى الله تعالى بحجاج بيته إلى أن تغيب الشمس، فينفرون كما ينفر الحاج، باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات، داعين إلى الله تعالى أن يوصلهم إليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه، ولم أيضاً في اتباع الجنائز رتبة عجيبة وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز، والقراء يقرأون القرآن بالأصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تقاد النفوس تطير لها رقة، وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبلة المقصورة فإن كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة إلى موضع الصلاة عليه، وإن كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنائز وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بقربة من باب البريد، فيجلسون وأمامهم ربعتين القرآن يقرأون فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون باسم الله فلان الدين من كمال وجمال شمس وبدر وغير ذلك، فإذا أتوا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتکروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير، ثم يصلون عليه ويذهبون به إلى مدفنة. ولأهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضاً زائدة على ذلك، وهي أنهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتغرس الروضة بالثياب الرفيعة، ويكسى القبر

بالأكسية الفاخرة، وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك
 النوار لا ينقطع عندهم ويأتون بأشجار الليمون والأترج، ويجعلون فيها حبوبها
 إن لم تكن فيها ، ويجعلون صيواناً يظلل الناس نحوه ، ويأتي القضاة والأمراء ومن
 يائتهم فيقدعون ، ويقابلهم القراء ويؤتى بالرباعات الكرام فیأخذ كل واحد منهم
 جزءاً ، فإذا قمت القراءة من القراء بالأصوات الحسان يدعوا القاضي ويقوم قائماً
 وينخطب خطبة معدة لذلك ، ويذكر فيها الميت ويرثيه بأبيات شعر ، ويذكر
 أقاربه ويعزيم عنهم ، ويذكر السلطان داعياً له ، وعند ذكر السلطان يقوم الناس
 ويحطون رؤوسهم إلى سمت الجهة التي بها السلطان ، ثم يقعد القاضي ، ويأتون بماء
 الورد فيصب على الناس صباً يبدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك إلى أن يعم الناس
 أجمعين ، ثم يؤتى بأواني السكر وهو الجلاب محلولاً بالماء فيسوقون الناس منه ،
 ويبداون بالقاضي ومن يليه ، ثم يؤتى بالتبول ، وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي
 لهم به ، فإذا أعطى السلطان أحداً منه فهو أعظم من إعطاء الذهب والخلع . وإذا
 مات الميت لم يأكل أهله التبول إلا في ذلك اليوم ، فیأخذ القاضي ، أو من يقوم
 مقامه ، اوراقاً منه فيعطيها لولي الميت فیأكلها وينصرفون حينئذٍ وسيأتي ذكر
 التبول إن شاء الله تعالى .

ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها

سمعت بجامع بني أمية ، عمره الله بذكره جميع صحيح الإمام أبي عبد الله محمد
 ابن إسحائيل الجعفي البخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق
 الأصغر بالأكابر ، شهاب الدين أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن
 علي بن بيان الدين ، مقرئ الصالحي ، المعروف بابن الشحنة الحجازي ، في أربعة
 عشر مجلساً ، أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان معظم سنة ست وعشرين
 وسبعيناً آخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه ، بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ

الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي ، الإشبيلي الأصل ، الدمشقي ، في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغribل بن عبدالله بن الغزال الصيرفي ، سماع الشيخ أبي العباس الحجازي لجميع الكتاب ، من الشيخ الإمام سراج الدين أبي عبدالله الحسين ابن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن علي بن المسيح بن عمران الريسي البغدادي الزبيدي الحنبلي ، في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق ، وبإجازته في جميع الكتاب من الشيفيين : أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطبي المؤرخ ، علي بن أبي بكر بن عبدالله بن روبة القلانسى العطار البغدادي ومن باب غيرة النساء ووجدهن ، إلى آخر الكتاب من أبي المنجا عبدالله بن عمر بن علي بن زيد الليبي الخزاعي البغدادي ، بسماع أربعةٍ من الشيخ شديد الدين أبي الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم السجذى الهروى الصوفى ، في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال : أخبرنا الإمام جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادى قراءة عليه ، وأنا أسمع ببوشنج سنة حس وستين وأربعين ، قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد ابن حوبة بن يوسف بن أمين السرخسي قراءة عليه ، وأنا اسمع في صفر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، قال : أخبرنا عبدالله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفربري قراءة عليه ، وأنا اسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر ، قال : أخبرنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ، ومرة ثانية بعدها ، وبعدها سنة ثلاث وخمسين . ومن أجازني من أهل دمشق إجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور ، سبق إلى ذلك وتلفظ لي به - ومنهم الشيخ الإمام شهاب الدين أحد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ، ومولده في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وستمائة - ومنهم الشيخ

الإمام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي -
 ومنهم إمام الأئمة جمال الدين أبو المحسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن ابن يوسف
 المزني الكلي ، حافظ الحفاظ ، ومنهم الإمام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن
 عبد الله الشفاعي ، والشيخ الإمام الشريف محيي الدين بن يحيى بن علي العلوي ،
 ومنهم الشيخ الإمام المحدث مجذ الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلى
 الدمشقي ، وموالده سنة أربعين وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الإمام العالم شهاب
 الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الإسكندراني . ومنهم الشيخ الإمام ملي
 الله تعالى شمس الدين بن عبد الله ابن قتام والشيخان الأخوان شمس الدين محمد
 وكمال الدين عبد الله ، ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي ، والشيخ العابد
 شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم المكارمي ، والشيخة الصالحة أم محمد
 عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني ، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب
 بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء
 أجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق . ولما استهل شوال من السنة
 المذكورة خرج الركب الحجازي إلى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة
 بالكسوة ، فأخذت في الحركة معهم ، وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان ،
 من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الأذرعي الحوراني ، وحج في تلك السنة
 مدرس المالكية صدر الدين العماري ، وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى
 العجارة ، أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة إلى
 قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها إلى بلدة زرعة^(١) وهي صغيرة من بلاد
 حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا إلى مدينة بصرى ، وهي صغيرة ومن عادة
 الركب أن يقيم بها أربعاً ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مأربه - وإلى

(١) ذكر ياقوت في معجم البلدان أن أسمها : الزراعة ، وأن موقعها بين حران وقلعة جعبر ، وتعرف
 اليوم باسم أزرع ، وهي جنوب الصنمين تبعد عنها ١٥ ميلاً .

بصري وصل رسول الله ﷺ قبل البعث في تجارة خديجة ، وبها مبرك ناقته قد
 بني عليه مسجد عظيم ، ويجتمع أهل حوران بهذه المدينة ، ويترزود الحاج منها ثم
 يرحلون إلى بركة زيرة (زيرا)^(١) ، ويقيمون عليها يوماً ، ثم يرحلون إلى اللجون ،
 وبها الماء الجاري ثم يرحلون إلى حصن الكرك ، وهو من أعجب الحصون وأمنعها
 وأشهرها ويسمى بحصن الغراب . والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب
 واحد قد نحت المدخل إليه في الحجر الصلد ، ومدخل دهليزه كذلك وبهذا
 الحصن يتحصن الملوك ، وإليه يلجمون في النوايب وله لجأ الملك الناصر ، لأنه
 ولـي الملا ، هو صغير السن ، فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه ،
 فأظهر الملك الناصر أنه يريد الحج ، ووافقه الأمراء على ذلك فتوجه إلى الحج ،
 فلما وصل عقبة أيلة ، لجأ إلى الحصن ، وأقام به أعواماً إلى أن قصدـه أمراء الشام ،
 واجتمعت عليه الماليـك وكان الملك في تلك المدة بيرس الششنـكـير^(٢) ، وهو أمـير
 الطعام وتسمـى بالملك المظفر ، وهو الذي بنـى الخانـقـاه البـيـرسـية ، بمـقـرـبة من خـانـقـاه
 سعيد السـعـداء التي بـناـها صـلاحـ الدينـ بنـ أـيـوبـ فـقـصـدـهـ الـمـلـكـ النـاـصـرـ بـالـعـساـكـرـ ،
 فـرـ بـيرـسـ إـلـىـ الصـحـراءـ ، فـتـبـعـتـهـ الـعـساـكـرـ وـقـبـضـ عـلـيـهـ ، وـأـتـيـ بهـ إـلـىـ الـمـلـكـ النـاـصـرـ
 فـأـمـرـ بـقـتـلـهـ فـقـتـلـ . وـقـبـضـ عـلـيـ سـلـارـ ، وـحـبـسـ فـيـ جـبـ حـتـىـ مـاتـ جـوـعاـ . وـيـقـالـ :
 إـنـهـ أـكـلـ جـيـفـةـ مـنـ جـوـعـ نـعـوذـ بـالـلـهـ مـنـ ذـلـكـ . وـأـقـامـ الرـكـبـ بـخـارـجـ الـكـرـكـ أـرـبـعـةـ
 أـيـامـ بـمـوـضـعـ يـقـالـ لـهـ الثـنـيـةـ ، وـتـجـهـزـواـ لـدـخـولـ الـبـرـيـةـ . ثـمـ اـرـتـحـلـنـاـ إـلـىـ مـعـانـ ، وـهـوـ
 آـخـرـ بـلـادـ الشـامـ ، وـنـزـلـنـاـ مـنـ عـقـبـةـ الصـوـانـ إـلـىـ الصـحـراءـ الـتـيـ يـقـالـ فـيـهـ : دـاـخـلـهـاـ
 مـفـقـودـ وـخـارـجـهـ مـوـلـودـ . وـبـعـدـ مـسـيـرـةـ يـوـمـيـنـ نـزـلـنـاـ ذـاتـ حـجـ ، وـهـيـ حـسـيـانـ لـاـ
 عـمـارـةـ بـهـاـ ، ثـمـ إـلـىـ وـادـيـ بـلـدـحـ وـلـاـ مـاءـ بـهـ ، ثـمـ إـلـىـ تـبـوـكـ وـهـوـ الـمـوـضـعـ الـذـيـ غـزـاهـ
 رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ . وـفـيـهـ عـيـنـ مـاءـ كـانـتـ تـبـضـ بـشـيءـ مـنـ المـاءـ . فـلـمـ نـزـلـهـ رـسـوـلـ اللـهـ

(١) ذـكـرـ يـاقـوتـ فـيـ مـعـجمـ الـبـلـدانـ أـنـ اـسـمـهـ : زـيـراـ ، وـهـيـ مـنـ قـرـىـ الـبـلـقاءـ .

(٢) يـعـرـفـ فـيـ كـتـبـ الـتـارـيـخـ بـالـجـاشـكـيرـ .

عليه السلام وتوضاً منها ، جادت بالماء المعين . ولم يزل إلى هذا العهد ببركة رسول الله صلوات الله عليه وسلم . ومن عادة حجاج الشام إذا وصلوا منزل تبوك ، أخذوا أسلحتهم ، وجرّدوا سيوفهم ، وحملوا على المنزد ، وضرروا النخل بسيوفهم ، ويقولون : هكذا دخلها رسول الله صلوات الله عليه وسلم . وينزل الركب العظيم على هذه العين فيري منا جميعهم ، ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك . ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين ، ولهن أحواض مصنوعة من جلود الجواميس ، كالصهاريج الضخام يسكنون منها الجمال ، ويملاون الروايا والقرب . ولكل أمير أو كبير حوض يسكن منه جماله وجال أصحابه ، ويملا روايامهم . وسواهم من الناس يتتفق مع السقائين على سقي جله وملء قربته ، بشيء معلوم من الدراهم . ثم يرحل الركب من تبوك ، ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية . وفي وسطها الوادي الأخيضر : كأنه وادي جهنم ، أعادنا الله منها . وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب ، فانتشرت المياه ، وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ، ومات مشترها وبائعها . وكتب ذلك في بعض صخر الوادي . ومن هنالك ينزلون بركة معظم ، وهي ضخمة ، نسبتها إلى الملك معظم من أولاد أيبوب . ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين ، وربما جف في بعضها ، وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون إلى بئر الحجر حجر ثور ، وهي كثيرة الماء ، ولكن لا يردها أحد من الناس ، مع شدة عطشهم ، اقتداء بفعل رسول الله صلوات الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك ، فأسرع براحلته وأمر أن لا يسكن منها أحد . ومن عجن به أطعمه الجمال . وهنالك ديار ثور في جبال من الصخر الأحمر منحوته ، لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديقة الصنعة ، وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت . إن في ذلك لعبرة ، ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك ، وبينها أثر مسجد يصلى الناس فيه ، وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه . والعلا قرية كبيرة

حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم بها الحجاج أربعاً، يتزودون ويعسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية. وأهل هذه القرية أصحاب أمانة، وإليها ينتهي تجار نصارى الشام، لا يتعدونها، ويبايعون الحجاج الزاد وسواء. ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غدر حيلهم الوادي المعروف بالعطاس، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة. هيست السنين على الركب فلم يخلص منها إلا اليسيير. وتعرف تلك السنة سنة الأمير الراقي، ومنه ينزلون هدية، وهي حسيان ماء بواد يحفرون به، فيخرج الماء وهو زُعاق. وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف.

طيبة مدينة رسول الله ﷺ وشرف وكرم

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين، وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حنّ إلى رسول الله ﷺ، وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة، وأدینا حق السلام على سيد الأولين والآخرين، وشفيع العصاة والمذنبين، الرسول النبي الهاشمي الأبطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسلیماً، وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وأبي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهم. وانصرفنا إلى رحمنا مسrorin بهذه النعمة العظمى، مستبشرین بنيل هذه المنية الكبرى، حامدين الله تعالى على البلوغ إلى معاهد رسوله الشريفة، ومشاهد العظيمة المنيفة، داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهتنا بها، وأن يجعلنا من قُبّلت زيارته، وكتبت في سبيل الله سفرته .

ذكر مسجد رسول الله ﷺ وروضته الشريفة

المسجد المعظم مستطيل ، تحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت . والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية ما يلي الشرق من المسجد الكريم ، وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله . وهي منورة بالرخام البديع النحت الرائق النعم ، قد علاها تضميغ المسك والطيب مع طول الأزمان . وفي الصفة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم . وهنالك يقف الناس مستقبلين الوجه الكريم مستدبرين القبلة ، فيسلمون وينصرفون يميناً إلى وجه أبي بكر الصديق ، ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله ﷺ ، ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب ، ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما . وفي الجوفي من الروضة المقدسة ، زادها الله طيباً ، حوض صغير مرخم ، في قبنته شكل محراب ، يقال : إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تسليناً ، ويقال أيضاً : هو قبرها ، والله أعلم . وفي وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الأرض ، مقفلة على سرداد له مدرج يفضي إلى دار أبي بكر رضي الله عنه خارج المسجد ، وعلى ذلك السرداد كان طريق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى داره ، ولا شك أنه هو الحوixa التي ورد ذكرها في الحديث ، وأمر النبي ﷺ يابقائها ، وسد ما سواها . وبإزار دار أبي بكر رضي الله عنه دار عمر ، ودار ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وبشرقي المسجد الكريم دار إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه ، وبمقربة من باب السلام سقاية ، ينزل إليها على درج ، مأواها معين ، وتعرف بالعين الزرقاء .

ذكر ابتداء بناء المسجد الكرم

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلیماً المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الإثنين ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الأول ، فنزل على بني عمرو بن عوف ، وأقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل أربع ليالٍ ، ثم توجه إلى المدينة فنزل على بني التجار بدار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، وأقام عنده سبعة أشهر حتى بني مساكنه ومسجده . وكان موضع المسجد مربداً لسهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمر بن عاند بن ثعلبة بن غام بن مالك بن التجار . وهما يتيحان في حجر أسد بن زرارة رضي الله عنهم أجمعين . وقيل : كانوا في حجر أبي أيوب رضي الله عنه ، فابتاع رسول الله ﷺ ذلك المربد ، وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه . وقيل : إنها وهباه لرسول الله ﷺ فبني رسول الله ﷺ المسجد ، وعمل فيه مع أصحابه ، وجعل عليه حائطاً ، ولم يجعل له سقفاً ولا أساطين ، وجعله مربعاً ، طوله مائة ذراع ، وعرضه مثل ذلك . وقيل : إن عرضه كان دون ذلك . وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة . فلما استدحر تكلم أصحابه في تسقيفه . فأقام له أساطين من جذوع النخل ، وجعل سقفه من جريدتها . فلما أمطرت السماء وكف المسجد . فكلم أصحاب رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ في عمله بالطين . فقال : كلا عريش كعريش موسى ، أو ظله كظلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك .

قيل : وما ظلة موسى ؟ قال ﷺ : كان إذا قام أصحاب السقف رأسه .

وجعل للمسجد ثلاثة أبواب . ثم سد باب الجنوب منها حين حولت القبلة ، وبقي المسجد على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلیماً ، وحياة أبي بكر رضي الله عنه . فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله ﷺ . وقال : لو لا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول ينبغي أن نزيد في المسجد ما زدت فيه . فأنزل أساطين الخشب ، وجعل مكانها أساطين اللبن ، وجعل

الأساس حجارة إلى القامة، وجعل الأبواب ستة، منها في كل جهة ما عدا القبلة ببابان، وقال: في باب منها ينبغي أن يترك هذا للنساء فما رئي فيه. حتى لقي الله عز وجل، وقال: زدنا في هذا المسجد حتى يبلغ الجبانة، لم يزل مسجد رسول الله عليه صلواته وأراد عمر أن يدخل في المسجد موضعًا للعباس عم رسول الله عليه صلواته ورضي عنهما، فمنعه منه. وكان فيه مizarب يصب في المسجد، فنزعه عمر. وقال: إنه يؤذى الناس، فنزعه العباس، وحکمًا بينهما أبي بن كعب رضي الله عنها، فأتيا داره فلم يأذن لها إلا بعد ساعة، ثم دخلا إليه، فقال: كانت جاريتي تغسل رأسي، فذهب عمر ليتكلم، فقال له أبي: دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله عليه صلواته، فقال العباس، خطة خطها لي رسول الله عليه صلواته، وبنيتها معه، وما وضع المizarب إلا ورجلاني على عاتقى رسول الله فجاء عمر فطرحه وأراد إدخالها في المسجد. فقال أبي: إن عندي من هذا علمًا. سمعت رسول الله عليه صلواته يقول: أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس. وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فأبىا. ثم راودهما فباءاه. ثم قاما بالغين فردا البيع، واشتراه منها. ثم رداه كذلك. فاستعظم داود الشمن. فأوحى الله إليه إن كنت تعطي من شيء فهو لك؛ فأنت أعلم. وإن كنت تعطيهما من رزقنا فأعطيهما حتى يرضيا. وإن أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لي، وقد حرمت عليك بناءه.

قال: يا رب فأعطيه سليمان. فأعطاه سليمان عليه السلام. فقال عمر: من لي بأن رسول الله عليه صلواته قاله؟ فخرج أبي إلى قوم من الأنصار، فأثبتوه له ذلك. فقال عمر رضي الله عنه أما إني لو لم أجده غيرك أخذت قولك، ولكنني أحبيت أن أثبتت. ثم قال للعباس رضي الله عنه: والله لا ترد المizarب إلا وقدماك على عاتقى. فعل العباس ذلك. ثم قال: أما إذا ثبتي لي، فهي صدقة لله، فهدتها عمر، وأدخلتها في المسجد. ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه، وبناء بقوة وباهره بنفسه، فكان يظل فيه نهاره، وبريضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة، ووسعه من

جهاته إلا جهة الشرق منها، وجعل له سوراً حجارة مثبتة بأعمدة الحديد والرصاص، وسقفه بالساج، وصنع له محراباً.

وقيل: إن مروان هو أول من بنى المحراب. وقيل: عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد - ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك. تولى ذلك عمر بن عبد العزيز، فرسنه وحسنه وبالغ في إتقانه، وعمله بالرخام والساج المذهب. وكان الوليد بعث إلى ملك الروم: أريد أن أبني مسجد نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعني فيه. فبعث إليه الفضة، وثمانين ألف مثقال من الذهب. وأمر الوليد بإدخال حجر أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، فاشترى عمر من الدور ما زاد في ثلاثة جهات من المسجد. فلما صار إلى القبلة، امتنع عبد الله بن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة، ودار بينها الكلام، حتى ابتعاهما عمر، على أن له ما بقي منها، وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقاً إلى المسجد، وهي الخوخة التي في المسجد، وجعل عمر للمسجد أربع صوامع في أربعة أركانه، وكانت إحداها مطلة على دار مروان. فلما حج سليمان ابن عبد الملك نزل بها، فأطل عليه المؤذن حين الأذان. فأمر بهدمها، وجعل عمر للمسجد محراباً.

ويقال: هو أول من أحدث المحراب. ثم رأى فيه المهدى بن أبي جعفر المنصور. وكان أمرهم بذلك، ولم يقض له، وكتب إليه الحسن بن زيد يرغبه في الزيادة فيه من جهة الشرق، ويقول: إنه إن زيد في شرقه توسيط الروضة الكريمة المسجد الكريم. فاتهمه أبو جعفر بأنه إنما أراد هدم دار عثمان رضي الله عنه. فكتب إليه: إني قد عرفت الذي أردت، فاكف عن دار عثمان وأمر أبو جعفر أن يظلل الصحن أيام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب، تكون في الصحن، لت肯 المصلين من الحر، وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع. بلغه المهدى إلى ثلاثة ذراع، وسوى المقصورة بالأرض، وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين، وكتب اسمه على مواضع من المسجد. ثم أمر الملك

المنصور قلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام - فتولى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر . وأقامها متسعه الفناء تستدير بها البيوت ، وأجرى إليها الماء . وأراد أن يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك ، فلم يتم له ، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة . وسيذكر إن شاء الله . قبلة مسجد رسول الله عليه عليه ، قبلة قطع لأنه عليه أقامها . وقيل : أقامها جبريل عليه السلام . وقيل : كان يشير جبريل له إلى سمتها وهو يقيمها . وروي أن جبريل عليه السلام أشار إلى الجبال ، فتواضعت فتحت حتى بدت الكعبة . فكان عليه يبني وهو ينظر إليها عياناً . وبكل اعتبار فهي قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبي عليه المدينة إلى بيت المقدس . ثم حولت إلى الكعبة بعد ستة عشر شهراً . وقيل : بعد سبعة عشر شهراً .

ذكر المنبر الكرم

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلماً كان يخطب إلى جذع نخلة بالمسجد ، فلما صنع له المنبر وتحول إليه حنّ الجذع حنين الناقة إلى حوارها^(١) . وروي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلماً نزل إليه فالترمه فسكن . وقال : لو لم ألتزمه لحنّ إلى يوم القيمة . واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكرم . فروي أن تميا الداري رضي الله عنه هو الذي صنعه . وقيل : إن غلاماً للعباس رضي الله عنه صنعه ، وقيل : غلام لامرأة من الأنصار وورد ذلك في الحديث الصحيح . وصنع من طرفة العابة ، وقيل من الأثل . وكان له ثلاثة درجات . فكان رسول الله عليه يقع على علياهن ، ويضع رجليه الكربيتين في وسطاهن . فلما ولّ أبو بكر الصديق

(١) الحوار بضم الحاء : ولد الناقة من وقت ولادته إلى وقت فطامه ، وجمعه : أحورة ، وحيران .

رضي الله عنه قعد على وسطاهن ، وجعل رجليه على أولاهن . فلما ولي عمر رضي الله عنه جلس على أولاهن وجعل رجليه على الأرض ، وفعل ذلك عثمان رضي الله عنه صدراً من خلافته ، ثم ترقى إلى الثالثة . ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام ، فضج المسلمون . وعصفت ريح شديدة ، وخسفت الشمس ، وبدت النجوم نهاراً ، وأظلمت الأرض ، فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبيّن مسلكه ، فلما رأى ذلك معاوية تركه ، وزاد فيه ست درجات من أسفله ، فبلغ تسع درجات

ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله ﷺ

وكان الإمام بالمسجد الشريف في عهد دخولي إلى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر ، وينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ ، عز الدين الواسطي ، نفع الله به ، وكان يخطب قبله ويقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصري .

حكاية

يدرك أن سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ، ثم إنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر ، فرأى رسول الله ﷺ في النوم ثلاث مرات ، في كل مرة ينهاه عن الخروج منها ، وأخبره باقتراب أجله ، فلم ينته عن ذلك وخرج ، فمات بموضع يقال له : سويس^(١) ، على مسيرة ثلاثة من مصر ، قبل أن يصل إليها ، نعوذ بالله من سوء الخاتمة . وكان ينوب عنه الفقيه

(١) هي الآن مدينة سويس إحدى محافظات مصر .

أبو عبد الله محمد بن فردون رحمه الله، وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة : أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ، ونائب الحكم ، وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ، وهم بها حسب وأصالة . وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جال الدين الأسيوطى من أهل مصر ، وكان قبل ذلك قاضياً بمحصن الكرك .

ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به

وخدماء هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسان ، وصور نظاف ، وملابس ظراف ، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام ، وهو في هيئة الأمراء الكبار ، ولم المرتبات بديار مصر والشام ، ويؤتى إليهم بها في كل سنة ، ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الإمام المحدث الفاضل جال الدين المطري ، من مطيرية^(١) قرية بمصر ، وولده الفاضل عفيف الدين عبد الله ، والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس ، قديم المجاورة ، وهو الذي جب نفسه خوفاً من الفتنة .

حكاية

يدرك أن أبا عبد الله الغرناطي كان خديماً لشيخ يسمى عبد الحميد العجمي ، وكان الشيخ حسن الظن به ، يطمئن إليه بأهله ، ويتركه متى سافر بداره ، فسافر مرة ، وتركه على عادته بمنزله ، فعلقت به زوجة الشيخ عبد الحميد وراودته عن نفسه ، فقال : إني أخاف الله ولا أخون من اثمنني على أهله وماله .

(١) هي الآن مدينة المطيرية بمحافظة الدقهلية بمصر .

فلم تزل تراوده وتعارضه حتى خاف على نفسه الفتنة فجبّ نفسه ، وغشي عليه ، وووجه الناس على تلك الحالة ، فعالجوه حتى برأه ، وصار من خدام المسجد الكرام ، ومؤذناً به ، ورأس الطائفين به . وهو باقي بقيد الحياة إلى هذا العهد .

ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

منهم الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاوة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلينا ، صابراً محتسباً ، وكان ربما جاور بمكة المعظمة ، رأيته بها في سنة ثمان وعشرين ، وهو أكثر الناس طوافاً وكنت أعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف ، والمطاف مفروش بالحجارة السود : وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة . ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه . وأكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين ، ورأيته يوماً يطوف ، فأحببت أن أطوف معه فوصلت المطاف ، وأردت استلام الحجر الأسود ، فلتحقني هب تلك الحجارة ، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته إلا بعد جهد عظيم ، ورجعت فلم أطف ورجعت أجعل نجادي على الأرض وأمشي عليه ، حتى بلغت الرواق . وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكثيرها أبو القاسم محمد ابن محمد بن الفقيه أبي الحسن سهل بن مالك الأزدي . وكان يطوف كل أسبوع سبعين طوافاً ، ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر . وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه . ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف ، ومنهم أبو مهدي بمكة عيسى بن حزرون المكتناسي .

حكاية

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين ، وخرج إلى جبل حراء مع جماعة من المجاورين ، فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسلياً ونزلوا عنه ، تأخر أبو مهدي عن الجماعة ، ورأى طريقة في الجبل ، فطننه قصيراً فسلك عليه ، ووصل أصحابه إلى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت ، فتطلعوا فيها حوالهم فلم يروا له أثراً فظنوا أنه سبّهم . فمضوا إلى مكة شرفها الله تعالى ، ومضى عيسى في طريقه ، فأفضى به إلى جبل آخر ، وتأه عن الطريق ، وأجهده العطش والحر ، وتمزقت نعله ، فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه إلى أن ضعف عن المشي ، واستظل بشجرة أم غيلان^(١) . فبعث الله أعرابياً على جل ، حتى وقف عليه : فأعلمه بحاله ، فأركبه وأوصله إلى مكة ، وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه إليه ، وأقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه ، وذهبت جلدتها ونبت لها جلدة أخرى . وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي ذكره إن شاء الله . ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروي من القراء المحسنين ، وجاور بمكة في السنة المذكورة . وكان يقرأ بها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد الظهر ، وأمّ في التراويع . وبها من المجاورين الفقيه أبو العباس الفاسي مدرس المالكية بها ، وتزوج بنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي .

حكاية : يذكر أن أبو العباس الفاسي تكلم يوماً مع بعض الناس فانتهى به الكلام إلى أن تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب ، وعدم حفظه للسانه مرکباً صعباً عفا الله عنه ، فقال الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب . فرفع كلامه إلى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسني^(٢) ، فأنكر

(١) أم غيلان : شجرة السمر ، من القاموس المحيط .

(٢) في بعض طبعات الكتاب : الحسني .

كلامه ، وبحق إنكاره ، وأراد قتله . فكلم فيه فنفاه عن المدينة . ويذكر أنه بعث من اغتاله وإلى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلة .

ذكر أمير المدينة الشريفة

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن جاز . وكان قد قتل عمه مقبلاً . ويقال : إنه ترضاً بدمه . ثم إن كبيشاً خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه ، فأدركتهم القائلة في بعض الأيام ، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار فما راعهم إلا وأبناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون : يا لثارات مقبل ، فقتلوا كبيش بن منصور صبراً ، ولعقوا دمه . وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور ، الذي ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسي .

ذكر بعض المشاهد الكريم بخارج المدينة الشريفة

فمنها بقيع الغرقد ، وهو بشرقي المدينة المكرمة ، ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقع . فأول ما يلقى الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها ، وهي عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليناً ، وأم الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وأمامها قبر إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء ، وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريم إبراهيم بن رسول الله عليه وعليه قبة بيضاء ، وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنها وهو المعروف بأبي شحمة ، وبإزاره قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقبر عبدالله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبإزارهم روضة فيها قبور أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله عليه وعليه السلام ، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، وهي قبة

ذاهبة في الهواء بدعة الإحکام ، عن عین الخارج من باب البقیع ، ورأس الحسن إلى رجلي العباس عليهما السلام ، وقبراهما مرتفعان عن الأرض ، متسعان مغشيان بألواح بدعة الالتصاق ، مرصعة بصفائح الصفر البدعة العمل . وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة رضي الله عنهم . إلا أنها لا يعرف أكثرها . وفي آخر البقیع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب رضي الله عنها وعن ابنها .

ومن المشاهد الكريمة قباء ، وهو قبلى المدينة ، على نحو مليون منها والطريق بينها في حدائق النخل ، وبه المسجد الذي أسسَ على التقوى والرضوان . وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي ﷺ ، يتبرك الناس بالصلاحة فيه ، وفي الجهة القبلية من صحنه محراب على مصتبة ، وهو أول موضع رکع فيه النبي ﷺ . وفي قبلى المسجد دار كانت لأبي أيوب الأنباري . وبيلها دور تنسب لأبي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم . وبيلها بئر أریس ، وهي التي عاد ماؤها عذباً لما تفل فيه النبي ﷺ ، بعد أن كان أحاجاً ، وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه .

ومن المشاهد فيه حجر الزيوت بخارج المدينة الشريفة . يقال : إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي ﷺ . وإلى جهة الشمال منه بئر بضاعة . وبيلها جبل الشيطان ، حيث صرخ يوم أحد وقال : قد قتلت نبيكم . وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله ﷺ عند تحزب الأحزاب ، حصن خرب يعرف بحصن العزاب . يقال : إن عمر بن الخطاب أنشأه لعزاب المدينة . وأمامه إلى جهة الغرب بئر رومة التي اشتري أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه نصفها بعشرين ألفاً^(١) . ومن المشاهد

(١) اشتري عثمان رضي الله عنه نصف بئر رومة أولاً لما غالي مالكها اليهودي في ثمنها ، ودعا عثمان =

الكريمة أَحْدُ ، وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلّيماً : « إن أَحَدًا جبل يحيانا ونحبه » وهو بجوار المدينة الشريفة ، على نحو فرسخ منها ، وبإزاره الشهداء المكرمون رضي الله عنهم . وهنالك قبر حزة عم رسول الله عليه عليه ورضي الله عنه ، وحوله الشهداء المستشهدون في أحد رضي الله عنهم ، وقبورهم لقبلي أحد . وفي طريق أحد مسجد ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسجد ينسب إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح عل رسوله عليه عليه . وكانت إقامتنا بالمدينة الشريفة في هذه الوجهة أربعة أيام : وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم ، والناس قد حلّقوا في صحنه حلقاً ، وأوقدوا الشمع الكبير . وبينهم رباعات القرآن الكريم يتلونه ، وبعضهم يذكرون الله ، وبعضهم في مشاهدة التربة الطاهرة ، زادها الله طيباً ، والحدادة بكل جانب يتذمرون بمدح رسول الله عليه عليه . وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة ، ويجدون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحاجين . وكان في صحبي في هذه الوجهة من الشام إلى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بنصوص بن شكل ، وأضافني بها . واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى . وكان في صحبي أيضاً قاضي الزيدية شرف الدين قاسم بن شنان ، وصحبني أيضاً أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة ، يسمى بعلي بن حجر الأموي .

= رضي الله عنه المسلمين أن يستقوا من البئر في الأيام الخاصة به ، فأخذ المسلمون حاجتهم من الماء في الأيام الخاصة بعثمان ، ولم يعودوا بحاجة إلى شراء الماء من اليهودي ، فاضطر إلى بيع نصفها الآخر لعثمان رضي الله عنه بشمن معقول ، فاشتراء ، وووهبها جميعاً للمسلمين :

حكاية

لما وصلنا إلى المدينة كرمها الله، على ساكنها أفضل الصلاة وأذكى السلام، ذكر لي علي بن حجر المذكور أنه رأى تلك الليلة في النوم قائلاً يقول له: اسمع مني واحفظ عني:

هنيئاً لكم يا زائرين ضريحه
أمنت به يوم العادِ من الرّجُسِ
وصلتم إلى قبرِ الحبيبِ بطيبيَّةٍ
قطُوبَيْ لِمَنْ يُضْحِي بطيبيَّةٍ أو يُمسِي

وجاور هذا الرجل بعد صحبه بالمدينة. ثم رحل إلى مدينة دهلي قاعدة بلاد الهند، في سنة ثلاثة وأربعين، فنزل في جواري. وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند، فأمر بإحضاره، فحضر بين يديه، وحكي له ذلك، فأعجبه واستحسنه، وقال له كلاماً جميلاً بالفارسية، وأمر بإزالته، وأعطاه ثلاثة تنة من ذهب. وزن التنة من دنانير المغرب ديناران ونصف دينار، وأعطاه فرساً محلي بالسرج واللجام، وخلعة، وعين له مرتبًا في كل يوم. وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة، ومولده ببجاية، يعرف هنالك بمجايل الدين المغربي. فصاحب علي بن حجر المذكور، وواعده على أن يزوجه بنته. وأنزله بدورية خارج داره، واشتري جارية وغلاماً. وكان يترك الدنانير في مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لأحد. فاتفق الغلام والجارية علىأخذ ذلك الذهب. وأخذاه وهربا. فلما أتى الدار لم يجد لها أثراً، ولا للذهب. فامتنع من الطعام والشراب، واشتد به المرض أسفًا على ما جرى عليه، فعرضت قضيته بين يدي الملك، فأمر أن يخلف له ذلك، وبعث إليه من يعلمه بذلك، فوجدوه قد مات رحمه الله تعالى. وكان رحيلنا من المدينة، نريد مكة شرفها الله تعالى. فنزلنا بقرب مسجد ذي الخليفة الذي أحرم منه رسول الله ﷺ، والمدينة منه على خمسة أميال، وهو منتهى حرم المدينة. وبالقرب منه وادي العقيق. وهنالك تجردت من محيط

الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامي وصليت ركعتين وأحرمت بالحج مفرداً .
ولم أزل ملبياً في كل سهل وجبل وصعود وحدور إلى أن أتيت شعب علي عليه
السلام ، وبه نزلت تلك الليلة .

ثم رحلنا منه ونزلنا بالرواء ، وبها يئر تعرف ببئر ذات العلم . ويقال : إن
علياً عليه السلام قاتل بها الجن .

ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء . وهو وادٍ معمور ، فيه ماء ونخل وبنيان ، وقصر
يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم ، وفيها حصن كبير ، وتواлиه حصون كثيرة
وقرى متصلة .

ثم رحلنا منه ، ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله ﷺ ، وأنجز وعده الكريم ،
وأستأصل صناديد المشركين . وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة ، وبها حصن
منيع يُدخل إليه من بطن وادٍ بين جبال . وببدر عين فواراة يجري ماؤها وموضع
القليب الذي سبع به أعداء الله المشركون . هو اليوم بستان . وموضع الشهداء
رضي الله عنهم خلفه . وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه
إلى الصفراء ، وبيازائه جبل الطبول ، وهو شبه كثيب الرمل متند . ويزعم أهل
تلك البلدة أنهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة وموضع
عريش رسول الله ﷺ الذي كان به يوم بدر ، ينشد ربه جلّ وتعالى ، متصل
بسفح جبل الطبول ، وموضع الواقعة أمامه ، وعند نخل القليب مسجد يقال له
مبرك ناقة رسول الله ﷺ . وبين بدر والصفراء نحو بريد في وادٍ بين جبال تطرد
فيه العيون ، وتنفصل حدائق النخل .

ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع البزواء ، وهي برية يضل بها
الدليل ، ويدهل عن خليله الخليل . مسيرة ثلاثة وفي منهاها وادي رابغ ، يتكون

فيه المطر غدراناً يبقى بها الماء زماناً طويلاً، ومنه يحرم^(١) حجاج مصر والمغرب، وهو دون الجحفة. وسرنا من رابع ثلاثة إلى خليص، ومررنا بعقبة السوق، وهي على مسافة نصف يوم من خليص، كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السوق بها، ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك، ويسوقونه الناس مخلطاً بالسكر. والأمراء يلاؤن منه الأحواض، ويسوقونها الناس ويدذرون أن رسول الله ﷺ مر بها، ولم يكن مع أصحابه طعام فأخذ من رملها فأعطاه إياه فشربوا سويفاً. ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الأرض، كثيرة حدائق النخل، لها حصن مشيد في قنة جبل. وفي البسيط حصن خرب، وبها عين فوارقة صنعت لها أخاديد في الأرض، وسررت إلى الضياع. وصاحب خليص شريف حسني النسب. وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون إليها الغنم والتمر والأدام. ثم رحلنا إلى عسفان، وهي في بسيط من الأرض، بين جبال، وبها آبار ماء معين، تنسب إحداها إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه. والمدرج المنسوب إلى عثمان أيضاً على مسافة نصف يوم من خليص، وهو مضيق بين جبلين. وفي موضع منه بلاط على صورة درج، وأثر عمارة قديمة. وهنالك بئر تنسب إلى علي عليه السلام، ويقال: إنه أحدهما. وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب، وبه من شجر المقل كثير. ثم رحلنا من عسفان، ونزلنا بطن مر^(٢)، ويسمى أيضاً من الظهران^(٣)، وهو وادٌ مخصب كثير النخل، ذو عين فواربة سيالة تنسقي تلك الناحية. ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر إلى مكة

(١) كان الميقات الأصلي الذي يحرم منه حجاج مصر والمغرب والشام الذين يأتون عن طريق مصر هو الجحفة، وحين خربت بدعة رسول الله ﷺ أن ينقل الله حى المدينة إليها انتقل الميقات إلى رابع.

(٢) من الظهران - بفتح الميم - ويقال له: مرظهران: موضع على مرحلة من مكة بينه وبينها خمسة أميال، وقبيل: المر: اسم القرية، والظهران: اسم الوادي.

شرفها الله تعالى. ثم أدخلنا من هذا الوادي المبارك، والنفس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بحالها وما لها، فوصلنا عند الصباح إلى البلد الأمين مكة شرفها الله تعالى، فوردنا منها على حرم الله تعالى، ومبوا خليله إبراهيم، وبعث صفية محمد عليهما السلام . ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمناً من باب بني شيبة، وشاهدنا الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيمًا، وهي كالعروس تجلب على منصة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوفة بوفود الرحمن، موصولة إلى جنة الرضوان. وطفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحجر الكريم، وصلينا ركعتين بمقام إبراهيم، وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتمز بين الباب والحجر الأسود، حيث يستجاب الدعاء، وشربنا من ماء زمزم، وهو لما شرب له حسماً ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم تسلیماً، ثم سعينا بين الصفا والمروءة، ونزلنا هنالك بدار، بمقربة من باب إبراهيم - والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم، وجعلنا من بلغنا دعوة الخليل عليه الصلوة والتسليم، وتمتع أعيننا مشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والخطيم.

ومن عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثالى بمعاهدها الشريفة، وجعل حبها متمكناً في القلوب، فلا يخلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبها، ولا يفارقها إلا أسفًا لفارقها، متولهاً لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلوب. حكمة من الله باللغة، وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام .

والشوق يحضرها وهي نائية، ويتمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء. وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها ، ويشاهد التلف في طريقها. فإذا جمع الله بها شمله، تلقاها مسروراً مستبشراً ، كأنه لم

يذق لها مرارة ولا كابد محنّة ولا نصباً . إنّه لأمر إلهي ، وصنع رباني ، ودلالة لا يشوبها لبس ، ولا تغشاها شبهة ، ولا يطرقها تمويه . وتعز في بصيرة المستبصرين ، وتبدو في فكرة المتفكرين - ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الأرجاء ، والمتول بذلك الفناء ، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى ، وخلوته خير الدارين : الدنيا والأخرى . فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوله ، ويديم الحمد على ما أولاه . جعلنا الله تعالى من قبلت زيارته ، ورجحت في قصدها تجارتة ، وكتبت في سبيل الله آثاره ، ومحيت بالقبول أوزاره ، بعنته وكره .

ذكر مدينة مكة المعظمة

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة ، في بطن وادٍ تحف به الجبال ، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها . وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ . والأخشاب من جبالها هما جبل أبي قبيس ، وهو في جهة الجنوب والشرق منها ، وجبل قعيقان ، وهو في جهة الغرب منها . وفي الشمال منها الجبل الآخر . ومن جهة أبي قبيس أجياد الأكبر ، وأجياد الأصغر ، وهما شعبان والخدمة ، وهي جبل ، وستذكر . (والمناسك كلها : مني وعرفة والمزدلفة) بشرقي مكة شرفها الله . ولكرة من الأبواب ثلاثة : باب المعلى بأعلاها ، وباب الشبيكة من أسفلها ، ويعرف أيضاً بباب العمرة ، وهو إلى جهة المغرب ، وعليه طريق المدينة الشريفة ، ومصر والشام وجدة . ومنه يتوجه إلى التنعيم ، وسيذكر ذلك ، وباب المسفل ، وهو من جهة الجنوب ، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم فتح مكة شرفها الله ، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكياً عن نبيه الخليل بوادي غير ذي زرع . ولكن سبقت لها الدعوة المباركة ، فكل طرفة تجلب إليها ، وثمرات كل شيء تجيء لها . ولقد أكلت بها من الفواكه العنبر والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا ، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً بحلاوة ، واللحووم بها

سمان لذيدات الطعوم . وكل ما يفترق في البلاد من السلع ، فيها اجتماعه . وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر ، لطفاً من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق .

ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه

والمسجد الحرام في وسط البلد . وهو متسع الساحة . طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعين ذراع ، حكى ذلك الأزرقي ، وعرضه يقرب من ذلك . والكتبة العظمى في وسطه . ومنظره بديع . ومرآه جميل . لا يتعاطى اللسان وصف بداعه ، ولا يحيط الواصف بحسن كماله . وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعاً ، وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف ، بأتقن صناعة وأجملها . وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاماً عجيبةً كأنها بلاط واحد وعدد سوريه الرخامية أربعين ذراعاً وإحدى وتسعين سارية ما عدا الجصية التي في دار الندرة المزيدة في الحرم ، وهي داخلة في البلاط الآخر في الشمال . ويقابلها المقام مع الركن العراقي . وفضاؤها متصل ، يدخل من هذا البلاط إليه ، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي^(١) (حنايا) يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون . وفي جدار البلاط الذي يقابلة مساطب تماثلها . وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا . وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سورى جصية . وللحليفة المهدى ابن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهم آثار كرية في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه . وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين أصلحه الله بتتوسيع المسجد الحرام حاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة .

(١) جمع قوس ، وفسرها ابن جزي بالحنايا .

ذكر الكعبة المعمظمة الشريفة زادها الله تعظيمًا وتكريرًا

والكعبة مائلة في وسط المسجد، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمانٍ وعشرون ذراعاً، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن الياني تسع وعشرون ذراعاً، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الياني إلى الركن الشامي، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي، وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً والطواف إنما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر، قد أصقت بأبدع الإلصاق وأحکمه وأشدّه، فلا تغيرها الأيام، ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعمظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار، وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم، حيث يستجاب الدعاء. وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار، وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة وعضافاته^(١) وعتبة العليا مصفحات بالفضة، وله نقارنان كبيرتان من فضة عاليها قفل، ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد النبي ﷺ ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسياً شبه المنبر، له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متصلةً بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشبيبين وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة، فيمسكون الستر المسلح على باب الكعبة المسمى بالبرقع، بخلال ما

(١) عضافات الباب: خشباته من جانبيه.

يفتح رئيسهم الباب ، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة ، ودخل البيت وحده ، وسد الباب ، وأقام قدر ما يرکع رکعتين ، ثم يدخل سائر الشبیین ، ويستدون الباب أيضاً ، ويرکعون ، ثم يفتح الباب ، ويبادر الناس بالدخول ، وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الکریم بأتصار خاشعة وقلوب ضارعة وأیدی مبوطة إلى الله ، فإذا فتح کبروا ونادوا : اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراھین وداخل الكعبۃ الشریفة مفروش بالرخام المجزع ، وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطأ وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبۃ الشریفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الرکنین العرائی والشامی وستور الكعبۃ الشریفة من الحریر الأسود ، مكتوب فيها بالأبيض ، وهي تتلاًّ عنیها نوراً وإشراقاً ، وتکسو جیعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآیات في الكعبۃ الشریفة أن باها يفتح ، والحرم غاص بأتم لا يحصیها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ، ومن عجائبها أنها لا تخلي عن طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حام مکة وسواه من الطیر ، لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطیران وتجد الحمام يطیر على أعلى الحرم كله فإذا جاذی الكعبۃ الشریفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فاما أن يموت لحنه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذي خصها بالتشیریف والتکرم وجعل لها المهابة والتعظیم .

ذکر المیزاب المبارک

والمیزاب في أعلى الصفح الذي على الحجر ، وهو من الذهب ، وسعته شبر واحد ، وهو بارز بقدر ذراعين . والموضع الذي تحت المیزاب مظنة استجابة

الدعاء . وتحت المizarب في الحجر هو قبر اساعيل عليه السلام ، وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب ، متصلة برخامة خضراء مستديرة ، وكلتاها سعتها مقدار شبر ، وكلتاها غريبة الشكل رائفة المنظر . وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام ، وعلامة رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف وبين القبرين سبعة أشبار .

ذكر الحجر الأسود

وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطوويل من الناس يتظamen لتقبيله ، والصغرى يتطاول إليه وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق ، وسعته ثلاثة شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال : إن القرمطي لعنه الله كسره وقيل : إن الذي كسره سواه ، ضربه بدبوس فكسره ، وتبادر الناس إلى قتيله وقتله وبسببه جماعة من المغاربة . وجوانب الحجر مشدودة بصفحة من فضة ، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم ، فتنجلي منه العيون حستاً باهراً ، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ، ويود لائمه أن لا يفارق لثمه ، خاصية مودعة فيه ، وعنانية ربانية به وكفى قول النبي ﷺ إنه يمين الله في أرضه^(١) ، نفعنا الله باسلامه ومصالحته ، وأوفد عليه كل شيق^(٢) إليه . وفي القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ، مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه ، نقطة بيضاء صغيرة مشرقة ، كأنها خال في تلك الصحيفة البهية وترى الناس إذا طافوا بها يتسلط بعضهم على بعض ازدحاماً على تقبيله

(١) قال الصناعي في سبل السلام : وروى الأزرقي بإسناد صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنها : قال : « إن هذا الركن يمين الله عز وجل في الأرض يصافح به عباده مصالحة الرجل أخيه » وأخرج عنه : « الركن يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من أمرٍ مسلم يسأل الله عنده شيئاً إلا أعطاه إياه ».

(٢) أي : مشتاق متشرف إليه .

فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة، وكذلك يصنعون عند دخول الحرم. ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف وهو أول الأركان التي يلقاها الطائف، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلاً وجعل الكعبة الشريفة عن يساره، ومضى في طوافه، ثم يلقى بعده الركن العراقي، وهو إلى جهة الشمال، ثم يلقى الركن الشامي، وهو إلى جهة الغرب، ثم يلقى الركن الياني، وهو إلى جهة الجنوب، ثم يعود إلى الحجر الأسود، وهو إلى جهة الشرق.

ذكر المقام الكريم

يعلم أن بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعًا طوله اثنا عشر شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك، وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة إبراهيم عليه السلام ثم صرفة النبي ﷺ إلى الموضع الذي هو الآن مصلى، وبقي ذلك الموضع شبه الخوض، وإليه ينصب ماء البيت الحرام إذا غسل، وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلوة فيه. وموضع المقام الشريف يقابل ما بين الركن العراقي والباب الشريف، وهو إلى الباب أميل، وعليه قبة تحتها شبّاك حديد به متّجافٍ عن المقام الشريف قدر ما تصل أصابع الإنسان إذا أدخل يده من ذلك الشبّاك إلى الصندوق، والشبّاك مغلٌ ومن ورائه موضع محوذ قد جعل مصلى لركعتي الطواف. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعاً، ثم أتى المقام فقرأ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلِّ﴾^(١) وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى إمام الشافعية في الحظيم الذي هنالك.

ذكر الحجر والمطاف

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وتسعون شبراً من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق، وارتفاعه خمسة

(١) البقرة: ١٢٥.

أشبار ونصف شبر ، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر . وداخل الحِجْر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان . وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابلها من جدار الحِجْر على خط استواء أربعون شبراً ، وللحجـر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي ، وسعته ستة أذرع ، وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته ، كما جاءت الآثار الصحاح ، والمدخل الآخر عند الركن الشامي ، وسعته أيضاً ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبراً وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق ، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خططاً إلا في الجهة التي تقابل المقام الشريف ، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به وسائل الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة .

ذكر زمزم

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينها أربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة . ومن ركناها إلى عشر خططاً . وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض ، وتنور البئر المباركة في وسط القبة ، مائلاً إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة . وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص . ودوره أربعون شبراً ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر ، وعمق البئر إحدى عشرة قامة وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة إلى جهة الشرق وقد استدارت بداخل سقاية سعتها شبر ، وعمقها مثل ذلك ، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار ، تملأ ماء للوضوء ، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه ، وبابها إلى جهة الشمال . وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق ، وكل دورق له

مقبض واحد وترك بها ليبرد فيها الماء ، فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الشريفة ، والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع ، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه ، منتسب سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلیماً . وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوها هذا المصحف الشريف ، وفتحوا باب الكعبة ، ووضعوه على العتبة الشريفة ، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه السلام ، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم ، داعين متضرعين متولسين بالمصحف العزيز والمقام الشريف ، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته ، وتغمدهم بلطفه . ويلي قبة العباس رضي الله تعالى عنه على المحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية .

ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة

وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعه عشر باباً ، وأكثرها مفتوحة على أبواب كثيرة ، فمنها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وكان قد يمطر يعرف بباب بنى مخزوم ، وهو أكبر أبواب المسجد ، ومنه يخرج إلى المسعي ، ويستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بنى شيبة ، ويخرج بعد طرافة من باب الصفا جاعلاً طريقه بين الأسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمة الله ، علياً على طريق رسول الله عليه صلواته إلى الصفا ، ومنها باب أجياد الأصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ، ومنها باب النبي عليه صلواته مفتح على بابين ، ومنها باب بنى شيبة ، وهو في ركن الحدار الشرقي من جهة الشمال ، أمام باب الكعبة الشريفة متيسراً ، وهو مفتح على ثلاثة أبواب ، وهو باب بنى عبد شمس ، ومنه كان دخول الخلفاء ، ومنها باب صغير إزاء باب بنى شيبة لا اسم له ، وقيل : يسمى باب الرباط ، لأنه يدخل منه لرباط السدرة ، ومنها باب

الندوة ويسمى بذلك ثلاثة أبواب : اثنان منتظمان ، والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ، ودار الندوة قد جعلت مسجداً شارعاً في الحرم مضافاً إليه ، وهي تقابل الميزاب ، ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ، ومنها باب السدرة واحد ، وباب العمرة واحد ، وهو من أجمل أبواب الحرم ، وباب إبراهيم واحد ، والناس مختلفون في نسبته ، فبعضهم ينسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخوزي من الأعاجم ، وباب الحَزُورَة مفتح على بابين ، وباب ثالث ينسب إليه مفتح على بابين ، ويتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الأربعة المنسوبة لأجياد إلى الدقاقين .

وصوامع المسجد الحرام خمس : إحداها على ركن أبي قبيس عند باب الصفا ، والأخرى على ركن باب بنى شيبة ، والثالثة على باب دار الندوة ، والرابعة على ركن باب السدرة ، والخامسة على ركن أجياد . وبقرابة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب إليه الدر衙م المظفرية باليمن ، وهو كان يكسو الكعبة ، إلى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون - وبخارج باب إبراهيم زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب إبراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو ، قد صنع في داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف . وبإزاره هذا الباب عن يمين الداخل إليه كان يقع الشیخ العابد جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهري ، وخارج باب إبراهيم بئر تنسب كنسبة ، وعنه أيضاً دار الشیخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تأتي على يديه . وبقرابة منه رباط الموفق ، وهو من أحسن الرباطات ، سكتته أيام مجاوري بمكة المعظمة . وكان به في ذلك العهد الشیخ الصالح الطیار سعادة الجراني ، ودخل يوماً إلى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجداً مستقبلاً الكعبـة الشریفة میتاً من غير مرض كان به

رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحوً من أربعين سنة . وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوماً فلم يقع بصرى في بيته على شيء سوى حصير فقلت له في ذلك فقال لي : أستر على ما رأيت .

و حول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطروح يخرج منها إلى سطح الحرم ، وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام ، ودور لها أبواب تفضي إلى الحرم ، منها دار زبيدة زوجة الرشيد أمير المؤمنين ، ومنها دار العجلة ، ودار الشرابي وسواها . ومن المشاهد المقدسة بمقرية من المسجد الحرام قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقرية من باب الرسول ﷺ وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام ، وبمقرية منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه و مقابلها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز ، طرفه من الخائط يستلمه الناس ويقال : إنه كان يسلم على النبي ﷺ ويدرك أن النبي ﷺ سأله عن رجل فنطق ذلك الحجر ، وقال : يا رسول الله إنه ليس بحاضر .

ذكر الصفا والمروة

ومن باب الصفا الذي هو من أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة ، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة ، وله أربع عشرة درجة علياً هن كأنها مسطبة ، وبين الصفا والمروة أربعين خطوة وثلاث وتسعون خطوة ، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلات وتسعون خطوة ، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة ، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمسة وعشرون خطوة . وللمروة خمس درجات ، وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة . والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة ، والميلان

الأخضران هما ساريتان خضراراً إزاء باب علي من أبواب الحرم، أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرَّمَل^(١) ذاهباً وعائداً، وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحوم والتمر والسمن وسوها من الفواكه. والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة، وليس بمكة سوق منتظم سوى هذه إلا البزاوزن والعطارون عند باب شيبة وبين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه، وهي الآن رباط يقطنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله، وبني أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور والآخر في العطارين. وعليها ربع يسكنه خدامها، وتولى بناء ذلك الأمير علاء الدين بن هلال، وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي غني وسنذكره.

ذكر الجبانة المباركة

وجبانة مكة خارجة بباب المعلَّى، ويعرف ذلك الموضع بالحجون وإياه عنى الحارث ابن مضاض الجرهمي بقوله:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمِّ بمكة سامرٌ
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ العواشرُ

وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء، إلا أن مشاهدهم دثرت، وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها إلا القليل، فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين، ووزير سيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي ﷺ، كلهم ما عدا إبراهيم، وجدة السبطين الكريمين

(١) الرمل: المرولة.

صلوات الله وسلامه على النبي ﷺ وعليهم أجمعين. وبمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي عصر المتصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما أجمعين، وفيها الموضع الذي صُلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير^(١) من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب، يقال إنه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله ﷺ وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد إلى عرفات وطريق الذاهب إلى الطائف وإلى العراق.

ذكر بعض المشاهد خارج مكة

فمنها الحجون وقد ذكرناه، ويقال أيضاً: إن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب، وهو أيضاً الأبطح، وهو يلي الجبانة المذكورة، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله ﷺ، ومنها ذو طوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالخصاص دون ثنية كداء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزاً بين الخل والحرم. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذى طوى ثم يغسل منه ويدعو إلى مكة، ويدرك أن رسول الله ﷺ فعل ذلك. ومنها ثنية كُدي (بضم الكاف)، وهي بأعلى مكة، ومنها دخل رسول الله ﷺ في حجة الوداع إلى مكة. ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف)، ويقال لها الثنية البيضاء، وهي بأسفل مكة، ومنها خرج رسول الله ﷺ عام الوداع، وهي بين جبلين. وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق، وكل من يمر به يرجمه بحجر. ويقال: إنه قبر أبي هب وزوجه حمالة الخطب. وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن

(١) المبير، أي: المهلك، وإنما كان اللعن يلحق حجاج الطائف استنكاراً لما صنعه الحجاج بن يوسف التقي - وهو من أهل الطائف - من رمي الكعبة بالمنجنيق، وصلب عبد الله بن الزبير رضي الله عنها.

منى ، وبقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد يازاته حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر ، كان فيه نقش فدثر رسمه . يقال : إن النبي ﷺ قعد بذلك الموضع مستريحاً عند بحثه من عمرته . فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون إليه . ومنها التنعيم ، وهو على فرسخ من مكة ، ومنه يعتمر أهل مكة ، وهو أدنى الحل إلى الحرم ، ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله ﷺ في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه ، وأمره أن يعمرها من التنعيم . وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها . وطريق التنعيم طريق فسيح ، والناس يتحررون كنسه في كل يوم رغبة في الأجر والثواب . لأن من المعتمرين من يشي فيه حافياً . وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة ، ومنها الزاهر ، وهو على نحو ميلين من مكة ، على طريق التنعيم ، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق .

وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء ، يملأها خدم ذلك الموضع من آبار الزاهر ، وهي بعيدة القعر جداً . والخدم من القراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء ، ذو طوى يتصل بالزاهر .

ذكر الجبال المطيفة بمكة

فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرستها الله ، وهو أحد الأخشبين ، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله ، ويقابل ركن الحجر الأسود . وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة . وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره . وهو مطل على الحرم الشريف ، وعلى جميع البلد . ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة . ويدرك أن جبل أبي قبيس

هو أول جبل خلقه الله تعالى ، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان . وكانت قريش تسمية الأمين لأنها أدي الحجر الذي استودع فيه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام . ويقال : إن قبر آدم عليه السلام به . وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي ﷺ حين انشق له القمر . ومنها قعيقان ، وهو أحد الأختين ، ومنها الجبل الأخر ، وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله ، ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعدين المعروفي بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر ، ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم ، يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم سا حسما نص الله في كتابه العزيز ، عليه أعلام من حجارة ، ومنها جبل حراء ، وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها ، وهو مشرف على منى ، ذاہب في الهواء عالي القنة . وكان رسول الله ﷺ يتبعده فيه كثيراً قبل المبعث ، وفيه أتاه الحق من ربها وبداً الوحي ، وهو الذي اهتز تحت رسول الله ﷺ فقال ﷺ : إثبت فما عليك إلا نبي وصديق وشهيد^(١) ، واختلف فيما كان معه يومئذ . وروي أن العشرة كانوا معه .

وقد روي أيضاً أن جبل ثير اهتز تحته أيضاً ، ومنها جبل ثور ، وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن ، وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله ﷺ حين خروجه مهاجراً من مكة شرفها الله ، ومعه الصديق رضي الله عنه ، حسب ما ورد في الكتاب العزيز . ذكر الأزرقي في كتابه : أن الجبل المذكور نادى رسول الله ﷺ وقال : إلى يا محمد إلى إلى ، فقد آويت قبلك سبعين نبياً . فلما دخل رسول الله ﷺ الغار واطمأن به وصاحبـه الصديق معه ، نسجت العنكبوتـ من حينها على بـابـ الغـارـ ، وصنعتـ الحـمامـةـ عـشاـ وفرـحتـ فيـهـ

(١) روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : أثبت أحد فلما عليك نبي وصديق وشهيدان .

يأذن الله تعالى ، فانتهى المشركون ومعهم قصاص الأثر إلى الغار ، فقالوا ها هنا انقطع الأثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة ، فقالوا : ما دخل أحد هنا ، وانصرفوا . فقال الصديق : يا رسول الله لو ولجوا علينا منه ، قال : كنا نخرج من هنا . وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب بقدرة الملك الوهاب^(١) .

والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك ، فيرورون دخوله من الباب الذي دخل منه النبي ﷺ تبركاً بذلك . فمنهم من يتأتى له ، ومنهم من لا يتأتى له وينشب فيه ، حتى يتناول بالجذب العنيف ، ومن الناس من يصلى أمامه ولا يدخله . وأهل تلك البلاد يقولون : إنه من كان لرشدة دخله ، ومن كان لزينة لم يقدر على دخوله . وهذا يتحاماه كثير من الناس لأنه مخجل فاضح . قال ابن جزي : أخبرني بعض أشياخنا الحجاج الأكياس أن سبب صعوبة الدخول إليه هو أن بداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجراً كبيراً معتراضاً . فمن

(١) ذكر الإمام أبو الفداء ابن كثير في السيرة النبوية أن الصديق رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال له الرسول ﷺ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ، وذكر أن هذا مخرج في الصحيحين ، وقال بعد ذلك : وقد ذكر بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال ذلك قال النبي ﷺ : « لو جاءتنا من هنا لذهبنا من هنا » ، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر وإذا البحر قد اتصل به ، وسفينة مشدودة إلى جانبه .

وقد ورد هذا كذلك في السيرة النبوية لأحد زيني وحلان منسوباً إلى بعض أهل السير ، ولم يحدد الإمام ابن كثير ، أو زيني وحلان من هم أهل السير الذين قالوا ذلك ، وقال ابن كثير بعد ذلك « وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة ، ولكن لم يرد ذلك بأساند قوي ولا ضعيف ، ولستأ ثبت شيئاً من تلقاء أنفسنا ، ولكن ما صح أو حسن سنته قلنا به ». وقال أحد زيني وحلان : « وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة العظيمة ، ولا يستبعد بالنسبة لمعجزاته العميمة ﷺ ، وإن كان الذي ذكره ما ذكر له إسناداً متصلة ، لكن حسن الفتن بالأئمة يقتضي أنهم لا يذكرون مثل ذلك إلا بتوقيف » .

دخل من ذلك الشق منبطحاً على وجهه وصل رأسه إلى ذلك الحجر، فلم يمكّنه التولّج، ولا يمكنه أن ينطوي إلى العلو، ووجهه وصدره يليان الأرض. فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص إلا بعد الجهد والجذب إلى خارج ومن دخل منه مستلقياً على ظهره أمكنه، لأنّه إذا وصل رأسه إلى الحجر المترض رفع رأسه، واستوى قاعداً، فكان ظهره مستندًا إلى الحجر المترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائماً بداخل الغار.

حكاية

وما اتفق بهذا الجبل لصحابي : أحدّها الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله بن فرحان الأفريقي التوزري ، والآخر أبو العباس أحمد الأندلسي الوادي آثي ، أنها قصدا (الغار) في حين مجاورتها بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعين ، وذهبا منفردين ، لم يستصحبا دليلاً عارفاً بطريقه ، فتاهَا وضللا طريق الغار وسلكا طريقةً سواها منقطعة ، وذلك في أوان اشتداد الحر وحمى القيظ ، فلما نفد ما كان عندهما من الماء ، وهما لم يصلا إلى الغار ، أخذَا في الرجوع إلى مكة شرفها الله تعالى ، فوجدا طريقةً فاتبعاها وكان يفضي إلى جبل آخر ، واشتد بها الحر ، وأجهدَها العطش ، وعاينا الهملاك ، وعجز الفقيه أبو محمد عبدالله بن فرحان عن المشي جملة ، وألقى بنفسه إلى الأرض ، ونجا الأندلسي بنفسه . وكان فيه فضل قوة ، ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق إلى أجياد ، فدخل إلى مكة شرفها الله تعالى ، وقصدني ، وأعلمني بهذه الحادثة ، وبما كان من أمر عبد الله التوزري وانقطاعه في الجبل ، وكان ذلك في آخر النهار . ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن ، وهو من سكان وادي نخلة ، وكان إذ ذاك بمكة ، فأعلمته بما جرى على ابن عمّه ، وقصدت الشيخ الصالح الإمام أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل إمام المالكية نفع الله به ،

فأعلمته بخبره، فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعوب في طلبه، وكان من أمر عبد الله التوزري أنه لما فارقه رفيقه، لجأ إلى حجر كبير، فاستظل بظله، وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش، والغربان تطير فوق رأسه، وتنظر موته. فلما انصرم النهار، وأتى الليل، وجد في نفسه قوة وأنعشه برد الليل، فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل إلى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس، فلم يزل ماشياً إلى أن بدت له دابة فقصد قصدها، فوجد خيمة للعرب. فلما رآها وقع إلى الأرض ولم يستطع النهوض، فرأته صاحبة الخيمة، وكان زوجها قد ذهب إلى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم ير، وجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم ير، وأركبه حاراً له، وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من الثاني متغيراً كأنه قام من قبر.

ذكر أميرِي مكة

وكانت إمارة مكة في عهد دخولي إليها للشريفين الأجلين الأخوين : أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي غني بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنين . ورميحة أكبرها سنًا ، ولكنـه كان يقدم اسم عطيـفة في الدعـاء له بمكـة ، لـعدـله ولـرمـيـحة منـ الأولـاد أحـد وـعـجـلـان ، وـهـوـ أـمـيرـ مـكـةـ فيـ هـذـاـ العـهـدـ ، وـتـقـيـةـ وـسـنـدـ وـأـمـ قـاسـمـ . وـلـعـطـيـفةـ مـنـ الأولـادـ مـحـمـدـ وـمـبـارـكـ وـمـسـعـودـ . وـدارـ عـطـيـفةـ عـنـ يـمـينـ المـرـوـةـ ، وـدارـ أـخـيـهـ رـمـيـحةـ بـرـبـاطـ الشـرـابـيـ عـنـ بـابـ بـنـيـ شـيـبةـ ، وـتـضـرـبـ الطـبـولـ عـلـىـ بـابـ كـلـ وـاـحـدـ مـنـهـاـ عـنـ صـلـاـةـ الـمـغـرـبـ مـنـ كـلـ يـوـمـ .

ذكر أهل مكة وفضائلهم

ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء . ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم

وليمة يبدأ فيها بإطعام القراء المنقطعين المجاورين، ويستدعهم بتأطيف ورقة وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطيخ الناس أخبارهم. فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلاً فإذا الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيا له طعامه منها، ويدهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أم الوجوه. ولم يعلم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيراً ويكتحلون ويكتثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف. وهن يكتنن التطيب، حتى إن إداهن لتبييت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فإذا تبن في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً. ولأهل مكة عوائد حسنة وغيره سندكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

ذكر قاضي مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها وصلحائتها

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد بن الإمام العالم محيي الدين الطبرى، وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين، حسن الأخلاق كثير

الطواف والمشاهدة للكرامة الشريفة ، يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة ، وخصوصاً في مولد رسول الله ﷺ ، فإنه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدم الحرم الشريف وجيع المجاورين . وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمة الله يعظمها كثيراً ، وجميع صدقاته وأصدقات أمراته تجري على يديه . ولولده شهاب الدين فاضل ، وهو الآن قاضي مكة شرفها الله . وخطيب مكة الإمام عقام إبراهيم عليه السلام الفصيح المصحع وحيد عصره بهاء الدين الطبرى ، وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمورة مثلهم بلاغة وحسن بيان . وذكر لي أنه ينشئ لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد . وإمام الموسم وإمام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخالع الشهير أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الإمام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن ، وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع بيقائه . وأهله من بلاد الجريد من إفريقية ، ويعرفون بها ببني حيون من كبارها ، ولولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله ، وهو أحد الكبار من أهل مكة ، بل واحدها وقطبها ياجاع الطوائف على ذلك ، مستغرق العبادة في جميع أوقاته ، حبيٌّ كريمٌ حسن الأخلاق كثير الشفقة ، لا يرد من سأله خائباً .

حكاية مباركة

رأيت أيام مجاوري بمكة شرفها الله ، وأنا إذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية ، النبي ﷺ في النوم ، وهو قاعد بمجلس التدريس في المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة ، والناس يبايعونه ، فكنت أرى الشيخ أبي عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله ﷺ ، وجعل يده في يد رسول الله ﷺ ، وقال : أبيايك على كذا وكذا ، وعدّت أشياء منها ، وأن لا أرد من بيتي مسكييناً خائباً ، وكان ذلك آخر كلامه ، فكنت أعجب من قوله ، وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه ، مع كثرة

فقراء مكة واليمن والزيالعة وال伊拉克 والعجم ومصر والشام . و كنت أراه حين ذلك لا يلبس جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقططان ، كان يلبسها في بعض الأوقات ، فلما صليت الصبح غدوت عليه وأعلمه برؤياني فسر بها وبكى ، وقال لي تلك الجبة أهدتها بعض الصالحين لجدي ، فأنا ألبسها تبركاً . وما رأيته بعد ذلك يرد سائلاً خائباً . وكان يأمر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به إلى بعد صلاة العصر من كل يوم . وأهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ، ويقتصرن عليها إلى مثل ذلك الوقت . ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر . ولذلك صحت أبدانهم ، وقللت فيهم الأمراض والعاهات . وكان الشيخ خليل متزوجاً بنت القاضي نجم الدين الطبرى ، فشك في طلاقها وفارقها . وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين التويiri من كبار المجاورين ، وهو من صعيد مصر . وأقامت عنده أعوااماً وسافر بها إلى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنت في مين بالطلاق ، ففارقها على ضيانته بها ، وراجعتها الفقيه خليل بعد سنين عدة . ومن أعلام مكة إمام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ، ومنهم إمام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي من كبار أئمة مكة وفضلاتها ، يطعم المجاورين وأبناء السبيل . وهو أكرم فقهاء مكة . ويدان في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفاً ، فيؤديها الله عنه . وأمراء الأتراك يعظمونه ويحسنون الظن به ، لأنه إمامهم . ومنهم إمام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الأصل المكي المولد ، وهو نائب القاضي نجم الدين ، والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري ، والناس يهابونه لسيطرته .

حكاية

كان تقي الدين المصري محتسباً بمكة ، وكان له دخول فيها يعنيه وفيها لا يعنيه . فاتفق في بعض السنين أن أتى أمير الحاج بصيبي من ذوي الدعارة بمكة ،

قد سرق بعض الحجاج . فأمر بقطع يده فقال له تقي الدين : إن لم تقطعها ، بحضورتك ، وإلا غالب أهل مكة خدامك عليه . فاستنقذوه منهم وخلصوه ، فأمر بقطع يده في حضرته فقطعت . وحقدها لتقى الدين . ولم يزل يتربص به الدواير ، ولا قدرة له عليه لأن له حسناً من الأمراء رميثة وعطيفة والحسب عندهم أن يعطي أحدهم هدية من عمامه أو شاشية بمحضر الناس تكون جواراً لمن أعطيته ، ولا تزول حرمتها ، معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة . فأقام تقي الدين بمكة أعوااماً ، ثم عزم على الرحلة ، ووسع الأمراء ، وطاف طواف الوداع ، وخرج من باب الصفا . فلقيه صاحبه الأقطع وتشكي له ضعف حاله ، وطلب منه ما يستعين به على حاجته . فانتهره تقي الدين وزجره . فاستل خنجرأ له يعرف عندهم بالجنبيه ، وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه . ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبرى ، شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والإحسان للمجاوريين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي ، من فضلاء مكة ، وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه محمد بن عثمان الجنبي ، ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهر ورع مبتلى باللوسوس .رأيته يوماً يتوضأ من بركة المدرسة المظفرية ، فيغسل ويكرر ، ولما مسح رأسه أعاد مسحه مرات ، ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة . وكان إذا أراد الصلاة ربما صلى الإمام الشافعى ، وهو يقول : نويت نويت ، فيصلى من غيره وكان كثير الطواف والاعتمر والذكر .

ذكر المجاورين بـ مكة

فمنهم الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليماني الشافعى الشهير باليافعي ، كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار . وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهداً

للكعبة الشريفة، إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجراً، أو ينام يسيراً، ثم يجدد الوضوء ويعود حاله من الطواف حتى يصل الصبح. وكان متزوجاً ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان، وكانت صغيرة السن. فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته. ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفوني. كان قاضياً ببلاد الصعيد فانقطع إلى الله تعالى، وجاور بالحرم الشريف. وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم، ويعتمر في رمضان: مرتين في اليوم اعتقاداً على ما في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «عمرة في رمضان تعدل حجة معى»^(١). ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي، كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين، توفي بمكة، ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، كثير الطواف، أقام بمكة أعوااماً لا يتكلم فيها. ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ، كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمحاجم القلوب. والصالح الجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرئ مجید ساكن رباط السدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم. والصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة، فيبتاع الحبوب والتمر، ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي. والفقية الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجري من أهل قطر طنجة

(١) الحديث روى معناه بلفظ آخر أبو داود وابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه كذلك بلفظه البخاري والنسائي وابن ماجة، وليس فيه لفظ: معى، ورواه مسلم بروايتين في إحداهما لفظ معى، والأخرى بدونها، كما رواه ابن حبان في صحيحه، وقد روی بروايات تختلف لفظاً وتتفق معنى».

من كبار الصالحينجاور مكة سنين وبها وفاته. كانت بينه وبين والدي صحبة قدية. ومتى أتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا. وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهاراً ويأوي بالليل إلى مسكنة برباط ربيع، وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخله بئر عذبة لا تُماثلها بئر بمكة، وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيمًا شديداً وينذرُون له النذور، وأهل الطائف يأتونه بالفواكه. ومن عاداتهم أن كل من له بستان من التخيل والعنب والفرسق وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العُشر لهذا الرباط. ويوصلون ذلك إليه على جاهلهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان. ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوانح.

حكاية في فضيلة

أي يوماً غلام الأمير أبي غني صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر، فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤوسها وأرجلها. واتصل الخبر بالأمير أبي غني، فأتى باب الرباط بنفسه، واعتذر إلى المساكين الساكنين به، واستصحب واحداً منهم فمسح على بطون الدواب بيده فأراقت ما كان في أجوفها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها، ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير. ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله. وسكن رباط ربيع، ووفاته بمكة. ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة، كان خديماً للشيفيين المذكورين، فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما. ومنهم الصالح السابع السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني. ومنهم الشيخ سعيد الهنديشيخ رباط كلالة.

حكاية

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه، فأعطيه مالاً عظيماً قدم به مكة. فسجنه الأمير عطيفة، وطلبه بأداء المال، فامتنع فُعدَّ بعصر رجليه، فأعطي خمسة وعشرين ألف درهم نقرة، وعاد إلى بلاد الهند. ورأيته بها، ونزل بدار الأمير سيف الدين غدا ابن هبة الله بن عيسى بن مهنا أمير عرب الشام. وكان غدا ساكناً في بلاد الهند متزوجاً بأخت ملكها، وسيذكر أمره. فأعطي ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال، وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الأمير غدا، وجهه الأمير المذكور ليأتيه ببعض ناسه، ووجه معه أموالاً وتحفأ منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه بأخته، وهي من الحرير الأزرق مزرفة بالذهب، ومرصعة بالجوهر، بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها، وبعث معها حسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق. فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل، واحتريا سلعاً بما عندهما من الأموال. فلما وصل جزيرة سقطرة المنسوب إليها الصبر السقطري، خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالاً شديداً، مات فيه من الفريقين جملة. وكان وشل راماً فقتل منهم جماعة، ثم تغلب السراغ عليهم وطعنوا وشلا طعنة مات منها بعد ذلك. وأخذوا ما كان عندهم، وتركوا لهم مركبهم بالآلة سفره وزاده. فذهبوا إلى عدن، ومات بها وشل. وعادة هؤلاء السراغ أنهم لا يقلتون أحداً إلا حين القتال ولا يغرقونه، وإنما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء. ولا يأخذون الماليك لأنهم من جنسهم. وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند أنه يريد إظهار الدعوة العباسية بيده، كمثل ما فعله ملوك الهند من تقدمه، مثل السلطان شمس الدين للّمِش واسميه (بفتح اللام الأولى وإسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم)، ولده ناصر الدين. ومثل السلطان جلال الدين فيروز شاه،

والسلطان غيث الدين بلين. وكانت الخلع تأتي إليهم من بغداد. فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد إلى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الريبع سليمان العباسي بمصر ، وأعلمته بالأمر . فكتب له كتاباً بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند . فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب إلى اليمن واشتري بها ثلاثة خلع سوداً ، وركب البحر إلى الهند . فلما وصل كنبايت ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من دهلي حاضرة ملك الهند ، كتب صاحب الخبر إلى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد ، وأن معه أمر الخليفة وكتابه . فورد الأمر بعثه إلى الحضرة مكرماً . فلما قرب من الحضرة بعث الأمراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ، ثم خرج هو بنفسه لتلقيه ، فلتقاءه وعائقه ودفع له الأمر ، فقبله ووضعه على رأسه ، ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس إحدى الخلع وكسا الأخرى الأمير غيث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المنصور العباسي ، وكان مقيناً عندـه ، وسيذكر خبره . وكسا الخلعة الثالثة الأمير قبولي الملقب بالملك الكبير ، وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب . وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه ، وأركبه على الفيل ، ودخل المدينة كذلك ، والسلطان أمامه على فرسه ، وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساها الخلعتين العباسيتين . والمدينة قد زينت بأنواع الزينة وصنع بها إحدى عشرة قبة من الخشب . كل قبة منها أربع طبقات ، في كل طبقة طائفة من المغنين رجالاً ونساء ، والراقصات ، وكلهم ماليك السلطان . والقبة مزينة بشباب الحرير المذهب أعلىها وأسفلها وداخلها وخارجها ، وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حلّ فيه الجلاب ، يشربه كل وارد وصادر ، لا يمنع منه أحد . وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة ، فإذا كلها فتطيب نكهته وتزيد في حرارة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام . ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له

ثياب الحرير بين يدي الفيل يطأ عليها الفيل من باب المدينة إلى دار السلطان . وأنزل بدار تقرب من دار الملك . وبعث له أموالا طائلة . وجميع الأثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والمواضعة بين يدي الفيل لا تعود إلى السلطان بل يأخذها أهل الطرف وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب ، وخدمات الأحواض وغيرهم . وهكذا فعلهم من قدم السلطان من سفر . وأمر الملك بكتاب الخليفة ان يقرأ على المنبر بين الخطيبين في كل يوم جمعة ، وأقام الشيخ سعيد شهرا ثم بعث معه الملك هدايا إلى الخليفة . فوصل كتابيت ، وأقام بها حتى تيسر أسباب حركته في البحر . وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولاً إلى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعي ، أحد شيوخ الصوفية ، وأصله من مدينة القرم من صحراء قفجق ، وبعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خسون ألف دينار . وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والستان ، ويعين له سواه من يظهر . هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه في الخلافة وحسن نية . وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالأمير سيف الدين الكاشف . فلما وصل رجب إلى الخليفة أبي أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية إلا بمحضر الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر . فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشتري بشمنه ، وهو ثلاثة ألف درهم ، أربعة أحجار . وحضر بين يدي الملك الصالح ، ودفع له الكتاب ، وأحد الأحجار ، ودفع سائرها لأمرائه . واتفقوا على أن يكتب لملك الهند بما طلب . فوجهوا الشهود إلى الخليفة وأشهدوا على نفسه أنه قدمه نائباً عنه ببلاد الهند وما يليها ، وبعث الملك الصالح رسولاً من قبله ، وهوشيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ، ومعه الشيخ رجب وجاءه من الصوفية ، وركبوا بحر فارس من الأبلة إلى هرمز ، وسلطانها يومئذ قطب الدين تمنهن طوران شاه . فأكرم مثواهم ، وجهز لهم مركباً إلى بلاد الهند فوصلوا مدينة كتابيت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلتكي ، أحد خواص ملك

المهد . فاجتمع الشيخ رجب بهذا الأمير وقال له ان الشيخ سعيد إنما جاءكم بالتزوير . والخلع التي ساقها إنما اشتراها بعده ، فينبغي أن تتحققوا وتبثعواه لخوند عالم وهو السلطان . فقال له الأمير : الشيخ سعيد معظم عند السلطان فيما يفعل به هذا إلا بأمره . ولكني أبعثه معك ليرى فيه السلطانرأيه . وكتب الأمير بذلك كله إلى السلطان ، وكتب به أيضاً صاحب الأخبار فوقع في نفس السلطان تغير ، وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤوس الأشهاد ، بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الإكرام ما صدر ، فمنع رجب من الدخول عليه ، وزاد إكرام الشيخ سعيد ، ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام إليه وعائقه وأكرمه وكان متى دخل إليه يقوم إليه . وبقي الشيخ سعيد المذكور بأرض المهد معيظاً مكرماً . وبها تركته سنة ثمان وأربعين . وكان بمكة أيام مجاورتي بها حسن المغربي الجنون ، وأمره غريب وشأنه عجيب . وكان قبل ذلك صحيح العقل خديماً لولي الله تعالى نجم الدين الأصبهاني أيام حياته .

حكاية

كان حسن الجنون كثير الطواف بالليل ، وكان يرى في طواوفه بالليل فقيراً ، يكثر الطواف ، ولا يراه بالنهار . فلقيه ذلك الفقير ليلة ، وسألة عن حاله ، وقال يا حسن : إن أمك تبكي عليك ، وهي مشتاقة إلى رؤيتك ، وكانت من إماء الله الصالحات ، أفتحب أن تراها قال له : نعم ، ولكنني لا قدرة لي على ذلك . فقال له : نجتمع هنا في الليلة المقبلة إن شاء الله تعالى - فلما كانت الليلة المقبلة ، وهي ليلة الجمعة ، وجده حيث واعده - فطافا بالبيت ما شاء الله ، ثم خرج ، وهو في أثره ، إلى باب المعلى . فأمره أن يسد عينيه ويمسك بشوبه ففعل ذلك . ثم قال : بعد ساعة : أتعرف بذلك ؟ قال نعم . قال : ها هو هذا . ففتح عينيه ، فإذا به على دار أمه ، فدخل عليها ، ولم يعلمها بشيء مما جرى ، وأقام عندها نصف شهر ،

وأظن أن بلده مدينة أسفى^(١). ثم خرج إلى الجبانة ، فوجد الفقير صاحبه ، فقال له : كيف أنت ؟ فقال : يا سيدِي ، إني اشتقت إلى رؤية الشيخ نجم الدين ؛ وكنت خرجت على عادتي ، وغبت عنه هذه الأيام ، وأحب أن تردني إليه . فقال له : نعم ، وواعده الجبانة ليلاً . فلما وفاه بها ، أمره أن يفعل ك فعله في مكة شرفها الله ، من تعريض عينيه والإمساك بذيله فعل ذلك ، فإذا به في مكه شرفها الله . وأوصاه أن لا يحدث نجم الدين بشيء مما جرى ، ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين ، قال له : أين كنت يا حسن في غيبتك ؟ فأبى أن يخبره . فعزم عليه ، فأخبره بالحكاية . فقال : أرني الرجل ، فأتي معه ليلاً ، وأتى الرجل على عادته . فلما مر بها قال له : يا سيدِي هو هذا . فسمعه الرجل فضربه بيده على فمه وقال اسكت اسكتك الله . فخرس لسانه ، وذهب عقله ، وبقي بالحرم موهاً يطوف بالليل والنهار من غير ضوء ولا صلاة ، والناس يتبركون به ويكسونه ، وإذا جاء خرج إلى السوق التي بين الصفا والمروءة ، فيقصد حانوتاً من الحوانيت ، فيأكل منها ما أحب ، لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئاً ، وتظهر له البركة والنماء في بيته وربحه . ومني أتى السوق تطاول أهلها بأعناقهم إليه ، كل منهم يحرص على أن يأكل من عنده ، لما جربوه من بركته . كذلك فعله مع السقائين ، متى أحب أن يشرب . ولم يزل دأبه كذلك إلى سنة ثمان وعشرين ، فحج فيها الأمير سيف الدين يلمك ، فاستصحبه معه إلى ديار مصر ، فانقطع خبره نفع الله تعالى به .

ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم

فمن عادتهم ان يصلی أول الأئمة إمام الشافعية ، وهو المقدم من قبل أولى الأمر . وصلاته خلف المقام الكريم ، مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له

(١) أسفى ، بفتح المزة وانسین وكسر الفاء مدينة على شاطئ البحر المتوسط بأقصى المغرب ،

هناك بديع . وجهور الناس بعكة على مذهبة . والخطيم خشبتان موصول ما بينها بأذرع شبه السلم ، تقابلها خشبتان على صفتتها ، وقد عقدت على أرجل مخصصة ، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيها قناديل زجاج . فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبة الركن الياني ، ويصلي إمام الحنبلي معه في وقت واحد مقابلاً ما بين الحجر الأسود والركن الياني ، ثم يصلى إمام الحنفية قبل المizar المكرم تحت خطيم له هناك ، ويوضع بين يدي الأئمة في محاربهم الشمع . وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع ، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد ، كل إمام يصلى بطائفته ، ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط ، فربما ركع المالكي برکوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي . وترأهム مصيحيون كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو .

ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة

وعادتهم في يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة ، فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ، ويكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم . فإذا خرج الخطيب ، أقبل لابساً ثوب سواد ، معتماً بعامة سوداء ، وعليه طليسان أسود . كل ذلك من كسوة الملك الناصر . وعليه الوقار والسكنية ، وهو يتهدى بين رايتين سوداويتين ، يمسكهما رجالان من المؤذنين ، وبين يديه أحد القومة ، في يده الفرقعة ، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ، ينفضه في الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من داخل الحرم وخارجه ، فيكون إعلاماً بخروج الخطيب . ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ، ثم يقصد المنبر ، والمؤذن الززمي ، وهو رئيس المؤذنين بين يديه ، لابساً السواد

وعلى عاتقه السيف ممسكاً له بيده، وترکز الرايتان عن جانبي المنبر. فإذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف، فيضرب ببنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين، ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، ثم في الثالث أخرى. فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة، ووقف داعياً بدعاء خفي، مستقبل الكعبة. ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، ويرد عليه الناس، ثم يقعد. ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في حين واحد. فإذا فرغ الأذان، خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبي ﷺ، ويقول في أثنائها: ﴿صَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ مَا طَافَ بِهِذَا الْبَيْتِ طَائِفًا﴾، ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم. اللهم صلّى الله علی محمد وآل محمد ما وقف بعرفة واقف. ويترضى عن الخلفاء الأربعة وعن سائر الصحابة وعن النبي ﷺ وبسطيه وأمهما وخدیجه جدتها، على جميعهم السلام. ثم يدعو للملك الناصر، ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول، ثم للسيدين الشريفين الحسينين أميري مكة. سيف الدين عطيفة، وهو أصغر الأخرين، ويقدم اسمه لعدله، وأسد الدين رميثة، ابني أبي نعي بن أبي سعيد بن علي بن قتادة. وقد دعا لسلطان العراق مرة، ثم قطع ذلك. فلما فرغ من خطبته وانصرف، والرايتان عن يمينه وشماله والفرقة أمامه إشعاراً بانقضاء الصلاة، ثم يعاد المنبر إلى مكانه الكرم.

ذكر عادتهم في استهلال الشهور

وعادتهم في ذلك أن يأتي أمير مكة في أول يوم من الشهر، وقواده يحفون به، وهو لابس البياض معتم متقلد سيفاً وعليه السكينة والوقار، فيصلي عند المقام الكبير ركعتين، ثم يقبل الحجر، ويسرع في طواف أسبوع^(۱). ورئيس المؤذنين على

(۱) يظهر - والله أعلم - أن المراد بهذه العبارة، أنه يشرع في الطواف سبعة أشواط.

أعلى قبة زمزم. فعند ما يكمل الأمير شوطاً واحداً ، ويقصد الحجر لتقبيله ، يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له ، والتهنئة بدخول الشهر ، رافعاً بذلك صوته ، ثم يذكر شرعاً في مدحه ومدح سلفه الكريم . ويفعل به هكذا في السبعة أشواط . فإذا فرغ منها ركع عند الملتمز ركعتين ، ثم ركع خلف المقام أيضاً ركعتين ، ثم انصرف . ومثل هذا سواء يفعل إذا أراد سفراً وإذا قدم من سفر أيضاً .

ذكر عادتهم في شهر رجب

إذا هل هلال رجب أمر أمير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعاراً بدخول الشهر ، ثم يخرج في أول يوم منه راكباً ، ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً ، على ترتيب عجيب ، وكلهم بالأسلحة ، يلعبون بين يديه ، والفرسان يجولون ويجررون ، والرجال يتواكبون ويرمون بحراهم إلى الهواء ، ويلقفوها ، والأمير رميثة والأمير عطيفة معهما أولادها وقوادها مثل محمد بن إبراهيم ، وعلى وأحمد ابني صبيح ، وعلى بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق ، وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد ، وبين أيديهم الرايات والطبول والدبادب ، وعليهم السكينة والوقار . ويسيرون حتى ينتهوا إلى الميقات ، ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم إلى المسجد الحرام ، فيطوف الأمير بالبيت ، والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعوه له عند كل شوط ، على ما ذكرناه من عادته ، فإذا طاف صلى ركعتين عند الملتمز ، وصلى عند المقام وتمسح به ، وخرج إلى المسعى فسعى راكباً والقواد يحفون به ، والحرابة بين يديه ، ثم يسير إلى منزله . وهذا اليوم عندهم عيد من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب ويتنافسون في ذلك .

ذكر عمرة رجب

وأهل مكة يحتفلون لعمره رجب الاحتفال الذي لا يعهد مثله ، وهي متصلة ليلاً ونهاراً . وأوقات الشهر كله معمرة بالعبادة ، وخصوصاً أول يوم منه ، ويوم خمسة عشر ، والسابع والعشرين . فإنهم يستعدون لها قبل ذلك بأيام . شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه ، وشوارع مكة قد غصت بالموادج عليها كساء الحرير والكتان ^{الرَّفِيع} . كل واحد يفعل بقدر استطاعته ، والجمال مزينة مقلدة بقلائد الحرير ، وأستار الموادج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة . ويخرجون إلى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الموادج ، والنيران مشعلة بجنبتي الطريق ، والشمع والمشاعل أمام الموادج ، والجبال تحيب بصداتها إهلال المهللين ، فترق النفوس ، وتنهمل الدموع . فإذا قضوا العمرة ، وطافوا بالبيت ، خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل ، والمسعى متقد السرج غاص بالناس ، والساعيات على هوادجهن ، والمسجد الحرام يتلألأ نوراً . وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الأكمية ، لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة ، على مقربة من المسجد المنسوب إلى علي رضي الله عنه . والأصل في هذه العمرة أن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً ، ومعه أهل مكة وذلك في اليوم السابع والعشرين من رجب ، وانتهى إلى الأكمية فأحرم منها ، وجعل طريقه على ثنية الحجون إلى المعلى ، من حيث دخل المسلمون يوم الفتح . فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة إلى هذا العهد ، وكان عهد عبدالله مذكوراً أهدي فيه بدننا كبيرة ، وأهدي أشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم . وأقاموا أياماً يطعمون ويطعمون شكرأً لله على ما وهبهم من التيسير والمعونة في بناء بيته الكرم ، على الصفة التي كانت عليها في أيام الخليل صلوات الله عليه . ثم لما قتل ابن الزبير

نقض الحجاج الكعبة ، وردها إلى بناها في عهد قريش وكانوا قد اقتصروا في بناها ، وأبقاها رسول الله ﷺ على ذلك ، لخدان عهدهم بالكفر . ثم أراد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يعيدها إلى بناء ابن الزبير ، فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل البيت ملعبة للملوك ، متى أراد أحدهم أن يغير فعل . فتركه على حاله سداً للذرية وأهل البلاد الموالية لمكة ، مثل بجبله وزهران وغامد ، يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون إلى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزبيب واللوز ، فترخص الأسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمم المرافق ، ولو لا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة في شظف من العيش . ويدرك أنهم متى أقاموا ببلادهم ، ولم يأتوا بهذه الميرة أجذبوا بلادهم ووقع الموت في مواشيهم . ومتى أوصلوا الميرة أخصبوا بلادهم وظهرت فيها البركة ونمـت أموالهم . فهم إذا حان وقت ميرتهم وأدر كـهم كـسل عنها ، اجتمعت نسـؤهم فأخرجـنـهم . وهذا من لطائف صـنـعـ اللهـ تـعـالـيـ وـعـنـيـاتـهـ بـبـلـدـهـ الـأـمـيـنـ وـبـلـادـ السـرـوـ الـقـيـمـ الـيـسـكـنـهاـ بـجـبـلـهـ وـزـهـرـانـ وـغـامـدـ وـسـوـاـهـمـ منـ القـبـائـلـ مـخـصـبـةـ كـثـيرـةـ الأـعـنـابـ وـافـرـةـ الـغـلـاتـ ، وـأـهـلـهاـ فـصـحـاءـ الـأـلـسـنـ ، لـهـمـ صـدـقـ نـيـةـ وـحـسـنـ اـعـقـادـ . وـهـمـ إـذـاـ طـافـواـ بـالـكـعـبـةـ يـتـطـارـحـونـ عـلـيـهـاـ ، لـأـئـذـينـ بـجـوارـهـاـ ، مـتـعـلـقـينـ بـأـسـتـارـهـاـ ، دـاعـيـنـ بـأـدـعـيـةـ يـتـصـدـعـ لـرـقـتـهـاـ الـقـلـوبـ : وـتـدـمـعـ الـعـيـونـ الـجـامـدـةـ ، فـتـرـىـ النـاسـ حـوـلـهـ باـسـطـيـ أـيـدـيـهـمـ مـؤـمـنـيـنـ عـلـىـ أـدـعـيـتـهـمـ . وـلـاـ يـتـمـكـنـ لـغـيـرـهـمـ الطـوـافـ مـعـهـمـ ، وـلـاـ استـلـامـ الـحـجـرـ ، لـتـزـاحـمـهـمـ عـلـىـ ذـلـكـ . وـهـمـ شـجـعـانـ أـنـجـادـ ، وـلـبـاسـهـمـ الـجـلـودـ . وـإـذـاـ وـرـدـواـ مـكـةـ هـابـتـ اـعـرـابـ الـطـرـيقـ مـقـدـمـهـمـ ، وـتـجـبـواـ اـعـتـراـضـهـمـ ، وـمـنـ صـحـبـهـمـ زـوـارـ حـمـدـ صـحـبـتـهـمـ . وـذـكـرـ أـنـ النـبـيـ ﷺ ذـكـرـهـمـ ، وـأـثـنـىـ عـلـيـهـمـ خـيـرـاـ وـقـالـ : عـلـمـهـمـ الـصـلـاـةـ يـعـلـمـوـكـ الدـعـاءـ . وـكـفـاـهـمـ شـرـفـاـ دـخـولـهـمـ فيـ عـمـومـ قـوـلـهـ ﷺ «ـ الإـيـانـ يـانـ وـالـحـكـمـةـ يـانـةـ»^(١) . وـذـكـرـ أـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـمـرـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـاـ كـانـ

(١) هذا جـزـءـ منـ حـدـيـثـ روـاهـ الإـمـامـ الـبـخـارـيـ فيـ صـحـيـحـهـ عـنـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ.

يتحرى وقت طوافهم ويدخل في جلتهم تبركاً بدعائهم. وشأنهم عجيب كله، وقد جاء في أثر : زاحوهم في الطواف ، فإن الرحمة تنصب عليهم صباً.

ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان

وهذه الليلة من الليالي المعظمة عند أهل مكة ، يبادرون فيها إلى أعمال البر من الطواف والصلاحة جماعات وأفذاذاً والاعتصار . ويجتمعون في المسجد الحرام جماعة ، لكل جماعة إمام . ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل . ويقابل ذلك ضوء القمر فتتلاؤ الأرض والسماء نوراً ويصلون مائة ركعة ، يقرأون في كل ركعة بأم القرآن وسورة الإخلاص ، يكررونها عشرأً وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين ، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف ، وبعضهم قد خرجن للاعتصار .

ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم

وإذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبابب عند أمير مكة . ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام ، من تجديد الحصر ، وتکثیر الشمع والمشاعل ، حتى يتلاؤ الحرم نوراً ، ويستطيع بهجة وإشراقاً . وتتفرق الأئمة فرقاً . وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية ، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء ، يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى في الحرم زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة ، فيرتجع المسجد لأصوات القراء ، وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الأعين . ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاحة في الحجر منفرداً . والشافعية أكثر الأئمة اجتهاداً ، وعاداتهم أنهم إذا أكملوا التراويح المعتادة ، وهي عشرون ركعة ، يطوف إمامهم وج ساعته . فإذا فرغ من الأسبوع ضربت الفرقة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة ، كان ذلك

اعلاماً بالعودة إلى الصلاة. ثم يصلي ركعتين، ثم يطوف أسبوعاً هكذا إلى أن يتم عشرين ركعة أخرى. ثم يصلون الشفع والوتر، وينصرفون. وسائل الأئمة لا يزيدون على العادة شيئاً. وإذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم، فيقوم داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور، وهكذا يفعلون في سائر الصوامع. فإذا تكلم أحد منهم أجابه صاحبه، وقد نصب في أعلى كل صومعة خشبة على رأسها عود معرض، قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يوقدان، فإذا قرب الفجر وقع الإيدان بالقطع مرة بعد مرة، وحط القنديلان، وابتدا المؤذنون بالأذان. وأجاب بعضهم بعضاً. ولديار مكة شرفها الله سطوح. فمن بعده داره بحيث لا يسمع الأذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر. حتى إذا لم يبصرها أقلم عن الأكل. وفي ليلة وتر من ليالي العشر الأولى من رمضان يختتمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبار. ويكون الذي يختم بها أحد أبناء كبراء أهل مكة. فإذا ختم، نصب له منبر مزين بالحرير، وأوقد الشمع، وخطب. فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر. وأعظم من تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين. واحتفلوا بها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي. ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم. وتقام إزاء حطم الشافعية خشب عظام، توصل بالحطيم، وتعرض بينها أواح طوال، وتجعل ثلاث طبقات، وعليها الشمع وقنديل الزجاج، فيكاد يغشى الأ بصار شعاع الأنوار، ويتقدم الإمام، فيصلي فريضة العشاء الآخرة، ثم يبتدئ قراءة سورة القدر. وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التروابح تعظيمًا لختمة المقام، ويحضر ونها متبركين، فيختم الإمام في تسلیمتین، ثم يقوم خطيباً مستقبل المقام، فإذا فرغ من ذلك عاد الأئمة إلى صلاتهم، وانقض الجميع. ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر

مختصر وعن المباحثة منزه موقر فيختم ويختطب.

ذكر عادتهم في شوال

وعادتهم في شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ، ويسرجون المصابيح والشمع ، على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان . وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها ، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس ، ويقيم المؤذنون ليتلهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح ، والناس ما بين طواف وصلاة وذكر ودعاة فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد ، ولبسوا أحسن ثيابهم ، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف ، به يصلون صلاة العيد ، لأنه لا موضع أفضل منه . ويكون أول من يبكر إلى المسجد الشيبون فيفتحون باب الكعبة المقدسة ، ويقعد كبيرهم في عتبتها ، وسائرهم بين يديه ، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه ، ويطوف بالبيت أسبوعاً ، والمؤذن الززمي فوق سطح قبة زمم على العادة ، رافعاً صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر ، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداويين ، والفرقة أمامه ، وهو لابس السواد ، فيصلي خلف المقام الكريم ، ثم يقصد المنبر ويخطب خطبة بليةة . ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار ، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجاً ، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى ، تبركاً من فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون .

ذكر إحرام الكعبة

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر ذي القعدة تشمرون أستار الكعبة ، زادها الله تعظيمًا ، إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربع صوناً لها من الأيدي

أن تنتبهما . ويسمون ذلك إحرام الكعبة وهو يوم مشهود بالحرم الشريف . ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة .

ذكر شعائر الحج وأعماله

وإذا كان في أول يوم شهر ذي الحجة ، تضرب الطبول والدبابب في أوقات الصلوات بكرة وعشية ، إشعارها بالموسم المبارك . ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات . فإذا كان اليوم السابع من ذي الحجة خطب الخطيب إنصر صلاة الظهر خطبة بلية ، يعلم الناس فيها مناسكهم ، ويعلّمهم بيوم الوقفة ، فإذا كان اليوم الثاني بكر الناس بالصعود إلى منى . وأمراء مصر والشام والعراق وأهل العلم يبيتون تلك الليلة بمنى وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع . ولكن الفضل في ذلك لأهل الشام دائمًا . فإذا كان اليوم التاسع رحلوا من مني بعد صلاة الصبح إلى عرفة . فيمرون في طريقهم بوادي حسر ، ويهزولون ، وذلك سنة . ووادي حسر هو الحد ما بين مزدلفة ومنى ، ومزدلفة بسيط من الأرض فسيح بين جبلين ، وحوظاً مصانع وصهاريج للماء ، مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد . وبين منى وعرفة خمسة أميال ، وكذلك بين منى ومكة أيضاً خمسة أميال . ولعرفة ثلاثة أيام وهي ، عرفة^(١) وجمع المشعر الحرام ، وعرفات بسيط من الأرض فسيح أفيح ، تحدق به جبال كثيرة . وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة ، وفيه الموقف ، وفيما حوله ، والعلماني قبله بنحو ميل ، وهو الحد ما بين الخل والحرم . وبمقربة منها مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي ﷺ بالارتفاع عنه ، ويجب التحفظ منه ، ويجب أيضاً الإمساك عن النفور حتى يتمكن سقوط الشمس . فإن

(١) جمع : تطلق على المزدلفة والمشعر الحرام ، ولا تطلق على عرفة . من : معجم البلدان لياقوت الحموي .

الجماليين ربما استحثوا كثيراً من الناس، وحدروهم الزحام في النفر، واستدرجوهم إلى أن يصلوا بهم بطن عرنة، فيبطل حجتهم. وجبل الرحمة الذي ذكرناه قائم وسط بسيط جع منقطع عن الجبال، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض، وفي أعلىه قبة تنسب إلى أم سلمة رضي الله عنها، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس للصلوة فيه، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات، وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس، وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للküعبة دار عتيقة البناء تنسب إلى آدم عليه السلام، وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي ﷺ عندها، وحول ذلك صهاريج وجبات للماء، وبقربة منه الموضع الذي يقف فيه الإمام وينطبق ويجمع بين الظهر والعصر، وعن يسار العلمين للمستقبل أيضاً وادي الأراك وبه أراك أخضر يمتد في الأرض امتداداً طويلاً، وإذا حان وقت النفر أشار الإمام المالكي بيده، ونزل عن موقفه، فدفع الناس بالنفر دفعة ترجم لها الأرض، وترجف الجبال. فياله موقفاً كريماً ومشهداً عظياً ترجو النفوس حسن عقباه، وتطمح الآمال إلى نفحات رحاه، جعلنا الله من خصه فيه برضاه. وكانت وقفي الأولى يوم الخميس سنة ست وعشرين، وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر. وحجت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر ابن أرغون ابن كور. وحجت فيها زوجة الملك الناصر وأسمها بالخوندة، وهي بنت السلطان العظم محمد أوزبك ملك السرا^(١) وخوارزم، وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان. ولما وقع النفر بعد غروب الشمس، وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة، فصلينا بها المغرب والعشاء جمعاً بينهما حسبما جرت سنة رسول الله

(١) السرا : تعرف بسرا بركة ، وهي حضرة السلطان أوزبك ، وتقع على مقربة من المدينة المعروفة الآن باسم : تخاريف ، وهي شمالي مدينة الحاج ترخان على بعد ٢٢٥ ميلاً ، وتعرف الآن بالسرا الجديدة .

عليه . ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها إلى مني بعد الوقوف والدعاء بالشرع الحرام . ومزدلفة كلها موقف إلا وادي مُحَسْر ، فيه تقع المرولة حتى يخرج عنه . ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار ، وذلك مستحب . ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف . والأمر في ذلك واسع . ولما انتهى الناس إلى مني بادروا لرمي جمرة العقبة ، ثم نحرروا وذبحوا ، ثم حلقوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر . لما رموها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا إلى طواف الإفاضة . ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني . وفي اليوم الثاني رمي الناس عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات ، وبالوسطى كذلك ، ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله عليه . ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار إلى مكة شرفها الله ، بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة . وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سبعين حصاة .

ذكركسوة الكعبة

وفي يوم النحر بعثتكسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم ، فوضعت في سطحه ، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشبيعون في إساحها على الكعبة الشريفة . وهيكسوةسوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلىها طراز مكتوب فيه بالبياض ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما﴾^(١) الآية . وفي،سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائع مشرق من سعادتها . ولماكسست شمرتأذياها صوناً من أيدي الناس . والملك الناصر هو الذي يتولىكسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج له الحرم

(١) المائدة: ٩٧ .

الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. وفي هذه الأيام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم من يصل مع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرؤن فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم. ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلاً، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة، وربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيراً، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة، وانتهى صرف المثالى إلى ثمانية عشر درهماً نقرة، لكترة ما تصدقوا به من الذهب. وفي هذه السنة ذُكر اسم السلطان أبي السعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمز.

ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى

وفي الموفي عشرين لذى الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويبح بجاءين مهملين، وهو من أهل الموصل. وكان يلي إمارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر، وكان شهاب الدين سخياً فاضلاً عظيم الحرمة عند سلطانه، يخلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية. فلما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الأمير البهلوان المذكور اكتفى لي شقة محارة^(١). إلى بغداد، ودفع إجارتها من ماله، وأنزلني في جواره. وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مَر^(٢)، في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم، لا يحصى عديدهم تموج بهم الأرض موجاً، ويسيرون سير السحاب المتراكب. فمن خرج عن الركب حاجة، ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه، ضل عنه

(١) المحارة: شبه المهدج - القاموس المحيط.

(٢) مر الظهران، وقد سبق ذكره.

لكثرة الناس . وفي هذا الركب نواصح كثيرة لأبناء السبيل يستقون منها الماء ، وجال لرفع الراد للصدقة ورفع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض ؛ وإذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت ، وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه . وفي الركب جلة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي . كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه . قال ابن جزي : كرم الله هذه الكنية الشريفة ، فما أعجب أمرها في الكرم ، وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافق رايات الجود الذي هو آية الندى والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للإسلام بالشار أمير المسلمين يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر إلى يوم الدين .

وفي هذا الركب الأسواق الحافلة والمرافق العظيمة وأنواع الأطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات ، فترى الأرض تتلألأً نوراً والليل قد عاد نهاراً ساطعاً ثم رحلنا من بطن مر إلى عسفان ثم إلى خليص ، ثم رحلنا أربع مراحل ، ونزلنا وادي السمك ، ثم رحلنا خمساً ، ونزلنا في بدر وهذه المراحل ثنتان في اليوم : إحداها بعد الصبح والأخرى بالعشى ، ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء ، وأقمنا بها يوماً مستريجين ، ومنها إلى المدينة الشريفة مسيرة ثلاثة . ثم رحلنا فوصلنا إلى طيبة مدينة رسول الله ﷺ ، وحصلت لنا زيارة رسول الله ﷺ ثانية ، وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام ، واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاثة ، ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس ، فتزودنا منه الماء من حسیات يحفرون عليها في الأرض ، فينبطون ماء عذباً معيناً ، ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد ، وهو بسيط من الأرض على مد البصر ، فتنسمنا نسيمه الطيب الأرج ، ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسلية ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة ، فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ، ثم رحلنا إلى ماء يعرف بالقارورة ، وهي

مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمة الله ونفعها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسم صحيح الهواء نقى التربة معتدل في كل فصل ، ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجز ، وفيه مصانع للماء ، وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار . ثم رحلنا ونزلنا سميّة ، وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في آبار ، إلا أنه زعاق^(١) ويأتي عرب تلك الأرض بالغم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ، ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق ، وهو في بيداء من الأرض ، وفي أعلىه ثقب نافذة تخرقه الريح ثم رحلنا منه إلى وادي الكروش ولا ماء به ثم أسرينا ليلاً وص benignا حصن فيد وهو حصن كبير في بسيط من الأرض يدور به سور وعليه ربض ، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة . وهنالك يترك الحاج بعض أزواذه حين وصولهم من العراق إلى مكة شرفها الله تعالى ، فإذا عادوا وجدهم وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد ، ومنه إلى الكوفة مسيرة اثنى عشر يوماً في طريق سهل به المياه في المصانع ، ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ، ارهاباً للعرب المجتمعين هنالك ، وقطعاً لأطاعتهم عن الركب وهنالك لقينا أميري العرب ، وهم فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهله وباء آخر الحروف) ، وهم أبناء الأمير مهنا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة ظهر منها المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم ، وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ، ثم رحلنا ونزلنا الموضع الأجرف ، ويشتهر باسم العاشقين : جيل وبشينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ، ثم نزلنا زرود ، وهي بسيط من الأرض فيه رمال منهالة وبه دور صغاري ، قد أداروها شبه الحصن ، وهنالك آبار ماء ليست

(١) الزعاق: الماء المر الغليظ لا يطاق شربه - القاموس المحيط.

بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ، ولها حصن خرب يازاًه مصنع هائل ينزل إليه في درج ، وبه من ماء المطر ما يعم الركب . ويجتمع من العرب بهذا الموضع جم عظيم فيسيعون الجمال والغم والسمن واللبن . ومن هذا الموضع إلى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم ، وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة ، وكل من مر به رجه ويدرك أن هذا المرجوم كان راضياً ، فسافر مع الركب يريد الحج ، فوقيت بيته وبين أهل السنة من الأتراك مشاجرة ، فسب بعض الصحابة ، فقتلوه بالحجارة . وبهذا الموضع بيت كثيرة للعرب ، ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك ، وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها ، وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذا الطريق التي بين مكة وبغداد ، فهي من كريم آثارها جزاها الله خيراً ، ووفي لها أجراها ولو لا عنایتها بهذا الطريق ما سلكها أحد ، ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشقوق ، فيه مصنوعان بها الماء العذب الصافي ، وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منها . ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالتنانير ، وفيه مصانع متلئه بالماء ، ثم أسرينا ^(١) منه واجتننا ضحوة ^(٢) بزمالة ، وهي قرية معمرة بها قصر للعرب ومصنوعان للماء وآبار كثيرة ، وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين ، وفيه مصنوعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان ، وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعر سواها ، على أنها ليست بصعبة ولا طائلة ، ثم نزلنا موضعاً يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء ، معمور بالعرب ، وهو آخر مناهل هذا الطريق ، وليس فيما بعده إلى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات ، وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ، ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ، ويهنئ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة ثم نزلنا موضعاً يعرف بلورة ، فيه مصنع

(١) في بعض طبعات الكتاب : ثم رحلنا منه ..

(٢) أي : في وقت الضحى .

كبير للماء ثم نزلنا موضعًا يعرف بالمساجد ، فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعًا يعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بيداء من الأرض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حوها ، ثم نزلنا موضعًا يعرف بالعذيب ، وهو وادٌ مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر. ثم نزلنا القادسية حيث كانت الواقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الإسلام وأذل المجروس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شافتهم ، وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه ، وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة ، وفيها حدائق التخل وبها مشارع من ماء الفرات ، ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه بالنجف ، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء وها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة ، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الحياتين والقيسارية ثم سوق العطارين ثم الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي عليه السلام ، وبإزاره المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة ، وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن.

ذكر الروضة والقبور التي بها

ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة ، وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعندما يصل الزائر يقوم إليه أحدهم أو جميعهم بذلك على قدر الزائر ، فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ، ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله الرروضة العلية ، فإن أذنت له وإن لم يكن أهلاً لذلك فأنتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة ،

وكذلك العصاداتان، ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه، وبها قناديل الذهب والفضة، منها الكبار والصغر، وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب، عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل، مسممة بمسامير الفضة، قد غلت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة، وفوقها ثلاثة من القبور، يزعمون أن أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام، والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام، والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركاً. وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور الحرير الملون يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان، مستور حيطانه وسقفه بستور الحرير، وله أربعة أبواب، عتباتها فضة وعليها سور الحرير، وأهل هذه المدينة كلهم رافضية. وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه فمنها أن في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمى عندهم ليلة المحيا، يؤتى إلى تلك الروضة بكل مقعد من العراقيين وخراسان وبلاد فارس والروم، فيجتمع منهم الثلاثون والأربعون ونحو ذلك. فإذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس، والناس يتظرون قيامهم، وهم ما بين مصل وذاكر وتالي ومشاهد للروضة فإذا مضى من الليل نصفه، أو ثلثاه أو نحو ذلك، قام الجميع أصحابه من غير سوء، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقات. ولم أحضر تلك الليلة لكنني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال: أحدهم من أرض الروم والثاني من أصحابه والثالث من خراسان، وهم مقعدون، فاستخبرتهم عن شأنهم، فأخبروني أنهم لم يدركوا ليلة المحيا، وأنهم متظرون أو أنها من عام آخر. وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد، ويقيمون سوقاً عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرب

ولا مكاس ولا والٍ ، وإنما يحكم عليهم نقيب الأشراف وأهلها تجار يسافرون في الأقطار ، وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم . صحبتهم في الأسفار فحمدت صحبتهم ، لكتهم غلوا في علي رضي الله عنه ، ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصبهه المرض فينذر للروضة نذراً إذا برىء ، ومنهم من يضر رأسه فيصنع رأساً من ذهب أو فضة ويأتي به إلى الروضة ، فيجعله النقيب في الخزانة ، وكذلك اليد والرجل وغيرها من الأعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال ما لا يضبط لكثرة .

ذكر نقيب الأشراف

ونقيب الأشراف مقدم من ملك العراق ، ومكانه عنده مكين ، ومنزلته رفيعة ، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره ، وله الأعلام والأطبال ، وتضرب الطليخانة عند بابه مساء وصباحاً ، وإليه حكم هذه المدينة ، ولا والي بها سواه ، ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره . وكان النقيب في عهد دخولي إليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الأووي ، نسبة إلى بلدته آوة من عراق العجم ، أهلها رافضة ، وكان قبله جماعة ، يلي كل واحد منهم بعد صاحبه ، منهم جلال الدين بن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الأوهي من عراق العجم ، وهو الآن بأرض الهند من ندماء ملوكها ، ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جماز بن شيخة الحسيني المدني .

حكاية

كان الشريف أبو غرة قد غالب عليه في أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك ، وكان بالمدينة الشريفة كرمها الله في جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ، ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة ، فمات

النقيب قوام الدين بن طاوس فانفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف ، وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد فأمضاه ونفذ له البرليغ ، وهو الظهير بذلك ، وبعث له الخلعة والأعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق ، فغلبت عليه الدنيا ، وترك العبادة والزهد ، وتصرف في الأموال تصرفًا قبيحًا فرفع أمره إلى السلطان ، فلما علم بذلك أعمل السفر ، مظهراً أنه يريد خراسان ، فاقصدًا زيارة قبر علي بن موسى الرضا بطورس ، وكان قصده الفرار . فلما زار علي ابن موسى قدم هرآة ، وهي آخر بلاد خراسان ، وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند ، فرجع أكثرهم عنه ، وتجاوز هو أرض خراسان إلى السندي فلما جاوز وادي السندي المعروف ببنج آب ضرب طبولي وأنفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم ، وأجفلوا إلى المدينة المسماة بأوجا ، وأعلموا أميرها بما سمعوه ، فركب في عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع ، فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجاءة من التجار والرجال من صحب الشريف في طريقه ، معهم الأطفال والأعلام ، فسألوهم عن شأنهم ، فأخبروهم أن الشريف نقيب العراق أتى وافداً على ملك الهند ، فرجع الطلايع إلى الأمير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول في غير بلاده . ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة ، تضرب الأطفال على باب داره غدوة وعشية ، وكان مولعاً بذلك . ويذكر أنه كان في أيام نقاشه بالعراق تضرب الأطفال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشياً ورفعه الأعلام وعاده أهل الهند أن لا يرفع علماً ولا يضرب طبلًا إلا من أعطاهم الملك ذلك ، ولا يفعله إلا في السفر ، وأما في حال الإقامة فلا يضرب الطبل إلا على باب الملك خاصة ، بخلاف مصر والشام والعراق فإن الطبول تضرب على أبواب النساء ، فلما بلغ

خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه، ثم خرج الأمير إلى حضرة الملك ، وكان الأمير كشلي خان ، والخان عندهم أعظم النساء ، وهو الساكن بملتان ، كرسي بلاد السندي ، وهو عظيم القدر عند ملك الهند ، يدعو بالعلم ، لأنه كان من أئلأ أباء السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه ، قد قدم على حضرة ملك الهند ، فخرج الملك إلى لقائه فاتفق أن كان وصول الشريف في ذلك اليوم ، وكان الشريف قد سبق الأمير بأميال وهو على حاله من ضرب الأطفال ، فلم يرعه إلا السلطان في موكيه ، فتقدم الشريف إلى السلطان حتى لقي الأمير كشلي خان وعاد إلى حضرته ، ولم يلتفت إلى الشريف ولا أمر له بإنزال ولا غيره .

وكان الملك عازماً على السفر إلى مدينة أباد ، وتسمى أيضاً بالكتكة (فتح الكافين والثاء المعلومة التي بينهما) وتسمى أيضاً بالدونجرا (دوكير) ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من مدينة دهلي حاضرة الملك .

فلما شرع الملك في السفر بعث إلى الشريف بخمسة دينار دراهم ، وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً ، وقال لرسوله إليه : قل له إن أراد الرجوع إلى بلاده فهذا زاده ، وإن أراد السفر معنا فهي نفقته في الطريق ، وإن أراد الإقامة بالحضر فهي نفقته حتى نرجع ، فاغتم الشريف لذلك ، وكان قصده أن يجذل له العطاء ، كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان ، وتعلق بالوزير أحمد بن أياس المدعو بخواجة جهان وبذلك سماه الملك ، وبه يدعوه هو ، وبه بدعة سائر الناس ، فإن من عادتهم أنه متى سمي الملك أحداً باسم مضاف إلى الملك من عباد أو ثقة أو قطب ، أو باسم مضاف إلى الجهان من صدر وغيره ، وبذلك يخاطبه الملك وجنيع الناس ، ومن خطابه ، بسوى ذلك لرمته العقوبة

فتأكدت المودة بين الوزير والشريف ، فأحسن إليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه ، وأمر له بقريتين من قرى دور أباد ، وأمره أن تكون إقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الأخلاق والمحبة في الغرباء ، والإحسان إليهم وفعل الخير وإطعام الطعام وعمارة الزوايا فأقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالاً عظيماً ، ثم أراد الخروج ، فلم يكُن له من خدم السلطان لا يكُنه الخروج إلا بإذنه وهو محظى في الغرباء ، فقليلًا ما يأذن لأحد هم في السراح ، فأراد الفرار من طريق الساحل فرداً منه ، وقدم الحضرة ، ورَغِبَ من الوزير أن يحاول قضية انصرافه ، فتلطف الوزير في ذلك حتى أذن له السلطان في الخروج عن بلاد الهند ، وأعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم ، وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسين دينار ، فأتى بها في بدرا ، فجعلها تحت فراشه ونام عليها ، لمحبته في الدنانير وفرجه بها وخوفه أن يتصل لأحد من أصحابه شيء منها ، فإنه كان بخيلاً ، فأصابه وجع في جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزد يتزايد به وهو آخذ في حركة سفره إلى أن توفي بعد عشرين يوماً من وصول البدра إليه . أوصى بذلك المال للشريف حسن الجرافي ، فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلي من أهل الحجاز والعراق وأهل الهند ، لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسألون عنه ، ولو بلغ بما عسى أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الأبيض ولا يأخذونه ، إنما يكون عند الكبار من أصحابه حتى يأتي مستحقه . وهذا الشريف أبو غرة له آخر اسمه قاسم ، سكن غرناطة مدة ، وبها تزوج بنت الشريف أبي عبدالله بن إبراهيم الشهير بالملكي ، ثم انتقل إلى جبل طارق فسكنه إلى أن استشهد بوادي كرمة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصلح بناره ، خرق المعتاد في الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس ، وترك ولدين هما في كفالته رببهما الشريف الفاضل أبي عبدالله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكرابلائي

الشهير ببلاد المغرب وبالعراق ، وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما ، وهو محسن لها جزاء الله خيراً.

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين علي عليه السلام سافر الركب إلى بغداد ، وسافرت إلى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة ، وهم أهل تلك البلاد ، ولم شوكة عظيمة وبأس شديد ، ولا سبيل للسفر في تلك الأقطار إلا في صحبتهم فاكتريت جلاً على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجي وخرجنا من مشهد علي عليه السلام ، فنزلنا الخورنق ، موضع سكنى النعان بن المنذر وأبائه من ملوك بني ماء السماء ، وبه عمارة وبقايا قباب ضخمة في قضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعًا يعرف بقائم الواثق ، وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه إلا صومعته ، ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموقع المعروف بالعذار ، وهو غابة قصب في وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادي ، وهم قطاع الطريق راضية المذهب ، خرجوا على جماعة من القراء تأثروا عن رفقتنا ، فسلبوهم حتى النعال والكشاكل . وهم يتحصنون بتلك الغابة ويتنعون بها من يريدهم ، والسابع بها كثيرة . ورحلنا مع هذا الغدار ثلاثة مراحل ، ثم وصلنا مدينة واسط

مدينة واسط

وهي حسنة الأقطار كثيرة البساتين والأشجار ، بها أعلام يهدى الخير شاهدهم ، وتُهدي الاعتبار مشاهدهم ، وأهلها من خيار أهل العراق ، بل هم خيرهم على الاطلاق . أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة ، وإليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك . وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ ، وبها مدرسة عظيمة حافلة وفيها نحو ثلاثة خلوة يتزلمها الغرباء القادمون لتعلم

القرآن. عمرها الشيخ تقى الدين عبد المحسن الواسطي ، وهو من كبار أهلها وفقهائها . ويعطى لكل متعلم بها كسوة في السنة ، ويجري له نفقته كل يوم ، ويقعد هو وإخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة ، وقد لقيته وأضافي وزودني تمراً ودراماً . ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثة بخارجها للتجارة . فسنج لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي ، وهو بقرية تعرف بأم عبيدة ، على مسيرة يوم من واسط . فطلبت من الشيخ تقى الدين أن يبعث معي من يوصلني إليها . فبعث معي ثلاثة من عرب بنى أسد ، وهم قطان تلك الجهة . وأركبنا فرساً له ، وخرجت ظهراً ، فبنت تلك الليلة بجوش بنى أسد ، ووصلنا في ظهر اليوم الثاني إلى الرواق ، وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء . وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولی الله أبي العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته . وقد قدم من موضع سكانه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده ، وإليه انتهت الشياحة بالرواق . ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف ، وأخذ الفقراء في الرقص ، ثم صلوا المغرب وقدموا السماط ، وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر ، فأكل الناس ، ثم صلوا العشاء الآخرة ، وأخذوا في الذكر ، والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ، ثم أخذوا في السماع ، وقد أعدوا أحلاً من الحطب فأججوها ناراً ، ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفأها جميعاً وهذا دأبهم . وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا ، وفيهم من يأخذ الحياة العظيمة في بعض أسنانه على رأسها حتى يقطعه .

حكاية

كنت مررت بموضع يقال له ، أفقانبور ، من عمالة هزار أمروها ، وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس . وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر

السرور ، وذلك في أوان الشكال ، والشكال عندهم هو المطر ، وينزل في إبان القيلظ . وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل . فكل من يشرب منه من إنسان أو بحيرة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة . فأقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ، ووصل إلى هنالك جماعة من الفقراء في أعقابهم أطواق الحديد وفي أيديهم ، وكثيرهم رجل أسود حالك اللون . وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية . فباتوا عندنا ليلة ، وطلب مني كبيرهم أن آتيه بالخطب ليوقدوه عند رقصهم ، فكفت وإلي تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالختار ، (وسيأتي ذكره) ، أن يأتي بالخطب فوجه منه نحو عشرة أحوال ، فأضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الأخيرة حتى صارت حراً ، وأخذوا في الساع ، ثم دخلوا في تلك النار . فما زالوا يرقصون ويتمرغون فيها ، وطلب مني كبيرهم قميصاً ، فأعطيته قميصاً في النهاية من الورقة ، فلبسه وجعل يتمرغ به في النار ويضر بها بأكمامه حتى طفت تلك النار ، وخدت . وجاء إلى بالقميص ، والنار لم تؤثر فيه شيئاً البة . فطال عجبي منه . ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي نفع الله به ، عدت إلى مدينة واسط ، فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت ، فلحقتها في الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب ، ثم رحلنا بوادي الكراع وليس به ماء ، ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالمشيرب . ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ، ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار إلى مدينة البصرة .

مدينة البصرة

فنزلنا بها رباط مالك بن دينار ، وكانت رأيت عند قدمي عليها على نحو ميلين منها بناء عالياً مثل الحصن ، فسألت عنه ، فقيل لي : هو مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وكانت البصرة من اتساع الخطبة وانفساح الساحة بحيث

كان هذا المسجد في وسطها . وبينه الآن وبينها ميلان^(١) ، وكذلك بينه وبين السور الأول المحيط بها نحو ذلك ، فهو متوسط بينهما . ومدينة البصرة إحدى أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الأرجاء المونقة الأنفاء ، ذات البساتين الكثيرة والفاواكه الأثيرة ، توفر قسمها من النضارة والخصب ، لما كانت بجمع البحرين : الأجاج والعذب ، وليس في الدنيا أكثر خلاً منها ، فيباع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة . ولقد بعث إلى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر ، يحملها الرجل على تكلف ، فأردت بيعها ، فبيعت بتسعة دراهم ، أخذ الحال منها ثلثها عنأجرة حلها من المنزل إلى السوق . ويصنع بها من التمر عسل يسمى السيلان ، وهو طيب كأنه الجلاب .

وبالبصرة ثلاثة محلات : إحداها محلة هذيل ، وكثيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الأثير ، من الكرماء الفضلاء ، أضافني وبعث إلى بشاب ودرهم ، والمحلية الثانية محلة بني حرام ، كثيرة السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ، ذو مكارم وفواضل ، أضافني وبعث إلى التمر والسيلان والدراريم ، والمحلية الثالثة محلة العجم ، كثيرة جمال الدين ابن اللوكي . وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه ، فلا يستوحش فيها بينهم غريب . وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته ، ثم يسد فلا يأتونه إلا في الجمعة . وهذا المسجد من أحسن المساجد ، وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤمن بها من وادي السباع ، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل ، وأثر تغييره الدم في الورقة التي

(١) لكثرة ما تتابع على البصرة من الفتن والتقلبات والمحروب خربت البصرة القديمة ، وأنشئت مدينة جديدة إلى الشمال الشرقي منها تبعد عنها ٢٨ ألف ذراع يد ، وكان إنشاؤها في القرن الثامن المجري (الرابع عشر الميلادي) « انظر التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية - البصرة - .

فيها قوله تعالى : ﴿فَسِيقِيكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

حكاية اعتبار

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة ، فلما قام الخطيب إلى الخطبة وسردها ، لحن فيها لحنًا كثيراً جلياً ، فعجبت من أمره ، وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين . فقال لي : إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو . وهذه عبرة لمن تفكير فيها . سبحان مغير الأشياء ومقلب الأمور . هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رياضة النحو ، وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامه^(٢) الذي لا ينكر سبقه ، لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دعوبه عليها . وهذا الجامع سبع صوامع ، إحداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم ، عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه . صعدت إليها من أعلى سطح الجامع ، ومعي بعض أهل البصرة ، فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمراً فيها ، كأنه مقبض مملسة البناء . فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض ، وقال : بحق رأس أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، تحركي ، وهز المقبض ، فتحركت الصومعة ، فجعلت ^{عليه السلام} يداني في المقبض وقلت له ، وانا أقول : بحق رأس أمي بكر خليفة رسول الله ^{عليه السلام} تحركي ، وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك . وأهل ^{البصرة} ^{عليه السلام} على مذهب السنة والجماعة ، ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ، ولو ^{كان} جرى مثل هذا بمشهد الحسين ، أو بالحلة ، أو بالبحرين ، أو قم ، أو قاشان ، أو ^{الإسكندرية} ساوة ، أو آوة ، أو طوس ، هلك فاعله ، لأنهم رافضة غالبية . قال ابن جزي : قد

(١) البقرة : ١٣٧ .

(٢) يقصد يامن النحو الذي لا ينكر سبقه سبويه ، وقد قال صاحب التحفة النبهانية في تاريخ ^{الكتاب} الجزيرة العربية تعليقاً على ملاحظة ابن بطوطة للحن خطيب الجمعة ، والتي ذكرها للاعتبار : وفي ذلك يقول الشيخ عثمان بن سند المالكي الشهير آخر فضلاء البصريين : قد ^{كانت} كانت البصرة ^{القديمة} ^{من قدم} تجري لأنحر ^{تحتو} تحني ^{تتدنى} الدُّرُّوا فأشبحت وهي صفراء الوشاح ^{فلا} تحوي فيها سوئي نizer وهم فقرا

عاينت بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الأندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم ، وفي صومعة الجامع الأعظم بها ، وبناؤها ليس بالقديم . وهي كأحسن ما أنت راء من الصوامع ، حسن منظر واعتدالاً وارتفاعاً ، لا ميل فيها ولا زيج . صعدت إليها مرة ، ومعي جماعة من الناس ، فأخذ بعض من كان معى بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت ، حتى أشرت إليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها .

ذكر المشاهدة المباركة بالبصرة

فمنها مشهد طلحة بن عبد الله أحد العشرة رضي الله عنهم ، وهو بداخل المدينة وعليه قبة وجامع وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر . وأهل البصرة يعظمونه تعظيمًا شديداً وحق له ، ومنها مشهد الزبير بن العوام حواري رسول الله صلوات الله عليه وسلم والله يعزه لتحفه البعض وابن عمته رضي الله عنها ، وهو بخارج البصرة ، ولا قبة عليه ، وله مسجد صلوات الله عليه وسلم رسول الله يعزه لتحفه البعض وزاوية فيها الطعام لأنباء السبيل . ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله صلوات الله عليه وسلم رسول الله يعزه لتحفه البعض من الرضاة رضي الله عنها ، وإلى جانبيها قبر ابنتها رضيع رسول الله صلوات الله عليه وسلم رسول الله يعزه لتحفه البعض ، ومنها قبر أبي بكر صاحب رسول الله صلوات الله عليه وسلم رسول الله يعزه لتحفه البعض . وعلى ستة أميال منها بقرب قبر أبي بكر صاحب رسول الله صلوات الله عليه وسلم رسول الله يعزه لتحفه البعض وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، ولا سبيل لزيارته إلا في جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمran ، ومنها قبر الحسن ابن أبي الحسن البصري سيد التابعين رضي الله عنه ، وقبر عتبة الغلام رضي الله عنه ، وقبر مالك ابن دينار رضي الله عنه ، وقبر حبيب العجمي رضي الله عنه ، وقبر سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه . وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته . وذلك كله داخل سور القديم . وهي اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال . وبها سوى ذلك قبور الجمـ الفـيـرـ من الصحابة والتـابـعـينـ والـمـسـتـشـهـدـينـ يوم الجملـ . وكان أمـيرـ البـصـرـةـ حتـىـ وـرـودـيـ عـلـيـهـ يـسـمـيـ برـكـنـ الدـينـ العـجمـيـ

التوريزمي ، أضافني فأحسن إلي . والبصرة على ساحل الفرات والدجلة ، وبها المد والجزر ، كمثل ما هو بوادي سلا ، من بلاد المغرب ، وسواء ، والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها . فإذا كان المد غالب الماء المالح على العذب ، وإذا كان الجزر غالب الماء الحلو على الماء المالح ، فيستنقى أهل البصرة ماءً غير جيد لدورهم . ولذلك يقال : إن ماءهم زعاق . قال ابن جزي ، وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد ، وألوان أهلها مصفرة كاسفة ، حتى ضرب بهم مثل . وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب أترجمة :

للّه أَتَرْجَ غَدَا بَيْنَنَا مَعْبُراً عَنْ حَالِ ذِي عَبْرَةِ
لِمَا كَسَّ اللّهُ ثِيَابَ الضَّنَا أَهْلَ الْهَوَى وَسَاكِنِي الْبَصَرَةِ

ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق ، وهو القارب الصغير إلى الأبلة . وبينها وبين البصرة عشرة أميال ، في بساتين متصلة وتخيل مظلة عن اليمين واليسار . والبياعة في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر والبن والفواكه . وفيها بين البصرة والأبلة متعبد سهل بن عبد الله التستري . فإذا حاذه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادي ، ويدعون عند ذلك تبركاً بهذا الولي رضي الله عنه . والنواتية يحرفون في هذا البلاد ، وهم قيام . وكانت الأبلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخررت . وهي الآن قرية بها آثار قصور وغيرها ، دالة على عظمها : ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الأبلة يسمى بمعamus ، وذلك فيما بعد المغرب ، فصبحنا عبادان ، وهي قرية كبيرة في سبخة ، لا عمارة بها ، وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ورباطات للصالحين . وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال . قال ابن جزي : عبادان كانت بلداً فيها تقدم ، وهي مجده لا زرع بها ، وإنما يجلب إليها ، والماء أَضَأَ بها قليل . وقد قال فيها بعض الشعراء :

من مبلغ أندلسًا أني
أوحشَ ما أبصرتُ لكتنني
الخبزُ فيها يتهادونَه

وعلی ساحل البحر منها رابطة ، تعرف بالنسبة إلى الخضر وإلياس
عليها السلام . ويازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء بأولادهم يخدمون الرابطة
والزاوية ، ويعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يصدق عليهم . وذكر
لي أهل هذه الزاوية ، أن عبادان عابداً كبير القدر ولا أنيس له ، يأتي هذا
البحر مرة في الشهر ، فيصطاد فيه ما يقوته شهراً ، ثم لا يرى إلا بعد تمام
شهر . وهو على ذلك منذ أعوام . فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شأن إلا طلبه ،
فاشتعل من كان معه بالصلاحة في المساجد والمعبدات ، وانطلقت طالباً له . فجئت
مسجدًا خرباً فوجده يصلي فيه ، فجلست في جانبه ، فأوجز في صلاته . وما
سلم أخذ بيدي وقال لي : بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة ، فقد بلغت بحمد
الله مرادي في الدنيا ، وهو السياحة في الأرض ، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه
غيري فيما أعلمه ، وبقيت الأخرى . والرجل قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلغ
المراد من دخول الجنة . ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم
بوضعيه ، فذهبوا إليه فلم يجدوه ، ولا وقعوا له على خبر . فعجبوا من شأنه ، وعدنا
بالعشى إلى الزاوية فبتنا بها ، ودخل علينا أحد الفقراء الأربعة بعد صلاة العشاء
الآخرة . ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج
بساجدها ، ثم يعود إلى زاويته . فلما وصل إلى عبادان وجد الرجل العابد فأعطاه
سمكة طرية وقال له : أوصل هذه إلى الضيف الذي قدم اليوم . فقال لنا الفقير
عند دخوله علينا : من رأى منكم الشيخ اليوم ؟ فقلت له : أنا رأيته . فقال : يقول
لك هذه ضيافتك . فشكرت الله على ذلك ، وطبع لنا الفقير تلك السمكة ،

فأكلنا منها أجمعون، وما أكلت قط سماً أطيب منها. وهجس في خاطري الإقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ، ثم صرفتي النفس اللوجو عن ذلك، ثم ركينا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول. ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك. و كنت أحب قصد بغداد العراق، فأشار علي بعض أهل البصرة بالسفر إلى أرض اللور، ثم إلى عراق العجم، ثم إلى عراق العرب. فعملت بمقتضى إشارته، ووصلنا بعد أربعة أيام إلى بلدة ماجول، على وزن فاعول وجيمعاً معقودة، وهي صغيرة على ساحل الخليج الذي ذكرنا أنه يخرج من بحر فارس، وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات، ولها سوق عظيمة من أكبر الأسواق. وأقمت بها يوماً واحداً، ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز إلى ماجول، وسرنا ثلاثة في صحراء يسكنها الأكراد في بيوت الشعر. ويقال: إن أصلهم من العرب، ثم وصلنا إلى مدينة رامز، وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة)، وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار نزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود، ولقيت عنده رجلاً من أهل العلم والدين والورع، هندي الأصل، يدعى بهاء الدين، ويسمى إسماعيل، وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا الملتاني، وقرأ على مشايخ توريز وغيرها. وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة، ثم رحلنا منها ثلاثة في بسيط فيه قرى يسكنها الأكراد. وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء، وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن.

وفي كل زاوية الشيخ والإمام والمؤذنون والخادم للقراء والعبيد يطبخون الطعام. ثم وصلت مدينة تستر، وهي آخر البسيط من بلاد أتابك، وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نصرة، وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة، ولها المحاسن البارعة والأسوق الجامحة، وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد. ووالى هذه المدينة ينسب إلى سهل بن عبدالله ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق، وهو عجيب

في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر ، ولم أكرر قته إلا نهر بلخسان .
وَهَا بَابٌ وَاحِدٌ لِلمسافِرِينَ يُسْمَى دروازة دسبول ، والدروازة عندهم الباب . وَهَا
أبواب غير شارعة إلى النهر . وعلى جانبي النهر البساتين والدوالib . والنهر عميق ،
وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد واحدة . قال ابن
جزي : وفي هذا النهر يقول بعضهم :

أَنْظُرْ لشادِرْوَانْ تَسْتَرْ وَاعْجَبْ مِنْ جَعِهِ مَاءَ لَرِي بِلَادِهِ
كَمْكِيْ قَوْمِ جُمِعَتْ أَمْوَالُهُ فَغَدَا يَفْرَقُهُ عَلَى أَجْنَادِهِ
والفواكة بتستر كثيرة ، والخيرات متيسرة ، ولا مثل لأسوقها في الحسن
وبخار جها تربة معظمة يقصدها أهل تلك الأقطار للزيارة ، وينذرون لها النذور .
ولها زاوية بها جماعة من القراء . وهم يزعمون أنها تربة زين العابدين علي بن
الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ
الإمام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الإمام العالم صدر
الدين سليمان ، وهو من ذرية سهل بن عبدالله . وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل ،
جامع بين العلم والدين والصلاح والإيثار ، وله مدرسة وزاوية ، وخدامها فتيان ،
له أربعة أولاد : سنبل وكافور وجواهر وسرور أحد هم موكل بأوقاف الزاوية ،
والثاني متصرف فيها يحتاج إليه من النفقات في كل يوم ، والثالث خديم السماط
بين أيدي الواردين ومرتب الطعام لهم ، والرابع موكل بالطباخين والسكنين
والفراشين . فأقمت عنده ستة عشر يوماً ، فلم أر أعجب من ترتيبه ، ولا أر غد
من طعامه . يقدم بين يدي الرجل ما يكفي الأربعة من الأرز المقلفل المطبوخ في
السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء . وهذا الشيخ من أحسن الناس
صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع . ولما
شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاج والشام
ومصر ، ولم ألق فيمن لقيته مثله .

حضرت يوماً عنده بستان له على شاطئ النهر، وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبارها، وأتى الفقهاء من كل ناحية، فأطعمن الجميع، ثم صلوا بهم صلاة الظهر، وقام خطيباً وواعظاً، بعد أنقرأ القراء أمامه بالتلحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة، وخطب خطبة بسكتينة ووقار، وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه، ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية. ومن عادة الأعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع، ويرموا بها إلى الواقع، فيجيب عنها. فلما رمي إليه بتلك الرقاع جمعها في يده، وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب وأحسنها. وحان وقت صلاة العصر فصل بالقوم وانصرفوا. وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائدون فأخذ عليهم العهد وجز نواصيهم، وكانوا خمسة عشر رجلاً من الطلبة قدمو من البصرة برسم ذلك، وعشرة رجال من عوام ستر.

حكاية

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى، وهذه البلاد يحمّ داخلها في زمان الحر، كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه. وأصابت الحمى أصحابي أيضاً. فمات منهم شيخ اسمه يحيى الخراساني، وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج إليه الميت، وصلى عليه. وترك بها صاحباً يدعى بهاء الدين الخشنبي، فمات بعد سفري. و كنت حين مرضي لا أشتفي الأطعمة التي تصنع لي بمدرسته، فذكر لي الفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاماً فاشتهيته، ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتى به إلى فأكلت منه. وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه، وأتى إلي وقال لي: كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام في السوق؟ وهلأ أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما تشتهيه. ثم أحضر جميعهم وقال لهم: جميع ما يطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغيره

فأتوه به ، واطبخوا له ما يشاء . وأكد عليهم في ذلك أشد التأكيد ، جزاء الله خيراً .

ثم سافرنا من مدينة تستر ثلثاً في جبال شامخة . وبكل منزل زاوية ، كما تقدم ذكر ذلك . ووصلنا إلى مدينة إيدج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مد وذال معجم مفتوح وجيم) ، وتسمى أيضاً مال الأمير ، وهي حضرة السلطان أتابك . وعند وصولي إليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرماني ، وله النظر في كل الزوايا ، وهم يسمونها المدرسة . والسلطان يعظمه ويقصد زيارته ، وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة ، يزورونه غدوًأ وعشياً ، فأكرمني وأضافني وأنزلني زاوية تعرف باسم الدينوري ، وأقمت بها أياماً ، وكان وصولي في أيام القيظ ، وكنا نصلي صلاة الليل ، ثم ننام بأعلى سطحها ، ثم ننزل إلى الزاوية ضحوة . وكان في صحبتي اثنا عشر فقيراً ، منهم إمام وقارئان مجیدان وخادم ، ونحن على أحسن ترتيب .

ذكر ملك إيدج وترست

وملك إيدج في عهد دخولي إليها السلطان أتابك افراسياب بن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لجميع من يلي تلك البلاد من ملك . وهي تسمى بلاد اللور . وولي هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف ، وولي يوسف بعد أبيه أحمد ، وكان أحمد المذكور ملكاً صالحًا ، سمعت من الثقات ببلاده أنه عمر أربعماه وستين زاوية ببلاده ، منها بحضره إيدج أربع وأربعون ، وقسم الخراج ثلاثة : ثلث لنفقة الزوايا والمدارس ، وثلث لمرتب العساكر ، وثلث لنفقة ونفقة عياله وعيده وخدماته ، وبيعث منه هدية ملك العراق في كل سنة ، وربما وفد عليه بنفسه ، وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده أن أكثرها في جبال شامخة ، وقد نحتت الطرق في الصخور ، وسويت ووسعـت ، بحيث تصعدـها الدواب بأحـمالـها .

وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض، تشقها الأنهار، وشجرها البلوط، وهم يصنعون من دقيقه الخبز، وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فإن عادتهم أن يأتي خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس، ويعطي كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحماً وحلواه، وجيئه من أوقاف السلطان عليها. وكان السلطان أتابك أحمد زاهداً صالحًا كما ذكرناه، يلبسُ تحت ثيابه مما يلي جسده ثوب شعر.

حكاية

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد، فقال له بعض خواصه إن أتابك أحمد يدخل عليك وعليه الدرع، وظن ثوب الشعر الذي تحت ثيابه درعاً، فأمره باختبار ذلك على جبه من الانبساط ليعرف حقيقته، فدخل عليه يوماً فقام إليه الأمير الجوبان عظيم أمراء العراق، والأمير سوينة أمير ديار بكر، والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق، وأمسكوا بشيابه كأنهم يازحونه، فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر، ورأه السلطان أبو سعيد وقام إليه وعانقه وأجلسه إلى جواره وقال له: سن أطا بالتركية، ومعناه أنت أبي، وعوضه عن هديته بأضعافها، وكتب له البرليف، وهو الظهير، أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام، ثم ولي أخوه افراسياب. ولما دخلت مدينة ايدج أردت رؤية افراسياب المذكور فلم يتأتَّ لي ذلك، بسبب أنه لا يخرج إلا يوم الجمعة لإدمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده، وليس له سواه فمرض في تلك الأيام، وفي إحدى الليالي أتاني أحد خدامه، وسألني عن حالي فعرفته، وذهب، ثم جاء بعد صلاة المغرب، ومعه

طيفوران كبيران : أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهه ، وخربيطة فيها دراهم ، ومعه أهل السماع بآلاتهم ، وقال : اعملوا السماع حتى يهزج القراء ، ويدعون لابن السلطان فقلت له : إن أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ، ودعونا للسلطان ولولده وقسمت الدرارهم على القراء . ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ ، وقد مات المريض المذكور وفي الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا : إن كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والأشراف والأمراء قد ذهبوا إلى دار السلطان للعزاء ، فينبغي لك أن تذهب في جلتهم فأبىت ، فعزموا علي ، فلم يكن لي بد من المسير ، وسرت معهم ، فوجدت مشور دار السلطان ممتئاً رجالاً وصبياناً من المماليك ، وأبناء الملوك والوزراء والأجناد قد لبسوا التلاييس ، وجلال الدواب ، وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جز ناصيته وانقسموا فرقتين فرقة بأعلى المشور ، وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة إلى الأخرى ، وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلين خوند كارما ، ومعناه مولاي أنا ، فرأيت من ذلك أمراً هائلاً ومنظراً فظيعاً لم أعهد مثله .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ أنني دخلت فرآيت القضاة والخطباء والشرافاء ، قد استندوا إلى حيطان المشور ، وهو غاص بهم من جميع جهاته ، وهم بين باكٍ ومتباكي ومطرق ، وقد لبسوا فوق ثيابهم ثياباً خامدة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائتها إلى أعلى ووجوهاً مما يلي أجسادهم ، وعلى رأس كل واحد منهم خرقـة أو متزرأسود ، وهكذا يكون فعلهم إلى تمام أربعين يوماً وهي نهاية الحزن عندـهم ، وبعدـها يبعثـ السلطان لكلـ من فعلـ ذلكـ كسوـةـ كاملـةـ .

فـلـما رأـيـتـ جـهـاتـ المشـورـ غـاصـةـ بـالـنـاسـ نـظـرـتـ يـمـيـناـ وـشـمـاـ،ـ أـرـتـادـ مـوـضـعاـ

جلوسي فرأيت هنالك سقية مرتفعة عن الأرض بمقدار شبر، وفي إحدى زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد، عليه ثوب صوف مثل اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الأسفار، فتقدمت منه، وانقطع عني أصحابي لما رأوا إقدامي نحوه، وعجبوا مني وأنا لا علم لي بشيء من حاله فصعدت السقية وسلمت على الرجل، فرد علي السلام، وارتفع عن الأرض كأنه يريد القيام، وهم يسمون ذلك نصف القيام وقدعت في الركن المقابل له، ثم نظرت إلى الناس، وقد رموني بأبصارهم جميعاً فعجبت منهم، ورأيت الفقهاء والمشايخ والأشراف مستندين إلى الحائط تحت السقية، وأشار إلى أحد القضاة أن أخط إلى جانبه فلم أفعل، وحينئذ استشعرت أنه السلطان فلما كان بعد ساعة أتي شيخ المشايخ نور الدين الكرماني الذي ذكرناه قبل، فصعد إلى السقية وسلم على الرجل فقام إليه وجلس فيها بيديه وبينه، فحينئذ علمت أنه السلطان.

ثم جيء بالجنازة، وهي بين أشجار الأترج والليمون وقد ملأوا أغصانها بثمارها، وهي بأيدي الرجال فكان الجنازة تمشي في بستان، والمشاعل في رماح طوال بين يديها، والسمع كذلك، فصلى عليها، وذهب الناس معها إلى مدفن الملوك، وهو بموضع يقال له: هلا فيجان، على أربعة أميال من المدينة، وهنالك مدرسة عظيمة يشقها نهر، وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام، ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر، ولم أستطع أن أذهب معهم إلى المدفن بعد الموضع فعدت إلى المدرسة.

فلما كان بعد أيام بعث إلى السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولاً يدعوني إليه، فذهبت معه إلى باب يعرف بباب السر، وصعدنا في درج كثيرة إلى أن انتهينا إلى موضع لا فرش به، لأجل ما هم فيه من الحزن، والسلطان جالس فوق مخدة، وبين يديه آنيتان قد غطيتا، إحداهما من الذهب والأخرى من

الفضة ، وكانت بالمجلس سجادة خضراء ، ففرشت لي بالقرب منه ، وقعدت عليها وليس بالمجلس إلا حاجبه الفقيه محمود ، ونديم له لا أعرف اسمه فسألني عن حالي وبلادي ، وسألني عن الملك الناصر ، وببلاد الحجاز ، فأجبته عن ذلك ، ثم جاء فقيه كبير ، وهو رئيس فقهاء تلك البلاد ، فقال لي السلطان ، هذا مولانا فضيل ، والفقية ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ، ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور ، وظهر لي أن السكر غالب عليه ، وكانت قد عرفت إدمانه على الخمر ، ثم قال لي باللسان العربي ، وكان يحسن تكلم فقلت له : إن كنت تسمع مني أقول لك : أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالزهد والصلاح ، وليس فيك ما يندرج في سلطنتك غير هذا ، وأشارت إلى الآنتين فخجل من كلامي وسكت ، وأردت الانصراف ، فأمرني بالمجلس ، وقال لي : الاجتماع مع أمثالك رحمة ثم رأيته يتأليل ويريد النوم ، فانصرفت وكانت تركت نعلي بالباب فلم أجده ، فنزل الفقيه محمود في طلبه ، وصعد الفقيه فضل يطله في داخل المجلس ، فوجده في طاق هنالك فأتايه فأخجلني بره واعتذررت إليه ، فقبل نعلي ووضعه على رأسه وقال لي : بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك ، والله إني لأرجو أن يؤثر ذلك فيه .

ثم كان رحيلي من حضرة ايدج بعد أيام ، فنزلت بمدرسة المسلمين التي بها قبورهم ، وأقمت بها أياماً ، وبعث إلى السلطان بجملة دنانير ، وبعث بمنتها لأصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة ، وفي كل ليلة تنزل بمدرسة فيها الطعام ، فمنها ما هو في العمارة ، ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب إليها جميع ما تحتاج إليه . وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كرييو الرخ ، وهي آخر بلاد الملك وسافرنا منها في بسيط من الأرض كثير المياه من عهالة مدينة أصفهان .

ثم وصلنا إلى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الممزة وإسكان الشين المعجم وضم الناء المعلوّة وإسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين، ولها مسجد بديع يشقه النهر. ثم رحلنا منها إلى مدينة فيروزان، وأسمها كأنه تثنية فيروز، وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجنوا لتشييع جنازة، وقد أودعوا خلفها وأمامها المشاعل، وأتبعوها بالزمير والمغنين بأنسوان الأغاني المطربة، فعجبنا من شأنهم، وبتنا بها ليلة. ومررنا بالغد بقرية يقال لها نيلان، وهي كبيرة على نهر عظيم، وإلى جانبه مسجد على النهاية من الحسن، تصعد إليه في درج، وتحفه البساتين. وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان وأبراج الحمام، ووصلنا بعد العصر إلى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة)، ومدينة أصفهان من كبار المدن وحسنها إلا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بين أهل السنة والروافض، وهي متصلة بينهم حتى الآن، فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش الذي لا نظير له، يسمونه بقمر الدين، وهم يبسونه ويدخرونها، ونواه ينكسر عن لوز حلو، ومنها السفرجل الذي لا مثيل له في طيب المطعم وعظم الجرم، والأعناب الطيبة، والبطيخ العجيب الشأن الذي لا مثيل له في الدنيا إلا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم، وقشره أخضر، وداخله أحمر ويدخر كما تدخل الشرحة بالغرب، وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فإنه في أول أمره يُسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته بأصفهان وأهل أصفهان حسان الصور وألوانهم بيض زاهرة، مشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجد، وفيهم كرم وتناسق عظيم فيما بينهم في الأطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة، وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له: اذهب معي لنأكل نان وناس، والننان بلسانهم الخبرن والماس اللبن فإذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهياً له بذلك وأهل

كل صناعة يقدمون على أنفسهم كباراً منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الأعزاب، وتفاخر تلك الجماعات، ويضيف بعضهم بعضاً مظهرين لما قدروا عليه من الإمكان، مختلفين في الأطعمة وسواها الاحتفال العظيم، ولقد ذكر لي أن طائفة منهم أضافت أخرى، فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم أضافتها الأخرى فطبخوا طعامهم بالحرير. وكان نزولي بأصفهان في زاوية تُنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد، وهي معظمها يقصدها أهل تلك الآفاق، ويتركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحداً في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود ابن علي المعروف بالرجاء، وأخوه العالم المفتى شهاب الدين أحمد أقامت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية أربعة عشر يوماً، فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في إكرامي وأحسن ضيافتي وكشافي كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث إلى بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفاً، ولم أكن رأيته قبل ولا أكلته.

كرامة هذا الشيخ

دخل علي يوماً بموضع نزولي من الزاوية، وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ، وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم، ونشرت في البستان، ورأيت في جلتها جبة بيضاء مبطنة، تدعى عندهم هزرميخي، فأعجبتني، وقلت في نفسي: مثل هذه كنت أريد فلما دخل علي الشيخ نظر في ناحية البستان، وقال بعض خدامه، أئنني بذلك الثوب الهزرميخي، فأتوا به فكساني إيه فأهويت إلى قدميه أقبلهما، وطلبت منه أن يلبسني طاقية من رأسه ويجذبني في ذلك بما أجازه

والده عن شيوخه ، فألبسني إياها في الرابع عشر لجمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وسبعين ، بزاوته المذكورة ، كما لبس من والده شمس الدين ، ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ، ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء ، ولبس علي من الإمام شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهوردي ، ولبس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين أبي النجيب السهوردي ، ولبس أبو النجيب من عمه الإمام وحيد الدين عمر ، ولبس عمر من والده محمد ابن عبدالله المعروف بعمويه ، ولبس محمد من الشيخ أخي فرج الزنجاني ، ولبس أخو فرج من الشيخ أحمد الدينوري ، ولبس أحمد من الإمام مشاد الدينوري ، ولبس مشاد من الشيخ المحقق علي بن سهل الصوفي ، ولبس علي بن أبي القاسم الجنيد ، ولبس الجنيد من سري السقطي ، ولبس سري السقطي من داود الطائي ، ولبس داود من الحسن ابن أبي الحسن البصري ، ولبس الحسن ابن أبي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . قال ابن جزي : هكذا أورد الشيخ أبو عبد الله هذا السندا ، والمعروف فيه أن سرياً السقطي صحب معروفاً الكرخي ، وصاحب معروف داود الطائي ، وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي ، وأخوه فرج الزنجاني إنما المعروف أنه صحب أبا العباس النهاوندي ، وصاحب النهاوندي أبا عبدالله بن خفيف ، وصاحب ابن خفيف أبا محمد وربما صحب روم أبا القاسم الجنيد وأما محمد بن عبدالله عمويه فهو الذي صحب الشيخ أحمد الدينوري الأسود ، وليس بينهما أحد والله أعلم والذي صحب أخا فرج الزنجاني هو عبدالله بن ابن محمد بن عبدالله والد أبي النجيب .

ثم سافرنا من أصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينها مسيرة عشرة أيام فوصلنا إلى بلدة كليل ، (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وباء مد) وبينها وبين أصفهان مسيرة ثلاثة وهي بلدة صغيرة ذات أنهار وبساتين

وفواكه ، رأيت التفاح يباع في سوقها خمسة عشر رطلاً عراقياً بدرهم ، ودرهمهم ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافي ، وله مال عريض قد اعانه الله على إنفاقه في سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا وإطعام الطعام لأبناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا إلى قرية كبيرة تعرف بصوماء ، وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجة كافي المذكور ، ثم سرنا منها إلى يزدخاص (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم والف وصاد مهمل) ، بلدة صغيرة متقدمة العماره حسنة السوق : والمسجد الجامع بها عجيب مبني بالحجارة مسقف بها والبلدة على صفة خندق فيه بساتينها ومياها ، وبخارجها رباط ينزل به المسافرون ، عليه باب حديد ، وهو في النهاية من الحصانة والمنعة ، وبداخله حوانيت يباع فيها كل ما يحتاجه المسافرون . وهذا الرباط عمره الأمير محمد شاه ينجو ، والد السلطان أبي إسحاق ملك شيراز ، وفي يزدخاص يصنع الجنيز خاصي ، ولا نظير له في طبيه وزن الجنبة منه من أوقتين إلى أربع ، ثم سرنا منها على طريق دشت الروم ، وهي صحراء يسكنها الأتراك . ثم سافرنا إلى ماسين (واسمها بباءين مسؤولين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الأنهر والبساتين حسنة الأسواق ، وأكثر أشجارها الجوز . ثم سافرنا منها إلى مدينة شيراز ، وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الأرجاء شهيرة الذكر منيفة القدر ، لها البساتين المونقة والأنهار المتداقة والأسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العماره متقدمة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لا يغالطهم غيرهم حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها الا شيراز ، وهي في بسيط من الأرض تحف بها البساتين من جميع الجهات ، وتشقها خمسة أنهار ، أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف ، سخن في الشتاء

فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الأعظم يسمى بالمسجد العتيق ، وهو أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء ، وصحنه متسع مفروش بالمرمر ، ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن ، يفضي إلى سوق الفاكهة وهي من أبداع الأسواق ، وإنما أقول بفضلتها على باب البريد من دمشق . وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف ، وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ، ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهم شيء وهن الصدقات والإيثار ، ومن غريب حالي أنهن يجتمعن لسماع الوعاظ في كل يوم اثنين وخيس وجمعة بالجامع الأعظم ، فربما اجتمع منهن ألف والألفان بأيديهن المراوح ، يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر . ولم أر اجتماع النساء في مثل عدهن في بلدة من البلاد . وعند دخولي إلى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الإمام قطب الأولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ، ومعنى خداد عطية الله فوصلت إلى المدرسة المجدية المنسوبة إليه وبها سكناه ، وهي من عمارته ، فدخلت إليه رابع أربعة من أصحابي ، ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج إلى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخي شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائبه في القضاة لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانيقي وأخذ بيدي إلى أن وصل إلى مصلاه ، فأرسل يدي وأوهما إلى أن أصل إلى جانبه ففعلت وصلى العصر ثم قرئ بين يديه من كتاب المصايب وشوارق الأنوار للصاغاني ، وطالعه نائبه بما جرى لديها من القضايا ، وتقدم كبار المدينة للسلام عليه ، وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساء ثم سألني عن حاله وكيفية قدومي ، وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاج فأخبرته بذلك وأمر خدامه فأنزلوني بدويارة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل إليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد ،

وهو ناصر الدين الدرقندى من كبار الأمراء ، خراسانى الأصل . فعند وصوله إليه نزع شاشيته عن رأسه ، وهم يسمونها الكلا ، وقبل رجال القاضي ، وقعد بين يديه ، ممسكاً أذن نفسه بيده ، وهكذا فعل أمراء التتر عند ملوكهم . وكان هذا الأمير قد قدم في نحو خمسة وعشرين من ماليكه وخدماته وأصحابه ونزل خارج المدينة ، ودخل إلى القاضي في خمسة نفر ، ودخل مجلسه وحده منفرداً تأدباً .

حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الإمامية يسمى جمال الدين بن مظير . فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت ياسلامه التتر ، زاد في تعظيم هذا الفقيه . فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره ، وشرح له حال الصحابة والخلافة ، وقرر لديه أن أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله ، وأن علياً ابن عميه وصهره ، فهو وارث الخلافة ، ومثل له ذلك بما هو مأثور عنده من أن الملك الذي بيده إنما هو إرث عن أجداده وأقاربه مع حداثة عهد السلطان بالكفر ، وعدم معرفته بقواعد الدين . فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض ، وكتب بذلك إلى العراقيين وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان ، وبعث الرسل إلى البلاد ، فكان أول بلاد وصل إليها بغداد وشيراز وأصفهان . فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزرق منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وقالوا لا سمع ولا طاعة . وأتوا المسجد الجامع في يوم الجمعة ومعهم السلاح وبه رسول السلطان ، فلما صعد الخطيب المنبر قاموا إليه وهم اثنا عشر ألفاً من سلاحهم ، وهم حة بغداد والمشار إليهم فيها . فحلقوه له أنه إن غير الخطبة المعتادة ، إن زاد فيها أو نقص منها ، فإنهم قاتلوه ، وقاتلوا رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك

لما شاءه الله . وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ، ولا يذكر إلا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم . فخاف الخطيب من القتل ، وخطب الخطبة المعتادة . وفعل أهل شيراز وأصفهان ك فعل أهل بغداد . فرجعت الرسل إلى الملك فأخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاء المدن الثلاث . فكان أول من أتي به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان إذ ذاك في موضع يعرف بقراباغ ، وهو موضع مصيفه . فلما وصل القاضي أمر أن يرمي به إلى الكلاب التي عنده ، وهي كلاب ضخامة في أعناقها السلاسل معدة لأكلبني آدم . فإذا أُتي بن يسلط عليه الكلاب جعل في رحمة كبيرة مطلقاً غير مقيد ، ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر أمامها ولا مفر له ، فتدركه فتمزقه ، وتأكل لحمه . فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت إليه ، بصبصت إليه وحركت أذناها بين يديه ، ولم تهجم عليه بشيء ، فبلغ ذلك السلطان ، فخرج من داره حافي القدمين فأكب على رجل القاضي يقبلها ، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من الثياب ، وهي أعظم كرامات السلطان عندهم ، وإذا خلع ثيابه كذلك على أحد ، كانت شرفاً له ولبنيه وأعقبه يتوارثونه ، ما دامت تلك الثياب أو شيء منها ، وأعظمها في ذلك السراويل . ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وأدخله إلى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به . ورجع السلطان عن مذهب الرفض ، وكتب إلى بلاده أن يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء للقاضي وصرفه إلى بلاده مكرماً مغظماً ، وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمکان ، وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخاً ، يشقه نهر عظيم . القرى منتظمة بجانبيه ، وهو أحسن موضع بشيراز . ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن^(١) ، وهي للقاضي المذكور . ومن عجائب هذا الموضع

(١) في بعض طبعات الكتاب: هيمن .

المعروف بجمكان أن نصفه ما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخاً شديد البرد وينزل فيه الثلوج وأكثر شجرة الجوز ، والجزء الآخر ما يلي بلاد هنج وبالبلاد الالار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل .

وفد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند . قصدته من هرمز متبركاً بلقائه ، وذلك سنة ثمان وأربعين . وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوماً . فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة ، فسلمت عليه فعرفي وقام إلي فعانقني ووquette يدي على مرفقه ، وجلده لاصق بالعظم لا حم بينها . وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة . وزرته يوماً فوجدت ملك شيراز السلطان أبا إسحاق ، وسيقع ذكره ، قاعداً بين يديه ، ممسكاً بإذن نفسه ، وذلك هو غاية الأدب عندهم ، ويفعله الناس إذا قعدوا بين يدي الملك . وأتيت مرة أخرى إلى المدرسة ، فوجدت باهها مسدوداً . فسألت عن سبب ذلك فأخبرت أن أم السلطان وأخته نشأت بينها خصومة في ميراث ، فصرفهما إلى القاضي مجد الدين . فوصلتا إليه إلى المدرسة ، وتحاكمتا عنده . وفصل بينها بواجب الشرع . وأهل شيراز لا يدعونه بالقاضي ، وإنما يقولون له مولانا أعظم . وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر إلى ذكر اسمه فيها . وكان آخر عهدي به في شهر ربيع الثاني من عام ثمانية وأربعين وسبعين . ولاحت علي أنواره وظهرت لي بركاته نفع الله به وبأمثاله .

ذکر سلطان شیواز

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به. وهو من خيار السلاطين، حسن الصورة والسيرة والهيئة، كريم النفس جميل الأخلاق متواضع، صاحب قوة وملك كبير. وعسکره ينیف على خمسین ألفاً من الترك والأعجم،

وبطانته الادنوں إليه اهل آصفہان . وهو لا يأْتِنَ أَهْلُ شِيرازَ عَلَى نَفْسِهِ ، ولا يستخدمهم ولا يقر بهم ولا يبيع لأحد منهم حمل السلاح ، لأنهم أهل نجدة وبأس شديد وجرأة على الملوك . ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب . ولقد شاهدت رجلاً مرة تجره الجنادرة ، وهم الشرط إلى الحاكم ، وقد ربظوه في عنقه . فسألت عن شأنه ، فأخبرت أنه وجدت في يده قوس بالليل . فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شیراز وتفضیل الأصفهانیین عليهم ، لأنهم يخافهم على نفسه . وكان أبوه محمد شاه ينجو والیاً على شیراز من قبل ملك العراق ، وكان حسن السیرة محباً إلى أهلها . فلما توفي ولی السلطان أبو سعید مكانه الشیخ حسیناً ، وهو ابن الجویان أمیر الأمراء ، وسيأتي ذکرہ ، وبعث معه العساکر الكثیرة ، فوصل إلى شیراز وملکها وضبط مجاییها . وهي من أعظم بلاد الله محبی .

ذكر لي الحاج قوام الدين الطمغجي ، وهو والي المحبی بها ، أنه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم في كل يوم . وصرفها من ذهب المغرب ألفان وخمسين دينار ذهباً . وأقام بها الأمير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق ، فقبض على أبي إسحاق بن محمد شاه ينجو ، وعلى أخيه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون ، وأراد حلهم إلى العراق ليطالبوا بأموال أبيهم فلما توسلوا السوق بشیراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقة حباء ان ترى في تلك الحال . فإن عادة نساء الأتراك أن لا يغطين وجههن ، واستغاثت بأهل شیراز ، وقالت : أهكذا يا أهل شیراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان ؟ فقام رجل من النجارين يسمى بلهوان محمود ، قد رأيته بالسوق حين قدومي على شیراز فقال : لا نتركها تخرج من بلدنا ، ولا نرضى بذلك . فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا في السلاح وقتلوه كثيراً من العساکر وأخذوا الأموال وخلصوا المرأة وأولادها . وفِي الأمیر حسین ومن معه . وقدم على السلطان أبي سعید مهزوماً ، فأعطاه العساکر الكثيفه وأمره بالعودة إلى شیراز والتحكم في أهلها

بما شاء . فلما بلغ أهلها ذلك ، علموا أنهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين ، وطلبوها منه أن يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح ، فخرج إلى الأمير حسين . فترجل له الأمير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح . ونزل الأمير حسين ذلك اليوم خارج المدينة . فلما كان من الغد بُرِزَ أهلها للقائه في أجل ترتيب وزينوا البلد وأوقدوا الشمع الكثير ، ودخل الأمير حسين في أبهة وحفل عظيم وسار فيهم بأحسن سيرة . فلما مات السلطان أبو سعيد وانقرض عقبه ، وتغلب كل أمير على ما بيده ، خافهم الأمير حسين على نفسه وخرج عنهم ، وتغلب السلطان أبو إسحاق عليها وعلى أصفهان وببلاد فارس ، وذلك مسيرة شهر ونصف شهر . واشتتدت شوكته وطمحت همته إلى تملك ما يليه من البلاد ، فبدأ بالأقرب منها وهي مدينة بزد ، مدينة حسنة نظيفة عجيبة الأسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضرة وأهلها تجارة شافعية المذهب ؟ فحاصرها وتغلب عليها وتحصن الأمير مظفر شاه ابن الأمير محمد شاه بن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة ، تحدق بها الرمال فحاصره بها . فظهر من الأمير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ، ولم يسمع بمثله . فكان يضرب على عسكر السلطان أبي إسحاق ليلاً ، ويقتل ما شاء ، ويخرج المضارب والفساطيط ، ويعود إلى قلعته فلا يقدر على النيل منه . وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عناق خيله عشرة وعاد إلى قلعته . فأمر السلطان أن تركب في كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكهائن . وتلاحتقت العساكر فقاتلهم ، وخلص إلى قلعته ولم يصب من أصحابه إلا واحداً أتى به إلى السلطان أبي إسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أماناً لمظفر لينزل إليه فأبى ذلك . ثم وقعت بينهما المراسلة ووُقعت له محنة في قلب السلطان أبي إسحاق لما رأى من شجاعته . فقال : أريد أن أراه ، فإذا رأيته انصرفت عنه . فوقف السلطان في خارج القلعة ووقف هو ببابها ، وسلم عليه فقال له السلطان : إنزل على الأمان . فقال له مظفر : إني

عاهدت الله أن لا أنزل إليك حتى تدخل أنت قلعتي وحينئذ أنزل إليك ، فقال له أفعل ذلك . فدخل إليه السلطان في عشرة من أصحاب الخواص .

فليا وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ر CABE ومشى بين يديه متراجلاً ، فأدخله داره وأكل من طعامه ونزل معه إلى المحلة راكباً ، فأجلسه السلطان إلى جانبه ، وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالاً عظيماً ، ووقع الاتفاق بينهما ان تكون الخطبة باسم السلطان أبي إسحاق ، وتكون البلاد لمظفر وأبيه . وعاد السلطان إلى بلاده .

وكان السلطان أبو إسحاق طمح ذات مرة إلى بناء إيوان كإيوان كسرى وأمر أهل شيراز أن يتولوا حفر أساسه . فأخذوا في ذلك . وكان أهل كل صناعة يباهون من عدتهم ، فانتهوا في المباهة إلى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد ، وكسوها ثياب الحرير المزركش ، و فعلوا نحو ذلك في برادع الدواب ، وإخراجها ، وصنع بعضهم الفؤوس من الفضة ، وأوقدوا الشمع الكثير . وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ملابسهم ، ويربطون فوط الحرير على أوساطهم . والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرة له . وقد شاهدت هذا المبني وقد ارتفع عن الأرض نحو ثلاثة أذرع . ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة التخدم فيه ، وصارت القلعة تخدم فيه بالأجرة ، ويحضر لذلك آلاف منهم . وسمعت والي المدينة يقول إن معظم مجباها ينفق في ذلك البناء . وقد كان الموكل به الأمير جلال الدين بن الفلكي التوريزي ، وهو من الكبار . كان أبوه نائباً عن وزير السلطان أبي سعيد المسماى على شاه جيلان . ولهذا الأمير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ، ويلقب بهاء الملك ، وفد على ملك الهند حين وفودي عليه ، ووفد معنا شرف الملك أمير يخت ، فخلع ملك الهند علينا جميعاً ، وقدم كل واحد في شغل يليق به ، وعين لنا المرتب والإحسان ، وسنذكر ذلك . وهذا السلطان أبو إسحاق يريد التشبيه بملك الهند المذكور في الإيثار وإجزال العطايا . ولكن أين الثريا من

الثري. وأعظم ما تعارفنا من أعطيات أبي إسحاق أنه اعطى الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولًا عن ملك هراة سبعين ألف دينار. وأما ملك الهند فلم ينزل يعطي أضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم.

حكاية

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين أنه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروي المولد، من سكان خوارزم، يسمى بالأمير عبد الله، بعثته الخاتون ترابك زوج الأمير قطلود مور صاحب خوارزم بهدية إلى ملك الهند المذكور، فقبلها وكافأ عنها بأضعافها وبعث ذلك إليها، واختار رسوها المذكور الإقامة عنده فصیره في ندمائه فلما كان ذات يوم قال له: ادخل إلى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع أن تحمله من الذهب. فرجع إلى داره فأتى بثلاث عشرة خريطة، وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه، وكان صاحب قوة وقام بها، فلما خرج من الخزانة وقع ولم يستطع النهوض. فأمر السلطان بوزن ما خرج به فكان جلته ثلاثة عشر مناً بنان دهلي، والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصرياً. فأمره أن يأخذ جميع ذلك فأخذه.

حكاية تناسبها

اشتكى مرة أمير يخت الملقب بشرف الدين الخراساني، وهو الذي تقدم ذكره آنفًا بحضور ملك الهند، فأتاه الملك عائداً. ولما دخل عليه أراد القيام، فحلف له الملك أن لا ينزل عن كاته والكت: السرير. ووضع للسلطان متکأة يسمونها المورة، فقدع عليها. ثم دعا بالذهب والميزان فأحضرها. وأمر المريض أن يقعد في إحدى كفتى الميزان، فقال يا خوند عالم لو علمت أنك تفعل هذا

للبست علي ثياباً كثيرة . فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب . فليس ثيابه المعدة للبرد المحسوسة بالقطن ، وقعد في كفة الميزان ، ووضع الذهب في الكفة الأخرى حتى رجحه الذهب ، وقال له : خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه .

حكاية تناسبها

وفد عليه الفقير عبد العزيز الأردويلي ، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق ، فتفقه فيه ، فجعل مرتبه مائة دينار دراهم في اليوم ، وصرف ذلك خمسة وعشرون ديناراً ذهباً . وحضر مجلسه يوماً ، فسألته السلطان عن حديث ، فسرد له أحاديث كثيرة في ذلك المعنى ، فأعجبه حفظه ، وخلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ، ثم نزل الملك عن مجلسه ، فقبل قدميه وأمر بإحضار صينية من ذهب ، وهي مثل الطيفور الصغير ، وأمر أن يؤتى فيها ألف دينار من الذهب ، وأخذها السلطان بيده ، فصببها عليه ، وقال : هي لك مع الصينية . ووفد عليه مرة رجل خراساني يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الأسفياني ، وكان أبوه نزل بغداد ، فأعطاه حسين ألف دينار دراهم وخليلاً وعيديداً وخلعاً ، وسندكر كثيراً من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند . وإنما ذكرنا هذا لما قدمناه من أن السلطان أبا إسحق يريد التشبه به في العطايا . وهو وإن كان كريماً فاضلاً فلا يلحق بطبقة ملك الهند في الكرم والمسخاء .

ذكر بعض المشاهد بشيراز

فمنها مشهد أحد بن موسى أخي علي الرضا بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ، ويتوسلون إلى الله تعالى بفضله . وبنت عليه طاش

خاتون أم السلطان أبي إسحق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر . والقراء يقرأون القرآن على التربة دائمًا . ومن عادة الخاتون أنها تأتي إلى هذا المشهد في كل ليلة اثنين ، ويجتمع في تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء . وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء . سمعت من الثقات أن الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء ألف وأربعمائة ونify بين صغير وكبير ، ونقبيهم عضد الدين الحسيني . فإذا حضر القوم بالمشهد المذكور ختموا القرآن قراءة في المصاحف ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة ، وأتي بالطعام والفاكه والحلوأ . فإذا أكل القوم ، وعظ الوعاظ . ويكون ذلك كله بعد صلاة الظهر إلى العشي والخاتون في غرفة مطلة على المسجد لها شباك . ثم تضرب الطبول والأنفار والبوقات على باب التربة ، كما يفعل عند أبواب الملوك . ومن المشاهد بها مشهد الإمام القطب الولي أبي عبدالله ابن خفيف المعروف عندهم بالشيخ . وهو قدوة بلاد فارس كلها ، ومشهد معظم عندهم ، يأتيون إليهم بكره وعشياً ، فيتمسحون به . وقد رأيت القاضي مجد الدين أتاه زائراً واستلمته . وتأتي الخاتون إلى هذا المسجد في كل ليلة جمعة ، وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلمهم في مشهد أحمد بن موسى وقد حضرت الموضعين جيئاً . وتربة الأمير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي إسحاق متصلة بهذه التربة . والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر في الأولياء شهير الذكر ، وهو الذي أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند .

كرامة هذا الشيخ

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثة من القراء ، فأصابتهم مجاعة في طريق الجبل حيث لا عمارة ، وتابوا عن الطريق وطلبو من الشيخ أن يأذن لهم في القبض على بعض الفيلة الصغار ، وهي في ذلك المحل كثيرة جداً ،

ومنه تحمل إلى حضرة ملك الهند . فنهاهم الشيخ عن ذلك . فغلب عليهم الجوع ، فتعدوا قول الشيخ ، وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه ، وامتنع الشيخ عن أكله ، فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت إليهم . فكانت تشم الرجل منهم وتقتله ، حتى أتت على جميعهم . وشمت الشيخ ولم تتعرض له . وأخذه فيل منها ، ولف عليه خرطومه ، ورمي به على ظهره ، وأتى به الموضع الذي فيه العمارة فلما رأه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا أمره . فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره إلى الأرض بحيث يرونـه . ف جاءوا إليه وتمسـكونـوا به إلى ملـكـهمـ ، فـعـرـفـوهـ خـبـرـهـ وـهـمـ كـفـارـ ، وـأـقـامـ عـنـهـمـ أـيـامـاـ . وـذـلـكـ المـوـضـعـ عـلـىـ خـورـ يـسـمـيـ خـورـ الـخـيزـرانـ ، وـالـخـورـ هـوـ الـنـهـرـ . وـبـذـلـكـ المـوـضـعـ مـغـاصـ الـجـوـهـرـ . وـيـذـكـرـ أـنـ الشـيـخـ غـاصـ فـيـ بـعـضـ الـأـيـامـ بـمـحـضـ مـلـكـهـمـ وـخـرـجـ وـقـدـ ضـمـ يـدـيهـ مـعـاـ ، وـقـالـ لـلـمـلـكـ : اـخـتـرـ مـالـكـ فـيـ إـحـدـاهـاـ . فـاخـتـارـ مـاـ فـيـ الـيـمـنـيـ فـرـمـيـ إـلـيـهـ بـاـ فـيـهـ ، وـكـانـتـ ثـلـاثـةـ أحـجـارـ مـنـ الـيـاقـوتـ لـاـ مـثـيلـ لـهـ ، وـهـيـ عـنـدـ مـلـوـكـهـمـ فـيـ التـاجـ يـتـوارـثـونـهـاـ . وـقـدـ دـخـلـتـ جـرـيـزةـ سـيـلـانـ هـذـهـ ، وـهـمـ مـقـيـمـونـ عـلـىـ الـكـفـرـ ، إـلـاـ أـنـهـمـ يـعـظـمـونـ فـقـرـاءـ الـمـسـلـمـينـ ، وـيـؤـونـهـمـ إـلـىـ دـوـرـهـمـ ، وـيـطـعـمـونـهـمـ الـطـعـامـ ، وـيـكـوـنـونـ فـيـ بـيـوـتـهـمـ وـبـيـنـ أـهـلـهـمـ وـأـوـلـادـهـمـ ، خـلـافـاـ لـسـائـرـ كـفـارـ الـهـنـدـ فـإـنـهـمـ لـاـ يـقـرـبـونـ الـمـسـلـمـينـ ، وـلـاـ يـطـعـمـونـهـمـ فـيـ آنـيـهـمـ ، وـلـاـ يـسـقـونـهـمـ فـيـهـاـ . مـعـ أـنـهـمـ لـاـ يـؤـذـنـهـمـ وـلـاـ يـهـجـونـهـمـ . وـلـقـدـ كـنـاـ نـضـطـرـ إـلـىـ أـنـ يـطـبـخـ لـنـاـ بـعـضـهـمـ الـلـحـمـ ، فـيـأـتـونـ بـهـ فـيـ قـدـورـهـمـ ، وـيـقـعـدـونـ عـلـىـ بـعـدـ مـنـاـ ، وـيـأـتـونـ بـأـورـاقـ الـمـوزـ فـيـجـعـلـونـ عـلـيـهـاـ الـأـرـزـ وـهـ طـعـامـهـمـ ، وـيـصـبـونـ عـلـيـهـ الـكـوـشـالـ وـهـوـ الإـدـامـ ، وـيـذـهـبـونـ فـنـأـكـلـ مـنـهـ . وـمـاـ فـضـلـ عـلـيـنـاـ تـأـكـلـهـ الـكـلـابـ وـالـطـيرـ . وـإـنـ أـكـلـ مـنـهـ الـوـلـدـ الصـغـيرـ الـذـيـ لـاـ يـعـقـلـ ضـرـبـوـهـ وـأـطـعـمـوـهـ روـثـ الـبـقـرـ ، وـهـوـ الـذـيـ يـطـهـرـ ذـلـكـ فـيـ زـعـمـهـمـ . وـمـنـ الـمـاـشـادـ بـهـاـ مشـهـدـ الشـيـخـ الصـالـحـ القـطـبـ رـوـزـ جـهـانـ الـقـبـليـ مـنـ كـبـارـ الـأـوـلـيـاءـ ، وـقـبـرـهـ فـيـ مـسـجـدـ جـامـعـ يـخـطـبـ فـيـهـ ، وـبـذـلـكـ الـجـامـعـ يـصـلـيـ

القاضي مجد الدين الذي تقدم ذكره رضي الله عنه. وبهذا الجامع سمعت عليه كتاب مسند الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي . قال : أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا ، قالت : أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي ، قال : أخبرنا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، قال : أخبرنا أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور بن علان العرضي ، قال : أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي عن أبي عباس بن يعقوب الأصم عن الربيع بن سليمان المرادي عن الإمام أبي عبد الله الشافعي . وسمعت أيضاً عن القاضي مجد الدين بهذا الجامع المذكور كتاب مشارق الأنوار للإمام رضي الله أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الإمام نظام الدين محمود بن عمر الهراوي عن المصنف . ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب ، وعليه زاوية لإطعام الطعام .

وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة ، وكذلك معظم قبور أهلها ، فإن الرجل منهم يوت ولده أو زوجته ، فيتتخذ له تربة من بعض بيوت داره ، ويدفنه هناك ، ويفرش البيت بالخصر والبسط ، ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ، ويصنع للبيت باباً إلى ناحية الزقاق وشباك حديد ، فيدخل منه القراء يقرأون بالأصوات الحسان . وليس في معمور الأرض أحسن أصواتاً بالقرآن من أهل شيراز . ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها . فكأن الميت لم يburgh . وذكر لي أنهم يطبخون في كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه .

حكاية

مررت يوماً ببعض أسواق مدينة شيراز ، فرأيت بها مسجداً متقن البناء جيل الفرش ، وفيه مصاحف موضوعة في خرائط حرير موضوعة فوق كرسي ، وفي

الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح إلى جهة السوق وهنالك شيخ جليل الهيئة واللباس ، وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست إليه فسألني عن مقدمي فأخبرته ، وسألته عن شأن هذا المسجد فأخبرني أنه هو الذي عمره ووقف عليه أوقافاً كثيرة للقراء وسواهم ، وأن تلك الزاوية التي جلست إليها فيها هي موضع قبره إن قضى الله موته بتلك المدينة ، ثم رفع بسطاً كان تحته ، والقبر مغطى عليه ألواح خشب ، وأراني صندوقاً كان يازائه ، فقال : في هذا الصندوق كفني وحنوطي ودرارهم كنت استأجرت بها نفسي في حفر بئر لرجل صالح فدفع لي هذه الدرارهم ، فتركتها لتكون نفقة مواراتي وما فضل منها يتصدق بها فعجبت من شأنه وأردت الانصراف فحلف علي وأضانني بذلك الموضع . ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي ، وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة ، بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن أباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضاً صغاراً من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارتة ويأكلون من ساطه ويفسلون ثيابهم بذلك النهر ، وينصرفون . وكذلك فعلت عنده رحمه الله . وبقربة من هذه الزاوية زاوية أخرى تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السعاني ، وكان من الأمراء الفقهاء ، ودفن هنالك بوصية منه بذلك .

وبمدينة شيراز من الفقهاء الشريف مجد الدين وأمره في الكرم عجيب ، وربما جاد بكل ما عنده وبالثياب التي كانت عليه ، ويلبس مرقة فيدخل عليه كراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه . ومرتبه في كل يوم من السلطان خسون ديناراً دراهم . ثم كان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون ، وهي على مسيرة يومين من شيراز ، فنزلنا أول يوم ببلاد الشول ، وهم طائفة من الأعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون .

كرامة لبعضهم

كنت يوماً ببعض المساجد بشيراز ، وقد قعدت أتلوا كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر ، فخطر بخاطري أنه لو كان لي مصحف كريم للتلوت فيه ، فدخلت على في أثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ : فرفعت رأسي إليه فألقى في حجري مصحفاً كريماً وذهب عندي . فختمه ذلك اليوم قراءة وانتظرته لأرده له ، فلم يعد إلي ، فسألت عنه فقيل لي : ذلك بهلول الشولي ، ولم أره بعد . ووصلنا عشي اليوم الثاني إلى كازرون ، فقصدنا زاوية الشيخ أبي إسحاق نفع الله به ، وبتنا بها تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائناً من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والسمن وتوكل بالرقاق ولا يتربون الوارد عليهم للسفر حتى يقم في الضيافة ثلاثة ، ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ، ويدكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية ، وهم يزيدون على مائة ، منهم المتزوجون ومنهم الأعزاب المتجبردون ، فيختمون القرآن ويدركون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي إسحاق فتنقض حاجته بإذن الله وهذا الشيخ أبو إسحاق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة الركاب في بحر الصين إنهم إذا تغير عليهم الهواء ، وخافوا للخصوص ، نذروا لأبي إسحاق نذراً ، وكتب كل منهم على نفسه ما نذره فإذا وصلوا بر السلامة ، صعد خدام الزاوية إلى المركب ، وأخذوا الزمام ، وقبضوا من كل ناذر نذر وما من مركب يأتي من الصين أو الهند إلا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خدام الزاوية فيقبضون ذلك . ومن الفقراء ، من يأتي طالباً صدقة الشيخ ، فيكتب لها أمرٌ بها ، وفيه علامة الشيخ منقوشة في قالب من الفضة ، فيضعون القالب في صبغ أحمر ويصلقونه بالأمر ، فيبقى أثر الطابع فيه ويكون مضمونه أن من عنده نذر للشيخ أبي إسحاق فليعط منه لفلان كذا فيكون الأمر بالألف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير ،

فإذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسمًا في ظهر الأمر بما
 قبضه. ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبي إسحاق بعشرة آلاف دينار، فبلغ
 خبرها إلى فقراء الزاوية، فأتى أحدهم إلى الهند وقبضها وانصرف بها إلى
 الزاوية، ثم سافرنا من كازرون إلى مدينة الزيدين، وسميت بذلك لأن فيها قبر
 زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الأنصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه
 وسلم تسلیماً، ورضي الله عنها وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه، مليحة
 الأسواق عجيبة المساجد، وأهلها صلاح وأمانة وديانة، ومن أهلها القاضي نور
 الدين الزيدياني، وكان ورد على أهل الهند فولي القضاء منها بذيبة المهل، وهي
 جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح، وتزوج بأخت هذا
 الملك وسيأتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر، وبها
 توفي القاضي نور الدين المذكور. ثم سافرنا منها إلى الحويزان بالزاي، وهي مدينة
 صغيرة يسكنها العجم، بينها وبين البصرة مسيرة أربع، وبينها وبين الكوفة مسيرة
 خمس، ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزاني شيخ خانقاہ سعيد
 السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة في برية لا ماء بها إلا في موضع
 واحد يسمى الطرفاوي، وردناه في اليوم الثالث من سفرنا، ثم وصلنا بعد اليوم
 الثاني من ورودنا عليه إلى مدينة الكوفة.

مدينة الكوفة

وهي إحدى أمهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة،
 والتابعين ومنزل العلماء والصالحين، وحضره علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلا
 أن الخراب قد استولى عليها بسبب أيدي العدوان التي امتدت إليها، وفسادها من
 عرب خفاجة المجاورين لها، فإنهم يقطعون طريقها ولا سور عليها، وبناؤها
 بالأجر، وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الأعظم

جامع كبير شريف ، بلاطاته سبع قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة ، قد صنعت قطعاً ، ووضع بعضها على بعض ، وأفرغت بالرصاص وهي مفرطة الطول ، وبهذا المسجد آثار كريمة ، فمنها بيت إزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال إن الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب مخلق عليه بأعواد الساج مرتفع ، وهو محراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهنالك ضربه الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من هذا البلاط مسجد صغير مخلق عليه أيضاً بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام ، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام ، وإزاءه بيت يزعمون أنه متبع إدريس عليه السلام ، ويتصل بذلك فضاء ، ويتصل بالجدار القبلي للمسجد ، يقال : إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام . وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والبيت الذي غسل فيه ويتصل به بيت يقال أيضاً ، إنه بيت نوح عليه السلام ، والله أعلم بصحة ذلك كله . وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع ، يصعد إليه ، قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وبمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنتي الحسين عليه السلام . وأما قصر الإمارة بالковفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فلم يبق إلا أساسه ، والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها ، وهو منتظم بحدائق النخل المتصلة بعضها بعض ، ورأيت بغربي جبانة الكوفة موسعاً مسوداً شديد السوداد في بسيط أبيض ، فأخبرت أنه قبر الشقي ابن ملجم ، وأن أهل الكوفة يأتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة أيام وعلى قرب منه قبة أخبرت أنها على قبر المختار بن أبي عبيد .

ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة ، وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ، ونزلت بخارجها وكرهت دخولي لها ، لأن أهلها رواض ورحلنا منها الصبح فنزلنا

مدينة الحلة، وهي مدينة كبير مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة، وحدائق النخل منتظمة بها داخلاً وخارجأً، ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطرين، تحف بها من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كل الشطرين إلى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل. وأهل هذه المدينة كلها إمامية اثنا عشرية وهم طائفتان: إحداها تعرف بالأكراد والأخرى تعرف بأهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة، والقتال قائم بعقرة من السوق الأعظم. بهذه المدينة مسجد على بابه ستة حرير مسدول، وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان، ومن عاداتهم أن يخرج في كل ليلة مائة رجل من أهل المدينة عليهم السلاح، وبأيديهم سيف مشهورة، فيأتون أمير المدينة بعد صلاة العصر يأخذون منه فرساً مسراً ملجمأً أو بغلة كذلك، ويضربون الطبل والأنفار والبوقات أمام تلك الدابة، ويتقدمها خمسون منهم ويتبعها مثلهم ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها، ويأتون مشهد صاحب الزمان، فيقفون بالباب، ويقولون: باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله أخرج قد ظهر الفساد، وكثير الظلم، وهذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل، ولا يزالون كذلك وهم يضربون الأبواق والأطبال والأنفار إلى صلاة المغرب، وهم يقولون: إن محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه، وأنه سيخرج وهو الإمام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الأمير محمد بن رميثة بن أبي غني أمير مكة، وحكمها أعوااماً، وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق، إلى أن غالب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الأموال والذخائر التي كانت عنده. ثم سافرنا منها إلى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليها السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضه المقدسة داخلها، وعليها مدرسة عظيمة، وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب

الروضة الحجاب والقومة ، لا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الأبواب أستار الحرير وأهل هذه المدينة طائفتان ، أولاد رخيك وأولاد فائز ، وبينها القتال أبداً وهم جميعاً إمامية يرجعون إلى أب واحد ، ولأجل فتنهم تخربت هذه المدينة . ثم سافرنا منها إلى بغداد .

مدينة بغداد

مدينة دار السلام ، وحضررة الإسلام ، ذات القدر الشريف ، والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ، ومقر العلماء ، وقال أبو الحسن بن جبير رضي الله عنه : وهذه المدينة العتيقة وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، ومثابة الدعوة الإمامية القرشية ، فقد ذهب رسمها . ولم يبق إلا اسمها . وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنجاء الحوادث عليها والتفاتات أعين التواب إلية كالطلل الدارس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعي من المستوفر الغفلة والنظر ، إلا دجلتها التي هي بين شرقها وغربيها كالمرأة المجلولة بين صفحتين ، أو العقد المنتظم بين لبتين . فهي تردها ولا تظماً وتنطلع منها في مرآة صقيلة لا تتصدأ ، والحسن الحريمي بين هوانها ومائتها ينشأ . قال ابن جزي : وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

فليكها لخراب الدهر باكيها
والنار تطفأ حسناً في نواحيها
فالآن أضمر منها اليأس راجيها
وبان عنها جالٌ كان يُحظيها
لقد أقام علي بغداد ناعيها
كانت على مائتها وال Herb موقدة
ترجى لها عودة في الدهر صالة
مثل العجوز التي ولست شببتها
وقد نظم الناس في مدحها وذكر محسنها فأطربوا ووجدوا امكان القول ذا

سعة فأطالوا وأطابوا ، وفيها قال الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي ، وأنشديه والدي رحمه الله مرات :

طِبُّ الْهَوَاءِ بِبَغْدَادٍ يَشْوَقِنِي
وَكَيْفَ أَرْحَلُ عَنْهَا الْيَوْمَ إِذْ جَعَتْ
طِبُّ الْهَوَاءِينَ مَدْوَدٌ وَمَقْصُورٌ
وَفِيهَا يَقُولُ أَيْضًا رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ :

سَلَامٌ عَلَى بَغْدَادٍ فِي كُلِّ مُوْطَنٍ
فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتَهَا عَنْ قِيلَّهَا
وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيْيِ بِرْجَهَا
وَكَانَتْ كَحْلٌ كَنْتُ أَهْوَى دُنُوهُ
وَفِيهَا يَقُولُ أَيْضًا مَعَاصِبًا لَهَا وَأَنْشَدَنِيهِ وَالَّذِي رَحْمَهُ اللَّهُ غَيْرُ مَا مَرَّةٌ :

بَغْدَادُ دَارُ الْأَهْلِ الْمَالِ وَاسْعَةٌ
ظَلَّلَتْ أَمْشِي مَصَافِّاً فِي أَزْقَتِهَا
وَفِيهَا يَقُولُ القاضي أبو الحسن علي بن النبيه من قصيدة :

آنست بالعراق بدرأً منيراً
 واستطابت ريتا نسائم بغداد
 ذكرت من مسارح الكرخ روضاً
 واجتلت من ربى المحول نوراً
 ولبعض نساء بغداد في ذكرها :

آهًاً عَلَى بَغْدَادِهَا وَعَرَاقِهَا
وَظَبَائِهَا وَالسَّحْرِ فِي أَحْدَاقِهَا

وَمَجَاهِلًا عَنْدَ الْفَرَاتِ بِأَوْجِهِ
مُتَبَخِّرَاتٍ فِي التَّعِيمِ كَأَنَّهَا
نَفْسِي الْفَدَاءِ لَهَا فَأَيِّ مَحَاسِنِ

وَلِبَغْدَادِ جَسْرَانِ اثْنَانِ مَعْقُودَانِ عَلَى نَحْوِ الصَّفَةِ الَّتِي ذَكَرْنَا هَا فِي جَسْرِ
مَدِينَةِ الْحَلَةِ، وَالنَّاسُ يَعْبُرُونَهَا لَيْلًاً وَنَهَارًاً، رِجَالًاً وَنِسَاءً فَهُمْ فِي ذَلِكَ فِي نَزَهَةٍ
مَتَصَلَّةٍ بِبَغْدَادِ مِنَ الْمَسَاجِدِ الَّتِي يَخْطُبُ فِيهَا، وَتَقَامُ فِيهَا الْجَمْعَةُ أَحَدُ عَشَرَ
مَسْجِدًا، مِنْهَا بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ثَمَانِيَّة، وَبِالْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ ثَلَاثَةُ وَالْمَسَاجِدُ سَوَاهَا
كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَكَذَلِكَ الْمَدَارِسُ إِلَّا أَنَّهَا خَرَبَتْ. وَحِمَامَاتُ بَغْدَادِ كَثِيرَةٌ وَهِيَ مِنْ
أَبْدَعِ الْحِمَامَاتِ، وَأَكْثُرُهَا مَطْلِيَّةٌ بِالْقَارِ مَسْطَحَةٌ بِهِ، فَيَخْيَلُ لِرَأْيِهِ أَنَّهُ رَخَامٌ
أَسْوَدٌ، وَهَذَا الْقَارُ يَجْلِبُ مِنْ عَيْنِ بَيْنِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ تَنْبَعُ أَبْدًا بِهِ، وَيَصِيرُ فِي
جَوَانِبِهَا كَالْصَّلْصَالِ، فَيَجْرِفُ مِنْهَا، وَيَجْلِبُ إِلَى بَغْدَادٍ. وَفِي كُلِّ حَامٍ مِنْهَا
خَلْوَاتٌ كَثِيرَةٌ كُلُّ خَلْوَةٍ مِنْهَا مَفْرُوشَةٌ بِالْقَارِ مَطْلِيَّةٌ نَصْفُ حَائِطِهَا مَا يَلِي الْأَرْضَ
بِهِ، وَالنَّصْفُ الْأَعْلَى مَطْلِيَّةٌ بِالْجُصُّ الْأَبْيَضِ النَّاصِعِ، فَالْأَصْدَانُ بِهَا جَمِيعُهُنَّ
مُتَقَابِلٌ حَسَنَهَا وَفِي دَاخِلِ كُلِّ خَلْوَةٍ حَوْضٌ مِنَ الرَّخَامِ فِيهِ أَنْبُوبَانِ أَحَدُهُمَا يَجْرِي
بِمَاءِ الْحَارِ وَالْآخَرُ بِمَاءِ الْبَارِدِ فَيَدْخُلُ الْإِنْسَانُ الْخَلْوَةَ مِنْهَا مَنْفَرِدًا لَا يُشَارِكُهُ
أَحَدٌ إِلَّا إِنْ أَرَادَ ذَلِكَ وَفِي زَاوِيَةِ كُلِّ خَلْوَةٍ أَيْضًا حَوْضٌ آخَرُ لِلْأَغْتِسَالِ فِيهِ
أَيْضًا أَنْبُوبَانِ يَجْرِيَانِ بِالْحَارِ وَالْبَارِدِ وَكُلُّ دَاخِلٍ يَعْطِي ثَلَاثَةَ مِنَ الْفَوْطِ إِحْدَاهُمَا
يَتَزَرُّ بِهَا عَنْدَ دُخُولِهِ وَالْآخَرُ يَتَزَرُّ بِهَا عَنْدَ خَرْوَجِهِ، وَالْآخَرُ يَنْشَفُ بِهَا الْمَاءَ
عَنْ جَسْدِهِ وَلَمْ أَرْ هَذَا الإِتقَانَ كُلَّهُ فِي مَدِينَةِ سُوَى بَغْدَادٍ، وَبَعْضُ الْبَلَادِ تَقَارِبُهَا
فِي ذَلِكَ.

ذَكْرُ الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادِ

الْجَانِبُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا هُوَ الَّذِي عُمِّرَ أَوْلًاً، وَهُوَ الْآنُ خَرَابٌ أَكْثُرُهُ وَعَلَى ذَلِكَ
فَقَدْ بَقَى مِنْهُ ثَلَاثَ عَشَرَةَ مَحَلَّةً، كُلُّ مَحَلَّةٍ كَأَنَّهَا مَدِينَةٌ بِهَا الْحِمَامَانُ وَالْثَلَاثَةُ وَفِي

ثمان منها المساجد الجامعية ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة أبي جعفر المنصور رحمه الله ، والمارستان ، فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة ، وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه ، وهو في محلة باب البصرة ، وبطريق باب البصرة مشهد حاصل البناء في داخله قبر متسع السنام ، عليه مكتوب : هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب ، وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا ، وإلى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليها دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة .

ذكر الجانب الشرقي منها

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء ، كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بمحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب ايوان فيه المسجد ، وموضع التدريس ، وجلوس المدرس في قبة من خشب صغيرة على كرسي ، عليه البسط ، ويقعد المدرس ، وعليه السكينة والوقار ، لابساً ثياب السوداء معتماً ، وعلى يمينه ويساره معيدان كل ما يليه ، هكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة : أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير في سقايات ومطاهير كثيرة للوضوء وللغسل ، لقيت بهذا المسجد الشيخ إلامام العالم الصالح

مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن علي بن عمر القزويني ، وسمعت عليه فيه جميع مسند أبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي ، وذلك في شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعينة قال : أخبرتنا به الشیخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر قالت : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز ، الطبيب المارستاني قال : أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن شعيب السنجري الصوفي قال : أخبرنا الإمام أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي ، قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حويه السرخي عن أبي عمران عيسى ابن عمر بن العباس السمرقندى عن أبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي . والجامع الثاني جامع السلطان ، وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان ، والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل .

ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها

وقبور الخلفاء العباسيين رضي الله عنهم بالرصافة . وعلى كل قبر منها اسم صاحبه : قبر المهدي وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر الم توكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعترض وقبر المهدى وقبر المعتمد وقبر المعتضى وقبر المكتفى وقبر المقتذر وقبر القاهر وقبر الراضى وقبر المتقي وقبر المستكفي وقبر المطیع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظہر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفى وقبر المستنجذ وقبر المستضيء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم ، وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية ، وذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة . وبقرب الرصافة قبر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد

والصادر . وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ما عدا هذه الزاوية . فسبحان مبيد الأشياء ومغيرها . وبالقرب منها قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه ولاقبة عليه . ويدرك أنها بنيت على قبره مراراً فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم ، وأكثراهم على مذهبة . وبالقرب منه قبر أبي بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله ، وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد ، رضي الله عنهم أجمعين . وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ، ويوم لشيخ آخر يليه ، هكذا إلى آخر الأسبوع . وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله عنهم . وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه ، وإنما تجلب إليها من الجهة الغربية لأن فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي إلى بغداد كون ملك العراق بها . فلنذكره هنا .

ذكر سلطان العراقيين وخراسان

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بهادرخان ، وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ، ابن السلطان الجليل محمد خذابنده ، وهو الذي أسلم من ملوك التتر - وضبط اسمه مختلف فيه ، فمنهم من قال إن اسمه خذابنده (بناء معجمة مضمومة ودال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة ونون مسكونة ودال مهملاً مفتوح وهاء استراحة) ، وتفسيره على هذا القول عبدالله ، لأن خدا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده غلام أو عبد أو ما في معناها . وقيل : إنما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) ، وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار . فشد ما بين القولين من الخلاف على أن هذا الأخير هو المشهور ، وكأن الأول غيره إليه من تعصب . وقيل : إن سبب تسميته بهذا الأخير هو أن التتر يسمون

المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته . فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال ، وهم يسمونه خربندة فسمي به . وأخو خربندة هو قازغان الذي يقول فيه للناس : قازان ، وقازغان هو القدر . وقيل : سمي بذلك لأنه ولد لما دخلت الجارية ومعها القدر . وخذابنده هو الذي أسلم ، وقدمنا قصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض ، وقصة القاضي مجد الدين معه ، ولما مات ولي الملك ولده أبو سعيد بهادرخان ، وكان ملكاً فاضلاً كريماً ملك وهو صغير السن ، ورأيته ببغداد ، وهو شامل أجمل خلق الله صورة ، لأنبات بعارضيه وزيره إذ ذاك الأمير غيث الدين محمد بن خواجه رشيد ، وكان أبوه من مهاجرة اليهود ، واستوزره السلطان محمد خذابنده والد أبي سعيد . رأيته يوماً بحرقة في الدجلة ، وتسمى عندهم الشبارقة ، وهي شبه سلورة ، وبين يديه دمشق خواجة ابن الأمير جوبان المتغلب على أبي سعيد ، وعن يمينه وشماله شبارتان فيها أهل الطرب والغناء . ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم أنه تعرض له جماعة من العميان فشكوا صعف حالم ، فأمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجاري عليه . ولما ولي السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه ، استولى على أمره أمير الأمراء الجوبان ، وحجر عليه التصرفات ، حتى لم يكن بيده من الملك إلا الاسم . ويدرك أنه احتاج في بعض الأعياد إلى نفقة ينفقها ، فلم يكن له سبيل إليها ، فبعث إلى أحد التجار فأعطاه من المال ما أحب ، ولم يزل كذلك إلى أن دخلت عليه يوماً زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له : لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له : لقد انتهى أمر دمشق خواجة بن الجوبان أن يفتكم بحرم أبيك ، وأنه بات البارحة عند طفى خاتون . وقد بعث إلي وقال لي : الليلة أبیت عندك . وما الرأي إلا أن تجمع الأمراء والعساكر ، فإذا صعد إلى القلعة مختفيأً برسم المبيت ، أمكنك القبض عليه ، وأبوه يكفي الله أمره . وكان الجوبان إذا ذاك غائباً بخراسان ،

فغلبته الغيرة وبات يدبر أمره، فلما علم أن دمشق خواجة بالقلعة أمر الأمراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية، فلما كان بالغد، وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري، فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يكنه الخروج راكباً، فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرج معه، فأحاطت بها العساكر، ولحق أمير من الأمراء الخاصة يعرف بمصر خواجة، وفتي يعرف ببلؤه دمشق خواجه فقتلاه، وأتيا الملك أبا سعيد برأسه فرموا به بين يدي فرسه. وتلك عادتهم أن يفعلوا برأس كبار أعدائهم. وأمر السلطان بهب داره وقتل من قاتل من خدامه وماليكه. واتصل الخبر بأبيه الجوبان وهو بخراسان، ومعه أولاده مير حسن وهو الأكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن اخت السلطان أبي سعيد من أمه ساطي بك بنت السلطان خذابنده، ومعه عساكر التتر وحاميها. فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا إليه فلما التقى الجمuan هرب التتر إلى سلطانهم، وأفردوا الجوبان. فلما رأى ذلك نكص على عقبيه، وفر إلى صحراء سجستان، وأوغل فيها، وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيراً به ومتخصصاً بمدينته. وكانت له عليه أيدٍ سابقة فلم يوافقه ولداته حسن وطالش على ذلك، وقالا له: إنه لا يفي بالعهد، وقد غدر بفiroز شاه بعد أن لجأ إليه وقتلته. فأبى الجوبان إلا أن يلحق به ففارقه ولداته وتوجه ومعه ابنه الصغير جلوخان، فخرج غياث الدين لاستقباله وترجل له وأدخله المدينة على الأمان، ثم غدر به بعد أيام، وقتلته وقتله ولده، وبعث برأسيهما إلى السلطان أبي سعيد. وأما الحسن وطالش فإنها قصداً خوارزم وتوجهها إلى السلطان محمد أوزبك، فأكرم مثواهما وأنزلهما، إلى أن صدر منها ما أوجب قتلها فقتلها. وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب إلى ديار مصر، فأكرمه الملك الناصر وأعطاه الإسكندرية، فأبى من قبولاً وقال: إنما أريد العساكر لأقاتل أباً سعيد. وكان متى بعث إليه الملك الناصر بكسوة أعطى

هو للذى يوصلها إليه أحسن منها إزراء على الملك الناصر ، وأظهر أموراً أوجبت قتله فقتله ، وبعث برأسه إلى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنكور فيما تقدم . ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين ، فوقف بها على عرفات ، وحلا إلى المدينة ليدفنا في التربة التي اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله عليه السلام ، فمنع من ذلك ودفن بالبقيع . والجوبان هو الذي جلب الماء إلى مكة شرفها الله تعالى .

ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان ، وكانت تسمى بغداد خاتون ، وهي من أجل النساء ، وكانت تحت الشيخ حسن الذي تغلب بعد موت أبي سعيد على الملك ، وهو ابن عمته ، فأمره فنزل عنها وتزوجها أبو سعيد ، وكانت أحظى النساء لديه . والنساء لدى الأتراك والتتر هن حظ عظيم . وهم إذا كتبوا أمراً يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون كثير من البلاد والولايات والمجاير العظيمة ، وإذا سافرت مع السلطان تكون في محلة على حدة . وغابت هذه الخاتون على أبي سعيد ، وفضلها على سواها ، وأقامت على هذه الحال مدة أيام . ثم تزوج امرأة تسمى بدلشاد فأحبها حباً شديداً ، وهجر بغداد خاتون ، فغارت لذلك ، وسمتها في منديل مسحته به بعد الجماع فماتت وانقرض عقبه وغابت امراؤه على الجهات كما سنذكره .

ولما عرف الأمراء أن بغداد خاتون هي التي سمتها أجعوا على قتلها وبدر لذلك الفتى الرومي خواجه لؤلؤ ، وهو من كبار الأمراء . وقد ماتوا ، فأثناها وهي في الحمام فضر بها بدبوسه وقتلها . وطرحت هنالك أياماً مستورة العورة بقطعة تلبيس ، واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب ، وتزوج دلشاد امرأة السلطان أبي سعيد ، كمثل ما كان أبو سعيد فعله من تزوج امرأته .

ذكر المغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذي ذكرناه آنفاً ، تغلب على عراق العرب جيئاً ، ومنهم إبراهيم شاه ابن الأمير سنیته ، تغلب على الموصل وديار بكر ، ومنهم الأمير أرتانا ، تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضاً ببلاد الروم ، ومنهم حسن خواجة بن الدمرطاش بن الجوبان ، تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشاً ; الري ورامين وفرغان والكرج ، ومنهم الأمير طغتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ، ومنهم الأمير حسن ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ، ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاط كنج ، ومنهم محمد شاه ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ، ومنهم الملك قطب الدين تمتن تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ، ومنهم السلطان أبو إسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس ، وذلك مسيرة خمس وأربعين ، ومنهم السلطان أفراسياب أتابك تغلب على إيذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره . (ولتعد إلى ما كنا بسبيله) ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد ، وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحلته ونزوله وكيفية تنقله وسفره . وعادتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر ، وينزلون عند الضحى وترتيبهم أنه يأتي كل أمير من الأمراء بعسكته وطبلوه وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له ، إما في الميمنة أو الميسرة ، فإذا توافوا جيئاً وتکاملت صفوفهم ، ركب الملك وضررت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره ، وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد إلى موقفه ، ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ، ثم يليهم أهل الطرب ، وهم نحو مائة رجل عليهم الشياطنة وتحتهم مراكب السلطان ، وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقدوا عشرة من الطبول ، وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنيات ، وهي

تسمى عندنا بالغيطات، فيضربون تلك الأطبال والصرنaiات. ثم امسكوا وغنى عشرة آخرون نوبتهم هكذا ، إلى أن تم عشر نوبات، فعند ذلك يكون النزول، ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الأمراء ، وهم نحو خمسين ، ومن ورائه أصحاب الأعلام والأطبال والأنفار والبوقات ، ثم ماليك السلطان ثم الأمراء على مراتبهم ، وكل أمير له أعلام وطبول وبوقات.

ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جند وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فیملأ رملاً ، ويعلق في عنقه ، ويتشي على قدميه حتى يبلغ المنزل ، فيؤتى به إلى الامير ، فيبسطح على الأرض ويضرب خمساً وعشرين مقرعة على ظهره ، سواء كان رفيعاً أو وضيعاً ، لا يحاشون من ذلك أحداً . وإذا نزلوا ينزل السلطان وماليكه في محلة على حدة ، وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ، ولكل واحدة منهن الإمام والمؤذن والقراء والسوق ، وينزل الوزراء والكتاب وأهل الأشغال على حدة ، وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعاً إلى الخدمة بعد العصر ، ويكون انصرافهم بعد العشاء الأخيرة ، والمشاعل بين أيديهم .

إذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ، ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة ، ثم أطبالسائر الخواتين ، ثم طبل الوزير ، ثم أطبال الوزراء دفعه واحدة ، ثم يركب أمير المقدمة في عسکره ، ثم يتبعه الخواتين ، ثم أثقال السلطان وزاملته ، وأثقال الخواتين ثم أميرتان في عسکر له ، يمنع الناس من الدخول فيما بين الأنقال والخواتين ، ثم سائر الناس . وسافرت في هذه المحلة عشرة أيام صحبة الأمير علاء الدين محمد إلى بلدة تبريز ، وكان من الأمراء الكبار الفضلاء ، فوصلنا بعد عشرة أيام إلى مدينة تبريز ، ونزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام . وهنالك قبر قازان ملك العراق ، وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد

وال الصادر من الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء . وأنزلني الأمير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة .

وفي غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ، ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان ، من أحسن أسواق بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تختالطها أخرى واجتذب بسوق الجوهرةين ، فحار بصرى لما رأيته من أنواع الجواهر ، وهي بأيدي ممالئ حسان الصور ، عليهم الثياب الفاخرة وأواساطهم مشدودة بمنديل الحرير ، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجواهر على نساء الأتراك ، وهن يشترينه كثيراً ، ويتنافسن فيه . فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذه الله منها . ودخلنا سوق العبر والمسك فرأينا مثل ذلك وأعظم ، ثم وصلنا إلى المسجد الجامع الذي عمره الوزير علي شاه المعروف بجيلان ، وبخارجه عن عين مستقبل القبلة مدرسة ، وعن يساره زاوية . وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج ، ويشقه نهر ماء ، وبه أنواع الأشجار ودوايي العنبر وشجر ياسمين . ومن عاداتهم أنهم يقرأون به كل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر في صحن الجامع ، ويجتمع لذلك أهل المدينة . وبتنا ليلة بتبريز ، ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد إلى الأمير علاء الدين بأن يصل إليه فعدت معه . ولم ألق بتبريز أحداً من العلماء .

ثم سافرنا إلى أن وصلنا محلة السلطان ، فأعلمته الأمير المذكور بعكاني وأدخلني عليه ، فسألني عن بلادي وكصاني وأركببني ، وأعلمته الأمير أنني أريد السفر إلى الحجاز الشريف فأمر لي بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل ، وكتب لي بذلك إلى أمير بغداد خواجه معروف ، فعدت إلى بغداد ، واستوفيت ما أمر لي به السلطان ، وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين ، فظهر لي أن أسافر إلى الموصل وديار بكر ، لأنشأهـ تلك البلاد ، وأعود إلى بغداد في حين

سفر الركب ، فأتوجه إلى الحجاز الشريف . فخرجت من بغداد إلى منزل على نهر دجلة ، وهو متفرع عن دجلة ، فيisci قرى كثيرة . ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بجربة ، مخصبة فسيحة . ثم رحلنا فنزلنا موضعًا على شط دجلة بالقرب من حصن يسمى المشوق ، وهو مبني على الدجلة . وفي الجهة الشرقية من هذا الحصن مدينة سُرَّ مَنْ رَأَى وتسمى أيضًا سامراً . ويقال لها سام راه ، ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة ، فلم يبق منها إلا القليل وهي معتدلة الهواء رائعة الحسن على بلادها ودروس معالها ، وفيها أيضًا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ، ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا إلى مدينة تكريت ، وهي مدينة كبيرة فسيحة الأرجاء مليحة الأسواق كثيرة الجموع وأهلها موصوفون بحسن الأخلاق والدجلة من الجهة الشمالية منها وله قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وبأعلاها ربوة كان بها حصن وبأسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعماره متصلة من هنالك إلى الموصل . ثم رحلنا ونزلنا موضعًا يعرف بالقيارة بمقدمة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فترات شبه الصلصال على وجه الأرض حالك اللون صقلياً رطاً وله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضًا قاراً . وبمقدمة من هذا الموضع عين كبيرة فإذا أرادوا نقل القار منها أو قدوا عليها النار فتنشف النار ما هنالك من رطوبة مائة ثم يقطعونه قطعاً وينقلونه . وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدهما إلى الموصل .

مدينة الموصل

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالخدباء عظيمة الشأن شهرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد إلى أسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبرا جهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تكون فتحها فيه لسعته ولم أر في أسوار البلاد مثله إلا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند . وللموصل ربع كبير فيه الجوامع والحمامات والفنادق والأسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة في النهاية من الحسن والإتقان وأمامه مارستان وبداخل المدينة جامعان أحدهما قديم والآخر حديث وفي صحن الحديث منها قبة في داخلها خصبة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن . وقياسارية الموصى مليحة لها أبواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء . وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر في زاوية منه عن يمين الداخل إليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارة والصلاوة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة إليه يقال انه أمر قومه بالتطهر فيها ثم صعدوا التل ودعا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب وبقريبة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الأبواب التي هي متباينة . وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقابر ومطاهير وسقايات يضم الجميع باب واحد ،

وفي وسط الرباط بيت عليه ست حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف بونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيت متبعده عليه السلام . وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة إلى هذا الرباط يتبعدون فيه . وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولهم كلام وفضيلة ومحبة في الغريب وإقبال عليه وكان اميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بمجيد وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى علياً الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والإيثار المعروفة .

وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض إليه أمر هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من ممالikeه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبارها يأتون للسلام عليه غدوأً وعشياً وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء ومأوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين^(١) بهجة وإشراقاً وحرس ارجاءها ونواحيها .

ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير . ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالمويلة ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة وأكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة أيضاً وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل^(٢) الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل .

(١) يعني السلطان أبا عنان .

(٢) في قول الله تعالى : ﴿وَتَبَلَّ يَا أَرْضُ ابْنِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءَ أَقْلِي، وَغَصَّنَ الْمَاءُ، وَتَفَضَّيَ الْأَمْرُ، وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجَوْدِيِّ وَقَيلَ: بَعْدًا لِلنَّقْوَمِ الظَّالِمِينَ﴾ هود / ٤٤ .

ثم رحلنا مرحلتين ووصلنا إلى مدينة نصيбин وهي مدينة عظيمة عتيقة
 متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين
 الملتقة والأشجار المنتظمة والفاكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له
 في العطارة والطيب ويدور بها نهر ينبع على انتفاف السوار منبعه من عيون في
 جبل قريب منها وينقسم انقساماً فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر إلى المدينة
 فيجري في شوارعها ودورها ويترق صحن مسجدها الأعظم وينصب في
 صهريجين أحدهما في وسط الصحن والأخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة
 مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وأمانة ولقد صدق أبو
 نواس في قوله :

طابت نصيбин لي يوماً وطبت لها يا ليت حظي من الدنيا نصيбин
 قال ابن جزي : والناس يصفون مدينة نصيбин بفساد الماء والوخامة ، وفيها
 يقول بعض الشعراء :

لنصيбин قد عجبت وما في دارها لي داع إلى العلات
 يعدم الورد أحراً في ذراها لسقام حتى من الوجنات
 ثم رحلنا إلى مدينة سنجر ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والأشجار
 والعيون المطردة والأنهار ، مبنية في سفح جبل ، تشبه بدمشق في كثرة أنهارها
 وبساتينها ، ومسجدها الجامع مشهور البركة ، يذكر أن الدعاء به مستجاب ،
 ويدور به نهر ماء ويشقه . وأهل سنجر أكراد ، و لهم شجاعة وكرم ، ومن لقيته
 بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبد الله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب
 كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر إلا بعد أربعين يوماً ويكون إفطاره على نصف
 قرص من الشعير ، لقيته برابطة بأعلى جبل سنجر ودعالي وزودني بدراهم ، لم
 تزل عندي إلى ان سلبني كفار الهند . ثم سافرنا إلى مدينة دارا ، وهي عتيقة

كبيرة بيضاء المنظر ، لها قلعة مشرفة ، وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمرة ، بها كان نزولنا ، ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة ماردين ، وهي عظيمة في سطح جبل من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقاً وبها تصنع الشياط المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمراعز ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها . قال ابن جزي : قلعة ماردين هذه تسمى الشهباء وإياها على شاعر العراق صفي الدين عبد العزيز بن سراي الحلبي بقوله في مسمطته :

فَدَعْ رَبِيعَ الْحِلَّةَ الْفِيَحَاءَ
وَازُورَ بِالْعِيسِ عَنِ الزَّوْرَاءِ
وَلَا تَقْفَ بِالْمُوَصَّلِ الْحَدِبَاءَ
إِنْ شَهَابَ الْقَلْعَةَ الشَّهَبَاءَ
مَحْرَقُ شَيْطَانٍ صَرْوَفُ الدَّهْرِ

وقلعة حلب تسمى الشهباء أيضاً وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين، وكان كريماً شهير الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة، وأدرك أيام قازان ملك التتر، وصاهر السلطان خدابنده بابنته دنيا خاتون.

ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي إليها

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفاً، ورث الملك عن أبيه
وله المكارم الشهيرة. وليس بأرض العراق والشام ومصر أكرم منه يقصده
الشعراء والفقراء فينزل لهم العطايا ، جرياً على سنن أبيه قصده أبو عبيد الله محمد
ابن جابر الأندلسي المروي الكفييف مادحاً ، فأعطاه عشرين الف درهم. وله
الصدقات والمدارس والزوايا لإطعام الطعام ، وله وزير كبير القدر ، وهو إمام
العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاوي ، وقرأ بمدينة تبريز ،
وأدرك العلماء الكبار ، وقاضي قضاته الإمام الكامل برهان الدين الموصلي ، وهو

ينتسب إلى الشيخ الولي فتح الموصلي، وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل، يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم، ويعتم بنحو ذلك، وكثيراً ما يجلس للأحكام بصحن مسجد خارج المدرسة، كان يتعبد فيه فإذا رأه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه.

حكاية

ذكر لي : أن امرأة أنت هذا القاضي ، وهو خارج من المسجد ، ولم تكن تعرفه ، فقالت له : يا شيخ ، أين يجلس القاضي ؟ فقال لها : وما تريدين منه ؟ فقالت : إن زوجي ضربني ، وله زوجة ثانية ، وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته إلى القاضي فأبى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه ، فقال لها : وأين منزل زوجك ؟ فقالت : بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها : أنا أذهب معك إلى فجرة وانتظرني خارجها ، فقال لها : لا آخذ منك شيئاً ، ثم قال لها : اذهبي إلى القرية وانتظرني خارجها ، فإني على أثرك . فذهبت كما أمرها وانتظرته ، فوصل إليها وليس معه أحد ، وكانت عادته أن لا يدع أحداً يتبعه فجاءت به إلى منزل زوجها فلما رأه قال : ما هذا الشيخ النحس الذي معك ؟ فقال له : نعم والله أنا كذلك ، ولكن أرض زوجتك . فلما طال الكلام ، جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وحاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي : لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فأرضها الرجل من نفسه وأعطيها القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف .

لقيت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائداً إلى بغداد فوصلت إلى مدينة الموصل التي ذكرناها ، فوجدت ركبها بخارجها متوجهين إلى بغداد ، وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة ، وهي من ذرية الخلفاء ، حجت

مراراً ، وهي ملازمة الصوم سلمت عليها ، و كنت في جوارها ، ومعها جلة من القراء يخدمونها ، وفي هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتتها بزرود ، ودفت هنالك ، ثم وصلنا إلى مدينة بغداد ، فوجدت الحاج في أهبة الرحيل ، فقصدت أميرها معروف خواجة فطلبت منه ما أمر لي به السلطان . فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم ، وكتب لي بذلك ووجه إلى أمير الركب البهلوان محمد الحويج فأوصاه بي . وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة ، فزادها تأكيداً ، ولم أزل في جواره وهو يحسن إلي ويزيدني على ما أمر به ، وأصابني عند خروجنا من الكوفة إسهال فكانوا ينزلونني من أعلى المحمل مرات كثيرة في اليوم ، والأمير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضاً حتى وصلت مكة حرم الله تعالى ، زادها الله شرفاً وتعظيمًا ، وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم ، و كنت ضعيفاً بحيث أؤدي المكتوبة قاعداً فطفت وسعيت بين الصفا والمروءة راكباً على فرس الأمير الحويج المذكور ، ووقفنا تلك السنة يوم الإثنين فلما نزلنا منى أخذت في الراحة والاستقلال من مرضي ، ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة . وكان بها الأمير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيناً لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب ابن شيبة وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبارهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الأصيل وابن الخليلي وناصر الدين الأسيوطى . وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية ، وعافاني الله من مرضي ، فكنت في أنعم عيش ، وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار ، وأتي في أثناء تلك السنة حاج الصعيد ، وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الأصفهوني^(١) ، وهي أول حجة حجها ، والأخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم

(١) قد يكون في هذه الكلمة تحريف والصواب الأصفون نسبة إلى أصفون ، إحدى قرى صعيد مصر ، وتعرف اليوم بأصفون المطاعنة .

الدين البابلي قاضي مصر ، وجاءة غيرهم ، في منتصف ذي القعدة وصل الأمير سيف الدين يملوك ، وهو من الفضلاء ، ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله ، منهم الفقيه أبو عبدالله بن عطاء الله والفقير أبو محمد عبد الله الحضرى والفقير أبو عبدالله المرسي ، وأبو العباس ابن الفقيه أبي علي البلنسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن نافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكماه ومن أهل القصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضى أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد ابن مسلم وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى وولده . ووصل في تلك السنة الأمير سيف الدين تقدّم من الخاصية والأمير موسى بن قرمان والقاضى فخر الدين ناظر الجيش وكاتب الممالك والتاج أبو إسحاق والست حدق مرية الملك الناصر . وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف ، وأكثراهم صدقة القاضى فخر الدين ، وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من سنة ثمان وعشرين ، ولما انقضى الحج أقامت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين ، وفي هذه السنة وصل أحمد بن الأمير رميثة وبارك ابن الأمير عطية من العراق صحبة الأمير محمد الحويح والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال ، وأتوا بصدقات عظيمة للمجاوريين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق ، وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ، ودعوا له بأعلى قبة زمز ، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الأمير عطية على ذلك ، وبعث شقيقه منصوراً لعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فرد ، فبعثه ثانية على طريق جدة حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة ، وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ، ولما انقضى الحج أقامت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة ثلاثين . وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطية وبين أيدمور أمير جندار الناصري وسبب ذلك أن تجأراً من أهل اليمن سرقوا ، فتشكوا إلى

أيدمور بذلك، فقال أيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة: إئت بهؤلاء السرّاق، فقال: لا أعرفهم فكيف نأتي بهم، وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم لك عليهم، إن سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبني به فشتمه أيدمور وقال له: يا قواد تقول لي هكذا، وضربه على صدره فسقط، ووُقعت عهّامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمور يريد عسکره، فلحقه مبارك وعبيدة فقتلوا وقتلوا ولده. ووُقعت الفتنة بالحرم، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر، ورمي الترك بالنّشّاب، فقتلوا امرأة قيل: إنها كانت تحرض أهل مكة على القتال، وركب من ركب من الأتراك، وأميرهم خاص ترك، فخرج إليهم القاضي والأئمة والمجاوروون فوق رؤوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح، ودخل الحجاج مكة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر، وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه، وبعث العساكر إلى مكة فنزع الأمير عطيفة وابنه مبارك، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان، ولو لدّه، فأمنوا وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير، فخلع عليه، وسلمت اليه مكة، وعاد العسكر إلى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليماً فاضلاً فخرجت تلك الأيام من مكة قاصداً بلاد اليمن فوصلت إلى حده، (بالحاء المهمّل المفتوح) وهي نصف الطريق بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت إلى جدة، وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال: إنها من عمارة الفرس، وبخارجها مصانع قديمة، وبها جباب للماء منقرفة في الحجر الصلد، يتصل بعضها ببعض، تفوت الاحصاء كثرة، وكانت هذه السنة قليلة المطر، وكان الماء يجلب إلى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسألون الماء من أصحاب البيوت.

حكاية

ومن غريب ما اتفق لي بجدة أنه وقف على باي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام ، فسلم علي وساني باسمي وأخذ بيدي ، ولم أكن عرفته قط ، ولا عرفني فعجبت من شأنه ثم أمسك أصبعي بيده وقال : اين الفتاحة ؟ وهي الخاتم و كنت حين خروجي من مكة لقيني بعض الفقراء وسألني ، ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي . فلما سألي عنه هذا الأعمى قلت له : أعطيته لفقير . فقال : ارجع في طلبه فإن فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الأسرار فطال تعجي منه ومن معرفته بذلك ، والله أعلم بحاله ، وبجدة جامع يعرف بجامع الآبنوس ، معروف البركة يستجاب به الدعاء ، وكان الأمير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق ، وقاضيها وخطيبها الفقيه عبدالله من أهل مكة شافعي المذهب ، وإذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلوة أتى المؤذن ، وعد أهل جدة المقimين بها فإن أكملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة ، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صل ظهراً أربعاً ، ولا يعتبر من ليس من أهلها وإن كانوا عدداً كثيراً . ثم ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحشبي الأصل ، وركب الشريف منصور ابن أبي نبي في جلبة أخرى ، ورغب مني أن أكون معه فلم أفعل ، لكونه كان معه في جلبه المجال فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من أهل اليمن قد جعلوا زوادهم وأمتعتهم في الجلب وهو متأهبون للسفر .

حكاية

ولما ركبنا البحر أمر الشريف منصور أحد غلمانه أن يأتيه بعديلة دقيقة ، وهي نصف حمل وبطة سمن ، يأخذها من جلب أهل اليمن . فأخذها وأتى بها إليه ،

فأثاني التجار باكين ، وذكروا إلى أن في جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ، ورغبوا مني أن أكلمه في ردها ، وأن يأخذ سواها ، فأتيته وكلمته في ذلك وقلت له : إن للتجار في جوف هذه العديلة شيئاً ، فقال : إن كان سكراراً فلا أرده اليهم ، وإن كان سوى ذلك فهو لهم ، ففتحوها ووجدوا الدرّاهم ، فردها عليهم وقال لي : لو كان عجلان ما ردها وعجلان هو ابن أخيه رميثة ، وكان قد دخل في تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصداً لليمن ، فذهب بعظام ما كان فيها ، وعجلان هو أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله ، وأظهر العدل والفضل . ثم سافرنا في هذا البحر بالرياح الطيبة يومين ، وتغيرت الرياح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب ، واشتد الميد بالناس^(١) ، ولم نزل في أحوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس دوائر ، فيما بين عيادات وساكن فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وبه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه ، وطبقنا ورأيت في ذلك المرسى عجباً ، وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به ، وقد امتلاً سماكاً ، كل سماكة منها قدر الذراع ، ويعرفونه بالبورى فطبع منه الناس كثيراً واشتروا وقصدت إلينا طائفة من البجاة ، وهم سكان تلك الأرض سود الألوان ، لباسهم الملحف الصفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراً ، عرض الأصبع ، وهم أهل نجدة وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولم جمال يسمونها الصهب ، يركبونها بالسرور فاكترينا منهم الجمال ، وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها وهي تأنس بالأدمي ولا تنفر منه . وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حي من العرب يعرفون بأولاد كاهل ، مختلفين بالبجاة ، عارفين

(١) يقال : ماد ، أي أصابه غثيان ودوار من سكر أو ركوب بجر .

بلسانهم، وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن، وهي على نحو ستة أميال من البر، ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب إليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش، والمعزى عندهم كثير والألبان والسمن ومنها يجلب إلى مكة وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة.

ذكر سلطانها

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي غبي، وأبوه أمير مكة، وأخواه أميراها بعده، وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت إليه من قبل البجة، فإنهم أخواله ومعه عسكر من البجة، وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن، وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره، وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ويرسون وينزلون إلى البر فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبداً في مقدم المركب، يتبه صاحب السكان على الأحجار^(١)، وهم يسمونها النبات. وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا إلى مدينة حلبي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتحقيقها)، وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكناً بها قدماً وهي كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي، من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل، لا حصير بها ولا بساط، ولم أر بها حين لقائي له شيئاً إلا إبريق الوضوء، وسفرة

(١) المقصود بالأحجار: الشعب المرجانية.

من خوص التخليل فيها كسر شعير يابسة ، وصحيفة فيها ملح وسعتر فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك ، ويسمع به أصحابه ، فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب فإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنقل ، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة ، فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون في أول الثالث الثالث إلى المسجد فيتهجدون إلى الصبح ، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراق ، فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم إلى أن يصلى صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ، أبداً ، ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقي عمري ، ولم أوفق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه .

ذكر سلطان حلبي

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بني كنانة ، وهو من الفضلاء الأدباء الشعراء . صحبته من مكة إلى جدة ، وكان قد حج في سنة ثلاثين . ولما قدمت مدینته أنزلني وأكرمني ، وأقمت في ضيافته أياماً . وركبت البحر في مركب له فوصلت إلى بلدة السّرحة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وإسكان الراء وفتح الجيم) ، بلدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهلبي ، وهم طائفة من تجار اليمن ، أكثرهم ساكنون بصنعاء^(١) ولم فضل وكرم وإطعام لأبناء السبيل ، ويعينون الحجاج ، ويركبونهم في مراكبهم ، ويزودونهم من أموالهم . وقد عرفوا بذلك واشتهروا به . وكثير الله أموالهم ، وزادهم من فضله ، وأعادتهم على فعل الخير . وليس بالأرض

(١) في بعض طبعات الكتاب : يسكنها جماعة من أولاد الهلبي ، وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء .

من يماثلهم في ذلك إلا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة، فله مثل ذلك من المأثر والإيشار. وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين، ثم رحلنا إلى مرسى الحادث ولم ننزل به، ثم إلى مرسى الأبواب، ثم إلى مدينة زيد، مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً، وليس باليمن بعد صناعة أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين كثيرة المياه والفاكه من الموز وغيره. وهي برية لا شطية^(١) إحدى قواعد بلاد اليمن (وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، أملح بلاد اليمن وأجلها، وأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور، ولنسائهم الحسن الفائق الفائت، وهي وادي الخصيب الذي يذكر في بعض الآثار أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ في وصيته: «يا معاذ إذا جئت وادي الخصيب فهروه» ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة، وذلك أنهم يخرجون في أيام البدر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرف وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلوات، وتخرج النساء ممتليطيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق، الأخلاق الحسنة والمكارم. وللغرب عندهن مزية، ولا يتعنون من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا. فإذا أراد اسفل خرجت معه وودعته، وإن كان بينها ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيناً فهي تقعن منه بقليل النفقة والكسوة. لكنهن لا يخرجن عن بلد़هن أبداً، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاها على أن تخرج من بلدَها لم تفعل. وعلماء تلك البلاد وفقها ها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق. لقيت بمدينة زيد الشيخ العالم الصالح أباً محمد الصناعي، والفقير الصوفي المحقق أباً العباس الإبياني، والفقير المحدث أباً علي

(١) أي: ليست واقعة على شط البحر وساحله.

الزبيدي . ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ودخلت حدائقهم ، واجتمعت عند بعضهم بالفقير القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن . ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني ، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات .

كرامة

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل ، فجلس لهم خارج الزاوية ، واستقبلهم أصحابه . ولم يبرح الشيخ عن موضعه ، فسلموه عليه ، وصافحهم ورحب بهم . ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر . وكانت يقولون أن لا قدر ، وأن المكلف يخلق^(١) أفعاله . فقال لهم الشيخ فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا . فأرادوا القيام فلم يستطعوا . وتركهم الشيخ على حالم ودخل الزاوية . وأقاموا كذلك ، واشتد بهم الحر ، ولحقهم وهج الشمس ، وضجوا مما نزل بهم . فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ، ورجعوا عن مذهبهم الفاسد ، فخرج عليهم الشيخ ، فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع إلى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته ، فأقاموا في ضيافته ثلاثة وانصرفوا إلى بلادهم . وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح ، وهو بقرية يقال لها : غسانة خارج زبيد . ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل ، فأضافني وبت عنده ، وزرت ضريح الشيخ ، وأقمت معه ثلاثة . وسافرت في صحبته إلى زيارة الفقير أبي الحسن الزيلي ، وهو من كبار الصالحين ، ويقدم عليه حجاج اليمن إذا توجهوا للحج . وأهل تلك البلاد

(١) وَهُمْ أَبْنَاءُ بَطْوَةً فِي نَقْلِهِ عَنْ عِقِيدَةِ الْزِيْدِيَّةِ، فَهُمْ لَا يَنْفُونَ الْقَدْرَ، وَهُمْ عَلَى مَذَهَبِ الْمُعْتَلَةِ فِي أَنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ أَفْعَالَهُ بِقَدْرِ خَلْقِهِ اللَّهُ لَهُ . وَالَّذِينَ يَنْفُونَ الْقَدْرَ هُمْ: الْقَدْرِيَّةُ أَبْنَاءُ مَعْبُودِ الْجَوْفِيِّ، وَإِنَّمَا كَانَ الْزِيْدِيَّةُ عَلَى مَذَهَبِ الْمُعْتَلَةِ، لِأَنَّ الْإِمَامَ زَيْدَ بْنَ عَلَى زَيْنَ الْعَابِدِيْنَ بْنَ الْحَسِينِ بْنَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانَ تَلَمِيْذًا لِوَاصِلَ بْنَ عَطَاءَ، رَأْسَ الْمُعْتَلَةِ.

وأعراها يعظمونه ويحترمونه. فوصلنا إلى جبلة، وهي بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأهوار. فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه. وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام، ثم انصرفنا. وبعث معنا أحد القراء، فتوجهنا إلى مدينة تَعْزَ حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المثلثة وكسر العين المهملة وزاء)، وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها، وأهلها ذوو تجربة وفظاظة. وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك. وهي ثلاثة محلات: إحداها يسكنها السلطان وماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا ذكره، والثانية يسكنها الأمراء والأجناد وتسمى عدينة، والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظيم وتسمى المحالب.

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزير الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول، شهر جده برسول لأن أحد خلفاءبني العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميراً، ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه. وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبي قصد بي إلى قاضي القضاة الإمام المحدث صفي الدين الطبراني المكي، فسلمتنا عليه ورحب بنا، وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثة. فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس، دخل بي عليه فسلمت عليه، وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته، ثم يرفعها إلى رأسه، ويقول: أَدَمُ اللَّهُ أَعْزُكَ. فعلت كمثل ما فعله القاضي عن يمين الملك، وأمرني، فقعدت بين يديه. فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد^(١) رضي الله عنه، وعن ملك مصر

(١) يقصد السلطان أبو سعيد المرینی سلطان فاس.

وملك العراق وملك اللور ، فأجبته عما سأله من أحواهم ، وكان وزيره بين يديه ، فأمره بإكرامي وإنزالي . وترتيب قعود هذا الملك أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بشباب الحرير ، وعن يمينه ويساره أهل السلاح ، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ، ويليهم أصحاب القسيّ ، وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر وأمير جنadar على رأسه ، والشاوشية ، وهم من الجنادرة وقوف على بعد . فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة : بسم الله . فإذا قام فعلوا مثل ذلك ، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه وقت قعوده . فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة ، لا يتعدى أحد موضعه ، ولا يقدر إلا من أمر بالقعود . يقول السلطان للأمير جنadar مُـ فلاناً يقدر ، فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلاً ، ويقدر على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ، ثم يؤتى بالطعام ، وهو طعامان طعام العامة وطعم الخاصة . فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف ، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد . وجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم أحداً . وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه . فلا أعلم أن سلطان الهند أخذوا ذلك عن سلطان اليمن أم سلطان اليمن أخذوه عن سلطان الهند . وأقيمت في ضيافة سلطان اليمن أيام ، وأحسن إلي وأركبني ، وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء ، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى . مدينة كبيرة حسنة العمارة ، بناؤها بالأجر والجص ، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع ، معتدلة الهواء طيبة الماء ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان . فالمسافرون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم لأن

أمطارها وابلة متدايقه ، والمدينة مفروشه كلها . فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها . وجامع صناعه من أحسن الجماع ، وفيه قبر نبي من الأنبياء عليهم السلام . ثم سافرت منها إلى مدينة عدن ، مرسى بلاد اليمن ، على ساحل البحر الأعظم . والجبال تحف بها ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد ؛ وهي مدينة كبيرة ، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء ، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر . والماء على بعد منها ، فربما منعه العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانوهم بالمال والثياب . وهي شديدة الحر . وهي مرسي أهل الهند . تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتنانه وكولم و قالقوط و فندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها ، وتجار الهند ساكنون بها ، وتجار مصر أيضاً . وأهل عدن ما بين تجار وحالين وصيادين للسمك . وللتجار منهم أموال عريضة ، وربما يكون لأحد هم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال ، وهم في ذلك تفاخر و مباهاة .

حكاية

ذكر لي أن بعضهم بعث غلاماً له ليشتري له كبشًا ، وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك أيضاً ، فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم إلا كبش واحد . فوقيت المزايدة فيه بين الغلامين ، فأنهى ثمنه إلى أربعين دينار . فأخذه أحدهما وقال : إن رأس مالي أربعين دينار ، فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن ، وإن دفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي ، وذهب بالكبش إلى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار ، وعاد الآخر إلى سيده خائباً فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه . ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفاري . فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار . وله غلامان وخدمان أكثر من ذلك . مع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح

ومكارم أخلاق ، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ، ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي ، وكان والده من العبيد الحالين . واشتغل ابنه بالعلم ، فرأس وсад . وهو من خيار القضاة وفضلاهم . أقمت في ضيافته أيامًا ، وسافرت من مدينة عدن في البحر أربعة أيام ، ووصلت إلى مدينة زيلع وهي مدينة البرابرة ، وهم طائفة من السودان شافية المذهب ، وببلادهم صحراء مسيرة شهرین . أولها زيلع ، وآخرها مقدشو . ومواشيهم الجمال ، وهي أغنام مشهورة السمن . وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثراهم رافضة . وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة ، إلا أنها أقدر مدينة في العمور وأوحشها وأكثراها نتناً . وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة . ولما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم نيت بها لقدرها . ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو^(١) (وضبط اسمها بفتح الميم وإسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) ، وهي مدينة متناهية في الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم . و لهم أغنام كثيرة ، وأهلها تجار أقوياء ، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها . ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها . ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق ، وهي القوارب الصغار إليه . ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتي كل واحد منهم بطريق مغطى فيه الطعام ، فيقدمه لتأجر من تاجر المركب ، ويقول : هذا نزيله . وكذلك يفعل كل واحد منهم . ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلا من كان كثير التردد إلى البلد ، وحصلت له معرفة أهله ، فإنه ينزل حيث شاء . فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشتري له ، ومن اشتري منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله ، فذلك البيع مردود

(١) عاصمة جمهورية الصومال الآن وتعرف بمقديشو .

عندهم . ولم منفعة في ذلك . ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إلى بعضهم فقال له أصحابي : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه . فصاح بأصحابه وقال لهم : هذا نزيل القاضي ، وكان فيها أحد أصحاب القاضي عرفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر في جلة من الطلبة ، وبعث إلى أحدهم . فنزلت أنا وأصحابي وسلمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : بسم الله توجه للسلام على الشيخ . فقلت : ومن الشيخ ؟ فقال : السلطان . وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ . فقلت له : إذا نزلت توجهت إليه . فقال لي : إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم إليه كما طلبوا .

ذكر سلطان مقدشو

سلطان مقدشو كما ذكرناه ، إنما يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر ابن الشيخ عمر . وهو في الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقديسي ، ويعرف اللسان العربي . ومن عوائده أنه متى وصل مركب ، يصعد إليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم ومن صاحبه ومن ربانيه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم ، فيعرف بذلك كله ، ويعرض على السلطان . فمن استحق أن ينزل عنده أنزله . ولما وصلت مع القاضي المذكور ، وهو يعرف بابن البرهان ، المصري الأصل ، إلى دار السلطان ، خرج بعض الفتىـان فسلم على القاضي ، فقال له : بلغ الأمانة . وعرف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ ، ثم عاد وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والقوفل ، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطي للقاضي كذلك ، وأعطي لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق ، وجاء بقمق من ماء الورد الدمشقي ، فسكب على وعلي القاضي ، وقال : إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة ، وهي دار معدة لضيافة الطلبة . فأخذ القاضي بيدي ، وجيئنا إلى تلك الدار ، وهي بمقربة من دار

الشيخ، مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه. ثم أتي بالطعام من دار الشيخ، ومعه أحد وزرائه، وهو الموكيل بالضيوف، فقال: مولانا يسلم عليكم، ويقول لكم قدمنا خير مقدم. ثم وضع الطعام، فأكلنا. وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن، يجعلونه في صحفة خشب كبيرة، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول. ويطبخون الموز قبل نضوجه في اللبن الحليب، ويجعلونه في صحفة، ويجعلون اللبن المرقوب في صحفة، ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنب، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة، وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة، وتؤكل كالفاكهه، وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل. وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات.

والواحد من أهل مدنشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة لهم. وفي نهاية من ضخامة الأجسام وسمتها. ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي. وأقمنا ثلاثة أيام، يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم، وتلك عادتهم.

فلما كان اليوم الرابع، وهو يوم الجمعة، جاء في القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ، وأنوبي بكسوة. وكسوتهم فوطة خز يشدّها الإنسان في وسطه عوض السراويل، فإنهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي مبطنة، وعمامه مصرية معلمة. وأتوا لأصحابي بكسى تناسبهم. وأتينا الجامع، فصلينا خلف المقصورة. فلما خرج الشيخ من باب المقصورة، سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي، ثم قال باللسان العربي: قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا. وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده، وهو مدفون هناك، فقرأ ودعا. ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا. وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن، يضع سبابته في الأرض ثم يجعلها

على رأسه، ويقول: أدام الله عزك. ثم خرج الشيخ من باب المسجد، فلبس
نعليه، وأمر القاضي أن ينتعل، وأمرني أن أنتعل، وتوجه إلى منزله ماشياً، وهو
بالقرب من المسجد، ومشي الناس كلهم حفاة. ورفعت فوق رأسه أربع قباب
من الحرير الملون، وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب. وكان لباسه في
ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر، وتحتها من ثياب مصر وطروحتها الحسان.
وهو متقلد بفوطة حرير. وهو معتم بعمامة كبيرة. وضربت بين يديه الطبول
والأبواق والأنفار. وأمراء الأجناد أمامه وخلفه، والقاضي والفقهاء والشرفاء
معه. ودخل إلى مشوره على تلك الهيئة. وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد
في سقيفة هنالك. وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه، والفقهاء
والشرفاء معه. ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر. فلما صلوا العصر مع الشيخ،
أتى جميع الأجناد، ووقفوا صفوفاً على قدر مراتبهم. ثم ضربت الأطفال والأنفار
والأبواق والصرنایيات، وعند ضربها لا يتحرك أحد، ولا يتزحزح من مقامه،
ومن كان ماشياً وقف، فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام، فإذا فرغ من ضرب
الطلخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه، وانصرفوا. وتلك عادة لهم في كل يوم
جمعة. وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف
خارج الدار، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج
إلى المشور الثاني، فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي
على دكانة وحده، وكل صنف على دكانة تخصهم، لا يشاركون فيها سواهم. ثم
يجلس الشيخ بمجلسه، ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره، ثم يدخل الفقهاء
فيقعد كباراً لهم بين يديه، وسلام سائرهم يسلمون وينصرفون. ثم يدخل الشرفاء،
فيقعد كباراً لهم بين يديه، وسلام سائرهم وينصرفون. وإن كانوا ضيوفاً جلسوا
عن يمينه، ثم يدخل المشايخ والحجاج، فيجلس كباراً لهم وسلم سائرهم
وينصرفون. ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد، طائفة بعد طائفة

أخرى ، فيسلمون وينصرفون . ويؤتى بالطعام ، فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم . وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم . ويأكل سائر الناس بدار الطعام ، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ . ثم يدخل الشيخ إلى داره ، ويقصد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات ، فما كان متعلقاً بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى ، وهم الوزراء والأمراء . وما كان مفتقرًا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه ، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم .

ثم ركبت من مدينة مقدشو متوجهاً إلى بلاد السواحل قاصداً مدينة كُلُوا^(١) من بلاد الزنوج . فوصلنا إلى جزيرة مَنْبِسَي^(٢) (وضبط اسمها ميم مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهملاً مفتوح وباء) ، وهي كبيرة ، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر . ولا بَرَّ لها ، وأشجارها : الموز والليمون والأترج . ولم فاكهة يسمونها الجمون ، وهي شبه الزيتون ، ولها نوى كنواه ، إلا أنها شديدة الحلاوة . ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة ، وإنما يجلب اليهم من السواحل . وأكثر طعامهم الموز والسمك . وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والشنان . وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيستقون منها الماء بقدر خشب ، قد غرز فيه عود رقيق في طول الذارع . والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل . ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يسع بها رجلية . ومن أراد الوضوء أمسك القدرح بين فخذيه

(١) ذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم : كِلُوه بكسر الكاف وسكون اللام وفتح الواو وهاء .

(٢) وهي الآن : مدينة مُبْسَيًّا ميناء كينيا .

وصب على يديه . ويتوضاً . وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام . وبتنا بهذه الجزيرة ليلة ، وركبنا البحر إلى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) ، وهي مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحکمو السواد . وهم شرطات في وجوههم ، كما هي في وجوه اليمين من جنادة . وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفاله على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سفاله ويوفي من بلاد اليمين مسيرة شهر ، ومن يوفي يؤتى بالتمر إلى سفاله . ومدينة كلوا من أحسن المدن وأنقذها عارة ، وكلها بالخشب . وسقف بيوتها الديس . والأمطار بها كثيرة . وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد مع كفار الزنوج . والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافية المذهب .

ذكر سلطان كلوا

وكان سلطانها في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن . ويكنى أيضاً أباً المواهب ، لكثرة مواهبه ومكارمه . وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج ، يغیر عليهم ويأخذ الغنائم ، فيخرج خسها ويصرفة في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة . فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والهزار وسواها . ورأيت عنده من شرفاء الهزار جماعة منهم محمد بن جاز ومنصور بن لبيدة ابن أبي نعي ومحمد بن شميلة ابن أبي نعي . ولقيت بمقدشو أتيل بن كيش بن جاز ، وهو يرید القدوم عليه . وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف .

حكایة من مکارمه

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصداً إلى داره ، فتعرض له أحد القراء اليمينين فقال له : أباً المواهب ، فقال : ليك يا فقير ما حاجتك ؟ قال :

أعطي هذه الثياب التي عليك . فقال له : نعم ، أعطيكها . قال : الساعة ، قال : نعم ، الساعة . فرجع إلى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثياباً سواها ، وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : أدخل فخذها ، فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف . فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ، وأخذ ابنه ولـي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك فأمر للقـير أيضاً بعشرة رؤوس من الرقيق وحلـين من العاج . ومعظم عطـاـياتـهم من العاج ، وقلـما يعطـونـ الذهب .

ولما توفي هذا السلطان الفاضل الـكـرـيم رحـمة الله عليه ، ولـي أخـوه دـاـودـ . فـكانـ علىـ الضـدـ ، إـذـاـ أـتـاهـ سـائـئـ يـقـولـ لـهـ : مـاتـ الـذـيـ كـانـ يـعـطـيـ ، وـلـمـ يـتـرـكـ مـنـ بـعـدـهـ مـاـ يـعـطـيـ . وـيـقـيمـ الـوـفـوـدـ عـنـدـ الشـهـوـدـ الـكـثـيـرـةـ ، وـحـيـنـئـ يـعـطـيـمـ الـقـلـيلـ ، حـتـىـ انـقـطـعـ الـوـافـدـوـنـ عـنـ بـابـهـ .

وركـناـ الـبـحـرـ مـنـ كـلـوـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ ظـفـارـ الـحـمـوضـ^(١) (وـضـبـطـ اـسـمـهـ بـفـتـحـ الـظـاءـ الـعـجمـ وـالـفـاءـ وـآخـرـهـ رـاءـ مـبـنـيةـ عـلـىـ الـكـسـرـ) ، وـهـيـ آخـرـ بـلـادـ الـيـمـنـ عـلـىـ سـاحـلـ الـبـحـرـ الـهـنـديـ ، وـمـنـهـ تـحـمـلـ الـخـيـلـ الـعـتـاقـ إـلـىـ الـهـنـدـ . وـيـقـطـعـ الـبـحـرـ فـيـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الـبـلـادـ الـهـنـدـ مـعـ مـسـاعـدـةـ الـرـيـحـ فـيـ شـهـرـ كـامـلـ ، قـدـ قـطـعـتـهـ مـرـةـ فـيـ قـالـقـوـطـ مـنـ بـلـادـ الـهـنـدـ إـلـىـ ظـفـارـ فـيـ ثـمـانـيـةـ وـعـشـرـيـنـ يـوـمـاـ بـالـرـيـحـ ، وـلـمـ يـنـقـطـعـ لـنـاـ جـرـيـ بالـلـلـيـلـ وـلـاـ بـالـنـهـارـ . وـبـيـنـ ظـفـارـ وـعـدـنـ فـيـ الـبـرـ مـسـيـرـةـ شـهـرـ فـيـ صـحـراءـ ، وـبـيـنـهـ وـبـيـنـ حـضـرـمـوـتـ سـتـةـ عـشـرـ يـوـمـاـ ، وـبـيـنـهـ وـبـيـنـ عـمـانـ عـشـرـوـنـ يـوـمـاـ .

ومـدـيـنـ ظـفـارـ فـيـ صـحـراءـ لـأـقـرـيـةـ بـهـ وـلـاـ عـمـالـةـ لـهـ ، وـالـسـوقـ خـارـجـ المـدـيـنـةـ بـرـبـصـ يـعـرـفـ بـالـحـرـجـاءـ ، وـهـيـ مـنـ أـقـدـرـ الـأـسـوـاقـ وـأـشـدـهـ تـنـتـاـ وـأـكـثـرـهـ ذـبـابـ ، لـكـثـرـةـ مـاـ يـبـاعـ بـهـ مـنـ الـثـمـرـاتـ وـالـسـمـكـ . وـأـكـثـرـ سـمـكـهـ النـوـعـ الـمـعـرـوـفـ بـالـسـرـدـيـنـ ،

(١) في إحدى طبعات الكتاب : الحبوسي .

وهو بها في النهاية من السمن . ومن العجائب أن دواهيم إنما علفها من هذا السردين وكذلك غنائمهم . ولم أر ذلك في سواها . وأكثر باعتها الخدم ، وهن يلبسن السواد . وزرع أهلها الذرة ، وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . وكيفية سقيهم أنهم يصنعون دلواً كبيرة ، ويجعلون لها حبلاً كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ، ويجررون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبونها في صهريج يسوقون منه . ولهن قمح يسمونه العلس وهو في الحقيقة نوع من السلت ، والأرز يجلب إليهم من بلاد الهند ، وهو أكثر طعامهم . ودرارهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ، ولا تنفق في سواها . وهم أهل تجارة لاعيش لهم إلا منها ، ومن عادتهم أنه إذا وصل مركب من الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل ، وصعدوا في صنبوق إلى المركب ، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله ، وللربان وهو الرئيس ، وللكراني وهو كاتب المركب ، ويؤتى إليهم ثلاثة أفراس فيربونها ، وتضرب أمامهم الأطبال والأبواق من ساحل البحر إلى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير الجند ، وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثة ، وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان .

وهم يفعلون ذلك استجلاباً لأصحاب المراكب . وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ، ولباسهم القطن ، وهو يجلب إليهم من بلاد الهند . ويشدون الفوط في أوساطهم عوضاً عن السروال ، وأكثراهم يشد فوطة في وسطه ، ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ، ويفتشلون مرات في اليوم . وهي كثيرة المساجد . ولهن في كل مسجد مظاهر كثيرة معدة للاحتفال . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً .

والغالب على أهلها رجالاً ونساء المرض المعروف بداء الفيل ، وهو انتفاخ القدمين . وأكثر رجالهم مبتلون بالأدر^(١) والعياذ بالله ومن عوایدهم الحسنة التصافع

(١) الأدر: انتفاخ الخصيتين.

في المسجد إثر صلاة الصبح والعصر ، يستند أهل الصف الأول إلى القبلة ، ويصافحهم الذين يلوّنهم . وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة ، يتصافحون أجمعون . ومن خواص هذه المدينة وعجائبها أنه لا يقصدها أحد بسوء إلا عاد عليه مكروره ، وحيل بينه وبينها .

وذكر لي أن السلطان قطب الدين قمتهن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة من البر والبحر ، فأرسل الله سبحانه عليه ريحًا عاصفةً كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها . وكذلك ذكر أن الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير ، برسم انتزاعها من يد ملكها ، وهو أيضًا ابن عمه ، فلما خرج ذلك الأمير من داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعاً . ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبتها . ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم . نزلت بدار الخطيب بمسجدها الأعظم ، وهو عيسى بن علي ، كبير القدر كريم النفس . فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب ، إحداهم اسمها بختة والأخرى زاد المال . ولم أسمع هذه الأسماء في بلد سواها . وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة ، لا يجعلون عليها العمام . وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص ، معلقة في البيت ، يصلّي عليها صاحب البيت ، كما يفعل أهل المغرب . وأكلهم الذرة . وهذا التشابه كله مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير . وبقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى ، من أهل ظفار . وهذه الزاوية معظمة عندهم ، يأتون إليها غدواً وغشاً ، ويستجرون بها . فإذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه . رأيت بها شخصاً ذكر لي أن له بها مدة سنين مستجيراً لم يتعرض له السلطان .

وفي الأيام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان ، وأقام فيها حتى وقع

بينها الصلح. أتيت هذه الزاوية، فبنت بها في ضيافة الشيوخين أبي العباس أحد وأبي عبدالله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور، وشاهدت لها فضلاً عظيماً، ولما غسلنا أيدينا من الطعام أخذ أبو العباس منها ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه، وبعث الخادم بباقيه إلى أهله وأولاده فشربواه. وكذلك يفعلون بن يتوصمون فيه الخير من الواردين عليهم. وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الله الزبيدي، وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه، ولا يكل ذلك إلى غيره. وبقرية من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث، وهي معظمة عندهم، ويستجير بها من طلب حاجة، فتقضى له. ومن عادة الجند أنه إذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم، استجاروا بهذه التربة، وأقاموا في جوارها إلى أن يعطوا أرزاقهم.

وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الأحقاف، وهي منازل عاد. وهناك زاوية ومسجد على ساحل البحر، وحوله قرية لصيادي السمك. وفي الزاوية قبر مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقد ذكرت أن بمسجد دمشق موضعاً مكتوب عليه: هذا قبر هود بن عابر. والأشبه أن يكون قبره بالأحقاف لأنها بلاده، والله أعلم. وهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الحجم. وزنت بمحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية. وهو طيب المطعم شديد الحلاوة. وبها أيضاً التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند، ولا يكونان إلا في بلاد الهند، وبمدينة ظفار هذه، لشبهها بالهند وقربها منه؛ اللهم إلا أن في مدينة زبيد، في بستان السلطان شجيرات من النارجيل. وإذا قد وقع ذكر التنبول والنارجيل، فلنذكرهما، ولنذكر خصائصهما.

ذكر التنبول

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب، ويصنع له معرشات من القصب، كما تصنع لدوالي العنب، أو يغرس في مجاورة النارجيل، فيصعد فيها

كما تصعد الدوالي، وكما يصعد الفلفل. ولا ثغر للتبول. وإنما المقصود منه ورقه، وهو يشبه ورق العليق. وأطييه الأصفر. وتحنن أوراقه في كل يوم. وأهل الهند يعظمون التبول تعظيمًا شديداً، وإذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطيه خمس ورقات منه، فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها، لا سيما إن كان أميراً أو كبيراً. وإعطاؤه عندهم أعظم شأنًا وأدل على الكرامة من إعطاء الفضة والذهب. وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل، وهو شبه جوز الطيب، فيكسر حتى يصير أطرافاً صغراً، ويجعله الإنسان في فمه ويعلكه، ثم يأخذ ورق التبول، فيجعل عليها شيئاً من التورة ويضغها مع الفوفل. وخاصيته أنه طيب النكهة، ويدهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق، ويفرح آكله، ويعين على الجماع. ويجعله الإنسان عند رأسه ليلاً فإذا استيقظ من نومه، أو أيقظه زوجته أو جاريته أخذ منه، فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة. ولقد ذكر لي أن جواري السلطان والأمراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره، وسند ذكره عند ذكر بلاد الهند.

ذكر النارجيل

وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأنًا وأعجبها أمراً، وشجره شبه شجر التخل لا فرق بينهما، إلا أن هذه تثمر جوزاً، وتلك تثمر ثمرة. وجوزها يشبه رأس ابن آدم، لأن فيها شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدماغ إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر، وهم يصنعون به حبالاً يخيطون به المراكب عوضاً عن مسامير الحديد، ويصنعون منه الحبال للمراكب. والجوزة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المهل، تكون بمقدار رأس الآدمي. ويزعمون أن حكمة الهند في غابر الزمان كان متصلةً بملك من الملوك

ومعظمه لديه ، وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكم معاادة . فقال الحكم للملك : إن رأس هذا الوزير إذا قطع ودفن تخرج منه خلقة شمر بشر عظيم ، يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا . فقال له الملك : فإن لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته ، قال : إن لم يظهر ، فاصنع برأسي كما صنعت برأسه . فأمر الملك برأس الوزير فقطع ، وأخذه الحكم ، وغرس نواة تم في دماغه ، وعالجها حتى صارت شجرة ، وأثمرت بهذا الجوز . وهذه الحكاية من الأكاذيب ، ولكن ، ذكرناها لشهرتها عندهم . ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن وإسراع السمن والزيادة في حرمة الوجه . وأما الإعانة على الباءة فعله فيها عجيب . ومن عجائبها إنه يكون في ابتداء أمره أخضر . فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوز شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة . ومزاجه حار معين على الباءة . فإذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم ، فيكون طعمه كطعم البيضة إذا شربت ولم يتم نضجها كل التمام ، ويتجذب فيه . ومنه كان غذائي أيام إقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة عام ونصف عام . وعجباته أن يصنع منه الزيت والخليل والعسل . فاما كيفية صناعة العسل منه فإن خدام التخل منه ، ويسمون الفازانية ، يصدعون إلى التخلة غدوأ وعشياً إذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل ، وهم يسمونه الأطواق ، فيقطعون العذق الذي يخرج منه الشمر ، ويتركون منه مقدار إصبعين ، ويربطون عليه قدرأ صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق . فإذا ربطة غدة ، صعد إليها عشياً ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور ، أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر ، وينجر من العذق قليلاً ويربط عليه القدر ثانية ، ثم يفعل غدة كفعله عشياً ، فإذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ ماء العنب إذا صنع منه الرب ، فيصير عسلاً عظيم النفع طيباً ، يشتريه تجار الهند واليمن والصين ،

ويحملونه إلى بلادهم، ويصنعون منه الحلواه. وأما كيفية صنع الخليب منه فإن بكل دار شبه الكرسي، تجلس فوقه المرأة، ويكون بيدها عصا، في أحد طرفيها حديدة مشرفة، فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديد، ويجرشون ما في باطن الجوزة، وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة، حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء، ثم يرس ذلك الجريش بالماء، فيصير كلون الخليب بياضاً، ويكون طعمه كطعم الخليب، ويتندم به الناس. وأما كيفية صنع الزيت فإنه يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره، فيزيلون قشره ويقطعونه قطعاً ويجعل في الشمس، فإذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته، وبه يستصحون. ويوضع الناس في شعورهم، وهو عظيم النفع.

ذكر سلطان ظفار

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز ابن عم ملك اليمن. وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن. وله عليه هدية، يبعثها له في كل سنة. ثم استبد الملك المغيث بملكها، وامتنع من إرسال الهدية. وكان من عزم ملك اليمن على محاربته، وتعيين ابن عمه ووقوع الحائط عليه ما ذكرناه آنفاً. وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن، عظيم فسيح، والجامع يازاته. ومن عادته أن تضرب الطبول والبوقات والأفخار والصرنایات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر؛ وفي كل يوم إثنين وخيس تأقى العساكر إلى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون، والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد إلا في يوم الجمعة، فيخرج للصلوة ثم يعود إلى داره. ولا يمنع أحد من دخول المشور، وأمير جندار قاعد على بابه، وإليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية، وهو يطالع السلطان، ويأتيه الجواب للحين. وإذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلامه وماليكه إلى خارج المدينة، وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش

بالذهب ، فيركب السلطان ونديه في المحمل بحيث لا يرى . وإذا خرج إلى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبته ونزل عن الجمل . وعادته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكایة ولا غيرها ، ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب . فتجد الناس إذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها . وزیر هذا السلطان الفقيه محمد العدنی ، وكان معلم صبيان ، فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة ، وعاهده على أن يستوزره إن ملك . فلما ملك استوزره ، فلم يكن يحسنها ، فكان الاسم له والحكم لغيره . ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مرکب صغير لرجل يعرف بعلي بن إدريس المصيري من أهل جزيرة مصرة . وفي الثاني لركبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب ، صيادون للسمك ، ساكنون هنالك ، وعندهم شجر الكندر ، وهو رقيق الورقة . وإذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ، ثم عاد صمغاً . وذلك الصمغ هو اللبن وهو كثير جداً هنالك . ولا معيشة لأهل ذلك المرسى إلا من صيد السمك ، وسمكهم يعرف باللَّخْم (بناء معجم مفتوح) ، وهو شبيه كلب البحر . يُشرح ويقدّد ويقتات به . وبيوتهם من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال . وسرنا من مرسى حاسك أربعة أيام ووصلنا إلى جبل لمعان (بضم اللام) ، وهو في وسط البحر ، وبأعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك ، وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر .

ذكر ولی لقیناه بهذا الجبل

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه إلى هذه الرابطة ، فوجدنا بها شيخاً نائماً ، فسلمنا عليه فاستيقظ ، وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا ، وكان يحرك رأسه . فأناه أهل المركب بطعام ، فأبى أن يقبله . فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك

شفيه ولا نعلم ما يقول ، وعليه مرقعة وقلنسوة لبد ، وليس معه ركوة ولا إبريق ولا عكاز ولا نعل . وقال أهل المركب : إنهم ما رأوه قط بهذا الجبل . وأقمنا تلك الليلة بساحل الجبل ، وصلينا معه العصر والمغرب ، وجئناه بطعام فرده ، وأقام يصلي إلى العشاء الآخرة . ثم أذن وصلينا معه . وكان حسن الصوت بالقراءة مجيداً لها ، ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أومأ إلينا بالانصراف ، فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره . ثم إني أردت الرجوع إليه لما انصرفنا ، فلما دنوت منه غلب علي الخوف ، ورجعت إلى أصحابي وانصرفت معهم ، وركبنا البحر ، ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة الطير ، وليست بها عمارة . فأرسينا وصعدنا إليها ، فوجدناها ملائكة بطيور تشبه الشقاشق ، إلا أنها أعظم منها . وجاءت الناس بيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها ، واصطادوا جلة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها . وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصرة ساكن بظفار اسمه مسلم ، ورأيته يأكل معهم تلك الطيور ، فأنكرت ذلك عليه ، فاشتد خجله وقال لي : ظنت أنهم ذبحوها . وانقطع عني بعد ذلك من الخجل ، فكان لا يقربني حتى أدعوه به . وكان طعامي في تلك الأيام بذلك المركب التمر والسمك . وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكاً يسمى بالفارسية شير ماهي ، ومعناه أسد السمك ، لأن شير هو الأسد ، وما هي السمك . وهو يشبه الحوت المسمى عندنا بتارزت ، وهم يقطعونه قطعاً وي Shawونه ويعطون كل من في المركب قطعة ، لا يفضلون أحداً على أحد ولا صاحب المركب ولا سواه ، ويأكلونه بالتمر . وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار ، فلما نفدا ، كنت أقتات من ذلك السمك في جلتهم . وعيتنا عيد الأضحى على ظهر البحر ، وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ، ودامـت إلى طلوع الشمس ، وكادت تغرقنا .

كرامة

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمى خضر ، ويدعى مولانا ، لأنه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة ، فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناؤم ، فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له : يا مولانا خضر كيف رأيت ؟ قال : كنت عند الهول أفتح عيني أنظر ، هل أرى الملائكة الذين يقبضون الأرواح جاءوا ، فلا أراهم ، فأقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الأرواح . ثمأغلق عيني ثم أفتحها ، فانظر كذلك ، إلى أن فرّ الله عنا . وكان قد تقدمنا مركب بعض التجار فغرق ، ولم ينج منه إلا رجل واحد خرج عوماً بعد جهد شديد . وأكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم أذقه قبل ولا بعد ، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن ، وصب عليه السيلان ، وهو عسل التمر ، وأكلناه . ثم وصلنا إلى جزيرة مصرية التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه ، وهي على لفظ مصرية وزيادة تاء التائيث ، جزيرة كبيرة ، لاعيش لأهلها إلا من السمك . ولم ننزل إليها بعد مرساها عن الساحل . وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكارة . وأقمنا بها يوماً ، وتوجه صاحب المركب إلى داره وعاد إلينا ، ثم سرنا يوماً وليلة ، ووصلنا إلى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ، ورأينا منها مدينة قلهات ، في سفح جبل ، فخيل لنا أنها قرية . وكان وصولنا إلى المرسى وقت الزوال أو قبله . فلما ظهرت لنا المدينة أحبت المشي إليها والمبيت بها ، وكانت قد كرهت صحبة أهل المركب ، فسألت عن طريقها ، فأخبرت أني أصل إليها العصر . فاكتريت أحد البحرين ليدلني على طريقها ، وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره ، وتركـت أصحابي مع ما كان لي بالمركـب ليـلـحـقـوا بيـ فيـ غـدـ ذـلـكـ الـيـومـ ، وأخذـتـ أـثـوابـاـ كـانـتـ ليـ ، فـدـفـعـتـهاـ

للدليل ليكفيني مؤونة حملها ، وحملت في يدي رحماً . فإذا ذلك الدليل يحب أن يستولي على أثوابي ، فأتأتي بنا إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر ، فأراد عبوره بالثياب ، فقلت له : إنما تعبّر وحدك وتترك الثياب عندنا ، فإن قدرنا الجواز جزنا ، وإلا صعدنا نطلب المجاز فرجعاً . ثم رأينا رجالاً جازوه عموماً فتحقققنا أنه كان قصده أن يغرقنا ويذهب بالثياب . فحينئذ أظهرت الشاطئ وأخذت بالحزم وشددت وسطي وكانت أهز الرمح ، فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازاً ، ثم خرجنا إلى صحراء لا ماء بها ، واشتد الأمر ، فبعث الله لنا فارساً في جماعة من أصحابه وبيد أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي . وذهبنا نحو المدينة قربة منها ، وبينها خنادق غشى فيها الأ咪ال الكثيرة . فلما جاء العشي أراد الدليل أن يميل بنا إلى ناحية البحر ، وهو لا طريق له ، لأن ساحله حجارة . فأراد أن ننشب فيها ويذهب بالثياب . فقلت له : إنما غشى على هذه الطريق التي نحن عليها ، وبينها وبين البحر نحو ميل . فلما أظلم الليل قال لنا إن المدينة قريبة ، فتعالوا غشى حتى نبيت بخارجها إلى الصباح . فخفت أن يتعرض لنا أحد في الطريق ، ولم أحقق مقدار ما بقي ، إليها ، فقلت له : إنما الحق أن نخرج عن الطريق فننام ، فإذا أصبحنا أتينا المدينة إن شاء الله . وكنت قد رأيت جلة من الرجال في سفح جبل هنالك ، فخفت أن يكونوا لصوصاً ، وقلت التستر أولى . وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك . فخرجت عن الطريق ، وقصدت شجرة من شجر أم غilan ، وقد أغيبت وأدركتني المجهد ، لكنني أظهرت قوة وتجلداً ، خوف الدليل . وأما صاحبي فمریض لا قوة له . فجعلت الدليل بيبي وبين صاحبي ، وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي ، وأمسكت الرمح بيدي ورقد صاحبي ورقد الدليل ، وبقيت ساهراً . فكلما تحرك الدليل

كلمته وأريته أني مستيقظ ، ولم نزل كذلك حتى الصبح .

ثم خرجنا إلى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق إلى المدينة ، فبعثت الدليل ليأتيانا بماء ، وأخذ صاحبي الشياطين . وكان بيننا وبين المدينة مها و خنادق . فأثنانا بالماء فشربنا ، وبذلك أوان الحر ، ثم وصلنا إلى مدينة قلهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاءً مثناة) ، فأثناها ونحن في جهد عظيم . وكانت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم يخرج من تحت أظفارها ، فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ، أن قال لنا الموكيل بالباب : لا بد لك أن تذهب معك إلى أمير المدينة ليعرف قضيتك ، ومن أين قدمت . فذهبت معه إليه فرأيته فاضلاً حسن الأخلاق ، وسألني عن حالي وأنزلني ، وأقمت عندك ستة أيام ، لا قدرة لي فيها على النهو من على قدمي لما لحقها من الآلام .

ومدينة قلهات على الساحل ، وهي حسنة الأسواق ، ولها مسجد من أحسن المساجد . حيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج . وهو مرتفع ، ينظر منه إلى البحر ، والمرسى ، وهو من عمارة الصالحة بيبي مریم ، ومعنى بيبي عندهم الحرة . وأكلت بهذه المدينة سماكاً لم آكل مثله في إقليم من الأقاليم ، وكانت أفضله على جميع اللحوم ، فلا آكل سواه . وهم يشونه على ورق الشجر ، ويجعلونه على الأرض ، ويفاكرونـه . والأرز يجلب إليهم من أرض الهند . وهم أهل تجارة ، ومعيشتهم مما يأتي إليهم في البحر الهندي . وإذا وصل إليهم مركب فرحا به أشد الفرح . وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب . وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا . فيقولون مثلاً : تأكل لا ، تمشي لا ، تفعل كذا لا . وأكثرهم خوارج . لكنهم لا يقدرون على إظهار مذهبهم ، لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمتهن ملك هرمز ، وهو من أهل السنة . وبمقرية من قلهات قرية طيب ، واسمها على

نحو اسم الطيب إذا أضافه المتكلم لنفسه. وهي من أجمل القرى وأبدعها حسناً، ذات أنهار جارية وأشجار ناضرة وبساتين كثيرة. ومنها تجلب الفواكه إلى قلها. وبها الموز المعروف بالمرواري والمرواري بالفارسية هو الجوهرى (المروار الجوهر)، وهو كثير بها، وجلب منها إلى هرمز وسواها. وبها أيضاً التنبول، لكن ورقته صغيرة. والتمر يجلب إلى هذه الجهات من عمان. ثم قصتنا بلاد عمان، فسرنا ستة أيام في صحراء، ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع. وهي خصبة ذات أنهار وأشجار وبساتين وحدائق ونخل وفاكهه كثيرة مختلفة الأجناس. ووصلنا إلى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نَزُوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاي مسكن وواو مفتوح)، مدينة في سفح جبل^(١)، تحف بها البساتين والأنهار. يأتي كل إنسان بما عنده، ويجتمعون للأكل في صحن المسجد، ويأكل معهم الوارد والصادر. ولهم نجدة وشجاعة. وال Herb قائمة فيها بينهم أبداً. وهم أباضية^(٢) المذهب. ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً، فإذا فرغوا منهاقرأ الإمام آيات من القرآن، ونشر كلاماً شبه الخطبة يُرضي فيه عن أبي بكر وعمر، ويُسكت عن عثمان وعلي. وهم أرادوا ذكر علي رضي الله عنه كانوا عنه، فقالوا: ذكر عن الرجل أو قال الرجل. ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم، ويقولون فيه: العبد الصالح قام الفتنة. ونساؤهم يكثرون الفساد، ولا غيره عندهم، ولا إنكاراً لذلك. وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك.

(١) ذكر ياقوت اسم الجبل الذي بسفحه المدينة على أنه: زروة بناء مربوطة في آخره، ويرسم اسم المدينة الآن في كثير المصادر: زروي بالف مقصورة في آخرها.

(٢) الإباضية: إحدى فرق الخوارج، وهي أقربها إلى جماعة المسلمين، ولذلك بقيت فلم تستأصل كغيرها من فرق الخوارج، وتنتشر الآن في سلطنة عمان، وفي مناطق شرق الجزائر على الحدود بينها وبين ليبيا.

ذكر سلطان عمان

وسلطانها عربي من قبيلة الأزد بن الغوث ، ويعرف بأبي محمد ابن نبهان . وأبوه محمد عندهم سمة لكل سلطان يلي عمان ، كما هي أتابك عند ملوك اللور . وعادته أن يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ، ولا حاجب له ولا وزير ، ولا يمنع أحداً من الدخول إليه من غريب أو غيره ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعين له الضيافة ، ويعطيه على قدره . وله أخلاق حسنة . ويؤكل على مائته لحم الحمار الإنساني ، وبيع بالسوق ، لأنهم قائلون بتحليله ، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ، ولا يظهرونه بمحضره . ومن مدن عمان مدينة زكي لم يدخلها ، وهي على ما ذكر لي ، مدينة عظيمة منها القرىات وشبا وكلبا وخورفكان وصحار ، وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل ، وأكثر هذه البلاد في عماله هرمز .

حكاية

كنت يوماً عند السلطان أبي محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه ، فوقفت بين يديه وقالت له : يا أبوه طغى الشيطان في رأسي . فقال لها : اذهبي واطردي الشيطان . فقالت له : لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبوه محمد . فقال لها : اذهبي فافعلي ما شئت . فذكر لي لما انصرفت عنه أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان ، وتذهب للفساد ، ولا يقدر أبوها ولا ذواه قرابتها أن يغيروا عليها ، وإن قتلوها قتلوا بها ، لأنها في جوار السلطان . ثم سافرت من بلاد عمان إلى بلاد هرمز ، وهرمز مدينة على ساحل البحر ، وتسمى أيضاً موغ أستان ، وتقابلها في البحر هرمز الجديدة ، وبينها في البحر

ثلاثة فراسخ . ووصلنا إلى هرمز الجديدة ، وهي جزيرة مدینتها تسمى جرَون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) ، وهي مدينة حسنة كبيرة لها أسواق حافلة ، وهي مرسى الهند والسندي ، ومنها تحمل سلع الهند إلى العراقيين وفارس وخراسان . وهذه المدينة سكنى السلطان ، والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم ، وأكثرها سباح وجبال ملح ، وهو الملح الداراني ، ومنه يصنعون الأواني المزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها . وطعامهم السمك والتمر المجلوب إليهم من البصرة وعمان . ويقولون بفسانهم : خرما وماهي لوت بادشاهي ، معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك . وللماء في الجزيرة قيمة ، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة ، يجتمع فيها ماء المطر . وهي على بعد من المدينة ، ويأتون إليها بالقرب فيما لأنها ويرفونها على ظهورهم إلى البحر ، يوصونها في القوارب ويأتون بها إلى المدينة . ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيها بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه راية وعيناه كأنهما بابان ، فترى الناس يدخلون في إحداها ، ويخرون من الأخرى . ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقطاراني ، وأصله من بلاد الروم ، فأضافي وزارني وألبسي ثوباً ، وأعطاني كمر الصحبة ، وهو يحتي به ، فيعين الجالس ، فيكون كأنه مستند . وأكثر فقراء العجم يتقدلونه . وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخضر والياس عليهما السلام . يذكر أنها يصليان فيه ، وظهرت له بركات وبراهين . وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر ، وأقمنا عنده يوماً ، وقد صدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة ، قد نحت غاراً لسكناه . فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له . فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرآ له وغنآ . وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع العلاقة وانقطع هنالك للعبادة ، ودفع ماله لرجل من إخوانه يتجر له به . وبتنا

عنه ليلة، فأحسن القرى وأجل، رضي الله تعالى عنه، وسيمة الخير والعبادة لائحة عليه.

ذكر سلطان هرمز

وهو السلطان قطب الدين تَمَهْنَ طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاءين الملوتين وبينهما ميم مفتوح وهاء مسكونة وآخره نون)، وهو من كرماء السلاطين، كثير التواضع حسن الأخلاق، وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ويقوم بمحقه، ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهياً للحرب مشغولاً بها مع ابني أخيه نظام الدين. فكان في كل ليلة يتيسر للقتال. والغلاء مستول على الجزيرة، فأتى إلينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عمار الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء، فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب. وأقمنا عندهم ستة عشر يوماً. فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الأصحاب: كيف نصرف ولا نرى هذا السلطان؟ فجئنا على الوزير وكانت داره في جوار الزاوية التي نزلت بها، فقلت له، إني أريد السلام على الملك. فقال: بسم الله، وأخذ بيدي فذهب بي إلى داره، وهي على ساحل البحر، والأجفان مجلسة عندها. فإذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة، وعلى رأسه عمامة، وهو مشدود الوسط بمنديل، فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك. وكان إلى جانبه ابن اخته، وهو علي شاه ابن جلال الدين الكييجي، وكانت بيني وبينه معرفة، فأنشأت أحاديثه، وأنا لا أعرف الملك، فعرفني الوزير بذلك. فخجلت منه الإقبال بالحديث على ابن اخته دونه واعتذررت، ثم قام فدخل داره، وتبعه الأمراء والوزراء وأرباب الدولة. ودخلت مع الوزير، فوجدناه قاعداً على سرير

ملكه وثيابه عليه لم يبدها وفي يده سبحة جوهر ، لم تر العيون مثلها لأن مغاصات الجوهر تحت حكمه . فجلس أحد الأمراء إلى جانبه ، وجلست إلى جانب ذلك الأمير ، وسألني عن حالي ومقدمي وعنمن لقيته من الملوك فأخبرته بذلك . وحضر الطعام فأكل الحاضرون ولم يأكل معهم ، ثم قام فودعه وانصرفت . وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدینته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة وبساتينها ، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه . فخالف عليه أخوه نظام الدين ، ودعا لنفسه وباعيه أهل الجزيرة وباعيته العساكر ، فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر إلى مدینة قلهات التي تقدم ذكرها ، وهي من جلة بلاده ، فأقام بها شهوراً وجهز المراكب وأتى الجزيرة ، فقاتله أهلها مع أخيه وهزموه . وعاد إلى قلهات ، وفعل ذلك مراراً . فلم تكن له حيلة إلا أن يراسل بعض نساء أخيه فسمته ومات . وأتى هو إلى الجزيرة فدخلها ، وفر ابنا أخيه بالخزائن والأموال والعساكر إلى جزيرة قيس ، حيث مغاص الجوهر ، وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسندي ، ويغيرون على بلاده البحريه ، حتى تخرب معظمها . ثم سافرنا من مدینة جرون برسم لقاء رجل صالح بيلد خنج بال . فلما عدنا البحر اكترينا دوابً من التركمان ، وهم سكان تلك البلاد ، ولا يسافر فيها إلا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق . وفيها صحراء مسيرة أربع ، يقطع بها الطريق لصوص الأعراب ، وتهب فيها ريح السوم في شهري تموز وحزيران ، فمن صادفه فيها قتلته . ولقد ذكر لي أن الرجل إذا قتله تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء . وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح ، وكنا نسافر فيها بالليل ، فإذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الأشجار من أم غيلان ، ونرحل بعد العصر إلى طلوع الشمس . وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جال اللئك الشهير الاسم هنالك .

حكاية

كان جال اللَّك من أهل سجستان أعمى الأصل (واللَّك بضم اللام) معناه الأقطع. وكانت يده قطعت في بعض حروبه. وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطرق. وكان يبني الزوايا ، ويطعم الوارد والصادر من الأموال التي يسلبها من الناس . ويقال : إنه كان يدعو أن لا يسلط إلا على من لا يذكر ماله ، وأقام على ذلك دهراً . وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ، ويدفون بها قرب الماء ورواياه . فإذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ، ويرجع العسكر عنهم خوفاً من الهاляك . وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ، ثم تاب وتبعد حتى مات ، وقبره يزار ببلده . وسلكنا هذه الصحراء إلى أن وصلنا إلى كُوراستان (وضبط اسمه بفتح الكاف واسكان الواو وراء) ، وهو بلد صغير فيه الأنهر والبساتين وهو شديد الحر . ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت روصلنا إلى مدينة لار (وآخر اسمها راء) ، مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين . ولها أسواق حسان ، ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذي قصدنا زيارته بخنج بال . وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ، ومعه جماعة من الفقراء . ومن عادتهم أنهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ، ثم يطوفون على دور المدينة فيعطيتهم من كل دار الرغيف والرغيفان ، فيطعمون منها الوارد والصادر . وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه في جلة قوتهم ، ويعدونه لهم إعاناً على إطعام الطعام . وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة وصلحاوتها ، ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدرام ، فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ، ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة ، وينصرفون بعد صلاة الصبح .

ذكر سلطان لار

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين ، تركاني الأصل ، بعث إلينا بضيافة . ولم نجتمع به ولا رأيناه . ثم سافرنا إلى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء وإسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) ، وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصدنا زيارته ، وبزاويته نزلنا . ولما دخلت الزاوية ، رأيته قاعداً بناحية منها على التراب ، وعليه جبة صوف خضراء بالية ، وعلى رأسه عمامه صوف سوداء ، فسلمت عليه ، فأحسن الرد ، وسألني عن مقدمي وبلادي ، وأنزلني . وكان يبعث إلى الطعام والفاكهه مع ولد له من الصالحين ، كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلة . وهذا الشيخ أبي دلف شأن عجب وأمر غريب ، فإن نفقة في هذه الزاوية عظيمة . وهو يعطي العطاء الجزيل ، ويكسو الناس ، ويركبهم الخيل ، ويحسن لكل وارد وصادر . ولم أر في تلك البلاد مثله ، ولا يعلم له جهة إلا ما يصله من الإخوان والاصحاب ، حتى زعم كثير من الناس أنه ينفق من الكون . وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال ، وله اسم بتلك البلاد شهير ، وشأن في الولاية كبير . وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه . وأقيمت عند الشيخ أبي دلف يوماً واحداً ، لاستعمال الرفقة التي كنت في صحبتها . وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتبعدين ، فرحت إليها بالعشي ، وسلمت على شيخهم وعليهم ، ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة ، فهم صفر الألوان نحاف الجسم كثيرو البكاء غزيرو الدموع . وعند وصولي إليهم أتوا بالطعام . فقال كبيرهم : ادعوا إلى ولدي محمدأ وكان معتزاً في بعض نواحي الزاوية . فجاء إلينا الولد ، وهو كائناً خرج من قبر مما نهكته العبادة ، فسلم وقعد . فقال له أبوه : يابني ، شارك هؤلاء الواردين

في الأكل تدل من بر كا لهم . وكان صائماً فأفطر معنا ، وهم شافية المذهب . فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا . ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس ، وتسمى أيضاً بسيرا ف ، وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس ، وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح واسعة ، طيبة البقعة ، في دورها بساتين عجيبة ، فيها الرياحين والأشجار الناضرة . وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها ، وهم عجم من الفرس أشراف ، وفيهم طائفة من عرببني سفاف ، وهم الذين يغوصون على الجوهر .

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيها بين سيراف والبحرين في خور راكد مثل الوادي العظيم ، فإذا كان شهر إبريل ، وشهر مايو تأتي إليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه منها أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغيلم ، وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراب ، يشده على أنفه ، ثم يربط حبلأ في وسطه ، ويغوص ، ويتفاوتون في الصبر في الماء ، فمنهم من يصبر الساعة وال ساعتين فما دون ذلك فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار ، مثبتاً في الرمل ، فيقتلعه بيده ، أو يقطعه بمديدة عنده ، معدة لذلك ، ويجعلها في مخلة جلد منوطه بعنقه ، فإذا ضاق نفسمه ، حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه إلى القارب ، فتؤخذ منه المخلة ، ويفتح الصدف فيوجد في أجوفها قطع لحم تقطع بمديدة ، فإذا باشرت الهواء جدت فصارت

جواهر^(١) ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثراهم يكون له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر في دينه أو ما وجب له منه ، ثم سافرنا من سيراف إلى مدينة البحرين ، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار ، ومؤاها قريب المؤونة يحفر عليه بالأيدي فيوجد ، وبها حدائق النخل والرمان والأثرج ، يزرع بها القطن وهي شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيها بينها وبين عُمان طريق^(٢) استولت عليه الرمال وانقطع ، فلا يصل من عمان إليها إلا في البحر ، وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسر ، وهو في غربيها ، ويسمى الآخر يعوير وهو في شرقها وبها ضرب المثل فقيل : كسر وعوير وكل غير خير ، ثم سافرنا إلى مدينة القطيف ، (وضبط اسمها بضم القاف) ، كأنه تصغير قطف ، وهي مدينة كبير حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب ، وهم رافضية غلاة ، يظهرون الرفض جهاراً لا يبقون أحداً ، ويقول مؤذنهم في أذانه بعد الشهادتين : أشهد أن علياً ولِي الله ويزيد بعد الحيلتين : حي على خير العمل ، ويزيد بعد التكبير الأخير محمد وعلى خير البشر ، من خالفهما فقد كفر . ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر وتسمى الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهماها) وهي التي يضرب المثل بها ، فيقال : كجالب التمر إلى هجر ، وبها من التخليل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم ، وأهلها عرب ، وأكثراهم من قبيلة عبد

(١) هكذا كان تصور الأقدمين لنشأة اللات في أصلها ، وليس ذلك ب صحيح ، فإن الحيوان يتخذ نواة من حبة رمل ، ويفرز إفرازات تتراء حول النواة فت تكون اللؤلؤة .

(٢) لم يكن هناك طريق يربط البحرين بعمان كما ذكر ابن بطوطه ، فالبحرين جزيرة تعرف بجزيره أولى ، وربما يكون منشأ هذا الخطأ من أن الأقدمين كانوا يطلقون على الساحل العربي للم الخليج

اسم : ساحل البحرين .

القيس بن أفعى . ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة وتسمى أيضاً بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الحيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار ، يسكنها طوائف من العرب ، أكثرهم من بني حنيفة ، وهي بلدتهم قديماً ، وأميرهم طفيلي بن غانم ، ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحج وذلك في سنة اثنين وثلاثين فوصلت إلى مكة شرفها الله تعالى . وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجلة من أمرائه ، وهي آخر حجة حجها ، وأجزل الإحسان لأهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر أنه ولده ، وقتل أيضاً كبير أمرائه بكتمور الساقي .

حكاية

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية ، فلما أراد الدنو منها قالت له : إني حامل من الملك الناصر فاعترضاً وولدت ولداً سماه بأمير أحد ، ونشأ في حجره ، فظهرت نجابتة واشتهر بابن الملك الناصر ، فلما كان في هذه الحجة تعاهد على الفتى بالملك الناصر ، وأن يتولى أمير أحد الملك ، وحمل بكتمور معه العلامات والطبوil والكسوات والأموال ، فنمي الخبر إلى الملك الناصر ، فبعث إلى أمير أحد في يوم شديد الحر ، فدخل عليه ، وبين يديه أقداح الشرب ، فشرب الملك الناصر قدحًا ، وناول أمير أحد قدحًا ثانيةً فيه السم فشربه ، وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشغل الوقت فرحة الناس ، ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحد ، فاكتثرت بكتمور لموته ، وقطع أثوابه ، وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره إلى الملك الناصر فأتاها بنفسه ولاطفه وسلامه ، وأخذ قدحًا فيه سم فناوله إياه وقال له : بحياتي عليك إلا شربت فبردت نار قلبك ، فشربه ومات من حينه ، ووجد عنده خلع السلطنة والأموال فتحقق ما نسب من الفتى بالملك الناصر . ولما انقضى الحج توجهت إلى جدة برسم ركوب البحر إلى اليمن والهند فلم يقض لي ذلك ، ولا تأتني لي رفيق ، وأقمت بجدة نحو أربعين يوماً

وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي يروم السفر إلى القصرين ، من عهالة قوص فصعدت إليه لأنظر حاله فلم يرضني ، ولا طابت نفسي بالسفر فيه وكان ذلك لطفاً من الله تعالى ، فإنه سافر ، فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له : رأس أبي محمد ، فخرج صاحبه وبعض التجار في العشاري بعد جهد عظيم ، واشرفوا على الهالك ، وهلك بعضهم ، وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج . ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب ، فرددنا الريح إلى جبل يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البر مع البجاء ، فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان ، فيها عرب جهينة وبني كاهل ، وطاعتكم للجاجة . ووردنا ماء يُعرف بمفروز ، وماء يعرف بالجديد . ونفد زادنا فاشترينا من قوم من الجاجة وجذناهم بالفلة أغناماً وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلة صبياً من العرب كلامني باللسان العربي وأخبرني أن الجاجة أسروه ، وزعم أنه منذ عام لم يأكل طعاماً ، إنما يقتات بلبن الأبل ونفد منا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ، ولم يبق لنا زاد وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحياني والبرني برسم الهدية لأصحابي ففرقته على الرفقة ، وتزودناه ثلاثة وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دواير ، وصلنا إلى عيذاب وكان قد تقدم إليها بعض الرفقة ، فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياماً واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الجنيب) ، وحللنا بجميرا ، حيث قبر ولد الله تعالى أبي الحسن الشاذلي ، وحصلت لنا زيارته الثانية ، وبيتنا في جواره ثم وصلنا إلى قرية العطواوي ، وهي على ضفة النيل ، مقابلة لمدينة إدفو من الصعيد الأعلى . وأجزنا النيل إلى مدينة أسنا ثم إلى مدينة أرمانت ثم إلى الأقصر ، وزرنا الشيخ أبو الحجاج الأقصري ثانية ثم إلى مدينة قوص ثم إلى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ، ثم إلى مدينة هو ثم إلى مدينة أخيم ثم إلى مدينة أسيوط ، ثم إلى منفلوط ، ثم إلى مدينة منلوى ، ثم إلى مدينة الأشمونين ، ثم إلى مدينة منية بن الموصي ثم إلى مدينة البهنسة ثم إلى

مدينة بوش ثم إلى مدينة منية القائد ، وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ، ثم إلى مصر وأقمت بها أياماً وسافرت على طريق بليس إلى الشام ورافقني الحاج عبدالله بن أبي بكر بن الفرhan النوزري ، ولم يزل في صحبتي سنين ، إلى أن خرجنا من بلاد الهند ، فتوفي بسندابور ، وسنذكر ذلك ، فوصلنا إلى مدينة غزة ثم إلى مدينة الخليل عليه السلام ، وتكررت لنا زيارته ، ثم إلى بيت المقدس ثم إلى مدينة الرملة ثم إلى مدينة عكا ثم إلى مدينة طرابلس ثم إلى مدينة جبلة ، وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ، ثم إلى مدينة اللاذقية ، وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركينا البحر في قرقورة كبيرة للجنوبيين يسمى صاحبها بِعَرَّاتِمِين ، وقصدنا بر التركية المعروفة بلاد الروم ، وإنما نسبت إلى الروم لأنها كانت بلادهم في القديم ، ومنها الروم الأقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمين وبها الآن كثير من النصارى تحت ذمة المسلمين من التركان وسرنا في البحر عشرأً بريح طيبة ، وأكرمنا النصراوي ولم يأخذ منها نولاً . وفي العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا ، وهي أول بلاد الروم وهذا الأقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحسن في البلاد فأهلها أجمل الناس صوراً وأنظفهم ملابس وأطيفهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة في الشام ، والشفقة في الروم وإنما عنى به أهل هذه البلاد . وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية او داراً ، يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء ، وهن لا يحتجبن فإذا سافرنا عنهم ودعونا كأنهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلاد أن يخربوا الخبز في يوم واحد من الجمعة ، يعدون فيه ما يفوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون علينا بالخبز الحار في يوم خبزه ، ومعه الإدام الطيب إطرافاً لنا بذلك ، ويقولون لنا : إن النساء بعضن هذا إليكم وهن يطلبن منكم الدعاء ، وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، مقيمين على السنة لا قدرى فيهم ولا رافضي ولا

معتزي ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فصيلة خصم الله تعالى بها . إلا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيرون ذلك . ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر ، يسكنها التركان ، وينزلها تجار مصر وإسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ، ومنها يحمل إلى اسكندرية ودمياط ، ويحمل منها إلىسائر بلاد مصر ، ولها قلعة بأعلاها عجيبة منيعة ، بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ، ولقيت بهذه المدينة قاضيها حلال الدين أرزنجاني ، وصعد معه إلى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها . وأضافني وأكرمني ، وأضافني أيضاً بها شمس الدين ابن الرجيحاني الذي توفي أبوه علاء الدين بمالى من بلاد السودان .

ذكر سلطان العلايا

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين ، وتوجهنا إلى لقاء ملك العلايا ، وهو يوسف بك ومعنى بك الملك ابن قرمان ، (بفتح القاف والراء) ومس肯ه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعداً على الساحل وحده فوق رابية هنالك ، والأمراء والوزراء أسفل منه ، والأجناد عن يمينه ويساره ، وهو مخصوص بالشعر بالسوداد ، فسملت عليه ، وسألني عن مقدمي ، فأخبرته عما سأله ، وانصرفت عنه وبعث إلى إحساناً ، وسافرت من هنالك إلى مدينة أنطاليا (وضبط اسمها بفتح المهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهمل والف لام مكسور وباء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي أنطاكية على وزنها ، الا ان الكاف عوض عن اللام ، وهي من أحسن المدن ، متناهية في اتساع الساحة والضخامة ، أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنها ترتيباً ، وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الأخرى فتجار النصارى ما كثرون منها بالوضع المعروف بالليناء ، وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة . والروم الذين كانوا أهلها قدماً ساكنون بموضع آخر منفردین به ، وعليهم أيضاً سور .

واليهود في موضع آخر ، وعليهم سور ، والملك وأهل دولته وماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضاً سور يحيط بها ، ويفرق بينها وبين ما ذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى ، وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة وأسواق ضخمة مرتبة بأبدع ترتيب ، وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواقع التي ذكرناها ، وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمس العجيب المسماى عندهم بقمر الدين وفي نواته لوز حلو وهو يبיס ويحمل إلى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة في أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموي ، ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالأصوات الحسان بعد العصر من كل يوم في المسجد الجامع ، وفي المدرسة أيضاً سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم .

ذكر الأخية الفتىـان

واحد الأخية أخي على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم جميع البلاد التركمانية الرومية في كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد في الدنيا مثلهم أشد احتفالاً بالغرباء من الناس ، وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحاجات ، والأخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ، ومن الحق بهم من أهل الشر . والأخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ، ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هي الفتوة أيضاً . وبين زاوية و يجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ويخدم أصحابه بالنهار في طلب معيشتهم ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق في الزاوية فإن ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف وإن لم يرد وارد ، اجتمعوا على طعامهم فأكلوا وغنو ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد

العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسعون بالفتیان ويسمى مقدمهم كما ذكرنا
 الأخى ولم أر في الدنيا أجمل أفعالاً منهم ويشبههم في أفعالهم أهل شيراز وأصفهان
 إلا أن هؤلاء أحب في الوارد والصادر، وأعظم إكراماً له وشفقة عليه. وفي الثاني
 من يوم وصولنا إلى هذه المدينة أتى أحد هؤلاء الفتیان إلى الشيخ شهاب الدين
 الحموي وتكلم معه باللسان التركي، ولم أكن يومئذ أفهمه، وكان عليه أثواب
 خلقة، وعلى رأسه قلنسوة لبد ، فقال لي الشيخ أتعلم ما يقول هذا الرجل؟ فقلت
 لا أعلم ما قال : فقال لي : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه ،
 وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على
 تضييفنا ، ولا نريد أن نكلفه . فضحك الشيخ وقال لي هذا أحد شيوخ الفتیان
 الأخية هو من الخرازین^(١) ، وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل
 الصناعات قد قدموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار
 انفقوه بالليل . فلما صليت المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ،
 فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثريات
 الزجاج العراقي ، وفي المجلس خمسة من البياسيين ، والبيسوس شبه المنارة من
 النحاس له أربع قدم ، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس ، وفي وسطه أنبوب
 للفتيلية ويملاً من الشحم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملائنة بالشحم ، وفيها
 مقراضاً لإصلاح الفتيل ، وأحد هم موكل بها ، ويسمى عند هم الجراجي
 (الجراجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الأقبية وفي
 أرجلهم الأخفاف وكل واحد منهم متحزم ، على وسطه سكين في طول ذراعين ،
 وعلى رؤوسهم قلنسس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها في
 طول ذراع ، وعرض إصبعين فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم
 قلنسوة ، ووضعها بين يديه . وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواء

(١) الخرازین: مفردها خرّاز وهو الإسكافي.

حسنة المنظر ، وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حاهم ، وطال عجبنا من سماحهم ، وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل ، وتركتناهم بزاویتهم .

ذكر سلطان انتالية

ولسلطانها خضر بك ابن يونس بك ، وجدناه عند وصولنا إليها عليلاً ، فدخلنا عليه بداره ، وهو في فراش المرض ، فكلمنا باللطف كلام وأحسنه وودعناه ، وبعثلينا يأحسان . وسافرنا إلى بلدة بُردوُر (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) ، وهي بلدة صغير كثيرة البساتين والأنهار ، ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها ، واجتمعت الأخية ، وأرادوا نزولنا عندهم فأبى عليهم الخطيب ، فصنعوا لنا ضيافة في بستان لأحدهم وذهبوا بنا إليها فكان من العجائب إظهارهم السرور بنا ، والاستبشار والفرح ، وهم لا يعرفون لساننا ، ونحن لا نعرف لسانهم ، ولا ترجان فيما بيننا . وأقمنا عندهم يوماً وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة إلى بلدة سِرْنَا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وبالباء الموحدة وإسكان الراء وفتح التاء المثلثة والف) وهي بلدة حسنة العمارة والأسوق كثيرة البساتين والأنهار ، لها قلعة في جبل شامخ وصلنا إليها بالعشري ، ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها إلى مدينة أكرييدُور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون الكاف وكسر الراء وباء مد وdal مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وبساتين ، ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها يومين إلى أقشور وبقشهر وغيرها من البلاد والقرى ، ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الأعظم بها المدرس العام الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديبار المصرية والشام وسكن بالعراق . وهو فصيح اللسان حسن البيان ، أطروفة من طرف الزمان ، أكرمنا

غاية الإكرام وقام بحقنا أحسن قيام .

ذكر سلطان أكريدور

وسلطانها أبو إسحاق بك ابن الدندار بك ، من كبار سلاطين تلك البلاد ، سكن ديار مصر أيام أبيه وحج ، وله سيرة حسنة ، ومن عاداته أنه يأتي كل يوم إلى صلاة العصر بالمسجد الجامع ، فإذا قضيت صلاة العصر استند إلى جدار القبلة ، وقعد القراء بين يديه على مصتبة خشب عالية ، فقرأوا سورة الفتح والملك وعمّ بأصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ، ثم ينصرف إلى داره . وأظللنا عنده شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ، ويستند إلى مخدة كبيرة ، ويجلس الفقيه مصلح الدين إلى جانبه ، وأجلس إلى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وأمراء حضرته ثم يؤتى بالطعام ، فيكون أول ما يفطر عليه ثريد في قحفة صغيرة ، عليه العدس مسقى بالسمن والسكر ، ويقدمون الثريد تبركاً ، ويقولون إن النبي ﷺ فضله على سائر الطعام فتحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان .

وتوفي في بعض تلك الأيام ولد السلطان ، فلم يزيدوا على بكاء الرحمة ، كما يفعله أهل مصر والشام ، خلافاً لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون إلى قبره بعد صلاة الصبح . وثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرأني السلطان ماشياً برجلي ، فبعث لي بفرس واعتذر ، فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال: إنما أعطيته عطية لا عارية ، وبعث إلى بكسوة ودراهم فانصرفنا إلى مدينة قلْ حصار (وضبط اسمها بضم القاف وإسكان اللام ثم حاء مهمل مكسور وصاد مهمل

وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب، قد نسبت فيها القصب، فلا طريق لها إلا طريق كالجسر مهياً بين القصب والمياه، لا يسع إلا فارساً واحداً، والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتian الأخيرة بها.

ذكر سلطان قُلْ حِصار

وسلطانها محمد جلبي وجليبي (بجم معقود ولا مفتوحين وباء موحدة وباء)، وتفسيره بلسان الروم سيدي، وهو أخو السلطان أبي إسحاق ملك أكريدور، ولما وصلنا إلى مدینته كان غائباً عنها فأقمنا بها أياماً ثم قدم فأكرمنا وأركينا وزودنا، وانصرفنا على طريق قَرَا أغاج وقرا (بفتح القاف) وتفسيره أسود (وأغاج بفتح المهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضراء يسكنها التركمان. وبعث معنا السلطان فرساناً يبلغوننا إلى مدينة لاذق. بسبب أن هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لها الجرميان يذكر أنهم من ذرية يزيد بن معاوية، ولم مدینة يقال لها: كوتاهية فعصمنا الله منهم، ووصلنا إلى مدينة لاذق، (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمى أيضاً دون غزله وتفسيره بلد الخنازير، وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة، ولها البساتين الرائقة والأنهار المطردة والعيون المنبعة، وأسواقها حسان، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها تطول أعبارها لصحة قطنها وقوتها غزلاً وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها، وأكثر الصناع بها نساء الروم، وبها من الروم كثير تحت الذمة، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال، منها الحمر والبيض. ونساء الروم لهن عيائمه كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر، بل كذلك أهل هذا الإقليم كلهم وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركونهن للفساد، وكل

واحدة عليها وظيف مالكها تؤديه له.

وسمعت هنالك ان الجواري يدخلن الحمام مع الرجال ، فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه . وذكر لي أن القاضي بها له جوارٍ على هذه الصورة . وعند دخولنا لهذه المدينة تقدم إلينا رجال من حواناتهم حتى سل بعضهم السكاكين وأخذوا بأعناء الخيل ونازעםهم آخرون على بعض ، ونحن لا نعلم ما يقولون ، فخينا منهم وظننا أنهم الجرميان الذين يقطعون الطرق ، وأن تلك مدinetهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلاً حاجاً يعرف اللسان العربي فسألته عن مرادهم منا فقال : إنهم من الفتيا ، وإن الذين سبقوا إلينا أولاؤهم أصحاب الفتى أخي سنان والآخرون أصحاب الفتى أخي طومان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندهم . فعجبنا من كرم نفوسهم . ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة ، فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولاؤ ، فوقع قرعة أخي سنان وبلغه ذلك ، فأتى إلينا في جماعة من أصحابه فسلمو علينا ونزلنا بزاوية له . وأتي بأنواع الطعام ، ثم ذهب بنا إلى الحمام ودخل معنا ، وتولى خدمتي بنفسه ، وتولى أصحابه خدمة أصحابي يخدم الثلاثة والأربعة الواحد منهم . ثم خرجنا من الحمام فأتوا بطعم عظيم وحلواوة وفاكهه كثيرة . وبعد الفراغ من الأكل قرأ القراء آيات من القرآن العزيز ، ثم أخذوا في السماع والرقص . وأعلموا السلطان بخبرنا . فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي فتوجهنا إليه وإلى ولده كما ذكره ، ثم عدنا إلى الزاوية فألفينا أخي طومان وأصحابه في انتظارنا ، فذهبوا بنا إلى زاويتهم ، ففعلوا في الطعام والحمام مثل أصحابهم ، وزادوا عليه ان صبوا علينا ماء الورد صباً بعد خروجنا من الحمام ، ثم مضوا بنا إلى الزاوية ، ففعلوا أيضاً من الاحتفال في الأطعمة والحلواوة والفاكهه وقراءة القرآن بعد الفراغ من الأكل ثم السماع والرقص كمثل ما فعله أصحابهم أو أحسن . وأقمنا عندهم بالزاوية أياماً .

ذكر سلطان لاذق

وهو السلطان يَنْتَجْ بُك (واسمه بباء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أو لا هما مفتوحة والثانية مسكونة وجيم)، وهو من كبار سلاطين بلاد الروم. ولما نزلنا بزاوية أخي سنان كما قدمناه، بعث إلينا الواعظ المذكور العالم علاء الدين القسطموني، واصطحب معه خيلاً بعدهنا، وذلك في شهر رمضان، فتوجهنا إليه وسلمنا عليه.

ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولبن الكلام وقلة العطاء. فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فأفطرنا عنه وانصرنا. وبعث إلينا بدرام، ثم بعث إلينا ولده مراد بُك، وكان ساكناً في بستان خارج المدينة، وذلك في إبان الفاكهة، وبعث أيضاً خيلاً على عدتنا، كما فعله أبوه فأتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة. وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه. ثم انصرنا غدوة، وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة، فخرجنا إلى المصلى، وخرج السلطان في عساكره، والفتيان الأخية كلهم بالأسلحة. ولأهل كل صناعة الأعلام والبوقات والطبول والأنفار، وبعضهم يفاخر ببعضه ويباهيه في حسن الهيئة وكمال الشكمة، ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحوال الخبز، فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز. ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ومنها إلى المصلى.

ولما صلينا صلاة العيد، دخلنا مع السلطان إلى منزله، وحضر الطعام. فجعل للفقهاء والشيوخ والفتيان سطاط على حدة، وجعل للقراء والمساكين سطاط على حدة. ولا يرد على بابه في ذلك اليوم فقير ولا غني، وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق. ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوماً وبعض ليلة، ووصلنا إلى حصن طَوَّاس واسمها (بفتح الطاء وتحقيق الواو وأخره سين مهمل)، وهو حصن كبير. ويدرك أن صهيباً صاحب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنه، من

أهل هذا الحصن . وكان مبيتنا بخارج بابه ، ووصلنا بالغد إلى بابه ، فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فأخبرناهم . وحينئذ خرج أمير الحصن ميناس^(١) بك في عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق ، خوفاً من إغارة السرّاق على الماشية . فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم ، وهكذا فعلهم أبداً . ونزلنا من هذا الحصن بربضة في زاوية رجل فقير وبعث إلينا أمير الحصن بضيافة وزاد ، وسافرنا منه إلى مُعلَّة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ، ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها ، وكان من الكرماء الفضلاء ، يكثر الدخول علينا بزاويته ، ولا يدخل إلا بطعم أو فاكهة أو حلواء . ولقينا بهذه البلدة إبراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس ، وسند كره ، فأكرمنا وكسانا . ثم سافرنا إلى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وباء مد وآخره سين مهملاً) ، وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه . نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الأخيرة ، ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرماء والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حيد الأفعال وجييل الأعمال . ولقينا بمدينة ميلاس رجلاً صالحًا معمراً يسمى بأبي الششتري ، ذكروا أن عمره يزيد على مائة وخمسين سنة ، وله قوة وحركة ثابت وذهنه جيد . دعا لنا وحصلت لنا بركته .

ذكر سلطان ميلاس

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرْخَان بك ابن المنشا (وضبط اسمه بضم المهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) ، وهو من خيالي الملوك ، حسن الصورة والسيرة ، جلساً وفقيهاء وهم معظمون لديه ، وببابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل . وكان السلطان في أيام لقائي له واجداً

(١) في إحدى طبعات الكتاب : إلياس بك .

عليه ، بسبب رحلته إلى مدينة أياسلوق ووصوله إلى سلطانها وقبول ما أهداه . فسألني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شأنه بما يذهب ما في خاطره ، فأثنى عليه عند السلطان ، وذكرت ما علمته من علمه وفضله ، ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه . وأحسن إلينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا . وسكناه في مدينة برجين ، وهي قريبة من ميلاس ، بينها ميلان (وضبط اسمها بفتح المودحة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) ، وهي جديدة على تل هنالك ، بها العمارات الحسان والمساجد . وكان قد بنى بها مسجداً جاماً ، لم يتم بناؤه بعد . وبهذه البلدة لقيناه . وزلنا منها بزاوية الفتى أخي علي ، ثم انصرفنا بعدما أحسن إلينا كما قدمناه إلى مدينة قونيه (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد نون مسكون مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العماره كثيرة المياه والأنهار والبساتين والفاواكة ، وبها المشمش المسمى بقمر الدين . وقد تقدم ذكره ، ويحمل منه أيضاً إلى ديار مصر والشام . وشوارعها متسعة جداً ، وأسواقها بدعة الترتيب ، وأهل كل صناعة على حدة ويقال : إن هذه المدينة من بناء الإسكندر . وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان ، وسنذكره . وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الأوقات لقوتها من بلاده التي بهذا الإقليم . نزلنا منها بزاوية قاضيها ، ويعرف بابن قلم شاه وهو من الفتيا ، وزاويته من أعظم الزوايا . وله طائفة كبيرة من التلاميذ ، وعلم في الفتوة سند يتصل إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة . وكان صنيع هذا القاضي في إكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله وأجل . وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا . وبهذه المدينة تربة الشيخ الإمام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا ، وكان كبير القدر . وبأرض الروم طائفة ينتمون ويعرفون باسمه ، فيقال لهم الجلالية ، كما تعرف الأحمدية بالعراق ، والخiderية بخسان . وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد .

حكاية

يذكر أنه كان في ابتداء أمره فقيها مدرساً، يجتمع إليه الطلبة بمدرسته بقونيه. فدخل يوماً إلى المدرسة رجل يبيع الحلوا، وعلى رأسه طبق منها، وهي مقطعة قطعاً، يبيع القطعة منها بفلس. فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ: هات طبقك. فأخذ الحلوا قطعة منه وأعطتها للشيخ. فأخذها الشيخ بيده وأكلها. فخرج الحلوا على الطلبة، وطال انتظارهم إياه، فخرجوا في طلبه فلم يعرفوا له مستقرأً. ثم إنه عاد إليهم بعد أعوام، وصار لا ينطق إلا بالشعر الفارسي المتعلق الذي لا يفهم. فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون ما يصدر عنه من ذلك الشعر، وألفوا منه كتاباً سموه المنشوي. وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه، ويعلمونه ويقرأونه بزواياهم في ليالي الجمادات. وفي هذه المدينة أيضاً قبر الفقيه أحد، الذي يذكر أنه كان معلم جلال الدين المذكور. ثم سافرنا إلى مدينة الارندة، وهي (فتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين.

ذكر سلطان الارندة

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (فتح القاف والراء)، وكانت قبله لشقيقه موسى، فنزل عنها للملك الناصر، وعوضه عنها بعوض، وبعث إليها أميراً وعسكراً، ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين، وبني بها دار مملكته، واستقام أمره بها. ولقيت هذا السلطان خارج المدينة، وهو عائد من تصيده، فنزلت له عن دابتي، فنزل هو عن دابته، وسلمت عليه. وأقبل علي. ومن عادة ملوك هذه البلاد أنه إذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له، وأعجبهم فعله

وزادوا في إكرامه . وإن سلم عليهم راكباً ساءهم ذلك ولم يرضهم ، ويكون سبباً لحرمان الوارد . وقد جرى لي ذلك مع بعضهم وسأذكره . ولما سلمت عليه وركب وركبت ، سألي عن حالي وعن مقدمي ، ودخلت معه المدينة . فأمر يانزالي أحسن نزل . وكان يبعث الطعام الكثير والفاكهه والحلواء في طيافير الفضة والشمع ، وكسا وأركب وأحسن ، ولم يطل مقامنا عنده ، وانصرفنا إلى مدينة أقصراً (وضبطها بفتح المهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) ، وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها . تخف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ، ويشق المدينة ثلاثة أنهار ، ويجري الماء بدورها ، وفيها الأشجار ودوالي العنبر ، وداخلها بساتين كثيرة . وتصنع بها البسط المنسوبة إليها من صوف الغنم لا مثل لها في بلد من البلاد ، ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وببلاد الآثراك . وهذه المدينة في طاعة ملك العراق . ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الأمير أرتنا ، وأرتنا هو النائب عن ملك العراق ، فيما تغلب عليه من بلاد الروم . وهذا الشريف من الفتىان وله طائفة كثيرة وأكرمنا إكراماً متناهياً ففعل أفعال من تقدمه .

ثم رحلنا إلى مدينة نَكْدَة (وضبط اسمها بفتح النون وإسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) ، وهي من بلاد ملك العراق . مدينة كبيرة كثيرة العماره ، قد تخرب بعضها . ويشقها النهر المعروف بالنهر الأسود ، وهو من كبار أنهار ، عليه ثلاث قناطر : إحداها بداخل المدينة واثنتان بخارجها ، وعليه النواعير بالداخل والخارج ، منها تسقى البساتين ، والفواكه كثيرة . ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي جاروق ، وهو الأمير بها ، فأكرمنا على عادة الفتىان ، وأقمنا بها ثلاثة .

وسرنا منها بعد ذلك إلى مدينة قيسارية ، وهي من بلاد صاحب العراق ، وهي إحدى المدن العظام بهذا الإقليم . بها عسكر أهل العراق وإحدى خواتين

الأمير علاء الدين أرتنا المذكور ، وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن وها نسبة من ملك العراق ، وتدعى أغا (بفتح الممزة والغين المعجم). ومعنى أغا الكبير ، وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك . واسمها طفي خاتون ، ودخلنا إليها فقامت وأحسنت السلام والكلام ، وأمرت بحضار الطعام فأكلنا ، ولما انصرفنا بعثت إلينا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودرارهم مع أحد غلمانها واعتذرنا . ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الأخى أمير علي وهو أمير كبير من كبار الأخية بهذه البلاد ، وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبارها ، وزاويته من أحسن الزوايا فرشاً وقناديل وطعاماً كثيراً وإتقاناً . والكبار من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ، ويفعلون في إكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم . ومن عوائد هذه البلاد أنه ما كان منها ليس به سلطان ، فالأخى هو الحاكم به ، وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن إليه على قدره وترتيبه في أمره ونفيه ورکوبه ترتيب الملوك .

ثم سافرنا إلى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمel وباء مد وآخره سين مهمel) وهي من بلاد العراق ، وأعظم ما له بهذا الإقليم من البلاد ، وبها منزل أمرائه وعماله . مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسوقها غاصة بالناس ، وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة ، لا ينزلها إلا الشرفاء ، ونقبيهم ساكن بها . وتحري لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون إذا انصرفوا .

ولما قدمنا هذه المدينة خرج إلى لقائنا أصحاب الفتى بحقجي ، وبحق بالتركية السكين ، وهذا منسوب إليه ، والجيان منه معقودان بينهما قاف ، وباؤه مكسورة وكانوا جماعة ، منهم الركبان والمشاة . ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخي جلبي ، وهو من كبار الأخية . وطبقته أعلى من طبقة أخي بحقجي ، فطلبوها

أن ينزل عندهم ، فلم يكن لنا ذلك لسبق الأولين . ودخلنا المدينة معهم جميعاً ،
وهم يتفاخرون . والذين سبقو إلينا قد فرحوا أشد الفرح ببنزولنا عندهم . ثم
كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم . وأقمنا عندهم
ثلاثة في أحسن ضيافة . ثم أتانا القاضي وجاءه من الطلبة ، ومعهم خيل الأمير
علاه الدين أرتانا نائب ملك العراق ببلاد الروم ، فركبنا معه ، واستقبلنا الأمير
إلى دهليز داره ، فسلم علينا ورحب ، وكان فصيح اللسان بالعربية . وسألني عن
ال العراقيين وأصحابه وشيراز وكرمان ، وعن السلطان أتابك ، وببلاد الشام ومصر ،
وسلطانين زركمان . وكان مراده أن اشكر الكريم منهم وأذم البخيل ، فلم أفعل
ذلك ، بل شكرت الجميع . فسر بذلك مبني وشكري عليه . ثم أحضر الطعام
وأكلنا ، وقال : تكونون في ضيافي . فقال له الفتى أخي جلبي : إنهم لم ينزلوا بعد
بزاويتي ، فليكونوا عندي ، وضيافتك تصلكم . فقال : أفعل . فانتقلنا إلى زاويته ،
وأقمنا بها ستاً في ضيافته وفي ضيافة الأمير . ثم بعث الأمير بفرس وكسوة
ودراهم ، وكتب لنوابه بالبلاد أن يضيفونا ويكرمونا ويزودونا . وسافرنا إلى
مدينة أماصيَّة (وضبط اسمها بفتح الممزة والميم والف وصاد مهمل مكسور وباء
آخر الحروف مفتوحة) ، مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار
وفواكه ، وعلى أنهارها النوعير تسقي جناتها ودورها . وهي فسيحة الشوارع
والأسوق . وملكتها صاحب العراق . ويقرب منها بلدة سُونَسَى (وضبط اسمها
بضم السين المهمل وواو مد وnoon مضموم وسين مهمل مفتوح) ، وهي لصاحب
العراق أيضاً . وبها سكني أولاد ولد الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي . منهم
الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي ، وإخوه الشيخ
علي والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن
تاج الدين الرفاعي . ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم .
ثم سافرنا إلى مدينة كُمِش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين

معجم)، وهي من بلاد ملك العراق، مدينة كبيرة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام، وبها معادن الفضة. وعلى مسيرة يومين منها جبال شاسحة وعرة لم أصل إليها، ونزلنا منها بزاوية الأخى مجد الدين، وأقمنا بها ثلاثة في ضيافته وفعل أفعال من قبله. وجاء إلينا نائب الأمير أرتنا، وبعث بضيافة وزاد. وانصرفنا من تلك البلاد، فوصلنا إلى أرزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاي وسكون النون وجيم والف ونون)، وهي من بلاد صاحب العراق. مدينة كبيرة عامرة، وأكثر سكانها الأرمن. والمسلمون يتكلمون بها التركية. ولها أسواق حسنة الترتيب. ويصنع بها ثياب حسان تنسب إليها. وفيها معادن النحاس، ويصنعون منه الأواني والبassis التي ذكرناها، وهي شبه النار عندنا. ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي نظام الدين، وهي من أحسن الروايا، وهو أيضاً من خيار الفتيا وكتابهم، أضافنا أحسن ضيافة. وانصرفنا إلى مدينة أرز الروم، وهي من بلاد ملك العراق، كبيرة الساحة، خرب أكثرها بسبب فتنه وقعت بين طائفتين من التركمان بها. ويشقها ثلاثة أنهار. وفي أكثر دورها بساتين فيها الأشجار والدوالي. ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان، وهو كبير السن، يقال: إنه أناف على مائة وثلاثين سنة. ورأيته ينصرف على قدميه متوكلاً على عصا، ثابت الذهن، مواطباً للصلة في أوقاتها، لم ينكر من نفسه شيئاً، إلا أنه لا يستطيع الصوم. وخدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام، وأردنا الانصراف عنه ثانى يوم نزولنا، فشق عليه ذلك، وأبى منه وقال: إن فعلم نقصتم حرمتى، وإن أقل الضيافة ثلاثة. فأقمنا لديه ثلاثة.

ثم انصرفنا إلى مدينة بركى (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينها راء مسكن)، ووصلنا إليها بعد العصر، فلقينا رجلاً من أهلها، فسألناه عن زاوية الأخى بها فقال: أنا أدلكم عليها، فاتبعناه فذهب بنا

إلى منزله نفسه في بستان له ، فأنزلنا بأعلى سطح بيته ، والأشجار مظللة ، وذلك
 أوان الحر الشديد ، وأتى إلينا بأنواع الفاكهة ، وأحسن في ضيافته . وعلف
 دوابنا ، وبتنا ^{عنه} تلك الليلة . وكنا قد تعرفنا أن بهذه المدينة مدرساً فاضلاً
 يسمى بمحبي الدين ، فأتي بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده ، وكان من الطلبة إلى
 المدرسة وإذا بالمدرس قد أقبل راكباً على بغلة فارهة ، وماليكه وخدماته عن
 جانبيه ، والطلبة بين يديه ، وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب . فسلمنا
 عليه ، فرحب بنا وأحسن السلام والكلام ، وأمسك بيدي وأجلسني إلى جانبه . ثم
 جاء القاضي عز الدين فرشتي ، ومعنى فرشتي الملك . لقب بذلك لدینه وعفافه
 وفضله . فقعد عن يمين المدرس ، وأخذ في تدریس العلوم الأصلية والفرعية . ثم
 لما فرغ من ذلك أتى دويرة بالمدرسة فأمر بفرشها ، وأنزلني فيها . وبعث ضيافة
 حافلة ، ثم وجه إلينا بعد المغرب ، فمضيت إليه ، فوجده في مجلس بستان له ،
 وهناك صهريج ماء ينحدر إليه الماء من خصبة رخام أبيض يدور بها القاشاني ،
 وبين يديه جلة من الطلبة ، وماليكه وخدماته وقف من جانبيه ، وهو قاعد على
 مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة ، فخلته لما شاهدته ملكاً من الملوك . فقام إلى
 واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني إلى جانبه على مرتبته ، وأتى بالطعام فأكلنا
 وانصرفنا إلى المدرسة . وذكر لي بعض الطلبة أن جميع من حضر تلك الليلة من
 الطلبة عند المدرس ، فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة . وكتب هذا المدرس إلى
 السلطان بخبرنا وأثنى في كتابه ، والسلطان في جبل هناك يصيف فيه لأجل شدة
 الحر ، وذلك الجبل بارد . وعادته أن يصيف فيه .

ذكر سلطان بركي

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ، ولما
 بعث إليه المدرس يعلميه بحري ، وجه نائبه إلى لآتينه ، فأشار على المدرس أن أقيم
 حتى يبعث إلى ثانية . وكان المدرس إذ ذاك قد خرجت برجله قرحة ، لا

يستطيع الركوب بسيبها ، وانقطع عن المدرسة ، ثم إن السلطان بعث في طلب ثانية ، فشق ذلك على المدرس فقال: أنا لا أستطيع الركوب ، ومن غرضي التوجه معك ، لأقرر لدى السلطان ما يجب لك . ثم إنه تحامل ولف على رجله خرقاً ، وركب ولم يضع رجله في الركاب . وركبت أنا وأصحابي وصعدنا إلى الجبل ، في طريق قد نحثت وسويت ، فوصلنا إلى موضع السلطان عند الزوال ، فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز ، وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال ، بسبب فرار ابنه الأصغر سليمان عنه إلى صهره السلطان أرخان بك ، فلما بلغه خبر وصولنا بعث إلينا ولديه: حضر بك وعمر بك ، فسلما على الفقيه ، وأمرهما بالسلام على فعلنا ذلك ، وسألاني عن حالي ومقدمي وانصرفا . وبعث إلى بيته يسمى عندهم الخرقة (خركاه) ، وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة ، وتحعل عليها اللبود ، ويفتح أعلىه لدخول الضوء والرياح ، مثل البادهنج . ويسد متى احتاج إلى شده . وأتوا بالفرش ففرشوه ، وقعد الفقيه ، وقعدت معه أصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز ، وذلك الموضع شديد البرد ، ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد . ولما كان من الغد ركب المدرس إلى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ، ثم عاد إلى وأعلمته بذلك . وبعد ساعة وجّه السلطان في طلبنا معاً ، فجئنا إلى منزله ووجدناه قائماً ، فسلمنا عليه ، وقعد الفقيه عن يمينه وأنا عن يمينه . فسألني عن حالي ومقدمي ، وسألني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الأعاجم . ثم حضر الطعام فأكلنا وانصرفا ، وبعث الأرض والدقيق والسمن في كروش الأغنام ، وكذلك فعل الترك . وأقمنا على تلك الحال أياماً ، يبعث إلينا كل يوم ، فنحضر طعامه . وأتي يوماً إلينا بعد الظهر ، وقعد الفقيه في صدر المجلس ، وأنا عن يساره ، وقعد السلطان عن يمين الفقيه ، وذلك لعزه الفقهاء عند الترك ، وطلب مني أن أكتب له أحاديث من حديث رسول الله ﷺ فكتبتها له ، وعرضها الفقيه عليه في تلك

الساعة . فأمره أن يكتب له شرحها باللسان التركي . ثم قام فخرج ، ورأى الخدام يطخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير إدام ولا خضر . فأمر بعقاب صاحب خزانته ، وبعث بالأبزار والسمن . وطالت إقامتنا بذلك الجبل ، فأدركتني الملل وأردت الإنصراف . وكان الفقيه أيضاً قد مل من المقام هنالك ، فبعث إلى السلطان يخبره أني أريد السفر . فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه ، فتكلم مع المدرس بالتركية ، ولم أكن إذ ذاك أفهمها ، فأجابه عن كلامه وانصرف . فقال لي المدرس : أتدرى ماذا قال ؟ قلت : لا أعرف ما قال . قال : إن السلطان بعث إلي ليسألني ماذا يعطيك . فقلت له : عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطيه ما أحب من ذلك . فذهب إلى السلطان ثم عاد إلينا ، فقال : إن السلطان يأمر أن تقيا هنا اليوم ، وتنزلنا معه غداً إلى داره بالمدينة . ولما كان من الغد بعث فرساً جيداً من مراكبه ، ونزل ونحن معه إلى المدينة . فخرج الناس لاستقباله ، وفيهم القاضي المذكور آنفاً وسواه ، ودخل السلطان ونحن معه ، فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس إلى ناحية المدرسة ، فدعا بنا وأمرنا بالدخول معه إلى داره . ولما وصلنا إلى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين ، صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة وألوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة . فقلت للفقيه : ما هذه الصور الحسان ؟ قال : هؤلاء فتيان روميون . وصعدنا مع السلطان درجاً كثيرة إلى أن انتهينا إلى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء ، وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع نحاس يجع ماء من فيه . وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة ، وفوق إحداها مرتبة السلطان . فلما انتهينا إليها نحي السلطان مرتبته بيده ، وقعد معنا على الأقطاع ، وقعد الفقيه عن يمينه ، والقاضي مما يلي الفقيه ، وأنا مما يلي القاضي ، وقعد القراء أسفل المصطبة ، والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه .

ثم جاءوا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب محلول ، قد عصر فيه

ماء الليمون، وجعل فيه كعكات صغار مقسمة، وفيها ملاعق ذهب وفضة، وجاءوا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك، وفيها ملاعق خشب، فمن تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب. وتكلمت بشكر السلطان وأثنىت على الفقيه، وبالغت في ذلك فأعجب ذلك السلطان وسره.

حكاية

وفي أثناء قعودنا مع السلطان أتى شيخ على رأسه عامة لها ذئابة فسلم عليه، وقام له القاضي والفقير، وقد أمام السلطان فوق المصطبة، والقراء أسفل منه. فقلت للفقيه: من هذا الشيخ؟ فضحك وسكت. ثم أعدت السؤال، فقال لي: هذا يهودي طبيب. وكلنا نحتاج إليه. فلأجل هذا فعلنا ما رأيت من القيام له. فأخذني ما حدث وأبديت الامتعاض. فقلت لليهودي: يا ملعون ابن ملعون، كيف تجلس فوق قراء القرآن، وأنت يهودي؟ وشتمته ورفعت صوتي، فعجب السلطان وسأل عن معنى كلامي فأخبره الفقيه به. وغضب اليهودي فخرج عن المجلس في أسوأ حال. ولما انصرفنا قال لي الفقيه: أحسنت ببارك الله فيك. إن أحداً سواك لا يتجرأ على مخاطبته بذلك، ولقد عرفته بنفسه.

حكاية أخرى

وسائلني السلطان في هذا المجلس، فقال لي هل رأيت حجراً نزل من السماء؟ فقلت: ما رأيت ذلك ولا سمعت به. فقال لي: إنه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء. ثم دعا رجالاً وأمرهم أن يأتوا بالحجر، فأتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة، له بريق. قدرت أن زنته تبلغ قنطاراً. وأمر السلطان بإحضار القطاعين، فحضر أربعة منهم فأمرهم أن يضربوه، فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد، فلم يؤثروا فيه شيئاً. فعجبت من أمره. وأمر

برده إلى حيث كان. وفي ثالث يوم من دخولنا إلى المدينة مع السلطان، صنع
صنيعاً عظيماً، ودعا الفقراء والمشائخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة، فطعموا
وقرأ القراء القرآن بالأصوات الحسان، وعدنا إلى منزلنا بالمدرسة. وكان يوجه
الطعام والفاكهة والحلوا والشمع في كل ليلة. ثم بعث إلى مائة مثقال ذهباً وألف
درهم وكسوة كاملة وفرساً وملوكاً رومياً يسمى ميخائيل، وبعث لكل من
أصحابي كسوة ودراهم. كل هذا بمشاركة المدرس محبي الدين، جزاء الله تعالى
خيراً، وودعنا، وانصرفنا. وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر
يوماً. ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان، (وضبط اسمها بكسر
التاء المثلثة وياء مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين فواكه. نزلنا منها
بزاوية الفتى محمد، وهو من كبار الصالحين، صائم الدهر، وله أصحاب على
طريقته. فأضافنا ودعا لنا. وسرنا إلى مدينة أياسُلُوق (وضبط اسمها بفتح
المهزة والياء آخر الحروف وسين مهملاً مضامون ولا مضموم وآخره قاف)
مدينة كبيرة قديمة معظمها عند الروم، وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة
الضخمة، ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها، منحوتة أبدع نحت.
والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا، لا نظير له في الحسن،
وكان كنيسة للروم معظمها عندهم يقصدونها من البلاد، فلما فتحت هذه المدينة
جعلها المسلمون مسجداً جاماً، وحيطانه من الرخام الملون، وفرشه الرخام
الأبيض، وهو مسقف بالرصاص، وفيه إحدى عشرة قبة منوعة، في وسط كل
قبة صهريج ماء، والنهر يشقه، وعن جانبي النهر الأشجار المختلفة الأجناس
ودوالي العنبر ومرعشات الياسمين. وله خمسة عشر باباً. وأمير هذه المدينة
حضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين، وقد كنت رأيته عند أبيه ببركي ثم لقيته بهذه المدينة
خارجها. فسلمت عليه، وأنا راكب، فكره ذلك مني، وكان سبب حرماني
لديه. فإن عادتهم إذا نزل لهم الوارد نزلوا وأعجبهم ذلك. ولم يبعث إلى إلا

ثوباً واحداً من الحرير المذهب يسمونه النّسخ (بفتح النون وخاء معجم). واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرةً بأربعين ديناراً ذهباً، ثم سرنا إلى مدينة يزمير^(١) (وضبط اسمها بباء آخر الحروف مفتوحة وزاي مسكن ويم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر، معظمها خراب. ولها قلعة متصلة بأعلاها. نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب، وهو من الأحمدية، صالح فاضل. ولقينا بخارجها الشيخ عز الدين بن أحد الرفاعي، ومعه زاده الأخلاطي من كبار المشايخ، ومعه مائة فقير من الموهين. وقد ضرب لهم الأمير الأخية، وصنع الشيخ يعقوب ضيافة، وحضرتها، واجتمعت بهم. وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفاً، وسكناه بقلعتها، وكان حين قدومنا عليها عند أبيه، ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها. فكان من مكارمه أن أتي إلى بالزاوية فسلم علي واعتذر، وبعث ضيافة عظيمة، وأعطاني بعد ذلك ملوكاً رومياً خاصياً اسمه قوله، وثوبين من الكمخا، وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين، وذكر لي الفقيه الذي يؤم به أن الأمير لم يبق له ملوك سوى ذلك الملوك الذي أعطاني بسبب كرمه رحمة الله، وأعطي أيضاً للشيخ عز الدين ثلاثة أفراس مجهزة، وأنية فضية كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوقة دراهم، وثياباً من الملف والمراعز والقصي والكمخا وجواري وغلماناً. وكان هذا الأمير كريماً صالحاً كثيراً في الجهاد، له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمى فيسيبي ويغنم، وفيه ذلك كرماً وجوداً، ثم يعود إلى الجهاد، إلى أن اشتدت على الروم وطأته فرفعوا أمرهم إلى البابا فأمر نصارى جنوة وإفرانسة بغزوه. وجهز جيشاً من رومية، وطرقوا مدinetه ليلاً في عدد كثير من الأ杰فان، وملكوا المرسى والمدينة. ونزل إليهم الأمير عمر من القلعة فقاتلهم واستشهد هو وجماعة من ناسه، واستقر النصارى بالبلد، ولم يقدروا على القلعة

(١) هي الآن مدينة: ازمير.

لمنتها . ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة مَغْنِيَّة (وضبط اسمها بعيم مفتوحة وغين معجمة مسكتة ونون مكسورة وباء مد وسين مهممة مكسورة وباء آخر الحروف مشددة) نزلنا بها عشي يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان ، وهي مدينة كبيرة حسنة ، في سفح جبل ، وبسيطها كثير الأنهر والعيون والبساتين والفاواكه .

ذكر سلطان مغنيسيه

وسلطانها يسمى صاروخان ، ولما وصلنا إلى هذه البلدة ، وجدناه بتربة ولده ، وكان قد توفي منذ أشهر ، فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بترتبته ، والولد قد صُبَّر ، وجعل في تابوت خشب مغشى بالحديد المقدار ، وعلق في قبة لا سقف لها للتذهب رائحته ، وحينئذ تسقف القبة ، ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الأرض ، وتحعل ثيابه عليه . وهكذا رأيت غيره أيضاً من الملوك فعل ، وسلمانا عليه بذلك الموضع ، وصلينا معه صلاة العيد ، وعدنا إلى الزاوية . فأخذ الغلام الذي كان لي أفراسنا ، وتوجه مع غلام لبعض الأصحاب برسم سقيها ، فأبطاً . ثم لما كان العشي لم يظهر لها أثر . وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين ، فركب معه إلى السلطان وأعلمته بذلك . فبعث في طلبها ، فلم يوجدا ، واستغل الناس في عيدهم وقصدوا مدينة للكافار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسيه . وهؤلاء الكفار في بلد حصين . وهم يبعثون هدية في كل سنة إلى سلطان مغنيسيه فيقنع منهم بها ، لحصانة بلدتهم . فلما كان بعد الظهر أتى بها بعض الأتراك وبالأفراس . وذكروا أنها اجتازا بهم عشية النهار ، فأنكروا أمرها واشتدوا عليها حتى أقرّا بما عزما عليه من الفرار . ثم سافرنا من مغنيسيه ، وبنينا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا في مرعى لهم ، ولم نجد عندهم ما نعرف به دوابنا تلك الليلة ، وبات أصحابنا يخترسون^(١) مداولة بينهم خوف

(١) أي: يحرس بعضهم بعضاً.

السرقة. فأتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزري ، فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له : إذا أردت النوم فأعلمني لأنظر من يحرس . ثم ثفت ، فما أيقظني إلا الصباح ، وقد ذهب السراق بفرس لي كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه ، وكان من جياد الخيال اشتريته بأياسلوق . ثم رحلنا من الغد فوصلنا إلى مدينة ، برْغَمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة ، لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل . ويقال : إن أفلاطون الحكم من أهل هذه المدينة ، وداره تشتهر باسمه إلى الآن . ونزلنا منها بزاوية فقير من الأحديه . ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا إلى داره وأكرمنا إكراماً كثيراً .

ذكر سلطان برغمة

وسلطانها يسمى يخشى خان بكسر الشين ، وخان عندهم هو السلطان ويختشي (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين مكسور) ومعناه جيد ، صادفناه في مصيف له ، فأعلم بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ، ثم اكترينا من يدلنا على الطريق ، وسرنا في جبال شامخة وعرة ، إلى أن وصلنا إلى مدينة تلي كسرى (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولا مكسورة وباء مد وكاف مفتوح وسين مهملاً مسكن وراء مكسور وباءً) مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الأسواق ، ولا جامع لها يجمع فيه . وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها ، فبنوا حيطانه ولم يجعلوا سقفاً . وصاروا يصلون به ويختبئون تحت ظلال الأشجار ، ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفضالهم ، وأتى إلينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسى .

ذكر سلطان بلي كسرى

ويسمى دمورخان ، ولا خير فيه . وأبوه هو الذي بنى هذه المدينة ، وكثرت عمارتها من لا خير فيه ، في مدة ابنته هذا ، والناس على دين الملك ، ورأيته . وبعث إلى ثوب حرير . واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمى مر غليظة ، ثم سرنا إلى مدينة بُرْصَا (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وإسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع ، تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية . وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة ، وقد بني عليها بيتان : أحدهما للرجال والآخر للنساء . والمرضى يستشفون بهذه الحمة ، ويأتون إليها من أقصى البلاد . وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام . عمر هذه الزاوية أحد ملوك التركان . وزلنا في هذه المدينة بزاوية الفقى أخي شمس الدين من كبار الفتيان . ووافقنا عنده يوم عاشوراء . فصنع طعاماً كثيراً ، ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلاً ، وأنفطروا عنده ، وقرأ القراء بالأصوات الحسنة ، وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ، ووعظ وذكر وأحسن ، ثم أخذوا في السماع والرقص . وكانت ليلة عظيمة الشأن . وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفتر إلا في كل ثلاثة أيام ، ولا يأكل إلا من كده يمينه . ويقال : إنه لم يأكل طعام أحد قط ، ولا منزل له ولا متعة إلا ما يستتر به ، ولا ينام إلا في المقبرة . ويعظم في المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس . وطلبه بعد هذه الليلة فلم أجده ، وأتيت الجبانة فلم أجده . ويقال : إنه يأتيها بعد هجوع الناس .

حكاية

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين ، وعظ بها مجد الدين آخر الليل .
فصاح أحد القراء صيحة غشي عليه منها . فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق ،
فأعادوا عليه ذلك فلم يفق ، واختلفت الناس فيه ، فمن قائل إنه ميت ، ومن قائل
إنه مغشى عليه . وأتم الوعاظ كلامه وقرأ القراءة وصلينا الصبح وطلعت الشمس ،
فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق الدنيا رحمة الله . فاشتغلوا بغسله وتكفينه .
وكانت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه . وكان هذا الفقير يسمى الصياح .
وذكروا أنه كان يتبعد بغار هنالك في جبل . فمتي علم أن الوعاظ مجد الدين يعظ
قصده ، وحضر وعظه ، ولم يأكل طعام أحد . فإذا وعظ مجد الدين يصيح ويغشى
عليه ثم يفيق ، فيتوضاً ويصلّي ركعتين . ثم إذا سمع الوعاظ صاح يفعل ذلك
مراراً في الليلة وسمى الصياح لأجل ذلك . وكان أعزز اليدين والرجل ، لا قدرة له
على الخدمة ، وكانت له والدة تقوته من غزها . فلما توفيت اقتات من نبات
الأرض . ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من
الصالحين ، جال الأرض ، إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سردينيا ولا
المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان ، وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم .

ذكر سلطان برصا

سلطانها اختيار الدين أرخان بك ، وأرخان (بضم الهمزة وفاء معجم) ابن
السلطان عثمان^(١) جوق (وجوق بحيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره
بالتركية الصغيرة . وهذا السلطان أكبر ملوك التركان وأكثر مالاً وبلاداً
وعسراً ، له من الخصون ما يقارب مائة حصن . وهو في أكثر أوقاته لا يزال

(١) وهو الذي يتنسب إليه سلاطين آل عثمان .

يطوف عليها ، ويقيم بكل حصن منها أياماً لإصلاح شؤونه وتفقد حاله . ويقال : إنه لم يقم قط شهراً كاملاً ببلد ، ويقاتل الكفار ويحاصرهم . ووالده هو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم ، وقبره بمسجدها . وكان مسجدها كنيسة للنصارى . ويدرك أنَّه حاصر مدينة برتيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها ، فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه أثني عشرة سنة وافتتحها . وبها كان لقائي له . وبعث إلى بدراهم كثيرة . ثم سافرنا إلى مدينة يَزِنِيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاي وكسر النون وباء مد وكاف) وبتنا قبل الوصول إليها ليلة بقرية تدعى كَرْلَه ، بزاوية فتى من الأختية . ثم سرنا من هذه القرية يوماً كاملاً في أنهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ، ثم وصلنا إلى بحيرة ماء تنبت القصب ، على ثمانية أميال من يَزِنِيك . لا يستطيع دخوها إلا على طريق واحد مثل الجسر ، لا يسلك عليها إلا فارس واحد . وبذلك امتنعت هذه المدينة ، والبحيرة محطة بها من جميع الجهات ، وهي خاوية على عروشها . لا يسكن بها إلا أناس قليلون من خدام السلطان ، وبها زوجته بيون^(١) خاتون ، وهي المحكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة ، وعلى المدينة أسوار أربعة . بين كل سورين خندق وفيه الماء ، ويدخل إليها على جسور خشب ، متى أرادوا رفعها رفعوها . وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع ، فلكل إنسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة . وشربها من آبار بها قريبة ، وبها من جميع أصناف الفواكه والجوز . والقسطل عندهم كثير جداً رخيص الثمن . ويسمون القسطل قسطنة باللون ، والجوز القوز بالقاف . وبها العنب العذاري لم أر مثله في سواها ، متناهي الحلاوة وعظيم الجرم ، صافي اللون رقيق القشر ، للحبة منه نواة واحدة . أنزلنا بهذه المدينة الفقيه الإمام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكي ،

(١) في إحدى طبعات الكتاب : بيرون . خاتون .

وهو شيخ الفضلاء الكرماء ، ما جئت قط لزيارةه إلا أحضر الطعام . وصورته حسنة وسيرته أحسن . وتوجه معي إلى الخاتون المذكورة ، فأكرمت وأضافت وأحسنت . وبعد قدومنا بأيام وصل إلى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذي ذكرناه . وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوماً بسبب مرض فرس لي . فلما طال على المكث تركته وانصرفت ، ومعي ثلاثة من أصحابي وجارية وغلامان . وليس معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم لنا . وكان لنا ترجان فارقنا بهذه المدينة . ثم خرجنا منها فيتنا بقرية يقال لها مكججا (فتح الميم والكاف والجيم) بتنا عند فقيه أكرمنا وأضافنا . وسافرنا من عنده وتقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها ، وهي قاصدة مدينة ينجا ، ونحن في اتباع أثرها ، فوصلت إلى وادٍ كبير يقال له سقري كأنه نسب إلى سقر ، أعادنا الله منها ، فذهبت تحوز الوادي فلما توسطته ، كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها ، وأراد الخديم الذي كان معها استخلاصها ، فذهب الوادي بها معاً . وكان في عدوة الوادي قوم رموا بأنفسهم في أثرها سباحة ، فأخرجوا المرأة وبها من الحياة رقم ، ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمة الله . وأخبرنا أولئك الناس أن المعدية أسفل من ذلك الموضع . توجها إليها ، وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال ، يجعلون عليها سروج الدواب والمتابع ، ويجد بها الرجال من العدوة الأخرى ، ويركب عليها الناس . وتجاذب الدواب سباحة وكذلك فعلنا . ووصلنا تلك الليلة إلى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكي نزلنا منها بزاوية أحد الأحياء فكلمنا بالعربية فلم يفهمونا ، وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه ، فقال : اطلبوا الفقيه فإنه يعرف العربية . فأتى الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال : للفتى ايشان عربي كهنا ميقوان ميكو يندو من عربي نوميدان . وايشان معناه هؤلاء ، وكهنا قديم ، وميقوان يقولون ، ومن أنا ، ونو جديد ، وميدان تعرف . وإنما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان

أعربي وهو لا يعرفه. فقال لهم: هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القدم، وأنا لا عرف إلا العربي الجديد فظن الفتى أن الأمر على ما قاله الفقيه.

ونفعنا ذلك عنده وبالغ في إكرامنا وقال: هؤلاء تجب كرامتهم، لأنهم يتكلمون باللسان العربي القدم وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسلينا وأصحابه. ولم نفهم كلام الفقيه إذ ذاك لكنني حفظت لفظه. فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مراده. وبتنا تلك الليلة بالزاوية، وبعث معنا دليلاً إلى ينجا وضبط اسمها (بفتح الباء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة. بحثنا بها عن زاوية الأخرى فوجدنا بها أحد القراء المولهين، فقلت له: هذه زاوية الأخرى، فقال لي: نعم. فسرت عند ذلك إذ وجدت من يفهم اللسان العربي. فلما اختبرته أبرز الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربي إلا كلمة نعم خاصة. ونزلنا بالزاوية وجاء إلينا أحد الطلبة بطعام. ولم يكن الأخرى حاضراً، وحصل الأنس بهذا الطالب، ولم يكن يعرف اللسان العربي، ولكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فأعطاني فارساً من أصحابه، وتوجه معنا إلى كبنو^ك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين، وليس بها غير بيت واحد من المسلمين، وهم الحكام عليهم. وهي من بلاد السلطان أرخان بك، فنزلنا بدار عجوز كافرة، وذلك إبان الثلوج والشتاء، فأحسنا إليها وبتنا عندها تلك الليلة، وهذه البلدة لا شجر بها ولا دواي العنب ولا يزرع بها إلا الزعفران، وأتينا هذه العجوز بزعفران كثير، وظننت أنها تجاه نشريه منها. ولما كان الصباح ركبنا وأتينا الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية، فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا إلى مدينة مطبني. وقد وقع في تلك الليلة ثلوج كثير عفى عن الطريق^(١)، فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره إلى

(١) صحة العبارة: عقى على الطريق، أي: غطى آثارها وستر معالمها فلم تعد تعرف.

أن وصلنا في نصف النهار إلى قرية للتركمان ، فأتوا ب الطعام فأكلنا منه ، وكلهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم ، وسلك بنا أو عاراً وجباراً ومجرباً ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة . فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس : أعطوني شيئاً من الدرة . فقلنا له : إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا ، أو لم يفهم عنا . فأخذ قوساً لبعض أصحابي ومضى غير بعيد ثم رجع فرد إلينا القوس فأعطيته شيئاً من الدرة . فأخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق لنا ، فكنا نتلمس أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه ، إلى أن بلغنا عند غروب الشمس إلى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة ، فخفت الهملاك على ومن معه وتوقعت نزول الثلج ليلاً ولا عمارة هناك . فإن نزلنا عن الدواب هلكنا ، وإن سرينا ليتنا لا نعرف أين نتوجه . وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص ، وقلت في نفسي : إذا سلمت لعلني أحتمل في سلامه أصحابي ، فكان كذلك . واستودعتهم الله تعالى وسرت . وأهل تلك البلاد يبنون على القبور بيوتاً من الخشب يظن رائتها أنها عمارة ، فيجدوها قبوراً . فظهر لي منها كثير . فلما كان بعد العشاء وصلت إلى البيوت قلت : اللهم اجعلها عامرة ، فوجدتها عامرة ووفقني الله تعالى إلى باب دار ، فرأيت عليها شيخاً فكلمه بالعربي فكلمني بالتركي ، وأشار إلي بالدخول . فأخبرته بشأن أصحابي فلم يفهم عني ، وكان من لطف الله أن تلك الدار زاوية للفقراء ، والواقف بالباب شيخها . فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم . وكانت بياني وبينه معرفة فسلم علي ، وأخبرته خبر أصحابي وأشارت إليه بأن يمضي مع الفقراء لاستخلاص الأصحاب ، ففعلوا ذلك وتوجهوا معي إلى أصحابي ، وجننا جميعاً إلى الزاوية وحدنا الله تعالى على السلامة ، وكانت ليلة الجمعة ، فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليتهم بذكر الله تعالى . وأتى كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفع المساء . ورحلنا عند الصباح فوصلنا إلى مدينة مطربني عند صلاة

الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد)، فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الأخيرة، وبها جاعة من المسافرين، ولم نجد مربطاً للدواب. فصلينا الجمعة ونحن في قلق لكثره الثلوج والبرد وعدم المربط، فلقينا أحد الحاج من أهلها فسلم علينا، وكان يعرف اللسان العربي فسررت برؤيته، وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء. فقال: أما ربطها في منزل فلا يتأنى، لأن أبواب دور هذه البلدة صغار، لا تدخل منها الدواب، ولكنني أدلكم على سقية بالسوق يربط فيها المسافرون دواهم، والذين يأتون لحضور السرقة، فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا، ونزل أحد الأصحاب بحانوت خال إزاءها ليحرس الدواب.

حكاية

وكان من غريب ما اتفق لنا أنني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب، وبعثت أحدهم يشتري السمن. فأتى أحدهما بالتبن، والآخر دون شيء، وهو يضحك. فسألناه عن سبب ضحكه فقال: إننا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن، فأشار إلينا بالوقوف. وكلم والده فدفعنا له الدرهم، فأبطن ساعنة وأتى بالتبن فأخذناه منه، وقلنا له: إننا نريد السمن، فقال: هذا السمن، وأبرز الغيب أنهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك. أما السمن فيسمى عندهم رباغ. ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا إلى قصطمونية، وبينها وبين هذه البلدة عشرة، وكسوته ثوباً مصرياً من ثيابي، وأعطيته نفقة تركها لعياله، وعينت له دابة لركوبه، ووعدته الخير. وسافر معنا، فظهر لنا من حاله أنه صاحب مال كثير، وله ديون على الناس، غير أنه ساقط الهمة خسيس الطبع شيء الأفعال وكنا نعطيه الدرهم لنفقتنا فإذا خذ ما يفضل من الخبز ويشتري به الأبزار والخضر والملح ويمسك ثم ذلك لنفسه. وذكر لي

أنه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك ، وكنا نحمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك ، وانتهت حاله إلى أن فضحتناه ، وكنا نقول له في آخر النهار يا حاج ، كم سرقت اليوم من النفقة ؟ فيقول : كذا فنضحك منه ونرضي بذلك . ومن أفعاله الخسيسة أنه مات لنا فرس في بعض المنازل ، فتولى سلخ جلده بيده وباعه . ومنها أنا نزلنا ليلة عند أخت له في بعض القرى فجاءت بطعم وفاكهه من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ ، كلها مبisse وتجعل في الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها . فأردنا أن نحسن إليها فعلم بذلك فقال : لا تعطوها شيئاً ، وأعطوا ذلك لي فأعطيتها إرضاء له ، وأعطيتها إحساناً في خفية بحيث لم يعلم بذلك . ثم وصلنا إلى مدينة بُولي (وضبط اسمها باء موحدة مضمومة وكسر اللام) ، ولما انتهينا إلى قريب منها وجدنا وادياً يظهر في رأي العين صغيراً ، فلما دخله بعض أصحابنا وجدو شديد الجريمة والانزعاج ، فجازوه جميعاً . وبقيت جارية صغيرة خافوا في تحويزها ، وكان فرسياً خيراً من أفراسهم فأرددتها ، وأخذت في جواز الوادي فلما توسطته وقع في الفرس ووقدت الجارية ، فأخرجها أصحابي وبها رمق وخلصت أنا . ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الأخيرة ، ومن عوائدهم أنه لا تزال النار موقودة في زواياهم أيام الشتاء أبداً . يجعلون في كل ركن من أركان الزاوية موقد النار ، ويصنعون لها منافس يصدع منها الدخان ، ولا يؤذى الزاوية . ويسمونها البخاري واحدها بخيري . قال ابن جزي : وقد أحسن صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي في قوله في التورية ، وتذكره بذكر البخيري :

إن البخيري مذ فارقتموه غداً
 يَحْثُو الرَّمَادُ عَلَى كَانُونِهِ التَّرَبِ
 لو شِئْتُمْ أَنَّهُ يُمْسِي أَبَا لَهَبِ
 جاءَتْ بِغَالُكُمْ حَمَالَةَ الْحَطَبِ

قال : فلما دخلنا للزاوية وجدنا النار موقودة ، فنزععت ثيابي ولبست

ثياباً سواها ، واصطليت بالنار . وأتي الأخى بالطعام والفاكهه وأكثر من ذلك . فلله درهم من طائفة ! ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجلهم احتفالاً بأمره . فليس قدوم الإنسان الغريب عليهم إلا قدومه على أحب أهله إليه . وبتنا تلك الليلة بحال مرضية ، ثم رحلنا بالغداة فوصلنا إلى مدينة كَرَدي بُولِي (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مد ولا مكسورة وباء) ، وهي مدينة كبيرة في بسيط من الأرض حسنة ، متسعة الشوارع والأسواق ، من أشد البلاد برداً . وهي محلات مفترقة ، كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم .

ذكر سلطانها

وهو السلطان شاه بك ، من متوسطي سلاطين هذه البلاد ، حسن الصورة ، والسير جيل الخلق قليل العطاء . صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا منها ، ولقيت بها الخطيب الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنفي ، وهو من مستوطنيها من سنين ، وله بها أولاد . وهو فقيه هذا السلطان وخطيبه ، ومسموع الكلام عنده . ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية ، فأعلمنا أن السلطان قد جاء لزيارتـنا . فشكرته على فعله ، واستقبلـت السلطان فسلـمت عليه وجلس . فسألـني عن حالي وعن مقدمـي وعنـ لقيـته من سلاطـين ، فأـخبرـته بذلكـ كـله . وأـقامـ ساعـة ثم انـصرفـ ، وـبـعـثـ بدـابة مـسـرـجة وـكـسوـة وـانـصرـفـنا إـلـى مـديـنـة بـرـلـو (وـضـبـطـ اسمـها بـضمـ الـباءـ الموـحدـ وإـسـكـانـ الـراءـ وـضمـ الـلامـ) ، وهي مـديـنـة صـغـيرـة عـلـى تـلـ تحـتـها خـندـقـ ، وـهـا قـلـعـة بـأـعـلـى شـاهـقـ . نـزـلـنا مـنـها بـمـدـرـسـةـ . وـكـانـ الحاجـ الذـي سـافـرـ مـعـنـا يـعـرـفـ مـدرـسـها وـطـلـبـتهاـ ، ويـحـضـرـ معـهـمـ الـدـرـسـ . وـهـوـ عـلـى عـلـاتـهـ مـنـ الـطـلـبـةـ حـنـفيـ المـذـهـبـ . وـدـعـانـا أمـيرـ هـذـهـ الـبـلـدـةـ وـهـوـ عـلـيـ بـكـ ابنـ السـلـطـانـ المـكـرمـ سـليمـانـ بـادـ شـاهـ

ملك قصطمونية وسندكره، فصعدنا إليه إلى القلعة، فسلمتنا عليه، فرحب بنا وأكرمنا، وسألني عن أسفاري وحالى، فأجبته عن ذلك، وأجلسني إلى جانبه. وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار الكتاب، وحضر الطعام فأكلنا ثمقرأ القراء بأصوات مبكية وألحان عجيبة وانصرفنا. وسافرنا بالغد إلى مدينة قصطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهملاً مسكن وطاء مهملاً مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف)، وهي من أعظم المدن وأحسنها، كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار. نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف الأطروش لشقل سمعه. ورأيت منه عجباً، وهو أن أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء، وتارة في الأرض ياصبعه، فيفهم عنه ويحييه، ويحكي له بذلك، الحكايات فيفهمها. وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً فكنا نشتري طابق اللحم الغنمى السمين بدرهمين، ونشتري خبزاً بدرهمين فيكتفينا ليومنا، ونخن عشرة. ونشتري حلواء العسل بدرهمين، فتكلفينا أجمعين. ونشتري جوزاً بدرهم وقططاً بمثله، فنأكل منها أجمعون، ويفضل باقيها. ونشتري حل الحطب بدرهم واحد، وذلك أوان البرد الشديد، ولم أر في البلاد مدينة أرخص أسعاراً منها. ولقيت بها الشيخ الإمام العالم المفتى المدرس تاج الدين السلطانيوكى من كبار العلماء، قرأ بالعرقين وتبريز واستوطنه مدة، وقرأ بدمشق، وجاور بالحرمين قديماً. ولقيت بها العلم المدرس صدر الدين سليمان الفنىكى من أهل فنيكة من بلاد الروم، وأضافني بدرسته التي بسوق الخيل، ولقيت بها الشيخ المعمراً الصالحاً داداً أميراً على، دخلت عليه بزاويته بمقربة من سوق الخيل، فوجده ملقى على ظهره، فأجلسه بعض خدامه، ورفع بعضهم حاجبيه عن عينيه ففتحها، وكلمتني بالعربي الفصيح، وقال: قدمت خير مقدم، وسألته عن عمره فقال: كنت من أصحاب الخليفة المستنصر^(١) بالله، وتوفي وأنا ابن ثلاثين سنة.

(١) الخليفة المستنصر بالله هو الخليفة قبل الأخير من الخلفاء العباسيين ببغداد، وكانت وفاته سنة =

و عمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة ، فطلبت منه الدعاء فدعاه وانصرف .

ذكر سلطان قصطمونية

وهو السلطان المكرم سليمان بادشاه (واسمه بباء معقود وألف ودال مسكن) ، وهو كبير السن ينيف على سبعين سنة ، حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة ، يجالسه الفقهاء والصلحاء . دخلت عليه بمجلسه فأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته ، وأمر بإذالي على قرب منه ، وأعطاني ذلك اليوم فرساً عتيقاً قرطاسي اللون وكسوة ، وعيّن لي نفقة وعلفاً ، وأمر لي بعد ذلك بقمع وشعر نفذ لي في قرية من قرى المدينة ، على مسيرة نصف يوم منها ، فلم أجده من يشتريه ، لرخص الأسعار ، فأعطيته للحاج الذي كان في صحبتنا . ومن عادة هذا السلطان أن يجلس كل يوم بمجلسه ، بعد صلاة العصر ، ويؤتى بالطعام فتفتح الأبواب ، ولا يمنع أحد من حضري أو بدوي أو غريب أو مسافر من الأكل . ويجلس في أول النهار جلوساً خاصاً ، ويأتي ابنه فيقبل يديه ، وينصرف إلى مجلس له ويأتي أرباب الدولة فياكلون عنده وينصرفون . ومن عادته في يوم الجمعة أن يركب إلى المسجد ، وهو بعيد عن داره . والمسجد المذكور هو ثلاثة طبقات من الخشب . فيصلي السلطان وأرباب دولته والقاضي والفقهاء ووجوه الأجناد في الطبقة السفلی ، ويصلي الأفندي ، وهو أخو السلطان وأصحابه وأخدامه وبعض أهل المدينة في الطبقة الوسطى ، ويصلي ابن السلطان ولی عهده وهو أصغر أولاده ، ويسمى الججاد ، وأصحابه ومالیکه وخدامه وسائر الناس في الطبقة العليا ، ويجتمع القراء

= ٦٤٠ هـ ، وعليه فيكون مولد المعم دادا أمير علي في سنة ٦١٠ هـ ، ويكون عمره حين لقاء ابن بطوطة له عام ٧٣٤ هـ أربعما وعشرين ومائة عام ، وليس مائة وثلاثة وستين كما ذكر .

فيقعدون حلقة أمام المحراب ، ويقعد معهم الخطيب والقاضي . ويكون السلطان بإزاء المحراب . ويقرأون سورة الكهف بأصوات حسان ، ويكررون الآيات بترتيب عجيب . فإذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صل ، فإذا فرغوا من الصلاة تنفّلوا وقرأ القارئ بين يدي السلطان عشرأً ، وانصرف السلطان ومن معه . ثم يقرأ القارئ بين يدي أخي السلطان ، فإذا أتم قراءته انصرف هو ومن معه ، ثم يقرأ القارئ بين يدي ابن السلطان ، فإذا فرغ من قراءته قام المعرف ، وهو المذكور ، فيمدح السلطان بشعر تركي ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف . ويأتي ابن الملك إلى دار أبيه بعد أن يقبل يد عمه في طريقه واقفاً في انتظاره ، ثم يدخلان إلى السلطان فيتقدّم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ، ثم يأتي ابنه فيقبل يده وينصرف إلى مجلسه فيقعد به مع ناسه . فإذا حانت صلاة العصر صلوها جميعاً . وقبل أخو السلطان يده ، وانصرف عنه فلا يعود إليه إلا في الجمعة الأخرى . وأما الولد فإنه يأتي كل يوم غدوة كما ذكرناه . ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا في زاوية عظيمة بإحدى القرى من أحسن زاوية رأيتها في تلك البلاد ، بناها أمير كبير تاب إلى الله تعالى يسمى فخر الدين ، وجعل النظر فيها لولده ، والإشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء . وفوائد القرية وقف عليها . وبني بإزاء الزاوية حاماً للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمهم ، وبني سوقاً بالقرية ووقفه على المسجد الجامع . وعيّن من أوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه ، وثلاثمائة درهم يوم سفره . والنفقة أيام مقامه وهي الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء . ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ، ثم انصرفنا وبنينا ليلة ثانية بزاوية في جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيان الأخية ، ويعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ، ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية .

وسرفنا من هذه الزاوية إلى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء)، وهي مدينة حافلة جمعت بين التحسين والتحسين، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا واحدة وهي جهة الشرق، ولها هنالك باب واحد لا يدخل إليها أحد إلا ياذن أميرها، وأميرها إبراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذي ذكرناه. ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عز الدين أخي جلبي، وهي خارج باب البحر، ومن هنالك يصعد إلى جبل داخل في البحر، كميناء سبعة فيه البساتين والمزارع والمياه، وأكثر فواكهه التين والعنب، وهو جبل مانع لا يستطيع الصعود إليه. وفيه إحدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين. وبأعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام، لا تخلو عن متعدد، وعندها عين ماء. والدعاء فيها مستجاب. وبسفح هذه الجبل قبر الولي الصالح الصحابي بلال الحبشي، وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر. والمسجد بمدينة صنوب من أحسن المساجد. وفي وسطه بركة ماء عليها قبة تثقلها أربع أرجل، ومع كل رجل ساريتان من الرخام، وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب، وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي، وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة. وملك بعد ابنه غازي جلبي، فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور. وكان غازي جلبي المذكور شجاعاً مقداماً، ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفي قوة السباحة، وكان يسافر في الأ杰فان الخربية لحرب الروم، فإذا كانت الملاقة واستغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبهذه آلة حديد يخرق بها أجفان العدو، فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق. وطرقت مرسي بلده مرة أجفان العدو فخرقها وأى من كان فيها. وكانت فيه كفاية لا كفاء لها إلا أنهم يذكرون أنه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات. فإنه خرج يوماً للتصيد وكان مولعاً به، فاتبع غزاله ودخلت له بين أشجار، وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشدته

فمات. وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم. ويقال: إنه أيضاً
يأكل ما كان يأكله صاحبه، على أن أهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها.
ولقد مرت يوماً على باب الجامع بصنوب، وبخارجه دكاكين يقعد الناس
عليها، فرأيت نفراً من كبار الأجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكاره ملوءة
 بشيء يشبه الحناء، وأحدهم يأخذ منها بعلقة ويأكل، وأنا أنظر إليه ولا أعلم بما
 في الشكاره. فسألت من كان معه فأخبرني أنه الحشيش. وأضافنا بهذه المدينة
 قاضيها ونائب الأمير بها ومعلمها ويعرف بابن عبد الرزاق.

حكاية

لما دخلنا هذه المدينة رأنا أهلها ونحن نصل مسلي أيدينا وهم حنفيه لا
 يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته، والمختار من مذهبهم هو إسبال اليدين.
 وكان بعضهم يرى الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسلي أيدיהם، فاتهمونا
 بمذهبهم، وسائلونا عن ذلك فأخبرناهم أننا على مذهب مالك، فلم يقنعوا بذلك
 منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث إلينا نائب السلطان بأربن، وأوصى
 بعض خدامه أن يلازمنا حتى يرى ما نفعل به، فذبحناه وطبخناه وأكلناه
 وانصرف الخديم إليه وأعلمه بذلك. فحينئذ زالت عنا التهمة، وبعثوا لنا
 بالصيافة. والروافض لا يأكلون الأرانب. وبعد أربعة أيام من وصولنا إلى
 صنوب توفيت أم الأمير إبراهيم بها، فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على
 قدميه، كاشفاً شعره، وكذلك الأمراء والمالوك وثيابهم مقلوبة. وأما القاضي
 والخطيب والفقهاء. فإنهما قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤوسهم بل جعلوا عليها
 مناديل من الصوف الأسود عوضاً عن العمام. وأقاموا يطعمون الطعام أربعين
 يوماً وهي مدة العزاء عندهم. وكانت إقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوماً ننتظر
 تيسير السفر في البحر إلى مدينة القرم فاكترينا مركبًا للروم، وأقمنا أحد عشر يوماً
 ننتظر مساعدة الريح، ثم ركبنا البحر، فلما توسطناه بعد ثلاثة، هال علينا واشتد

بنا الأمر ورأينا الملاك عياناً ، و كنت بالطارمة ومعي رجل من أهل المغرب ، يسمى أبا بكر ، فأمرته أن يصعد إلى أعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي : استودعكم الله ، ودهمنا من الـولـمـاـلـمـعـهـدـمـثـلـهـ ، ثم تغيرت الريح ورددنا إلى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها . وأراد بعض التجار النزول إلى مرساها . فمنعت صاحب المركب من إنزاله ثم استقامت الريح وسافرنا ، فلما توسطنا البحر هال علينا ، وجرى لنا مثل المرة الأولى . ثم ساعدت الريح ، ورأينا جبال البر ، وقصدنا مرسى يسمى الكرش ، فأردنا دخوله ، فأشار إلينا أناس كانوا بالجبل أن لا تدخلوا ، فخفنا على أنفسنا وظننا أن هنالك أحـفـانـاـ لـلـعـدـوـ ، فـرـجـعـنـاـ مـعـ البرـ ، فـلـمـ قـرـبـناـهـ قـلـتـ لـصـاحـبـ المـرـكـبـ ، أـرـيدـ أـنـ أـنـزـلـ هـاـ هـنـاـ . فـأـنـزـلـيـ بـالـسـاحـلـ . وـرـأـيـتـ كـنـيـسـةـ فـقـصـدـتـهاـ ، فـوـجـدـتـ بـهـ رـاهـبـاـ ، وـرـأـيـتـ فيـ أـحـدـ حـيـطـانـ الـكـنـيـسـةـ صـورـةـ رـجـلـ عـرـبـيـ عـلـيـ عـامـةـ مـتـقـلـدـ سـيـفـاـ وـبـيـدـهـ رـمـعـ ، وـبـيـنـ يـدـيـهـ سـرـاجـ يـوـقـدـ ، فـقـلـتـ لـلـرـاهـبـ ماـ هـذـهـ الصـورـةـ فـقـالـ هـذـهـ صـورـةـ النـبـيـ عـلـيـ فـأـعـجـبـتـ مـنـ قـوـلـهـ . وـبـتـنـاـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ بـالـكـنـيـسـةـ وـطـبـخـنـاـ دـجـاجـاـ فـلـمـ نـسـطـعـ أـكـلـهـاـ إـذـ كـانـ مـاـ اـسـتـصـبـنـاـهـ فـيـ المـرـكـبـ وـرـائـحةـ الـبـرـ قـدـ غـلـبـتـ عـلـىـ كـلـ مـاـ كـانـ فـيـهـ .

وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بـدـشـتـ قـفـجـقـ (والدشت بالشين المعجم والثاء المثلثة) بلسان الترك هو الصـحـراـ . وهذه الصـحـراءـ خـضـرـةـ لـاـ شـجـرـ بـهـ وـلـاـ جـبـلـ وـلـاـ تـلـ وـلـاـ أـبـنـيـةـ وـلـاـ حـطـبـ ، وـإـنـماـ يـوـقـدـونـ الـأـرـوـاثـ وـيـسـمـونـهـاـ التـزـكـ ، فـتـرـىـ كـبـرـاءـهـمـ يـلـقـطـونـهـاـ وـيـجـعـلـونـهـاـ فـيـ أـطـرـافـ ثـيـابـهـمـ ، وـلـاـ يـسـافـرـ فـيـ هـذـهـ الصـحـراءـ إـلـاـ فـيـ العـجـلـ ، وـهـيـ مـسـيـرـةـ ستـةـ أـشـهـرـ ، ثـلـاثـةـ مـنـهـاـ فـيـ بـلـادـ السـلـطـانـ مـحـمـدـ أـوزـبـكـ وـثـلـاثـةـ فـيـ بـلـادـ غـيرـهـ .

ولـمـ كـانـ الـغـدـ مـنـ وـصـولـنـاـ إـلـىـ هـذـاـ مـرـسـىـ ، تـوـجـهـ بـعـضـ التـجـارـ مـنـ أـصـحـابـنـاـ إـلـىـ مـنـ بـهـذـهـ الصـحـراءـ مـنـ الطـائـفـةـ الـمـعـرـوفـةـ بـقـفـجـقـ ، وـهـمـ عـلـىـ دـيـنـ النـصـرـانـيـةـ .

فاكترى منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا إلى مدينة الكَفَا (واسمها بكاف وفاء مفتوحين) ، وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر ، يسكنها النصارى ، وأكثراهم الجنوبيون ولم يعرف بالدندير ، ونزلنا منها بمسجد المسلمين .

حكاية

ولما نزلنا بهذه الجامع أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ، ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك ، وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرأوا القرآن ويدركروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك . فإذا برجل قد دخل علينا وعلىه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فأخبرنا أنه قاضي المسلمين هنالك وقال : لما سمعت القراءة والأذان خفت عليكم فجئت كما ترون . ثم انصرف عنا وما رأينا إلا خيراً . ولما كان الغد جاء إلينا الأمير وصنع طعاماً فأكلنا عنده ، وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الأسواق . وكلهم كفار ونزلنا إلى المرسى ، فرأينا مرسي عجيباً به نحو مائتي مركب ما بين حربى وسفرى ، صغيراً وكبيراً ، وهو من مراسى الدنيا الشهيرة ، ثم اكتربنا عجلة وسافرنا إلى مدينة القِرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وعليها أمير من قبله اسمه تُلْكَتُمُورُ وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولا مضموم وكاف مسكون وتناء كالأولى مضمومة وميم مضموماً وواو وراء) ، وكان أحد خدام هذا الأمير قد صحبنا في طريقنا فعرفه بقدومنا . فبعث إلى مع إمامه سعد الدين بفرس ، ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني ، فأكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن إلينا ، وهو معظم عندهم . ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهם . وأخبرني هذا الشيخ زاده أن يخارج هذه المدينة راهباً من النصارى في دير يتبعده به ، ويكثر الصوم . وأنه انتهى إلى أن يواصل أربعين يوماً ثم يفطر على حبة فول . وأنه يكافش بالأمور .

ورغب مني أن أصحبه في التوجه إليه. فأبيت ثم ندمت بعد ذلك على أن لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره. ولقيت بهذه المدينة قاضيها الأعظم شمس الدين السائل^(١) قاضي الحنفية، ولقيت بها قاضي الشافعية، وهو يسمى بخضر ، والفقير المدرس علاء الدين الأصي ، وخطيب الشافعية أبا بكر ، وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة ، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فأسلم وحسن إسلامه ، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين . وكان الأمير تلكتمور مريضاً ، فدخلنا عليه ، فأكرمنا وأحسن إلينا . وكان علي التوجه إلى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك ، فعملت في السير في صحبته ، واشترت العجلات برسم ذلك .

ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمون العجلة عَرَبة (بعين مهملة وراء موحدة مفتوحات) ، وهي عجلات تكون للواحدة منها أربع بكرات كبيرة ، ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك ، وتجرها أيضاً البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها . والذي يخدم العربة يركب إحدى الأفراط التي تجرها . ويكون عليه سرج ، وفي يده سوط يحرکها للمشي ، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد ، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسیور جلد رقيق ، وهي خفيفة الحمل ، وتكتسي باللبد أو بالملف ، ويكون فيها طيقات مشبكة ، ويرى الذي يدخلها الناس ولا يرونها . ويتحول فيها كما يجب ويُنام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره . والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا . وزعلها

(١) في بعض طبعات الكتاب : السائل .

قفل . وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبه مغشاة باللبد ومعي بها جارية لي ، وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري ، وعجلة كبيرة لسائر الأصحاب : يجرها ثلاثة من الجمال ، يركب أحدها خادم العربة ، وسرنا في صحبة الأمير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قططود مور وصارر بك ، وسار أيضاً معه في هذه الوجهة إمامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين والفقير شرف الدين موسى ، والمعرف علاء الدين . وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدي الأمير في مجلسه . فإذا أتى القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال : بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتوى والأحكام ، بسم الله . وإذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال بسم الله سيدنا ومولانا فلان الدين بسم الله ، فيتهيأ من كان حاضراً للدخول الداخل ويقوم إليه ويفسح له في المجلس . وعادة الأتراك أن يسيراوا في هذه الصحراء سيراً كسير الحجاج في درب الحجاز . يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيًّا . وإذا حلوا الخيل والإبل والبقر عن العربات ، سرحوها للرعي ليلاً ونهاراً . ولا يعلف أحد دابة السلطان ولا غيره . وخاصة هذه الصحراء أن نباتها يقوم مقام الشعير للدوااب ، وليس لغيرها من البلاد هذه الخاصية . ولذلك كثرت الدواب بها . ودواهم لا رعاة لها ولا حراس ، وذلك لشدة أحكامهم في السرقة ، وحكمهم فيها أنه من وجد عنده فرس مسروق كلف أن يرده إلى صاحبه ويعطيه معه تسعه مثله ، فإن لم يقدر على ذلك أخذ أولاده في ذلك ، فإن لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة .

وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاماً من شيء شبه الآتي يسمونه الدُّوقي (بدال مهم مضموم وواو وقاف مكسور معقود) ، يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئاً من الدُّوقي ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعاً صغاراً وطبخوه . ثم يجعل لكل رجل نصيه في صحفة ،

ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه، ويشربون عليه لبن الخل، وهم يسمونه القِيمَز (بكسر القاف والميم والزاي المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج. ويستعملون في بعض الأوقات طعاماً يسمونه البورخاني، وهو عجين يقطعونه قطعات صغيرةً، ويثقبون أوساطها ويجعلونها في قدرة، فإذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربواها. وهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقي الذي تقدم ذكره. وهم يرون أكل الحلواء عيناً.

ولقد حضرت يوماً عند السلطان أوزبك في رمضان، فأحضرت لحوم الخيل وهي أكثر ما يأكلون من اللحم ولحوم الأغنام والرشتا وهو شبة الأطيرية، يطبخ ويشرب باللبن، وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض أصحابي فقدمتها بين يديه، فجعل إصبعه عليها وجعله على فيه، ولم يزد على ذلك، وأخبرني الأمير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده، وأولاد أولاده نحو أربعين ولداً، قال له السلطان يوماً: كل الحلواء وأعتقكم جميعاً، فأبى وقال: لو قلتني ما أكلتها. ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الأمير تلكتمور، في موضع يعرف بسجاف. فبعث إلى أن أحضر عنده. فركبت إليه. وكان لي فرس معد لركوبه يقوده خديم العربة، فإذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية، فوجدت الأمير قد وضع بها طعاماً كثيراً فيه الخبز، ثم أتوا بماء أبيض في صاحف صغار فشرب القوم منه. وكان الشيخ مظفر الدين يلي الأمير في مجلسه، وأنا أليه فقلت له: ما هذا؟ فقال هذا ماء الدهن. فلم أفهم ما قال. فذقته فوجدت له حوضة فتركته. فلما خرجت سألت عنه فقال هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقي وهم حنفية المذهب، والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقي البوْزة (بضم الباء الموحدة وواو مد وزاي مفتوح). وإنما قال لي الشيخ مظفر الدين: ماء الدخن ولسانه فيه اللكنة الأعجمية فظننت أنه يقول ماء الدهن.

وبعد مسيرة ثمانية عشر متولاً من مدينة القرم ، وصلنا إلى ماء كثير نخوضه يوماً كاملاً ، وإذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله ، وزاد صعوبة . فذهب الأمير إلى راحلتي وقدمني أمامه مع بعض خدامه ، وكتب لي كتاباً إلى أمير أزاق يعلمه أنى أريد القدوم على الملك ، ويحضه على إكرامي . وسرنا حتى انتهينا إلى ماء آخر نخوضه نصف يوم .

ثم سرنا بعده ثلاثة ووصلنا إلى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاي وآخره قاف) ، وهي على ساحل البحر حسنة العماره ، يقصدها الجنوبيون وغيرهم بالتجارات . وبها من الفتيان أخي بمحجي ، وهو من العظام ، يطعم الوارد والصادر . ولما وصل كتاب القاضي تلكتمور إلى أمير أزاق وهو محمد خواجه الخوارزمي ، خرج إلى استقبالي ، معه القاضي والطلبة ، وأخرج الطعام ، فلما سلمنا عليه . نزلنا بموضع أكلنا فيه ، ووصلنا إلى المدينة ونزلنا بخارج جها بمقدمة من رابطة هنالك ، تنسب للحضر والياس عليهما السلام . وخرج شيخ من أهل أزاق يسمى برجب النهر ملكي نسبة إلى قرية بالعراق ، فأضافنا بزاوية له ضيافة حسنة . وبعد يومين من قدومنا قدم الأمير تلكتمور ، وخرج الأمير محمد للقاء ، ومعه القاضي والطلبة وأعدوا له الضيافة ، وضربوا ثلاثة قباب متصلة بعضها ببعض ، إحداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان . وأداروا عليها سراجة وهي المسماة عندنا أفراج ، وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا . ولما نزل الأمير بسطت بين يديه شاقق الحرير يمشي عليها ، فكان من مكارمه وفضله أن قدمني أمامه ليرى ذلك الأمير متزلي عنده ، ثم وصلنا إلى الخباء الأولى ، وهي المعد لجلوسه ، وفي صدرها كرسى من الخشب لجلوسه كبير ، مرصع ، وعليه مرتبة حسنة ، فقدمني الأمير أمامه ، وقدم الشيخ مظفر الدين ، وصعد هو فجلس فيها بينما ، ونحن جميعاً على المرتبة ، وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ، ووقف ولدا

الأمير تلكتمور وأخوه والأمير محمد وأولاده في الخدمة، ثم أتوا بالأطعمة من لحوم الخيل وسواها، وأتوا بألبان الخيل، ثم أتوا بالبوزة، وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالأصوات الحسان. ثم نصب منبر وصعده الواقع وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بلية ودعا للسلطان وللأمير وللحاضرين، يقول ذلك بالعربي، ثم يفسره لهم بالتركي وفي أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجم عجيب، ثم أخذوا في الغناء يغنوون بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتركي. يسمونه الملمع، ثم أتوا بطعم آخر، ولم يزوالوا على ذلك إلى العشي. وكلما أردت الخروج منعي الأمير ثم جاءوا بكسوة للأمير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولـي، وأتوا عشرة أفراس للأمير ولأخيه ولولديه بستة أفراس. ولكل كبير من أصحابه بفرس ولـي بفرس. والخيل بهذه البلاد كثيرة جداً، وثمنها نزر، قيمة الجيد منها خسون درهماً أو ستون من دراهمهم. وذلك صرف دينار من دنانيرنا أو نحوه. وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معاشهم. وهي ببلادهم كالغم ببلادنا بل أكثر، فيكون للتركي منهم آلاف منها.

ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل أنهم يضعون في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لبد في طول الشبر، مربوطة إلى عود رقيق في طول الذراع، في ركن العربة، ويجعل لكل ألف فرس قطعة. ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك. وتحمل هذه الخيل إلى بلاد الهند، فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها، لكل تاجر المائة والمائتان فيها دون ذلك وما فوقه، ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغم ويسمى عندهم القشي، ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمي الخيل في عنقه وجذبه، فيركبه ويترك الآخر للرعي. وإذا وصلوا بها إلى

أرض السندي أطعموها العلف لأن نبات أرض السندي لا يقوم مقام الشعير، ويموت لهم منها الكثير ويسرق، ويغرون عليها بأرض السندي سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال ششنقار، ويغرون عليها بملتان قاعدة بلاد السندي وكانوا فيها تقدم يغرون ربع ما يجلبونه، فرفع ملك الهند إلى السلطان محمد ذلك، وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة، ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم، وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون ديناراً، وربما باعواها بضعف ذلك وضعفه وضعيته والجیاد منها تساوي خمسة دينار . وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يتبعونها للجري والسباق لأنهم يلبسون في الحرب الدروع ويدرعون الخيل وإنما يتبعون قوة الخيل واتساع خطاهما والخيل التي يتبعونها للسباق تجلب إليهم من اليمن وعمان وفارس ويعاد الفرس منها بآلف دينار إلى أربعة آلاف وما سافر الأمير تلكتمور عن هذه المدينة أقيمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الأمير محمد خواجه آلات سفري .

osasفت إلى مدينة الماجر، وهي (بفتح الميم والف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبرى من أحسن مدن الترك، على نهر كبير، وبها البساتين والفاكه الكثيرة، نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائع العراق، وكان خليفة الشيخ أحد الرفاعي رضي الله عنه، وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم، منهم المتزوج والعزب، وعيشهم من الفتوح. ولأهل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء، وفي كل ليلة يأتون إلى الزاوية بالخيل والبقر والغنم، ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به، ويجزلون الإحسان، ويعطون العطاء الكثير، وخصوصاً النساء فإنهن يكثرن الصدقة ويتحرّين أفعال الخير. وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة، فلما قضيت الصلاة صعد الواقع عز الدين المنبر، وهو من فقهاء بخارى وفضلائها، وله

جامعة من الطلبة والقراء يقرأون بين يديه ، ووعظ وذكر ، وأمير المدينة حاضر وكبارها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال : إن الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فرجية مرعza كانت عليه وقال : هذه مني إليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن أعطي فرساً ومن أعطي دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ، ورأيت بقىسارية هذه المدينة يهودياً سلم علي وكلمني بالعربي ، فسألته عن بلاده ، فذكر أنه من بلاد الأندلس ، وأنه قدم منها في البر ولم يسلك بحراً ، وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وببلاد الروم وببلاد الجرجس ، وذكر أن عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر ، وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأننا من الرجال . فأما نساء الأمراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الأمير سلطية في عربة لها ، وكلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وطيقان البيت مفتوحة ، وأبوابه ، وبين يديها أربع جوارٍ ، فاتنات الحسن بدائعات اللباس ، وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الأمير نزلت عن العربة إلى الأرض ، ونزل معها نحو ثلاثة من الجواري يرفعن أذىالها ، ولأثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ، ويرفعن الأذىال عن الأرض من كل جانب ، ومشت كذلك متبحترة فلما وصلت إلى الأمير قام إليها وسلم عليها وأجلسها إلى جانبه ، ودار بها جواريها وجاءوا بروايا القِيمَ ، فصبت منه في قدح وجلست على ركبتيها قدام الأمير ، وناولته القدح فشرب ، ثم سقت أخاه وسقاها الأمير ، وحضر الطعام فأكلت معه وأعطتها كسوة وانصرفت . وعلى هذا الترتيب نساء الأمراء ، وسندكر نساء الملك فيما بعد . وأما نساء الباعة والسوق فرأيتهم ، وإحداهم تكون في العربة والخيل تجرها ، وبين يديها الثلاث والأربع من الجواري ، يرفعن أذىالها . وعلى رأسها البغطاقة ، وهو أقرب ما مر صمع بالجوهر ، وفي أعلى ريش الطواويس وتكون طيقان البيت مفتوحة ، وهي بادية

الوجه ، لأن نساء الأتراك لا يتحجبن وتأتي إحداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبיעه من الناس بالسلع العطرية ، وربما كان مع المرأة منها زوجها فيظنه من يراها بعض خدامها ، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم ، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا وتجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان ، وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بـ ^{يش دع} يعني بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دع الجبل ، وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الأتراك ، ويزعمون أنه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض ، وارتحلنا إلى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان ، فوجدنا المحلة قد خلت فعدنا إلى الموضع الذي رحلنا منه ، لأن المحلة تنزل بالقرب منه فضررت بيتي على تلة هنالك ، وركزت العلم أمام البيت ، وجعلت الخييل والعربات وراء ذلك ، وأقبلت المحلة ، وهم يسمونها الأرد بضم الهمزة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعد في الهواء وهم يطبحون في حال رحيلهم ، والعربات تجرها الخيول بهم ، فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهي خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت . واجتاز بنا خواتين السلطان ، كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منها وهي بنت الأمير عيسى بك وسنذكرها ، رأت البيت بأعلى التل والعلم أمامه ، وهو علامة الوارد فبعثت الفتیان والجواري فسلموا على ، وبلغوا سلامها إلى ، وهي واقفة تنتظرهم فبعثت إليها هدية مع بعض أصحابي ، ومع معرف الأمير تلكتمور فقبلتها تبركاً وأمرت أن أنزل في جوارها وانصرفت ، وأقبل السلطان فنزل في محلته على حدة .

ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان

واسمها محمد أوزبك (بضم الهمز وواو وزاي مسكن وباء موحدة مفتوحة)، ومعنى خان عندهم السلطان. وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم، وببلاده متسعة ومدنه عظيمة منها التكفار والقيرم والماجر وأزاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السرا وهو أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله في أرضه، إمام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، أيد الله أمره وأعز نصره^(١)، وسلطان مصر والشام، وسلطان العراق، والسلطان أوزبك هذا، وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر، وسلطان الهند، وسلطان الصين. ويكون هذا السلطان إذا سافر في محلة على حدة، معه ماليكه وأرباب دولته، وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها، وإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن، بعث إليها يعلمها بذلك، فتتهيأ له. وله في محل قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع. ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة في قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة، وهي من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب، وسطها سرير من خشب، مكسوة بصفائح الفضة المذهبة، وقوائمها فضة خالصة، ورؤوسها مرصعة بالجوائز، ويقعده السلطان على السرير، وعلى يمينه الخاتون طيطغلي، وتليها الخاتون كبك، وعلى يساره الخاتون بييلون، وتليها الخاتون أردوجا، ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك، وعن الشمال ولده الثاني جان بك وتجلس بين يديه ابنته إيت كجك. وإذا أنت إحداهم، قام لها السلطان، وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير، وأما طيطغلي، وهي الملكة

(١) يقصد به السلطان أبا عنان فارس المربي.

وأحظاهن عنده ، فإنه يستقبلها إلى باب القبة ، فيسلم عليها ويأخذ بيدها فإذا صعدت على السرير وجلست ، حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاج .

ويأتي بعد ذلك كبار الأمراء ، فتنصب لهم كراسيمهم عن اليمين والشمال وكل إنسان منهم إذا اتى مجلس السلطان ، يأتي معه غلام بكرسيه ، ويقف بين يدي السلطان أبناء الملك من بنى عمه وإخوته وأقاربه ، ويقف مقابلتهم عند باب القبة أولاد الأمراء الكبار ، ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وعن شمال ، ثم يدخل الناس للسلام بالأمثال فالأمثل ثلاثة ، فيسلمون وينصرفون ، فيجلسون على بعد ، فإذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ، ثم ينصرف سائرهن ، فيتبعها إلى محلتها فإذا دخلت إليها انصرفت كل واحدة إلى محلتها راكبة عربتها ، ومع كل واحدة نحو حسين جارية ، راكبات على الخيل وأمام العربات نحو عشرين من قواعد النساء ، راكبات على الخيل ، فيما بين الفتيان والعربية ، وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان ، وأمام الفتيان نحو مائة من المالك الكبار ، ركباناً ومثلهم مشاة ، بأيديهم القضبان ، والسيوف مشدودة على أوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان ، وهكذا ترتيب كل خاتون منهن في انصرافها وبجيتها . وكان نزولي من المحلة في جوار ولد السلطان جان بك ، الذي يقع ذكره فيما بعد وفي الغد من يوم وصولي دخلت إلى السلطان بعد صلاة العصر ، وقد جمع المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والقراء ، وقد صنع طعاماً كثيراً ، وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد ، والقاضي حمزة في شأنى بالخير ، وأشاروا على السلطان بإكرامي ، وهؤلاء الأترارك لا يعرفون إزال الوارد ولا إجراء النفقة ، وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز ، وتلك كرامتهم وبعد هذا أيام صليت صلاة العصر مع السلطان : فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود ، وجاءوا بالطعام ، من المشروبات كما

يصنع من الدوقي ، ثم باللحوم المسلوقة من الغنم والخيل . وفي تلك الليلة أتت السلطان بطبق حلواء ، فجعل إصبعه عليه وجعله على فيه ، ولم يزد على ذلك .

ذكر الخواتين وترتيبهن

وكل خاتون منها ترکب في عربة للبيت ، وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة الموجة بالذهب أو من الخشب المرصع ، وتكون الخيل التي تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب ، وخدم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي ، والخاتون قاعدة في عربتها ، وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولئك خاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمائلها امرأة من القواعد أيضاً تسمى كجك خاتون (بضم الكاف والجم) ومعنى ذلك الحاجة ، وبين يديها ست من الجواري الصغار ، يقال لهن البنات ، فائقات المجال متناهيات الكمال ، ومن ورائهما اثنان منهن ، تستند إليهن ، وعلى رأس الخاتون البغطاقة ، وهو مثل التاج الصغير مكمل بالجواهر ، وبأعلاها ريش الطواويس ، وعليها ثياب حرير مرصعة بالجواهر شبه الموت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة وال الحاجة مقنعة حرير مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر ، وعلى رأس كل واحدة من البنات الكل ، وهو شبه الأقروف ، وفي أعلىها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر ، وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب من الحرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدي الخاتون عشرة أو خمسة عشر من الفتیان الروميين والمهندین ، وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب ، المرصعة بالجواهر ، وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة ، أو يكون من عود ملبس بها وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة في كل عربة الثلاث والأربع من الجواري الكبار والصغرى ، وثيابهن الحرير ، وعلى رؤوسهن الكل وخلف هذه

العربات نحو ثلاثة عشرة عربة تجرها الجمال والبقر ، وتحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التي ذكرناها فإن العادة عندهن أن لا يدخل بين الجواري من الغلمان إلا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهي على هذا الترتيب ، ولنذكرهن على الانفراد .

ذكر الخاتون الكبرى

والخاتون الكبرى هي الملكة أم ولدي السلطان جان بك وتين بك ، وسنذكرها وليس أم ابنته إيت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيُّطغلي (بفتح الطاء المهملة الأولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) ، وهي أحظى نساء هذا السلطان عنده وعندها يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها ، وإلا فهي أبغى الخواتين . وحدثني من أعتمده من العارفين بأخبار هذه الملكة ، أن السلطان يحبها للخصالية التي فيها ، وهي أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر . وذكر لي غيره أنها من سلالة المرأة التي يذكر أن الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها ولما عاد إليه ملكه أمر أن توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق . وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة . ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبر أنه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها إلا هذه الخاتون اللهم إلا أن بعض أهل الصين أخبرني أن بالصين صنفاً من نسائها على هذه الصورة ولا يقع بيدي ذلك ، ولا عرفت له حقيقة . وفي غد اجتماعي بالسلطان دخلت إلى هذه الخاتون ، وهي قاعدة فيها بين عشر من النساء القواعد كأنهن خديعات لها ، وبين يديها نحو خمسين جارية صغارة

يسمون البناء ، وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك^(١) وهن ينتقينه ، وبين يدي الخاتون صينية ذهب مملوءة منه ، وهي تنقيه ، فسلمنا عليها . وكان في جلة أصحابي قارئ يقرأ القرآن على طبقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب ، فقرأ ، ثم أمرت أن يؤتي بالقمز ، فأتي به في أقداح خشب لطاف خفاف فأخذت القدر بيدها وناولتني إياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ، ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنني إلا قبوله وذقه ولا خير فيه ، ودفعته لأحد أصحابي وسألتني عن كثير من حال سفرنا ، فأجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتدأونا بها لأجل عظمتها عند الملك .

ذكر الخاتون التي تلي الملكة

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الأولى وكسر الباء الموحدة) ومعناها بالتركية النخالة ، وهي بنت الأمير نَغَطِيْ (واسمها بنون وغير معجمة وطاء مهملة مفتوحة وباء مسكونة) ، وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس ، وقد رأيته في غد دخلونا على الملكة . دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم ، وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ، ونحو عشرين من البناء يطرزن ثياباً ، فسلمنا عليها ، وأحسنت في السلام والكلام وقرأ قارئنا فاستحسنته ، وأمرت بالقمز فأحضر وناولتني القدر بيدها كمثل ما فعلته الملكة ، وانصرفنا عنها .

ذكر الخاتون الثالثة

واسمها بَيْلُون (بياء موحدة وآخر الحروف كلامها مفتوح ولا مضموم ، وواو مد ونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا

 (١) ثمار الكرز .

على هذه الخاتون، وهي قاعدة على سرير مرصع، قوائمه نفضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات، منهن قائمات وقاعدات، والفتیان على رأسها، والحجاب بين يديها من رجال الروم فسألت عن حالنا ومقدمنا وبُعد أوطاناً، وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها، رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها، وهي تنظر إلينا. ولما أردنا الانصراف قالت: لا تنقطعوا عنا، وترددوا إلينا وطالبونا بجوائزكم وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت في أثرنا بطعم وخبز كثير وسمن وغنم ودرارهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفري إلى القسطنطينية العظمى، كما نذكره بعد.

ذكر الخاتون الرابعة

واسمها أرْدُجَا (بضم الميم واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة، وهي بنت الأمير الكبير عيسى بك أمير الألوس (بضم الميم واللام) ومعناه أمير الأمراء وأدركته حياً، وهو متزوج ببنت السلطان إيت كجك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطافهن شمائل وأشيقهن وهي التي بعثت إلي لما رأت بيتي على التل عند جواز المحلة كما قدمناه، ودخلنا عليها، فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه، وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها، ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها ودخلنا أيضاً إلى أختها زوجة الأمير علي بن أرزق.

ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك

واسمها إيت كجَّكْ وإيت (بكسر الميم وباء مد وباء مثناة وكجك بضم الكاف وضم الجيم) ومعنى اسمها الكلب الصغير، فإن إيت هو الكلب

وكجك هو الصغير ، وقد قدمنا ان الترك يسمون بالفال ، كما تفعل العرب . وتوجهنا إلى هذه الخاتون بنت الملك ، وهي في محله منفردة على نحو ستة أميال من محله والدها فأمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء^(١) وحضر زوجها الأمير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس ، فلا يستطيع التصرف على قدميه ، ولا ركوب الفرس ، وإنما يركب العربة ، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدامه وأدخلوه إلى المجلس محمولاً . وعلى هذه الصورة رأيت أيضاً الأمير نغطي ، وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية^(٢) في هؤلاء الأتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها وأجزلت الإحسان وأفضلت جزاها الله خيراً .

ذكر ولدي السلطان

وهما شقيقان ، وأمهما جيعا الملكة طيّطعلي التي قدمنا ذكرها ، والأكبر منها اسمه تينِ بك (بتاء معلوّة مكسورة وياء مد ونون مفتوح) ، وبك معناه الأمير ، وتين معناه الجسد . فكان اسمه أمير الجسد . واسم أخيه جانِ بك (بفتح الجيم وكسر النون) ، ومعنى جانِ الروح ، فكانه يسمى أمير الروح . وكل واحد منها له محلة على حدة . وكان تينِ بك من أجمل خلق الله صورة . وعهد له أبوه بالملك . وكانت له الحظوة والتشريف عنده ، ولم يرد الله ذلك ، فإنه لما مات أبوه ولد يسيراً ، ثم قتل لأمور قبيحة جرت له . وولي أخوه جانِ بك ، وهو خير منه وأفضل . وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذي تولى تربية جانِ بك .

(١) تكرر ذكر الفقهاء في هذه العبارة ، ويظهر - والله أعلم - أن المقصود بالأولى - كبار الفقهاء ، وبالأخيرة : عامتهم .

(٢) لا غرابة في ذلك ، فالنقرس يسمى : داء الملوك .

وأشار علىَّ هو والقاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والإمام المقرى حسام الدين البخاري وسواهم حين قدومي أن يكون نزولي بمحلة جان بك المذكور لفضله ، ففعلت ذلك .

ذكر سفري إلى مدينة بلغار

وكنت سمعت بمدينة بلغار^(١) فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضاً، في عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر . فطلبت منه من يوصلني إليها فبعث معي من أوصلني إليها وردني إليها . ووصلتها في رمضان ، فلما صلينا المغرب ، أفطرنا . وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا ، فصليناها وصلينا التراويف والشفع والوتر . وطلع الفجر إثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضاً . وأقمت بها ثلاثة .

ذكر أرض الظلمة

وكنت أردت الدخول إلى أرض الظلمة ، والدخول إليها من بلغار ، وبينها أربعون يوماً . ثم أضربت عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجدها كلاب كبار . فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها . والكلاب لها الأظفار ، فتشتبث أقدامها في الجليد . ولا يدخلها إلا الأقوباء من التجار الذين يكون لأحدهم مائة عجلة أو نحوها ، مُوقرة بطعمه وشرابه وحطبته . فإنها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر . والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة ، وتنتهي قيمته إلى ألف دينار ونحوها ، وترتبط العربة إلى عنقه ، ويقرن معه ثلاثة من الكلاب . ويكون هو المقدم ، تتبعه سائر الكلاب بالعربات . فإذا وقف

(١) هي المعروفة بستالينغراد في الاتحاد السوفيتي ، وصار اسمها اليوم فولغاغراد . (م.ق.)

وقفت . وهذا الكلب لا يضر به صاحبه ولا ينهره ، وإذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولاً قبل بني آدم ، وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف . فإذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة ، نزلوا عند الظلمة ، وترك كل واحد منهم ما جاء به من المtauع هناك ، وعادوا إلى منزلهم المعتمد . فإذا كان من الغد عادوا لتفقد مtaاعهم ، فيجدون بإزائه من السمور والستجابة والقاقم ، فإن أرضي صاحب المtauاع ما وجده إزاء مtaاعه أخيه ، وإن لم يرضه تركه . فيزيدونه ، وربما رفعوا مtaاعهم ، أعني أهل الظلمة ، وتركوا مtaاع التجار . وهكذا يبعهم وشراؤهم . ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هناك من يبايعهم ويشاريهم ، أمن الجن هو أم الإنس . ولا يرون أحداً . والقاقم هو أحسن أنواع الفراء . وتساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار ، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون . وهي شديدة البياض ، من جلد حيوان صغير في طول الشبر ، وذنيه طويل يتركونه في الفروة على حاله . والسمور دون ذلك . تساوي الفروة منه أربعين دينار فما دونها . ومن خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل . وأماء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلأً بفرواتهم عند العنق . وكذلك تجار فارس والغرaciين . وعدت من مدينة بلغار مع الأمير الذي بعثه السلطان في صحبي ، فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببس دغ ، وذلك في الثامن والعشرين من رمضان . وحضرت معه صلاة العيد ، وصادف يوم العيد يوم الجمعة .

ذكر ترتيبهم في العيد

وما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة ، وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها ، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها ، إذ هي الملكة على الحقيقة ، ورثت الملك من أمها ، وركب أولاد السلطان ، كل واحد في عسكره . وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين

السائلين ، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ ، فركبوا وركب القاضي حمزة والإمام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد . وكان ركب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولـي عهد السلطان ، ومعهم الأطفال والأعلام . فصلـيـلـهـمـ القـاضـيـ شـهـابـ الدـيـنـ وـخـطـبـ أـحـسـنـ خـطـبـةـ . وـرـكـبـ السـلـطـانـ ، وـانتـهـىـ إـلـىـ بـرـجـ خـشـبـ يـسـمىـ عـنـدـهـمـ الـكـشـكـ ، فـجـلـسـ فـيـهـ وـمـعـهـ خـواتـيـنـهـ ، وـنـصـبـ بـرـجـ ثـانـِ دـوـنـهـ ، فـجـلـسـ فـيـهـ وـلـيـ عـهـدـهـ وـابـتـهـ صـاحـبـةـ التـاجـ . وـنـصـبـ بـرـجـ دـوـنـهـاـ عنـ يـمـيـنـهـ وـشـمـالـهـ ، فـيـهـمـ أـبـنـاءـ السـلـطـانـ وـأـقـارـبـهـ . وـنـصـبـ الـكـرـاسـيـ لـلـأـمـرـاءـ وـأـبـنـاءـ الـمـلـوـكـ ، وـتـسـمـيـ الصـنـدـلـيـاتـ ، عـنـ يـمـيـنـ الـبـرـجـ وـشـمـالـهـ ، فـجـلـسـ كـلـ وـاحـدـ عـلـىـ كـرـسيـهـ . ثـمـ نـصـبـ طـبـلـاتـ لـلـرـمـيـ ، لـكـلـ أـمـيـرـ طـوـمـانـ طـبـلـةـ مـخـتـصـةـ بـهـ ، وـأـمـيـرـ طـوـمـانـ عـنـدـهـمـ هوـ الـذـيـ يـرـكـبـ لـهـ عـشـرـةـ آـلـافـ . فـكـانـ الـحـاضـرـونـ مـنـ أـمـرـاءـ طـوـمـانـ سـبـعـةـ عـشـرـ ، يـقـودـونـ مـائـةـ وـسـبـعينـ أـلـفـ ، وـعـسـكـرـهـ أـكـثـرـ مـنـ ذـلـكـ . وـنـصـبـ لـكـلـ أـمـيـرـ شـبـهـ مـنـبـرـ فـقـعـدـ عـلـيـهـ ، وـأـصـحـابـهـ يـلـعـبـونـ بـيـنـ يـدـيـهـ . فـكـانـوـاـ عـلـىـ ذـلـكـ سـاعـةـ . ثـمـ أـتـيـ بـالـخـلـعـ ، فـخـلـعـتـ عـلـىـ كـلـ أـمـيـرـ خـلـعـةـ ، وـعـنـدـمـاـ يـلـبـسـهـاـ يـأـتـيـ إـلـىـ أـسـفـلـ بـرـجـ السـلـطـانـ فـيـخـدـمـ ، وـخـدـمـتـهـ أـنـ يـمـسـ أـلـأـرـضـ بـرـكـبـتـهـ الـيـمـنـيـ ، وـيـدـ رـجـلـهـ تـحـتـهـ ، وـالـأـخـرـيـ قـائـمـةـ ، ثـمـ يـؤـتـىـ بـفـرـسـ مـسـرـجـ مـلـجـمـ ، فـيـرـفـعـ حـافـرـهـ ، وـيـقـبـلـ فـيـهـ الـأـمـيـرـ ، وـيـقـودـهـ بـنـفـسـهـ إـلـىـ كـرـسيـهـ . وـهـنـالـكـ يـرـتـبـهـ وـيـقـفـ مـعـ عـسـكـرـهـ . وـيـفـعـلـ هـذـاـ الـفـعـلـ مـعـ كـلـ أـمـيـرـ مـنـهـ .

ثـمـ يـنـزـلـ السـلـطـانـ عـلـىـ بـرـجـ وـيـرـكـبـ الـفـرـسـ ، وـعـنـ يـمـيـنـهـ وـلـيـ عـهـدـ ، وـتـلـيـهـ بـنـتـهـ الـمـلـكـةـ إـيـتـ كـجـكـ ، وـعـنـ يـسـارـهـ اـبـنـهـ الثـانـيـ ، وـبـيـنـ يـدـيـهـ خـواتـيـنـ الـأـرـبـعـ فيـ عـربـاتـ مـكـسـوـةـ بـأـثـوابـ الـحـرـيرـ الـمـذـهـبـ ، وـالـخـيلـ الـتـيـ تـجـرـهـ مـجـلـلـةـ بـالـحـرـيرـ الـمـذـهـبـ . وـيـنـزـلـ جـمـيعـ الـأـمـرـاءـ الـكـبـارـ وـالـصـغـارـ وـأـبـنـاءـ الـمـلـوـكـ وـالـوزـرـاءـ وـالـحـجـابـ وـأـرـبـابـ الـدـوـلـةـ ، فـيـمـشـوـنـ بـيـنـ يـدـيـ السـلـطـانـ عـلـىـ أـقـدـامـهـ ، إـلـىـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ الـوـطـاقـ ، وـالـوـطـاقـ (ـبـكـسـرـ الـوـاـوـ)ـ هـوـ إـفـرـاجـ . وـقـدـ نـصـبـ هـنـالـكـ بـارـكـةـ (ـبـارـكـاهـ)ـ عـظـيمـةـ ، وـالـبـارـكـةـ عـنـدـهـمـ بـيـتـ عـظـيمـ لـهـ أـرـبـعـةـ أـعـمـدـةـ مـنـ الـخـشـبـ مـكـسـوـةـ بـصـفـائـحـ

الفضة المموهة بالذهب ، وفي أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاً ، وتظهر هذه الباركة على بعد كأنها ثنية . ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ، ويفرش ذلك كله بفرش الحرير ، وينصب في وسط الباركة السرير الأعظم ، وهم يسمونه التخت ، وهو من خشب مرصع ، وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة ، وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة ، وفوقه فرش عظيم وفي وسط هذا السرير الأعظم مرتبة مجلس السلطان والخاتون الكبرى ، وعن يمينه مرتبة جلست بها ابنته إيت كجك ومعها الخاتون أردوجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ، ونصب عن شمائله كرسي قعد عليه جان بك ولده الثاني ، ونصبت كراسى عن اليمين والشمال جلس فوقها أبناء الملوك الكبار ، ثم الأمراء الصغار ، مثل أمراء هزاره ، وهم الذين يقودون ألفاً . ثمأتي بالطعام على موائد الذهب والفضة ، وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك . وطعمتهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة ، وتوضع بين يدي كل أمير مائدة ، ويأتي الباروجي ، وهو مقطع اللحم ، وعليه ثياب حرير ، وقد ربط عليها فوطة حرير ، وفي حزامة جلة سكاكن في أغصانها . ويكون لكل أمير باروجي . فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره . ويؤتى بصفحة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء ، فيقطع الباروجي اللحم قطعاً صغاراً وله في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطًا بالعظم ، فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم . ثم يؤتى بأواني الذهب والفضة للشرب ، وأكثر شربهم نبيذ العسل . وهم حنفية المذهب ، يحللون شرب النبيذ . فإذا أراد السلطان أن يشرب ، أخذت ابنته القدح بيدها ، وخدمت برجلها ، ثم ناولته القدح فشرب . ثم تأخذ قدحاً آخر فتناوله للخاتون الكبرى ، فتشرب منه . ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ، ثم ولي العهد القدح ، ويخدم وتناوله إياه فيشرب . ثم الخواتين ثم أخته ، ويخدم جميعهن . ثم

يقوم الولد الثاني فياخذ القدر ويستقي أخيه ويخدم له . ثم يقوم الأمراء الكبار ، فيستقي كل واحد منهم ولـي العهد ويخدم له ، ثم يقوم أبناء الملوك ، ويغدون أثناء ذلك بالموالية . وكانت قد نصبـت قبة كبيرة أيضاً إـزاء المسجد للقاضي والخطيب والشـريف وسائر الفقهاء والـماشـيخ وأـنـا معـهم ، فأـوتـينا بـموـائـدـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ يـحـمـلـ كلـ وـاحـدةـ أـربـعـةـ مـنـ كـبـارـ الـأـتـراكـ . ولاـ يـتـصـرـفـ فـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ بـيـنـ يـدـيـ السـلـطـانـ إـلـاـ الـكـبـارـ ، فـيـأـمـرـهـمـ بـرـفـعـ ماـ أـرـادـ مـنـ مـوـائـدـ إـلـىـ مـنـ أـرـادـ . فـكـانـ مـنـ الـفـقـهـاءـ مـنـ أـكـلـ ، وـمـنـهـمـ مـنـ تـورـعـ عـنـ أـكـلـ فـيـ مـوـائـدـ الـفـضـةـ وـالـذـهـبـ . وـرـأـيـتـ مـدـ الـبـصـرـ عـنـ الـيـمـينـ وـالـشـمـالـ مـنـ الـعـربـاتـ عـلـيـهـاـ روـايـاـ الـقـمـرـ . فـأـمـرـ السـلـطـانـ بـتـفـريـقـهـاـ عـلـىـ النـاسـ . فـأـتـواـ إـلـيـ بـعـرـبةـ مـنـهـاـ ، فـأـعـطـيـتـهـاـ لـجـيـرانـيـ مـنـ الـأـتـراكـ . ثـمـ أـتـيـنـاـ الـمـسـجـدـ تـنـتـظـرـ صـلـاـةـ الـجـمـعـةـ ، فـأـبـطـأـ السـلـطـانـ . فـمـنـ قـائـلـ : إـنـهـ لـاـ يـأـتـيـ . لـأـنـ السـكـرـ قـدـ غـلـبـ عـلـيـهـ ، وـمـنـ قـائـلـ : إـنـهـ لـاـ يـتـرـكـ الـجـمـعـةـ . فـلـمـ كـانـ بـعـدـ تـمـكـنـ الـوقـتـ أـتـيـ وـهـوـ يـتـقـاـيلـ ، فـسـلـمـ عـلـىـ السـيـدـ الشـرـيفـ ، وـتـبـسـمـ لـهـ ، وـكـانـ يـخـاطـبـ بـآـطـاـ ، وـهـوـ الـأـبـ بـلـسـانـ الـتـرـكـيـةـ . ثـمـ صـلـيـنـاـ الـجـمـعـةـ ، وـانـصـرـفـ النـاسـ إـلـىـ مـنـازـلـهـمـ . وـانـصـرـفـ السـلـطـانـ إـلـىـ الـبـارـكـةـ ، فـبـقـىـ عـلـىـ حـالـهـ إـلـىـ صـلـاـةـ الـعـصـرـ . ثـمـ اـنـصـرـفـ النـاسـ أـجـعـونـ وـبـقـىـ مـعـ الـمـلـكـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ خـواـتـينـهـ وـبـنـتـهـ .

ثـمـ كـانـ رـحـيـلـنـاـ مـعـ السـلـطـانـ وـالـمـحـلـةـ لـاـ انـقضـىـ الـعـيـدـ ، فـوـصـلـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ الـحـاجـ تـرـخـانـ ، وـمـعـنـىـ تـرـخـانـ عـنـهـمـ المـوـضـعـ المـحـرـرـ مـنـ الـمـغـارـمـ ، (وـهـوـ بـفـتحـ الـمـشـاهـةـ وـسـكـونـ الـرـاءـ وـبـفـتحـ الـخـاءـ الـمـعـجمـ وـآـخـرـهـ نـونـ) ، وـالـمـنـسـوبـ إـلـيـهـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ . هـوـ حـاجـ مـنـ الصـالـحـينـ تـرـكـيـ نـزـلـ بـمـوـضـعـهـ ، وـحـرـرـ لـهـ السـلـطـانـ ذـلـكـ الـمـوـضـعـ . فـصـارـ قـرـيـةـ عـظـمـتـ وـقـدـنـتـ . وـهـيـ مـنـ أـحـسـنـ الـمـدنـ عـظـيمـةـ الـأـسـوـاقـ مـبـنـيـةـ عـلـىـ نـهـرـ أـتـلـ ، وـهـوـ مـنـ أـنـهـارـ الدـنـيـاـ الـكـبـارـ . وـهـنـالـكـ يـقـيمـ السـلـطـانـ حـتـىـ يـشـتـدـ الـبـرـدـ وـيـجـمـدـ هـذـاـ النـهـرـ وـتـجـمـدـ الـمـيـاهـ الـمـتـصـلـةـ بـهـ ، ثـمـ يـأـمـرـ أـهـلـ تـلـكـ الـبـلـادـ فـيـأـتـونـ بـالـآـلـافـ مـنـ أـحـمـالـ التـبـنـ ، فـيـجـعـلـوـنـهـاـ عـلـىـ الـجـلـيدـ الـمـنـعـقـدـ فـوـقـ الـنـهـرـ . وـالـتـبـنـ هـنـالـكـ

لا تأكله الدواب لانه يضرها ، وكذلك ببلاد الهند ، وإنما أكلها الحشيش الأخضر لخصب البلاد . وي safرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاثة مراحل ، وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء ، فيغرقون ويهلكون . ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حلها عنده وتعود إليه ، فأذن لها . ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمعنى خوفاً على .. فلطفته وقلت له : إنما أدخلها في حرمتك وجوارك ، فلا أخاف من أحد . فأذن لي وودعنه . ووصلني بألف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة . وأعطنتي كل خاتون منهم سبائك الفضة ، وهم يسمونها بصصوم (فتح الصاد المهمل) ، واحدتها صومة . وأعطيت ابنته أكثر منها ، وكستني وأركبني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جلة .

ذكر سفرى إلى القسطنطينية

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون وتحت حرمتها ، ورحل السلطان في تشيعها مرحلة ، ورجع هو والملكة وولي عهده ، وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن ، وسافر صحبتها الأمير بيدره في خمسة آلاف من عسكره . وكان عسكر الخاتون نحو خسمائة فارس ، منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين ، والباقيون من الترك . وكان معها من الجواري نحو مائتين ، وأكثرهن روميات . وكان لها من العربات نحو أربعمائة عربة ، ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ، ونحو ثلاثة من البقر ، ومائتين من الجمال لجرها . وكان معها من الفتيا روميين عشرة ، ومن الهنديين مثلهم . وقادتهم الأكبر يسمى بسنبل الهندي ، وقائد الروميين ويسمى بمخائيل ، ويقول له الأتراك لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار . وتركت أكثر جواريها وأنقاها بمحلة السلطان إذ كانت قد

توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل.

وتوجهنا إلى مدينة أكاك. وهي (بضم الممزة وفتح الكاف الأولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد. وبينها وبين السرا حضرة السلطان مسيرة عشر؛ وعلى مسيرة يوم من هذه المدينة جبال الروس، وهم نصارى شرق الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر، وعندهم معادن الفضة. ومن بلادهم يؤتى بالصوم، وهي سبائك الفضة التي يباع ويشتري في هذه البلاد، وزن الصومة منها خمس أوقية.

ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة إلى مدينة سُرْدَق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف). وهي من مدن دشت قفقج على ساحل البحر، ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها، وبخار جها البساتين والمياه. وينزلها الترك. وطائفة من الروم تحت ذمتهم، وهم أهل الصنائع. وأكثر بيوتها خشب. وكانت هذه المدينة كبيرة. فخراب معظمها بسبب فتنه وقعت بين الروم والترك. وكانت الغلبة للروم. فانتصر للترك أصحابهم، وقتلوا الروم شر قتلة، ونفوا أكثرهم، وبقي بعضهم تحت الذمة إلى الآن. وكانت الضيافة تحمل إلى الخاتون في كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقي والقزم وألبان البقر والغنم. والسفر في هذه البلاد مضحي ومعشي. وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره إلى آخر حد بلاده، تعظيمًا لها، لا خوفاً عليها، لأن تلك البلاد آمنة. ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم بابا سلطوق، وبابا عندهم بمعناه عند البربر سواء، إلا أنهم يفخمون البناء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف)، ويدركون أن سلطوق هذا كان مكاشفاً، لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع. وهذه البلاد آخر بلاد الأتراك، بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوماً في برية غير معمورة، منها

ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء، ويحمل في الروايا والقرب على العربات، وكان دخولنا إليها في أيام البرد، فلم نخرج إلى كثير من الماء. والأتراك يرافقون الألبان في القرب، وينخلطونها بالدوقي المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون. وأخذنا من هذه البلدة في الاستعداد للبرية، واحتاجت إلى زيادة أفراس، فأتيت الخاتون، فأعلمتها بذلك. وكنت أسلم عليها صباحاً ومساءً ومت أتها ضيافة بعث إلى بالفرسين والثلاثة وبالغم. فكنت أترك الخيل لأذجها. وكان من معي من الغلمان، والخدم يأكلون مع أصحابنا الأتراك، فاجتمع لي نحو خمسين فرساً. وأمرت ^ب الخاتون بخمسة عشر فرساً، وأمرت وكيلها ساروجة الرومي أن يختارها سهاناً من خيل المطبخ. وقالت: لا تخف، فإن احتجت إلى غيرها زدناك. ودخلنا البرية في منتصف ذي القعدة. فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان إلى أول البرية تسعة عشر ^(١) يوماً وإقامتنا خمسة. ورحلنا من هذه البرية ثانية عشر يوماً مضحى ومعشى، وما رأينا إلا خيراً والحمد لله.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهُولِي، وهو أول عماله الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المثلثة وواو مد ولا مكسور وباء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها، فوصلنا إلى هذا الحصن فاستقبلنا كفالي نقوله الرومي، في عسكر عظيم وضيافة عظيمة. وجاءت الخواتين والدaiات من دار أبيها ملك القسطنطينية. وبين مهُولي والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوماً، منها ستة عشر يوماً إلى الخليج، وستة منه إلى القسطنطينية. ولا يسافر من هذا الحصن إلا بالخيل والبغال، وتترك العربات به، لأجل الوعر والجبال. وجاء كفالي المذكور ببغال كثيرة، وبعثت إلى الخاتون بستة منها، وأوصت أمير ذلك الحصن بن تركته من أصحابي وغلاني

(١) في بعض طبعات الكتاب: تسعة وعشرين يوماً.

مع العربات والأتقال، فأمر لهم بدار. ورجع الأمير بيدرة بعساكره، لم يسافر مع الخاتون إلا ناسها، وترك مسجدها بهذا الحصن، وارتفع حكم الأذان. وكان يؤتى إليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالختانير، وأخبرني بعض خواصها أنها أكلتها. ولم يبق معها من يصلى إلا بعض الأتراك كان يصلى معنا. وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر، ولكن الخاتون أوصَتَ الأمير كفالي يا كرامي. ولقد ضرب مرة بعض ماليكه لما ضحك من صلاتنا. ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك، وهو بسفح جبل على نهر زخار، يقال له: اصطقيلي، ولم يبق من هذا الحصن إلا آثاره، وبخارجه قرية كبيرة. ثم سرنا يومين، ووصلنا إلى الخليج، وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد، فأقمنا حتى كان الجزر، وخضناه، وعرضه نحو ميلين. ومشينا أربعة أميال في رمال، ووصلنا الخليج الثاني، فخضناه، وعرضه نحو ثلاثة أميال، ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل، ووصلنا الخليج الثالث، وقد ابتدأ المد، فتبعدنا فيه، وعرضه ميل واحد. فعرض الخليج كله مائة وسبعين عشر ميلاً، وتصير ماء كلها في أيام المطر، فلا تخاض إلا في القوارب.

وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفَنِيَّة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مد وكاف مفتوح)، وهي صغيرة، لكنها حسنة مانعة، وكنائسها وديارها حسان، والأنهار تخرقها والبساتين تحفها، ويدخل بها العنبر والإجاص والتفاح والسفرجل من السنة إلى الأخرى. وأقمنا بهذه المدينة ثلاثة. والخاتون في قصر لأبيها هنالك، ثم قدم أخوها شقيقها اسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكبي السلاح، ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرساً أشهب، ولبس ثياباً بيضاء، وجعل على رأسه مظلاً مكلاً بالجواهر، وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، لابسين البياض أيضاً، وعليهم مظللات مزركشة بالذهب، وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس، قد

أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم، وكل واحد منهم يقود فرساً مسراً مدرعاً، عليه شكرة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والترکش والقوس والسيف، وبيده زمح في طرف رأسه راية. وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة. وتلك الخيل المقدمة هي مراكب ابن السلطان. وقسم فرسانه على أفواج، كل فوج فيه مائتا فارس، لهم أمير قد قدم أمامه عشر من الفرسان شاكين في السلاح، وكل واحد منهم يقود فرساً، وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان، وعشرة أطفال يتقلدتها عشرة من الفرسان، ومعهم ستة يضربون الأبواق والأنفار والصرنایات، وهي الغيطات. وركبت الخاتون في ماليكها وجواريها وفتياتها وخدماتها، وهم نحو خمسة، عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة، وعلى الخاتون حلقة يقال لها : النخ، ويقال لها أيضاً : النسيج، مرصعة بالجوهر، وعلى رأسها تاج مرصع، وفرسها مجلل حرير مزركش بالذهب، وفي يده ورجليه خلاخل الذهب، وفي عنقه قلائد مرصعة. وعظم السرج مكسو ذهباً، مكمل جوهراً. وكان التقاوئها في بسيط من الأرض على نحو ميل من البلد. وترجل لها أخوها لأنه أصغر سنًا منها، وقبل ركباه، وقبلت رأسه. وترجل الأمراء وأولاد الملوك، وقبلوا جميعاً ركباه ، وانصرفت مع أخيها. وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر، لا ثبت الآن اسمها، ذات أنهار وأشجار، نزلنا بخارجها. ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع، وعلى رأسه تاج، وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك، وعن يساره مثلهم، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء، إلا أن الحفل أعظم، والجمع أكثر. وتلاقت معه أخيه في مثل زيها الأول، وترجلاً جميعاً. وأتي بخباء حرير فدخلنا فيه. فلا أعلم كيفية سلامها ، ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية. فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان، ركباناً ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس، وضررت

عند الصبح الأطبال والأبواق والأنفار، وركبت العساكر، وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص، وعلى رأس الملك رواق يحمله جلة من الفرسان، ورجال بأيديهم عصي طوال، في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرعنون بها الرואق، وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصي. ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثير العجاج، ولم أقدر على الدخول فيما بينهم، فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها، خوفاً على نفسي. وذكر لي أنها لما قربت من أبويهما ترجلت وقبلت الأرض بين أيديهما، ثم قبلت حافري فرسيهما. وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك. وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى، وقد ضربوا نواعيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها. ولما وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل، معهم قائدهم فوق دكانه. وسمعتمهم يقولون: سراكنوا سراكنوا، ومعناه المسلمين. ومنعونا من الدخول. فقال لهم أصحاب الخاتون: إنهم من جهتنا. فقالوا: لا يدخلون إلا ياذن. فأقمنا بالباب، وذهب بعض أصحاب الخاتون، فبعث من أعلمها بذلك، وهي بين يدي والدها، فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا. وعين لنا داراً بقربة من دار الخاتون، وكتب لنا أمراً بأن لا نعترض حيث نذهب من المدينة، ونودي بذلك في الأسواق. وأقمنا بالدار ثلاثة، فبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدرام والفرش. وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان.

ذكر سلطان القسطنطينية

واسمه تَكْفُور (بفتح التاء المثلثة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس. وأبوه السلطان جرجيس بقيـد الحياة، لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس، وترك الملك لولده وسنـذـكره. وفي اليوم الرابع من

وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إلى الخاتون الفتى سنبل الهندي ، فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب ، في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقادتهم على دكانة مفروشة . فلما وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل ، ثم أتى ومعه أربعة من الفتياں الروميين ، ففتشوني لئلا يكون معی سکین ، وقال لي القائد : تلك عادة لهم ، لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام ، غريب أو بلدي ، وكذلك الفعل بأرض الهند . ثم لما فتشوني قام الموكيل بالباب ، فأخذ بيدي وفتح الباب ، وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي ، وأثنان من ورائي فدخلوا بي إلى مشور كبير ، حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجهاد ، وفي وسطه ساقيه ماء ، ومن جهتها الأشجار والناس واقفون يميناً ويساراً سكتاً لا يتكلم أحد منهم ، وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقفوا . أسلمني أولئك الأربعة إليهم فأمسكوا بيأي كما فعل الآخرون ، وأشار إليهم رجل فتقدموا بي ، وكان أحدهم يهودياً فقال لي بالعربي : لا تحف ، فهو كما عادتهم أن يفعلوا بالوارد ، وأنا الترجاني ، وأصلي من بلاد الشام . فسألته كيف أسلم . فقال : قل السلام عليكم . ثم وصلت إلى قبة عظيمة ، والسلطان على سريره ، وزوجته أم هذا الخاتون بين يديه ، وأسفل السرير الخاتون وإخوتها ، وعن يمينه ستة رجال ، وعن يساره أربعة ، وكلهم بالسلاح . وأشار إلى قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنئها ، ليسكن روعي ، ففعلت ذلك ، ثم وصلت إليه فسلمت عليه ، وأشار إلى أن أجلس فلم أفعل . وسألني عن بيت المقدس ، وعن الصخرة المقدسة ، وعن القامة ، وعن مهد عيسى ، وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، ثم عن دمشق ومصر والعراق وببلاد الروم ، فأجبته عن ذلك كله ، واليهودي يترجم بيبي وبينه . فأعجبه كلامي وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأمنوه . ثم خلع على خلة ، وأمر لي بفرس مسرج ملجم ، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه ، وهي

علامة الأمان . وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم ، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها في بلادي . فعين لي ذلك . ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لثلا يؤذوا فطاووا في الأسواق .

ذكر المدينة

وهي متناهية في الكبر ، منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المد والجزر ، على شكل وادي سلا من بلاد المغرب . وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخررت . وهو الآن يعبر في القوارب . واسم هذا النهر **أَبْسُمِي** (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وباء مد) . وأحد القسمين من المدينة يسمى **أَصْطَنْبُول** (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون التون وضم الباء الموحدة وواو مد ولا م)، وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه سكني السلطان وأرباب دولته وسائل الناس . وأسبوache وشوارعه مفروشه بالصفائح متسعة . وأهل كل صناعة على حدة لا يشار كهم سواهم ، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة به النساء . والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفي أعلىه قلعة صغيرة وقصر السلطان . والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر . وفيه نحو ثلاثة عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة . وأما القسم الثاني منها فيسمى **الْغَلَّاتَة** (بغين معجمة ولا م وطا مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر ، شبيه برباط الفتح في قربه من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج يسكنونه . وهم أصناف ، فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل إفريانسة . وحكمهم إلى ملك القسطنطينية ،

يقدم عليهم منهم من يرثضونه ويسمونه القمص ، وعليهم رظيفة في كل عام ملك القسطنطينية . وربما استعصوا عليه ، فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا . وجميع أهل تجارة ، ومرساهمن من أعظم المراسي ، رأيت به نحو مائة جفن من القراء وسوها من الكبار ، وأما الصغار فلا تمحى كثرة . وأسوق هذا القسم حسنة ، إلا أن الأقدار غالبة عليها ، ويشقها نهر صغير قذر نجس ، وكنائسهم لا خير فيها .

ذكر الكنيسة العظمى

وإنما نذكر خارجها ، وأما داخلها فلم أشاهده . وهي تسمى عندهم **أيا صوفيا** (فتح الممزة والياء آخر الحروف والف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة ويء كالأولى والف) . ويدرك أنها من بناء أصف بن برخاء ، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام . وهي من أعظم كنائس الروم ، وعليها سور يطيف به فكأنها مدينة . وأبوابها ثلاثة عشر باباً ، ولها حرم هو نحو ميل ، عليه باب كبير ، ولا يمنع أحد من دخوله . وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره ، وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع ، مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش بأحسن صنعة ، والأشجار منتظمة عن جهتي الساقية . ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرض من الخشب مرتفع ، عليه دوالي العنبر ، وفي أسفله الياسمين والرياحين ، وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب ، يجلس عليها خدام ذلك الباب . وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب ، يجلس بها قضاitem وكتاب دواوينهم . وفي وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد إليها على درج خشب ، وفيها كرسي كبير مطبق بالملاف ، يجلس فوقه قاضيهم وسند ذكره ، وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين . والساقيه التي ذكرناها تنقسم قسمين أحدهما يمر بسوق العطارين ، والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب ، وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقمون طرقها ويوقدون

سر جها وينغلقون أبوابها ، ولا يدعون أحداً بداخلها حتى يسجد للصلب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقية من الخشبة التي صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام ، وهو على باب الكنيسة ، مجعل في جعبه ذهب طولها نحو عشرة أذرع ، وقد عرضوا عليها جعبه ذهب مثلها ، حتى صارت صليباً . وهذا الباب مصنوع بصفائح الفضة والذهب ، وحلقتاه من الذهب الحالص . وذكر لي أن عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسسين ينتهي إلى آلف ، وأن بعضهم من ذرية الحواريين . وأن بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الأبكار المنقطعت للعبادة أزيد من ألف . وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كله . ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كل يوم صباحاً إلى زياره هذه الكنيسة ، ويأتي إليها البابا مرة في السنة ، وإذا كان على مسيرة أربع من البلد ، يخرج الملك إلى لقائه ويتجل له . وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ، ويأتيه صباحاً ومساء للسلام طوال مقامه بالقدسية حتى ينصرف .

ذكر المانستارات ب القدسية

والمانستار^(١) على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متاخرة ، وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين ، وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والملك القدسية وسنذكره ، وهو بخارج اسطنبول مقابل الغلطة . ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها ، وهما في داخل بستان يشقهما نهر ماء . وأحدهما للرجال والآخر للنساء . وفي كل واحد منها كنيسة ، ويدور بها البيوت للمتعبدين والمتبعدين ، وقد حبس على كل واحد منها أحباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم ، بناها أحد الملوك . ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ،

(١) المانستار هو دير الرهبان (موناستير) .

ويطيف بها بيوت . وأحد هما يسكنه العميان ، والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ، من بلغ الستين أو نحوها . ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك . وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه . وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بني مانستاراً أو لبس المسوح ، وهي ثياب الشعر ، وقلد ولده الملك ، واشتغل بالعبادة حتى يموت . وهم يختلفون في بناء هذه المانستارات ، ويعملونها بالرخام والفصيفاء ، وهي كثيرة بهذه المدينة . ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معه إلى مانستار يشقه نهر ، وفيه كنيسة فيها نحو خمسة بكر ، عليهم المسوح ورؤوسهن محلقة فيها قلانيس اللبد ، ولهن جمال فائق ، وعليهم أنثر العبادة . وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الإنجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه ، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ، ومعهم قسيسهم . فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر . وقال لي الرومي : إن هؤلاء البنات من بنات الملوك ، وهن أنفسهن خدمة هذه الكنيسة ، وكذلك الصبيان القراء ، ولم يكن كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة . ودخلت أيضاً إلى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسة بكر أو أزيد وصبياً يقرأ لهن على منبر ، وجاءة صبيان معه على منابر مثل الأولين ، فقال لي الرومي : هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتبعدن بهذه الكنيسة . ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد ، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء ، وإلى كنائس فيها الرهبان ، يكون في الكنيسة منها مائة رجل أو أكثر أو أقل ، وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون . وكنائسها لا تخصى كثرة . وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاءً وصيفاً ، والنساء لهن عمامات كبار .

ذكر الملك المترهب جرجيس

وهذا الملك ولَّى الملك لابنه، وانقطع للعبادة، وبني مانستاراً كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها. وكنت يوماً مع الرومي المعين للركوب معي فإذا بهذا الملك ماشٍ على قدميه، وعليه المسوح وعلى رأسه قلنوسه لبد، وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان، وبيده عكاز، وفي عنقه سبحة. فلما رأه الرومي نزل وقال لي: انزل فهذا والد الملك. فلما سلم عليه الرومي سأله عني، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي، وكان يعرف اللسان العربي: قل لهذا السراكنوا ، يعني المسلم أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس ، والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قهامة وبيت لحم ، وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه ، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك الموضع من غير ملتهم ، ثم أخذ بيدي ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى ، وأطال السؤال ، ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفاً . ولما قارب الباب الأعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه ، وهو من كبارهم في الرهبانية . ولما رأهم أرسل بيدي فقلت له : أريد الدخول معك إلى الكنيسة . فقال للترجمان : قل له : لا بد لداخلها من السجود للصلب الأعظم ، فإن هذا مما سنته الأوائل ، ولا يكن خلافه ، فتركته ، ودخل وحده ، ولم أره بعدها .

ذكر قاضي القسطنطينية

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب ، فرأني القاضي بعث إلي أحد أعونه ، فسأل الرومي الذي معي ، فقال له : إنه من طيبة المسلمين . فلما عاد إليه وأخبره بذلك بعث إلي أحد أعونه ، وهم يسمون القاضي النجاشي كفالي ، فقال لي : النجاشي كفالي يدعوك ، فصعدت إليه ، إلى القبة التي

تقدّم ذكرها، فرأيت شيخاً حسن الوجه واللّمة، عليه لباس الرهبان وهو الملف الأسود، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون. فقام إلي وقام أصحابه، وقال: أنت ضيف الملك، ويجب علينا إكرامك. وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطّال الكلام وكثُر عليه الازدحام، وقال لي: لا بد لك أن تأتي إلى داري فأضيّفك. فانصرفت عنه، ولم ألقه بعد.

ذكر الانصراف عن القسطنطينية

ولما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها وراغبة في المقام معه، طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم، فأذنت لهم، وأعطتهم عطاء جزيلاً، وبعثت معهم من يوصلهم إلى بلادهم أميراً يسمى ساروجة الصغير في خمسائة فارس، وبجشت عني فأعطيتني ثلاثة دينار من ذهبهم يسمونه البربرة وليس بالطيب، وألغي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات، وهو أجود أنواعه، وعشرة ثواب من حرير وكتان وصوف، وفرسین، وذلك من عطاء أبيها، وأوصت في ساروجة وودعتها وانصرفت. وكانت مدة مقامي عندهم شهراً وستة أيام. وسافرنا صحبة ساروجة، فكان يكرمني، حتى وصلنا إلى آخر بلادهم، حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا، فركبنا العربات ودخلنا البرية، ووصل ساروجة معنا إلى مدينة بابا سلطوق، وأقام بها ثلاثة في الضيافة، وانصرف إلى بلاده، وذلك في اشتداد البرد، وكانت ألبس ثلاثة فروات وسروالين أحدهما مبطن، وفي رجلي خف من صوف، وفوقه خف مبطن بشوب كتان، وفوقه خف من البرغالي وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب، وكانت أتوضاً بالماء الحار بمقربة من النار، فما تقطر من الماء قطرة إلا جمدت ل حينها. وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد فأحر كها فيسقط منها شبه الثلوج، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب، وكانت لا أستطيع الركوب لكثره ما على من الثياب حتى يركبني أصحابي.

ثم وصلت إلى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك ، فوجدناه قد رحل واستقر بحضرته ملكه ؛ فسافرنا على نهر أتل وما يليه من المياه ثلاثةً وهي جامدة. وكنا إذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه في القدرة حتى يصير ماء ، فنشرب منه ونطبخ به . ووصلنا إلى مدينة السرا (وضبط اسمها بين مهمل وراء مفتوحة والـف) ، وتعرف بسرا بركة ، وهي حضرة السلطان أوزبك . ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا ، وعن ملك الروم ومدينته ، فأعلمناه . وأمر بإجراء النفقـة علينا ، وأنزلنا .

ومدينة السرا ، من أحسن المدن ، متناهية الكبر ، في بسيط من الأرض ، تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق ، متعددة الشوارع .

وركينا يوماً مع بعض كبرائها ، وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها ، وكان منزلنا في طرف منها ، فركينا منها غدوة . فما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال ، فصلينا الظهر ، وأكلنا طعامنا . فما وصلنا إلى المنزل إلا عند المغرب ومشينا يوماً في عرضها ذاهبين راجعين في نصف يوم ، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين . وفيها ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة أحدها للشافعية ، وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً . وفيها طوائف من الناس . منهم المغل ، وهم أهل البلاد والسلطانين ، وبعضهم مسلمون ، ومنهم الآص ، وهم مسلمون ، ومنهم القفجق والجركس والروس والروم ، وهم نصارى ؛ وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها ، أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ، ساكنون بمحلة عليها سور ، احتياطاً على أموال التجارة .

وقصر السلطان بها يسمى **الطُّوْنَ طَاشُ** ، وألطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو مد ونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجر وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الأعرج من خيار القضاة .

وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي ، أحد الفضلاء ، وبها من المالكية شمس الدين المصري ، وهو من يطعن في دينه . وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين ، أضافنا بها وأكرمنا ، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعман الدين الخوارزمي ، رأيته بها ، وهو من فضلاء المشايخ ، حسن الأخلاق كرم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا ، يأتي إليه السلطان أوزبك زائراً في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه ، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطاف الكلام ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك . وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان ، فإنه يتواضع لهم ويكلمهم بألطاف الكلام ويكرمهم ، وأكرمني جزاه الله خيراً ، وبعث إلي بغلام تركي ، وشاهدت له بركة .

كرامة له

كنت أردت السفر من السرا إلى خوارزم ، فنهاني عن ذلك ، وقال لي : أقم أياماً وحينئذ نسافر فنمازعني النفس ، ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر . فيهم تجارة أعرفهم ، فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم ، وذكرت له ذلك فقال لي : لا بد لك من الإقامة . فعزمت على السفر فأبقي لي الغلام ، وأقمت بسيبه . وهذه الكرامات الظاهرة .

ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان ، فجاء به إلى فحينئذ سافرت إلى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوماً ، لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ ، وإنما تجر العربات بها الجمال ، فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا إلى مدينة سرآجُوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ، ومعنى جوق صغير . فكانهم قالوا : سرا الصغيرة ، وهي على شاطئ نهر كبير زخار ، يقال له : ألوصُو (بضم الهمزة واللام وواو

وضم الصاد المهمل وواو) ، ومعناه الماء الكبير ، وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد . وإلى هذه المدينة انتهى سفرنا بالخيل التي تجر العربات ، وبعاتها بمحاسب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لأجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة ، واكترينا الجمال لجر العربات . وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمراً من الترك يقال له أَطَا (بفتح الهمز والطاء المهمل) ، ومعناه الوالد ، وأضافنا بها ودعا لنا . وأضافنا أيضاً قاضيها ، ولا أعرف اسمه . ثم سرنا منها ثلاثة يوماً سيراً جاداً لأنزل إلا ساعتين : إحداها عند الضحى ، والأخرى عند المغرب . وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه ، وهو يطبخ من غلية واحدة ، ويكون معهم الخليع من اللحم ، يجعلونه عليه ، ويصبون عليه اللبن . وكل إنسان إنما ينام أو يأكل في عربته حال السير . وكان لي في عربتي ثلاثة من الجواري . ومن عادة المسافرين في هذه البرية الإسراع ، لقلة أعشاشها . والجمال التي تقطعها يهلك معظمها ، وما يبقى منها لا ينتفع به إلا في سنة أخرى ، بعد أن يسمن . والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة ، وهو ماء المطر والحسيان . ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه ، وصلنا إلى خوارزم ، وهي أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجلها وأضخمها ، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الأثيرة . وهي ترتفع بسكنها لكثرةهم ، وتموج بهم موج البحر . ولقد ركبت بها يوماً ودخلت السوق ، فلما توسطته وبلغت متنه الزحام في موضع يقال له الشَّهُور (بفتح الشين المعجم وإسكان الواو) ، لم أستطع أن أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام ، وأردت الرجوع فما أمكنني لكثرة انسان فبقيت متھراً ، وبعد جهد شديد رجعت . وذكر لي بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة . وتوجهت إلى المسجد الجامع والمدرسة . وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك . وله فيها أمير كبير يدعى قطلودمور ، وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواقع المضافة . وأما الجامع فعمرته زوجته

الخاتون الصالحة تُرابتك (بضم التاء المعلوّة وفتح الراء والف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف)، وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني، نسبة إلى صهيون من بلاد الشام. ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم، ولا أكرم نفوساً، ولا أحب في الغرباء. ولهن عادة جليلة في الصلاة لم أرها لغيرهم. وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جiran مسجده معلمًا لهم بحضور الصلاة، فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة، وفي كل جامع درة معلقة برسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع، نعم للقراء والمساكين. ويدركون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قدم الزمان. وبخارج خوارزم نهر جيرون أحد الأنهار الأربع التي من الجنة وهو يحمد في أوان البرد كما يحمد نهر أتل، ويسلك الناس عليه، وتبقى مدة جوده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلوكا. وي safر فيه أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ، ويجلبون منها القمع والشعير، وهي مسيرة عشر للمنحدر. وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبري، وكان من كبار الصالحين. وفيها الطعام للوارد والصادر، وشيخهم المدرس سيف الدين بن عصبة، من كبار أهل خوارزم، وبها أيضاً زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندى، من كبار الصالحين، أضافنا بها. وبخارجها قبر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وعليه قبة. وزمخشر قرية على مسافة أربعة أميال من خوارزم.

ولما أتت بهذه المدينة نزلت بخارجها، وتوجه بعض أصحابي إلى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري، فأبعث إلى نائبه نور الإسلام فسلم على، ثم عاد إليه. ثم أتى القاضي في جماعة من أصحابه فسلم على، وهو فتى السن، كبير الفعال، وله نائبان: أحدهما نور الإسلام المذكور، والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء، وهو الشديد في أحكامه، القوي في ذات الله تعالى.

ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي : إن هذه المدينة كثيرة الزحام ، ودخولكم نهاراً لا ينأى ، وسيأتي إليكم نور الإسلام لتدخلوا معه في آخر الليل ، ففعلنا ذلك . ونزلنا بمدرسة جديدة ليس بها أحد . ولما كان بعد صلاة الصبح أتى إلينا القاضي المذكور ، ومعه من كبار المدينة جماعة منهم ، مولانا همام الدين ، ومولانا زين الدين المقدسي ، ومولانا رضي الدين يحيى ، ومولانا فضل الله الرضوي ، ومولانا جلال الدين العهادي ، ومولانا شمس الدين السنجري إمام أميرها . وهم أهل مكارم وفضائل ، والغالب على مذهبهم الاعتزال ، لكنهم لا يظهرونها ، لأن السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلودمور من أهل السنة . وكنت أيام إقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده ، فإذا فرغت الصلاة ذهبت معه إلى داره ، وهي قرية من المسجد ، فأدخل معه إلى مجلسه ، وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة ، وحيطانه مكسوة بالملف ، وفيه طيقان كثيرة ، وفي كل طاق منها أواني الفضة المموهة بالذهب ، والأواني العراقية . وكذلك عادة أهل تلك البلاد أن يصنعوا في بيوتهم ، ثم يأتي بالطعام الكثير . وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرابع . وهو سلف الأمير قطلودمور ، متزوج بأخت امرأته ، واسمها جيجا أغرا . وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين ، أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي ، والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المتصفع أحد الخطباء الاربعة الذين لم اسمع في الدنيا أحسن منهم .

أمير خوارزم

هو الأمير الكبير قُطْلُوْدُمُور ، وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهمل وضم اللام) ، ودمور (بضم الدال المهمل والميم وواو مد وراء) ، ومعنى اسمه الحديد المبارك . لأن قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد . وهذا الأمير ابن خالة

السلطان المعظم محمد أوزبك ، وأكبر أمرائه ، وهو واليه على خراسان . وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أنها الملكه طيطغلي المتقدم ذكرها ، وامرأته الخاتون ترائك صاحبة المكارم الشهيرة .

ولما أتاني القاضي مسلماً عليّ كما ذكرته ، قال لي : إن الأمير قد علم بقدومك ، وبه بقية مرض ينتعه من الإitan إليك . فركبت مع القاضي إلى زيارته وأتينا داره ، فدخلنا مشوراً كبيراً أكثر بيته خشب ، ثم دخلنا مشوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرفة ، قد كسيت حيطانها بالملف الملون ، وسقفها بالحرير المذهب ، والأمير على فرش له من الحرير ، وقد غطى رجليه لما بها من النقرس ، وهي علة فاشية في الترك ، فسلمت عليه ، وأجلسني إلى جانبه ، وقد القاضي والفقهاء . وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك ، وعن الخاتون بيالون ، وعن أبيها ، وعن مدينة القدسية ، فأعلمه بذلك كله . ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوي والكريكي وأفراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوى ، ثم أتي بموائد أخرى فيها الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ، ومعه ملاعق الذهب . وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ، ومن العنبر والبطيخ العجيب . ومن عوائد هذا الأمير أن يأتي القاضي في كل يوم إلى مشوره ، فيجلس بمجلس معد له ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلة أحد الأمراء الكبار ، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، يسمون الأرغجية (بارغوجي) ، ويتحامك الناس إليهم . فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيها أولئك الأمراء . وأحكامهم مضبوطة عادلة . لأنهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة . ولما عدنا إلى المدرسة بعد الجلوس مع الأمير بعث إلينا الأرز والدقيق والسمن والأزار وأحوال الخطب . وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم ، وكذلك الهند وخراسان وببلاد العجم . وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في

الفحم، ثم إذا صارت رماداً عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبعوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى.

حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد أبي حفص، فقال لي: إن الأمير أمر لك بخمسة درهم، وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسة درهم أخرى، يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه. فلما أمر بذلك قلت له: أينما الأمير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين، لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع. فقال: أفعل ذلك. وقد أمر لك بالألف كاملة، ثم بعثها الأمير صحبة إمامه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه، وصرفها من الذهب المغربي ثلاثة دينار. وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرساً أدهم اللون بخمسة وثلاثين ديناً دراهماً، وركبته في ذهابي إلى المسجد، فما اعطيت منه إلا من تلك الألف. وتکاثرت عندي الخيل بعد ذلك، حتى انتهت إلى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به، ولم تزل حالياً في الزيادة حتى دخلت أرض الهند. وكانت عندي خيل كثيرة، لكنني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه أمام الخيل. وبقي عندي إلى انقضاء ثلاثة سنين. ولما هلك تغيرت حالياً، وبعثت إلى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهماً، وصنعت لي أختها ترابك زوجة الأمير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاوتها التي بنتها، وفيها الطعام للوارد والصادر، وبعثت إلى بفروة سمور وفرس جيد، وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمنهن جزاها الله خيراً.

حكاية

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية، تعرضت لي بالباب امرأة عليها ثياب دنسة، وعلى رأسها مقنعة، ومعها نسوة لا

أذكر عددهن . فسلمت عليَّ ، فرددت عليها السلام ، ولم أقف معها ولا التفت إليها . فلما خرجت أدركتني بعض الناس وقال لي : إن المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون . فخجلت عند ذلك ، وأردت الرجوع إليها فوجدت بها قد انصرفت . فأبلغت إليها السلام مع بعض خدامها واعتذررت عنها كان مني لعدم معرفتي بها .

ذكر بطيخ خوارزم

وبطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقاً ولا غرباً ، إلا ما كان من بطيخ بخارى ، ويليه بطيخ أصفهان . وقشره أخضر ، وباطنه أحمر . وهو صادق الحلاوة ، وفيه صلابة . ومن العجائب أنه يجدد ويبيس في الشمس ، ويجعل في القواصر ، كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتالي المالقي . ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين . وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه . وكانت أيام إقامتي بدھلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون بعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ . وكان ملك الهند إذا أتى إليه بشيء منه بعث إلي به لما يعلم من محبتني فيه . ومن عادته أنه يطرف الغرباء بفواكهه بلادهم ، : ويتفقدهم بذلك .

حكاية

كان قد صحبني من مدينة السرا إلى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى علي بن منصور ، وكان من التجار ، فكنت أكلفه أن يشتري لي الثياب وسواها ، فكان يشتري لي الشوب بعشرة دنانير ، ويقول : اشتريته بثمانية ، ويحاسبني بثمانية ، ويدفع الدينارين من ماله . وأنا لا علم لي بفعله ، إلى أن تعرفت ذلك على ألسنة الناس ، وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير . فلما وصل إلى إحسان أمير خوارزم ردت إليه ما أسلفنيه ، وأردت أن أحسن بعده إليه مكافأة

لأفعاله الحسنة فأبى ذلك ، وحلف أن لا أفعل . وأردت أن أحسن إلى فتى كان له اسمه كافور ، فحلف أن لا أفعل ، وكان أكرم من لقيته من العراقيين . وعزم على السفر معه إلى بلاد الهند . ثم إن جماعة من أهل بلده وصلوا إلى خوارزم برسم السفر إلى الصين ، فأخذ في السفر معهم . فقلت له في ذلك ، فقال : هؤلاء أهل بلدي ، يعودون إلى أهلي وأقاربي ، ويدركونني سافرت إلى الهند برسم الكدية ، فيكون سبباً على ، لا أفعل ذلك ، وسافر معهم إلى الصين فبلغني بعد ، وأنا بأرض الهند أنه لما بلغ إلى مدينة المالق ، وهي آخر البلاد التي من عمالة ما وراء النهر وأول بلاد الصين ، أقام بها ، وبعث فتى له بما كان عنده من المتع ، فأبطأ الفتى عليه . وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ، ونزل معه في فندق واحد . فطلب منه الشريف أن يسلمه شيئاً بخلال ما يصل فتاه ، فلم يفعل ، ثم أكد قبح ما صنع في عدم التوسيعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق . فبلغ ذلك الشريف ، فاغتمّ منه ، ودخل إلى بيته فذبح نفسه ، فأدرك ذبيه رمق ، واتهموا غلاماً كان له بقتله ، فقال : لا تظلموه ، فإني أنا فعلت ذلك . ومات من يومه غفر الله له .

وكان قد حكى لي عن نفسه أنه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قرضاً^(١) ، فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام ، فطلبه بالمال ، وكان قد باع ما اشتري به من المتع بالدين ، فاستحيا من صاحب المال ، ودخل إلى بيته ، وربط عمامته بسقف البيت ، وأراد أن يخنق نفسه . وكان في أجله تأخير ، فتذكر صاحباً له من الصيارة فقصده ، وذكر له القضية ، فسلفه مالاً دفعه للناجر . ولما أردت السفر من خوارزم اكتربت جالاً واشترت محارة ، وكان

(١) أي : مضاربة ، وهي أن يأخذ المال ليعمل فيه على نسبة من الربح متفق عليها إن كان ربع ، فإن كانت خسارة خسر صاحب المال ماله ، وخسر المضارب عمله ،

عدلي بها عفيف الدين التوزري ، وركب الخدام بعض الخيل ، وجللنا باقيها لأجل البرد ، ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى ، وهي مسيرة ثمانية عشر يوماً في رمال لا عمارة بها إلا بلدة واحدة . فودعت الأمير قططودمور ، وخلع على خلعة ، وخلع على القاضي أخرى ، وخرج مع الفقهاء لوداعي . وسرنا أربعة أيام ووصلنا إلى مدينة ألكات ، وليس بهذه الطريق عمارة سواها ، (وضبط اسمها بفتح الممزة وسكون اللام وفتح الكاف وآخره تاء مثناة) ، وهي صغيرة حسنة . نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد . فكان الصبيان يلعبون فوقها ، ويزلقون عليها . وسمع بقدومي قاضي ألكات ، ويسمى صدر الشريعة ، وكانت قد لقيته بدار قاضي خوارزم . فجاء إليّ مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيفي . ثم عرض على القاضي الوصول إلى أمير تلك المدينة . فقال له الشيخ محمود : القادر ينبغي له أن يزار ، وإن كانت لنا همة نذهب إلى أمير المدينة ونأتي به ، ففعلوا ذلك . وأتى الأمير بعد ساعة في أصحابه ، وخدماته فسلمتنا عليه . وكان غرضنا تجحيل السفر ، فطلب منا الإقامة وصنع دعوة ، جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم ، ووقف الشعراء يمدحونه . وأعطاني كسوة وفرساً جيداً ، وسرنا على الطريق المعروفة بسيابة . وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء .

ووصلنا بعد ذلك إلى بلدة وبكَّة (وضبط اسمها بفتح الواو وإسكان الباء الموحدة وكاف ونون) ، وهي على مسيرة يوم واحد من بخارى بلدة حسنة ذات أنهار وبساتين . وهم يدخلون العنبر من سنة إلى سنة ، وعندهم فاكهة يسمونها العَلو (الآلو) بالعين المهملة وتشديد اللام فييسونه ، ويجبله الناس إلى الهند والصين ، ويجعل عليه الماء ، ويشرب ماؤه . وهو أيام كونه أخضر حلو ، فإذا بيس صار فيه يسير حوضة ، ولحميته كثيرة . ولم أر مثله بالأندلس ولا بالمغرب ولا بالشام .

ثم سرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوماً كاملاً، ووصلنا إلى مدينة بخارى التي ينسب إليها إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. وهذه المدينة كانت قاعدة ما وراء نهر جيحون من البلاد، وخرابها اللعين تنكizer التترى ، جد ملوك العراق. فمساجدها الآن ومدارسها وأسوقها خربة إلا القليل ، وأهلها أذلاء ، وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها ، لاشتهرهم بالتعصب ودعوى الباطل وإنكار الحق. وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئاً من العلم ولا من له عنایة به .

ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها

كان تنكizer خان حداداً بأرض الخطا ، وكان له كرم نفس وقوه وبسطة في الجسم ، وكان يجمع الناس ويطعمهم. ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم ، وغلب على بلده وقوى واشتدت شوكته واستفحى أمره ، فغلب على ملك الخطا ، ثم على ملك الصين. وعظمت جيوشه ، وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق. وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، له قوة عظيمة وشوكة ، فهابه تنكizer وأحجم عنه ولم يتعرض له. فاتفق أن بعث تنكizer تجارةً بأمتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها إلى بلدة أطرار (بضم الممزة) ، وهي آخر عمالة جلال الدين. بعث إليه عامله عليها ، معلماً بذلك ، واستأذنه ما يفعل في أمرهم ، فكتب إليه يأمره أن يأخذ مواههم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم إلى بلادهم ، لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأياً فائلاً وتدبرياً سيئاً مشئوماً. فلما فعل ذلك ، نجهز تنكizer بنفسه في عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الإسلام. فلما سمع ناصل أطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره ، فذكر أن أحد هم دخل محلة عض أمراء تنكizer في صورة سائل ، فلم يجد من يطعمه. ونزل إلى جانب رجل

منهم فلم ير عنده زاداً، ولا أطعنه شيئاً. فلما أمسى أخرج مطراناً يابسة عنده، فبلّها بالماء، وفصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار، فكانت طعامه. فعاد إلى أطوار، فأخبر عاملها بأمرهم، وأعلمه أن لا طاقة لأحد بقتالهم. فاستمد مليكه جلال الدين، فأمده بستين ألفاً زيادة على من كان عنده من العساكر. فلما وقع القتال هزمهم تنكizer، ودخل مدينة أطوار بالسيف، فقطل الرجال وسبى الذراري، وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته، فكانت بينهم وقائع لا يعلم في الإسلام مثلها. وأآل الأمر إلى أن تملك تنكizer ما وراء النهر، وخرب بخاري وسمرقند وترمذ، وعبر النهر، وهو نهر جيحون، إلى مدينة بلخ فتملّكتها، ثم إلى اليمانيان (الباميان) فتملّكتها، وأوغل في بلاد خراسان و العراق العجم. فثار عليه المسلمون في بلخ، وفي ما وراء النهر. فكرّ عليهم، ودخل بلخ بالسيف، وتركها خاوية على عروشها.

ثم فعل مثل ذلك في ترمذ، فخرّبت، ولم تعمّر بعد، لكن بنيت مدينة على ميلين منها هي التي تسمى اليوم ترمذ. وقتل أهل اليمانيان (الباميان) وهدمها بأسرها إلا صومعة جامعها، وعفا عن أهل بخاري وسمرقند، ثم عاد بعد ذلك إلى العراق. وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الإسلام ودار الخلافة ببغداد بالسيف، وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله.

قال ابن جزي: أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال: سمعت الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد يقول: لقيت بمكة نور الدين بن الزجاج من علماء العراق، ومعه ابن أخي له، فتفاوضنا الحديث، فقال لي: هلك في فتنة التتر بالعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم، ولم يبق منهم غيري وغير ذلك، وأشار إلى ابن أخيه.

قال، ونزلنا من بخاري بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ

العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخري ، وكان من كبار الأولياء . وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة ، لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر ، وشيخها من ذريته ، وهو الحاج السياح يحيى الباخري . وأضافني هذا الشيخ بداره ، وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالأصوات الحسان ، ووعظ الواعظ ، وغنوا بالتركي والفارسي على طريقة حسنة . ومرت لنا هنالك ليلة بدعة من أعجب الليالي ، ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة ، وكان قد قدم من هرة ، وهو من الصلحاء الفضلاء . وزرت بخارى قبر الإمام العالم أبي عبد الله البخاري مصنف الجامع الصحيح ، شيخ المسلمين رضي الله عنه ، وعليه مكتوب : هذا قبر محمد بن إسماعيل البخاري ، وقد صنف من الكتب كذا وكذا . وأيضاً على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم . وكانت قيدت من ذلك كثيراً ، وضاع مني في جلة ما ضاع لي ، لما سلبني كفار الهند في البحر .

ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين ، وسنذكره . فمررنا على نخشب ، البلدة التي ينسب إليها الشيخ أبو تراب النخشبى . وهي صغيرة ، تحف بها البساتين والمياه . فنزلنا بخارجها ، بدار لأميرها ، وعندى جارية قد قاربت الولادة ، وكانت أردت حلها إلى سمرقند لتلد بها . فاتفق أنها كانت في المحمل ، فوضع المحمل على الجمل ، وسافر أصحابنا من الليل ، وهي معهم والزاد وغيره من أسبابي . وأقمت أنا حتى أرتحل نهاراً مع بعض من معي . فسلكوا طريقاً ، وسلكت طريقاً سواها . فوصلنا عشية النهار إلى محلة السلطان المذكور ، وقد جعنا ، فنزلنا على بعد من السوق ، واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعتنا . وأغارنا بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة . ومضى أصحابنا من الغد في البحث عن الجمال وباقى الأصحاب ، فوجدوهم عشاً ، وجاءوا بهم . وكان السلطان غائباً عن المحلة في الصيد ،

فاجتمعت بناته الأمير تقبعاً، فأنزلني بقرب مسجده، وأعطياني خرقه (خركاه) وهي شبه الخبراء، وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم، فجعلت الجارية في تلك الخرقه، فولدت تلك الليلة مولوداً، وأخبروني أنه ولد ذكر. ولم يكن كذلك، فلما كان بعد العقيقة، أخبرني بعض الأصحاب أن المولود بنت. فاستحضرت الجواري فسألتهن فأخبروني بذلك. وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد، فرأيت كل ما يسرني ويرضيني منذ ولدت. وتوفيت بعد وصولي إلى الهند بشهرين، وسيذكر ذلك. واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة)، ومعناه بالتركية التأثر. وهو من أهل أطهار، وبالشيخ صهر السلطان.

ذكر سلطان ما وراء النهر

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرْمَشِيرِين (وضبط اسمه بفتح الطاء المهمel وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مد وراء مكسور وياء مد ثانية ونون)، وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم، وببلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار، وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والمملكة أوزبك. وكلهم يهابونه، ويعظمونه ويكرمونه. وولي الملك بعد أخيه الجكتري (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة له الكاف والطاء المهمel وسكون الياء). وكان الجكتري هذا كافراً، وولي بعد أخيه الأكبر كبك، وكان كبك هذا كافراً أيضاً، لكنه كان عادل الحكم منصفاً للمظلومين، يكرم المسلمين ويعظمهم.

حكاية

يدرك أن هذا الملك كبك كان تكلم يوماً مع الفقيه الواعظ المذكور بدر الدين الميداني فقال له: أنت تقول: إن الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز. قال: نعم.

فقال: أين اسمي فيه؟ فقال: هو في قوله تعالى ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فأعجبه ذلك. وقال: يخشى ، ومعناه بالتركية جيد . فأكرمه إكراماً كثيراً ، وزاد في تعظيم المسلمين .

حكاية

ومن أحكام كبك ما ذكر أن امرأة شكت له بأحد الأمراء ، وذكرت أنها فقيرة ذات أولاد . وكان لها لبن تقوتهم بشمنه ، فاغتصبه ذلك الأمير وشربه . فقال لها: أنا أوسطه . فإن خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله ، وإلا وسطتك بعده . فقالت المرأة: قد حللته ولا أطلب بشيء . فأمر به فوسط فخرج اللبن من بطنه . ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ، ولما أقمت بال محللة ، وهم يسمونها الأردو أيامًا ، ذهبت يوماً لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي ، فلما صليت ذكر لي بعض الناس أن السلطان بالمسجد . فلما قام عن الصلاة تقدمت للسلام عليه ، وقام الشيخ حسن ، والفقير حسام الدين الياحي ، وأعلمته بحاله وقدومي منذ أيام . فقال لي بالتركية: خش ميسن يخشى ميسن قطلو يوسن ، ومعنى خش ميسن في عافية أنت ، ومعنى يخشى ميسن جيد أنت ، ومعنى قطلو يوسن مبارك قدومك . وكان عليه في ذلك الحين قباء قدسي أخضر ، وعلى رأسه شاشية مثله . ثم انصرف إلى مجلسه راجلاً ، والناس يتعرضون له بالشكایات ، فيقف لكل مشتكٍ منهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى . ثم بحث عني فوصلت إليه وهو في خرقه ، والناس خارجها ميمونة وميسرة ، والأمراء منهم على الكراسي ، وأصحابهم وقوف على رؤوسهم ، وبين أيديهم ، وسائر الجنود قد جلسوا صفوفاً ، وأمام كل واحد منهم سلاحه . وهم أهل النوبة يقعدون هنالك إلى العصر ، ويأتي آخرون فيقعدون إلى آخر الليل . وقد صنعت هنالك سcaff من ثياب القطن يكونون

بها . ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة ، وجدته جالساً على كرسى شبه المنبر ، مكسوٍ بالحرير المزركش بالذهب ، وداخل الخرقة ملبس بشيات الحرير المذهب ، والتاباج المرصع بالجوهر والليواقت معلق فوق رأس السلطان ، بينه وبين رأسه قدر ذراع . والأمراء الكبار على الكراسي عن يمينه ويساره ، وأولاد الملوك بأيديهم المذابب بين يديه ، وعند باب الخرقة الثنائي والوزير وال حاجب وصاحب العلامة . وهم يسمون آل طمغى وآل (بفتح الهمزة) معناه الآخر وطمغى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) معناه العلامة . وقام إلى أربعتهم حين دخوله ودخلوا معه ، فسلمت عليه وسائلني ، وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه ، عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله ، وعن مدينة الخليل عليه السلام ، وعن دمشق ومصر والملك الناصر ، وعن العراقين وملكيهما ، وببلاد الأعاجم . ثم أذن المؤذن بالظهور فانصرنا . وكنا نحضر معه الصلوات ، وذلك أيام البرد الشديد المهلك . فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس . و يأتي إليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده . وكذلك يفعلون في صلاة العصر . وكان إذا أُوتى بهدية من زبيب أو ثمر ، والتمر عزيز عندهم ، وهم يتبركون به ، يعطي منها بيده لكل من في المسجد .

حكاية

ومن فضائل هذا الملك أنه حضرت صلاة العصر يوماً ، ولم يحضر السلطان . فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبلة المحراب حيث جرت عادته أن يصلى ، وقال للإمام حسام الدين اليايugi : إن مولانا يريد أن تنتظره بالصلاوة قليلاً ريثما يتوضأ . فقام الإمام المذكورة وقال : نماز ، و معناه الصلاة ، برأي حد أو برأي

طرمشيرين ، أي الصلاة لله أو لطريشين . ثم أمر المؤذن بإقامة الصلاة . وقد جاء السلطان ، وقد صُلِّي منها ركعتان ، فصلَّى الركعتين الآخرَيْن حيث انتهى به القيام ، وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنجلة الناس عند باب المسجد ، وقضى ما فاته ، وقام إلى الإمام ليصافحه وهو يضحك ، وجلس قبلة المحراب ، والشيخ الإمام إلى جانبه ، وأنا إلى جانب الإمام . فقال لي : إذا مشيت إلى بلادك ، فحدث أن فقيراً من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك . وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ، ويأمر السلطان بالمعروف ، وينهاء عن المنكر وعن الظلم ، ويغليظ عليه القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكي . وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئاً ، ولم يأكل قط من طعامه ، ولا ليس من ثيابه . وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين . وكنت كثيراً ما أرى عليه قباء قطن مبطن بالقطن محشوأً به ، وقد بلي وتنزق ، وعلى رأسه قلنوسة لم يساوي مثلها قيراطاً ، ولا عمامة عليه . فقلت له في بعض الأيام : يا سيدِي ، ما هذا القباء الذي أنت لا تلبسه ؟ إنه ليس بجيد . فقال لي : يا ولدي ليس هذا القباء لي ، وإنما هو لأبني ، فرغبت منه أن يأخذ بعض ثيابي ، فقال لي : عاهدت الله منذ حسين سنة أن لا أقبل من أحد شيئاً ، ولو كنت أقبل من أحد لقلبت منك . ولما عزمت على السفر بعد مقامي عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوماً ، أعطاني السلطان سبعمائة دينار دراهم ، وفروة سمور تساوي مائة دينار ، طلبتها منه لأجل البرد . ولما ذكرتها له أخذ أكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعـاً منه وفضلاً وحسن خلق ، وأعطاني فرسين وجلين . ولما أردت وداعه أدركته في أثناء طريقه إلى متصيده . وكان اليوم شديد البرد جداً . فو الله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطاني يده وانصرفت . وبعد سنتين من وصولي إلى أرض الهند بلغنا الخبر بأن الملاً من قومه وأمرائه اجتمعوا بأقصى بلاده المجاورة للصين ، وهنالك معظم عساكره ، وبايعوا ابن عم له اسمه بُوزُنْ أغلي وكل من

كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلي (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبُوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاي) ، وكان مسلماً إلا أنه فاسد الدين سيء السيرة . وسبب بعثتهم له وخلعهم لطرمشرين أن طرمشرين خالف أحكام جدهم تنكizer اللعين الذي خرب بلاد الإسلام ، وقد تقدم ذكره . وكان تنكizer ألف كتاباً في أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) ، وعندهم أنه من خالف أحكام هذا الكتاب فالخلعه واجب . ومن جلة أحكامه أنهم يجتمعون يوماً في السنة يسمونه الطوى ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكizer والأمراء من أطراف البلاد ، ويحضر الخواتين وكبار الأجناد ، وإن كان سلطانهم قد غير شيئاً من تلك الأحكام يقوم إليه كبراؤهم فيقولون له : غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا ، وقد وجب خلعك . ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ، ويقعدون غيره من أبناء تنكizer ، وإن كان أحد الأمراء الكبار أذنب ذنباً في بلاده حكموا عليه بما يستحقه . وكان السلطان طرمشرين قد أبطل حكم هذا اليوم ، ومحا رسمه ، فأنكروه عليه أشد الإنكار ، وأنكروا عليه أيضاً كونه أقام أربع سنين فيها يلي خراسان من بلاده ، ولم يصل إلى الجهة التي تولى الصين . والعادة أن الملك يقصد تلك الجهة في كل سنة ، فيختبر أحوالها وحال الجندي بها ، لأن أصل ملكهم منها . ودار الملك هي مدينة المالق . فلما بايعوا بُوزن أتق في عسكر عظيم ، وخاف طرمشرين على نفسه من أمرائه ، ولم يأمنهم ، فركب في خمسة عشر فارساً ، يريد بلاد غزنة ، وهي من عهاته ، وواليها كبير أمرائه ، وصاحب سره برنطيه ، وهذا الأمير محب في الإسلام والمسلمين ، قد عمر في عهاته نحو أربعين زاوية ، فيها الطعام للوارد والصادر . وتحت يده العساكر العظيمة ، ولم أر قط فيمنرأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه . فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ ، رآه بعض الأتراك من أصحاب ينقى ابن أخيه كبك . وكان السلطان طرمشرين المذكور

قتل أخاه كبك المذكور ، وبقي ابنه ينقى ببلغه . فلما أعلمته التركي بخبره قال : ما فر إلا لأمر حدث عليه . فركب في أصحابه وقبض عليه وسجنه . ووصل بوزن إلى سمرقند وبخارى فباعه الناس ، وجاءه ينقى بطرمشيرين ، فيذكر أنه لما وصل إلى نصف ، بخارج سمرقند ، قتل هنالك ودفن بها ، وخدم تربته الشيخ شمس الدين كُرْدَن بريدا . وقيل : إنه لم يقتل ، كما سند كره . وكُرْدَن (بكاف معقدة وراء مسكن ودال مهمم مفتوح ونون) ومعناه العنق ، وبُرِيدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وفاء مد ودال مهمم) معناه المقطوع . ويسمى بذلك لضربة كانت في عنقه ، وقد رأيته بأرض الهند ، ويقع ذكره فيها بعد . ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرشيرين ، وهو بشاي أغلى (أغلي) ، وأخته وزوجها فiroز إلى ملك الهند ، فعظمتهم وأنزلهم منزلاً عليه بسبب ما كان بينه وبين طرشيرين من الود والمكابحة والهاداة ، وكان يخاطبه بالأخ . ثم بعد ذلك أتى رجل من أرض السند ، وادعى أنه هو طرشيرين ، واختلف الناس فيه . فسمع بذلك عمار الملك سرتيز غلام ملك الهند ، ووالي بلاد السند ، ويسمى ملك عرض . وهو الذي تعرض بين يديه عساكر الهند ، وإليه أمرها ، ومقره بملتان قاعدة السند . فبعث إليه بعض الأتراك العارفين به ، فعادوا إليه وأخبروه أنه هو طرشيرين حقاً . فأمر له بالسراجة ، وهي أفراح . فضرب خارج المدينة ، ورتب له ما يرتب لمله ، وخرج لاستقباله ، وترجل له وسلم عليه ، وأتى في خدمته إلى السراجة ، فدخلها راكباً كعادة الملوك . ولم يشك أحد أنه هو . وبعث إلى ملك الهند يخبره ، فبعث إليه الأمراء يستقبلونه بالضيافات . وكان في خدمة ملك الهند حكيم من خدم طرشيرين فيما تقدم ، وهو كبير الحكام بالهند . فقال للملك : أنا أتوجه إليه ، وأعرف حقيقة أمره ، فإني كنت عالجت له دملاً تحت ركبته وبقي أثره ، وبه أعرفه . فأتى إليه ذلك الحكيم ، واستقبله مع الأمراء ، ودخل عليه ولازمه لسابقه عنده ، وأخذ يغمز رجليه ، وكشف عن الأثر فشتمه . وقال له : تزيد أن تنظر

إلى الدمل الذي عالجه؟ ها هو ذا وأراه أثره. فتحقق أنه هو. وعاد إلى ملك الهند فأعلمه بذلك. ثم إن الوزير خواجة جهان أحمد بن إيس و كبير الأمراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند، وقالا له: يا خوند عالم، هذا السلطان طرمشيرين قد وصل. وصح أنه هو. وها هنا من قومه نحو أربعين ألفاً ولده وصهره.رأيت إن اجتمعوا عليه ما يكون من العمل؟ فوقع هذا الكلام بوعي منه عظيم. وأمر أن يؤتى بطرمشيرين معجلأ. فلما دخل عليه أمر بالخدمة كسائر الواردين، ولم يعظم. وقال له السلطان: بامادر كانى، وهي شتمة قبيحة، كيف تكذب وتقول: إنك طرمشيرين؟ وطرمشيرين قد قتل. وهذا خادم تربته عندنا. والله لولا الميرة لقتلتك. ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار، واذهبوا به إلى دار بشاي أغلي وأخته ولدي طرمشيرين، وقولوا لهم: إن هذا الكاذب يزعم أنه والدكم. فدخل عليهم فعرفوه. وبات عندهم والحراس يحرسونه وأخرج بالغد، وخفوا أن يهلكوا بسببه فأنكروه.

ونفي عن بلاد الهند والستاند، فسلك طريق كنج ومكران، وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهدونه، ووصل إلى شيراز، فأكرمه سلطانها أبو إسحق، وأجرى له كفایته. ولما دخلت عند وصولي من الهند إلى مدينة شيراز، ذكر لي أنه باق بها. وأردت لقاءه، ولم أفعل، لأنه كان في دار لا يدخل إليه أحد إلا بإذن من السلطان أبي إسحق. فخفت مما يتوقع بسبب ذلك، ثم ندمت على عدم لقائه.

رجع الحديث إلى بوزن: وذلك أنه لما ملك ، ضيق على المسلمين ، وظلم الرعية ، وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم . فضج المسلمون من ذلك وترbusوا به الدوائر . واتصل خبره بخليل ابن السلطان اليسور المهزوم على خراسان ، فقصد ملك هراة ، وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين

الغوري، فأعلمـه بما كان في نفسه، وسأـل منه الإعـانة بالعـساـكر والـمال على أن يـشاـطـرهـ الملكـ إذاـ استـقـامـ. فـبـعـثـ معـهـ الـمـلـكـ حـسـينـ عـسـكـراًـ عـظـيـماًـ. وـبـيـنـ هـرـاـةـ وـتـرـمـذـ تـسـعـةـ أـيـامـ. فـلـمـ سـمـعـ أـمـرـاءـ السـلـطـانـ بـقـدـومـ خـلـيلـ تـلـقـوـهـ بـالـسـمـعـ وـالـطـاعـةـ وـالـرـغـبـةـ فيـ جـهـادـ العـدـوـ. وـكـانـ أـوـلـ قـادـمـ عـلـيـهـ عـلـاءـ الـمـلـكـ خـداـونـدـ زـادـهـ صـاحـبـ تـرـمـذـ، وـهـوـ أـمـيرـ كـبـيرـ شـرـيفـ حـسـينـ النـسـبـ. فـأـتـاهـ فيـ أـرـبـعـةـ آـلـافـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ، فـسـرـّـ بـهـ وـوـلاـهـ وـزـارـتـهـ، وـفـوـضـ إـلـيـهـ أـمـرـهـ، وـكـانـ مـنـ الـأـبـطـالـ. وـجـاءـ الـأـمـرـاءـ مـنـ كـلـ نـاحـيـةـ وـاجـتـمـعـواـ عـلـىـ خـلـيلـ وـالتـقـىـ مـعـ بـوزـنـ. فـهـمـلتـ الـعـسـاـكـرـ إـلـىـ خـلـيلـ، وـأـسـلـمـواـ بـوزـنـ وـأـتـواـ بـهـ أـسـيـراًـ. فـقتـلـهـ خـنـقاًـ وـبـأـوـتـارـ الـقـسـيـ. وـتـلـكـ عـادـةـ لـهـ أـنـهـ لـاـ يـقـتـلـوـنـ مـنـ كـانـ مـنـ أـبـنـاءـ الـمـلـوـكـ إـلـاـ خـنـقاًـ. وـاستـقـامـ الـمـلـكـ خـلـيلـ، وـعـرـضـ عـسـاـكـرـهـ بـسـمـرـقـندـ، فـكـانـواـ ثـمـانـيـنـ أـلـفـاًـ، عـلـيـهـمـ وـعـلـىـ خـيـلـهـمـ الدـرـوـعـ. فـصـرـفـ الـعـسـكـرـ الـذـيـ جـاءـ بـهـ مـنـ هـرـاـةـ، وـقـصـدـ بـلـادـ الـمـالـقـ. فـقـدـمـ التـتـرـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ وـاحـدـاًـ مـنـهـمـ، وـلـقـوـهـ عـلـىـ مـسـيـرـةـ ثـلـاثـ مـنـ الـمـالـقـ، بـمـقـرـبـةـ مـنـ أـطـرـازـ (ـطـرـازـ). وـحـيـ القـتـالـ، وـصـبـرـ الـفـرـيقـانـ. فـحملـ الـأـمـيرـ خـداـونـدـ زـادـهـ وـزـيـرـهـ فـيـ عـشـرـيـنـ أـلـفـاـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ حـمـلـةـ لـمـ يـثـبـتـ لـهـ التـتـرـ، فـانـهـزـمـواـ وـاشـتـدـ فـيـهـمـ الـقـتـلـ. وـأـقـامـ خـلـيلـ بـالـمـالـقـ ثـلـاثـاًـ، وـخـرـجـ إـلـىـ اـسـتـئـصـالـ مـنـ بـقـيـ مـنـ التـتـرـ، فـأـذـعـنـواـ لـهـ بـالـطـاعـةـ. وـجـازـ إـلـىـ تـخـومـ الـخـطاـ وـالـصـينـ، وـفـتـحـ مـدـيـنـةـ قـرـاقـرـ وـمـدـيـنـةـ بـشـ بـالـغـ. وـبـعـثـ إـلـيـهـ سـلـطـانـ الـخـطاـ بـالـعـسـاـكـرـ، ثـمـ وـقـعـ بـيـنـهـاـ الـصـلـحـ. وـعـظـمـ أـمـرـ خـلـيلـ، وـهـابـتـهـ الـمـلـوـكـ، وـأـظـهـرـ الـعـدـلـ، وـرـتـبـ الـعـسـاـكـرـ بـالـمـالـقـ، وـتـرـكـ بـهـاـ وـزـيـرـهـ خـداـونـدـ زـادـهـ. وـانـصـرـفـ إـلـىـ سـمـرـقـندـ وـبـخارـيـ. ثـمـ إـنـ التـرـكـ أـرـادـواـ الـفـتـنـةـ، فـسـعـواـ إـلـىـ خـلـيلـ بـوـزـيـرـهـ المـذـكـورـ، وـزـعـمـواـ أـنـ يـرـيدـ الـثـوـرـةـ، وـيـقـولـ، إـنـ أـحـقـ بـالـمـلـكـ، لـقـرـابـتـهـ مـنـ النـبـيـ صـلـلـهـ وـكـرـمـهـ وـشـجـاعـتـهـ. فـبـعـثـ وـالـيـاـ إـلـىـ الـمـالـقـ عـوـضـاـ عـنـهـ، وـأـمـرـهـ أـنـ يـقـدـمـ عـلـيـهـ نـفـرـ يـسـيرـ مـنـ أـصـحـابـهـ. فـلـمـ فـدـمـ عـلـيـهـ قـتـلـهـ عـنـدـ وـصـولـهـ مـنـ غـيرـ تـثـبـتـ. فـكـانـ ذـلـكـ سـبـبـ خـرـابـ مـلـكـهـ. وـكـانـ خـلـيلـ، لـمـ عـظـمـ أـمـرـهـ، بـغـيـ عـلـىـ صـاحـبـ هـرـاـةـ الـذـيـ أـورـثـهـ الـمـلـكـ

وأجهزه بالعساكر والمال. فكتب إليه أن يخطب في بلاده باسمه، ويضرب الدنانير والدرارهم على سكته، فغاظ ذلك الملك حسيناً، وأنف منه وأجابه بأقبح جواب. فتجهز خليل لقتاله، فلم توافقه عساكر الإسلام ورأوه باغياً عليه. وبلغ خبره إلى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا، والتقي الجمعان. فانهزم خليل وأتى به إلى الملك حسين أسيراً، فمنّ عليه بالبقاء، وجعله في دار، وأعطيه جارية، وأجرى عليه النفقـة. وعلى هذا الحال تركته عنده، في أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجي من الهند.

ولنعد إلى ما كنا بسبيله: ولما ودعت السلطان طرمشيرين، سافرت إلى مدينة سمرقند. وهي من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جالاً. مبنية على شاطئِ وادٍ يعرف بوادي القصارين، عليه النواعير تسقى البساتين. وعندـه يجتمع أهلـ البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج. و لهم عليه مساطب و مجالس يقعدون عليها، ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات. وكانت على شاطئـه قصور عظيمة، وعمارة تنبـىء عن علوـ هممـ أهلـها. فدثر أكثر ذلك. وكذلك المدينة خربـ كثيرـ منها، ولا سورـ لها ولا أبوابـ عليها. وفي داخلـها البساتين. وأهلـ سمرقند لهم مكارمـ أخلاقـ ومحبةـ في الغـريبـ. وهم خيرـ من أهلـ بخارـيـ. وبخارجـ سمرقند قـبرـ قـثمـ بنـ العـباسـ بنـ عبدـ المـطلبـ، رضـيـ اللهـ عنـ العـباسـ وعنـ ابـنهـ، وـهوـ المستـشهدـ حينـ فـتحـهاـ. ويـخـرجـ أـهـلـ سـمـرقـندـ كلـ لـيـلةـ اثـيـنـ وـجـعـةـ إـلـىـ زـيـارتـهـ، وـالـتـرـ يـأـتـونـ لـزـيـارتـهـ، وـيـنـذـرـونـ لـهـ النـذـورـ العـظـيمـةـ، وـيـأـتـونـ إـلـىـ بـالـقـبـرـ وـالـغـمـ وـالـدـرـارـهـ وـالـدـنـانـيرـ، فـيـصـرـفـ ذـلـكـ فـيـ النـفـقـةـ عـلـىـ الـوـارـدـ وـالـصـادـرـ، وـلـخـدـامـ الزـاوـيـةـ وـالـقـبـرـ الـمـبارـكـ. وـعـلـيـ قـبـةـ قـائـمـةـ عـلـىـ أـرـبـعـ أـرـجـلـ، وـمـعـ كلـ رـجـلـ سـارـيـتـانـ مـنـ الرـخـامـ، مـنـهـ الـخـضـرـ وـالـسـوـدـ وـالـبـيـضـ وـالـحـمـرـ. وـحـيـطـانـ القـبـةـ بـالـرـخـامـ الـمـجـزـعـ الـمـنـقوـشـ بـالـذـهـبـ، وـسـقـفـهـ مـصـنـوعـ بـالـرـصـاصـ. وـعـلـىـ القـبـرـ خـشـبـ الـأـبـنـوسـ الـمـرـصـعـ، مـكـسـوـ الـأـرـكـانـ بـالـفـضـةـ، وـفـوـقـهـ ثـلـاثـةـ مـنـ قـنـادـيلـ

الفضة . وفرش القبة بالصوف والقطن . وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التي هنالك ، على حافتيه الأشجار ودوالي العنب والياسمين . وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر . ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئاً من حال هذا الموضع المبارك . كانوا يتبركون به ، لما يرون له من الآيات . وكان الناظر في كل حال من هذا الضريح المبارك وما يليه حين نزولنا به الأمير غيث الدين محمد بن عبد القادر ابن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي ، قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق ، وهو الآن عند ملك الهند ، وسيأتي ذكره . ولقيت بسمرقند قاضيها المسمى عندهم صدر الجهان ، وهو من الفضلاء ذوي المكارم . وسافر إلى بلاد الهند بعد سفري إليها فأدركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند .

حكاية

لما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بأمره إلى ملك الهند ، وأنه قدم برسم بابه ، فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر إلى الملك ، أمر أن يبعث إلى أولاده عدد من آلاف الدنانير ، لا ذكره الآن ، وأمر أن يعطى لأصحابه ما كان يعطي لهم لو وصلوا معه وهو بقيمة الحياة . ولملك الهند في كل بلد من بلاده ، صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجري في ذلك البلد من الأمور ، ومن يرد عليه من الواردين . وإذا أتى الوارد كتبوا من أيّ البلاد ورد ، وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخليفه وخدامه وهبته من الجلوس والمأكل ، وجميع شؤونه وتصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها ، فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع حاله ، فتكون كرامته على مقدار ما يستحقه . وسافرنا من سمرقند فاجتنزا ببلدة نسف . وإليها ينسب أبو حفص عمر النسفي ، مؤلف كتاب المنظومة في المسائل الخلافية بين الفقهاء الأربع رضي الله عنهم . ثم وصلنا

إلى مدينة ترمذ التي ينسب إليها الإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى مؤلف الجامع الكبير في السنن . وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسوق تخترقها الأنهار . وبها البساتين الكثيرة والعنب ، والسفرجل بها متناهيا الطيب ، واللحوم بها كثيرة ، وكذلك الألبان . وأهلها يغسلون رؤوسهم في الحمام باللبن عوضاً عن الطفل . ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبيرة مملوئة لبناً . فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في إناء صغير فغسل رأسه ، وهو يرطب الشعر ويصلقه . وأهل الهند يجعلون في رؤوسهم زيت السمسم ، ويسمونه الشيرج ، ويغسلون الشعر بعده بالطفل ، فينعم الجسم ، ويصلق الشعر ويطبله . وبذلك طالت حتى أهل الهند ومن سكن معهم . وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون ، فلما خربها تنكizer ، بنيت هذه الحديقة على ميلين من النهر . وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عزيزان ، من كبار المشايخ وكرمائهم ، كثير المال والرابع والبساتين ، ينفق على الوارد والصادر من ماله . واجتمعت قبل وصولي إلى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خدواند زاده . وكتب لي إليها بالضيافة ، فكانت تحمل إلينا أيام مقامنا بها في كل يوم . ولقيت أيضاً قاضيها قوام الدين ، وهو متوجه لرؤبة السلطان طرمشيرين ، وطالب للإذن له في السفر إلى بلاد الهند ، وسيأتي ذكر لقائي له بعد ذلك . ولأخوه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان ، وسفرنا جميعاً إلى الهند . وذكر أخيه الآخرين عمار الدين وسيف الدين ، ولقائي لهم بحضور ملك الهند ، وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما ، وتزويمهما ابنتي الوزير خواجه جهان ، وما جرى في ذلك كله إن شاء الله تعالى . ثم جزنا نهر جيحون إلى بلاد خراسان . وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ وإجازة الوادي يوماً ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها إلى مدينة بلخ ، وهي خاوية على عروشها غير عامرة . ومن رأها ظنها عامرة لإتقان بنائها . وكانت ضخمة فسيحة ومساجدتها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ، ونقوش

مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد . والناس ينسبون اللازورد إلى خراسان ، وإنما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب إليها الياقوت البدخشي ، وال العامة يقولون : البلخش ، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى . وخرب هذه المدينة تنكيس العين ، وهدم من مسجدها نحو الثلث ، بسبب كنز ذكر له أنه تحت سارية من سواريه . وهو من أحسن مساجد الدنيا وأفسحها . ومسجد رباط الفتح بالغرب يشبهه في عظم سواريه . ومسجد بلخ أجمل منه في سوى ذلك .

حكاية

ذكر لي بعض أهل التاريخ ، أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميراً ببلخ لبني العباس ، يسمى داود بن علي . فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدهم . فبعث إليهم من يغرّهم مغرماً فادحاً . فلما بلغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة التي بنت المسجد ، وهي زوج أميرهم ، وشكوا حالمهم وما لحقهم من هذا المغرم . فبعثت إلى الأمير الذي قدم برسم تغريتهم بثوب لها مرصع بالجوهر قيمة أكثر مما أمر بتغريمه ، فقالت له : اذهب بهذا الثوب إلى الخليفة ، فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالم . فذهب به إلى الخليفة وألقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة ، فخجل الخليفة وقال : أ تكون المرأة أكرم منا ؟ وأمره برفع المغرم عن أهل بلخ ، وبالعوده إليها ليرد للمرأة ثوبها ، وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة . فعاد الأمير إلى بلخ ، وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب . فقالت له : أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب ؟ قال : نعم . قالت : لا ألبس ثوباً وقع عليه بصر غير ذي محظ مني ، وأمرت ببيعه . فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان^(١) ، وهو عامر حتى الآن . وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلاثة . فذكر أنها أمرت بدفعه تحت بعض سواري المسجد ، ليكون هنالك متيسراً إن احتج إلىه . خرج فأخبر

(١) الكذان : حجارة رخوة نخرة .

تنكير بهذه الحكاية ، فأمر بهدم سواري المسجد ، فهدم منها نحو الثلث ، ولم يجد شيئاً ، فترك الباقي على حاله . وبخارج بلخ قبر يذكر أنه قبر عكاشة بن محسن الأسدی صاحب رسول الله صلی الله عليه وسلم تسليماً ، الذي يدخل الجنة بلا حساب . وعليه زاوية معظمها بها كان نزولنا ، وبخارجها بركة ماء عجيبة ، عليها شجرة جوز عظيمة . ينزل الواردون في الصيف تحت ظلامها . وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خرد ، وهو الصغير من الفضلاء ، وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة . منها قبر حزوقيل النبي عليه السلام ، وعليه قبة حسنة . وزرنا بها أيضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين ، لا أذكرها الآن . ووقفنا على دار إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الأبيض الذي يشبه الكذان . وكان زرع الزاوية مقترناً بها ، وقد سدت عليه فلم ندخلها ، وهي بمقربة من المسجد الجامع . ثم سافرنا من مدينة بلخ ، فسرنا في جبال قوة استان (قهوستان) سبعة أيام . وهي قرى كثيرة عامرة بها المياة الجارية والأشجار المورقة وأكثرها شجر التين ، وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون إلى الله تعالى . وبعد ذلك كان وصولنا إلى مدينة هراة ، وهي أكبر المدن العامرة بخراسان . ومدن خراسان العظيمة أربع : اثنتان عامرتان وها هراة ونيسابور ، واثنتان خربستان وها بلخ ومررو . ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ، ولأهلها صلاح وعفاف وديانة . وهم على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، وبلدهم طاهر من الفساد .

ذكر سلطان هراة

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري ، صاحب الشجاعة المأثورة . والتأييد والشجاعة ظهر له من إنجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين ما يقضى منه العجب ، أحدهما عند ملاقاًة جيشه للسلطان خليل الذي بُغى عليه ، وكان منتهى أمره حصوله أسيراً في يديه ، والموطن الثاني عند

ملاقاته بنفسه لمسعود ، سلطان الراضاة . وكان منتهى أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه . وولي السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ ، وولي أخيه بعد أبيه غياث الدين .

حكاية الراضاة

كان بخراسان رجالان : أحدهما يسمى بمسعود والآخر يسمى محمد . وكان لهما خمسة من الأصحاب ، وهم من الفتاك ، ويعرفون بالعراق بالشطار ، ويعرفون بخراسان بسرابداران (سربداران) ، ويعرفون بالعراق بالصقور . فاتفق سبعة عليهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال ، وشاع خبرهم ، وسكنوا جبلًا منيعًا بمقربة من مدينة بيهق ، وتسمى أيضًا مدينة سizar (سيزوار) . فكانوا يكمنون بالنهار . ويخرجون بالليل والعشي ، فيضربون على القرى ، ويقطعون الطرق ، ويأخذون الأموال . وانثال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد ، فكثر عددهم واشتدت شوكتهم وهابهم الناس ، وضربوا على مدينة بيهق فملوكها ، ثم ملكوا سواها من المدن ، واكتسبوا الأموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل ، وتسمى مسعود بالسلطان . وصار العبيد يفرون عن مواليهم إليه . فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال . وإن ظهرت له شجاعة أمره على جماعة ، فعظم جيشه واستفحلا أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض ، وطمحوا إلى استئصال أهل السنة بخراسان ، وأن يجعلوها كلمة واحدة راضية . وكان بمشهد طوس شيخ من الراضاة يسمى بحسن ، وهو عندهم من الصلحاء ، فوافقوه على ذلك ، وسموه بال الخليفة وأمرهم بالعدل فأظهروه . حتى كانت الدرارهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى يأتي ربهما فيأخذها . وغلبوا على نيسابور ، وبعث إليهم السلطان طغيمور بالعساكر فهزمه ، ثم بعث إليهم نائبه أرغون شاه فهزمه وأسروه ومنوا عليه ، ثم غزاهم طغيمور بنفسه في خمسين ألفاً من التتر

فهزموه، وملكوا البلاد، وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس، وهي من أعظم بلاد خراسان. وجعلوا خليفتهم بشهد علي بن موسى الرضا، وتغلبوا على مدينة الحمام، ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة، وبينها وبينهم مسيرة ست. فلما بلغ ذلك الملك حسيناً جمع الأمراء والعساكر وأهل المدينة واستشارهم، هل يقيمون حتى يأتي القوم أو يمضوا إليهم فيناجزوه. فوقع إجماعهم على الخروج إليهم، وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية. ويقال: إنهم ينسبون إلى غور الشام، وإن أصلهم منه. فتجهزوا أجمعون، واجتمعوا من أطراف البلاد، وهم ساكنون بالقرى، وبصحراء مرغيس (بدغيس)، وهي مسيرة أربع، لا يزال عشبها أخضر. ترعى منه ماشيتهم وخيلهم. وأكثر شجرها الفستق، ومنها يحمل إلى أرض العراق. وعصفهم أهل مدينة سمنان، ونفروا جميعاً إلى الرافضة، وهم مائة وعشرون ألفاً ما بين رجاله وفرسانه، يقودهم الملك حسين. واجتمعت الرافضة في مائة وخمسين ألفاً من الفرسان. وكانت الملاقة بصحراء بوشنج. وصبر الفريقان معاً. ثم كانت الدائرة على الرافضة، وفر سلطانهم مسعود، وثبت خليفتهم حسن في عشرين ألفاً حتى قتل، وقتل أكثرهم، وأسر منهم نحو أربعة آلاف. وذكر لي بعض من حضر هذه الواقعة أن ابتداء القتال كان في وقت الضحى، وكانت المهزية عند الزوال. ونزل الملك حسين بعد الظهر فصل، وأتى بالطعام، فكان هو وكبار أصحابه يأكلون، وسائرهم يضربون أنفاس الأسرى. وعاد إلى حضرته بعد هذا الفتح العظيم، وقد نصر الله السنة على يديه، وأطفأ نار الفتنة. وكانت هذه الواقعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين. ونشأ بهرة رجل من الزهاد والصلاحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا، وكان أهل هراة يحبونه، ويرجعون إلى قوله. وكان يعظهم ويدركهم، وتوافقوا معه على تغيير المنكر، وتعاقد معهم على ذلك خطيب المدينة المعروف بملك ورنا، وهو ابن عم الملك حسين، متزوج بزوجة والده، وهي من أحسن الناس صورة

وسيرة. والملك يخافه على نفسه، وسنذكر خبره. وكانوا متى علموا بمنكر، ولو كان عند الملك غيره.

حكاية

ذكر لي انهم تعرفوا يوماً أن بدار الملك حسين منكراً، فاجتمعوا لتفييره، وتحصن منهم بداخل داره. فاجتمعوا على الباب في ستة آلاف رجل. فخاف منهم. فاستحضر الفقيه وكبار البلد، وكان قد شرب الخمر فأقاموا عليه الحد بداخل قصره، وانصرفوا عنه.

حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور

كانت الأتراك المجاورون لمدينة هرآة الساكنون بالصحراء ، وملكيهم غينمور الذي مر ذكره. وهم نحو خمسين ألفاً ، يخافهم الملك حسين ، ويهدى لهم الهدايا في كل سنة ، ويداريهم . وذلك قبل هزيمته للرافضة . وأما بعد هزيمته للرافضة تغلب عليهم . ومن عادة هؤلاء الأتراك التردد إلى مدينة هرآة ، وربما شربوا بها الخمر ، وأتاها بعضهم وهو سكران . فكان نظام الدين يجد من وجد منهم سكران . وهؤلاء الأتراك أهل نجدة وبأس ، ولا يزالون يضربون على بلاد الهند ، فيسبون ويقتلون ، وربما سبوا بعض المسلمين اللاتي يكن بأرض الهند ما بين الكفار ، فإذا خرجوا بهن إلى خراسان يطلقون نظام الدين المسلمين من أيدي الترك . وعلامة النسوة المسلمات بأرض الهند ترك ثقب الأذن . والكافرات آذانهن مثقوبات . فاتفق مرة أن أميراً من أمراء الترك يسمى تور أطي سبي امرأة ، وكلف بها شديداً ، فذكرت أنها مسلمة ، فانتزعها الفقيه من يده . فبلغ ذلك من التركي مبلغاً عظيماً ، وركب في آلاف من أصحابه ، وأغار على خيل هرآة ، وهي في مراعها بصحراء مرغيس (بدغيس) ، واحتلواها . فلم يتركوا لأهل هرآة ما

يركون ولا ما يخلبون ، وصعدوا بها إلى جبل هنالك لا يقدر عليهم فيه . ولم يجد السلطان ولا جنده خيلاً يتبعونهم بها ، فبعث إليهم رسولًا يطلب منهم ردة ما أخذوه من الماشية والخيل ، ويدركهم العهد الذي بينهم . فأجابوا بأنهم لا يردون ذلك حتى يكنوا من الفقيه نظام الدين . فقال السلطان : لا سبيل إلى هذا . وكان الشيخ أبو أحمد الجستي حفيد الشيخ مودود الجستي له بخراسان شأن عظيم ، وقوله معتبر لديهم ، فركب في جماعة خيل من أصحابه وماليه . فقال : أنا أحمل الفقيه نظام الدين معي إلى الترك ليرضوا بذلك ثم أرده . فكان الناس مالوا إلى قوله . ورأى الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك . فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل إلى الترك . فقام إليه الأمير تمور أطلي وقال له : أنت أخذت أمرأتي مني ، وضربه بدبوسه فكسر دماغه ، فخر ميتاً . فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد ، وانصرف من هنالك إلى بلده ، ورد الترك ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية . وبعد مدة قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هراة ، فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه ، فتقدموا إليه كأنهم مسلمون عليه ، وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه . وفر أصحابه . ولما كان بعد هذا ، بعث الملك حسين ابن عمه ملك ورنا الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولًا إلى ملك سجستان . فلما حصل بها بعث إليه أن يقيم هنالك ولا يعود إليه . فقصد بلاد الهند ولقيته وانا خارج منها بمدينة سيوستان من السند ، وهو أحد الفضلاء . وفي طبعه حب الرياسة والصيد والبراز والخيل والماليك والأصحاب واللباس الملوكى الفاخر ، ومن كان على هذا الترتيب فإنه لا يصلح حاله بأرض الهند . فكان من أمره أن ملك الهند ولاه بلدًا صغيراً . وقتلته به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية . وقيل : إن ملك الهند دس عليه من قتلته بسبى الملك حسين في ذلك ، وأجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك ورنا المذكور ، وهاداه ملك الهند ، وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند . ومجاها خمسون ألفاً من دنانير الذهب في كل سنة .

(ولنعد إلى ما كان بسبيله فنقول) سافرنا من هرة إلى مدينة الجام، وهي متوسطة حسنة، ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار، وأكثراها التوت. والحرير بها كثير. وهي تنسن إلى الولي العابد الزاهد شهاب الدين أحمد الجامي، وسنذكر حكايته، وحفيده الشيخ أحمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند. والمدينة الآن لأولاده، وهي محررة من قبل السلطان. ولهما بها نعمة وثروة. وذكر لي من اثق به أن السلطان أبا سعيد ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل على هذه المدينة وبها زاوية الشيخ، فأضافه ضيافة عظيمة، وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم، ولكل أربعة رجال رأس غنم، ولكل دابة بال محللة من فرس وبغل وحمار علف ليلة، فلم يبق في المحللة حيوان إلا وصلته ضيافته.

حكاية الشيخ شهاب الدين الذي تنسن إليه مدينة الجام

يذكر أنه كان صاحب راحة مكثراً من الشراب، وكان له من النداء نحو ستين، وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوماً في منزل كل واحد منهم، فتدور التوبة على أحدهم بعد شهرين، وبقوا على ذلك مدة. ثم إن التوبة وصلت يوماً إلى الشيخ شهاب الدين، فعقد التوبة ليلة التوبة، وعزم على إصلاح حاله مع ربه، وقال في نفسه: إن قلت لأصحابي إني قد تبت قبل اجتماعهم عندي، ظنوا ذلك عجزاً عن مؤونتهم. فأحضر ما كان يحضر مثله قبلاً من مأكولات ومشرب، وجعل الخمر في الزقاق، وحضر أصحابه. فلما أرادوا الشرب فتحوا زقاً، فذاقه أحدهم فوجده حلواً ثم فتح ثانياً فوجده كذلك ثم ثالثاً فوجده كذلك. فكلموا الشيخ في ذلك، فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سرّ فكره، وعرفهم بتوبته، وقال لهم: والله ما هذا إلا الشراب الذي كنتم تشربونه فيما تقدم. فتابوا جميعاً إلى الله تعالى، وبنوا تلك الزاوية، وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى. وظهر

هذا الشيخ كثير من الكرامات والمكافئات، ثم سافرنا من الجام إلى مدينة طوس، وهي أكبر بلاد خراسان، وأعظمها بلد الإمام الشهير بأبي حامد الغزالى رضي الله عنه وبها قبره. ورحلنا منها إلى مدينة مشهد الرضا، وهو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وهي أيضاً مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والأرجاء الطاحنة. وكان بها الطاهر محمد شاه، والطاهر عندهم يعني النقيب عند أهل مصر والشام والعراق، وأهل الهند والسندي وتركستان يقول السيد الأجل. وكان أيضاً بهذا المشهد القاضي الشريف جلال الدين، لقيته بأرض الهند والشريف علي ولدها أمير هندو ودولة شاه، وصاحبوني من ترمذ إلى بلاد الهند. وكانوا من الفضلاء، والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة في داخل زاوية، تجاورها مدرسة ومسجد. وجيعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشاني. وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة، وعليه قناديل فضة معلقة، وعتبة باب القبة فضة. وعلى بابها ست حرير مذهب. وهي مبسوطة بأنواع البسط. وإذا إزاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضي الله عنه، وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر. وإذا دخل الرافضي للزيارة ضرب قبر الرشيد برجله، وسلم على الرضا. ثم سافرنا إلى مدينة سرخس، وإليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخي رضي الله عنه. ثم سافرنا منها إلى مدينة زاوية، وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر، وإليه تنسب طائفة الحيدرية من القراء، وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعنقهم وأذانهم، ويجعلون أيضاً في ذكورهم حتى لا يتأنى لهم النكاح. ثم رحلنا منها فوصلنا إلى مدينة نيسابور، وهي إحدى المدن الأربع التي هي قواعد خراسان. ويقال لها: دمشق الصغيرة، لكثرة فواكهها وبساتينها ومياها وحسنها. وتخترقها أربعة من الأنهر. وأسواقها حسنة متعددة، ومسجدها بديع،

وهو في وسط السوق ، ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير ، وفيها من الطلبة خلق كثير ، يقرأون القرآن والفقه . وهي من حسان مدارس تلك البلاد ، ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر . وإن بلغت الغاية من الإتقان والحسن ، فكلها تقصير عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان ، وصل الله سعده ونصر جنده ، وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى ، فإنها لا نظير لها سعة وارتفاعاً ونقش الجص بها لا قدرة لأهل المشرق عليه . ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها . وتحمل منها إلى الهند . وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الإمام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين . نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ، ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة .

كرامة له

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاماً تركياً ، فرأاه معي فقال لي : هذا الغلام لا يصلح لك ، فبעה . فقلت له : نعم ، وبعت الغلام في غد ذلك اليوم . واشترأه بعض التجار . وودعت الشيخ وانصرفت . فلما حللت بمدينة بسطام كتب إلي بعض أصحابي من نيسابور ، وذكر أن الغلام المذكور قتل بعض أولاد الأتراك وقتل به . وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضي الله عنه . وسافرت من نيسابور إلى مدينة بسطام التي ينسب إليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير ، رضي الله عنه . وبهذه المدينة قبره ، ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه . وببسطام أيضاً قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني . وكان نزوله من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه . ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هندخير إلى قندوس وبغلان . وهي قرى فيها مشايخ

وصالحون، وبها البساتين والأنهار. فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر، يسمى بشير سياه، ومعنى ذلك الأسد الأسود، وأضافنا بها والي تلك الأرض وهو من أهل الموصل بستان عظيم هنالك.

وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوماً لرعى الجمال والخيول، وبها مراعٍ طيبة وأعشاب كثيرة، والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطية. وقد قدمنا أن أحكام الترك في من سرق فرساً أن يعطي معه تسعه مثله، فإن لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده، فإن لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة.

والناس يتذرون دواهم مهملة دون راع، بعد أن يسم كل واحد دوابه في أفخاذها. وكذلك فعلنا في هذه البلاد. واتفق أن فقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها فقدنا منها ثلاثة أفراس.

وما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا، خوفاً على أنفسهم من الأحكام. وكنا نربط في كل ليلة إزاء أختيتنا فرسين، لما عسى أن يقع بالليل. فقدنا الفرسين ذات ليلة، وسافرنا من هنالك. وبعد اثنين وعشرين ليلة جاءوا بها إلينا في أثناء طريقنا. وكان أيضاً من أسباب إقامتنا خوف الثلوج. فإن بائثناء الطريق جبلاً يقال له هندوكوش، ومعناه قاتل المهدود. لأن العبيد والجواري الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموتون هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلوج، وهو مسيرة يوم كامل. وأقمنا حتى تمكننا من دخول الحر، وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل، وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب. وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال تطاً عليها، لئلا تغرق في الثلوج. ثم سافرنا إلى موضع يُعرف بأندر. وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفي رسماها. ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى محمد المهروي، ونزلنا عنده وأكرمنا. وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذي غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله. وسافر معنا

إلى أن صعدنا جبل هندوكوش المذكور .

ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فنقشرت وتألماً لذلك ، ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ، ومعنى بنج خمسة وهير هو الجبل ، فمعناه خمسة جبال . وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق ، كأنه بحر ينزل من جبال بدخسان . وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش . وخرب هذه البلاد تنكيس ملك التتر ، فلم تعمر بعده . وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي ، وهو معظم عندهم ، ووصلنا إلى جبل بشّاي (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم والف وياء ساكنة) ، وبه زاوية الشيخ الصالح أطاً أولياء وأطا (بفتح الممزة) ، معناه بالتركية الاب وأولياء باللسان العربي ، فمعناه أبو الأولياء ، ويسمى أيضاً سِيَصْدُ صَالَة ، وسيصد (بسين مهمل مكسور وياء مد وصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ، ومعناه بالفارسية ثلاثة ، وصاله (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام . وهم يذكرون أن عمره ثلاثة وخمسون عاماً . وله في اعتقاد حسن ويأتون لزيادته من البلاد والقرى ، ويقصده السلاطين والخواatin . وأكرمنا وأضافنا ، ونزلنا على نهر عند زاويته ، ودخلنا إليه فسلمت عليه ، وعانقني ، وجسمه رطب لم أر ألين منه ، ويظن رائيه أن عمره خسمون سنة . وذكر لي أنه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان ، وأنه رأى أباهم الذي قبره بملتان من السنن . وسألته عن رواية حديث فأخبرني بحكايات ، وشككت في حاله ، والله أعلم بصدقه . ثم سافرنا إلى برؤن (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) ، وفيها لقيت الأمير بُرُنطية (وضبط اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن وها) ، وأحسن إلي وأكرمني ، وكتب إلى نوابه بمدينة غزنة في إكرامي ، وقد تقدم ذكره ، وذكر ما أعطي من البسطة في الجسم ، وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا . ثم سافرنا إلى قرية

الجَرْخُ (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقودة وإسكان الراء وراء معجم)، وهي كبيرة، لها بساتين كثيرة، وفواكهها طيبة. قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة، وصلينا بها الجمعة. وأضافنا أميرها محمد الجرجي، ولقيته بعد ذلك بالهند. ثم سافرنا إلى مدينة غزنة، وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم، وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند، وفتح بها المداين والمحصون. وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة، ولم يبق منها إلا يسير، وكانت كبيرة. وهي شديد. "برد" ، والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القندهار، وهي كبيرة مخصوصة، ولم أدخلها. وبينها مسيرة ثلاثة. ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها، وأذكر منها أميرها مرذك أغام، ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم)، ومعناه الصغير، وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الأصل. ثم سافرنا إلى كابل، وكانت فيما سلف مدينة عظيمة، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان. ولم جبال وشعاب وشوكات قوية، وأكثرهم قطاع الطريق. وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان. يذكر أن نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل، فنظر إلى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها، فسمى الجبل به. وفيه يسكن ملك الأفغان. وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الأولياء. ومنها رحلنا إلى كرماس. وهي حصن بين جبلين تقطع به الأفغان. وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون. وكانت رفقتنا مخففة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس، وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لأجلها، ومعي جماعة بعضهم من الأفغان، وطرحنا بعض الزاد، وتركتنا أحوال الجمال التي أعيت بالطريق، وعادت إليها خيلنا بالغد فاحتملتها، ووصلنا إلى القافلة بعد العشاء الآخرة، فبتنا بمنزل ششنغار، وهي آخر العمارة مما يلي بلاد

الترك . ومن هنا دخلنا البرية الكبرى ، وهي مسيرة خمس عشرة ، لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ، وذلك في أوائل شهر يوليه . وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسم . حتى أن الرجل إذا مات تتفسخ أعضاؤه . وقد ذكرنا أن هذه الريح تهب أيضاً في البرية بين هرمز وشيراز . وكانت تقدمت أمامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زاده قاضي ترمذ ، فمات لهم جمال وخيل كثيرة . ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بنج آب وهو ماء السند ، وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة آب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء ، فمعنى ذلك الأودية الخمسة ، وهي تصب في النهر الأعظم ، وتتسقى تلك النواحي ، وسنذكرها إن شاء الله تعالى . وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة . واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعينة . ومن هنالك كتب المخرون بخبرنا إلى أرض الهند ، وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا . وهذا هنا ينتهي بنا الكلام في هذا السفر . والحمد لله رب العالمين .

(تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني)

الْحَلَةُ بْنُ بَطْوَطَةُ
تَحْفَةُ النُّظَارِ
عَزَابُ الْمُضَارِ وَعَجَابُ الْأَسْفَارِ

ابن راشان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي
المعروف بابن بطوطة رحمه الله تعالى :

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعين
وصلنا إلى وادي السندي المعروف ببنج آب، ومعنى ذلك المياه الخمسة. وهذا
الوادي من أعظم أودية الدنيا، وهو يفيض في أوان الحر، فيزرع أهل تلك البلاد
على فرضه، كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض النيل. وهذا الوادي هو أول
عالة السلطان العظيم محمد شاه ملك الهند والسندي. ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء
إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك، وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير
مدينة ملتان، وكان أمير أمراء السندي على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى
سرتizer، وهو من عرض الماليك، وبين يديه تعرض عساكر السلطان، ومعنى اسمه
الحاد الرأس لأن سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء). هو الرأس، وتizer
(بناء معلومة وياء مد وزاي) معناه الحاد. وكان في حين قدومنا بمدينة سيستان
من السندي. وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام، وبين بلاد السندي وحضرمة
السلطان مدينة دهلي على مسيرة حسين يوماً. وإذا كتب المخرون إلى السلطان
من بلاد السندي يصل الكتاب إليه في خمسة أيام بسبب البريد.

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صنفان، فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (أولاق) (بضم الواو وآخره قاف)، وهو خيل تكون للسلطان، في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجال، فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاثة رتب، ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو)، والداوة هي ثلث ميل، والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء)، وتترتيب ذلك أن يكون في كل ثلاثة ميل قرية معمورة، ويكون بخارجها ثلاثة قباب يقع في كل قرية، مستعدين للحركة، قد شدوا أوساطهم. وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين، بأعلاها جلاجل نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى يشتد بمنتهي جهده.

إذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبا. فإذا وصلهم. أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده، وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى. ولا يزلون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه.

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حلوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الأطباق، ويستبدون بها حتى تصل إلى السلطان. وكذلك يحملون الكبار من ذوي الرتب، يجعلون الرجل على سرير، ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدّاً. وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان، إذا كان بدولة أباد، يحملونه من نهر الكنك الذي تجح الهند إلى، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها.

وإذا كتب المخربون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده، استوعبوا الكتاب وأمعنا في ذلك، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا، وكتبوا عدد

أصحابه وغلمانه وخدماته ودوابه، وترتيب حاله في حركته وسكنه، وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيئاً.

فإذا وصل الوارد مدينة ملتان، وهي قاعدة بلاد السندي، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه، وما يُجري له من الضيافة، وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته، إذ لا يعرف هنالك ما حسنه ولا آباؤه.

من عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتحصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة. ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصحابه غرباء. ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلده الأعزاء. فصار لهم ذلك اسماً وعلماً. ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهدى إليها، ويقدمها وسيلة بين يديه. فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة، وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير. ولما تعود الناس بذلك منه، صار التجار الذين ببلاد السندي والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير ديناً ويهزونه بما يريد أن يهدى إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ويخدمونهم بأموالهم وأنفسهم، ويقفون بين يديه كالحشم، فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزييل، فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم، فنفت تجارتهم وكثرت أرباحهم. وصار لهم ذلك عادة مستمرة. ولما وصلت إلى بلاد السندي، سلكت ذلك النهج، واشترت من التجار الخيل والجمال والماليلك وغير ذلك. ولقد اشتريت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرساً وجلاً عليه حل من النشاب، فإنه مما يهدى إلى السلطان، وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ثم عاد إلى الهند، وهنالك تقاضى مني مائة، واستفاد بسبعين فائدة عظيمة، وعاد من كبار التجار. ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة، وقد سلبني الكفار ما كان بيدي فلم أقلق منه خيراً.

ذكر الكركدن

ولما أحجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها ، فخرج علينا الكركدن ، وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم ، ورأسه كنير متفاوت الضخامة ، ولذلك يضرب به المثل فيقال : الكركدن رأس بلا بدن ، وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وله قرن واحد بين عينيه ، طوله نحو ثلاثة أذرع ، وعرضه نحو شبر . ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فأنفذه فخذه وصرعه ، وعاد إلى الغيضة فلم نقدر عليه . وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر ، وهو يرعى نبات الأرض . فلما قصدنااه هرب منها . ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند ، دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ، ودخلت الرجال والفرسان فأثاروه وقتلواه واستاقوا رأسه إلى المحلة .

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جناني (وضبط اسمها بفتح الجيم وإنون الأولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة على ساحل نهر السند لها أسواق مليحة ، وسكنها طائفة يقال لهم السامرة ، استوطنوها قديماً واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحاجاج بن يوسف ، حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند . وأخبرني الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد ركن الدين أبو الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي ، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أنني سألقاهم في رحلتي فلقيتهم والحمد لله ، أن جده الأعلى كان يسمى محمد بن قاسم القرشي ، وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك

الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق، وأقام بها وتکاثرت ذريته. ولهؤلاء الطائفة المعروfon بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاھرون أحداً من غيرهم، ولا يصاھر إليهم أحد. وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى ثنار (بضم الواو وفتح النون)، وسنذكر خبره. ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سیوستان (وضبط اسمها بكسر السين الأول المهمل وباء مد وواو مفتوح وسين مكسور وفاء معلوة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة، وخارجها صحراء ورمال، لا شجر بها إلا شجر ألم غيلان. ولا يزرع على نهرها شيءٌ ما عدا البطيخ. وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه **المُشْنُك** (بضم وشين معجم مضمومين ونون مسكن)، ومنه يصنعون الخبز، وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية. وأهلها يأكلون السقنقور، وهي دويبة شبيهة بأم حُبَّين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا أنها لا ذنب لها. ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنهما ويرمون بما فيه ويحشونه بالكرم، وهم يسمونه زردشوبة، ومعناه العود الأصفر، وهو عندهم عوض الزعفران. ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقدرتها فلم آكلها. ودخلنا هذه المدينة في احتدام القتال وحرها شديد. فكان أصحابي يقدعون عريانين، يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء، فما يضي اليسير من الزمان حتى تبiss تلك الفوطة، فييلها مرة أخرى، وهكذا أبداً. ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني، وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الأعلى بخطابة هذه المدينة. وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن.

ونص الكتاب: هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين، وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين لفلان عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما أخبرني الخطيب المذكور. ولقيت بها الشيخ

العمر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرتدي . وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ، وأنه حضر مقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون بن تنكizer التترى^(١) . وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه .

حكاية

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامری الذي تقدم ذكره ، والأمير قيصر الرومي ، وهما في خدمة السلطان ، ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس . وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رَتَنْ (بفتح الراء وبفتح التاء المثلثة والنون) ، وهو من الخذاق بالحساب والكتابة . فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء ، فاستحسنـه السلطان وسماه عظيم السنـد ، وولاه بتلكـ البلاد ، وأقطعـه سـيوستان وأعـهاـها ، وأعطـاهـ المـراتـب ، وهيـ الأـطـبـالـ والـعـلـامـاتـ كـمـاـ يـعـطـىـ كـبـارـ الـأـمـرـاءـ . فـلـمـاـ وـصـلـ إـلـىـ تـلـكـ الـبـلـادـ عـظـمـ عـلـىـ وـنـارـ وـقـيـصـرـ وـغـيرـهـ تـقـدـيمـ الـكـافـرـ عـلـيـهـمـ ، فـأـجـعـواـ عـلـىـ قـتـلـهـ . فـلـمـاـ كـانـ بـعـدـ أـيـامـ مـنـ قـدـوـمـهـ أـشـارـواـ عـلـيـهـ بـالـخـرـوجـ إـلـىـ أـحـواـزـ الـمـدـيـنـةـ لـيـتـطـلـعـ عـلـىـ أـمـرـهـ فـخـرـجـ مـعـهـ . فـلـمـاـ جـنـ اللـيلـ أـقـامـواـ ضـجـةـ بـالـمـحـلـةـ ، وـزـعـمـواـ أـنـ السـبـعـ ضـرـبـ عـلـيـهـ . وـقـصـدـواـ ضـرـبـ الـكـافـرـ فـقـتـلـوهـ ، وـعـادـواـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ فـأـخـذـواـ مـاـ كـانـ بـهـ مـنـ مـالـ السـلـطـانـ ، وـذـلـكـ اثـنـاـ عـشـرـ لـكـ وـالـلـكـ مـائـةـ أـلـفـ دـيـنـارـ ، وـصـرـفـ اللـكـ عـشـرـةـ آـلـافـ دـيـنـارـ مـنـ ذـهـبـ الـهـنـدـ ، وـصـرـفـ الـدـيـنـارـ الـهـنـدـيـ دـيـنـارـانـ وـنـصـفـ دـيـنـارـ مـنـ ذـهـبـ الـمـغـربـ . وـقـدـمـواـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ وـنـارـ الـذـكـورـ ، وـسـمـوـهـ مـلـكـ فـيـروـزـ ، وـقـسـمـ الـأـمـوـالـ عـلـىـ الـعـسـكـرـ . ثـمـ خـافـ عـلـىـ نـفـسـهـ لـبـعـدـهـ عـنـ قـبـيلـتـهـ ، فـخـرـجـ فـيـمـنـ مـعـهـ أـقـارـبـهـ ، وـقـصـدـ قـبـيلـتـهـ ، وـقـدـمـ الـبـاقـونـ مـنـ الـعـسـكـرـ

(١) يـظهرـ - وـالـلـهـ أـعـلمـ - أـنـهـ يـقـصـدـ : هـوـلـاكـوـ ؛ لأنـهـ الـذـيـ خـرـبـ بـغـدـادـ ، وـقـتـلـ الـمـسـتـعـصـمـ .

على أنفسهم قيصر الرومي. واتصل خبرهم بعماد الملك سرتizer ملوك السلطان، وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه ملتان. فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند. وبين ملتان وسيستان عشرة أيام، وخرج إليه قيصر، فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة، وتحصنوا بالمدينة، فحاصه هم ونصب المجانق عليهم، واشتد عليهم الحصار، فطلبو الأمان بعد أربعين يوماً من نزوله عليهم فأعطاهم الأمان. فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم. فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط البعض ويسلح آخرين منهم ويملا جلودهم تبناً ويعلقها على السور. فكانت تلك الجلود مصلوبة، ترعب من ينظر إليها. وجع رؤوسهم في وسط المدينة، فكانت مثل التل هناك. وزلت بتلك المدينة إثر هذه الواقعة بمدرسة فيها كبيرة، وكانت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمى النفس منها، ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها. وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتizer بن معه من العساكر. فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهري. وكان له خمسة عشر مركاً قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فസافرت.

ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك

وكان للنبي علاء الملك في جلة سفنه سفينة تعرف بالآهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء)، وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج، وفوقه مجلس مهياً لجلوس الأمير، ويجلس أصحابه بين يديه. ويقف الماليك يينة ويسرة، والرجال يقذفون وهم نحو أربعين. ويكون مع هذه الآهورة أربعة من

السفن عن يمينها ويسارها ، اثنان منها فيها مراتب الأمير ، وهي العلامات والطبلول والأبواق والأنفار والصرنaiات وهي الغيطات ، والآخران فيها أهل الطرب فتضرب الطبلول والأبواق نوبة ، ويغنى المغنون نوبة . ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الظهر . فإذا كان وقت الغداء اجتمعت المراكب ، ووصل بعضها ببعض ، ووضعت بينهما الإصطقالات ، وأتى أهل الطرب إلى أهورة الأمير ، فيغنوون إلى أن يفرغ من أكله ، ثم يأكلون وإذا فرغوا من الأكل عادوا إلى سفنهem وشرعوا في المسير على ترتيبهم إلى الليل . فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الأمير إلى خيامه ومد السساط وحضر الطعام معظم العسكر ، فإذا صلوا العشاء الأخيرة سمر السماع بالليل نوبأ ، فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال يا خوند ملك ، قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الأخرى ، فإذا أتموها نادى منادتهم أيضاً معلماً بما مر من الساعات . فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبلول وصُلّيت صلاة الصبح وأتى بالطعام . فإذا فرغ الأكل ، أخذوا في المسير . فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب ، وإن أراد المسير في البر ضربت الأطفال والأبواق ، وتقدم حجابه ، ثم تلاهم المسؤولون بين يديه ، ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان ، عند ثلاثة منهم أطفال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنaiات . فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ضربوا تلك الأطفال والصرنaiات . ثم تدق أطبال العسكر وأبواقه ، ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنوون نوبأ ، فإذا كان وقت الغداء نزلوا .

سافرت مع علاء الملك خمسة أيام ، ووصلنا إلى موضع ولايته ، وهو مدينة لاهري (وضبط اسمها بفتح الماء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير ، وبها يصب نهر السندي في البحر ، فليتقى بها بحران ، ولها مرسى عظيم ، يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيره . بذلك عظمت جبارتها وكثرة أموالها .

أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن بجي هذه المدينة ستون لگاً في السنة، وقد ذكرنا مقدار اللگ، وللأمير من ذلك نم (نیم) ده يك، ومعناه نصف العشر . وعلى ذلك يعطي السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر .

ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة

وركبت يوماً مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا ، فرأيت هنالك ما لا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم ، وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله ، فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواها . ومن الحجارة أيضاً على صورة الحبوب من البرّ والحمص والفول والعدس ، وهنالك آثار سور وجدران دور ، ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوته وفي وسطه دكانة حجارة منحوته كأنها حجر واحد عليها صورة آدمي ، إلا أن رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه ، ويداه خلف ظهره كالمكتوف . وهنالك مياه شديدة التن ، وكتابة على بعض الجدران بالهندى . وأخبرني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة ، وأن ملكهم هو الذي على الدكانة في الدار التي ذكرناها ، وهي الآن تسمى دار الملك ، وأن الكتابة التي في بعض الحيطان بالهندى هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها . وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ، ثم أحسن في الزاد وانصرفت عنه إلى مدينة بكار (فتح الباي الموحدة) ، وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند . وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر . عمرها كشلوخان أيام ولايته على بلاد السند ، وسيقع ذكره . ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي ، ولقيت بها قاضيها المسمى بأبي حنيفة ، ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي ، وهو من

العمررين ، ذكر لي أن سنه يزيد على مائة وعشرين عاماً . ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهي مدينة كبيرة على نهر السندي ، لها أسواق حسنة وعمارة جيدة . وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيكي أحد الشجاعان الكرماء ، وبهذه المدينة توفي بعد سقطها عن فرسه .

مكرمة هذا الملك

ونشات بيبي وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة ، وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة ، واجتمعنا بحضوره دهلي . فلما سافر السلطان إلى دولة أباد ، كما سند كره ، وأمرني بالإقامة بالحضر ، قال لي جلال الدين : إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة ، والسلطان تطول غيبته ، فخذ قريتي واستغلها حتى أعود ، ففعلت ذلك . واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار ، جزاء الله أحسن الجزاء .

ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوى ، وألبسي الخرقة ، وهو من كبار الصالحين . ولم يزل الثوب الذي ألبسيه معى ، إلى أن سلبني كفار الهندون في البحر . ثم سافرت من أوجه إلى مدينة مُكتان (وضبط اسمها بضم الميم وتناء معلوقة) ، وهي قاعدة بلاد السندي ، ومسكن أمير أمرائه . وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسر و أباد ، وهو من الأودية الكبار ، لا يجاز إلا بالمراكب . وبه يبحث عن أمم المحتازين أشد البحث وتفتش رحالمهم . وكانت عادتهم حين وصلنا إليها أن يأخذوا الرابع من كل ما يجلبه التجار ، ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرماً .

ثم بعد وصولنا للهند بستين رفع السلطان تلك المغaram ، وأمر أن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر ، لما بايع لل الخليفة أبي العباس العباسي . ولما أخذنا في

إجازة هذا الوادي وفتشت الرحال، عظم علي تفتيش رحلي، لأنه لم يكن فيه طائل، وكان يظهر في أعين الناس كبيراً، فكنت أكره أن يطلع عليه. ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان، فأمر أن لا يعرض لي ببحث ولا تفتيش، فكان كذلك. فحمدت الله على ما هيأ لي من لطائفه. وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادي، وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان، وهو سمرقندى الأصل، وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل، فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان.

ذكر أمير ملتان وترتيب حاله

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الأمراء وفضلائهم. لما دخلت قام إلي وصافحي وأجلسني إلى جانبه. وأهديت له مملوكاً وفرساً وشيئاً من الزبيب واللوز، وهو من أعظم ما يهدى إليهم، لأنه ليس ببلادهم، وإنما يجلب من خراسان. وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط، وعلى مقربة منه القاضي، ويسمى سالارو، والخطيب ولا أذكر اسمه، وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد، وأهل السلاح وقوف على رأسه، والعساكر تعرض بين يديه. وهناك قسي كثيرة. فإذا أتى من يريد أن يثبت في العسكر راماً أعطي قوساً من تلك القسي ينزع^(١) فيها، وهي متفاوتة في الشدة. فعلى قدر نزعه يكون مرتبه. ومن أراد أن يثبت فارساً، فهناك طبلة منصوبة، فيجري فرسه ويرميها برمحه. وهناك أيضاً خاتم معلق في حائط صغير، فيجري فرسه حتى يحاذيه. فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم، ومن أراد أن يثبت راماً فارساً فهناك كرة

(١) أي: يرمي بها.

موضوعة في الأرض، فيجري فرسه ويرميها، وعلى قدر ما يظهر من الإنسان في ذلك من الإصابة يكون مرتبه. وما دخلنا على هذا الأمير وسلمتنا عليه، كما ذكرناه، أمر يأنزلنا في دار خارج المدينة، هي لأصحاب، الشيخ العابد ركن الدين الذي تقدم ذكره، وعادتهم أن لا يضيقو أحداً حتى يأتي أمر السلطان.

ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرتة ملك الهند

فمنهم خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ، قدم بأهله وولده، ثم ورد عليه بها إخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين، ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند، ومنهم أرن بغأ أحد كبار بخارى، ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوند زاده، ومنهم بدر الدين الفصال، وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدماته وأتباعه، ولما مضى من وصولنا إلى ملستان شهران، وصل أحد حباب السلطان وهو شمس الدين البوشنجي، والملك محمد الهروي الكتوال، بعثهما السلطان لاستقبال خداوند زاده. وقدم معهم ثلاثة من الفتياں بعثتهم المخدومة جهان أم السلطان لاستقبال زوجة خداوند زاده المذكور. وأتوا بالخلع لها ولأولادها، ولتجهيز من قدم من الوفود، وأتوا جميعاً إلى، وسألوني لماذا قدمت، فأخبرتهم أني قدمت للإقامة في خدمة خوند عالم، وهو السلطان، وبهذا يدعى في بلاده. وكان أمر أن لا يترك أحد من يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند، إلا إن كان برسم الإقامة. فلما أعلمتهم أني قدمت للإقامة، استدعوا القاضي والعدول، وكتبوا عقداً على وعلى من أراد الإقامة من أصحابي. وأبى بعضهم من ذلك. وتجهزنا للسفر إلى الحضرة.

وبين ملستان وبينها مسيرة أربعين يوماً في عمارة متصلة. وأخرج الحاجب

وصاحبه الذي بعث معه ما يحتاج إليه في ضيافة قوام الدين ، واستصحبوا من ملitan نحو عشرين طباخاً . وكان الحاج يتقدم ليلاً إلى كل منزل ، فيجهز الطعام وسواه ، فما يصل خداوند زاده حتى يكون الطعام متيسراً . وينزل كل واحد من ذكرناهم من الوفود على حدة ، بمصاربه ، وأصحابه . وربما حضروا الطعام الذي يصنع خداوند زاده . ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة . وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز ، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق ، ويقطعون اللحم المشوي قطعاً كبيرة ، بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستة ، ويجعلون أمام كل رجل قطعة . ويجعلون أقراصاً مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشترك بيلاتنا ، ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية ، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتي ، ومعناه الآجرى ، مصنوع من الدقيق والسكر والسمن . ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صاحف صينية ثم يجعلون شيئاً يسمونه سموسك ، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير ، موضوعة في جوف رقاقة مقلوقة بالسمن . يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعاً ، ثم يجعلون المطبوخ بالسمن عليه الدجاج ، ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونه الهاشمي ، ثم يجعلون القاهرة . ويقف الحاج على السطام قبل الأكل ، ويخدم إلى الجهة التي فيها السلطان ، ويخدم جميع من حضر خدمته . والخدمة عندهم خط الرأس نحو الركوع ، فإذا فعلوا ذلك ، جلسوا للأكل .

ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولاً في الماء ، ويسمون ذلك الشربة ، ويشربونه قبل الطعام . ثم يقول الحاج : بسم الله : فعند ذلك يشرعون في الأكل . فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فإذا شربوه ، أتوا بالتبول والفوفل : وقد تقدم ذكرهما ، فإذا أخذوا التبول والفوفل قال الحاج : بسم الله . فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولاً ، وينصرفون .

ثم سافرنا من مدينة ملتان، وهم يجرون هذا الترتيب على ما سطRNAه، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند. وكان أول بلد دخلناه مدينة أبوهـر (فتح الـهـاء)، وهي أول تلك البلاد الهندية، صغيرة حسنة كثيرة العمارة، ذات أنهار وأشجار. وليس هنالك من أشجار بـلـادـنـاـ شـيـءـ . ما عـدـاـ النـبـقـ ، لـكـنـهـ عـنـدـهـ عـظـيمـ الجـرمـ ، تـكـوـنـ الحـبـةـ مـنـ بـعـدـ قـدـارـ حـبـةـ العـفـصـ ، شـدـيدـ الـحـلـاوـةـ . وـلـمـ أـشـجـارـ كـثـيرـةـ ، لـيـسـ يـوـجـدـ مـنـهـ شـيـءـ بـلـادـنـاـ وـلـاـ بـسـواـهـ .

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبةُ (فتح العين وسكون النون وفتح الـبـاءـ الموحدـةـ) ، وهي شجرة تشبه أشجار النارنج، إلا أنها أعظمَ أجراماً^(١) وأكثرُ أوراقاً وظلها أكثرُ الظلـالـ ، غير أنه ثقيل فـمـنـ نـامـ تـحـتـهـ وـعـكـ . وـثـرـهـ عـلـىـ قـدـرـ الإـجـاـصـ الـكـبـيرـ . فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذـواـ مـاـ سـقـطـ مـنـهـ ، وـجـعـلـوـاـ عـلـيـهـ المـلـحـ^(٢) ، وـصـيـرـوـهـ كـمـ يـصـيـرـ الـلـيـمـ وـالـلـيـمـوـنـ بـلـادـنـاـ . وـكـذـلـكـ يـصـيـرـوـنـ أـيـضاـ الزـنـجـبـيلـ الـأـخـضـرـ وـعـنـاقـيدـ الـفـلـفـلـ . وـيـأـكـلـوـنـ ذـلـكـ مـعـ الطـعـامـ ، يـأـخـذـوـنـ بـأـثـرـ كـلـ لـقـمـةـ يـسـيرـاـ مـنـ هـذـهـ الـمـلـوـحـاتـ إـذـاـ نـضـجـتـ العـنـبـةـ فـيـ أـوـانـ الـخـرـيفـ ، اـصـفـرـتـ جـبـاتـهـ فـأـكـلـوـهـ كـالـتـفـاحـ . فـالـبـعـضـ يـقـطـعـهـ بـالـسـكـينـ ، وـالـآـخـرـ يـعـصـمـ مـصـاـ . وـهـيـ حلـوةـ يـماـزـجـ حـلـاوـتـهـ يـسـيرـ حـوـضـةـ . وـلـهـ نـوـاـةـ كـبـيرـةـ يـزـرـعـونـهـاـ فـتـبـتـ مـنـهـ الـأـشـجـارـ ، كـمـ تـزـرـعـ نـوـىـ النـارـنـجـ وـغـيـرـهـ . وـالـشـكـيـ وـالـبـرـكـيـ (فتح الشـيـنـ المعـجمـ وـكـسـرـ الـكـافـ) ، وـفـتـحـ الـبـاءـ الموـحـدـةـ وـكـسـرـ الـكـافـ) . وـهـيـ أـشـجـارـ عـادـيـةـ ، أـورـاقـهـ كـأـورـاقـ الـجـوزـ ، وـثـرـهـ يـخـرـجـ مـنـ أـصـلـ الشـجـرـ ، فـهـاـ اـتـصـلـ مـنـهـ بـالـأـرـضـ فـهـوـ الـبـرـكـيـ ، وـحـلـاوـتـهـ

(١) جـمـ، وـمـعـنـاهـ: الـجـسمـ ، فـلـلـرـادـ: أـعـظـمـ حـجـماـ مـنـ شـجـرـةـ النـارـنـجـ ، وـالـلـهـ أـعـلمـ.

(٢) أيـ: حـفـظـهـ مـكـبـوسـاـ بـالـلـحـ ، أوـ: خـلـلـهـ بـتـبـيـرـ آـخـرـ لـيـكـونـ مـنـ الـمـشـهـيـاتـ مـعـ الـطـعـامـ.

أشد وطعمه أطيب ، وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثُرَّه يشبه القرع الكبار ،
 وجلوده تشبه جلود البقر ، فإذا أصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه . فيكون في
 داخل كل حبة المائة والمائتان . فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار ، بين كل حبة
 وحبة صفاق أصفر اللون ، ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير ، وإذا شويت هذه
 النواة أو طبخت تكون طعمها كطعم الفول ، إذ ليس يوجد هنالك . ويدخرون
 هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى . وهذا الشكي والبركي هو
 خير فاكهة ببلاد الهند . والتندو (بفتح التاء المثلثة وسكون النون وضم الدال)
 وهو ثمر شجر الأربعين ، وحباته قدر حبات المشمش ، ولونها ، وهو شديد
 الحلاوة ، والجوز (بضم الجيم المعقودة) وأشجار عادية ويشبه ثمرة الزيتون ، وهو
 أسود اللون ، ونواه واحدة كالزيتون ، والنارنج الحلو ، وهو عندهم كثير . وأما
 النارنج الحامض فعزيز الوجود . ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض ،
 وثُرَّه على قدر الليم وهو طيب جداً ، وكنت يعجبني أكله ، ومنها المهوأ (بفتح
 الميم والواو) وأشجار عادية وأوراق الجوز ، إلا أن فيها حرة وصفرة ،
 وثُرَّه مثل الإجاص الصغير شديد الحلاوة . وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة
 بقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب .

إلا أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعاً ، ومن العجب أن هذه
 الحبوب إذا بذلت في الشمس كان طعمها كطعم التين ، وكنت آكلها عوضاً عن
 التين إذ لا يوجد ببلاد الهند . وهم يسمون هذه الحبة الأنكور (بفتح الممزة
 وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) ، وتفسيره بلسانهم العنبر .
 والعنب بأرض الهند عزيز جداً ، ولا يكون بها إلا في موضع بحضره دهلي ،
 وببلاد أخرى ، ويشرب مرتين في السنة . ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ،
 ويستصحون^(١) به . ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح الكاف وكسر

(١) أي: يتذذونه وقدأ للمصابيح.

السين المهمل وباء مد وراء) يحفرون عليها الأرض، وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل. وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان، ويشرم مرتين في السنة. ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر، وهم يسمونه أنار (بفتح الممزة والنون)، وأغلن ذلك هو الأصل في تسمية الجنان، فإن جُل بالفارسية الزهر، ونار الرمان.

ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزرعون مرتين في السنة. فإذا نزل المطر عندهم في أوائل القيظ زرعوا الزرع الخريفي، وحصدوه بعد ستين يوماً من زراعته. ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرُو (بضم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها واو)، وهو نوع من الدخن. وهذا الكذرُو هو أكثر الحبوب عندهم. ومنها القال (بالقاف) وهو شبه أني، ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمتين)، وهو أصغر حباً من القال. وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة، وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين. يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره، وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة. وحب هذا الشاماخ صغير جداً، وإذا جمع جعل في الشمس، ثم يدق في مهارس الخشب، فيطير قشره ويبقى لبه أبيض. ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بجلب الجواميس، وهي أطيب من خبزه، وكانت آكلها كثيراً ببلاد الهند وتعجبني. ومنها الماش، وهو نوع من الجلبان، ومنها المنج (بيم مضموم ونون وجيم)، وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضراء، ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كُشْرٍ (بالكاف والشين المهمل والراء)، وعليه يفطرون في كل يوم. وهو عندهم كالحريرة بلاد المغرب. ومنها اللوبيا وهي نوع من

الفول ، ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكذرو ، إلا أن حبوبه أصغر ، وهو من علف الدواب عندهم ، وتسمن الدواب بأكله ، والشعير عندهم لا قوة له ، وإنما علف الدواب من هذا الموت ، أو الحمض ويجرشونه وبيلونه بالماء ويطعمونه الدواب ، ويطعمونها عوضاً من القصيل أوراق الماش ، بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام ، في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة ، ولا تركب في تلك الأيام . وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهراً أو نحوه وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية وإذا حصدوها بعد ستين يوماً من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية ؛ وهي القمح والشعير والحمص والعدس . وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها . وببلادهم كريمة طيبة التربة . وأما الأرز فانهم يزرعونه ثلاثة مرات في السنة ، وهو من أكبر الحبوب عندهم . ويزدرعون السسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها .

(ولنعد إلى ما كنا بسبيله فأقول) سافرنا من مدينة أبوهر ، في صحراء مسيرة يوم ، في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهند ، وربما قطعوا الطريق . وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار . فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين ، يسكنون القرى ، ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في إقطاعه ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويعطون الطريق .

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها بلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر ، خرج الناس منها أول النهار ، وأقامت بها إلى نصف النهار في لمة من أصحابي ، ثم خرجنا ، ونحن اثنان وعشرون فارساً . منهم عرب و منهم أعاجم ، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلاً من الكفار وفارسان . وكان أصحابي ذوي نجدة وعيّ ، فقاتلناهم أشد القتال ، فقتلنا أحد

الفارسين منهم وغنمها فرسه ، وقتلتا من رجالهم نحو اثني عشر رجلاً وأصابتني
 نشابة ، وأصابت فرسي نشابة ثانية ، ومن الله بالسلامة منها ، لأن نشاتهم لا قوة
 لها ، وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر ، وذبحنا فرسه
 المجروح ، فأكله الترك من أصحابنا . وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بكره
 فعلقناها على سورة . وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكره المذكور
 (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) .
 وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودهن (وضبط اسمها بفتح الممزة
 وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون) ، مدينة صغيرة هي للشيخ
 الصالح فريد الدين البذاواني الذي أخبرني الشيخ الصالح التولي برهان الدين
 الأعرج بالإسكندرية أني سألقاه ، فلقيته والحمد لله ، وهو شيخ ملك الهند ،
 وأنعم عليه بهذه المدينة . وهذا الشيخ مبني باللوسوس والعياذ بالله ، فلا يصافح
 أحداً ولا يدنو منه ، وإذا ألسق ثوبه بثوب أحد \ غسل ثوبه . دخلت زاويته
 ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين ، فعجب وقال: أنا دون ذلك . ولقيت
 ولديه الفاضلين معز الدين ، وهو أكبرها ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده ، وعلم
 علم الدين . وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاواني ، منسوبة إلى
 مدينة «بذاوون» بلد السنبل . (وهي بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو
 وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة ، قال لي علم الدين: لا بد
 للك من رؤية والدي فرأيته وهو في أعلى سطح له ، وعليه ثياب بيض وعامة
 كبيرة لها ذئابة وهي مائلة إلى جانب . ودعالي وبعث إلى بسكر ونبات .

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفت عن هذا الشيخ ، رأيت الناس يهرعون من عسكربنا ، ومعهم
 بعض أصحابنا . فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كافراً من الهند مات ،

وأججت النار لحرقه ، وامرأته تحرق نفسها معه . ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهند متزينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر ، والأطفال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة ، وهم كبراء الهند . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم فيحرقونها . ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأبجيري^(١) ، وأميرها مسلم من سامرة السند ، وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكافر ، ووقع بينهم قتال شديد ، مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر - وكان لثلاثة منهم ثلاثة زوجات ، فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب لكن من أحرق نفسيها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ، ونسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها ، لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها . ولكنها لا تكره على إحراق نفسها . ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهن على إحراق أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن يودعن الدنيا . ويأتي إليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهم بفرس فركبته ، وهي متزينة متغطرة ، وفي يديها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفون بها ، وأقاربهما معها ، وبين يديها الأطفال والأبواق والأنفار . وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ، وهي تقول : نعم ، وتضحك إليهم . وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق . فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم

(١) في بعض طبعات الكتاب : بأبجيري .

كثير المياه والأشجار متكافئه الظلال، وبين أشجاره أربع قباب، في كل قبة صنم من الحجارة. وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحت الأشجار فلا تخللها الشمس. فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم، أعادنا الله منها. وما وصلن إلى تلك القباب، نزلن إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهم من ثياب وحلي، فتصدقن به. وأتيت كل واحدة منهم بشوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها، وبعضه على رأسها وكتفيها. والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج، في موضع منخفض، وصب عليها روغن كنجد (كنجد)، وهو زيت الجُلْجُلَان^(١) فزاد في اشتعالها. وهنالك نحو خمسة عشر رجالاً بأيديهم حزم من الخطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطفال والأبواق وقوف ينتظرون بجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة، يمسكها الرجال بأيديهم لثلا يدهشها النظر إليها. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة، نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم: مارا ميتسانی ازاطش (آنش) من ميدان أواطش است رهاکني مارا، وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفوني؟ أنا أعلم أنها نار محقة. ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها. وعند ذلك ضربت الأطفال والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الخطب عليها، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لثلا تتحرك، وارتقت الأصوات وكثير الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أصحابي تداركوني بالماء، فغسلوا وجهي وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضاً في الغرق. يغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك، وهو الذي إليه يمحون. وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين. وهم يقولون: إنه من الجنة. وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لهن حضره: لا تظنوا أني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما

(١) الجُلْجُلَان: ثمرة الكزبرة، أو حب السمسم.

قصدني التقرب إلى كُسَيْ، وَكُسَيْ (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانيهم، ثم يغرق نفسه. فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور.

ولنعد إلى كلامنا الأول، فنقول: سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعة أيام منها إلى مدينة سَرْسَيْ (وضبط اسمها بسيئين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الأرز، وأرزها طيب ومنها يحمل إلى حضره دهلي، ولها مجبي كثير جداً. أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره ونسيته. ثم سافرنا منها إلى مدينة حانسي (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وألف ونون ساكن وسين مهملاً مكسور وياء) وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة. ولها سور عظيم ذكرروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تُورَة (بضم التاء المعلوقة وفتح الراء). وله عندهم حكايات وأخبار. من هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند، وأخوه قطلوخان معلم السلطان، وأخواه نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع إلى الله وجاور بمكة حتى مات. ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود آباد. وهي على عشرة أميال من حضرة دهلي، وأقمنا بها ثلاثة أيام. وحانسي ومسعود آباد هما للملك معظم هُوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كُرُك، وكرك (بكافين معقودين أولاهما مضمة) ومعناه الذئب، وسيأتي ذكره. وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غالباً عنها بناحية مدينة قتوچ، وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام، وكانت بالحضره والدته وتدعى المخدومة جهان. وجهان اسم الدنيا. وكان بها أيضاً وزير خواجه جهان المسمى بأحمد بن إياس، الرومي الأصل. فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا، وعين اللقاء كل واحد منا من كان من صنفه. فكان من الذين عينهم للقاء الشيخ البسطامي، والشريف المازندراني وهو حاجب الغرباء، والفقير علاء

الدين الملتفي المعروف بقُنْرة (بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب إلى السلطان بخبرنا ، وبعث الكتاب مع الدواة ، وهي بريد الرجال ، حسبما ذكرناه ، فوصل إلى السلطان ، وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أتمناها بمسعود أباد . وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء ، وهم يسمون الأمراء ملوكاً . فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الأمير يقولون لهم الملك . وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني ، وهو كبير المنزلة عند السلطان . ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقرية من قرية تسمى بالـ (فتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهي للسيد الشريف ناصر الدين مظفر الأوهري ، أحد ندماء السلطان ، ومن له عنده الحظوة التامة . وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الماء وكسر اللام) ، وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحسنة ، وعليها سور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالشرق .

ذكر وصفها

ومدينة دهلي كبيرة الساحة كثيرة العمارة ، وهي الآن أربع مدن متحاورات متصلات ، إحداها المسماة بهذا الاسم دهلي ، وهي القديمة من بناء الكفار . وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسة ، والثانية تسمى سيري (بكسر السين المهمل والراء بينهما ياء مد) ، وتسمى أيضاً دار الخلافة ، وهي التي أعطاها السلطان لغياش الدين حفيض الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه ، وبها كان سكناً السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين ، وسنذكرهما ، والثالثة تسمى تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه . وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين ، فقال له : يا خوند عالم ، كان

ينبغي أن تبني هنا مدينة. فقال له السلطان متهمكاً : إذا كنت سلطاناً فابنها . فكان من قدر الله أن كان سلطاناً فبنها ، وسماها باسمه . والرابعة تسمى جهان بناء ، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه ، وهو الذي بنها . وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبني منه بعضًا وترك بناء باقيه ، لعظم ما يلزم في بنائه .

ذكر سور دهلي وأبوابها

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير . عرض حائطه أحد عشر ذراعاً ، وفيه بيوت يسكنها السمار وحفظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ويسمونها الأنبارات ، ومخازن للعدد ، ومخازن للمجانيق ، والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ، ولا تطرقه آفة . ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولو نه قد اسود ، ولكن طعمه طيب . ورأيت أيضاً الكذرو يخرج منها . وكل ذلك من اختزان السلطان بَلْبَنَ منذ تسعين سنة . ويعيشي في داخل سور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طيقان مفتوحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا سور مبني بالحجارة ، وأعلاه بالآجر ، وأبراجه كثيرة متقاربة . وهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً ، وهم يسمون الباب دروازة . فمنها دروازة بذاؤن ، وهي الكبرى ، ودروازة المندوي ، وبها رحبة الزرع ، ودروازة جُل (بضم الجيم) وهي موضع البساتين ، ودروازة شاه : اسم رجل ، ودروازة بَالَّم : اسم قرية قد ذكرناها ، ودروازة نجيب : اسم رجل ، ودروازة كمال كذلك ، ودروازة غزنة ، نسبة إلى مدينة غزنة التي في طرف خراسان ، وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ، ودروازة الْبَجَالِصَة (بفتح الباء والجيم والصاد المهمل) ، وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي ، وهي مقبرة حسنة يبنون بها القباب . ولا بد عند كل قبر من محراب ، وإن كان لا قبة له ، ويزرعون بها

الأشجار المزهرة مثل قُل^(١) (كل شنبو) وريبول (رأي بيل) والنسرين وسواها .
والأزاهير هنالك لا تنتقطع في فصل من الفصول .

ذكر جامع دهلي

وجامع دهلي كبير الساحة ، حيطانة وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة
البيض المنحوتة ، أبدع نحت ، ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ، لا خشبة به
أصلاً . وفيه ثلاثة عشرة قبة من حجارة ، ومنبره أيضاً من الحجر ، وله أربعة من
الصحون . وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدرى من أي المعادن هو .
ذكر لي بعض حكمائهم أنه يسمى هفت جوش (بفتح الهاء وسكون الفاء وتاء
معلوّة وجيم مضموم وأخره شين معجم) ، ومعنى ذلك سبعة معادن ، وأنه مؤلف
منها . وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة ، ولذلك المجلو منه بريق عظيم ،
ولا يؤثر فيه الحديد . وطوله ثلاثة ذراعاً ، وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط
بدائرته منها ثمانى أذرع . وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران
جداً من النحاس مطروحان بالأرض ، قد ألقاها بالحجارة ، ويطاً عليها كل
داخل إلى المسجد أو خارج منه . وكان موضع هذا المسجد بدخانة ، وهو بيت
الأصنام ، فلما افتتحت جعل مسجداً ، وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة
التي لا نظير لها في بلاد الإسلام . وهي مبنية بالحجارة الحمر ، خلافاً لحجارة
سائر المسجد ، فإنها بيض . وحجارة الصومعة منقوشة ، وهي سامية الارتفاع ،
وفحلها من الرخام الأبيض الناصع ، وتفافيحها من الذهب الخالص ، وسعة مبرها
بحيث تصعد فيه الفيلة . حدثني من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد
بالحجارة إلى أعلىها . وهي من بناء السلطان معز الدين ناصر الدين ابن السلطان
غياث الدين بلبن . وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة

(١) في بعض طبعات الكتاب : مثل : قل شنبه .

أعظم منها ، فبني مقدار الثلث منها ، واحتدم دون تمامها . وأراد السلطان محمد إتمامها ، ثم ترك ذلك تشاوحاً . وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة مساحتها ، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة . وهذا الثلث المبني منها مساواً لارتفاع جميع الصومعات التي ذكرنا أنها بالصحن الشمالي . وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة ، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منقطة ، وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك ، لعظم جرمها وسعتها . وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضاً مسجداً جاماً بسيري المسماة دار الخلافة ، فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب . وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحرم والخضر . ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد . وأراد السلطان محمد إتمامه ، وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقه فيه ، فزعموا أنه ينفق في إتمامه خمسة وثلاثون لكأً فترك ذلك استكثاراً له . وأخبرني بعض خواصه أنه لم يتركه استكثاراً ، لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين للّميش ، ومنه يشرب أهل المدينة ، وهو بالقرب من مصلاها . ومؤاها يجتمع من ماء المطر . وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله . والجهة الغربية من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الدكاكين ، بعضها أعلى من بعض ، وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء ، وجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين . وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجمولة طبقتين . فإذا كثر الماء في الحوض ، لم يكن سبيل إليها إلا في القوارب . فإذا قلل الماء دخل إليها الناس . وداخلها مسجد . وفي أكثر الأوقات يقيم بها القراء

المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه، وإذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم. وفيها بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين. وعلى جوانبه نحو أربعين قبة، ويسكن حوله أهل الطرب، وموضعهم يسمى طرب آباد. وهم سوق هنالك من أعظم الأسواق، ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة. وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويؤمّن بهن الأئمة، وعددهن كبير، وسنت الرجال المغنوون. ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنا. لكل واحد منهم مصلٍ تحت ركبته، فإذا سمع الأذان قام فتوضاً وصلٍ.

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكي، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم. وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكي أنه كان إذا أتاهم الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة، أو الذين لهم البناء ولم يجدوا ما يجهزون به إلى أزواجهن، يعطي من أتاهم كعكة من الذهب أو من الفضة، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكي رحمه الله، ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكُرلاني (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرماني نسبة إلى كرمان، وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلى. وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثيرة نفع الله تعالى بهم.

ذكر بعض علمائها وصلحائتها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة)، وهو من كبار الصالحين. والناس يزعمون أنه ينفق من الكون، لأنّه لا مال له ظاهر، وهو

يطعم الوارد والصادر ، ويعطي الذهب والدرارم والأثواب ، وظهرت له كرامات كثيرة ، واشتهر بها . رأيته مرات كثيرة ، وحصلت لي بركته ، ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلي كأنه منسوب إلى نيل مصر ، والله أعلم ، كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزواني . وهو يعظ الناس في كل يوم جمعة ، فيتوب كثير منهم بين يديه ، ويحلقون رؤوسهم ، ويتواجدون ويفتشى على بعضهم .

حكاية

شاهدته في بعض الأيام وهو يعظ . فقرأ القارئ بين يديه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَنِّيْا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(١) . ثم كررها الفقيه علاء الدين . فصالح أحد القراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد الشيخ الآية ، فصالح الفقير ثانية ووقع ميتاً . وكنت فيمن صلى عليه ، وحضر جنازته . ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهرياني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعاً ونبذها ، ولباسه عباءة . ويزوره السلطان وأهل الدولة ، وربما احتجب عنهم . فرغب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها القراء والواردين فأبى ذلك . وزاره يوماً وأتى إليه عشرة آلاف دينار فلم يقبلها . وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلات ، وأنه قيل له في ذلك فقال : لا أفتر حتى أضطر ، فتحل لي الميّة ، ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع

(١) الحج : الآية : ٢٠، ١.

فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغاري (بالغين المعجم والراء) نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دهلي بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين الذاواني زرته بهذا الغار ثلاث مرات.

كرامة له

كان لي غلام فأبقي مني، وألقيته بيد رجل من الترك، فذهبت إلى انتزاعه من يده، فقال لي الشيخ: إن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذنه. وكان التركي راغباً في الحبة، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه، وتركته له. فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده، وأتى به إلى السلطان، فأمر بتسليميه لأولاد سيده فقتلوه. ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمه وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين وأقمت عنده مدة، فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوماً، ويقوم أكثر الليل. ولم أزل معه حتى بعث عنى السلطان، ونشئتُ في الدنيا ثانية. والله تعالى يخت بالخير وسأذكر ذلك فيها بعد إن شاء الله تعالى، وكيفية رجوعي إلى الدنيا.

ذكر فتح دهلي ومن تداوها من الملوك

حدثني الفقيه العالم العلامة قاضي القضاة باهند والسندي كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوی الملقب بصدر الجهان، أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار في سنة أربع وثمانين وخمسة. وقد قرأت أنا ذلك مكتوباً على محراب الجامع الأعظم بها. وأخبرني أيضاً أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيشك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة)، وكان يلقب سياه (سالار)، ومعناه مقدم الجيوش. وهو أحد ماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ملك غزنة وخراسان، المتغلب على ملك

إبراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذي ابتدأ فتح الهند. وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الأمير قطب الدين ب العسكرية عظيم، ففتح الله عليه مدينة لا هور. وسكنها وعظم شأنه، وسعى به إلى السلطان، وألقى إليه جلساً أنه يريد الانفراد بملك الهند، وأنه قد عصى وخالفة. وبلغ هذا الخبر إلى قطب الدين فبادر بنفسه، وقدم على غزنة ليلاً، ودخل على السلطان، ولا علم عند الذين وشوا به إليه. فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره، وأقعد أيك تحت السرير، بحيث لا يظهر، وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به. فلما استقر بهم الجلوس سألهم السلطان عن شأن أيك، فذكروا له أنه عصى وخالفة، وقالوا: قد صع عندنا أنه أدعى الملك لنفسه. فضرب السلطان سريره برجله، وصفق بيديه وقال: يا أيك، قال: ليك، وخرج عليهم، فسقط في أيديهم، وفزعوا إلى تقبيل الأرض. فقال لهم السلطان: قد غفرت لكم هذه الزلة. وإياكم والعودة إلى الكلام في أيك. وأمره أن يعود إلى بلاد الهند، فعاد إليها، وفتح مدينة دهلي وسواها. واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد. وأقام قطب الدين بها إلى أن توفي.

ذكر السلطان شمس الدين للّمِيش

(وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم)، وهو أول من ولـي الملك بمدينة دهلي مستقلـاً به وكان قبل تملـكه مملـوكاً للأمير قطب الدين أيك وصاحب عـسكـره نائـباً عنه، فـلـما مـات قـطبـ الدين استـبدـ بالـملكـ، وأـخـذـ النـاسـ بـالـبـيـعـةـ. فـأـتـاهـ الـفـقـهـاءـ يـقـدـمـهـ قـاضـيـ القـضـاةـ إـذـ ذـاكـ وـجـيـهـ الـدـينـ الـكـاسـانـيـ، فـدـخـلـوـاـ عـلـيـهـ وـقـدـ بـيـنـ يـدـيـهـ، وـقـدـ القـاضـيـ إـلـىـ جـانـبـهـ عـلـىـ الـعـادـةـ وـفـهـ الـسـلـطـانـ عـنـهـمـ مـاـ أـرـادـوـاـ أـنـ يـكـلـمـوـهـ بـهـ، فـرـفـعـ طـرـفـ الـبـسـاطـ الـذـيـ هوـ قـاعـدـ عـلـيـهـ، وـأـخـرـجـ لـهـ عـقـداـ يـتـضـمـنـ عـتـقـهـ. فـقـرـأـ الـقـاضـيـ وـالـفـقـهـاءـ، وـبـاـيـعـوـهـ جـيـعاـ.

واستقل بالملك ، وكانت مدة عشرين سنة . وكان عادلاً صالحاً فاضلاً ، ومن مآثره أنه اشتغل في رد المظالم وإنصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض فكان متى قعد للناس أو ركب فرائ (١) أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه من ظلمه ثم أنه أعا في ذلك فقال: إن بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل ، وأريد تعجيل إنصافهم، فجعل على باب قصره أسدین مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك ، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيها جرس كبير ، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الجرس ، فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه . ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالي بعده ، ومعز الدين ، وناصر الدين ، وبنتاً تسمى رضية هي شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه.

ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما بُويع ركن الدين بعد موت أخيه افتتح أمره بالتعدي على أخيه معز الدين فقتلته وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه ، فأراد قتلها . فلما كان في بعض أيام الجمعة خرج ركن الدين إلى الصلاة . فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ، وهو يسمى دولة خانة ، ولبسـت عليها ثياب المظلومين ، وتعرضـت للناس ، وكلـمـتهمـ من أعلى السطح ، وقالـتـ لهمـ: إنـ أخيـ قـتـلـ أـخـاهـ ، وـهـوـ يـرـيدـ قـتـلـيـ مـعـهـ . وـذـكـرـتـ أـيـامـ أـبـيهـ وـفـعـلـهـ الـخـيرـ وـإـحـسـانـهـ إـلـيـهـ فـشارـواـ عـنـدـ ذـكـرـهـ إـلـىـ السـلـطـانـ رـكـنـ الدـيـنـ وـهـوـ فـيـ الـمـسـجـدـ فـقـبـضـوـاـ عـلـيـهـ وـأـتـوـاـ بـهـ إـلـيـهـ فـقـالـتـ لـهـ: الـقـاتـلـ يـقـتـلـ فـقـتـلـوـهـ قـصـاصـاـ بـأـخـيهـ وـكـانـ آخـرـهـاـ نـاـصـرـ الدـيـنـ صـغـيرـاـ فـاتـفـقـ النـاسـ عـلـيـ تـوـلـيـةـ رـضـيـةـ .

(١) أي: أعجز غيره من الحكام أن يلحقوا به ويصنعوا صنيعه من العدل.

ذكر السلطانة رضية

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك، فولوها . واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركمش والقربان ، كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ، ثم إنها اتهمت بعد لها من الحبشه فاتفق الناس على خلعها وتزويجها ، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين .

ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما خلعت رضية ولی ناصر الدين أخوها الأصغر ، واستقل بالملك مدة . ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه ، وركبا في ماليكها ومنتبعها من أهل الفساد وتهيا لقتاله ، وخرج ناصر الدين معه ملوكه النائب عنه غياث الدين بتبن متولي الملك بعده فوق اللقاء وانهزم عسكر رضية ، وفرت بنفسها ، فأدركها الجموع وأجهدها الإعياء ، فقصدت حَرَّاتاً رأته يحرث الأرض ، فطلبت منه ما تأكله ، فأعطتها كسرة خيز فأكلتها ، وغلب عليها النوم ، وكانت في زي الرجال ، فلما نامت نظر إليها الحراث وهي نائمة ، فرأى تحت ثيابها قباء مرصعاً فعلم أنها امرأة فقتلتها وسلبها وطرد فرسها ودفنتها في فدانه ، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها ، فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة ، وهو الحاكم ، فصربه فأقر بقتلها ودلم على مدفنتها فاستخر جوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبني عليها قبة وقبرها الآن يزار ويُبارك به^(١) ، وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون ، على مسافة فرسخ واحد من المدينة . واستقل ناصر الدين

(١) يدل ذلك على أن عوام الناس لا يميزون بين الصالحين الذين يتبرك بهم - إن جاز ذلك - وبين غيرهم ، فليس كل من القبور أهل للتبرك بهم ، فالقبور بها الصالح والطالع ومستور الحال .

بالمملك بعدها ، واستقام له الأمر عشرين سنة و كان ملكا صالحاً ينسخ نسخاً من الكتاب العزيز وبيعها فيقاتات بثمنها . وقد وقفني القاضي كمال الدين على مصحف بخطه متقن حكم الكتابة ، ثم إن نائبه غيث الدين بلبن قتله ، وملك بعده ولبن هذا خبر ظريف نذكره .

ذكر السلطان غيث الدين بلبن

(وضبط اسمه بباءين موحدتين بينهما لام والجمع مفتوحات وآخرها نون) ،
ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالمملك بعده عشرين سنة ، وقد
كان قبلها نائباً له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين ، عادلاً حليماً
فاصلاً . ومن مكارمه أنه بنى داراً ، وسمّاها دار الأمن فمن دخلها من أهل
الديون قضي دينه ومن دخلها خائفاً أمن ، ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه
أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوي الجنایات أرضى أيضاً من يطلبه . وبتلك الدار
دفن لما مات . وقد زرت قبره .

حكاية

يدرك أن أحد القراء ببخارى رأى بها بلبن هذا وكان قصيراً حقيراً دمياً
قال له : يا تُرَكَ ، وهي لفظة تعبر عن الاحتقار . فقال له : ليك يا خوند ،
فأعجبه كلامه ، فقال له : إشتري من هذا الرمان ، وأشار إلى رمان يباع في
السوق ، فقال : نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشترى له من ذلك
الرمان . فلما أخذها الفقير قال له : وهبناك ملك الهند . فقبل بلبن يد نفسه ،
وقال : قبلت ورضيت واستقر ذلك في ضميره ، واتفق أن بعث السلطان شمس
الدين للمش تاجراً يشتري له الماليلك بسمرقند وبخارى وترمزد فاشترى مائة
ملوك كان من جلتهم بلبن ، فلما دخل بالماليلك على السلطان أعجبه جميعهم إلا

بلبن ، لما ذكرناه من دمامته فقال : لا أقبل هذا فقال له بلبن : يا خوند عالم من اشتريت هؤلاء المالئك ؟ فضحك منه وقال : اشتريتهم لنفسي . فقال : اشتري أنا لله عز وجل . فقال : نعم وقبله وجعله في جلة المالئك فاحتقر شأنه وجعل في السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين : إن أحد مالئيك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولي عليه ولا يزالون يلقون ذلك ، وهو لا يلتفت إلى أقوالهم لصلاحه وعدله ، إلى أن ذكر ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك ، وأثر في نفسه ، وبعث على المنجمين فقال : أتعرفون الملوك الذي يأخذ ملك ابني إذا رأيتموه ؟ فقالوا له : نعم عندنا علامة نعرفة بها فأمر السلطان بعرض ماليكه ، وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة ، والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون : لم نره بعد ، وحان وقت الزوال ، فقال السقائون بعضهم لبعض : إنما قد جعنا ، فلنجمع شيئاً من الدراهم ، ونبعث أحدنا إلى السوق ليشتري لنا ما نأكله فجمعوا الدرارم ، وبعثوا بها بلبن ، إذ لم يكن فيهم أحقر منه . فلم يجد بالسوق ما أرادوه فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ وجاءت نوبة السقائين في العرض وهو لم يأت بعد ، فأخذوا زقه و ساعونه وجعلوه على كاهل صبي ، وعرضوه على أنه بلبن فلما نودي اسمه جاز الصبي بين أيديهم وانقضى العرض . ولم ير المنجمون الصورة التي يطلبونها . وجاء بلبن بعد تمام العرض ، لما أراد الله من إنفاذ قضائه . ثم إنه ظهرت نجابتـه ، فجعل أمير السقائين ، ثم صار من جلة الأجناد ، ثم من الأمراء ، ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلي الملك وما ولـي الملك جعله نائباً عنه مدة عشرين سنة ، ثم قتلـه بلبن واستولـي على ملـكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك ، وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولـي عهـده ، وكان والـياً لأـبيه بـبلاد السند ، ساكـناً بمـدينة مـلتـان وـقتلـ في حـربـ له معـ التـترـ ، وـتركـ ولـديـنـ : كـيـ قـبـادـ وكـيـ خـسـروـ . وـولـدـ السـلطـانـ بلـبنـ الثـانـيـ يـسمـىـ نـاصـرـ الدـينـ ، وـكانـ والـياًـ لأـبيـهـ

ببلاد اللكتوني وبنجالة . فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كي خسرو ، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين كذلك ولد ساكن بحضره دهلي مع جده يسمى معز الدين ، وهو الذي تولى الملك بعد جده في خبر عجيب نذكره ، وأبوه إذ ذاك حي كما ذكرناه .

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر ابن السلطان غياث الدين بلبن

وما توفي السلطان غياث الدين ليلاً ، وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكتوني ، وجعل العهد لابن ابنته الشهيد كي خسرو ، حسبما قصصناه ، كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدواً لكي خسرو فأدار عليه حيلة ثمت ، وهي أنه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الأمراء الكبار بأنهم بايعوا السلطان معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كالمتنصح له فقال له : إن الأمراء قد بايعوا ابن عمك ، وأخاف عليك منهم . فقال كي خسرو : فما الحيلة ؟ قال : انج بنفسك هارباً إلى بلاد السندي فقال : وكيف الخروج والأبواب مسدودة ؟ فقال له : إن المفاتيح بيدي ، وأنا أفتح لك فشكراه على ذلك وقبل يده ، وقال له : اركب الآن ، فركب في خاصته وماليكه ، وفتح له الباب وأخرجها ، وسُدَّ في أثره ، واستأذن على معز الدين فباعيه ، فقال : كيف لي بذلك ولاية العهد لابن عمي ؟ فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة ، وبإخراجها . فشكراه على ذلك ومضى به إلى دار الملك ، وبعث إلى الأمراء والخواص فباعوا ليلاً فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حياً ببلاد بنجالة واللكتوني فاتصل به الخبر فقال : أنا وارث الملك وكيف يلي ابني الملك ويستقل به وأنا بقييد الحياة ؟ فتجهز في جيشه قاصداً حضرة دهلي ، وتجهز ولده في جيشه كذلك قاصداً لمدافعته عنها ، فتوفيا معاً بمدينة كرا ، وهي على ساحل نهر الكنك الذي تمحق الهندو إلى فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلي كرا ونزل ولده السلطان معز

الدين مما يلي الجهة الأخرى ، والنهر بينها وعزمًا على القتال ، ثم إن الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين ، فألقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال : إذا ملك ولدي فذلك شرف ، وأنا أحق أن أرغب في ذلك ، وألقى في قلب السلطان معز الدين الصراعة لأبيه فركب كل واحد منها منفرداً عن جيشه ، والتقيا في وسط النهر فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له . فقال له أبوه : قد وهبتك ملكي ووليتك وبابعه وأراد الرجوع لبلاده ، فقال له ابنه : لا بد لك من الوصول إلى بلادي ، فمضى معه إلى دهلي ، ودخل القصر وأقعده أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمى ذلك اللقاء الذي كان بينهما بالنهر : لقاء السعددين ، لما كان فيه من حقن الدماء ، وتواهب الملك والتجافي عن المنازعه . وأكثرت الشعراء في ذلك . وعاد ناصر الدين إلى بلاده ، فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادر الذي أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته ، واستقام الملك معز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالأعياد . رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها ، وجود معز الدين وكرمه وهو الذي بني الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي ولا نظير لها في البلاد . وحكي لي بعض أهل الهند أن معز الدين كان يكثر النكاح والشرب ، فاعتبرته علة أعجز الأطباء دواؤها ، ويبس أحد شقيقه فقام عليه نائبه جلال الدين فirozshaة الخاجي (فتح الخاء المعجم واللام والجيم) .

ذكر السلطان جلال الدين

ولما اعترى السلطان معز الدين ما ذكرناه من يبس أحد شقيقه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج إلى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشاني . فبعث معز الدين الأمراء لقتاله ، فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل في جملته ثم دخل المدينة وحصره في القصر ثلاثة أيام . وحدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الأيام ، فلم

يجد ما يأكله ، فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ، ودخل عليه القصر فقتل ، وولي بعده جلال الدين وكان حليماً فاضلاً ، وحلمه أداه إلى القتل ، كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه ، وهو الذي أعطاه السلطان محمد لصهره الأمير غدا بن مهنا ، لما زوجه ، بأخته ، وسيذكر ذلك ، فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين ، وابن أخيه علاء الدين زوجه بابنته وولاه مدينة كرا ومانكبور ونواحيها ، وهي من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والأرز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة ، ومنها تجلب إلى دهلي ، وبينها مسيرة ثمانية عشر يوماً وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه ، فلا زال يشكوها إلى عميه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينها بسببها وكان علاء الدين شهماً شجاعاً مظفراً منصوراً ، وحب الملك ثابت في نفسه ، إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار . فاتفق أنه ذهب مرة إلى الغزو ببلاد الدويقير ، وتسمى بلاد الكَتَكَة أيضاً وسنذكرها ، وهي كرسي بلاد المالوه والمرهنة ، وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار ، فعثرت بعلاه الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنيناً ، فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزاً عظيماً ، ففرقه في أصحابه ووصل إلى الدويقير ، فأذعن له سلطانها بالطاعة ، ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع إلى المدينة كرا ، ولم يبعث إلى عميه شيئاً من الغنائم فأغرى الناس عمه به فبعث إليه ، فامتنع من الوصول إليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب اليه وآتي به فإنه محل ولدي فتجهز في عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا ، حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين ، وركب النهر برسم الوصول إلى ابن أخيه ، وركب ابن أخيه أيضاً في مركب ثان عازماً على الفتاك به وقال لأصحابه : إذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقى وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم ، واحتوى على ملكه وعساكره .

ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي

ولما قتل عمه استقل بالملك ، وفر إليه أكثر عساكر عمه ، وعاد بعضهم إلى دهلي ، واجتمعوا على ركن الدين وخرج إلى دفاعه فهربوا جميعاً إلى السلطان علاء الدين ، وفر ركن الدين إلى السندي ، ودخل علاء الدين دار الملك ، واستقام له الأمر عشرين سنة . وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيراً ، وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم ، ويحضر المحاسب وهو يسمونه الرئيس في كل يوم برسم ذلك ويدرك أن سأله يوماً عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أن ذلك لكترة المغرم على البقر في المرتب فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجار وأعطائهم الأموال وقال لهم : اشتروا بها البقر والغنم وبيعواها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك ، و فعل مثل هذا في الأثواب التي يؤتى بها من دولة أباد وكان إذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر . ويدرك أن السعر ارتفع ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمن عينه ، فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر لا يبيع أحد زرعاً غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر ، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبو أن يؤذن لهم على أن يبيعوا بأقل من القيمة الأولى التي امتنعوا من بيعه بها . وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواها وسبب ذلك إنه كان له ابن أخي يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه ، فركب يوماً إلى الصيد وهو معه ، وأضمر في نفسه أن يفعل ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتوك فلما نزل للغداء ، رماه بنشاشة فصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتى ابن أخيه ليجهز عليه ، فقال له العبيد : إنه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيه وركب ، واجتمعت العساكر عليه ، وفر ابن أخيه فأدرك وأتي به إليه فقتله ، وكان بعد ذلك لا يركب . وكان له

من الأولاد خضر خان وشادي خان وأبو بكر خان ومبارك خان، وهو قطب الدين الذي ولـي الملك، وشهاب الدين. وكان قطب الدين مهضماً عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطي جميع إخوته المراتب، وهي الأعلام والأطبال، ولم يعطه شيئاً، وقال له يوماً، لا بد أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك فقال له: الله هو الذي يعطيني فهـل أباـه هـذا الكلـام وفـرع منهـ. ثم إنـالسلطـان اـشتـد عـلـيـهـ المـرـضـ، وـكانـتـ زـوـجـتـهـ أـمـ وـلـدـهـ خـضـرـ خـانـ، وـتـسـمـىـ مـاهـ حـقـ، وـمـاهـ الـقـمـرـ بـلـسـانـهـمـ، هـاـ أـخـ يـسـمـىـ سـنـجـرـ، فـعـاهـدـتـ أـخـاـهـ عـلـىـ تـمـلـيـكـ وـلـدـهـاـ خـضـرـ خـانـ وـعـلـمـ بـلـسـانـهـمـ، هـاـ أـخـ يـسـمـىـ سـنـجـرـ، فـعـاهـدـتـ أـخـاـهـ عـلـىـ تـمـلـيـكـ وـلـدـهـاـ خـضـرـ خـانـ وـعـلـمـ بـذـلـكـ مـلـكـ نـائـبـ أـكـبـرـ أـمـرـاءـ السـلـطـانـ، وـكـانـ يـسـمـىـ الـأـلـفـيـ، لـأنـ السـلـطـانـ إـشـتـراهـ بـأـلـفـ تـنـكـةـ، وـهـيـ أـلـفـانـ وـخـمـسـائـةـ مـنـ دـنـانـيرـ الـمـغـرـبـ، فـوـشـنـىـ إـلـىـ السـلـطـانـ بـمـاـ اـتـفـقـواـ عـلـيـهـ، فـقـالـ لـخـواـصـهـ إـذـاـ دـخـلـ عـلـىـ سـنـجـرـ فـإـنـيـ مـعـطـيـهـ ثـوـبـاـ، فـإـذـاـ لـبـسـهـ، فـأـمـسـكـواـ بـأـكـامـهـ وـأـسـرـبـواـ بـهـ الـأـرـضـ وـأـذـبـحـوـهـ فـلـمـ دـخـلـ عـلـيـهـ فـعـلـوـاـ ذـلـكـ وـقـتـلـوـهـ وـكـانـ خـضـرـ خـانـ غـائـبـاـ، بـمـوـضـعـ يـقـالـ لـهـ: سـنـدـبـتـ، عـلـىـ مـسـيـرـةـ يـوـمـ مـنـ دـهـليـ، تـوـجـهـ لـزـيـارـةـ شـهـداءـ مـدـفـونـيـنـ بـهـ، لـنـذـرـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـمـشـيـ تـلـكـ المـسـافـةـ رـاجـلـاـ وـيـدـعـوـ لـوـالـدـهـ بـالـرـاحـةـ. فـلـمـ بـلـغـهـ أـنـ أـبـاـهـ قـتـلـ خـالـهـ حـزـنـ عـلـيـهـ حـزـنـاـ شـدـيدـاـ وـمـزـقـ جـيـبـهـ، وـتـلـكـ عـادـةـ لـأـهـلـ الـهـنـدـ يـفـعـلـوـنـهـاـ إـذـاـ مـاتـ هـمـ مـنـ يـعـزـ عـلـيـهـمـ، فـبـلـغـ وـالـدـهـ مـاـ فـعـلـهـ فـكـرـهـ ذـلـكـ، فـلـمـ دـخـلـ عـلـيـهـ عـنـهـ وـلـامـهـ، وـأـمـرـ بـهـ فـقـيـدـتـ يـدـاهـ وـرـجـلـاهـ، وـسـلـمـهـ مـلـكـ نـائـبـ المـذـكـورـ، وـأـمـرـهـ أـنـ يـذـهـبـ إـلـىـ حـصـنـ كـالـيـوـرـ وـضـبـطـهـ (بـفـتحـ الـكـافـ الـمـعـقـودـةـ وـكـسـرـ الـلـامـ وـضـمـ الـيـاءـ آخرـ الـحـرـوفـ وـآخـرـهـ رـاءـ) وـيـقـالـ لـهـ أـيـضاـ كـيـالـيـرـ بـزـيـادـةـ يـاءـ ثـانـيـةـ، وـهـوـ حـصـنـ مـنـقـطـعـ بـيـنـ كـفـارـ الـهـنـدـ مـنـيـعـ عـلـىـ مـسـيـرـةـ عـشـرـ مـنـ دـهـليـ، وـقـدـ سـكـنـتـهـ أـنـاـ مـدـةـ، فـلـمـ أـوـصـلـهـ إـلـىـ هـذـاـ حـصـنـ سـلـمـهـ لـلـكـتوـالـ وـهـوـ أـمـيـرـ الـحـصـنـ، وـلـلـمـفـرـدـيـنـ وـهـمـ الزـمـاميـونـ، وـقـالـ لـهـ: لـاتـقـولـواـ هـذـاـ اـبـنـ السـلـطـانـ فـتـكـرـمـوـهـ، إـنـاـ هـوـ أـعـدـىـ عـدـوـ لـهـ، فـاـحـفـظـوـهـ كـمـاـ يـحـفـظـ الـعـدـوـ. ثـمـ إـنـ الـمـرـضـ اـشـتـدـ بالـسـلـطـانـ فـقـالـ الـمـلـكـ نـائـبـ: اـبـعـثـ مـنـ يـأـتـيـ بـأـبـنـيـ خـضـرـ خـانـ لـأـوـلـيـهـ الـعـهـدـ: فـقـالـ لـهـ

نعم وماطله بذلك فمتي سأله عنه ، قال : هو ذا يصل إلى أن توفي السلطان رحه
الله .

ذكر ابنه السلطان شهاب الدين

ولما توفي السلطان علاء الدين اقعد ملك نائب ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايده الناس ، وتغلب ملك نائب عليه ، وسلم أعين أبي بكر خان وشادي خان ، وبعث بها إلى كاليلور ، وأمر بسمل عيني أخيها خضر خان المسجون هنالك ، وسجنا وسجين قطب الدين ، لكنه لم تُسلم عيناه . وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه ، يسمى أحدهما ببشر والآخر بمبشر ، فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين ، وهي بنت السلطان معز الدين ، فذكريتها بنعمة مولاها ، وقالت : إن هذا الفتى ملك نائب قد فعل في أولادي ما تعلمانيه ، وأنه يريد أن يقتل قطب الدين . فقالا لها : سترين ما نفعل ، وكانت عادتها أن يبيتني عند نائب ملك ويدخلها عليه بالسلاح ، فدخلها عليه تلك الليلة وهو في بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام في أيام المطر فوق سطح القصر ، فاتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه ورده إليه ، فضربه به الملوك وثنى عليه صاحبه ، واحتزا رأسه وأتيا به إلى مجلس قطب الدين ، فرمياه بين يديه ، وأخرجاه . فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياماً كأنه نائب له ، ثم عزم خلعيه فخلعه .

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين

وخلع قطب الدين أخيه شهاب الدين وقطع إصبعه ، وبعث به إلى كاليلور فحبس مع إخوته . واستقام الملك لقطب الدين . ثم إنه بعد ذلك خرج من حضرة دهلي إلى دولة أباد ، وهي على مسيرة أربعين يوماً منها . والطريق بينهما

تكنفه الأشجار من الصفصاف وسواه. فكأن الماشي به في بستان. وفي كل ميل منه ثلاثة داوات، وهي البريد وقد ذكرنا ترتيبه، وفي كل داوة جميع ما يحتاج المسافر إليه. فكأنه يمشي في سوق مسيرة الأربعين يوماً. وكذلك يتصل الطريق إلى بلاد التلنك. والمعبر مسيرة ستة أشهر. وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر، فلا يفتقر الفقير إلى حل زاد في ذلك الطريق. ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفق بعض النساء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون، وسنة نحو عشرة أعوام، وكان مع السلطان. فبلغ السلطان ذلك، فأخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه، وضرب برأسه إلى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث أحد النساء ويسمى ملك شاه إلى كاليلور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعاً. فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال: قدم علينا ملك شاه ضحورة يوم، وكانت عند خضر خان بمحبسه، فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه. ودخل عليه الأمير فقال له: فِيمْ جَئْتُ؟ قال: في حاجة خوند عالم. فقال له: نفسي سالمة، فقال: نعم، وخرج عنه واستحضر الكتووال وهو صاحب الحصن والمفردین وهم الزماميون، وكانوا ثلاثة رجال، وبعث عنی وعن العدول، واستظهر بأمر السلطان فقرأوه، وأندوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه وهو متثبت غير جزع، ثم ضربوا عنق أبي بكرخان وشادي خان، ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل، وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها، وقتلوا وسجوهم جميعاً في حفرة بدون تكفين ولا غسل. وأخرجوا بعد سنين فدفعوا بمقابر آبائهم. وعاشت أم خضر خان مدة، ورأيتها بمكة سنة ثمان وعشرين. وحصن كاليلور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل، وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئراً عليها الأسوار مضافة إلى الحصن، منصوباً عليها المجانيق والرعدات. ويصعد إلى الحصن في طريق متسبعة يصعدها الفيل والفرس. وعند باب الحصن صورة فيل

منحوت من الحجر وعليه صورة فيال. وإذا رأه الإنسان على بعد لم يشك أنه فيل حقيقة. وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة، مساجدها ودورها ، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب . وكذلك دار الملك بها والقباب وال المجالس . وأكثر سوقتها^(١) كفار ، وفيها ستائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهاد ، لأنها بين الكفار . ولما قتل قطب الدين إخوته واستقل بالملك ، ولم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه من خاصته ، الحظي لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسرو خان ففتى به وقتلها واستقل بملكه ، إلا أن مدة لم تطل في الملك ، فبعث الله عليه أيضاً من قتلها بعد خلعه السلطان تغلق ، حسبما يشرح كله مستوف إن شاء الله تعالى إثر هذا ونسطره .

ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين ، وهو شجاع حسن الصورة ، وكان فتح بلاد جنديري وببلاد المعبر ، وهي من أخصب بلاد الهند . وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر . وكان قطب الدين يحبه جداً شديداً و يؤثره ، فجر ذلك حتفه على يديه . وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر الجهان ، وهو أكبر أمرائه وكليلات (كليد) دار ، وهو صاحب مفاتيح القصر . وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة ، وهم ألف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال ، ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر ، وسلاح كل واحد منهم بين يديه ، فلا يدخل أحد إلا فيما بين ساطعيم . وإذا تم الليل أتى أهل نوبة النهار . ولأهل النوبة أمراء وكتاب يتظوفون عليهم ويكتبون من غاب منهم أو حضر . وكان معلم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان ، ويسوءه ما يراه من إيثاره للكفار المهدود وميله إليهم ، وأصله منهم . ولا يزال يلقى ذلك إلى السلطان

(١) عوامها .

فلا يسمع منه ويقول له دعه وما يريد ، لما أراد الله من قتله على يده . فلما كان في بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان : إن جماعة من الهنود يريدون أن يسلمو . ومن عادتهم بتلك البلاد أن الهندي إذا أراد الإسلام أدخل إلى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره ، فقال له السلطان : ائتي بهم . فقال : إنهم يستحiron أن يدخلوا إليك نهاراً لأجل أقربائهم وأهل ملتهم . فقال له : ائتي بهم ليلاً . فجمع خسرو خان جماعة من شجعان الهنود وكبارهم ، فيهم أخوه خان خanan ، وذلك أوان الحر ، والسلطان ينام فوة سطح القصر ، ولا يكون عنده في ذلك الوقت إلا بعض الفتىان . فلما دخلوا الأبواب الأربع وهم شاكو السلاح ووصلوا إلى الباب الخامس ، وعليه قاضي خان ، انكر شأنهم ، وأحس بالشر . فمنعهم من الدخول وقال : لا بد أن أسمع من خوند عالم ببني الإذن في دخولهم ، وحينئذ يدخلون . فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه . وعلت الضجة بالباب ، فقال السلطان : ما هذا ؟ فقال خسرو خان : هم الهنود الذين أتوا ليسلموا ، فمنعهم قاضي خان من الدخول . وزاد الضجيج ، فخاف السلطان وقام يريد الدخول إلى القصر ، وكان بابه مسدوداً ، والفتىان عنده فقرع الباب واحتضنه خسرو خان من خلفه . وكان السلطان أقوى منه فصرعه . ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان : هودا فوقى فاقتلوه ، فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحته . وبعث خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق . فكلما دخلت طائفة وجده على سرير الملك فباعوه لما أصبح أعلن بأمره ، وكتب المراسم وهي الأوامر إلى جميع البلاد . وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعاً . وأذعنوا إلا تغلق شاه ولد السلطان محمد شاه ، وكان إذا ذاك أميراً بدبال بور ، من بلاد السنند . فلما وصلته خلعة خسرو خان طرحتها بالأرض ، وجلس فوقها . وبعث إليه أخاه خان خanan فهزمه . ثم آل أمره إلى أن قتله كما سنشرحه في أخبار تغلق .

ولما ملك خسرو خان اثر الهنود ، وأظهر أموراً منكرة ، منها النهي عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهند ، فإنه لا يحيزون ذبحها ، وجزاء من ذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويحرق . وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة ، وللاستشفاء إذا مرضوا . ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواثها . وكان ذلك مما يغض خسرو خان إلى المسلمين وأمالمهم عنه إلى تغلق ، فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت أيام ملكه كما سند ذكره .

ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوّة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثني الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبد الله ابن الولي الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشي الملتاني بزاويته . أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقرونية (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون) ، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السنديان والترك . وكان ضعيف الحال ، فقدم بلاد السنديان في خدمة بعض التجار ، وكان كُلُوانياً له ، والكلُوانِي (بضم الكاف المعقود) هو راعي الخيل (جلوبان) ، وذلك على أيام السلطان علاء الدين ، وأمير السنديان إذ ذاك أخوه أولوخان (بضم المهمزة واللام) فخدمه تغلق ، وتعلق بجانبه ، فرتبه في البيضاء (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) ، وهم الرجال . ثم ظهرت نجابتة فأثبتت في الفرسان ، ثم كان من الأمراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله . ثم كان بعد ذلك من الأمراء الكبار ، وسمى بالملك الغازي ، ورأيت مكتوباً على مقصورة الجامع بملتان ، وهو الذي أمر بعملها ، إني قاتلت التتر تسعًا وعشرين مرة ، فهز متهم . فحيينه سُميت بالملك الغازي . ولما ولـ قطب الدين ولاه مدينة

دِبَال بور وعِمالتها (وهي بكسر الدال المهمل وفتح الباء الموحدة)، وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله، وكان يسمى جَوَنَه (بفتح الجيم والتون) ولما ملك تسمى بِمحمد شاه. ثم لما قتل قطب الدين وولي خسرو خان أبقاء الله على إمارة الخيل. فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال، وكتب إلى كشلو خان، وهو يومئذ ملutan، وبينها وبين دِبَال بور ثلاثة أيام، يطلب منه القيام بنصرته، ويدركه نعمة قطب الدين، ويحرضه على طلب ثأره. وكان ولد كشلو خان بدھلی فكتب إلى تغلق أنه لو كان ولدي سدي لأعنفك على ما تريده. فكتب تغلق إلى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه، ويأمره أن يفر إلى إليه ويستصحب معه ولد كشلو خان، فأدار ولده الخليفة على خسرو خان. وتمت له كما أراد، فقال له: إن الخيل قد سمنت وتبدنت وهي تحتاج البراق وهو التضمير، فأذن له في تضميرها. فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة وال ساعتين والثلاث، واستمر إلى أربع ساعات، إلى أن غاب يوماً إلى وقت الزوال، وذلك وقت طعامهم، فأمر السلطان بالركوب في طلبه، فلم يوجد له خبر. ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلو خان. وحينئذ أظهر تغلق الخلاف، وجمع العساكر وخرج معه كشلو خان في أصحابه، وبعث السلطان أخيه خان خanan لقتالهما، فهزماه شر هزيمة، وفر عسكره إليهما، ورجع خان خanan إلى أخيه، وقتل أصحابه، وأخذت خزانة وأمواله وقصد تغلق حضرة دھلی.

وخرج إليه خسرو خان في عساكره، ونزل بخارج دھلی بموضع يعرف بآصيا آباد (آسيabad) ومعنى ذلك رحى الريح، وأمر بالخزائن ففتحت، وأعطي الأموال بالبدر، لا بوزن ولا عدد. ووقع اللقاء بينه وبين تغلق، وقاتلته الهندو أشد قتال. وانهزمت عساكر تغلق، ونهبت محلته، وانفرد في أصحابه الأقدمين

الثلاثمائة ، فقال لهم : إلى أين الفرار حيثما أدركتنا ، واشتغلت عساكر خسرو خان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصد تغلق وأصحابه موقفه ، والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه ، وهو الذي يسمى بديار مصر القبة ، والطير ، ويعرف بها في الأعياد . وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر . فلما قصده تغلق وأصحابه حي القتال بينهم وبين الهند . وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد ، وهرب فنزل عن فرسه ورمي بيشهه وسلامه ، وبقي في قميس واحد ، وأرسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ، ودخل بستانه هنالك . واجتمع الناس على تغلق ، وقدد المدينة ، فأناه الكتوال بالمفاتيح ، ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلو خان : أنت تكون السلطان . فقال كشلو خان : بل أنت تكون السلطان . وتنازعا ، فقال له كشلو خان : فإن أبىت أن تكون سلطاناً فتول ولدك . فكره هذا ، وقبل حينئذ ، وقعد على سرير الملك وباعيه الخاص والعام ، ولما كان بعد ثلات اشتدة الجوع بخسرو خان ، وهو مختلف بالبيتان ، فخرج وطاف به فوجد القائم فسأله طعاماً فلم يكن عنده فأعطاه خاتمه وقال : اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم إلى السوق أنكر الناس أمره ورفعوه إلى الشحنة وهو الحاكم فأدخله على السلطان تغلق فأعلمه بن دفع إليه الخاتم . فبعثت ولده محمدأ ليأتي به فقبض عليه وأناه به راكباً على تتو (بتائين مثنين أولاهما مفتوحة والثانية مضومة) ، وهو البرذون . فلما مثل بين يديه قال له : إني جائع فأأتي بطعم . فأمر له بالشربة ثم الطعام ثم بالقفاع ثم بالتبول . فلما أكل قام قائماً وقال : يا تغلق افعل معي فعل الملوك ، ولا تفضحني . فقال له : لك ذلك . وأمر به فضربت رقبته وذلك في الموضع الذي قتل هو به قطب الدين ، ورمي برأسه وجسده من أعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين ، وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه . ودفن في مقبرته ، واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام . وكان عادلاً فاضلاً .

ذكر ما راهم ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر النساء المعلوّة واللام وسكون النون وكاف معمودة) وهي على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلي . وبعث معه عسكراً عظيماً فيه كبار الامراء ، مثل الملك تمور (بفتح النساء المعلوّة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر النساء المعلوّة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور والمهردار (بضم الميم) ومثل ملك بيبرام (بالباء الموحّدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم . فلما بلغ إلى أرض التلنك أراد المخالفه . وكان له نديم من الفقهاء الشعراً يعرف بعيده ، فأمره أن يلقي إلى الناس أن السلطان تغلق توفي ، وظن أنه أن الناس يبايعونه مسرعين إذا سمعوا ذلك . فلما ألقى ذلك إلى الناس أنكره الأُمراء ، وضرب كل واحد منهم طبله وحالف ، فلم يبق معه أحد . وأرادوا قتله ، فمنعهم منه ملك تمور ، وقام دونه . ففر إلى أبيه في عشرة من الفرسان سماهم ياران موافق ، ومعناه الأصحاب الموافقون . فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود إلى تلنك فعاد إليها . وعلم أبوه بما كان أراد . فقتل الفقيه عبيداً ، وأمر بملك كافور المهردار فدق له عمود في الأرض محدود الطرف ، وركز في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ، ورأسه ، إلى أسفل . وترك على تلك الحال . وفر من بقي من الأُمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلَّبن ، واستقروا عنده .

ذكر مسیر تغلق إلى بلاد اللکنوتی وما اتصل بذلك إلى وفاته

وأقام الأُمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين . ثم إن شمس الدين توفي ، وعهد لولده شهاب الدين مجلس ابيه . ثم غالب عليه أخيه الأصغر غياث الدين بهادر ، بورة ، ومعناه بالهندية الأسود ، واستولى على الملك ، وقتل أخيه

قطلوخان وسائر إخوته . وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق ، فتجهز معها لقتال أخيها ، وخلف ولده محمدًا نائبًا عنه في ملكه ، وجد السير إلى بلاد اللكتونى فانتصر عليها ، وأسر سلطانها غياث الدين بهادر ، وقدم به أسيراً إلى حاضرة ملكه . وكان بعدينة دهلي الولي نظام الدين البدوانى ، ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتربّد إليه ، ويعظم خدامه ، ويُسأله الدعاء . وكان يأخذ الشيخ حال تغلب عليه ، فقال ابن السلطان لخدامه ؛ إذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فأعلموني بذلك . فلما أخذته الحال أعلمه فدخل عليه ، فلما رآه الشيخ قال : وهبنا لك الملك ، ثم توفي الشيخ في أيام غيبة السلطان . فحمل ابنته محمد نعشه على كاهله ، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده . وكان قد رأى منه أموراً ، ونقم عليه استكثاره من شراء المالك ، وإيجازه العطايا ، واستجلابه قلوب الناس ، فزاد حنقه عليه . وبلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دهلي بعد سفره ذلك فتوعده . ولما عاد من سفره وقرب من الحاضرة أمر ولده أن يبني له قصراً ، وهم يسمونه الكُشك ، (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمى أفغان بور ، فبناه في ثلاثة أيام . وجعل أكثر بنائه بالخشب ، مرتفعاً على الأرض ، قائماً على سواري خشب ، وأحکمه بهندسة توبيخها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجه جهان ، واسميه أحمد بن إياس ، كبير وزراء السلطان محمد ، وكان إذ ذاك شحنة العمارة . وكانت الحكمة التي اخترعواها فيه أنه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط . ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا . واستأذنه ولده في أن يعرض الفيلة بين يديه وهي مزينة فاذن له . وحدثني الشيخ ركن الدين أنه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود ، فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ : يا خوند هذا وقت العصر ، انزل فصل . قال لي الشيخ : فنزلت . وأتي بالأفيال من جهة واحدة حسبما دبروه ، فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان ولوّدته محمود ، قال الشيخ : فسمعت

الضجة ، فعدت ولم أصل ، فوجدت الكشك قد سقط . فأمر ابنه أن يؤتى بالغوص والمساحي للحفر عنه ، وأشار بالإبطاء ، فلم يؤت بها إلا وقد غربت الشمس . فحفروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليقيه الموت . فزعم بعضهم أنه خرج ميتاً وزعم بعضهم أنه أخرج حياً فأجهز عليه ، وحل ليلًا إلى مقيرته التي بناها خارج البلدة المسماة باسمه تغلق أبوابه فدفن بها . وقد ذكرنا السبب في بنائه لهذه المدينة . وبها كانت خزائن تغلق وقصوره ، وبه القصر الأعظم الذي جعل قراميده مذهبة ، فإذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص ينبع البصر من إدامة النظر إليها ، واحتزن بها الأموال الكثيرة . ويدرك أنه بنى صهريجاً وأفرغ فيه الذهب إفراجاً ، فكان قطعة واحدة . فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولـي ، وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجه جهان في بناء الكشك الذي سقط على تغلق ، وكانت حظوظه عند ولده محمد شاه وإيثاره ، فلم يكن أحد يدانـيه في المنزلة لـديه ، ولا يبلغ مرتبته عندـه من الـوزراء لا غيرـهم .

ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمـنا عليه

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه . وقد قدمـنا أنه كان اسمـه جونـه . فلما مـلك تسمـى بـمحمد ، واكتـنى بأبيـ المجاهـد . وكل ما ذـكرـتـ من شأنـ سلاطـينـ الهندـ ، فهوـ ماـ أخـبرـتـ بهـ وتـلـقـيـتهـ أوـ مـعـظـمهـ منـ الشـيخـ كـمالـ الدـينـ بنـ البرـهـانـ الغـزـنـوـيـ قـاضـيـ القـضاـةـ . وأـمـاـ أـخـبارـ هذاـ المـلـكـ نـهـ بـفـلـمـهاـ مـاـ شـاهـدـتـهـ أـيـامـ كـوـنيـ بـبـلـادـهـ .

ذكر وصفه

هذا الملك أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء . فلا يخلو بابه عن فقير يغنى أو حي يقتل . وقد شُهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة ، وحكاياته في الفتوك والبطش بذوي الجنایات . وهو أشد الناس مع ذلك تواضعاً وأكثربهم إظهاراً للعدل والحق . وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد في أمر لصلة والعقوبة على تركها . وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم ، وخرق المعتاد مين نقيبهم . ولكن الأغلب عليه الكرم . وسنذكر من أخباره فيه عجائب لم يسمع بمثلها عنمن تقدمه . وأناأشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيداً ، وأعلم أن بعض مآثره من ذلك لايسوغ في عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ وافر منه . لا يسعني إلا قول الحق فيه . وأكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك

ودار السلطان بدھلي تسمى دار سَرَى (بفتح السين المهمل والراء) ، ولها أبواب كثيرة . أما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به ، ويقعده به أهل الأنفار والأبواق والصرنایات . فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها ، ويقولون في ضربهم : جاء فلان . وكذلك أيضاً في البابين الثاني والثالث . وبخارج الباب الأول دكاكين يقعده عليها الجلادون ، وهم الذين يقتلون الناس . فإن العادة عندهم أنه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ، ويبقى هنا ثلاثة . وبين البابين الأول والثاني دھلیز كبير ، فيه دكاكين مبنية من جهتيه ، يقعده عليها أهل النوبة من حفاظ الأبواب . وأما الباب الثاني فيقعده عليه البابون الموكلون به . وبينه

وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء ، وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده ، وعلى رأسه كلاه من الذهب بمحورة في أعلىها ريش الطواويس ، والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة ، وفي وسطه منطقة ، وبهذه سوطاً نصا به من ذهب أو فضة ، ويفضي هذا الباب الثاني إلى مشور كبير متسع يقعد به الناس . وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب . ومن عوائدهم أن لا يدخل على هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك . ويعين لكل إنسان عدد من أصحابه . وناسه يدخلون معه . وكل من يأتي إلى هذا الباب يكتب الكتاب أن فلاناً جاء في الساعة الفلانية من الساعات إلى آخر النهار ، ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة . ويكتبون أيضاً بكل ما يحدث من الباب من الأمور . وقد عين من أبناء الملوك من يوصل ما يكتبه إلى السلطان . ومن عوائدهم أيضاً أنه من غاب عن دار السلطان ثلاثة أيام فصاعداً لعذر أو لغير عذر ، فلا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذن من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره ، قدم بين يديه هدية مما يناسب إهداءها إلى السلطان . وكذلك القادمون من الأسفار . فالفقير يهدي المصحف والكتاب ، وشبه الفقير يهدي المصلى والسبحة والمِسواك ونحوها ، والأمراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح . وهذا الباب الثالث يفضي إلى المشور الهائل الفسيح المسمى هزار أسطون (بفتح الهاء والزاي وألف وراء) ومعنى ذلك ألف سارية ، وهو سواري من خشب مدهونة ، عليها سقف خشب منقوش أبدع نقش ، يجلس الناس تحتها . وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام .

ذكر ترتيب جلوسه

أكثر جلوسه بعد العصر ، وربما جلس أول النهار . وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة . ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة ، وعن يمينه

متكاً، وعن يساره مثل ذلك. وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم. فإذا جلس وقف أمامه الوزير، ووقف الكتاب خلف الوزير، وخلفهم الحجاب، وكبير الحجاب هو فیروز ملك ابن عم السلطان ونائبه، وهو أدنى الحجاب من السلطان، ثم يتلوه خاص حاجب، ثم يتلوه نائب خاص حاجب، ووكيل الدار ونائبه، وشرف الحجاب وسيد الحجاب، وجاعة تحت أيديهم. ثم يتلو الحجاب النقاب، وهم نحو مائة. وعند جلوس السلطان ينادي الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم: بسم الله. ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبولة وبيده المذبة يشرد بها الذباب، ويقف مائة من السلاحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره، بأيديهم الدرق والسيوف والقصي. ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء والمشايخ ثم إخوة السلطان وأصحابه ثم الأمراء الكبار ثم كبار الأuzeة وهم الغرباء ثم القواد. ثم يؤتى بستين فرساً مسرحة ملجمة بجهازات سلطانية، فمنها ما هو بشعار الخلافة، وهي التي لجمها ودواائرها من الحرير الأسود المذهب، ومنها ما يكون من الحرير الأبيض المذهب. ولا يركب بذلك غير السلطان، فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال، بحيث يراها السلطان. ثم يؤتى بخمسين فيلاً مزينة بشباب الحرير والذهب، مكسوة أنيابها بالحديد إعداداً لقتل أهل الجرائم، وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به، ويقومه لما يراد منه، وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة، وأكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمته، وفي أركان هذا الصندوق أربعة أعلام مرکوزة. وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤوسها. فإذا خدمت قال الحجاب: بسم الله بأصوات عالية. ويوقف أيضاً نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين. وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة أو الميسرة

يُخدم عند موقف الحجاب ، ويقول الحجاب : بسم الله . ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم . فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ، ومن كان من كفار المندوب يخدم ، ويقول له الحجاب والنقباء : هداك الله ، ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم ، بأيديهم الترسة والسيوف ، فلا يمكن الدخول بينهم إلا بين يدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان .

ذكر دخول الغرباء وأصحاب المدايا إليه

وإن كان بالباب أحد من قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب إلى السلطان على ترتيبهم ، يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ، ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ، ثم وكيل الدار ونائبه ، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ، ويخدمون في ثلاثة مواضع . ويعلمون السلطان مبن في الباب . فإذا أمرهم أن يأتوا به جعلوا المدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها أمام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعي صاحبها ، فيخدم قبل الوصول إليه ثلاث مرات ، ثم يُخدم عند موقف الحجاب . فإن كان رجلاً كبيراً وقف في صف أمير حاجب ، وإلا وقف خلفه . ويُخاطبه السلطان بنفسه ألطاف خطاب ويرحب به . وإن كان من يستحق التعظيم فإنه يصافحه أو يعانقه ، ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه . فإن كانت من السلاح أو الشياب قلبها بيده ، وأظهر استحسانها جبراً لخاطر مهديها وإيناساً له ورفقاً به ، وخلع عليه ، وأمر له بماء لغسل رأسه ، على عادتهم في ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى .

ذكر دخول هدايا عماله إليه

وإذا أتى العمال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجايي البلاد صنعوا الأواني من

الذهب والفضة مثل الطسوت والأباريق رسوها ، وصنعوا من الذهب والفضة قطعاً شبه الأجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتناء معلوّة) ، ويقف العراشون ، وهن عبيد السلطان صفاً ، والهدية بأيديهم . كل واحد منهم ممسك قطعة ، ثم يقدم الفيلة إن كان في الهدية شيء منها ، ثم الخيل المسرجة الملجمة ، ثم الجمال عليها الأموال . ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة أباد ، ولقيه بها في ظاهر مدينة بيانة ، فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب . ورأيت في جلتها صينية مليئة بأحجار الياقوت وصينية مليئة بأحجار الزمرد وثالثة باللؤلؤ الفاخر . وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضراً عنده حين ذلك ، فأعطاه حظاً منها . وسنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ذكر خروجه للعديدين وما يتصل بذلك

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار الخلخ التي تعمهم جميعاً . فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة بالحرير والذهب والجواهر ، ويكون منها ستة عشر فيلاً لا يركبها أحد ، إنما هي مختصة برکوب السلطان . ويرفع عليها ست عشر شطراً (جترا) من الحرير مرصعة بالجوهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص . وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجوهر . ويركب السلطان فيلاً منها ، وترفع أمامه الغاشية وهي ستارة سرجة ، وتكون مرصعة بأنفس الجوهر . ويشي بين يديه عبيده وماليكه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وبعضهم يرصعها بالجوهر . ويشي بين يديه أيضاً النقباء ، وهم نحو ثلاثة . وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وفي يده مقرعة نصابها ذهب ،

ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوبي وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الأعزاء من الخراسانيين والعرaciين والشاميين والمصريين والمغاربة، كل واحد منهم على مطية، وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين، ويركب المؤذنون على الفيلة وهم يكبرون. ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب، والعساكر تنتظره، كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله وأعلامه، فيقدم السلطان وأمامه من ذكرناه من المشاة، وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى، وخلف السلطان مراتبه وهي الأعلام والطبول والأبواق والأنفار والصرنایات، وخلفهم جميع أهل دخلته، ثم يتلوهم أخوه السلطان مبارك خان براتبه وعساكره، ثم يليه ابن أخي السلطان بهرام خان براتبه وعساكره، ثم يليه ابن عمه ملك فیروز براتبه وعساكره، ثم يليه الوزير براتبه وعساكره، ثم يليه الملك مجیر بن ذي الرجا براتبة وعساكره، ثم يليه الملك الكبير قبولة براتبه وعساكره، وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثیر المال، أخبرني صاحب دیوانه ثقة الملك علاء الدين على المصري المعروف بابن الشراishi أن نفقته ونفقة عبيدة ومرتباتهم ستة وثلاثون لكاً في السنة، ثم يليه الملك نكبة براتبه وعساكره، ثم يليه الملك بغرة براتبه وعساكره، ثم يليه الملك مخلص براتبه وعساكره، وهؤلاء هم الأمراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالراتب، ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتب. وجیع من يركب في ذلك اليوم يكون مدرعاً هو وفرسه. وأكثر مالیک السلطان؛ فإذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابه، وأمر بدخول القضاة وكبار النساء وكبار الأعزاء، ثم ينزل السلطان، ويصلی الإمام ويخطب. فإن كان عيد الأضحى أو السلطان بحمل فخره برمج يسمونه النیزة (بكسر النون وفتح الزاي) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة توقياً من آندم، ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره.

ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى

ويفرض القصر يوم العيد ، ويزين بأبدع الزينة . وتضرب الباركة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة ، تقوم على أعمدة ضخام كثيرة ، تحفها القباب من كل ناحية ، ويصنع به أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ، ويجعل منها ثلاثة صنوف بالمشور . ويجعل بين كل شجرين كرسى ذهب عليه مرتبة مخططة ، وينصب السرير الأعظم في صدر المشور وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر ، وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك ، وهو منفصل ، وتحمع قطعه فتتصل ، وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب ، وتجعل فوق المرتبة ، ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان . وعندما يصعد على السرير ينادي الحجاب والنقباء بأصوات عالية : بسم الله . ثم يتقدم الناس للسلام . فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان وأقاربه وأصحابه ، ثم الأعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيخ الماليك ثم كبار الأجناد . يسلم واحد إثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع . ومن عوائدهم في يوم العيد أن كل من بيده قرية منعم بها عليه يأتي بدنانير ذهب مصروفة في خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقىها في طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء .

إذا فرغ الناس من السلام ، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم ، وينصب في ذلك اليوم المبخرة العظمى ، وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفي داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون بوقود العود القماري والقاقلي والعنبر الأشهب والحاوى ، حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدي الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر ، يصبونه على الناس صباً . وهذا

السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا في العيدين خاصة. ويجلس السلطان في بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك. وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب، يجلس السلطان في داخلها. ويقف على الباب الأول منها عهاد الملك سرتيز، وعلى الباب الثاني الملك نكيبة، وعلى الباب الثالث يوسف بغرة، ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية، وعن اليسار كذلك. ويقف الناس على مراتبهم، وشحنة الباركة ملك طفى بيده عصا ذهب، وبيد نائبه عصا فضة يربان الناس ويسوان الصفوف، ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء، ثم يأتي أهل الطرف، فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسيحيات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للأمراء والأعزاء، ثم يأتي بعدهن سائر بنات الكفار، فيغنين ويرقصن ويهبهن لأخوته وأقاربه وأصحابه وأبناء الملوك، ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر. ثم يجلس في اليوم الذي بعده بعد العصر أيضاً على ذلك الترتيب ويؤتي بالغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لأمراء المماليك. وفي اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم. وفي اليوم الرابع يعتق العبيد. وفي اليوم الخامس يعتق الجواري. وفي اليوم السادس يزوج العبيد بالجواري، واليوم السابع يعطي الصدقات ويكثر منها.

ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره

وإذا قدم السلطان من أسفاره، زينت الفيلة، ورفعت على ستة عشر فيلاً منها ستة عشر شطراً، منها مزركسن ومنها مرصع، وحلت أمامه الغاشية، وهي ستارة المرصعة بالجوهر النفيس، وتصنم قباب الخشب مقسمة على طبقات، وتكتسي بشباب الحرير. ويكون في كل طبقة الجواري المغنيات، عليهن أجل لباس وأحسن حلية، ومنهن رواقص. ويحصل في وسط كل قبة حوض كبير، مصنوع من الجلود، مملوء بماء الجلاب محلولاً بالماء، يشرب منه جميع الناس من

وارد وصادر وبلدي أو غريب ، وكل من يشرب منه يعطى التنبول والفو福ل ، ويكون ما بين القباب مفروشاً بشباب الحرير ، يطاً عليها مركب السلطان . وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة إلى باب القصر بشباب الحرير . ويُشيَّ أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف . وتكون الأفواج والعساكر خلفه . ورأيته في بعض قدماته على الحضرة ، وقد نصبَت ثلاثة أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ، ترمي بالدنانير والدرارِم على الناس ، فيلتقنونها من حين دخوله إلى المدينة حتى وصل إلى قصره .

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صفين : طعام الخاص وطعام العام . فأما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه . وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين ، ويحضر لذلك الأمراء والخواص وأمير حاچب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز ، وأمير مجلس . ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الأعزة أو كبار الأمراء دعاه فأكل معهم . وربما أراد أيضاً تشريف أحد من الحاضرين ، فأخذ إحدى الصحف بيده ، وجعل عليها خبزة ويعطيه إياها ، فيأخذها المعطى ، ويجعلها على كفه اليسرى ، ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض . وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس ، فيخدم كما يصنع الحاضرون ، ويأكله مع من حضره . وقد حضرت مرات الطعام الخاص ، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلاً .

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعام العام فيؤتي به من المطبخ ، وأمامه النقباء يصيحون : بسم الله . ونقيب الثقباء أمامهم ، بيده عمود ذهب ، ونائبه معه بيده عمود فضة ، فإذا

دخلوا من الباب الرابع، وسمع من بالمشور أصواتهم، قاموا قياماً أجمعين، ولا يبقى أحد قائعاً إلا السلطان وحده. فإذا وضع الطعام بالأرض، اصطفت النقاء صفاً، ووقف أميرهم وتكلم بكلام يدح فيه السلطان وبثني عليه، ثم يخدم ويخدم النقاء لخدمته، ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير. وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقاء حين ذلك وقف إن كان ماشياً، ولزم موقفه إن كان واقفاً، ولا يتحرك أحد، ولا يتزحزح عن مقامه، حتى يفرغ ذلك الكلام. ثم يتكلم أيضاً نائبه كلاماً نحو ذلك، ويخدم النقاء وجميع الناس مرة ثانية. وحينئذ يجلسون، ويسب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام. وإن كان السلطان قد علم بحضوره، ويعطي المكتوب لصبي من أبناء الملوك موكل بذلك، فيأتي به إلى السلطان فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس وإطعامهم. وطعامهم الرفاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوة بالحلوء، والأرز والدجاج والسمك، وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم، أن يكون في صدر سماط الطعام القضاة والفقهاء والخطباء والشرفاء والمشايخ، ثم أقارب السلطان، ثم الأمراء الكبار، ثم سائر الناس. ولا يقعد أحد إلا في موضع معين له، فلا يكون بينهم تزاحم أبداً. فإذا جلسوا أتي الشربدارية وهم السقاة بأيديهم أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء، فيشربون ذلك قبل الطعام. فإذا شربوا، قال الحجاب: بسم الله، ثم يشرعون في الأكل و يجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوي عليه السماط، يأكل منه وحده، ولا يأكل أحد مع أحد من طبق واحد. فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقاع في أكواز القصدير. فإذا أخذوه قال الحجاب: بسم الله، ثم يؤتى بأطباق التنبول والفوول، فيعطي كل واحد غرفة من الفوفل المهشوم، وخمس عشرة ورقة من التنبول مجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر. فإذا أخذ الناس التنبول

قال الحجاب : بسم الله ، فيقفون جميعاً ، ويخدمون الأمير المعين للإطعام ، ويخدمون خدمته ، ثم ينصرفون . وطعمهم مرتان في اليوم الواحد إحداهما قبل الظهر والأخرى بعد العصر .

ذكر بعض أخباره في الجود والكرم

وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ، ويعلم الله تعالى صدق ما أقول ، وكفى به شهيداً . مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر . والبلاد التي تقرب من أهل الهند كاليمان وخراسان وفارس مملوءة بأخباره ، يعلموها حقيقة ، ولا سيما جوده على الغرباء ، فإنه يفضلهم على أهل الهند ويؤثرهم ، ويجزل لهم الإحسان ، ويسبغ عليهم الإنعام ، ويوليهم الخطط الرفيعة ، ويوليهم المawahب العظيمة . ومن إحسانه إليهم أن ساهم الأعزاء ، ومنع من أن يدعوا الغرباء ، وقال : إن الرجل إذا دعي غريباً انكسر خاطره وتغير حاله . وسأل ذكره شيئاً مما لا يحصى من عطاياه الجليلة ومواهبه إن شاء الله تعالى .

ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني وحكايته

كان شهاب الدين هذا صديقاً لملك التجار الكازروني الملقب ببرويز . وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنبية ، ووعده أن يوليه الوزارة . فبعث إلى صديقه شهاب الدين ليقدم عليه ، فأتاه ، وأعد هدية للسلطان ، وهي سراجمة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب ، وصيوان مما يناسبها ، وخباء وتابع وخباء راحة ، كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة . فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجارة ، وجده آخذًا في القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجايي بلاده وبهدية للسلطان .

وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة، فغار من ذلك وقلق بسببه. وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير، لأهلها تعلق بجانبه وانقطاع إليه وتخدم له. وأكثراهم كفار، وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال. فدس الوزير إليهم أن يضرروا على ملك التجار إذا خرج إلى الحضرة.

فلما خرج بالخزائن والأموال ومعه شهاب الدين بهديته، نزلوا يوماً عند الضحى على عادتهم، وتفرقوا العساكر، ونام أكثرهم. فضرب عليهم الكفار في جمع عظيم، همتو ملك التجار، وسلبوا الأموال والخزائن وهدية شهاب الدين، ونجا هو بنفسه. وكتب المخبرون إلى السلطان بذلك، فأمر أن يعطي شهاب الدين من مجيء بلاد نهر واللة ثلاثين ألف دينار، ويعود إلى بلاده. فعرض عليه ذلك، فأبى من قبوله، وقال: ما قصدي إلا رؤية السلطان وتقبيل الأرض بين يديه. فكتبوا إلى السلطان بذلك، فأعجبه قوله، وأمر بوصوله إلى الحضرة مكرماً. وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه، فخلع علينا جميعاً وأمر بإذننا. وأعطي شهاب الدين عطاء جزاً. فلما كان بعد ذلك أمر لي السلطان بستة آلاف تنكة، كما سندكره، وسأل في ذلك اليوم عن شهاب الدين أين هو؟ فقال له بهاء الدين ابن الفلكي: يا خوند عالم نميدا ثم، معناه ما ندرى، ثم قال شيئاً مزحـت دارد (دار) معناه سمعت أن به مرضـاً. فقال له السلطان: بروهمين زمان در خزانة يك لـك تنـكة زربـكري أوبيـش أوـبـيري تـادـل أوـخـش (خوض) شـود، معـناه إـمشـ السـاعـةـ إـلـىـ الخـزانـةـ، وـخـذـ مـنـهـ مـائـةـ الفـ تنـكـةـ مـنـ الـذـهـبـ، وـاحـلـهـ إـلـيـهـ، حـتـىـ يـبـقـىـ خـاطـرـهـ طـيـباـ. فـفـعـلـ ذـلـكـ، فـأـعـطـاهـ إـيـاـهـاـ. وـأـمـرـ السـلـطـانـ أـنـ يـشـتـريـ بـهـ ماـ أـحـبـ مـنـ السـلـعـ الـهـنـدـيـةـ، وـلـاـ يـشـتـريـ أـحـدـ مـنـ النـاسـ شـيـئـاـ حـتـىـ يـتـجـهـزـ هـوـ، وـأـمـرـ لـهـ بـثـلـاثـةـ مـرـاكـبـ مـجـهـزةـ مـنـ آـلـاتـهـاـ، وـمـنـ مـرـتـبـ الـبـحـرـيـةـ وـزـادـهـمـ، لـيـسـافـرـ فـيـهاـ. فـسـافـرـ وـنـزـلـ بـجـزـيرـةـ هـرـمزـ، وـبـنـيـهـ دـارـاـ عـظـيـمةـ،

رأيتها بعد ذلك ، ورأيت أيضاً شهاب الدين وقد فني جميع ما كان عنده ، وهو بشيراز يستجدي سلطانها أباً إسحاق ، وهكذا مال هذه البلاد الهندية ؛ قلما يخرج أحد منها إلا النادر ، وإذا خرج به وصل إلى غيرها من البلاد ، بعث الله عليه آفة تفني ما بيده ، كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا ، فإنه أخذ له في الفتنة التي كانت بين ملك هرمز وابني أخيه جميع ما عنده ، وخرج سليباً من ماله .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسندي ، اعتقاداً منه في الخلافة فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه ، بالغ في إكرامه ، وأعطاه عطاء جزلاً . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ، ثم صرفه وأعطاه أموالاً طائلة . وفي مجلة ما أعطاه مجلة من صفائح الخيل ومساميرها كل ذلك من الذهب الحالص ، وقال له : إذا نزلت من البحر فأنجل أفواسك بها . فتوجه إلى كنباية ليركب البحر منها إلى بلاد اليمن ، فوقيع قضية خروج القاضي جلال الدين ، وأخذه مال ابن الكولي ، فأخذ أيضاً ما كان لشيخ الشيوخ ، وفر بنفسه مع ابن الكولي إلى السلطان . فلما رأه قال له مجازحاً : أmedi كزر (كه زر) بري بادكري (دلر باي) صنم خرى زر نيري وسر نهى ، معناه جئت لتحمل الذهب ، وتأكله مع الصور الحسان . فلا تحمل ذهبًا ، ورؤسك تخليه هنا . قال له ذلك على معنى الانبساط ، ثم قال له : اجمع خاطرك فيها أنا سائر إلى المخالفين ، وأعطيك أضعاف ما أخذوه لك . وببلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وفي بما وعده ، وأخلف له ما ضاع منه ، وأنه أوصل إلى ديار مصر .

ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين

وكان هذا الفقيه قدم على السلطان ، وأقام تحت إحسانه مدة عام . ثم أراد الرجوع إلى وطنه ، فأذن له في ذلك ، ولم يكن سمع كلامه ووعظه . ولما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر ، أحب سماعه قبل انصرافه . فأمر أن يهيا له منبر من الصندل الأبيض المقاصري ، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب ، وألصق بأعلاه حجر ياقوت عظيم ، وخلع على ناصر الدين عباءة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعامة أيضاً ، ونصب له المنبر بداخل السراجة وهي أفراح . وقعد السلطان على سريره ، والخواص عن يمينه ويساره ، وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم . فخطب خطبة عظيمة ووعظ وذكر ، ولم يكن فيما فعله طائل ، لكن سعادته ساعده . ولما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل ، وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه ، و كنت في جمعهم إلى سراحة . ضربت له مقابلة سراحة السلطان وكلها من الحرير الملون ، وصيوانها من الحرير ، وخفاؤها كذلك . فقد وقعدنا معه . وكان بجانب من السراحة أوانى الذهب التي أعطاها له . وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد ، وقدران اثنان وصحاف لا ذكر عددهما وعدها أكواز وركوة وتميسندة ومائدة لها أربع أرجل ومحمل للكتب ، كل ذلك من ذهب . ورفع عماد الدين السمناوي وتدين من أوتاد السراحة ، أحدهما نحاس والثاني مقصدر . يوهم بذلك أنها من ذهب وفضة ، ولم يكونا إلا كما ذكرنا . وقد كان أعطاها حين قدومه مائة الف دينار دراهم ، ومئتين من العبيد ، سرّاح البعض وحمل البعض .

ذكر عطائه لعبد العزيز الأردويلي

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثاً ،قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية ، وبرهان الدين بن البركح ، وجال الدين المزي ، وشمس الدين الذهبي وغيرهم . ثم

قدم على السلطان، فاحسن إليه وأكرمه. واتفق يوماً أنه سرد عليه أحاديث في كرم العباس وابنه رضي الله عنهما ، وشيئاً من مآثر الخلفاء أولادها . فأعجب ذلك السلطان لحبه فيبني العباس ، وقبل قدمي الفقيه ، وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفاً تنكهة ، فصبها عليه بيده ، وقال : هي لك مع الصينية . وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

ذكر عطائه لشمس الدين الأندكاني

وكان الفقيه شمس الدين الأندكاني حكيمًا شاعرًا مطبوعاً، فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي ، وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتاً ، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم . وهذا أعظم ما يحكي عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم ، وهو عشر عطاء السلطان .

ذكر عطائه لعبد الدين الشونكاري

وكان عبد الدين فقيهاً إماماً فاضلاً كبير القدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده . فبلغت السلطان أخباره ، وسمع بماته . فبعث إليه إلى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه .

ذكر عطائه للقاضي مجد الدين

ولما بلغه خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضي شيراز الذي سطرنا أخباره في السفر الأول ، وسيسر بعض خبره . وبعد هذا بعث إليه إلى مدينة شيراز ، صحبة الشيخ زاده الدمشقي عشرة آلاف دينار دراهم .

ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجي

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة، كثير الإيثار، باذلاً لما يملكه. حتى أنه كثيراً ما يأخذ الديون، ويؤثر على الناس. فبلغ خبره إلى السلطان، فأبعث إليه أربعين ألف دينار، وطلب منه أن يصل إلى حضرته. فقبل الدنانير وقضى دينه منها، وتوجه إلى بلاد الخطأ، وأتى أن يصل إليه، وقال: لا أمضي إلى سلطان يقف العلماء بين يديه.

ذكر عطائه حاجي كاون وحكايته

وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق، وكان أخوه موسى ملكاً ببعض بلاد العراق. فوفد حاجي كاون على السلطان، فأكرم مثواه، وأعطاه العطاء الجزل. ورأيته يوماً وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته. وكان منها ثلاثة صينيات، إحداها ملوءة يواقيت، والأخرى ملوءة زمرداً، والأخرى ملوءة جواهر. وكان حاجي كاون حاضراً، فأعطيه من ذلك حظاً جزيلاً، ثم إنه اعطاه أيضاً مالاً عريضاً، ومضى يريد العراق، فوجد أخاه قد توفي، وولي مكانه سليمان خان. فطلب إرث أخيه، وادعى الملك، وباعيه العسكر، وقصد بلاد فارس، ونزل بمدينة شونكارة التي بها الإمام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفاً. فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج إليه ساعة، ثم خرجوا. فقال لهم: ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا؟ فاعتذروله. فلم يقبل منهم، وقال لأهل سلاحه: قلنچ تجار (جقار) معناه جردوا السيف. فجردواها، وضربوا أنفاسهم، وكانت جماعة كبيرة. فسمع من بجاور هذه المدينة من الأمراء بما فعله، فغضبوا لذلك، وكتبوا إلى شمس الدين السمناني، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار، فأعلموا بما جرى على أهل شونكارة، وطلبوا منه الإعانة على قتاله. فتجرد في عساكره، واجتمع أهل البلاد طالبين بشار من قتلته

حاجي كاون من المشايخ، وضربوا على عسكره ليلاً فهزموه. وكان هو بقصر المدينة، فأحاطوا به، فاختفى في بيت الطهارة، فعثروا عليه وقطعوا رأسه، وبعثوا به إلى سليمان خان، وفرقوا أعضاءه على البلاد تشفياً منه.

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وإخباره

وكان الأمير غيث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي، قد وفد على السلطان علاء الدين طرشميرين، ملك ما وراء النهر، فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قم بن العباس رضي الله عنها، واستوطن بها أعوااماً. ثم لما سمع بمحمد السلطان في بني العباس، وقامه بدعوتهم، أحب القدوم عليه، وبعث له برسولين، أحدهما صاحبه القديم محمد ابن أبي الشرفي الحربياوي، والثاني محمد الهمداني الصوفي. فقدم على السلطان، وكان ناصر الدين الترمذى الذي تقدم ذكره، قد لقي غيث الدين ببغداد، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبة فشهد هو عند السلطان بذلك. فلما وصل رسولاً إلى السلطان، أعطاها خمسة آلاف دينار، وبعث معها ثلاثة ألف دينار إلى غيث الدين، ليتزود بها إليه، وكتب له خطاباً بخط يده يعظمه فيه، ويسأل منه القدوم عليه. فلما وصله الكتاب رحل إليه، فلما وصل إلى بلاد السندي، وكتب المخبرون بقدومه، بعث السلطان من يستقبله على العادة. ثم لما وصل إلى سرستي بعث أيضاً لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوبي وجاءه من الفقهاء، ثم بعث الأمراء لاستقباله. فلما نزل بمسعود آباد خارج الحضرة، خرج السلطان بنفسه لاستقباله. فلما التقى ترجل غيث الدين، فترجل له السلطان، وخدم، فخدم له السلطان. وكان قد استصحب هدية في جملتها ثياب، فأخذ السلطان أحد الأنوار، وجعله على كتفه، وخدم كما يفعل الناس معه، ثم قدمت الخيل، فأخذ السلطان أحداً منها بيده وقدمه له، وحلف أن

يركب، وأمسك بر CABE حتى ركب، ثم ركب السلطان وسايره، والشجر يظلها معاً. وأخذ التنبول بيده، وأعطيه أية. وهذا أعظم ما أكرمه به. فإنه لا يفعله مع أحد. وقال له: لو لا أني بآيت الخليفة أبا العباس لبأيتك. فقال له غياث الدين: وأنا أيضاً على تلك البيعة. وقال له غياث الدين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلينا: «من أحيا أرضاً مواتاً فهي له» وأنت أحبيتنا. فجاوبه السلطان بألف جواب وأبره. وما وصل إلى السراجة المعدة لنزول السلطان، أنزله فيها. وضرب للسلطان غيرها. وباتا في تلك الليلة بخارج الحضرة. فلما كان بالغد دخلا إلى دار الملك، وأنزله بالمدينة المعروفة بسيري، وبدار الخلافة أيضاً في القصر الذي بناه علاء الدين الخلجي، وابنه قطب الدين. وأمر السلطان جميع النساء أن يمضوا معه إليه، وأعد له فيه جميع ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة، حتى كان من جملتها مغسل يغسل فيه من ذهب. وبعث له أربعين ألف دينار لغسل رأسه على العادة، وبعث له جملة من الفتى والخدم والجواري، وعين له عن نفقته في كل يوم ثلاثة دينار، وبعث له زيادة إليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص، وأعطيه جميع مدينة سيري، إقطاعاً. وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه، وأعطيه مائة قرية، وأعطيه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلي، وأعطيه ثلاثين بغلة بالسرور الذهبية، ويكون علها من المخزن، وأمره أن لا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا موضعًا خاصاً لا يدخله أحد راكباً سوى السلطان وأمر الناس جميعاً من كبير وصغير أن يخدموا له كما يخدمون السلطان. وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره، وإن كان على الكرسي قام قائماً، وخدم كل واحد منها لصاحبها، ويجلس مع السلطان على بساط واحد، وإذا قام قام السلطان كليهما، وخدم كل واحد منها لصاحبها، وإذا انصرف إلى خارج المجلس، جعل له بساط يقعد عليه ما شاء، ثم ينصرف، يفعل هذا مرتين في اليوم.

حكاية من تعظيمه ايات

وفي أثناء مقامه بدهلي قدم الوزير من بلاد بنجالة ، فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا إلى استقباله ، ثم خرج بنفسه إلى استقباله ، وعظمته تعظيمًا كثيراً ، وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان إذا قدم ، وخرج ابن الخليفة للقاء أيضاً ، والفقهاء والقضاة والأعيان . فلما عاد السلطان لقصره ، قال للوزير : إمض إلى دار المخدم زاده ، وبذلك يدعوه ، ومعنى ذلك ابن المخدم . فسار الوزير إليه ، وأهدى له ألفي تنة من الذهب وأثواباً كثيرة . وحضر الأمير قبولة ، غيره من كبار الأمراء ، وحضرت أنا كذلك .

حكاية نحوها

وفد على السلطان ملك غزنة المسمى بيهرام ، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فأمر السلطان بإزالته ببعض دور مدينة سيري التي لابن الخليفة ، وأمر أن يبني له بها دار فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ومضى إلى دار السلطان فجلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه ، وبعث إلى الوزير ، فقال له : سلم على خوند عالم ، وقل له : إن جميع ما أعطيته هو بمتنزي ، لم أتصرف في شيء منه ، بل زاد عندي وغا وأنا لا أقيم معكم ، وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا ، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة في مدينة سيري ، فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك ، فركب من حينه في عشرة من ناسه ، وأتى منزل ابن الخليفة ، فاستأذن له ، ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس ، فتلقاءه واعتذر له ، فقبل عذرها ، وقال له : السلطان والله ما أعلم أنك راضٍ عني حتى تضع قدمك على عنقي ، فقال له : هذا ما لا أفعله ولو قتلت . فقال له السلطان وحق رأسي لا بد لك من ذلك ثم وضع رأسه في الأرض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده ، فوضعها على عنق السلطان ثم قام

وقال : الآن علمت أنك راضٍ عليَّ ، وطاب قلبي . وهذه حكاية غريبة لم يُسمع بمثلها عن ملك . ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خلع من عند السلطان مفرجة . قد جعل مكان عقد الحرير التي تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير ، وقام الملك الكبير ببابه ، حتى نزل من قصره ، فكساه إياه والذي أعطاه هو ما لا يحصره العد ، ولا يحيط به الحد . وابن الخليفة مع ذلك كله أبلغ خلق الله تعالى قوله في البخل أخبار عجيبة ، يعجب منها سامعها وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم ، ولنذكر بعض أخباره في ذلك .

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت بيبي وبينه مودة ، و كنت كثير التردد إلى منزله وعنه تركت ولدائي سميته أحد لما سافرت ولا أدرى ما فعل الله بها فقلت له يوماً : لم تأكل وحدك ، ولا تجمع أصحابك على الطعام ؟ فقال لي : لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثريهم وهم يأكلون طعامي فكان يأكل وحده ، ويعطي صاحبه محمد ابن أبي الشرفي من الطعام لمن أحب ، ويتصرف في باقيه و كنت أتردد إليه فأرى دهليز قصره الذي يسكن به مظلاً لا سراج به . ورأيته مراراً يجمع الأعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه ، وقد ملأ منها مخازن فكلمته في ذلك فقال لي : يحتاج إليها . وكان يخدم أصحابه وماليكه وفتianه في خدمة البستان وبنائه ويقول : لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون . وكان علي مرة دين قطليبتُ به فقال لي في بعض الأيام : والله لقد همت أن أؤدي عنك دينك ، فلم تسمع نفسي بذلك ، ولا ساعدتني عليه .

حكاية

حدثني مرة قال : خرجت عن بغداد ، وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن أبي الشرفي صاحبه ، ونحن على أقدامنا ، ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض

القرى، فوجد أحدهنا في العين درهماً، فقلنا وما نصنع بدرهم، فاتفقنا على أن نشتري به خبزاً، فبعثنا أحدهنا لشرائه، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده، وإنما يبيع خبزاً بقيراط، وتبناً بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن، فطرحنا التبن، إذ لا دابة لنا تأكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة، وقد انتهى حالي إلى ما تراه فقلت له: ينبغي لك أن تحمد الله على ما أولاك، وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق فقال: لا أستطيع ذلك، ولم أره قط يجود بشيء، ولا يفعل معروفاً، ونعود بالله من الشع.

حکایة

كنت يوماً ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند، وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التي بناها جده أمير المؤمنين المستنصر رضي الله عنه، فرأيت شاباً ضعيف الحال يشتند^أ خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لي بعض الطلبة: هذا الشاب الذي تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند، فدعوته فقلت له: إني قدمت من بلاد الهند، وإنني أعرفك بخبر أبيك فقال: قد جاءني خبره في هذه الأيام ومضى يشتند خلف الرجل، فسألت عن الرجل، فقيل لي: هو الناظر في الحبس، وهذا الشاب هو إمام بعض المساجد، وله على ذلك أجرة درهم واحد في اليوم، وهو يطلبأجرته من الرجل، فطال عجبني منه، والله لو بعث إليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة اليه من السلطان لأنفه بها ونعود بالله من مثل هذه الحال.

ذكر ما أعطاه السلطان للأمير سيف الدين جدا

ابن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام

ولما قدم هذا الأمير على السلطان أكرم مثواه، وأنزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلي، ويعرف بكشك، لعل معناه القصر الأحمر، وهو قصر

عظيم، فيه مشور كبير جداً، ودهليز هائل، على بابه قبة تشرف على هذا المشور، وعلى المشور الثاني الذي يدخل منه إلى القصر، وكان السلطان جلال الدين يقعد بها، وتلعب الكرة بين يديه في هذا المشور. وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته ملوءاً أثاثاً وفرشاً وبساطاً وغيرها، وذلك كله متمزق لا متتفق فيه فإن عادتهم بالهند أن يترکوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه، لا يتعرضون له، ويبني المتولي بعده قصراً لنفسه، ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلىه فكانت لي فيه عبرة، نشأت عنها عبرة وكان معي الفقيه الطيب الأذيب جمال الدين المغربي، الغرناطي، البجائي المولد مستوطن بلاد الهند، قدمها مع أبيه، وله بها أولاد فأنسداني عندما عايناه :

وَسَلَاطِينُهُمْ سَلَطَنٌ الطِّينَ عَنْهُمْ، فَالرُّؤُوسُ الْعَظَامُ صَارَتْ عَظَاماً

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه، كما نذكره وكان السلطان شديد الحبقة في العرب، مؤثراً لهم، معترفاً بفضائلهم فلما وصله هذا الأمير أجزل العطاء، وأحسن إليه إحساناً عظيماً وأعطاه مرة، وقد قدمت عليه، هدية أعظم ملك البایزیدي من بلاد منكبور، أحد عشر فرساً من عتاق الخيل، وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل، مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة، ثم زوجه بعد ذلك بأخته فیروز خوندة.

ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان

ولما أمر السلطان بتنزويح أخيه للأمير غداً، عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله، والمعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين اوهما مسكن والأخر مكسور بينهما نون آخره سين مهملاً)، وعيني لملازمة الأمير غداً، والكون معه في تلك الأيام فأتى الملك فتح الله بالصيوانات، نظلل بها المشورين

بالقصر الأَحْمَر المذكور، وضرب في كل واحد منها قبة ضخمة جداً، وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبريزى، أمير المطربين ومعه الرجال المغنوون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهم مماليك السلطان، وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والخلوانين والشربدارية والتبول داران، وذبحت الأنعام والطيور. وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوماً ويحضر الأمراء الكبار والأعزاء ليلاً ونهاراً فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلاً إلى هذا القصر، فزَيَّنَهُ وفرشَنَهُ بأحسن الفرش، واستحضر الأمير سيف الدين، وكان عربياً غريباً لا قرابة له، فحفن به وأجلسه على مرتبة معينة له، وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غداً، وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمته، وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله. ولما أجلسه على المرتبة جعلن له الحناة في يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن إلى قصر الزفاف، وأقام هو مع خواص أصحابه. وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهة زوجته، وجماعة يكونون من جهة الزوجة. وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها، ويأتي الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم، ولما كان بعد المغرب أتى إليه خلعة حرير زرقاء مزر كشة مرصعة، قد غلت الجوادر عليها، فلا يظهر لونها مما عليها من الجوادر وبشاشة مثل ذلك، ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصحابه مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وابن ملك العلماء، وابن شيخ الإسلام، وابن صدر جهان البخاري، فلم يكن فيها مثل هذه.

ثم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعيده، وفي يد كل واحد منهم عصا قد أعدها وصنعوا شبه إكليل من الياسمين والنسرین، ورببول وله ررف

يغطي وجه المتتكلل به وصدره وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه فأبى من ذلك وكان من عرب الbadia، لا عهد له بأمور الملك والحضر فحاولته، وحلفت عليه حتى جعله على رأسه وأتى بباب الصرف ويسمونه بباب الحرم، وعليه جماعة الزوجة، فحمل عليهم بأصحابه حلة عربية، وصرعوا كل من عارضهم، فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله، ودخل إلى المشور، وقد جعلت العروس فوق منبر عال، مزين بالديباج، مرصع بالجوهر، والمشور ملآن النساء، والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلهن وقوف على قدم إجلالاً له وتعظيمها، فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة، حتى صعد، فأعطته التنبول بيدها فأخذده، وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونشرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه، ولقطتها النساء والغنيمات يعني حينئذ، والأطبال والأبواق والأنفار تضرب خارج الباب ثم قام الأمير، وأخذ بيده زوجته، ونزل وهي تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، ونشرت الدنانير عليه وعلى أصحابه، وجعلت العروس في حفة وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات وإذا مرروا بدار أمير أو كبير، خرج إليهم ونشر عليهم الدنانير والدر衙م على قدر همته، حتى أوصلواها إلى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الشياط والدنانير والدر衙م وأعطي السلطان لكل واحد منهم فرساً مسرجاً ملجماً وبدرة در衙م من ألف دينار إلى مائتي دينار، وأعطى الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المتنوعة والبدر، وكذلك لأهل الطرب. وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطي أحد شيئاً لأهل الطرب، إنما يعطيهم صاحب العرس وأطعم الناس جميعاً ذلك اليوم.

وانقضى العرس، وأمر السلطان أن يعطي للأمير غداً بلاد المالوة والجزرات

وكتباية ونهر واله ، وجعل فتح الله المذكور نائباً عنه عليها ، وعظمه تعظيمًا شديداً وكان عربياً جافياً ، فلم يقدر قدر ذلك ، وغلب عليه جفاء الbadية ، فأداه ذلك إلى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه .

ذكر سجن الأمير غدا

ولما كان بعد عشرين يوماً من زفافه اتفق أنه وصل إلى دار السلطان ، فأراد الدخول فمنعه أمير البرد (البرده) داريه ، وهم الخواص من البوابين ، فلم يسمع منه وأراد التحشم ، فأمسك الباب بدبوقته ، وهي الصفيحة ورده فضربه الأمير بعصا كانت هنالك حتى أدماه وكان هذا المضروب من كبار الأمراء ، يعرف أبوه بقاضي غزنة ، وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين ، والسلطان يخاطبه بالأدب ، ويخاطب ابنه هذا بالأخ فدخل على السلطان ، والدم على ثيابه ، فأخبره بما صنع الأمير غدا ، ففكر السلطان هنيهة ثم قال له : القاضي يفصل بينكم وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه ، ولا بد من الموت عليها ، وإنما احتمله لغرتة وكان القاضي كمال الدين بالمشور ، فأمر السلطان الملك ، تتر أن يقف معهما عند القاضي . وكان تر حاجاً مجاوراً يحسن العربية ، فحضر معهما ، وقال للامير : أنت ضربته أو قلت لا ، لقصد أن يعلمك الحجة ، وكان سيف الدين جاهلاً مغتراً ، فقال : نعم ، أنا ضربته وأتى والد المضروب ، فرام الإصلاح بينهما ، فلم يقبل سيف الدين فأمر القاضي بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له زوجته فراشاً ينام عليه ، ولا سألت عنه خوفاً من السلطان وخلف أصحابه فودعوا أموالهم .

واردت زيارته بالسجن ، فلقيني بعض الأمراء ، وفهم عني أني أريد زيارته ، فقال لي : أو نسيت ؟ وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام ، وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك ، حسبما يقع ذكره ، فرجعت ولم أزره وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه فأظهره السلطان أعماله ، وأضرب

عما كان أمر له بولايته وأراد نفيه ، وكان للسلطان صهر يسمى بغيث بن ملك الملوك وكانت أخت السلطان تشکوه لأخيها إلى أن ماتت فذكر جواريه أنها ماتت بسبب قهره لها وكان في نسبه مغمز ، فكتب السلطان بخطه يجلي اللقيط ، يعنيه ، ثم كتب ويحلي موش خوار معناه أكل الفئران ، يعني بذلك الأمير غدا لأن عرب البدية يأكلون اليربوع ، وهو شبه الفار ، وأمر بإخراجها فجاءه النقباء ليخرجوه فأراد دخول داره ووداع أهله ، فترافق النقباء في طلبه ، فخرج باكيًا ، وتوجهت حين ذلك إلى دار السلطان فبت بها فسألني عن مبتي بعض الأمراء ، فقلت له : حئت لأتكلم في الأمير سيف الدين حتى يرد ولا ينفي . فقال : لا يكون ذلك . فقلت له : والله لأبيتن بدار السلطان ، ولو بلغ مبتي مائة ليلة ، حتى يرد بلغ ذلك السلطان فأمر برده ، وأمره أن يكون في خدمة الأمير ملك قبولة اللاهوري ، فأقام أربعة أعوام في خدمته . يركب لوكوبه ، ويسافر لسفره ، حتى تأدب وتهذب ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أولاً وأقطعه البلاد ، وقدمه على العساكر ، ورفع قدره .

ذكر تزویج السلطان بنی وزیره لابنی خداوند زاده قوام الدین الذي قدم معنا عليه

ولما قدم خداوند زاده أعطاه السلطان عطاً جزاً ، وأحسن إليه إحساناً عظيماً ، وبالغ في إكرامه ، ثم زوج ولديه من بنی الوزیر خواجة جهان وكان الوزیر إذ ذاك غائباً ، فأتى السلطان إلى داره ليلًا ، وحضر عقد النكاح ، كأنه نائب عن الوزیر ، ووقف حتى قرأ قاضي القضاة الصداق^(١) ، والقضاة والأمراء والمشايخ قعود ، وأخذ السلطان بيده الأنواب والبدر فجعلها بين يدي القاضي

(١) الصداق : ما تصادق عليه المتعاقدان من عقد النكاح ومهره .

وولدي خداوند زاده وقام الأمراء وأبوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه ، فأمرهم بالجلوس ، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه ، وانصرف .

حكاية في تواضع السلطان وإنصافه

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخيه من غير موجب ، ودعاه إلى القاضي ، فمضى على قدميه ، ولا سلاح معه ، إلى مجلس القاضي فسلم وخدم ، وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنه إذا جاءه في مجلسه ، فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد إلى المجلس ، ووقف بين يدي القاضي . فحكم عليه أن يرضي خصمه من دم أخيه فأرضاه .

حكاية مثلها

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أنه له قبله حقاً مالياً ، فتخاصما في ذلك عند القاضي ، فأصدر الحكم على السلطان بإعطاء المال فأعطيه .

حكاية مثلها

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب ، ورفعه إلى القاضي فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال إن قبل ذلك ، وإلا أمكنه من القصاص ، فشاهده يومئذ وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبي ، وأعطاه عصا ، وقال له : وحق رأسي لتضربني كما ضربتكم . فأخذ الصبي العصا ، ضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت الكلأ (الكلأ) قد طارت على رأسه .

ذكر اشتداده في إقامة الصلاة

وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة، آمراً بملازمتها في الجماعات، يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل في يوم واحد تسعه نفر على تركها كان أحدهم مغناً، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق فمن وجد بها عند إقامة الصلاة، عوقب حتى انتهى إلى عقاب الستائررين الذين يسكنون دواب الخدام، على باب المشور، إذا ضيعوا الصلاة، وأمر أن يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاحة وشروط الإسلام، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسن عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والأسواق ويكتتبونها.

ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع

وكان شديداً في إقامة الشرع، وما فعل في ذلك أن أمر أخاه مبارك خان، أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هنالك، مفروشة بالبسط وللقاضي بها مرتبة تحف بها المحاد، كمرتبة السلطان ويقعد آخر السلطان عن يمينه، فمن كان عليه حق من كبار الأمراء، وامتنع من أدائه لصاحبها، يحضره رجال أخي السلطان عند القاضي لينصف منه.

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين

ولما كان في سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة وصار مجلس بنفسه للنظر في المظالم، كل يوم إثنين وخميس بربحة أمام المشور، ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم إلا أمير حاجب وخاصة حاجب وسيد الحاجب وشرف الحاجب لا غيره، ولا يمنع أحد من أراد الشكوى من الوقوف بين يديه، وعين أربعة من كبار

الأمراء يجلسون في الأبواب الأربع من المشور، لأخذ القصص من المشتكين، والرابع منهم هو ابن عمه ملك فiroz خان ، فإن أخذ صاحب الباب الأول الرفع من الشاكي فحسن ، وإلا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع ، وإن لم يأخذوه منه ، مضى به إلى صدر الجهان قاضي المالك ، فإن أخذه منه ، وإلا شكا إلى السلطان ، فإن صحَّ عنده أنه مضى به إلى أحد منهم فلم يأخذه منه ، أدبه وكل ما يجتمع من القصص في سائر الأيام ، يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة .

ذكر إطعامه في الغلاء

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسندي ، واشتد الغلاء حتى بلغ من^(١) القمح إلى ستة دنانير ، أمر السلطان أن يعطي الجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر من المخزن ، بحسب رطل ونصف من أرطال المغرب ، لكل انسان في اليوم ، صغيراً وكبيراً حراً وعبدًا . وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزمَّة بأهل المحارات ، ويحضرُون الناس ، ويعطى لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها .

ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من أفعاله

وكان على ما قدمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة ، كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتل إلا في النادر ، وكانت كثيراً ما أرى الناس يقتلون على بابه ، ويطردون هناك . ولقد جئت يوماً فنفر بي الفرس ، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض فقلت : ما هذه؟ فقال بعض أصحابي هي صدر رجل قطع ثلث قطع . وكان يعقوب على الصغيرة والكبيرة ، ولا يحترم أحداً من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على

(١) المن : جمعه أمنان ، كيل أو ميزان ، وهو شرعاً ١٨٠ مثقالاً ، وعرفاً ٢٨٠ مثقالاً . عن المجد في اللغة .

المشور من المسلمين والمغلولين والمقيدين مئون فمن كان للقتل قُتل أو للعذاب عُذب ، أو للضرب ضرب . وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى المشور ، ما عدا يوم الجمعة ، فإنهم لا يخرجون فيه ، وهو يوم راحتهم، يتنتظرون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء .

ذكر قتله لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان ، وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها في الدنيا فاتهمه بالقيام عليه ، وسأله عن ذلك فأقر خوفاً من العذاب فإن من أنكر ما يدعوه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب ، فبرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب ، فأمر به ، فضربت عنقه في وسط السوق ، وبقي مطروحاً هنالك ثلاثة أيام على عادتهم . وكانت أم هذا المقتول قد رجمت في ذلك الموضع قبل ذلك بستين ، لاعترافها بالزنا رجها القاضي كمال الدين .

ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة

وكان مرة عين حصة من العسكر ، توجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال الكفار ، ببعض الجبال المتصلة بجوز دهلي فخرج يوسف ، وخرج معه معظم العسكر وتختلف قوم منهم ، فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك ، فأمر أن يطاف بالمدينة ، ويقبض على من وجد من أولئك المتخلفين ففعل ذلك ، وقبض على ثلاثة وخمسين منهم فأمر بقتلهم أجمعين ، فقتلوا .

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني الذي تنسب مدينة الجام بخراسان إلى جده ، حسبياً قصصنا ذلك ، من كبار المشايخ الصالحة الفضلاء ،

وكان يواصل أربعة عشر يوماً . وكان السلطانان ، قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتركونه فلما ولي السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ في بعض خدمته ، فإن عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء ، محتاجاً أن الصدر الأول رضي الله عنهم ، لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلاح ، فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافه السلطان بذلك في مجلسه العام ، فأظهر الإباهة والامتناع ، فغضب السلطان من ذلك ، وأمر الشيخ الفقيه العظيم ضياء الدين السمناني أن ينتف لحيته ، فأبى ضياء الدين من ذلك ، وقال : لا أفعل هذا ، فأمر السلطان بنتف لحية كل واحد منها فنتف ونفي ضياء الدين إلى بلاد التلنك ثم ولاد بعد مدة قضاء بـ١٠٢٦ ، فمات بها ، ونفي شهاب الدين إلى دولة آباد ، فأقام بها سبعة أعوام ، ثم بعث عنه ، فأكرمه وعظمه ، وجعله على ديوان المستخرج ، وهو ديوان بقايا العمال ، يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد في تعظيمه ، وأمر النساء أن يأتوا للسلام عليه ، ويتسللوا أقواله ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكنك ، وبني هنالك القصر المعروف بسرك دوار ، معناه شبه الجنة ، وأمر الناس بالبناء هنالك ، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بالحضر ، فأذن له إلى أرض موات ، على مسافة ستة أميال من دهلي فحفر بها كهفاً كبيراً ، صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام ، وجلب الماء من نهر جون ، وعمّر تلك الأرض ، وجمع مالاً كثيراً من مستغلها لأنها كانت السنون قاحطة ، وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة غيب السلطان . وكان عبيده يخدمون تلك الأرض نهاراً ، ويدخلون الغار ليلاً ويسدونه على أنفسهم وأنعامهم ، خوف سراق الكفار ، لأنهم في جبل منيع هنالك ، ولما عاد السلطان إلى حضرته استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها ، فعظمه السلطان وعائقه عند لقائه ، وعاد إلى غاره ثم بعث عنه بعد أيام ، فامتنع من إتيانه فبعث إليه مخلص الملك النذرbari ، وكان من كبراء الملوك ، فتلقف له في

القول ، وحضره بطش السلطان فقال له : لا أخدم ظلماً أبداً فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك فأمر أن يأتي به ، فأتى به فقال له : أنت القائل : إني ظالم فقال : نعم ، أنت ظالم ، ومن ظلمك كذا وكذا ، وعدد أموراً منها تخربه لمدينة ، دهلي ، وإخراجه أهلها . فأخذ السلطان سيفه ، ودفعه لصدر الجهان ، وقال : يثبت هذا أني ظالم ، واقطع عنقي بهذا السيف فقال له شهاب الدين : ومن ي يريد أن يشهد بذلك ، فيقتل ولكن أنت تعرف ظلم نفسك وأمر بتسليمه للملك نكية ، رأس الدويدارية ، فقيده بأربع قيود ، وغلّ يديه وأقام كذلك أربعة عشر يوماً مواصلاً ، لا يأكل ولا يشرب وفي كل يوم منها يؤتى بها إلى المشور ، ويجمع الفقهاء والمشايخ ، ويقولون له : إرجع عن قولك فيقول : لا أرجع عنه ، وأريد أن أكون في زمرة الشهداء . فلما كان اليوم الرابع عشر بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك ، فأبى أن يأكل ، وقال : قد رفع رزقي من الأرض ارجع بطعمك إليه فلما أخبر بذلك السلطان ، أمر عند ذلك أن يطعم الشيخ خمسة أستار (أساتير) من العذرة ، وهي رطلان ونصف من أرطال المغرب فأخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الأمور ، وهم طائفة من كفار الهند ، فمدوه على ظهره ، وفتحوا فمه بالكلبتين ، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك . وفي اليوم الذي بعده أتى به إلى دار القاضي صدر الجهان ، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعزة فوعظوه ، وطلبو منه أن يرجع عن قوله ، فأبى ذلك . فضربت عنقه ، رحمة الله تعالى .

ذكر قته للفقيه المدرسي عفيف الدين الكاساني وفقيقين معه

وكان السلطان في سني القحط قد أمر بجفري آبار خارج دار الملك ، وأن يزرع هنالك زرع ، وأعطي الناس البذر ، وما يلزم على الزراعة من النفقة ، وكلفهم

زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين ، فقال : هذا الزرع لا يحصل
المراد منه ، فُوْشى به إلى السلطان فسجنه . وقال له : لأي شيء تدخل نفسك في
أمور الملك ؟ ثم إنه سرمه بعد مدة فذهب إلى داره ولقيه في طريقه إليها
صاحبان له من الفقهاء ، فقالا له : الحمد لله على خلاصك . فقال الفقيه ، الحمد لله
الذي نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان
فأمر بهم فأحضر ثلاثة بين يديه فقال : اذهبوا بهذا ، يعني عفيف الدين ،
فاضربوا عنقه حائل ، وهو أن يقطع الرأس من الذراع وبعض الصدر ، واضربوا
أعناق الآخرين فقالوا له : أما هو فيستحق العقاب بقوله ، وأما نحن فبأي جريمة
تقتلنا ؟ فقال : طالما أنكم سمعتم كلامه فلم تنكراه فكأنكم وافقنا عليه ، فقتلوا
جميعاً رحمة الله تعالى .

ذكر قتله أيضاً لفقيهيمن من أهل السندين كانوا في خدمته

وأمر السلطان هذين الفقيهيمن السنديين أن يضيا مع أمير عينه إلى بعض
البلاد ، وقال لها : إنما سلمت أحوال البلاد والرعاية لكم ، ويكون هذا الأمير
معكم ، يتصرف بما تأمرانه به ، فقالا له : إنما نكون كالشاهدين عليه ، ونبين له
وجه الحق ليتبعله . فقال لها : إنما قصدكم أن تأكلوا أموالي وتضيعها ، وتنسباً بذلك
إلى هذا التركي الذي لا معرفة له . فقال لها : حاشا لله يا خوند عالم ما قصدنا هذا
قال لها لم تقصدوا غير هذا اذهبوا بها إلى الشيخ زاده النهاوندي ، وهو الموكل
بالعذاب فذهب بها إليه ، فقال لها : السلطان يريد قتلكما . فأقرّا بما قوّلنا إياه ،
ولا تعذباً أنفسكم ف قال : والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا فقال لزبانيته : ذوقوها بعض
شيء ، يعني من العذاب فبطحا على اقفائهما وجعل على صدر كل واحد منها
صفيحة حديد مخمة ، ثم قلعت بعد هنئية ، فذهب بلحم صدورهما ، ثم أخذ

البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فأقرا على أنفسها أنها لم يقصد إلا ما قاله السلطان ، وأنها جرمان مستحقان للقتل ، فلا حق لها ولا دعوى في دمائها دنيا ولا أخرى ، وكتبا خطهما بذلك ، واعترفا به عند القاضي ، فسجل على العقد ، وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار ولو قالا : أكرهنا لعذبا أشد العذاب ، ورأيا أن تعجيل ضرب العنق خير لها من الموت بالعذاب الأليم فقتلا رحهما الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده ، المسمى بهود ، حفيد الشيخ الصالح الولي ركن الدين بن بهاء الدين ابن أبي زكريا الملطاني ، وجده الشيخ ركن الدين ، معظمًا عند السلطان ، وكذلك أخوه عماد الدين الذي كان شبيهًا بالسلطان ، وقتل يوم وقيعة كشلوخان ، وسندكره . ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان لأخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفي الشيخ ركن الدين ، وأوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود ، ونازعه في ذلك ابن أخي الشيخ ركن الدين ، وقال : أنا أحق بميراث عمي ، فقدمًا على السلطان ، وهو بدولة آباد وبينها وبين ملتان ثمانون يوماً فأعطي السلطان المشيخة لهود حسبما أوصى له الشيخ ، وكان كهلاً ، وكان ابن أخي الشيخ فتي وأكرمه السلطان ، وأمر بتضييفه في كل منزل يحله ، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان ، وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الأمر للحضره ، خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه وكانت فيمن خرج إليه ، فتلقيناه وهو راكب في دولة ، يحملها الرجال ، وخليفه مجنبة ، فسلمنا عليه ، وأنكرت أنا ما كان من فعله في رکوبه الدولة ، وقلت : إنما كان ينبغي له أن يركب الفرس ، ويساير من خرج للقائه من القضاة والمشايخ بلغه كلامي ، فركب الفرس ، واعتذر بأن فعله أولاً كان بسبب ألم

منعه من ركوب الفرس. ودخل الحضرة، وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان عدداً كثيراً وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة، ومد السساط وأتوا بالطعام على العادة، ثم أعطيت الدرهم لكل من حضر على قدر استحقاقه. فأعطي قاضي القضاة خمسين ديناراً، وأعطيت أنا مائتين وخمسين ديناراً وهذه عادة لهم في الدعوى السلطانية ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده، ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته، ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك. واستقر بزاويته، وأقام بها أعوااماً ثم إن عماد الملك، أمير بلاد السندي، كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وقرباته، يستغلون جمع الأموال وإنفاقها في الشهوات، ولا يطعمون أحداً بالزاوية، فنفذ الأمر بطالبتهم بالأموال فطلبهم عماد الملك بها، وسجن بعضهم، وضرب بعضاً، وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام، حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كثيراً من الأموال والذخائر من جلتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت، بيعا بسبعينة آلاف دينار، قيل: إنها كانت لبنت الشيخ هود، وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان، فأمره أن يبعثه ويبعث الذي قبض عليه كليهما في حكم الثقاف^(١)، فلما وصلا إليه، سرح الذي قبض عليه وقال للشيخ هود: أين أردت أن تفر؟ فاعتذر بعذر فقال له السلطان: إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك، فتقول: أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا، وقد فعل السلطان معي كذا، وتأتي بهم لقتالنا. اضرروا عنقه، فضربت عنقه رحمة الله تعالى.

(١) في حكم الثقاف: أي في حكم المتخاصلين.

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين، ساكنًا بمدينة كول، منقطعاً للعبادة كبير القدر ودخل السلطان إلى مدينة كول، فذهب عنه فلم يأته فذهب السلطان إليه ثم لما قارب منزله انصرف، ولم يره. واتفق، بعد ذلك أن أميراً من الأمراء خالف على السلطان بعض الجهات، وبايده الناس: فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير بمجلس الشيخ شمس الدين، فأثنى عليه، وقال: إنه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ فقيده، وقيد أولاده، وقيد قاضي كول، ومحتسبيها. لأنه ذكر أنها كانا حاضرين للمجلس الذي وقع فيه ثناء الشيخ على الأمير المخالف وأمر بهم فسجناً جميعاً، بعد أن سمل عيني القاضي، وعيني المحتسب. ومات الشيخ بالسجن وكان القاضي والمحتسب يخربان مع بعض السجانين فيسألان الناس، ثم يرداً إلى السجن، وكان قد بلغ السلطان، أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهند وعصاهم ويصحبونهم، فلما مات أبوهم، أخرجتهم من السجن، وقال لهم: لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون. فقالوا له: وما فعلنا فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور، فقال أخبرني من كان يرى رأي هؤلاء الذين قتلوا، ويفعل مثل أفعالهم فأملي اسماء رجال كثيرين من كفار البلد، فلما عرض ما أملأه على السلطان قال: هذا يجب أن يخرب البلد اضربوا عنقه، فضربت عنقه رحمة الله تعالى.

ذكر قتله للشيخ الحيدري

وكان الشيخ علي الحيدري ساكنًا بمدينة كنبية من ساحل الهند، وهو عظيم القدر، شهير الذكر، بعيد الصيت، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة وإذا

قدموا بذلوا بالسلام عليه وكان يكافئ بأحوالهم، وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فإذا أتى الشيخ للسلام عليه، أعلمته بما نذر له، وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات، واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الأفغاني وقبيلته بتلك الجهات، بلغ السلطان أن الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين، وأعطاه شاشيته من رأسه، وذكر أيضاً أنه بايعه. فلما خرج السلطان إليهم بنفسه، وانهزم القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت، أحد الوفدين معنا عليه بكنبية، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف، وجعل معه فقهاء يحكم بقوتهم، فأحضر الشيخ علي الحيدري بين يديه، وثبت أنه أعطى للقائم شاشيته ودعا له، فحكموا بقتله. فلما ضربه السيف لم يفعل شيئاً وعجب الناس لذلك، وظنوا أنه يعفو عنه بسبب ذلك فأمر سيفاً آخر بضرب عنقه، فضر بها رحمه الله تعالى.

ذكر قتله لطوغان وأخيه

وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة فوفدا على السلطان، فأحسن إليهما وأعطاهما عطاً جزيلاً وأقاما عند مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما، وحاولا الفرار فوشى بهما أحد أصحابها إلى السلطان فأمر بتوسيطهما، فوسطا وأعطي للذى وشى بهما جميع ما هما، وكذلك عادت بهم بذلك البلاد إذا وشى أحد وأثبت ما وشى به فقتل، أعطي ماله.

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابن ملك التجار شاباً صغيراً لا نبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيمه وقتاله للسلطان، كما سندكره، غالب على ابن ملك التجار هذا، فكان في جملته مقهوراً، فلما هزم عين الملك، وقبض الملك عليه وعلى أصحابه،

كان من جلتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك ، فأمر بهما ، فعلقاً من أيديهما في خشب ، وأمر أبناء الملوك ، فرمواها بالنشاب حتى ماتا قال الحاجب حواجه أمير علي التبريزي لقاضي القضاة كمال الدين ذلك الشاب ، لم يجب عليه القتل . بلغ ذلك السلطان فقال : هلا قلت هذا قبل موته ، وأمر به فضرب مائتي مقرعة أو نحوها ، وسجن ، وأعطي جميع ماله لأمير السيافين فرأيته في ثاني ذلك اليوم قد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه ، وركب فرسه ، فظننت أنه هو وأنقام بالسجن شهوراً ثم سرمه ، ورده إلى ما كان عليه ، ثم غضب عليه ثانية ، ونفاه إلى خراسان فاستقر بهراة ، وكتب إليه يستعطفه ، فوقع له على ظهر كتابه أكربار آمدي باز (آي) معناه إن كنت تبت فارجع ، فرجع إليه .

ذكر ضربه خطيب الخطباء حتى مات

وكان قد ولـي خطيب الخطباء بدلهـي النظر في خزانة الجوـاهر في السـفر ، فاتـفق أن جاء سـراق الكـفار ليـلاً فـضرـبـوا عـلـى تـلـكـ الخـزانـةـ ، وـذـهـبـوا بـشـيءـ مـنـهاـ فـأـمـرـ بـضـرـبـ الخطـيـبـ حتـىـ مـاتـ . رـحـمـ اللهـ تعـالـىـ

ذكر تخريبه لدلهـي وـنـفـيـ أـهـلـهـاـ وـقـتـلـ الأـعـمـىـ وـالمـقـدـعـ

وـمـنـ أـعـظـمـ مـاـ كـانـ يـنـقـمـ عـلـىـ السـلـطـانـ إـجـلـاؤـهـ لـأـهـلـ دـهـليـ عـنـهـ ، وـسـبـبـ ذـلـكـ أـنـهـ كـانـواـ يـكـتبـونـ بـطـائـقـ فـيـهـ شـتـمـهـ وـسـبـهـ ، وـيـخـتـمـونـ عـلـيـهـ ، وـيـكـتبـونـ عـلـيـهـ ، وـحقـ رـأـسـ خـونـدـ عـالـمـ ، مـاـ يـقـرـأـهـ غـيرـهـ وـيـرـمـونـهـ بـالـشـورـ ليـلاًـ فـإـذـاـ فـضـهـ وـجـدـ فـيـهـ شـتـمـهـ وـسـبـهـ فـعـزـمـ عـلـىـ تـخـرـبـ دـهـليـ ، وـاشـتـرـىـ مـنـ أـهـلـهـ جـيـعاًـ دـورـهـ وـمـنـازـلـهـ ، وـدـفـعـ لـهـ ثـمـنـهـ ، وـأـمـرـهـ بـالـاـنـتـقـالـ عـنـهـ إـلـىـ دـولـةـ آـبـادـ ، فـأـبـواـ ذـلـكـ ،

فنادى مناديه أن لا يبقى بها أحد بعد ثلات فانتقل معظمهم ، واختفى بعضهم في الدور فأمر بالبحث عنمن بقي بها ، فوجد عبيده بأزقتها رجلين : أحدهما مقعد والآخر أعمى ، فأتوا بها فأمر بالمقعد فرمي به في المنجنيق ، وأمر أن يجر الأعمى من دهلي إلى دولة آباد ، مسيرة أربعين يوماً فتمزق في الطريق ، ووصل منه رجله ، ولما فعل ذلك خرج أهلها جيعاً ، وتركوا أثقالهم وأمتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها ، فحدثني من أثق به قال : صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره ، فنظر إلى دهلي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال : الآن طاب قلبي وتهدن خاطري ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلي ليعمرواها فخررت بلادهم ولم تعمر دهلي لاتساعها وضخامتها وهي من أعظم مدن الدنيا ، وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ، ليس بها الا قليل عمارة وقد ذكرنا كثيراً من مآثر هذا السلطان ، وما نقم عليه أيضاً فلنذكر جلاً من الواقع والحوادث الكائنة في أيامه .

ذكر ما افتح به أمره أول ولاته منه على بهادر بوره

ولما ولي السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس ، أحضر السلطان غياث الدين بهادر بوره الذي كان أسره السلطان تغلق ، فمنْ عليه ، وفك قيوده ، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفيالة ، وصرفه إلى مملكته وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان ، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ويكتب اسمهما معاً في السكة ، ويخطب لها وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف برباط ، يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين إلى مملكته ، والتزم ما شرط عليه إلا أنه لم يبعث ابنه ، وادعى انه امتنع وأساء الأدب في كلامه فبعث السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم وأميرهم دلجي التري ، فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشى بالتبغ وطيف به على البلاد .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمى بهاء الدين كُشت اسبْ (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وباء معلوّة) واسبْ (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكتين)، فجعله أميراً ببعض النواحي، فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه، وكان شجاعاً بطلاً بعث السلطان إليه العساكر، فيهم الأمراء الكبار، مثل الملك مجير، والوزير خواجه جهان أمير على الجمع فالتقى الفرسان، واشتد القتال، وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك كفار، يعرف بالرای كنبيلة والرای عندهم كمثل ما هو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الأقليم الذي هو به، وهو (فتح الكاف وسكون التون وكسر الباء الموحدة وباء ولام مفتوحة) وهذا الرای له بلاد في جبال منيعة، وهو من أكابر سلاطين الكفار. فلما هرب إليه بهاء الدين، اتبّعه عساكر السلطان وحاصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكافر، ونفذ ما عنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين: إن الحال قد بلغت لما تراه، وأنا عازم على هلاك نفسي وعيالي ومن تعني فاذهب أنت إلى السلطان فلان من الكفار، وسياه له فأقم عنده، فإنه سيمنعك وبعث معه من أوصله إليه. وأمر راي كنبيلة بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته: إني أريد قتل نفسي فمن أرادت موافقتي فلتفعل فكانت المرأة منهم تغسل وتذهبن بالصندل والملاصرى وتقبل الأرض بين يديه وترمي بنفسها في النار، حتى هلكن جميعاً، وفعل مثل ذلك نساء أمرائه وزواره وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتصل الرای وادهن بالصندل، ولبس السلاح ما عدا الدرع، وفعل ك فعله من أراد الموت معه من ناسه، وخرجوا إلى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعاً ودخل المدينة فأسر أهلها وأسر من أولاد راي كنبيلة أحد عشر ولداً، فأُتي بهم

السلطان فأسلموا جميعاً وجعلهم السلطان أمراء ، وعظمتهم لأصالتهم ، ول فعل أيهم فرأيت عنده منهم نصراً وبختيار والمهردار ، وهو صاحب الخاتم الذي يختم به على الماء الذي يشرب السلطان منه وكتنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ، ولما قتل راي كنبيلة توجهت عساكر السلطان إلى بلد الكفار الذي لجأ إليه بهاء الدين ، وأحاطوا به فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راي كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر السلطان ، فقيدون وغلوه وأتوا به فلما أتى به إليه أمر بإدخاله إلى قرابته من النساء فشتمنه وبصقن في وجهه ، وأمر بسلخه ، وهو بقيد الحياة ، فسلخ وطبغ لحمه مع الأرز ، وبعث لأولاده وأهله ، وجعل باقيه على صحفة ، وطرح للفيلة لتأكله فأبالت أكله وأمر بجلده فخشى بالتب وقرن وقرن بجلد بهادر بوره ، وطيف بها على البلاد فلما وصلا إلى بلاد السندي وأمير أمرائها يومئذ كشلو خان صاحب السلطان تغلق ومعينه علىأخذ الملك . وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعلم ويخرج لاستقباله إذا وفد من بلاده وأمر كشلو خان بدفع الجلدتين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتاك به .

ذكر ثورة كشلو خان وقتله

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدتين ، بعث عنه وعلم كشلو خان أنه يريد عقابه . فامتنع وخالف وأعطى الأموال وجع العساكر ، وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خراسان فأتاه منهم العدد الجم ، حتى كافأ عسركه عسرك السلطان ، أو أربى عليه كثرة . وخرج السلطان بنفسه لقتاله ، فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر . وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه ، فجعل تحت الشطر عوضاً منه الشيخ عهاد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتاني ، وهو حدثني هذا ، وكان شبهاً به . فلما حمى القتال ، انفرد السلطان في أربعة آلاف من عسركه ، وقصد عسرك كشلو خان الشطر معتقدين أن السلطان في أربعة آلاف من عسركه ، وقصد عسرك كشلو خان الشطر معتقدين أن السلطان

تحته ، فقتلوا عماد الدين ، وشاع في العسكر أنَّ السلطان قتل . فاشتغلت عساكر كشلوخان بالنهب ، وتفرقوا عنه ، ولم يبق معه إلا القليل . فقصده السلطان مُنْ معه فقتله وجز رأسه . وعلم بذلك جيشه ففروا . ودخل السلطان مدينة ملتان ، وقبض على قاضيها كرم الدين ، وأمر بسلخه فسلح ، وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه . وقد رأيته معلقاً لما وصلت إلى ملتان . وأعطي السلطان للشيخ رَكْن الدين أخي عماد الدين ولابنه صدر الدين ، مائة قرية إنعاماً عليهم ليأكلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكرياء ، وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بور وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر ، وكان أهلها قد خالفوا ، فأخبرني بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير إياها . قال : وأحضر بين يديه القاضي بهاء الخطيب ، فأمر بسلح جلدتها . فقالا : اقتلنا بغير ذلك . فقال لها : يمَّ استوجبنا القتل ؟ فقالا : بمخالفتنا أمر السلطان ، فقال لها : فكيف أخالف أنا أمره ؟ وقد أمرني أن أقتلها بهذه القتلة . وقال للمتولين لسلخها احرقوا لها حفراً تحت وجهيها ، يتفسان فيها . فإنهم إذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم . ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السندين وعاد السلطان إلى حضرته .

ذكر الواقعة بجبل قراجيل على جيش السلطان

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير ، يتصل مسيرة ثلاثة أشهر . وبينه وبين دهلي مسيرة عشر ، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار . وكان السلطان بعث ملك نكبة رأس الدويبارية إلى حرب هذا الجبل ، ومعه مائة ألف فارس ، ورجاله سواهم كثير ، فملك مدينة جِدِيدَة (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف)، وهي أسفل الجبل . وملك ما يليها ، وسبى وخرق وأحرق ، وفر الكفار إلى أعلى الجبل . وتركوا

بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم. وللجبيل طريق واحد ، وعن أسفل منه واد فوقه الجبل ، فلا يجوز فيه إلا فارس منفرد ، وخلفه آخر ، فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق ، وتمكوا مدينة ورَنْكَل التي بأعلى الجبل ، (وضبطها بفتح الواو والراء وسكون النون وفتح الكاف) ، واحتوا على ما فيها ، وكتبوا إلى السلطان بالفتح ، فبعث إليهم قاضياً وخطيباً ، وأمرهم بالإقامة . فلما كان وقت نزول المطر ، غلب المرض على العسكر وضفوا وماتت الخيل وانخلت القسي ، فكتب الأمراء إلى السلطان ، واستأذنوه في الخروج عن الجبل ، والنزول إلى أسفله ، بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون . فأذن لهم في ذلك . فأخذ الأمير نكبة الأموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن ، وفرقها على الناس ليرفووها ويوصلوها إلى أسفل الجبل . فعندما علم الكفار بخروجهم ، قعدوا لهم بتلك المهاوي وأخذوا عليهم المضيق ، وصاروا يقطعون الأشجار العادية قطعاً ، ويطرحونها من أعلى الجبل ، فلا تمر بأحد إلا أهلكته . فهلك الكثير من الناس ، وأسر الباقون منهم ، وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح . ولم يفلت من الجند إلا ثلاثة من الأمراء ، كبيرهم نكبة وبدر الدين الملك دولة شاه وثالث لها لا ذكره . وهذه الواقعة أثرت في جيش الهند أثراً كبيراً وأضعفته ضعفاً بينما . وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه ، لأن لهم البلاد أسفل الجبل ، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه .

ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر ، وبينها وبين دلهي مسيرة ستة أشهر ، الشريف جلال الدين أحسن شاه ، فخالف وادعى الملك لنفسه . وقتل نواب السلطان وعماله ، وضرب الدنانير والدرارهم باسمه . وكان يكتب في إحدى

(١) أي: طويل القامة، ملتحياً.

فرأيت الكلاب تأكل لحومهم . وقد ملئت جلودهم بالتبغ والعياذ بالله . ولما تجهز
السلطان لهذه الحركة أمرني بالإقامة بالحضره ، كما سندكره ، ومضى في سفره إلى
أن بلغ دولة آباد . فثار الأمير هلاجون بيلاده ، وخرج ذلك . وكان الوزير
خواجه جهان قد بقي أيضاً بالحضره لخشـدـ المـشـودـ وجـعـ العـساـكـرـ .

ذكر ثورة هلاجون

ولما بلغ السلطان إلى دولة آباد ، وبعد عن بلاده ، ثار الأمير هلاجون بمدينة
لاهور ، وادعى الملك ، وساعدـهـ الأمـيرـ قـلـجـنـدـ عـلـىـ ذـلـكـ ، وصـيـرـهـ وزـيـرـاـ لهـ .
وانتصلـ ذـلـكـ بـالـوزـيـرـ خـواـجـهـ جـهـانـ ، وـهـوـ بـدـهـلـيـ ، فـحـشـدـ النـاسـ وـجـعـ العـساـكـرـ
وـجـعـ الـخـرـاسـانـيـنـ ، وـكـلـ مـنـ كـانـ مـقـيـماـ مـنـ الـخـدـامـ بـدـهـلـيـ أـخـذـ أـصـحـابـهـ ، وـأـخـذـ فيـ
الـجـمـلـةـ أـصـحـايـ لـأـنـ كـنـتـ بـهـاـ مـقـيـماـ وـأـعـانـهـ السـلـطـانـ بـأـمـيـرـيـنـ كـبـيـرـيـنـ أـحـدـهـماـ قـيـرـانـ
مـلـكـ صـفـدارـ ، وـمـعـنـاهـ مـرـتـبـ الـعـسـاـكـرـ ، وـالـثـانـيـ الـمـلـكـ تـمـورـ الشـريـدـارـ وـهـوـ السـاقـيـ ،
وـخـرـجـ هـلاـجـونـ بـعـساـكـرـهـ ، فـكـانـ اللـقـاءـ عـلـىـ ضـفـةـ أـحـدـ الـأـدـوـيـةـ الـكـبـارـ . فـانـهـزـمـ
هـلاـجـونـ وـهـرـبـ ، وـغـرـقـ كـثـيرـ مـنـ عـسـاـكـرـهـ فـيـ النـهـرـ . وـدـخـلـ الـوزـيـرـ الـمـدـيـنـةـ فـسـلـخـ
بعـضـ أـهـلـهـ وـقـتـلـ آـخـرـيـنـ بـغـيـرـ ذـلـكـ مـنـ أـنـوـاعـ الـقـتـلـ . وـكـانـ الـذـيـ تـوـلـيـ قـتـلـهـمـ مـحـمـدـ
ابـنـ النـجـيبـ نـائـبـ الـوـزـيـرـ ، وـهـوـ الـمـعـرـوفـ بـأـجـدـرـ مـلـكـ ، وـيـسـمـيـ أـيـضاـ صـكـ
(ـسـكـ)ـ السـلـطـانـ وـالـصـكـ عـنـدـهـمـ الـكـلـبـ . وـكـانـ ظـالـمـاـ قـاسـيـ الـقـلـبـ . وـيـسـمـيـهـ السـلـطـانـ
أـسـدـ الـأـسـوـاقـ . وـكـانـ رـبـماـ عـضـ أـرـبـابـ الـجـنـيـاتـ بـأـسـنـانـهـ شـرـهـاـ وـعـدـوـانـاـ . وـبـعـثـ
الـوـزـيـرـ مـنـ نـسـاءـ الـمـخـالـفـيـنـ نـخـوـ ثـلـاثـمـائـةـ إـلـىـ حـصـنـ كـالـيـورـ ، فـسـجـنـ بـهـ . وـرـأـيـتـ
بعـضـهـنـ هـنـالـكـ . وـكـانـ أـحـدـ الـفـقـهـاءـ لـهـ فـيـهـ زـوـجـةـ فـكـانـ يـدـخـلـ إـلـيـهـاـ حـتـىـ وـلـدـتـ
مـنـهـ فـيـ السـجـنـ .

ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان

ولما وصل السلطان إلى بلاد التلنك ، وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبور ، نزل مدينة بذر كوت (وحيث أنها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتأء معلوّة) ، وهي قاعدة بلاد التلنك (وحيث أنها بكسر التاء المعلوّة واللام وسكون النون وكاف معقودة) ، وبينها وبين بلاد المعبور مسيرة ثلاثة أشهر . ووقع الوباء إذ ذاك في عسكره ، فهلك معظمهم ، ومات العبيد والمالين وكبار الأمراء مثل ملك دولة شاه الذي كان السلطان يخاطبه بالعم ، ومثل أمير عبدالله الهروي ، وقد تقدمت حكايته في السفر الأول ، وهو الذي أمر السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال ، فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها . ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد إلى دولة آباد ، وخالفت البلاد ، وانتقضت الأطراف ، وكان الملك يخرج عن يده ، لو لا ما سبق به القدر من استحكام سعادته .

ذكر الإرجاف بمorte وفرار الملك هوشنج

ولما عاد السلطان إلى دولة آباد مرض في طريقه ، فأرجف الناس بمorte وشاع ذلك ، فنشأت عنه فتن عريضة . وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد ، وكان بينه وبين السلطان عهد أن لا يبايع غيره أبداً ، لا في حياته ولا بعد مorte . فلما أرجف بمorte السلطان هرب إلى سلطان كافر يسمى بُربرة ، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكون تانه ، فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة ، فجد السير إلى دولة آباد ، واقتفي أثر هوشنج ، وحصره بالخيل . وأرسل الكافر أن يسلمه إليه فأبى وقال : لا أسلم دخيلي ولو آل في الأمر لما آل

براي كنبيلة . و خاف هو شنج على نفسه ، فراسل السلطان و عاهد على أن يرحل السلطان إلى دولة آباد ، و يبقى هنالك قطلوخان معلم السلطان ، ليستوثق منه هو شنج ، - و ينزل إليه على الأمان . فرحل السلطان و نزل هو شنج إلى قطلوخان ، و عاوه أن لا يقتله السلطان ولا يخط منزلته ، وخرج بماله و عياله وأصحابه وقدم على السلطان ، فسر بقدومه وأرضاه وخلع عليه . وكان قطلوخان صاحب عهد يستنمي الناس إليه ويقولون في الوفاء عليه . و منزليه عند السلطان عليه ، و تعظيمه له شديد ، و متى دخل عليه قام له إجلالاً . فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذي يدعوه لثلا يتبعه بالقيام له . وهو محظوظ في الصدقات ، كثير الإيثار ، مولع بالإحسان للفقراء والمساكين .

ذكر ما هم به الشريف إبراهيم من الثورة وما حاله

و كان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار ، وهو صاحب الكاغد والأقلام بدار السلطان ، والياً على بلاد حانسي وسرستي . لما تحرك السلطان إلى بلاد المغير ، وأبوه هو القائم ببلاد المغير الشريف أحسن شاه ، فلما أرجف بموت السلطان ، طمع إبراهيم في السلطنة ، وكان شجاعاً كريماً حسن الصورة . و كنت متزوجاً بأخته حور نسب ، وكانت صالحة تتهجد بالليل لها أوراد من ذكر الله عز وجل ، و ولدت مني بنتاً ، ولا أدرى ما فعل الله فيها . وكانت تقرأ ، لكنها لا تكتب . فلما هم إبراهيم بالثورة ، اجتاز به أمير من أمراء السندي ، معه الأموال يحملها إلى دهلي . فقال له إبراهيم : إن الطريق مخوف وفيه القطع ، فأقم عندي حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمون ، وكان قصده أن يتحقق موت السلطان فيستولي على تلك الأموال . فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير ، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك . ولما وصل السلطان إلى الحضرة بعد غيابه سنتين

ونصف ، وصل الشريف إبراهيم إليه . فوشى به بعض غلمانه ، وأعلم السلطان بما كان همّ به . فأراد السلطان أن يعجل بقتله ، ثم تأنى لمحبته فيه . فاتفق أن أتى يوماً إلى السلطان بغزال مذبوح ينظر إلى ذبحته ، فقال : ليس يجيد الذكاة ، اطروحه . فرأه إبراهيم فقال : إن ذكاته جيدة ، وأنا آكله . فأخبر السلطان بقوله ، فأنكر ذلك وجعله ذريعة إلى أخذة . فأمر به فقيد وغلل ، ثم قرره على ما رُمي به من أنه أراد أخذ الأموال التي مر بها ضياء الملك ، وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه ، وأنه لا تنفعه معذرة ، وخاف أن يعذب . فرأى الموت خيراً له ، فأقر بذلك ، فأمر به ، فوسط ، وترك هناك . وعادتهم أنه مت قتل السلطان أحداً أقام مطروحاً بموضع قتله ثلاثة . فإذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكبار موكلون بذلك ، فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به ، وهم يسكنون حول الخندق ، لئلا يأتي أهل المقتول ~~غيرفونه~~ ، وربما أعطى بعضهم هؤلاء الكفار مالاً ، فتجادلوا له عن قتيله حتى يدفعه ، وكذلك فعل الشريف إبراهيم رحمه الله تعالى .

ذكر خلف نائب السلطان ببلاد التلنك

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته ، وكان ترك تجاج الملك نصرة خان نائباً عنه ببلاد التلنك ، وهو من قدماء خواصه ، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ، ودعا لنفسه ، وتابعه الناس بحضوره بدر كوت . فبلغ خبره إلى السلطان ، فبعث معلمه قطلو خان في عساكر عظيمة ، فحضره بعد قتال شديد هلك فيه أتم من الناس ، واشتد الحصار على أهل بدر كوت ، وهي منيعة ، وأخذ قطلو خان في نقبها . فخرج إليه نصرة خان على الأمان في نفسه ، فأمنه وبعث به إلى السلطان ، وأمن أهل المدينة والعسكر .

ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك

ولما استولى القحط على البلاد ، انتقل السلطان بعساكره إلى نهر الكنك الذي تجح إلى الهند ، على مسيرة عشرة من دهلي ، وأمر الناس بالبناء ، وكانوا قبل ذلك صنعوا خياماً من حشيش الأرض ، فكانت النار كثيراً ما تقع فيها وتؤذى الناس ، حتى كانوا يصنون كهوفاً تحت الأرض ، فإذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب . ووصلت أبا في تلك الأيام لمحلة السلطان ، وكانت البلاد التي بغربي النهر حيث السلطان شديدة القحط ، والبلاد التي يشرقيه خصبة ، وأميرها عين الملك بن ماهر . ومنها مدينة عوض ، ومدينة ظفر آباد ، ومدينة الكنك ، وغيرها . وكان الأمير عين الملك كل يوم يحضر حسين ألف من ، منها قمح وأرز وحمض لعلف الدواب . فأمر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المخصبة لترعى هنالك ، وأوصى عين الملك بحفظها . وكان لعين الملك أربعة إخوة ، وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ، ولا ذكر اسم الآخر ، فاتفقوا مع أخيهم عين الملك أن يأخذوا فيلة السلطان ودوابه ، ويبايعوا عين الملك ، ويقوموا على السلطان . و Herb إليهم عين الملك بالليل ، وكاد الأمر يتم لهم . ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير ملوكاً له يكون عيناً عليه ، ويعرفه بجميع حاله ، ويجعل أيضاً جواري في الدور يكن عيوناً له على أمرائه ، ونسوة يسمين الكناسات ، يدخلن الدور بلا استئذان ، ويخبرهن الجواري بما عندهن ، فتخبر الكناسات بذلك المخبرين ، فيخبر بذلك السلطان . ويدركون أن بعض الأمراء كان في فراشه مع زوجته ، فأراد مماتها ، فحلفته برأس السلطان أن لا يفعل ، فلم يسمع منها ، فبعث إليه السلطان صباحاً ، وأخبره بذلك ، وكان سبب هلاكه . وكان للسلطان ملوك يعرف

|بابن ملك شاه ، هو عين على عين الملك المذكور ، فأخبر السلطان بفراره وجوازه
النهر ، فسقط في يده ، وظن أنها القاضية عليه ، لأن الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند
عين الملك ، وعساكر السلطان مفترقة ، فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر ،
وحيثند يأتي لقتاله . وشاور أرباب الدولة في ذلك . وكان أمراء خراسان والغرباء ،
أشد الناس خوفاً من هذا القائم ، لأنه هندي ، وأهل الهند مبغضون في الغرباء ،
لإظهار السلطان لهم ، فكرهوا ما ظهر له ، وقالوا : يا خوند عالم ، إن فعلت ذلك
بلغه الخبر ، فاشتد أمره ورتب العساcker ، وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتنة ،
وال الأولى معالجته قبل استحکام قوته . وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مظہر
الأوھري ، ووافقه جميعهم . ففعل السلطان بإشارتهم . وكتب تلك الليلة إلى من
قرب منه من الأمراء والعساcker ، فأتوا من حينهم . وأدار في ذلك حيلة حسنة ،
فكان إذا قدم على محلته مثلاً مائة فارس ، بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلاً ،
ودخلوا معهم إلى المحلة ، كأن جميعهم مدد له . وتحرك السلطان مع ساحل النهر ،
ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ، ويتحصن بها لمنعتها ومحاصانتها . وبينها وبين
الموضع الذي كان فيه ثلاثة أيام . فرحل أول مرحلة ، وقد عبأ جيشه للحرب ،
وجعلهم صفاً واحداً ، عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى
جانبه ، ومعه خباء صغير يأكل به ويتوضاً ، ويعود إلى مجلسه . والمحلة الكبرى
على بعد منهم . ولم يدخل السلطان في تلك الأيام الثلاثة خباء ، ولا استظل بظلم .
و كنت في يوم منها بخبايي ، فصاح بي فتى من فتياني اسمه سنبل ، واستعجلني ،
وكان معه الجواري ، فخرجت إليه . فقال : إن السلطان أمر الساعة أن يقتل كل
من معه امرأته أو جاريته ، فشفع عنده الأمراء . فأمر أن لا تبقى الساعة بال محلة
أمراة ، وأن يحملن إلى حصن هنالك على ثلاثة أميال ، يقال له كنبيل . فلم تبق
أمراة بال محلة ، ولا مع السلطان . وبتنا تلك الليلة على تعبئة ، فلما كان في اليوم الثاني
رتب السلطان عساكره أزواجاً ، وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة ، عليها

الأبراج، فوقها المقاتلة، وتدرع العسكر، وتهيأوا للحرب. وباتوا تلك الليلة على أهبة. ولما كان اليوم الثالث، بلغ الخبر بأن عين الملك التاجر جاز النهر، فخاف السلطان من ذلك، وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مراسلة الأمراء الباقيين مع السلطان، فأمر في حين بقسم الخيل العتاق على خواصه، وبعث لي حظاً منها. وكان لي صاحب يسمى أمير أمiran الكرماني من الشجعان، فأعطيته فرضاً منها أشهب اللون. فلما حركه جمع به، فلم يستطع إمساكه، ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى. وجداً السلطان ذلك اليوم في مسيره، فوصل بعد العصر إلى مدينة قنوج، وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها. وبات ليلته تلك، يرتب الناس بنفسه، ووقف علينا، ونحن في المقدمة مع ابن عمه ملك فیروز، ومعنا الأمير غدا ابن مهنا، والسيد ناصر الدين مطهر، وأمراء خراسان فأضافنا إلى خواصه وقال: أنت أعزة علي، ينبغي أن تفارقوني. وكان في عاقبة ذلك الحير، فإن القائم ضرب في آخر الليل على المقدمة، وفيها الوزير خواجه جهان، فقامت ضجة في الناس كبيرة، فحينئذ أمر السلطان أن لا يربح أحد من مكانه، ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف. فاستل العسكر سيوفهم، ونهضوا إلى أصحابهم. وهي القتال، وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه دهلي وغزنة. فإذا لقي أحدهم فارساً قال له: دهلي. فإن أجا به بغزنة، علم أنه من أصحابه، وإلا قاتله، وكان القائم إنما قصد أن يضرب على موضع السلطان، فأخطأ به الدليل، فقصد موضع الوزير، فضرب عنق الدليل. وكان في عسكر الوزير الأعاجم والترك والخراسانيون، وهم أعداء الهنود، فصدقوا القتال. وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفاً، فانهزموا عند طلوع الفجر. وكان الملك إبراهيم المعروف بالبنجي (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التترى قد أقطعه السلطان بلاد سندية، وهي قرية من بلاد عين الملك، فاتفق معه على الخلاف، وجعله نائبه. وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخليفه فوافقاه أيضاً، وجعل داود حاجبه. وكان داود

هذا لما ضربوا على محله الوزير يجهر بسبّ السلطان ويشتمه أقبح شتم ، والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه . فلما وقعت المهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التترى : ماذا ترى يا ملك إبراهيم ؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النجدة منهم ، فهل لك أن ننجو بأنفسنا ؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم : إذا أراد عين الملك أن يفر ، فإني سأقبض على دبوقه . فإذا فعلت ذلك ، فاضربوا أنتم فرسه ليسقط إلى الأرض ، فنقبض عليه ، ونأتي به إلى السلطان ، ليكون ذلك كفارة لذنبي في الخلاف معه ، وسبياً لخلاصي . فلما أراد عين الملك الفرار ، قال له إبراهيم : إلى أين يا سلطان علاء الدين ؟ وكان يسمى بذلك ، وأمسك بدبوقه ، وضرب أصحابه فرسه ، فسقط على الأرض ، ورمى إبراهيم بنفسه عليه فقبضه ، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم وقال : لا أتركه حتى أوصله للوزير ، أو أموت دون ذلك ، فتركوه ، فأوصله إلى الوزير . وكنت أنظر عند الصبح إلى الفيلة والأعلام يؤتى بها إلى السلطان . ثم جاءني بعض العراقيين فقال ، قد قبض على عين الملك ، وأتي به الوزير ، فلم يمر إلا يسير ، وجاء في الملك تغور الشربدار فأخذ بيدي وقال : أبشر ، فقد قبض على عين الملك ، وهو عند الوزير . فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه إلى محلة عين الملك على نهر الكنك ، فنهبت العسكر ما فيها ، واقتتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا . وأخذوا داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ، ونهبت الأموال والخيل والأمتعة . ونزل السلطان على المجاز ، وجاء الوزير بعين الملك ، وقد أركب على نور ، وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بجبل وباقية في عنقه ، فوقف على باب السراجة ، ودخل الوزير إلى السلطان ، فأعطاه الشربة عنابة به . وجاء أبناء الملك إلى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون في وجهه ويصفعون أصحابه . وبعث إليه السلطان الملك الكبير ، فقال له : ما هذا الذي فعلت ؟ فلم يجد جواباً . فأمر به السلطان أن يكسى ثوباً من ثياب الزماله ، وقيد بأربعة كبول ،

وغلت يداه إلى عنقه ، وسلم للوزير ليحفظه . وجاز إخوته النهر هاربين ، ووصلوا مدينة عوض ، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال ، وقالوا لزوجة أخيهم عين الملك : أخلصي بنفسك ، وبنوك معنا . فقالت : أفلأ تكون كنساء الكفار اللاتي يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ؟ فأنا أيضاً أموت لموت زوجي ، وأعيش لعيشه ، فتركوها . وبلغ ذلك السلطان ، فكان سبب خيرها ، وأدركه لها رقة ، وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولئك الإخوة فقتله ، وأتى السلطان برأسه . وأتى بأم عين الملك وأخته وامرأته فسلمن إلى الوزير ، وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك . فكان يدخل إليهن ، ويجلس معهن ، ويعود إلى محبسه . ولما كان بعد العصر من يوم المزية ، أمر السلطان بسراح لفيف من الناس الذي مع عين الملك من الزماله والسوقه والعبيد ومن لا يعبأ به ، وأتى بملك إبراهيم البسيجي الذي ذكرناه ، فقال ملك العسكر الملك توا : يا خوند عالم ، أقتل هذا ، فإنه من المخالفين . فقال الوزير : إنه قد فدى نفسه بالقائم ، فعفا عنه السلطان وسرحه إلى بلاده .

ولما كان بعد المغرب جلس السلطان برج الخشب ، وأتى باثنين وستين رجلاً من كبار أصحاب القائم ، وأتى بالفيلة ، فطروحوا بين أيديها ، فجعلت تقطعهم بالخدائد الموضوعة على أيديها ، وترمي بعضهم إلى الهواء ، وتتلقيه . والأبواق والأنفار والطبول تضرب عند ذلك ، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ، ويطرح منهم عليه ، ثم أعيد إلى محبسه .

وأقام السلطان على جواز النهر أياماً لكثرة الناس وقلة القوارب . وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة ، وفرق الفيلة على خواصه ، ليجيزوا أمتعتهم ، وبعث إلى بفيل منها أجزت عليه رحلي . وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بئر أياج (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وهاء مسكن وراء وألف ويء آخر الحروف مكسورة وجيم) ، وهي مدينة حسنة في عدوة نهر السرو ، وهو وادٌ كبير شديد الانحدار ،

وأجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود ، الذي فتح أكثر تلك البلاد ، وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة . وتكثر الناس للحجواز وتزاها ، حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثة عشر نسمة ، لم ينج منهم إلا أعرابي من أصحاب الأمير غدا ، وكنا ركبنا لحسن مركباً صغيراً ، فسلمتنا الله تعالى . وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمى بيسالم ، وذلك اتفاق عجيب .

وكان أراد أن يصعد معنا في مركبنا ، فوجدنا قد ركبنا النهر ، فركب في المركب الذي غرق . فلما خرج ، ظن الناس أنه كان معنا . فقامت ضجة في أصحابنا وفي سائر الناس ، وتوهموا أنها غرقنا . ثم لما رأينا بعد استبشرنا بسلامتنا . وزرنا قبر الصالح المذكور ، وهو في قبة لم نجد سبيلاً إلى دخولها لكثرة الزحام . وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب ، فخرج علينا منها الكركدن ، فقتل وأتى الناس برأسه . وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ، وقد ذكرناه .

ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفته علي شاه كر

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا ، عاد إلى حضرته بعد مغيب عامين ونصف ، وعفا عن عين الملك ، وعفا أيضاً عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك ، وجعلهما معاً على عمل واحد ، وهو النظر على بساتين السلطان . وكساها وأركبها ، وعين لها نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم . وببلغ الخبر بعد ذلك أن أحد أصحاب قطلوخان ، وهو علي شاه كر ، ومعنى كر الأطربش ، خالف على السلطان . وكان شجاعاً حسن الصورة والسيرة ، فغلب على بدر كوت ، وجعلها مدينة ملكه . وخرجت العساكر إليه ، وأمر السلطان معلمه أن يخرج إلى قتاله ، فخرج في عساكر عظيمة ، وحصره بدر كوت ، ونقتلت أبرا جها ، واشتدت به الحال ، فطلب الأمان فأمنه قطلوخان ، وبعث به إلى السلطان مقيداً ، فعفا عنه

ونفاه إلى مدينة غزنة من طرف خراسان، فأقام بها مدة. ثم اشتاق إلى وطنه، فأراد العودة إليه، لما قضاه الله من حينه، فقبض عليه ببلاد السند، وأتي به السلطان. فقال له : إنما جئت لتشير الفساد ثانية ، وأمر به فضربت عنقه.

ذكر فرار أمير بخت وأخذه

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك ، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان ، فحط مرتبه من أربعين ألفاً إلى ألف واحد ، وبعثه في خدمة الوزير إلى دهلي . فاتفق أن مات أمير عبدالله الهمروي في الوباء في التلنك ، وكان ماله عند أصحابه بدھلي ، فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب . فلما خرج الوزير من دھلي إلى لقاء السلطان ، هربوا مع أمير بخت وأصحابه ، ووصلوا إلى أرض السند في سبعة أيام ، وهو مسيرة أربعين يوماً ، وكان معهم الخيل مجنوبة ، وعزما على أن يقطعوا نهر السند عموماً ، ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم في معدية قصب يصطنونها ، وكانوا قد أعدوا حبلاً من الحرير برسم ذلك . فلما وصلوا إلى النهر خافوا من عبوره بالعوم ، فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة أوجه ، فقالا له : إن ها هنا تجارة أرادوا أن يعبروا النهر ، وقد بعثوا إليك بهذا السرج ، لتبيح لهم الجواز ، فأنكر أمير أن يعطي التجار مثل ذلك السرج ، وأمر بالقبض على الرجلين . ففر أحددهما ، ولحق بشرف الملك وأصحابه ، وهم نيام لما لحقهم من الإعياء ومواصلة السهر ، فأخبرهم الخبر ، فركبوا مذعورين وفرروا ، وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذي قبض عليه ، فاعترف بقضية شرف الملك . فأمر جلال الدين نائبه ، فركب في العسكر ، وقصدوا نحوهم . فوجدوهم قد ركبوا ، فاقتفيوا أثرهم فأدركوه . فرموا العسكر بالنشاب ، ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين بسمهم ، فأثبته في ذراعه ، وغلب عليهم ، فأتى بهم إلى جلال الدين ، فقيدهم وغل

أيديهم ، وكتب إلى الوزير في شأنهم . فأمر الوزير أن يبعثهم إلى الحضرة ، فبعثهم إليها . وسجناها بها ، فمات طاهر في السجن . فأمر السلطان أن يضرب شرف الملك مائة مقرعة في كل يوم ، فبقي على ذلك مدة ، ثم عفا عنه . وبعثه مع الأمير نظام الدين أمير نجلة إلى بلاد جنديري ، فانتهت حاله إلى أن كان يركب البقر ، ولم يكن له فرسه يركبه . وأقام على ذلك مدة ، ثم وفده ذلك الأمير على السلطان وهو معه . فجعله السلطان شاشنكيـر (شاشنـكـير) ، وهو الذي يقطع اللحم بين يدي السلطان . ويـشيـيـ مع الطعام . ثم إنه بعد ذلك نـوـهـ به ورفع مقداره . وانتهـتـ حالـهـ إلىـ أنـ مـرـضـ . فـزارـهـ السـلـطـانـ وأـمـرـ بـوزـنـهـ بـالـذـهـبـ ، وأـعـطـاهـ ذـلـكـ . وـقـدـ قـدـمـاـ هـذـهـ الـحـكاـيـةـ فيـ السـفـرـ الـأـوـلـ . وـبـعـدـ ذـلـكـ زـوـجـهـ بـأـخـتـهـ وأـعـطـاهـ بـلـادـ جـنـدـيـرـيـ الـتـيـ كـانـ بـهـ الـبـقـرـ فيـ خـدـمـةـ الـأـمـيـرـ نـظـامـ الدـيـنـ . فـسـبـحـانـ مـقـلـبـ الـأـرـضـ وـمـحـولـ الـأـحـوـالـ .

ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالـفـ علىـ السـلـطـانـ بـأـرـضـ مـلـتـانـ منـ بـلـادـ السـنـدـ ، وـقـتـلـ الـأـمـيـرـ بـهـ ، وـكـانـ يـسـمـيـ بـهـ زـادـ ، وـادـعـىـ السـلـطـةـ لـنـفـسـهـ . وـتـجـهـزـ السـلـطـانـ لـقـتـالـهـ ، فـعـلمـ أـنـهـ لـاـ يـقاـومـهـ . فـهـرـبـ وـلـحـقـ بـقـوـمـهـ الـأـفـغـانـ ، وـهـمـ سـاـكـنـ بـجـيـالـ مـنـيـعـةـ لـاـ يـقـدـرـ عـلـيـهـ ، فـاغـتـاظـ السـلـطـانـ مـاـ فـعـلـهـ ، وـكـتـبـ إـلـىـ عـهـالـهـ أـنـ يـقـبـضـواـ عـلـىـ مـنـ وـجـدـوـهـ مـنـ الـأـفـغـانـ بـبـلـادـهـ ، فـكـانـ ذـلـكـ سـبـباـ لـخـلـافـ القـاضـيـ جـلالـ .

ذكر خلاف القاضي جلال

وـكـانـ القـاضـيـ جـلالـ وـجـمـاعـةـ مـنـ الـأـفـغـانـيـنـ قـاطـنـيـنـ بـمـقـرـبـةـ مـنـ مـدـيـنـةـ كـنـبـاـيـةـ وـمـدـيـنـةـ بـلـوـذـرـةـ ، فـلـمـ كـتـبـ السـلـطـانـ إـلـىـ عـهـالـهـ بـالـقـبـضـ عـلـىـ الـأـفـغـانـيـنـ كـتـبـ إـلـىـ مـلـكـ مـقـبـلـ نـائـبـ الـوـزـيـرـ بـبـلـادـ الـجـزـرـاتـ وـنـهـرـ وـالـهـ ، أـنـ يـحـتـالـ فـيـ القـبـضـ عـلـىـ القـاضـيـ جـلالـ وـمـنـ مـعـهـ . وـكـانـتـ بـلـادـ بـلـوـذـرـةـ إـقـطـاعـاـ مـلـكـ الـحـكـماءـ ، وـكـانـ مـلـكـ الـحـكـماءـ

متزوجاً بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق ، ولها بنت من تغلق هي التي تزوجها الأمير غدا . وملك الحكماء إذ ذاك في صحبة مقبل ، لأن بلاده تحت نظره . فلما وصلوا إلى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتي بالقاضي جلال وأصحابه . فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده حذرهم في خفية ، لأنهم كانوا من أهل بلاده ، وقال : إن مقبلاً طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح ، فركبوا في نحو ثلاثة مدرع وأنوته وقالوا : لا ندخل إلا جملة . فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون ، وخفاف منهم . فأمرهم الرجوع ، وأظهر تأمينهم . فخلعوا عليه ، ودخلوا مدينة كنباية ، ونهبوا خزانة السلطان بها ، وأموال الناس ، ونهبوا مال ابن الكومي التاجر ، وهو الذي عمر المدرسة الحسنة ياسكندرية ، وسندكره إثر هذا . وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شديدة . وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان ، فهزموهم أيضاً ، وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانشالوا عليهم . وادعى القاضي جلال السلطنة ، وبايده أصحابه . وبعث السلطان إليه العساكر فهزموها . وكان بدولة أباد جماعة من الأفغان فخالقو أيضًا .

ذكر خلاف ابن الملك مل

وكان ابن الملك مل ساكناً بدولة آباد في بعض من الأفغان ، فكتب السلطان إلى نائبه بها ، وهو نظام الدين أخو معلم قطلوخان ان يقبض عليهم ، وبعث إليه بأحوال كثيرة من القيود والسلالس ، وبعث بخلع الشتاء . وعادة ملك الهند ان يبعث لكل أمير على مدينة ، ولو جوه جنده خلعتين في السنة : واحدة للشتاء والثانية للصيف . وإذا جاءت الخلع ، يخرج الأمير والجندي للقاءها . فإذا وصلوا إلى الآتي بها نزلوا عن دوابهم ، وأخذ كل واحد خلعته ، وحلها على كتفه وخدم لجهة السلطان . وكتب السلطان لنظام الدين إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم

لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك . وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان ، فأخبرهم بما يراد بهم . فكان نظام الدين من احتال ، فانعكست عليه ، فركب وركب الأفغان معه حتى إذا لقوا الخلع ، ونزل نظام الدين عن فرسه ، حملوا عليه وأصحابه ، فقبضوا عليه وقتلوا كثيراً من أصحابه ، ودخلوا المدينة فاستولوا على الخزائن ، وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل ، وانثال عليهم المفسدون ، فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنباية

ولما علم السلطان ما فعله الأفغان بكنباية ودولة آباد ، خرج بنفسه ، وعزم أن يبدأ بكنباية ، ثم يعود إلى دولة آباد . وبعث أعظم ملك البازيدي صهره في أربعة آلاف مقدمة ، فاستقبله جند القاضي جلال ، فهزمه وحصروه ببلودرة ، وقاتلوه بها . وكان في جند القاضي جلال شيخ يسمى جلول ، وهو أحد الشجعان . فلا يزال يفتاك في الجند ويقتل ، ويطلب المبارزة فلا يتجرأ أحد على مبارزته . واتفق يوماً أنه دفع فرسه ، فكباه في حفرة فسقط عنه وقتل . ووجدوا عليه درعين ، فبعثوا برأسه إلى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بلودرة ، وبعشوا يديه ورجليه إلى البلاد . ثم وصل السلطان بجنبه فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ، ففر في أصحابه ، وتركوا أموالهم وأولادهم ، فنهب ذلك كلها ، ودخلت المدينة ، وأقام بها السلطان أياماً ثم رحل عنها ، وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدمنا ذكره ، وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه ، وما جرى له من الذل ، ثم من العز . وأمره بالبحث عنمن كان في طاعة جلال الدين ، وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم . فأدى ذلك إلى قتل الشيخ علي الحيدري حسبما قدمناه . ولما هرب القاضي جلال لحق بناصر الدين ملك مل بدولة آباد ، ودخل في جملته . فأتى السلطان بنفسه إليهم ، واجتمعوا في نحو أربعين ألفاً من الأفغان والترك

والهنود والعيّد ، وتحالفوا على أن لا يفروا ، وأن يقاتلوا السلطان . وأتى السلطان لقتالهم ولم يُرفع الشطر الذي هو علامته . فلما استحرَّ القتال رُفع الشطر ، ولما عاينوه دهشوا وانهزموا أقبح هزيمة . ولجأ ابن ملك ملِّ القاضي جلال في نحو أربعاءة من خواصها إلى قلعة الدويقير ، وسند ذكرها وهي من أمنع القلاع في الدنيا ، واستقرَّ السلطان بمدينة دولة آباد والدوسيير هي قلعتها . وبعث لهم أن ينزلوا على حكمه فأبوا أن ينزلوا إلا على الأمان . فأبى السلطان أن يؤمّنهم ، وبعث لهم الأطعمة تهاؤناً بهم ، وأقام هنالك . وهذا آخر عهدي بهم .

ذكر قتال مقبل وابن الكولي

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلال وخلافه . وكان تاج الدين الكولي من كبار التجار ، فنزل على السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة ، منها المهايلك والجمال والمتاع والسلاح والثياب . فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثنى عشر لكاً ، ويدرك أنه لم تكن قيمة هديته إلا لكاً واحداً . وولاه مدينة كنبية . وكانت لنظر الملك الم قبل نائب الوزير ، ووصل إليها ، وبعث السفن إلى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها . وجاءته التحف والمهايا في السفن ، وعظمت حاله ، ولما لم يبعث أموال تلك الجهات إلى الحضرة ، بعث الملك الم قبل إلى ابن الكولي أن يبعث ما عنده من المهايا والأموال مع هدايا تلك الجهات على العادة . امتنع ابن الكولي عن ذلك وقال : أنا أحملها بنفسي ، أو أبعثها مع خدمي ، ولا حكم لنائب الوزير على ولا للوزير ، واغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية . فكتب مقبل إلى الوزير بذلك ، فوقع له الوزير على ظهر كتابه : إن كنت عاجزاً عن بلادنا فاتركها وارجع إلينا .

ولما وصله الجواب تجهز في جنده وماليكه ، والتقيا يظاهر كنبية . فانهزم الكولي ، وقتل جملة من الفريقيين . واستخفى ابن الكولي في دار الناخوذة (الناخذا) ، إلياس أحد كبراء التجار .

دخل مقبل المدينة فضرب رقاب جند ابن الكولي ، وبعث له الأمان نظير
أن يأخذ ماله المختص به ، ويترك مال السلطان وهديته ومحبي البلد ، وبعث مقبل
بذلك كله مع خدامه إلى السلطان ، وكتب شاكياً من ابن الكولي ، وكتب ابن
الكولي شاكياً منه . وبعث السلطان ملك الحكام ليتصف بينها . وبأثر ذلك كان
خروج القاضي جلال الدين . فنهب مال ابن الكولي ، وهرب ابن الكولي في
بعض مماليكه ولحق بالسلطان .

ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند

وفي مدة غياب السلطان عن حضرته، إذ خرج يقصد بلاد المغير، وقع
الغلاء، واشتد الأمر، وانتهى المن إلى ستين درهماً، ثم زاد على ذلك. وضاقت
الأحوال، وعظم الخطب، ولقد خرجت مرة إلى لقاء الوزير، فرأيت ثلاث
نسوة يقطعن قطعاً من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه. وكانت الجلود تطبع
وبثاء في الأسواق. وكان الناس إذا ذبحت البقر، أخذوا دماءها فأكلوها.
وحدثني بعض طلبة خراسان أنهم دخلوا بلدة تسمى أكروهه، بين حانسي
وسريتي فوجدوها خالية، فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به، فوجدوا في بعض
بيوته رجلاً قد أضرم ناراً، وبيده رجل آدمي، وهو يشوّهها في النار ويأكل
منها، والعياذ بالله. ولما اشتد الحال، أمر السلطان أن يعطي الجميع أهل دهلي نفقة
ستة أشهر. فكانت القضاة والكتاب والأمراء يطوفون بالأزقة والخارات،
ويكتبون الناس، ويعطون لكل أحد نفقة ستة أشهر، بحساب رطل ونصف من
أرطال المغرب في اليوم لكل واحد. وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام
الذي أصنعه بمقدمة السلطان قطب الدين، حسبما يذكر، فكان الناس ينتعشون
 بذلك. والله تعالى ينفع بالقصد فيه. وإذا قد ذكرنا من أخبار السلطان، وما
 كان في أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية، فلنعد إلى ما يخصنا من ذلك، ونذكر

كيفية وصولنا أولاً إلى حضرته ، وتنقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ، ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة إلى الصين ، وعودنا منها إلى بلادنا ، إن شاء الله تعالى .

ذكر وصولنا إلى دار السلطان وعند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلي قصتنا باب السلطان ، ودخلنا الباب الأول ثم الثاني والثالث ، ووجدنا عليه النقباء ، وقد تقدم ذكرهم . فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقبيهم إلى مشور عظيم متسع ، فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنَا . فتقدم ضياء الدين خداوند زاده ، ثم تلا أخيه قوام الدين ، ثم أخيه عماد الدين ، ثم تلوتهم ، ثم تلاني أخوهم برهان الدين ، ثم الأمير مبارك السمرقندى ، ثم أرلون بغة التركى ، ثم ملك زاده ابن اخت خداوند زاده ، ثم بدر الدين الفصال .

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اسطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية ، وبه يجلس السلطان الجلوس العام . فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض ، وخدمتنا نحن بالركوع ، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض ، وخدمنا لناحية سرير السلطان ، وخدم جميع من معنا . فلما فرغنا من الخدمة ، صاح النقباء بأصوات عالية : بسم الله ، وخرجنا .

ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان ، وهي من أفضل النساء ، كثيرة الصدقات ، عمرت زوايا كثيرة ، وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر . وهي مكفوفة البصر ، وسبب ذلك انه لما ملك ابنتها ، جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زي ، وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر ، فخدمن بين يديها جيغاً ، فذهب بصرها للعين ، وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع .

وولدها أشد الناس برأًّا بها . ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة ، فلما قدمت خرج لاستقبالها ، وترجل عن فرسه وقبل رجلها ، وهي في المحفظة برأى من الناس أجمعين .

ولنعد لما قصدناه فنقول ، ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف ، وهم يسمونه باب الحرم ، وهنالك سكنى المخدومة جهان . فلما وصلنا باهها نزلنا عن الدواب ، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله .

ودخل معنا قاضي قضاة المالك كمال الدين بن البرهان ، فخدم الوزير والقاضي عند باهها ، وخدمتنا كخدمتهم ، وكتب كاتب باهها هدايانا . ثم رجعوا إلى الوزير ، ثم عادوا إلى القصر ، ونحن وقوف . ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك ، ثم أتوا بالطعام ، وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) ، وهي مثل القدور ، ولها مزافع من الذهب تجلس عليها ، يسمونها السُّبُك (بضم السين وضم الباء الموحدة) وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب ، وجعلوا الطعام ساطين ، وعلى كل سساط صfan . ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردin .

ولما تقدمنا للطعام ، خدم الحجاب والنقباء ، وخدمتنا خدمتهم . ثم أتوا بالشربة فشربنا . وقال الحجاب : بسم الله ، ثم أكلنا ، وأتوا بالفقاع والتبول . وقال الحجاب : بسم الله ، فخدمتنا جيئاً . ثم دعينا إلى موضع هنالك ، فخلع علينا حلل الحرير المذهبة ، وأتوا بنا إلى باب القصر ، تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان . فأعطي كل واحد منا نصيبه منها . ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة ، وبطيفور مثله فيه الجلاب ، وطيفور ثالث فيه التبول . ومن عادتهم إن الذي يخرج له ذلك ، يأخذ الطيفور بيده ، ويجعله على كاهله ، ويخدمه بيده

الثانية إلى الأرض. فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل إيناساً منه وتواضعاً ومبرة، جزاءه الله الخير. ففعلت كما فعل، وانصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي، وبقربة من دروازة بالم منها، وبعث لنا الضيافة.

ذكر الضيافة

ولما وصلتُ إلى الدار التي أعددت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد، وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل، يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر، يحمله غلامه على رأسه، وهو أربع قوائم مخروطة، يعرض عليها أربعة أعوداد، وتُنسج عليها صفاتٍ من الحرير والقطن، فإذا نام الإنسان عليه لم يحتاج إلى ما يُرطبه به، لأنَّه يعطي الرطوبة من ذاته. وجاءوا مع السرير بمضربيٍن ومخدتين ولحاف، كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحاف (اللحف) وجوهاً تغشياً وأتوا تلك الليلة بргلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراص والثاني الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم، لأوزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق، وهذا الذي ذكرناه في ضيافة أم السلطان، وبعدها وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها. وما كان من غير ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان، وسلمتنا على الوزير، فأعطاني بدرتين، كل بدرة من ألف دينار دراهم، وقال لي: هذه سر ششي (ششي) ومعناه لغسل رأسك، وأعطاني خلعة من المرعز، وكتب جميع أصحابي وخدمي وغلاني، فجعلوا أربعة أصناف: فالصنف الأول منها أعطي كل واحد منها مائة دينار، والصنف الثاني أعطي كل واحد منهم مائة وخمسين ديناراً والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار.

والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين ديناراً، وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفًا، وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان، وهي ألف رطل هندية من الدقيق، ثلثها من الميرا وهو الدرنك، وثلثاها من الخشكار وهو المدهون، وألف رطل من اللحم، ومن السكر والسمن والسليف والفوفل أرطال كثيرة، لا أذكر عددها والألف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلاً من أرطال المغرب، وخمسة وعشرون من أرطال مصر، وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق، ومثلها من اللحم، مع ما يناسبها ذكرناه.

ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة. فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القوني، فدفناها بها وكتب بخبرها إلى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني، وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير، ويجعلون على القبر الأزاهير، وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهي زهر أصفر، وريبول وهو أبيض، والنسرین وهو على صنفين أبيض وأصفر، ويجعلون أغصان النارنج والليمون بشارها، وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط، ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل، ويجتمع الناس ويؤتي بالصاحف فيقرأون القرآن، فإذا ختموا أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس، ثم يصب عليهم ماء الورد صباً، ويعطون التنبول وينصرفون.

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت، خرجت الصبح على العادة،

وأعددت ما تيسر من ذلك كله ، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك ، وأمر بسراحة فضررت على القبر ، وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند ، والقاضي نظام الدين الكرواني وجلة من كبار أهل المدينة ، ولم آت إلا القوم المذكورون ، قد أخذوا مجالسهم ، وال الحاجب بين أيديهم ، وهم يقرأون القرآن فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر . فلما فرغوا من القراءة ، قرأ القراء بأصوات حسان ، ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البت المتوفاة ، وثناء على السلطان . وعند ذكر اسمه قام الناس جميعاً قياماً فخدموا ثم جلسوا ، ودعا القاضي دعاء حسناً ، ثم أخذ الحاجب وأصحابه برamil ماء الورد وصبوا على الناس ، ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات ، ثم فرقوا عليهم التنبول ، ثم أتي بإحدى عشرة خلعة لي ولأصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان ، فخدمتنا للسرير على العادة ، وانصرفت إلى متزلي فما وصلت إلا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ، ما ملأ الدار ودور أصحابي ، وأكلوا جميعاً ، وأكل المساكين . وفضلت الأقراص والحلوا والنبات ، فأقامت بقايها أياماً ، وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان . وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحفة التي يحمل فيها النساء ، ويركبها الرجال وهي شبه السرير ، سطحها من صفائر الحرير أو القطن ، وعليها عود شبه الذي على البوتجات عندنا ، معوج من القصب الهندي المغلوق ، ويحملها ثمانية رجال في نوبتين : يستريح أربعة ، ويحمل أربعة ، وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر ، عليها ينصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حلوه ، ومن لم يكن له عبيد اكتفى رجالاً يحملونه . وبالبلد منهم جماعة يسيرة ، يقفون في الأسواق وعند باب السلطان ، وعند أبواب الناس للكري ، وتكون دول النساء مغشاة بغشاء حرير . وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار أم السلطان ، فحملوا فيها جاريتي ، وهي أم البت المتوفاة وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البت عندهم ليلة ، وجاءت في

اليوم الثاني وقد أعطوه ألف دينار دراهم، وأساور ذهب مرصعة، وتهليلاً من الذهب مرصعاً وقميص كتان مزركساً بالذهب وخلة خرير مذهبة وتحتها بائثواب ولما جاءت بذلك أعطيته لأصحابي وللتجار الذين لهم علي الدين ، محافظة على نفسي ، وصوناً لعرضي لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى.

ذكر إحسان السلطان والوزير في أيام غيبة السلطان عن الحضرة

وفي أثناء إقامتي أمر السلطان أن يعين لي من القرى ما يكون فائدة خمسة
آلاف دينار في السنة، فعينها لي الوزير وأهل الديوان، وخرجت إليها فمنها
قرية تسمى بـَدَلِي (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية
تسمى بـَسَهَي (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل وكسر الهاء) ونصف قرية تسمى
بـَلَرَة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء)، وهذه القرى على مسافة ستة عشر
كروهاً، وهو الميل، بصدق يعرف بصدقى هندبت، والصدقى عندهم جموع مائة
قرية من قرى بلاد الهند، وأحواز المدينة مقسومة أصداء، وكل صدقى له
جوطري، وهو شيخ من كفار تلك البلاد، ومتصرف، وهو الذي يضم مجابها.
وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار، فأبعث الوزير إلى عشر جوار
منه، فأعطيت الذي جاء بهن واحدة منهم، فما رضي بذلك، وأخذ أصحابي
ثلاثاً صغاراً منهم، وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن. والسبى هنالك رخيص
الثمن، لأنهن قدرات لا يعرفن مصالح الخضر، والعلمات رخيصات الأثمان، فلا
يفتقرب أحد إلى شراء السبي. والكافر ببلاد الهند في بر متصل وببلاد متصلة مع
المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وإنما يتنعم الكفار بالجبال والأعوار، ولم
غி�ضات من القصب، وقصبهم غير مجوف، ويعظم ويختلف بعضه على بعض، ولا
تؤثر فيه النار، وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض، وهي لهم مثل السور،
وبداخلها تكون مواشיהם وزروعهم، وهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا

يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ،
ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك .

ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان

وأطلَّ عيد الفطر ، والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة ، فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل ، وقد مهد له على ظهره شبه السرير ، وركبت أربعة أعلام في أركانه الأربع ، وليس الخطيب ثياب السواد ، وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه ، وفقهاء المدينة وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن ، وفرش ببسط ، واجتمع الناس ذاكرين الله تعالى . ثم صلَّى بهم الخطيب وخطب وانصرف الناس إلى منازلهم ، وانصرفنا إلى دار السلطان وجعل الطعام ، فحضره الملوك والأمراء ، والأعزَّة وهم الغرباء ، وأكلوا وانصرفوا .

ذكر قدوم السلطان ولقائنا له

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر اسمه تلبت (بكسر التاء المعلوقة الأولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء الأولى) ، وهي على مسافة سبعة أميال من الحضرة فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ، ومع كل انسان هديته من الخيل والجمال والفاكه الخراسانية والسيوف المصرية والماليك والغم المجلوبة من بلاد الأترال فوصلنا إلى باب القصر واجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ، ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب ، ولما وصلت إلى النوبة ، دخلت فوجده قاعداً على كرسي ، فظننته أحد الحجاج حتى رأيت معه ملك النداماء ناصر الدين الكافي الهروي ، وكنت عرفته أيام غيبة السلطان ، فخدم الحاجب ، فخدمت واستقبلني أمير حاجب ، وهو ابن عم

السلطان فيروز ، وخدمت ثانية لخدمته ، ثم قال لي ملك الندماء بسم الله ، مولانا بدر الدين . وكانوا يدعوني بأرض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافحي وأمسك بيدي وجعل يخطباني بأحسن خطاب ، ويقول لي بالفارسي ، حلت البركة ، قد وصلتك مبارك ، اجمع خاطرك ، اعمل معك من المراحم ، وأعطيك من الأنعام ، ما يسمع به أهل بلادك ، فيأتون إليك . ثم سأله عن بلادي فقلت له : بلاد المغرب فقال لي : بلاد عبد المؤمن ؟ فقلت له : نعم . وكان كلما قال لي كلاماً جيداً قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات . وخلع علي ، وانصرفت واجتمع الواردون ، فمد لهم سساط . ووقف على رؤوسهم قاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي ، وكان من كبار الفقهاء ، وقاضي قضاة المالكية صدر الجهان كمال الدين الفرزنوبي ، وعماد الملك عرض المالكية ، والملك جلال الدين الكيجي ، وجامعة من الحجاج والامراء ، وحضر كذلك خداوند زاده غياث الدين ، ابن عم خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ الذي قدم علينا ، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ وتردد إليه مراراً من بلاده . والواردون الذين خلعوا عليهم في ذلك اليوم هم خداوند زاده قوام الدين وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخيه أمير بخت ابن السيد تاج الدين ، وكان جده وجيه الدين وزير خراسان ، وكان حاله علاء الدين أمير هند وزيراً أيضاً ، والأمير هبة الله ابن الفلكي التبريزي ، وكان أبوه نائب الوزير بالعراق ، وهو الذي بنى المدرسة الفلكية بتبريز ، وملك كرای من أولاد بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى ، وهو من أهل جبل بدخشان الذي منه يجلب الياقوت البليخس واللازورد ، والأمير مبارك شاه السمرقندى ، وأزون بغـا البخاري ، وملك زاده الترمذى ، وشهاب الدين الكازرونى ، التاجر الذى قدم تبريز بالهدية إلى السلطان فسلب فى طريقه .

ذكر دخول السلطان إلى حضرته وما أمر لنا به من المراكب

وفي الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطي كل واحد منا فرساً من مراكب السلطان، عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته، وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان، وزينت الفيلة أمام السلطان، وجعلت عليها الأعلام، ورفعت عليها ستة عشر شطراً، منها مزركشة، ومنها مرصعة، ورفع فوق رأس السلطان شطرٌ منها، وحملت أمامه الغاشية، وهي ستارة مرصعة، وجعل على بعض الفيلة رعادات صغار، فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة، قذف في تلك الرعادات بالدنانير والدرارهم مختلطة، والمشاة بين يدي السلطان وسواهم من حضر يلتقطون ذلك. ولم يزالوا ينثرونها إلى أن وصلوا القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الأقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بشيات الحرير، وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك.

ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من الإحسان والولاية

ولما كان يوم الجمعة، ثاني يوم دخول السلطان، أتينا باب المشور، فجلسنا في سقائف الباب الثالث، ولم يكن الإذن حصل لنا بالدخول، وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجي، فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماءنا، وأذن لهم في دخولنا، ودخول بعض أصحابنا، وعَيْن للدخول معى ثمانية، فدخلنا ودخلوا معنا، ثم جاءوا بالبدر والقبان، وهو الميزان، وقعد قاضي القضاة والكتاب، ودعوا من بالباب من الأعزّة وهم الغرباء، فعينوا لكل نصبيه من تلك البدر، فحصل لي خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة ألف دينار، تصدقـت به أم السلطان لما قدم ابنها، وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه، ويسأل عن أحوالنا، ويخاطبنا بأجل الكلام ولقد قال لنا في بعض الأيام:

أنت شرفتنا بقدومكم فما نقدر على مكافأتكم فالكبير منكم مقام والدي ، والكهل مقام أخي ، والصغير مقام ولدي ، وما في ملكي أعظم من مدینتي هذه أعطيكم إياها فشكراً ودعونا له .

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتبات فعين لي اثنى عشر ألف دينار في السنة ، وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل ، إحداها قرية جوزة ، والثانية قرية ملك بور ، وفي بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده ، وغياب الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا : إن خوند عالم يقول لكم : من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة ، أعطيته ذلك فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم ، وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره فقال : أما الوزارة فمیراثي ، وأما الكتابة فشغلي ، وغير ذلك لا أعرفه .

وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك ، وقال لي خداوند زاده بالعربي : ما تقول أنت يا سيدي ؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربي إلا بالتسويد ^(١) ، وبذلك يخاطبه السلطان ، تعظيماً للعرب ، فقلت له : أما الوزارة والكتابة فليست شغلي ، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي ، وأما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم لما أسلمت إلا بأسياف العرب ، فلما بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامي وكان بهزار أسطون يأكل الطعام ، فبعث عنا ، فأكلنا بين يديه ، وهو يأكل ، ثم انصرفنا إلى خارج هزار أسطون ، فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان يعني الجلوس ، فاستدعاانا السلطان ثانية فحضر أصحابي ، واعتذر والله عني بعد صلاة العصر ، فصلحت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ، ثم خرج الحاجب فاستدعاانا ، فدخل خداوند زاده ضياء الدين ، وهو أكبر الإخوة المذكورين ،

(١) أي مدینادونه إلا ملقباً بالسيد .

فجعله السلطان أمير داد وهو من الأمراء الكبار ، فجلس بمجلس القاضي . فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه ، وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة ، عين له مجاشر قائدتها ذلك المقدار ، فأمر له بخمسين ألفاً عن يدِ ، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ، ومعناه صورة السبع ، لأنها تكون في صدرها وظهرها صورة سبع ، وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار مازركش فيها من الذهب ، وأمر له بفرس من الجنس الأول ، والخيل عندهم أربعة أحناس وسر وجههم كسروج أهل مصر ، ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة ، ثم دخل أمير بخت ، فأمره أن يجلس مع الوزير في مستنه ، ويقيف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبًا أربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر قائدتها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعين ألفاً عن يدِ ، وأعطى فرساً مجهزاً ، وخلع عليه كخلعة الذي قبله ، ولقب شرف الملك .

ثم دخل هبة الله بن الفلكي فجعله رسول دار ، ومعناه حاجب الإرسال ، وعين له مرتبًا أربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر يكون قائدتها بمقدار ذلك وأعطى أربعة وعشرين ألفاً عن يدِ وأعطى فرساً مجهزاً وخلعة ، وجعل لقبه بهاء الملك . ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستنداً إلى السرير ، والوزير خواجه جهان بين يديه ، والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه ، قال لي الملك الكبير : أخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي ، وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة ، وعين لك مجاشر بمقدارها ، وأمر لك باثني عشر ألفاً نقداً تأخذها من الخزانة غداً إن شاء الله ، وأعطيك فرساً بسرجه ولجامه ، وأمر لك بخلعة محاري ، وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب ، فخدمت وأخذ بيدي فتقدم بي إلى السلطان ، فقال لي السلطان : لا تحسب قضاء دهلي من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا ، وكنت أفهم قوله ، ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه ،

فقلت له : يا مولانا أنا على مذهب مالك ، وهؤلاء حنفية وأنا لا أعرف إنساناً
 فقال لي : قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ينوبان عنك
 ويشاورانك ، وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الوالد ، فقلت
 له : بل عبدكم وخديمكم فقال لي باللسان العربي ، بل أنت سيدنا وخدومنا ،
 تواضعأً منه وفضلاً وإيناساً ، ثم قال لشرف الملك أمير بخت ، إن كان الذي
 ترتب له لا يكفيه لأنه كثير الإنفاق ، فأنا أعطيه زاوية إن قدر على إقامة حال
 الفقراء ، وقال : قل له هذا بالعربي ، وكان يظن أنه يحسن العربي ولم يكن كذلك
 وفهم السلطان ذلك فقال له : برو ويكيجا بخصبي (بخصي) وأن حكاية
 بروابكوي وتفهم كني (بكني) تأفردا إن شاء الله بيشه من بيسي (و) حواب أو
 بكري (بكري) معناه : امشوا الليلة فارقدوا في موضع واحد ، وفهمه هذه
 الحكاية ، فإذا كان بالغد إن شاء الله تحييء إلي وتعلمني بكلامه ، فانصرفنا وذلك
 في ثلث الليل ، وقد ضربت النوبة . والعادة عندهم إذا ضربت لا يخرج أحد
 فانتظرنا الوزير حتى خرج ، وخرجنا معه ، ووجدنا أبواب دهلي مسدودة فبتنا
 عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي ، بزقاق يعرف بسرابور خان وكان هذا
 الشيخ يتجر بمالي السلطان ويشتري له الأسلحة والأمتدة بالعراق وخراسان . ولما
 كان بالغد بعث عنا ، فقبضنا الأموال والخيل والخلع ، وأخذ كل واحد منا
 البدرة بمال ، فجعلها على كاهله ، ودخلنا كذلك على السلطان فخدمتنا ، وأتينا
 بالأفراس فقبلنا حوافرها ، بعد أن جعلت عليها الخرق ، وقد نادينا بأنفسنا إلى
 باب دار السلطان فركبناها ، وذلك كله عادة عندهم ، ثم انصرفنا وأمر السلطان
 لأصحابه بآلفي دينار وعشرين خلعاً ، ولم يعط لأصحاب أحد سواي شيئاً وكان
 أصحابي لهم رواه ومنظر ، فأعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكراهم .

ذكر عطاء ثان أمر لي به وتوقيه مدة

و كنت يوماً بالمشور ، بعد أيام من توليفي القضاة والإحسان إلي ، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك ، وإلى جنبي مولانا ناصر الدين الترمذى العالم الواعظ ، فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين ، فدخل إلى السلطان ، فخلع عليه ، وأعطاه مصحفاً مكللاً بالجواهر ، ثم أتاني بعض الحجاب فقال : أعطني شيئاً وآخذ لك خط خرد بائني عشر ألفاً ، أمر لك بها خوند عالم فلم أصدقه وظننته يريد الحيلة على ، وهو مجد في كلامه ، فقال بعض الأصحاب : أنا أعطيه ، فأعطيه دينارين أو ثلاثة ، وجاء بخط خرد ومعناه الخط الأصغر مكتوباً بتعريف الحاجب ، ومعناه أمر خوند عالم أن يعطي من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبلیغ فلان أي بتعريفه ، ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأماء : وهم الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان ، والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام ، والأمير نكيبة الدوادار صاحب الدواة ، فإذا كتب كل واحد منهم خطه ، تذهب البراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم ، ثم تثبت في ديوان الأشراف ، ثم تثبت في ديوان النظر ، ثم تكتب البراونة ، وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ، ثم يثبتها الخازن في ديوانه ، ويكتب تلخيصاً في كل يوم ببلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال ، ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك ، ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر ألفاً ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسماً يأتي . وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد يحط منه العُشر فمن أمر له مثلاً بمائة ألفٍ ، أعطي تسعين ألفاً ، أو بعشرة آلاف أعطي تسعة آلاف .

ذكر طلب الغرماء ما لهم قبله ومدحه للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة

وكنت حسماً ذكرته قد استدنت من التجار مالاً أنفقته في طريقه ، وما صنعت به الهدية للسلطان ، وما أنفقته في إقامتي فلما أرادوا السفر إلى بلادهم أتوا عليّ في طلب ديوتهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أوها :

إليك أمير المؤمنين المبجلة
فجئت ملأً من علائق زائراً
فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذي
ولي حاجة من فيض جودك أرجوكم
أذكريها أم قد كفاني حياؤكم
فعجلْ لمن واقى محلك زائراً

أتينـا نجـدَ السـيرَ نـحـوكِ فـيـ الفـلاـ
وـمـغـناـكَ كـهـفـ لـلـزـيـارـةـ أـهـلـاـ
لـكـنـتـ لـأـعـلـاهـ إـمـامـاـ مـؤـهـلـاـ
سـجـايـاهـ حـتـأـ أـنـ يـقـولـ وـيفـعـلـاـ
قـضـاـهـاـ وـقـصـدـيـ عـنـدـ مـجـدـكـ سـهـلـاـ
فـإـنـ حـيـاـكـ ذـكـرـهـ كـانـ أـجـلاـ
قـضـاـ دـيـنـهـ إـنـ الغـرـمـ تـعـجـلاـ

فقدتها بين يديه ، وهو قاعد على كرسي ، فجعلها على ركبته ، وأمسك طرفها بيده ، وطرفها الثاني بيدي . و كنت إذا أكملت بيتاً منها أقول لقاضي القضاة كمال الدين الغزنوي بين معناه لخوند عالم ، فيبينه ويعجب السلطان وهم يحبون الشعر العربي فلما بلغت إلى قوله : فعجل لمن وافي ، البيت ، قال : مرحمة و معناه : ترحت عليك فأخذ الحجاب حينئذ بيد ليذهبوا بي إلى موقفهم ، وأخدم على العادة فقال السلطان اتركوه حتى يكملها فأكملتها و خدمت ، وهنأني الناس بذلك ، وأقمت مدة ، وكتبت رفعاً ، وهم يسمونه عرض داشت ، فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند ، فدفعه للسلطان فقال له : امض إلى خواجه جهان فقل له : يعطي دينه فمضى إليه وأعلمه ، فقال : نعم وأبطأ ذلك أياماً وأمره

السلطان في خلاها بالسفر إلى دولة آباد وفي أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد ، وسافر الوزير ، فلمأخذ شيئاً منها إلا بعد مدة . والسبب الذي توقف به عطاوها أذكه مستوف وهو أنه لما عزم الذين كان لهم على الدين إلى السفر ، قلت لهم : إذا أنا أتيت دار السلطان فدرهوني^(١) على العادة في تلك البلاد ، لعلمي أن السلطان متى يعلم بذلك خلصهم ، وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فإذا أراد الدخول قال له : دروهي ، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصني ، فلا يمكنه ان يبرح من مكانه حتى يخلصه ، أو يرغب إليه في تأخيره . فاتفق يوماً أن خرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه ، ونزل بقصر هنالك فقلت لهم : هذا وقتكم ، فلما أردت الدخول ، وقفوا لي بباب القصر فقالوا لي دروهي السلطان ما تدخل حتى تخلصنا . وكتب كتاب الباب بذلك إلى السلطان ، فخرج حاجب قصة شمس الدين ، وكان من كبار الفقهاء ، فسألهم لا ي شيء درهتموه ؟ فقالوا : لنا عليه الدين فرجع إلى السلطان فأعلمه بذلك ، فقال له : أسألكم مبلغ الدين ؟ فقالوا له خمسة وخمسون ألف دينار ، فعاد إليه فأعلمه فأمره أن يعود إليهم ، ويقول لهم : إن خوند عالم يقول لكم : المال عندي وانا أنصفكم منه فلا تطلبوا به وأمر عماد الدين السمناني وخداؤند زاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار أسطوان ، ويأتي أهل الدين بعقودهم ، وينظروا إليها ، ويتحققوا ففعلاً ذلك وأتى الغرماء بعقودهم فدخلوا إلى السلطان وأعلماه بثبوت العقود ، فضحك وقال : مازحاً : أنا أعلم أنه قاض جهز شغله فيها ثم أمر خداوند زاده أن يعطيي ذلك من الخزانة فطمع في الرشوة على ذلك وامتنع أن يكتب خط خرد ، فبعثت إليه مائة تركة ، فردها ولم يأخذها وقال لي عنه بعض خدامه : إنه طلب خمسة تبة فامتنتع من ذلك وأعلمت عميد الملك بن

(١) أي : فتعلقوا في على باب دار السلطان مطالبين بديونكم .

عماد الدين السمناني بذلك ، فأعلم به أباه وأعلمه الوزير ، وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فأعلم السلطان بذلك ، وذكر له كثيراً من أفعال خداوندزاده ، فغير خاطر السلطان عليه ، فأمر بحبسه في المدينة وقال : لأي شيء أعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطي خداوندزاده شيئاً إذا منعه أو يمنعه إذا أعطيته فلهذا السبب توقف عطاء ديني .

ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجي معه وما صنعت في ذلك

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير ترخيص ، و كنت قد أعددت ما يحتاج إليه ، و عملت ترتيب أهل الهند ، فاشترت سراحة ، وهي أفراح وضر بها هنالك مباح ولا بد منها لكتاب الناس ومتاز سراحة السلطان بكونها حمراء ، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق ، و اشتريت الصيوان ، وهو الذي يظل به داخل السراحة ، ويرفع على عمودين كبيرين ويجعل ذلك الرجال على أنفاسهم ، ويقال لهم اليكوانية^(١) والعادة هنالك أن يكتري المسافر اليكوانية ، وقد ذكرناهم ، ويكتري من يسوق له العشب لعل الدواب لأنهم لا يطعمونها التبن ويكتري الكهارين ، وهم الذين يحملون أواني المطبخ ، ويكتري من يحمله في الدولة ، وقد ذكرناها ، ويحملها فارغة ، ويكتري الفراشين ، وهم الذين يضربون السراحة ، ويفرشونها ، ويرفعون الأحوال على الجمال ، ويكتري الدوادوية ، وهم الذين يمشون بين يديه ، ويحملون المشاعل بالليل ، فاكتريت أنا جميع من احتجت له منهم ، وأظهرت القوة والهمة ، وخرجت يوم خروج السلطان وغيري أقام بعده اليومين والثلاثة ، فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل ، وقصده أن يتطلع على أحوال

(١) في بعض طبعات الكتاب : الكيوانية ، والله أعلم بالصواب .

الناس ، ويعرف من تسارع إلى الخروج ، ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسي ، فجئت وسلمت ووقفت في موقفي بالميمنة ، فبعث إلى الملك الكبير قبولة سر جامدار ، وهو الذي يشرد الذباب عنه ، فأمرني بالجلوس عنابة بي ، ولم يجلس في ذلك اليوم سوى ثم أتى بالفيل ، وألصق به سلم فركب عليه ، ورفع الشطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ، ثم عاد إلى السراجة . وعادته إذا ركب ، أن يركب الأمراء أفواجاً كل أمير بفوجه وعلاماته وطبلوه وأنفاره وصرنایاته يسمون ذلك المراتب ، ولا يركب أمام السلطان ، إلا الحجاب وأهل الطرق والطالية الذين يتقلدون الأطبال الصغار ، والذين يضربون الصرنایات . ويكون عن مين السلطان نحو خمسة عشر رجالاً ، وعن يساره مثل ذلك ، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزاء ، وكانت أنا من أهل ميمنته ، ويكون بين يديه المشاة والأدلة ، ويكون خلفه علماته ، وهي من الحرير المذهب ، والأطبال على الجمال وخلف ذلك ماليكه ، وأهل دخلته ، وخلفهم الأمراء وجميع الناس ، ولا يعلم أحد أين يكون النزول فإذا مر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ، ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته ، ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزلون ، كل واحد في منزله خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار ، وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمنة والكراكي وغيرها من أنواع الصيد ، ويحضر أبناء الملوك في يد كل واحد منهم سفود ، ويوقلون النار ويشعرون بذلك ، ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ، ويؤتى بالطعام ، ويستدعي من شاء فيأكل معه ، وكان في بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عنم بخارجها ، فقال له السيد ناصر الدين مظہر الأوھري أحد ندامائه ثم فلان المغربي ، وهو متغير فقال لماذا : فقال : بسبب الدين الذي عليه وغماؤه يلحون في الطلب وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك فإن طلب مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير أو أمر بإنصافهم . وحضر لهذا

الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعلم فقال: يا خوند عالم كل يوم وهو يكلمني بالعربية ولا أدرى ما يقول يا سيد ناصر الدين ماذا ، وقصد أن يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لأجل الدين الذي عليه فقال السلطان إذا دخلنا دار الملك ، فامض أنت يا أوamar ، ومعناه: يا عم إلى الخزانة ، فأعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضراً ، فقال يا خوند عالم إنه كثير الإنفاق ، وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين . وبعد هذا الكلام استحضر في السلطان للطعام ، ولا علم عندي بما جرى فلما خرجت قال لي السيد ناصر الدين :أشكر للملك دولة شاه وقال لي الملك دولة شاه: أشكر لخداوندزاده . وفي بعض تلك الأيام ، ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة ، وكان طريقه على منزلي وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقية ، وكان لي خباء عند السراحة ، فوقف أصحابي عندها ، وسلموا على السلطان فيبعث عباد الملك وملك دولة شاه ليسأل من تلك الأخيبة والسراحة فقيل لها : لفلان فأخبراه بذلك فتبسم . فلما كان بالغد ، نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مظير الأوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح إلى البلد ، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة .

ذكر الجمل الذي أهديته للسلطان

وكان السلطان في تلك الأيام سأله عن الملك الناصر هل يركب الجمل ، فقلت : نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر في عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد . وأخبرته أن عندي جلاً منها فلما عدت إلى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لي صورة الكور الذي تركب المهاري به من القير ، وأريتها بعض التجارين فعمل الكور وأتقنه وكسوته بالملف ، وصنعت له ركباً وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلوا ، فصنع منها ما يشبه

التمر وغيره، وبعثت الجمل والحلوا إلى السلطان وأمرت الذي حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجلين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال: يا خوند عالم رأيت العجب قال: وما ذلك؟ قال: فلان بعث جلاً عليه سرج فقال: ائتوا به. فأدخل الجمل داخل السراجة، وأعجب به السلطان، وقال لراجي: اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة، وعاد الرجل إلى فأعلمته فسرني بذلك وأهديت له جلين بعد عودته إلى الحضرة.

ذكر الجملين اللذين أهديتها إليه والحلوا وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك

ولما عاد إلى راجي الذي بعثته بالجمل، فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين، وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسواً بصفائح الفضة المذهبة وكسوتها بالملف وصنعت رستاً مصفحاً بصفائح الفضة المذهبة، وجعلت لها جلين من زردخانة مبطنين، بالكمخا، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة، وصنعت أحد عشر طيفوراً، وملأتها بالحلوا، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير، فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام، غدوت عليه بالجمال، فأمر بها، فحركت بين يديه، وهرولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين ابن الفلكي: باين ورداري، معنى ذلك: ارفع الخلخال، فرفعه ثم نظر إلى الطيفير فقال: جداري (جه داري) درآن طبقها حلوا است، معنى ذلك: ما معك في تلك الأطباق، حلوا هي؟ فقلت له: نعم فقال للفقهي ناظر الدين الترمذى الواقع: ما أكلت قط، ولا رأيت مثل الحلوا التي بعثها علينا ونحن بالعسكر، ثم أمر بتلك الطيفير أن ترفع لموضع جلوسه فرفعت وقام إلى مجلسه، واستدعاني، وأمر بالطعام، فأكلت ثم سألني عن نوع

الحلواء الذي بعثت له : فقلت له : يا خوند عالم ، تلك الحلواء أنواعها كثيرة ، ولا
 أدرى عن أي نوع تسألون منها فقال : إيتوا بتلك الأطباق وهم يسمون الطيفور
 طبقاً ، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها ، فقال : عن هذا سألك ، وأخذ
 الصحن الذي هي فيه فقلت له : هذه يقال لها المقرضة ، ثم أخذ نوعاً آخر فقال :
 وما اسم هذه ؟ فقلت له هي لقيمات القاضي . وكان بين يديه تاجر من شيوخ
 بغداد يعرف بالسامري ، وينتسب إلى آل العباس رضي الله تعالى عنه ، وهو كثير
 المال ويقول له السلطان والدي ، فحسدني وأراد أن يخجلني فقال : ليست هذه
 لقيمات القاضي ، بل هي هذه وأخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان
 يازائه ملك النداء ناصر الدين الكافي الهروي ، وكان كثيراً ما يمازح هذا الشيخ
 بين يدي السلطان فقال : يا خواجة أنت تكذب والقاضي يقول الحق . فقال له السلطان
 وكيف ذلك ؟ فقال : يا خوند عالم هو القاضي وهي لقياته ، فإنه أتى بها فضحك
 السلطان وقال : صدقت . فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد
 ذلك وأخذنا التتبول وانصرفنا فلم يكن غير هنيةه وأثناني الخازن فقال : ابعث
 أصحابك يقبضون المال ، فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب فوجدت المال
 بها وهو ثلث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة ، وذلك صرف
 الخمسة والخمسين ألفاً التي هي دين علي ، وصرف الاثنين عشر ألفاً التي أمر لي بها
 فيما تقدم ، بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من
 ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضرة

وفي تاسع جادى الأولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المغير ، وقتل القائم بها
 وكانت قد خلصت أصحاب الدين ، وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتب تسعه
 أشهر للكهاريين والفراشين والكيوانية والدواودية ، وقد تقدم ذكرهم فخرج
 الأمر يقامتي في جلة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له ،

وتلك عادتهم خوفاً من أن ينكر المبلغ ، وأمر لي بستة آلف دينار دراهم ، وأمر
لابن قاضي مصر عشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الأuze ، وأما البلديون
فلم يعطوا شيئاً ، وأمر لي السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين ،
الذى تقدم ذكره . وكان السلطان يعظم تربته تعظيمًا شديداً ، لأنه كان خديعًا له
ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبله و يجعله فوق رأسه . وعادتهم أن يجعلوا
نعل الميت عند قبره فوق متکأة . وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم
أيام حياته ، وكان يعظم زوجته ، ويدعوها بالأخت وجعلها مع حرمته وزوجها
بعد ذلك لابن قاضي مصر ، واعتنى به من أجلها وكان يضي لزياراتها في كل
جمعة . ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضي مصر فقال : أنا لا أودع
ولا أفارق خوند عالم ، فكان له في ذلك الخير ، فقال له السلطان : إمض فتجهز
للسفر ، وقدمت بعده للوداع ، وكنت أحب الإقامة ، ولم تكن عاقبتها محمودة ،
فقال : مالك من حاجة فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لي : تكلم بلسانك
فقلت له إن خوند عالم أمر لي بالقضاء ، وما قعدت لذلك بعد وليس مرادي
من القضاء الا حرمته فأمرني بالقعود للقضاء وقعود الناثبين معى ، ثم قال لي : إيه ؟
فقلت وروضة السلطان قطب الدين ، ماذا أفعل بها ؟ فإني رتبت فيها أربعاء
وستين شخصاً ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامهم . فقال للوزير بنجاه
هزار ومعناه خمسين الفاً ثم قال : لا بد لك من غلة بدية يعني أعطه مائة الف من
من الغلة ، وهي القمع والأرز ، ينفقها في هذه السنة حتى تأتي غلة الروضة والمن
عشرون رطلاً مغربية . ثم قال لي ماذا أيضاً فقلت : إن أصحابي سجنوا بسبب
القرى التي أعطيتهموني ، فإني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ما وصلني منها
او الاستظهار بأمر خوند عالم أن يرفع عنى ذلك فقال لهم وصلك منها فقلت
خمسة آلاف دينار فقال هي إنعام عليك فقلت له : وداري التي أمرت لي بها مفتقرة
إلى البناء فقال للوزير : عمارة كنيد ، أي معناه عمروها ثم قال لي : ديكر غاند ، معناه

هل بقي لك كلام؟ فقلت له: لا فقال لي: وصيحة ديكر هست، معناه: او صيك ان لا تأخذ الدين لثلا تطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إلي. أنفق على قدر ما أعطيتك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عَنْقَكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلُّ الْبَسْطِ﴾^(١) ﴿وَكُلُوا وَاشْرُبُوا وَلَا تَسْرُفُوا﴾^(٢) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرُفُوا وَلَمْ يَقْتَرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾^(٣) فأردت أن أقبل قدمه، وأمسك رأسه بيده فقبلتها وانصرفت وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار، أعطيت منها من الديوان ستائة دينار، وزدت عليها الباقي، وبنيت بيازائها مسجداً واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان قد أمرني أن تبني عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع، بزيادة عشرين ذراعاً على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق، وأمر أن تشتري ثلاثة ثلثون قرية تكون وقفاً عليها، وجعلها بيدي علي أن يكون لي العشر من فائدتها على العادة.

ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيباً كترتيبهم بقيد الحياة، ويؤتى بالفيلة والخيل فترتبط عند باب البيرة، وهي مزينة. فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين، وهم يسمونهم الختميين، ورتبت من الطلبة ثمانين، ومن المعدين، ويسمونهم المكررين، ثمانية، ورتبت لها مدرساً، ورتبت من الصوفية ثمانين، ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعরفين، وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب، ورتبت صنفاً آخر يعرفون بالحاشية، وهم الفراشون والطباخون

(١) الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) الفرقان، الآية: ٦٧.

والدوادوية والأبدارية، وهم السقاءون والشربدارية الذين يسقون الشربة، والتبول دارية الذين يعطون التبول والسلحدارية والنيدارية والشطر دارية والطشت دارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين، وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر مناً من الدقيق ومثلها من اللحم، فرأيت أن ذلك قليل، والزرع الذي أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين مناً من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر، والنبات، والسمن، والتبول، وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد وكان الغلاء شديداً فارتافق الناس بهذا الطعام وشاء خبره، وسافر الملك صبيح إلى السلطان بدولة آباد سأله عن حال الناس. فقال له لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد، فأعجب ذلك السلطان، وبعث إلى بخلعة من ثيابه وكانت أصنع في المواسم وهي العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من الدقيق ومثلها لحماً فيأكل الفقراء والمساكين، وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه ولذكر عادتهم في ذلك.

ذكر عادتهم في إطعام الناس في الولائم

وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السرا أنه إذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص، وجعل عليه الرقاق، ورأس غنم مشوي، وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوئة بالحلواء الصابونية مغطاة بأربع قطع من الحلوا كأنها الأجر وطبقاً صغيراً مصنوعاً من الجلد فيه الحلوا والسموسك، ويعطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد. ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأسه غنم، ويسمونه الزلة ومقدار النصف ما ذكرناه. ومن كان دون هؤلاء أيضاً جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه واول

ما رأيتم يصنعون هذا بمدينة السرا حضرة السلطان أوزبك ، فامتنعت أن يرفع
رجالـي ذلك إذ لم يكن لي به عهد وكذلك يبعثون أيضاً لدار كراء الناس من
طعام الولائم .

ذکر خروجی إلی هزار أمروها

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف، ونفذ لي الباقي في هزار أمروها. وكان واي الخراج بها عزيز الخمار، وأميرها شمس الدين البذخاني. فبعثت رجالي فأخذوا بعض الإحالة، وتشكوا من تعسف عزيز الخمار. فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك. وبين دهلي وهذه العالة ثلاثة أيام، وكان ذلك في أوان نزول المطر. فخرجت في نحو ثلثين من أصحابي، واستصحت معي أخرين من المغنين المحسنين يعنيان لي في الطريق، فوصلنا إلى بلدة بجنور، وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها أيضاً ثلاثة إخوة من المغنين، فاستصحتهم. فكانوا يغنوون لي نوبة والآخران نوبة.

ثم وصلنا إلى أمروها وهي بلدة صغيرة حسنة، فخرج عمالها للقاءي، وجاء قاضيها الشريف أمير علي، وشيخ زاويتها، وأضافاني معاً ضيافة حسنة. وكان عزيز الخمار بموضع يقال له: أفغان بور، على نهر السرو. وبيننا وبينه النهر، ولا معدية فيه. فأخذنا الأثقال في معدية صنعتها من الخشب والنبات، وجزنا في اليوم الثاني. وجاء نحيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه، وضرب لنا سراجمة. ثم جاء أخوه الوالي، وكان معروفاً بالظلم، وكانت القرى التي في عمالته ألفاً وخمسين قرية، ومجابها ستون لكاً في السنة، له فيها نصف العشر. ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه، أنه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر، ولا تسقى منه

دابة . ولقد أقمنا عليه ثلاثة . فما غرف منه أحد غرفة ، ولا كدنا نقرب منه ، لأنه ينزل من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب ، وير على الخشاش المسمومة ، فمن شرب منه مات . وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر ، وينزل منه إلى بلاد ثبت حيث غزلان المسك . وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل . وبهذا الموضع جاء إلى جماعة من الفقراء الحيدرية ، وعملوا السباع ، وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم . وقد ذكرنا ذلك . وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البذخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة . وجاء شمس الدين لقتاله ، فامتنع منه بداره . وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدھلی ، فبعث إلى الوزير وإلى الملك شاه أمیر المھالیک بأمرها ، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان ، وإلى شهاب الدين الرومي أن ننظر في قضيتها . فمن كان على الباطل بعثناه مثفأ إلى الحضرة . فاجتمعوا جميعاً بمزنلي وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى . منها أن خديماً له يعرف بالرضي الملطاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر ، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن . فاستفهمت الرضي عن ذلك فقال لي : ما شربت الخمر منذ خروجي من ملتان ، وذلك منذ ثمانية أعوام . فقلت له : أو شربتها بملتان ؟ قال : نعم ، فأمرت مجلده ثمانين وسبعينه بسبب الدعوى للوث^(١) ظهر عليه . وانصرفت عن أمرها . فكانت غيبتي نحو شهرين ، و كنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة . وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحله عليه . فوزع على أهل القرى التي لنظره ثلاثة ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة . وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر ، وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار . وركوب الحمير عندهم عيب كبير . وحميرهم صغار الأجرام ، يسمونها اللاشة ، وإذا أرادوا إشهار أحدهم بعد ضربه أركبوه . الخمار .

(١) اللوث : البينة الضعيفة غير الكاملة .

ذكر مكرمة لبعض الأصحاب

وكان السيد ناصر الدين الأوهري قد ترك عندي لما سافر ألفاً وستين تناة، فنصرفت فيها، فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خداوندزاده قوام الدين، وكان قد قدم نائباً على الوزير. فاستقبحت أن أقول له: تصرفت في المال. فأعطيته نحو ثلثة. وأقمت بداري أياماً. وشاع أنني مرضت. فأتي ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزياري. فلما رأني قال: ما أرى بك مرضًا؟ فقلت له: إني مريض القلب. فقال لي: عرفني بذلك. فقلت له: أبعث إليك شيخ الإسلام أعرفه به. فبعثه إليَّ فأعلمه، فعاد إليه فأعلمه. فبعث إليَّ بألف دينار دراهم. وكان له عندي قبل هذا ألف ثانٍ. ثم طلب مني بقية المال. فقلت في نفسي: ما يخلصني منه إلا صدر الجهان المذكور، لأنه كثير المال. فبعثت إليه بفرس مسرج، قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار، وبغلتين قيمتها ألف ومائتا دينار، وبتركتش فضة، وبسيفين غمدانها مغشيان بالفضة. وقلت له: أنظر قيمة الجميع، وابعث إليَّ ذلك. فأخذ ذلك. وعمل لجمعيه قيمة ثلاثة آلاف دينار. فبعث إليَّ ألفاً، واقتطع الألفين. فتغير خاطري، ومرضت بالحمى، وقلت لنفسي: إن شكوت به إلى الوزير افتضحت. فأخذت خمسة أفراس وجاريتين وملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمناني وهو فقي السن، فرد على ذلك، وبعث إليَّ مائتي تناة وأغزر، وخلصت من ذلك المال. فشتان بين فعل محمد ومحمد

ذكر خروجي من محلة السلطان

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التلنك، ووقع الوباء

بعسكره، فعاد إلى دولة آباد، ثم وصل إلى نهر الكنك فنزل عليه، وأمر الناس بالبناء. وخرجت في تلك الأيام إلى محلته، واتفق ما سردهناه من مخالفة عين الملك، ولازمت السلطان في تلك الأيام، وأعطياني من عتاق الخيل، لما قسمها على خواصه، وجعلني فيهم، وحضرت معه الواقعة على عين الملك والقبض عليه، وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو، لزيارة قبر الصالح البطل سالار عود (مسعود)، وقد استوفيت ذلك كله، وعدت معه إلى حضرة دهلي لما عاد إليها.

ذكر ما هم به السلطان من عقابي وما تداركتني من لطف الله تعالى

وكان سبب ذلك أني ذهبت يوماً لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام، بالغار الذي احتفظ خارج دهلي، وكان قصدي رؤية ذلك الغار. فلما أخذه السلطان، سأله أولاده عنمن كان يزوره، فذكروا أنا من جملتهم. فأمر السلطان أربعة من عبيده بعذري بالمشور. وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص. فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة، فألهمني الله تعالى إلى تلاوة قوله: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾^(١) فقرأتها ثلاثاً وثلاثين ألف مرة، وبت بالمشور، وواصلت إلى خمسة أيام، في كل يوم منها أختم القرآن وأفطر على الماء خاصة، ثم أفطرت بعد خمس، وواصلت أربعاً، وتخلصت بعد قتل الشيخ، والحمد لله تعالى.

ذكر انقضائي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقضت عن الخدمة، ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد

(١) آل عمران، الآية: ١١٧.

الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبدالله الغاري، وكان من الأولياء، وله كرامات كثيرة، فقد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه. وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ، ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين. وكان الشيخ يواصل عشرة أيام، وربما واصل عشرين. فكنت أحب أن أوacial، فكان ينهالي ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة، ويقول لي: إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقي. وظهر لي من نفسي تكاسل بسبب شيء بقي معه، فخرجت عن جميع ما عندي من قليل وكثير، وأعطيت ثياب ظهري لفقير، ولبست ثيابه. ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر، والسلطان إذ ذاك غائب بلاد السند.

ذكر بعث السلطان عني وإباضتي الرجوع إلى الخدمة واجتهادي في العبادة

ولما يلغه خبر خروجي عن الدنيا استدعاني وهو يومئذ بسوستان، فدخلت عليه في زي القراء، فكلماني أحسن كلام وألطفة، وأراد مني الرجوع إلى الخدمة فأبيت، وطلبت منه الإذن في السفر إلى الحجاز، فأذن لي فيه، وانصرفت عنه، ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير، وذلك في أواخر جادى الثانية سنة اثنين وأربعين. فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان، وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام، وأفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام. وكنت أقرأ القرآن كل يوم، وأتهجد بما شاء الله. وكنت إذا أكلت الطعام آذاني، فإذا طرحته وجدت الراحة. وأقمت كذلك أربعين يوماً، ثم بعث عني ثانية.

ذكر ما أمرني به من التوجّه إلى الصين في الرسالة

ولما كملت لي أربعون يوماً بعث إلى السلطان خيلاً مسرحة وجواري وغلاناً وثياباً ونفقة، فلبست ثيابه وقصدته. وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة، لبستها أيام اعتكافي. فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسي. وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نوراً في باطني، ولم تزل عندي إلى أن سلبني الكفار في البحر. ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهد، وقال لي: إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولاً إلى ملك الصين. فإني أعلم حبك في الأسفار والجولات. فجهزني بما أحتاج له، وعين للسفر معي من يذكر بعد.

ذكر سبب بعث المدية للصين
وذكر من بعث معى وذكر المدية

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية وخمساً ثوب من الكمخا ، منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا ، وخمسة أمنان من المسك ، وخمسة أنواع مرصعة بالجوهر ، ومثلها من التراكس مزركشة ، ومثلها سيف . وطلب من السلطان يأذن له في بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ، ويعرف الموضع الذي هو به بسمهل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الماء) . وإليه يحج أهل الصين . وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخرابوه وسلبوه . ولما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه بأن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا من يعطي الجزية . فإن رضيت بإعطائها أبجنا لك بناء والسلام على من اتبع المهدى . وكافية على هديته بغير منها ، وذلك مائة

فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند،
مغنيات ورواقص، ومائة ثوب بيرمية، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن،
قيمة الثوب منها مائة دينار، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم
الجيم وزاي)، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغاً بخمسة ألوان وأربعة،
ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية، ومثلها من الشيرين باف، ومثلها من
الشان باف، وخمسة ثوب من المرعز، مائة منها سود، ومائة بيض، ومائة حمر،
ومائة خضر، ومائة زرق، ومائة شقة من الكتان الرومي، ومائة فضلة من الملف،
رساجة، وست من القباب، وأربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة
منيلة، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها، وستة طسوت من
انفضة، وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشر شواش من لباسه،
إحداها مرصعة بالجوهر، وعشرة تراكتش مزركشة، وأحددها مرصع بالجواهر،
وعشرة من السيوف، أحددها مرصع الغمد بالجوهر، ودشت بان (دستان) وهو
قفاز مرصع بالجواهر، وخمسة عشر من الفتياں. وعين السلطان للسفر معه بهذه
المدية الأمير ظهير الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم، والفقى كافور
الشريدار، وإليه سلمت المدية، وبعث معنا الأمير محمد الهموي في ألف فارس
ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر. وتوجه صحبتنا أرسال ملك
الصين، وهم خمسة عشر رجلاً، يسمى كبيرهم ترسى، وخدمتهم نحو مائة
رجل. وانفصلنا في جمع كبير وحملة عظيمة، وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة
سفرنا ببلاده.

وكان سفرنا في السابع عشر شهر صفر سنة ثلاثة وأربعين، وهو اليوم الذي
اختاروه للسفر، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر الثانية، أو سابعه أو الثاني
عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين. فكان نزولنا في
أول مرحلة منزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي.

ورحلنا منها إلى منزل هيلوور^(١) ، ورحلنا منه إلى مدينة بيَانَة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) ، وهي كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ، ومسجدها الجامع من أبدع المساجد ، وحيطانه وسقفه حجارة . والأمير بها مظفر ابن الداية ، وأمه هي داية للسلطان . وكان بها قبله الملك مجير ابن أبي الر جاء ، أحد كبراء الملوك ، وقد تقدم ذكره ، وهو ينتمي إلى قريش وفيه تجبر ، وله ظلم كثير . قتل من أهل هذه المدينة جملة ، ومثل بكثير منهم .

ولقد رأيت من أهلها رجالاً حسن الهيئة قاعداً في أسطوان منزله ، وهو مقطوع اليدين والرجلين . وقدم السلطان مرة على هذه المدينة ، فتشكى الناس من الملك مجير المذكور . فأمر السلطان بالقبض عليه ، وجعلت في عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير ، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم ، فأمره السلطان بإراضيهم ، فأرضاهم بالأموال . ثم قتله بعد ذلك . ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام العالم عز الدين الزبيري من ذرية الزبير ابن العوام رضي الله عنه ، أحد كبار الفقهاء الصلحاء . لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البناني ، المعروف بأعظم ملك . ثم رحلنا من بيَانَة فوصلنا إلى مدينة كُول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين ، وأكثر أشجارها العنبا . ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح . ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن العارفين ، وهو مكفوف البصر معمر ، وبعد ذلك سجنه السلطان ، ومات في سجنه ، وقد ذكرنا حديثه .

ذكر غزوة شهدناها بـ كول

ولما بلغنا إلى مدينة كول ، بلغنا أن بعض كفار الهند حاصروا بلدة الجلالي

(١) في بعض طبعات الكتاب ، ورحلنا منه إلى منزل هيلو .

وأحاطوا بها، وهي على مسافة سبعة أميال من كول. قصدناها والكافر يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف، ولم يعلم الكفار بنا، حتى صدقنا الحملة عليهم، وهم في نحو ألف فارس، وثلاثة آلاف راجل، فقتلناهم عن آخرهم، واحتويانا على خيلهم وأسلحتهم، واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارساً وخمسة وخمسون راجلاً، واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت المدية مسلمة بيده. فكتبتنا إلى السلطان بخبره، وأقمنا في انتظار الجواب. وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع، فيغيرون على نواحي بلدة الجلاли. وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أسير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم.

ذكر محنتي بالأسر وخلاصي منه وخلاصي من شدة بعده على يد ولی من أولياء الله تعالى

وفي بعض تلك الأيام ركبت في جماعة من أصحابي، ودخلنا بستانًا نقيل فيه، وذلك في فصل القتيبة. فسمينا الصياح، فركبنا ولحقنا كفاراً أغروا على قرية من قرى الجلالي. فاتبعناهم فتفرقوا، وتفرق أصحابنا في طلبهم. وانفردت في خمسة من أصحابنا. فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيبة هنالك، ففررنا منهم لكثتهم. واتبعني نحو عشرة منهم، ثم انقطعوا عني إلا ثلاثة منهم. ولا طريق بين يدي، وتلك الأرض كثيرة الحجارة. فنشبت يد فرسي بين الحجارة فنزلت عنه، واقتلت پده، وعدت إلى ركوبه. والعادة بالهنود أن يكون مع الإنسان سيفان أحدهما معلق بالسراج ويسمى الركابي والآخر في الترکش. فسقط سيفي الركابي من غمده، وكانت حلبيه ذهباً، فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت، وهم في أثرى. ثم وصلت إلى خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه فكان آخر عهدي بهم.

ثم خرجت إلى وادٍ في وسط شجراء ملتفة في وسطها طريق. فمشيت عليها ولا أعرف منهاها، فبینا أنا في ذلك خرج على نحو أربعين رجلاً من الكفار بآيديهم القسي فأحدقوا بي، وخفت أن يرموني رمية رجل واحد إن فررت منهم. وكنت غير متدرع، فألقيت بنفسي إلى الأرض، واستأسارت. وهم لا يقتلون من فعل ذلك، فأخذوني وسلبوني جميع ما علي، غير جبة وقميص وسروال، ودخلوا بي إلى تلك الغابة، فانتهوا بي إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار، وأتوبي بخنزير ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء. وكان معهم مسلمان، كلما في بالفارسية، وسألاني عن شيء، فأخبرتها ببعضه وكتمتها أني من جهة السلطان فقالا لي: لا بد أن يقتلوك هؤلاء أو غيرهم، ولكن هذا مقدمهم. وأشاروا إلى رجل منهم، فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له. فوكل بي ثلاثة منهم، أحدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث. وكلمني أولئك الثلاثة، ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلي واحتملوني عشي النهار إلى كهف. وسلط الله على الأسود حمى مرعدة، فوضع رجليه على، ونام الشيخ وابنه. فلما أصبح الصباح، تكلموا فيما بينهم، وأشاروا إلى بالنزول معهم إلى الحوض، وفهمت أنهم يريدون قتيلى. فكلمت الشيخ وتلطفت إليه فرق لي، وقطعت كمي قميصي وأعطيته إياها، لكي لا يأخذه أصحابه في إن فررت.

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاماً عند الحوض، فظنوا أنهم أصحابهم. فأشاروا إلى بالنزول معهم، فنزلنا ووجدنا قوماً آخرين، فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم فأبوا. وجلس ثلاثة أمامي، وأنا مواجه لهم. ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض، وأنا أنظر إليهم وأقول في نفسي، بهذا الحبل يربطوني عند القتل. وأقمت كذلك ساعة، ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني، فتكلموا معهم، وفهمت أنهم قالوا لهم: لأي شيء ما قتلتكموه؟ فأشار الشيخ إلى الأسود، كأنه اعتذر بمرضه. وكان أحد هؤلاء الثلاثة شاباً حسن

الوجه ، فقال لي : أتريد أن أسر حك ؟ فقلت : نعم . فقال : اذهب . فأخذت الجبة التي كانت علي فأعطيته إياها ، وأعطياني منيّة بالية عنده وأراني الطريق ، فذهبت وخفت أن يbedo لهم ، فيدركونني . فدخلت غيضة قصب وأخفيت نفسي فيها إلى أن غابت الشمس .

ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب ، فأفضت بي إلى ماء فشربت منه ، وسرت إلى ثلث الليل ، فوصلت إلى جبل ، فنمت تحته . فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى إلى جبل من الصخر عالٍ فيه شجر ألم غilan والسدر ، فكنت أجني النبق فأكله حتى أثر الشوك في ذراعي آثاراً هي باقية حتى الآن .

ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزروعة قطناً ، وبها أشجار الخروع ، وهنالك بابين ، والبابين عندهم بئر متعددة جداً مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها إلى ورد الماء وبعضاً يكمن في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والستائر وال المجالس ، ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرق التي لا ماء بها ، وسنذكر بعض ما رأيناها منها فيما بعد . ولما وصلت إلى البابين شربت منه وووجدت عليه شيئاً من عساليج الخردل ، قد سقطت من غسلها ، فأكلت منها ، وادخرت باقيها ، ونمت تحت شجرة خروع . فبينما أنا كذلك إذ ورد البابين نحو أربعين فارساً مدرعين ، فدخل بعضهم إلى المزرعة . ثم ذهبوا ، وطمسم الله أبصارهم دوني . ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ، ونزلوا إلى البابين . وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التي كنت تحتها ، فلم يشعر بي ، ودخلت إذ ذاك في مزرعة القطن ، وأقمت بها بقية نهاري . وأقاموا على البابين يغسلون ثيابهم ويلعبون . فلما كان الليل هدأت أصواتهم . فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا ، فخرجت حينئذ ، واتبعت أثر الخيل والليل مقمر ، وسرت حتى انتهيت إلى باب آخر عليه قبة ، فنزلت إليه وشربت من مائه ، وأكلت من

عساليج الخردل التي كانت عندي ، ودخلت القبة فوجدت بها ملؤه بالعشب مما يجمعه الطير ، فنمت بها . وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما ي من الجهد . فلما أصبحت سلكت طريقاً واسعة تفضي إلى قرية خربة ، وسلكت سوهاها ، فكانت كمثلها . وأقمت كذلك أياماً ، وفي بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة ، بينها حوض ماء ، وداخلها شبه بيت ، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره . فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني إلى العماره . ثم إني وجدت يسير قوة ، فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ، ووجدت ثوراً عليه بردة ومنجل ، فإذا تلك الطريق تفضي إلى قرية الكفار . فاتبعت طريقاً آخر ، فأنقضت بي إلى قرية خربة . ورأيت بها أسودين عريانين فخفتها ، وأقمت تحت أشجار هنالك . فلما كان الليل دخلت القرية ، ووجدت داراً في بيت من بيوتها شبه خabyة كبيرة ، يصنعونها لاحتزان الزرع ، وفي أسفلها نقب يسع منه الرجل ، فدخلتها ووجدت داخلها مفروشاً بالتبغ وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمط . وكان فوقها طائر يرفرف بمناجيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين .

وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت ، وهو يوم السبت . وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة ، وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فلابوا أن يعطوني ، فوجدت حول بئرها أوراق فجل فأكلتها . وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة ، فدعاني طليعتم فلم أجدهم ، وقعدت إلى الأرض . فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به ، فلم ألتقط إليه لعظيم ما ي من الجهد ، ففتحتني فلم يجد عندي شيئاً ، فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كميته للشيخ الموكلي بي .

ولما كان في اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ، ووصلت إلى قرية خراب ، فلم أجده بها حوضاً . وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضاً يجتمع بها

ماء المطر فيشربون منه جميع السنة . فاتبعت طريقاً ، فافتقت بي إلى بئر غير
 مطوية ، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقى بها ، فربطت
 خرقة كانت على رأسى في الحبل ، وامتصقت ما تعلق بها من الماء ، فلم يروني ،
 فربطت خفي واستقيت به فلم يروني ، فاستقيت به ثانية ، فانقطع الحبل ووقع
 الخف في البئر ، فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت ، ثم قطعه فربطت
 أعلاه على رجلي بحبل البئر ، وبخرق وجدها هنالك . وبينما أنا أربطها وأفكر في
 حالى إذ لاح لي شخص ، فنظرت إليه فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق
 وعказ ، وعلى كاهله جراب . فقال لي : سلام عليكم . فقلت له : عليكم السلام
 ورحمة الله وبركاته . فقال لي بالفارسية : جيكس (جه كسى) معناه : من أنت ؟
 فقلت له : أنا تائه . فقال لي : وأنا كذلك . ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى
 ماء ، فأردت أن أشرب ، فقال لي : إصبر . ثم فتح جرابه ، فأخرج منه غرفة
 حمص أسود مقلية مع قليل أرز ، فأكلت منه وشربت ، وتوضأ وصل ركعتين ،
 وتوضأت أنا وصلت . وسألني عن اسمى . فقلت له : محمد ، وسألته عن اسمه
 فقال لي : القلب الفارح . فتفاءلت بذلك وسررت به . ثم قال لي : بسم الله .
 ترافقني ؟ فقلت : نعم . فمشيت معه قليلاً ، ثم وجدت فتوراً في أعضائي ، ولم
 أستطع النهوه فقدت . فقال لي : ما شأنك ؟ فقلت له : كنت قادرًا على المشي
 قبل أن ألقاك ، فلما لقيتك عجزت . فقال : سبحان الله ، اركب فوق عنقي .
 فقلت له : إنك ضعيف ، ولا تستطيع ذلك . فقال : يقويني الله . لا بد لك
 فركبت على عنقه . وقال لي أكثر من قراءة : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأكثرت
 من ذلك .

وغلبني عيني فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض . فاستيقظت ، ولم أر للرجل
 أثراً ، وإذا أنا في قرية عامرة ، فدخلتها فوجدت بها لرعية الهنود وحاكمها من
المسلمين ، فأعلموا بي فجاء إلي فقلت له : ما اسم هذه القرية ؟ فقال لي : تاج

بوره . وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان . وحلني ذلك الحاكم إلى بيته ، فأطعمني طعاماً سخناً واغسلت . وقال لي : عندي ثوب وعمامه أودعهما عندي رجل عربي مصرى من أهل المحله التي بكول . فقلت له : هاتها ألبسها إلى أن أصل إلى المحله . فأتى بها ، فوجدت بها من ثيابي التي كنت قد وهبتها لذلك العربي لما قدمنا كول . فطال تعجبى من ذلك .

وفكرت في الرجل الذي حلني على عنقه ، فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي ، حسبما ذكرناه في السفر الأول ، إذ قال لي : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي ويخلصك من شدة تقع فيها . وتذكرت قوله لما سأله عن اسمه فقال : القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد ، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه ، وأنه من الأولياء . ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكر ، وأتيت تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلمًا لهم بسلامتي ، فجاءوا إلي بفرس وثياب ، واستبشرروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم ، وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار ، عوضاً من كافور المستشهد ، وأمرنا أن نتدارى على سفرينا . ووجدتهم أيضاً قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري ، وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها علي وعلى كافور ، وهم يريدون أن يرجعوا . فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر أكدت عليهم ، وقوى عزمي . فقالوا : ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة ؟ والسلطان يعذرك ، فلنرجع إليه أو تقيم حتى يصل جوابه . فقلت لهم : لا يمكن المقام ، وحيثما كنا أبْرَكنا الجواب . فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره ، وبه زاوية حسنة ، فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى محمد العريان ، لأنَّه لا يلبس عليه إلا ثوباً من سرته إلى أسفل ، وباقى جسده مكشوف . وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به .

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى ، قائماً على قدم التجرد ، يلبس تنورة وهو ثوب

يستر من سرته إلى أسفل . ويدرك أنَّه كان إذا صلَّى العشاء الآخرة أخرج كلَّ ما بقي بالزاوية من طعام وإدام وماء ، وفرقه على المساكين ، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم . وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزاً وفولاً . فكان الخبازون والفالون يستبقون إلى زاويته ، فيأخذون منهم مقدار ما يكفي القراء ، ويقولون من أخذ منه ذلك : اقعد ، حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلاً أو كثيراً . ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره ، وملك دمشق ما عدا قلعتها ، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته ، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق ، بموضع يقال له قشحب . والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الواقع . وكان الشيخ العريان في صحنته فنزل . وأخذ قيداً فقيد به فرس الملك الناصر لثلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنِّه ، فيكون ذلك سبباً هزيمة المسلمين . فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شناع ، قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه . ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها . وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الواقعة وهو حديث السن . ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بباب سياه ، ثم رحلنا إلى مدينة قنوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كثيرة السكر ، ومنها يحمل إلى دهلي . وعليها سور عظيم ، وقد تقدم ذكرها . وكان بها الشيخ معين الدين البخارزي ، وأضافنا بها ، وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية بهرام جور (جوبين) صاحب كسرى . وسكن بها جماعة من الصالحة الفضلاء المعروفين بمحكم الأمثلة يعرفون بأولاد شرف جهان ، وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد ، وهو من المحسنين المتصدقين ، وانتهت الرياسة ببلاد الهند إليه .

حكاية

يدرك أنه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء ، فادعى أحدهم عند القاضي

الذى ولي بعده أن له عشرة الاف دينار قبله ، ولم تكن له بينة ، وكان قصده أن يخلفه . فبعث القاضي له ، فقال لرسوله : بِمَ ادعى عَلَيْ؟ فقال : بعشرة آلاف دينار . فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف ، وسلمت للمدعي . وبلغ خبره السلطان علاء الدين ، وصح عنده بطلان تلك الدعوى ، فأعاده إلى القضاء ، وأعطاه عشرة آلاف . وأقمنا بهذه المدينة ثلاثة ، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأنى بأنه إن لم يظهر لفلان أثر ، فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة آباد عوضاً منه . ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزير بور ثم بمنزل البجالصة ، ثم وصلنا إلى مدينة مورى (وضبط اسمها بفتح الميم وواو وراء) وهي صغيرة ، ولها أسواق حسنة . ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بجدير الفرغاني ، وكان بحال مرض ، فدعاني وزودني رغيف شعير ، وأخبرني أن عمره ينيف على مائة وخمسين ، وذكر لي أصحابه أنه يصوم الدهر ، ويواصل كثيراً ، ويكثر الاعتكاف ، وربما أقام في خلوته أربعين يوماً يقتات فيها بأربعين نمرة ، في كل يوم واحدة . وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمى برجب البرقعي دخل الخلوة بأربعين نمرة فأقام بها أربعين يوماً ثم خرج ، وفضل معه منها ثلاثة عشرة نمرة . ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مرء وضبيط اسمها (بفتح وسكون الراء وهاء) ، وهي مدينة كبيرة ، أكثر سكانها كفار تحت الذمة ، وهي حصينة . وبها القمع الطيب الذي ليس مثله بسواها ، ومنها يحمل إلى دهلي ، وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ، ولم أر قمحاً مثله إلا بأرض الصين . وتنسب هذه المدينة إلى المالوأة (بفتح اللام) ، وهي قبيلة من قبائل الهنود كبار الأجسام عظام الخلق حسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق ، وهن مشهورات بطيبة الخلوة ووفرة الحظ من اللذة . وكذا نساء المرهنة ونساء جزيرة ذيبة المهل . ثم سافرنا إلى مدينة علاءبور (وضبيط اسمها بفتح العين ولام والف وباء موحدة مضمونة وواو وراء) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة ، وعلى مسيرة يوم منها سلطان

كافر اسمه قَتَمْ (بفتح القاف والتاء المعلوّة) وهو سلطان جنْبِيلْ (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وباء مد ولام) الذي حاصر مدينة كيالير وقتل بعد ذلك.

حكاية

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري ، وهي على نهر اللجون، كثيرة القرى والمزارع . وكان أميرها خطاب الأفغاني ، وهو أحد الشجعان . واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رَجُوْ (بفتح الراء وضم الجيم) وبنته يسمى سلطان بور ، وحاصر مدينة رابري ، فبعث خطاباً إلى السلطان يطلب منه الإعانته ، فأبطن عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة ، فخاف أن يتغلب الكفار عليه ، فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثة وأربعين ألفاً ومثلهم من الماليك ، ونحو أربعين ألفاً من سائر الناس ، وجعلوا العوائمه في أعناق خيلهم ، وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى . وتقدم خطاب وقبيلته وتبعد الناس ، وفتحوا الباب عند الصبح ، وحملوا على الكفار حلة واحدة ، وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً ، فهزموهم ياذن الله وتغلبوا سلطانهم : قَتَمْ ورجو ، وبعثوا برأسيهما إلى السلطان . ولم ينج من الكفار إلا الشريد .

ذكر أمير علابور واستشهاده

وكان أمير علابور بدر الحبشي من عبيد السلطان ، وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال ، وكان لا يزال يغير على الكفار منفرداً بنفسه ، فيقتل ويسيء ، حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار .

وكان طويلاً ضخماً يأكل الشاة عن آخرها في أكلة . وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشه ببلادهم ، وكان له ابن يدانيه في الشجاعة . فاتفق أنه أغاد مرة في جماعة من عبيده على قرية

للكفار فوق به الفرس في مطمورة ، واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة ، والقتارة (بقاف معقود وناء معلوم) حديدة شبه سكة الحرث ، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين ، وضربتها لا تبقي ، فقتلها بتلك الضربة ومات فيها . وقاتل عبيده أشد القتال ، فتغلبوا على القرية وقتلوا رجالها وسبوا نسائها وأخرجوا الفرس من المطمورة سالماً ، فأتوا به ولده .

فكان من الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلي ، فخرج عليه الكفار ، فقاتلهم حتى قتل ، وعاد الفرس إلى أصحابه ، فدفعوه إلى أهله ، فركبه صهر له ، فقتله الكفار عليه أيضاً . ثم سافرنا إلى مدينة كاليلور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضاً : كيلير ، وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق ، على بابه صورة فيل وفيال من الحجارة ، وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين . وأمير هذه المدينة أحد بن سيرخان ، فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل هذه السفرة ، ودخلت عليه يوماً وهو يريد توسيط رجل من الكفار ، فقلت له : بالله لا تفعل ذلك ، فإني ما رأيت أحداً قط يقتل بمحضري ، فأمر بسجنه . وكان ذلك سبب خلاصه . ورحلنا من مدينة كاليلور إلى مدينة ترون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة لل المسلمين بين بلاد الكفار ، أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل . والسباع بها كثيرة ، وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً ، وأبوابها مغلقة فيفترس الناس . حتى قتل من أهلها كثيراً ، وكانوا يعجبون في شأن دخوله .

وأخبرني محمد التوفيري من أهلها ، وكان جاراً لي بها أنه دخل داره ليلاً وافتقرس صبياً من فوق السرير . وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم حاجة فافتقرسه أسد فخرج أصحابه في طلبه ، فوجدوه مطروحاً بالسوق وقد شرب دمه ، ولم يأكل لحمه . وذكروا أنه كذلك فعله بالناس . ومن

العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسيع ، وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية ، يتصور في صورة سبع . ولما أخبرت بذلك أنكرته ، وأخبرني به جماعة . ولنذكر بعضًا من أخبار هؤلاء السحرة .

ذكر السحرة الجوكية

وهؤلاء الطائفة تظاهر منهم العجائب ، منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبني عليه . فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء ، ويقيم بها الشهور . وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة . ورأيت بمدينة منجرور رجلاً من المسلمين من يتعلم منهم ، قد رفعت له طبلة ، وأقام بأعلاها ، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوماً ، وتركته كذلك . فلا أدرى كم أقام بعدي . والناس يذكرون أنهم يركبون حبوباً ، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر ، فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب . ويخبرون بأمور معيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم . ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم وهو الأكثرون . والظاهر من حالمهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة . ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها . ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتاً من نظرته ، وتقول العامة : إنه إذا قتل بالنظر ، وشق عن صدر الميت ، وجد دون قلب . ويقولون : أكل قلبه . وأكثر ما يكون هذا في النساء . والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار .

حكاية

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ، والسلطان ببلاد التلنك ، نفذ أمره أن يعطي لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم . فجمعهم الوزير ، ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم .

فكان عندي منهم خمسمائة نفس، فعمرت لهم سCAFاف في وادٍ^(١)، وأسكنتهم بها. وكانت أعطيتهم نفقتهم خمسة أيام. فلما كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم وقالوا: إنها كفتارة. وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها، وأنثوا بالصبي ميتاً. فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان، فأمر باختبارها. وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون، فلم تغرق. فعلم أنها كفتارة، ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار. فأمر بإحراقها بالنار. وأتى أهل البلد رجالاً ونساء فأخذوا رمادها. وزعموا أنه من تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار.

حكاية

بعث إلى السلطان يوماً وأنا عنده بالحضره، فدخلت عليه وهو في خلوة، وعنه بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملحف، ويقطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد، كما ينتف الناس آباطهم. فأمرني بالجلوس فجلست فقال لها: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة، فأرياه ما لم يره، فقلالاً: نعم. فتربيع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعاً، فعجبت منه، وأدركني الوهم فوقعت على الأرض. فأمر السلطان أن أُسقى دواء عنده، فأفاقت وقعدت، وهو على حاله متربع. فأخذ صاحبه نعلاً له من شکارة كانت معه فضرب بها الأرض كالمحاذظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المربع وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس معنا. فقال السلطان: إن المربع هو تلميذ صاحب النعل. ثم قال: لو لا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه، وأصابني الخفقان،

(١) في بعض طبعات الكتاب: في دارين.

وأمرضت ، حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عنِي .

وللعد لما كنا بسبيله فنقول : سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ثم منزل كجرا ، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكنائس فيها الأصنام ، قد مثل بها المسلمين . وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق ، وعلى أركانه الأربع قباب . ويسكن هنالك جماعة من الجوكية ، وقد لبدوا شعورهم ، وطالت ، حتى صارت في طولهم ، وغلبت عليهم صفة الألوان من الرياضة . وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ، ويدذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جدام يأوي إليهم مدة طويلة فيرأيا بإذن الله تعالى . وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان ، وكانوا نحو الخمسين . فحفر لهم غاراً تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة . ولهم شبه القرن ^(١) يضربونه أول النهار وآخره ، وبعد العتمة . و شأنهم كلهم عجب . ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غيث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعبر حبوباً يأكلها تقويه على الجماع ، وكان من أخلاقها برادة الحديد فأعجبه فعلها ، فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات . وولي ابن أخيه ناصر الدين فأكرم هذا الجوكى ورفع قدره .

ثم سافرنا إلى مدينة جنديري (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وباء مد وراء) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البتاني وهو المدعو بأعظم ملك ، وكان خيراً فاضلاً يجالس أهل العلم . ومن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري ، والفقيق العالم وجيه الدين البياني نسبة إلى مدينة بيابة ، التي تقدم ذكرها ، والفقيق القاضي المعروف بقاضي خاصة ،

(١) القرن : البوق .

وإمامهم شمس الدين ، وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين ، ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجاعان ، وبين يديه تعرض العسكر . وأعظم ملك لا يظهر إلا في يوم الجمعة أو في غيرها نادراً . ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) ، وهي مدينة المallowة ، أكبر عمار تلك البلاد ، وزرعها كثير ، خصوصاً القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي وبينها أربعة وعشرون يوماً ، وعلى الطريق بينها أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيها بين كل عمودين . فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه ، وما بقي له إلى المنزل وإلى المدينة التي يقصدهاقرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه . ومدينة ظهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذي من أهل ذيبة المهل .

حكاية

كان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها ، فأحيا أرضاً مواتاً هنالك . وصار يزدرعها بطيخاً ، فتأتي في الغاية من الحلاوة . ليس بتلك الأرض مثلها . ويزرع الناس بطيخاً فيما يجاوره فلا يكون مثله ، وكان يطعم الفقراء والمساكين . فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخاً فقبله واستطابه ، وأقطعه مدينة ظهار ، وأمره أن يعمر زاوية بربوة يشرف عليها . فعمرها أحسن عمارة ، وكان يطعم بها الوارد والصادر ، وأقام على ذلك أعواماً . ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر لكاً ، فقال : هذا فضل ما كنت أطعمه الناس ، وبيت المال أحق به . فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله ، لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه في إطعام الطعام . وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان أن يفتكر بحاله ، ويستولي على أمواله ، ويسير إلى القائم ببلاد المعبر . فنمى خبره إلى خاله فقبض عليه ، وعلى جماعة من الأمراء ، وبعثهم إلى السلطان ، فقتل الأمراء ، ورد ابن أخته إليه فقتله الوزير .

حكاية

ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه ، وكانت له جارية يحبها . فاستحضرها وأطعمها التنبول وأطعمته ، وعانقها مودعاً ، ثم طرح للفيلة ، وسلخ جلده وملأه تبناً . فلما كان من الليل ، خرجت الجارية من الدار ، فرمي بنفسها في بئر هنالك تقرب من الموضع الذي قتل فيه ، فوجدت ميتة من الغد ، فأخرجت ودفن لحمه معها في قبر واحد ، وسمى قبور (كور) عاشقان . وتفسير ذلك بنسائهم قبر العاشقين . ثم سافرنا من مدينة ظهار إلى مدينة أجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة . وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك ، من الفضلاء الكرماء العلماء ، استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها . وقد زرت قبره هنالك ، وسنذكره .

وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي الأصل . ثم سافرنا من مدينة أجين إلى مدينة دولة آباد ، وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضره دهلي ، في رفعة قدرها واتساع خطتها . وهي منقسمة ثلاثة أقسام : أحدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره ، والقسم الثاني اسمه الكَتَكَة (بفتح الكافين والباء المعلوقة التي بينهما) ، والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقف معقود مكسور وياء مد وراء) . وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلوخان معلم السلطان وهو أميرها ، والثائب عن السلطان بها ، وببلاد صاغر وببلاد التلنك وما أضيف إلى ذلك ، وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر ، عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها . وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الأرض ، قد نُحْتَت وبني بأعلاها قلعة يصعد إليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلاً . ويسكن بها المفردون وهم الزماميون بأولادهم . وفيها سجن أهل الجرائم

العظيمة في جيوب بها . وبها فيران ضخام أعظم من القطوط ، والقطوط^(١) تهرب منها ، ولا تطبق مدافعتها لأنها تغلبها . ولا تصاد إلا بجبل تدار عليها . وقد رأيتها هناك ، فعجبت منها .

حكاية

أخبرني الملك خطاب الأفغاني أنه سجن مرة في جب بهذه القلعة ، يسمى جب الفيران . قال : فكانت تجتمع علي ليلاً لتأكلني . فأقاتلها ، وألقى من ذلك جهداً . ثم إني رأيت في النوم قائلاً يقول لي : إقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة ، ويفرج الله عنك . قال : فقرأتها . فلما أتمتها أخرجت . وكان سبب خروجي أن ملك مل كان مسجوناً في جب يجاورني فمرض . وأكلت الفieran أصابعه وعينيه فمات . فبلغ ذلك السلطان فقال : أخرجوا خطاباً لئلا يتفرق له مثل ذلك . وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور ، والقاضي جلال ، حين هزمها السلطان . وأهل بلاد دولة آباد هم قبل المرهبة الذين خص الله نساءهم بالحسن ، وخصوصاً في الأنوف والخواج . ولمن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن . وكفار هذه المدينة أصحاب تجارة . وأكثر تجارتكم في الجواهر ، وأموالهم طائلة . وهم يسمون الساهة وأحدهم ساء ياهال السنين ، وهم الأكاري بمديار مصر . وبدولة آباد العنبر والرمان . ويشرمان مرتين في السنة . وهي من أعظم البلاد مجبي ، وأكبرها خراجاً ، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها . وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارتها وعمالتها جميعاً . وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر ، بسبعة عشر كروراً ، والكرور مائة للك ، والله مائة ألف دينار . ولكنه لم يف بذلك ، فبقي عليه بقية ، وأخذ ماله وسلخ جلده .

(١) يريد : القطط .

ذكر سوق المغنين

ومدينة دولة آباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد ، من أجل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة . كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه . وللدار باب سوى ذلك . والحانوت مزين بالفرش ، وفي وسطه شكل مهد كبير ، تجلس فيه المغنية أو ترقد ، وهي متزينة بأنواع الحلي ، وجواريها يحركن مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من كل يوم خميس ، وبين يديه خدامه وماليكه . وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى ، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ، ثم ينصرف . وفي تلك السوق المساجد للصلوة . ويصللي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ، وتغنى المغنيات بين يديه . وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضاً . ثم سافرنا إلى مدينة نَذْرَبَار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتحين وراء مسكن وباء موحدة مفتحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهنة ، وهم أهل الإتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون . وشرفاء المرهنة هم البراهمة ، وهم الكثريون أيضاً . وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه . ويغسلون للأكل كغسل الجنابة ، ولا ينكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم سبعة أجداد . لا يشربون الخمر ، وهي عندهم أعظم العائب . وكذلك هي بلاد الهند عند المسلمين . ومن شربها من مسلم جلد ثمانين جلدة ، وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر ، لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صَاغَر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضاً صاغر كاسمها . وعليه النواعير والبساتين . فيها العنب والموتز وقصب السكر .

وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة. وأحوالهم كلها مرضية. ولهن بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر. وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها، ويجعل النظر فيه لأولاده. فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة. والعمارة بها كثيرة. والناس يقصدونها للتبرك بأهلها، ولكونها محررة من المغارم والوظائف.

ثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كنبية (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وباء آخر الحروف مفتوحة) وهي على خور من البحر، وهو شبه الوادي، تدخله المراكب وبه المد والجزر. وعاينت المراكب به مُرسَأً في الوحل حين الجزر، فإذا كان المد عامت في الماء. وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد. وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء. فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة، ويتنافسون في ذلك. ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامراني الذي اتفقت لي معه قضية الخلواء، وكذبه ملك الندماء. ولم أر قط أضخم من الخشب الذيرأيته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة. وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه. ومنها دار ملك التجار الكازروني، وإلى جانبها مسجده، ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه وز^(١) ومعناه خياط الشواشي.

حكاية

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الأفغاني أراد شمس الدين المذكور والناخوذة الياس، وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره، على أن ينتعوا منه بهذه المدينة. وشروعوا في حفر خندق عليها إذ لا سور لها، فتغلب عليهم ودخلها. واحتفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة،

(١) في بعض طبعات الكتاب: كلاه نور، وكلاه دوز.

وخفوا أن يتطلع عليهم. فاتفقوا على أن يقتلوا أنفسهم فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة، وقد ذكرنا صفتها، فهات اثنان منهم، ولم يمت ملك الحكام. وكان من كبار التجار أيضاً بها نجم الدين الجيلاني، وكان حسن الصورة كثير المال، وبنى بها داراً عظيمة ومسجدأً. ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها وأعطاه المراتب. فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله. وكان أمير كنبية حين وصلنا إليها مقبل التلنجي، وهو كبير المنزلة عند السلطان. وكان في صحبته الشيخ زاده الأصبهاني نائباً عنه في جميع أموره. وهذا الشيخ له أموال عظيمة، وعنده معرفة بأمور السلطنة. ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده، ويتحيل في الفرار. وبلغ خبره إلى السلطان، وذكر عنه أنه يروم الهروب. فكتب إلى مقبل أن يبعثه فبعثه على البريد، وأحضر بين يدي السلطان ووكل به. والعادة عنده أنه متى وكل بأحد فقلما ينجو. فاتفق هذا الشيخ مع الموكلي به على مال يعطيه إياه، وهربا جميعاً. وذكر لي أحد الثقات أنه رأه في ركن مسجد بمدينة قلهات، وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده، فحصل على أمواله، وأمن مما كان يخافه.

حكاية

وأضافنا الملك مقبل يوماً بداره، فكان من النادر أن جلس قاضي المدينة، وهو أعزور العين اليمني، وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره، إلا أنه أعزور اليسرى. فجعل الشريف ينظر إلى القاضي ويصححه. فزجره القاضي، فقال له: لا تزجرني، فإني أحسن منك. قال: كيف ذلك؟ قال: لأنك أعزور اليمني، وأنا أعزور اليسرى. فصحح القاضي والأمير والحاضرون. وخجل القاضي، ولم يستطع أن يرد عليه. والشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم. وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر، وسكناه بقبة من قباب الجامع. دخلنا إليه، وأكلنا من طعامه. واتفق له لما دخل القاضي

جلال مدينة كنباية حين خلافه ، أنه أتاه ، وذكر للسلطان أنه دعا له . فهرب لثلا
يقتل كما قتل الحيدري . وكان بها أيضاً من الصالحين التاجر خواجه إسحاق ،
وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر ، وينفق على الفقراء والمساكين . وماله على
هذا ينمو ويزيد كثرة . وسافرنا من هذه المدينة إلى بلد كاوي ، وهي على خور
فيه المد والجزر وهي من بلاد الري جالنسي الكافر ، وسنذكره . وسافرنا منها إلى
مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل
وهاء وراء) ، وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر .

ذكر سلطان قندهار

سلطان قندهار كافر اسمه جالنبي (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر
السين المهمل) ، وهو تحت حكم الإسلام ، ويعطي ملك الهند هدية كل عام . لما
وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا ، وعظمنا أشد التعظيم ، وخرج عن قصره
فأنزلنا به . وجاء إلينا من عنده من كبار المسلمين كأولاد خواجه بهره . ومنهم
الناخوذة إبراهيم ، له ستة من المراكب مختصة له . ومن هذه المدينة ركينا البحر .

ذكر ركبنا البحر

وركينا في مركب لإبراهيم المذكور تسمى **الجَاكِر** (بفتح الجيم والكاف
المعقودة) . وجعلنا فيه من خيل الهندية سبعين فرساً ، وجعلنا باقيها مع خيل
 أصحابنا في مركب لأخي إبراهيم المذكور يسمى **مُنْوَرْت** (بفتح الميم ونون وواو
مد وراء مسكن وباء معلومة) وأعطانا جالنبي مركباً جعلنا فيه ظهير الدين
وسبيل وأصحابها ، وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف . وبعث معنا ولداً في مركب
يسمى **العُكَيْرِي** (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء) ، وهو شبه
الغراب ، إلا أنه أوسع منه . وفيه ستون مجذافاً . ويُسقَف حين القتال حتى لا ينال

الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة. وكان ركوي أنا في المحاكر، وكان فيه خسون رامياً وخمسون من المقاتلة الحبشه، وهم زعماء هذا البحر. وإذا كان بالمركب أحد منهم تحماه لصوص الهند وکفارهم. ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء)، وهي خالية. وبينها وبين البر أربعة أميال. فنزلنا بها، واستقينا الماء من حوض بها. وسبب خراها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها، وبنى سورها، وجعل بها المجانق، وأسكن بها بعض المسلمين.

ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقة وهي (بضم القاف الأولى وفتح الثانية)، وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق، فرسينا^(١) على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت في عشاري مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل إليها، فوحل العشاري في الطين، وبقي بيننا وبين اليلد نحو ميل. فكنت لما نزلنا في الوحل أتوأ على رجلين من أصحابي وخوفي الناس من وصولي قبل وصولي إليها، وأنا لا أحسن السباحة، ثم وصلت إليها، وطفت بأسواقها، ورأيت بها مسجداً ينسب للخضر وإلياس عليها السلام. صللت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الخيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب.

ذكر سلطان قوقة

وسلطانها كافر يسمى دُنْكُول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام). وكان يظهر الطاعة لملك الهند، وهو في الحقيقة عاص. ولما أقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والف وباء موحدة وواو مد

(١) الأصح أن يقال: فَرَسِّنَا.

وراء)، وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور، وإذا كان الجزر فهاؤها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج. وفي وسطها مدینتان: إحداهم قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخوذة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري، وسيأتي ذكره. وذكر عند حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني إن شاء الله. وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها، وأرسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء، ووجد بها أحد الجوكيّة.

حكاية هذا الجوكي

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيًّا مستنداً إلى حائط بدخانة، وهي بيت الأصنام، وهو فيها بين صنمين منها، وعليه أثر المجاهدة. فكلمناه فلم يتكلم، ونظرنا هل معه طعام، فلم نر معه طعاماً. وفي حين نظرنا، صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه، ودفعها لنا. فعجبنا من ذلك، ودفعنا له دنانير ودرارهم فلم يقبلها. وأتيناه بزاد فرده. وكانت بين يديه عباءة من صوف الجبال مطروحة فقلبتها بيديه، فدفعها لي. وكانت بيدي سبحة زيلع فقلبتها في يدي فأعطيته إياها، ففركها بيده وشمها وقبلها، وأشار إلى السماء، ثم إلى سمت القبلة. فلم يفهم أصحابي إشارته، ففهمت أنا عنه أنه وأشار أنه مسلم يخفي إسلامه من أهل تلك الجزيرة، ويتعيش من تلك الجوز. ولما ودعناه قبلت يده. فأنكر أصحابي ذلك. ففهم إنكارهم. فأخذ بيدي وقبلها وتقبّس، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا.

وكنت آخر أصحابي خروجاً، فجذب ثوبي فرددت رأسي إليه. فأعطاني عشرة دنانير. فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي: لِمَ جذبك؟ فقلت لهم: أعطاني

هذه الدنانير وأعطيت لظهور الدين ثلاثة منها ، ولسبيل ثلاثة ، وقلت لها : الرجل مسلم ، ألا ترون كيف أشار إلى السماء ؟ يشير إلى أنه يعرف الله تعالى ، وأشار إلى القبلة ، يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام ، وأخذُه السبحة يصدق ذلك . فرجعا لما قلت لها ذلك إليه فلم يجده . وسافرنا تلك الساعة . وبالغد وصلنا إلى مدينة هِنْوَر (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء) ، وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفي أيام البشكال ، وهو المطر ، يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه . وفي يوم وصولنا إليها جاء في أحد الجوكية من الهند في خلوة ، وأعطاني ستة دنانير ، وقال لي : البرهمي بعثها إليك ، يعني الجوكى الذي أعطيته السبحة . وأعطاني الدنانير فأخذتها منه ، وأعطيته ديناراً منها فلم يقبله ، وانصرف . وأخبرت صاحبى بالقضية ، وقلت لها : إن شئتم فخذوا نصيكم منها ، فأبأيا وجعلوا يعجبان من شأنه . و قالا لي : إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها ، وتركناها بين الصنمين حيث وجدهما . فطال عجي من أمره ، واحتضرت بتلك الدنانير التي أعطايهما . وأهل مدينة هِنْوَر شافية الذهب . لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب وقوة ، وبذلك عرفوا ، حتى أذلم الزمان بعد فتحهم لسندابور ، وسذكر ذلك . ولقيت من المتبعدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري ، أضافني بزاويته . وكان يطبخ الطعام بيده استقداراً للحجارة والغلام . ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس ، والقاضي بها نور الدين علي ، والخطيب لا ذكر اسمه . ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المحيط ، وإنما يلبسن ثياباً غير محيطة . تحترم إحداهن بأحد طرق التوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها . وهن جمال وعفاف . وتجعل إحداهن خرص ذهب في أنفها . ومن خصائصهن أنهن جميعاً يحفظن القرآن الكريم . ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر

مكتباً لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعلم الأولاد . ولم أر ذلك في سواها . ومعاش أهلها من التجارة في البحر . ولا زرع لهم . وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جال الدين في كل عام شيئاً معلوماً ، خوفاً منه لقوته في البحر . وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجاله .

ذكر سلطان هنور

وهو السلطان جال الدين محمد بن حسن ، من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب ، سندكره . والسلطان جال الدين مواظب للصلة في الجماعة . وعادته أن يأتي إلى المسجد قبل الصبح ، فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر ، فيصلي أول وقت ، ثم يركب إلى خارج المدينة . ويأتي عند الصبح فيبدأ بالمسجد ، فيركع فيه ثم يدخل فيه ، ثم يدخل إلى قصره . وهو يصوم الأيام البيض ^(١) وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للإنفطار معه فأحضر لذلك ، ويحضر الفقيه علي والفقيق إسماعيل . فتوضع أربع كراسى صغار على الأرض . فيقعد على إحداها ، ويقعد كل واحد منا على كرسي .

ذكر ترتيب طعامه

وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة ، ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهمل وفتح اللام) ، وتأتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير ، فتقدم قدور الطعام بين يديه ، ومعها معرفة نحاس كبيرة ، فتتعرف بها من الأرز معرفة واحدة ، وتجعلها في الطالم ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المماوح والعنباء ^(٢) ، فيأكل الإنسان لقمة ، ويتبعها بشيء من تلك المواحة . فإذا تمت الغرفة التي جعلها في

(١) الأيام البيض من كل شهر هي: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر هجري ، وهي التي تبيض لياليها بالقمر ، وقد كره الإمام مالك رضي الله عنه تخصيصها بالصيام خشية اعتقاد تحديدها ، فإن السنة صيام ثلاثة أيام من كل شهر بدون تحديد .

(٢) العنباء: ثمرة المانغا .

الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز ، وأفرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة ، فيؤكل بها الأرز أيضاً . فإذا تمت العرفة الثانية ، وغرفت وأفرغت لوناً آخر من الدجاج تؤكل به . فإذا تمت ألوان الدجاج ، أتوا بألوان من السمك ، فيأكلون بها الأرز أيضاً . فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن ، والألباب فيأكلون بها الأرز ، فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان ، وهو اللبن الرائب ، وبهذا يختتمون طعامهم . فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل يعده . ثم يشربون على ذلك الماء السخن ، لأن الماء البارد يضرّ بهم في فصل نزول المطر . ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرة أخرى أحد عشر شهراً لم آكل خبزاً ، إنما طعامهم الأرز . وبقيت أيضاً بجزائر المهل وسيلان وببلاد المعبر والمليبار ثلاثة سنين لا آكل فيها إلا الأرز ، حتى كنت لا أستسيغه إلا بالماء . ولباس هذا السلطان ملحف الحرير والكتان الرقاق ، يشد في وسطه فوطة ، ويلتحف ملحتين : إحداهما فوق الأخرى . ويقص شعره ، ويلف عليه عمامه صغيرة . وإذا ركب لبس قباء ، والتحف بملحتين فوقه . وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال . وكانت إقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام . وزودنا وسافرنا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد **المليبار** (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة والفاء) ، وهي بلاد الفلفل . وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم ، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار . وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعدها كل وارد وصاد ، من مسلم وكافر . وعند كل بيت منها يشرب منها ورجل كافر موكل بها . فمن كان كافراً سقاهم في الأواني ، ومن كان مسلماً سقاهم في يديه . ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف . وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم ، ولا يطعم في أوانيهم . فإن طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين . وإذا دخل المسلم موضعها لا يكون فيه دار للمسلمين ، طبخوا له الطعام

وصبوه له على أوراق الموز وصبووا عليه الإدام ، وما فضل عنه تأكله الكلاب والطير . وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ، ويطبخون لهم الطعام . ولو لاهم لما سافر فيه مسلم . وهذا الطريق الذي ذكرنا أنه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عماره . وكل إنسان بستانه على حدة وداره في وسطه . وعلى الجميع حائط خشب . والطريق يمر في البساتين . فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها ودرج آخر ينزل إليها إلى البستان الآخر . هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان . وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يستطع أن يركب في دولة^(١) ، مشى على قدميه كائناً من كان . ومن كان له رحل أو متعاع من تجارة وسوهاها اكتفى رجالاً يحملونه على ظهورهم . فزى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها ، يحملون أمتعته ، وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد ، وفي أعلىه مخاطف حديد ، فإذا أعبا ولم يجد دكانة يستريح عليها ، ركز عوده بالأرض ، وعلق حله منه ، فإذا استراح أخذ حله من غير معين ، ومضى به . ولم أمر طريقة آمن من هذا الطريق . وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة . فإذا سقط شيء من الشمار لم يلتفت له أحد ، حتى يأخذه صاحبه . وأخبرت أن بعض الهند مرروا على الطريق فاللقط أحدهم جوزة . وبلغ خبره إلى الحاكم ، فأمر بعود ، فركز في الأرض وبرى طرفه الأعلى ، وأدخل في لوح خشب حتى برب منه . ومد الرجل على اللوح ، وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره ، وترك عبرة للناظرين . ومن هذه العيadan على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ليراها الناس فيتعظوا . ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق

(١) محل يشبه المحفة .

فإذا رأوا تنحوا عن الطريق حتى نجوز . والملمون أعز الناس بها ، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم . وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطاناً من الكفار . منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفاً ، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم أبته ، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدتهم وصاحب باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عهالتة ، ويسمونه بباب أمان فلان . وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جنائية من بلاد أحدتهم ووصل إلى باب أمان الآخر أمن على نفسه . ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه ، وإن كان القوي صاحب العدد والجيوش . وسلامطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم . ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوقة أهل الثلم (اللثام) ، وسنذكرهم فيما بعد . وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه ، فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفلفل

وأشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ، وهم يغرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالي إلا أنها ليس لها عسلوج ، وهو الغزل كما للدوالي . وأوراق شجره تشبه آذان الخيل . بعضها يشبه أوراق العليق ، ويشمر عنacid صغاراً . حبها كحب أبي قنية ، إذا كانت خضراء . وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس . كما يصنع بالعنب عند تزيبيه . ولا يزالون يقلبوه حتى يستحكم يبسه ، ثم يبيعونه من التجار . والعامية ببلادنا يزعمون أنهم يقلونه بالنار . وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش ، وليس كذلك ، وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس . ولقد رأيته بمدينة قالقط ، يصب للتكيل ، كالذرة ببلادنا . وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (فتح السين) ، وهي صغيرة على خور كبير ، كثيرة أشجار النارجيل . وكثير المسلمين بها الشيخ جمعه المعروف

بأي ستة ، أحد الكرماء . أتفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت . وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكنور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وأخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثيل له بتلك البلاد . وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط ، وبها قاض وخطيب . وعمر بها حسين المذكور مسجداً لإقامة الجمعة .

ذكر سلطان فاكتور

وسلطان فاكتور كافر اسمه بَاسَدُو (بفتح الباء الموحد والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو) ، وله نحو ثلاثة مركباً حربياً قائدها مسلم يسمى لولا ، وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار . ولما أرسينا على فاكتور ، وبعث سلطانها إلينا ولده ، فأقام بالمركب كالرهينة ، ونزلنا إليه . فأضافنا ثلاثة بأحسن ضيافة تعظيمياً لسلطان الهند ، وقياماً بحقه رغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا . ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر بيلد فلا بد من إرسائه بها ، وإعطائه هدية إلى صاحب البلد ، يسمونها حق البندر . ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم ، وأدخلوه المرسى قهراً ، وضاعفوا عليه المغرم ، ومنعوه عن السفر ما شاءوا . وسافرنا منها ، فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة منجور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور ، يسمى خور الدُّنْب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة) ، وهو أكبر خور ببلاد المليبار . وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن . واللفل والزنجبيل بها كثير جداً .

ذكر سلطانها

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمها رَامَ دَوْ (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو) ، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين ، يسكنون ربضاً بناحية

المدينة. ربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة، فيصلح بينهم حاجته إلى التجار. وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعيري، وهو يقرئ العلم. صعد إلينا، إلى المركب، ورحب منا في النزول إلى بلده، فقلنا حتى يبعث ولده يقيم بالمركب. فقال: إنما يفعل ذلك سلطان فاكنور، لأنه لا قوة للمسلمين في بلده. وأما نحن فالسلطان يخافنا. فأبینا عليه إلى أن بعث السلطان ولده، كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم. فأكرمنا إكراماً عظيماً. وأقمنا عنده ثلاثة أيام. ثم سافرنا إلى مدينة هيللي، فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسورة وياء مد ولا مكسور)، وهي كبيرة حسنة العمارة، على خور عظيم تدخله المراكب الكبار. وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين. لا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقط. ومدينة هيللي معظمة عند المسلمين والكافر بسبب مسجدها الجامع، فإنه عظيم البركة مشرق النور. وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة. وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين. وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتلذبون العلم، و لهم مرتبات من مال المسجد. وله مطبخة يصنع فيها الطعام للسوارد والصادر، والإطعام الفقراء من المسلمين بها. ولقيت بهذا المسجد فقيهاً صالحًا من أهل مقدشو يسمى سعيداً، حسن اللقاء والخلق. يسرد الصوم. وذكر أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة، ومثلها بالمدينة. وأدرك الأمير بمكة أبا نمي، والأمير بالمدينة منصور بن جاز، وسافر في بلاد الهند والصين. ثم سافرنا من هيللي إلى مدينة جُرُفَّنْ (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوقة وتشديدها وآخره نون)، وبينه وبين هيللي ثلاثة فراسخ. ولقيت بها فقيهاً من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصراري، نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق الكفرة، واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالغرب. وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال، له أولاد صغار أوصى إليه بهم. وتركته

آخذـاً في حلـمـهم إلى بـغـدـادـ. وـعـادـةـ أـهـلـ الـهـنـدـ كـعـادـةـ السـوـدـانـ لاـ يـتـعـرـضـونـ لـمـالـ الـمـيـتـ، وـلـوـ تـرـكـ الـآـلـافـ إـنـماـ يـبـقـىـ مـالـهـ بـيدـ كـبـيرـ الـمـسـلـمـينـ، حـتـىـ يـأـخـذـهـ مـسـتـحـقـهـ شـرـعاـ.

ذكر سلطانها

وـهـوـ يـسـمـىـ بـكـوـيـلـ (ـبـضمـ الـكـافـ عـلـىـ لـفـظـ التـصـغـيرـ)ـ، وـهـوـ مـنـ أـكـبـرـ سـلاـطـينـ الـمـلـيـارـ. وـلـهـ مـرـاكـبـ كـثـيرـةـ تـسـافـرـ إـلـىـ عـمـانـ وـفـارـسـ وـالـيمـنـ. وـمـنـ بـلـادـهـ فـتـنـ وـبـدـفـنـ، وـسـنـذـكـرـهـاـ. وـسـرـنـاـ مـنـ جـرـفـتـنـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ دـهـ قـتـنـ (ـبـفتحـ الدـالـ المـهـمـ وـسـكـونـ الـهـاءـ)ـ، وـقـدـ ذـكـرـنـاـ ضـبـطـ فـتـنـ. وـهـيـ مـدـيـنـةـ كـبـيرـةـ عـلـىـ خـورـ، كـثـيرـةـ الـبـسـاتـينـ. وـبـهـاـ النـارـجـيلـ وـالـفـلـفـلـ وـالـفـوـفـلـ وـالـتـبـولـ، وـبـهـاـ الـقـلـقاـصـ الـكـثـيرـ، وـيـطـبـخـونـ بـهـ الـلـحـمـ. وـأـمـاـ المـوزـ فـلـمـ أـرـ فـيـ الـبـلـادـ أـكـثـرـ مـنـ بـهـ وـلـاـ أـرـخـصـ ثـمـنـاـ. وـفـيـهاـ الـبـاـيـنـ الـأـعـظـمـ، طـولـهـ خـمـسـمـائـةـ خـطـوـةـ وـعـرـضـهـ ثـلـاثـمـائـةـ خـطـوـةـ. وـهـوـ مـطـوـيـ بـالـحـجـارـةـ الـحـمـرـ الـمـنـحـوـتـةـ، وـعـلـىـ جـوـانـبـهـ ثـمـانـ وـعـشـرـونـ قـبـةـ مـنـ الـحـجـرـ. فـيـ كـلـ قـبـةـ أـرـبـعـةـ مـجـالـسـ مـنـ الـحـجـرـ. وـكـلـ قـبـةـ يـصـعـدـ إـلـيـهـاـ عـلـىـ درـجـ حـجـارـةـ. وـفـيـ وـسـطـهـ قـبـةـ كـبـيرـةـ مـنـ ثـلـاثـ طـبـقـاتـ، فـيـ كـلـ طـبـقـةـ أـرـبـعـةـ مـجـالـسـ. وـذـكـرـ لـيـ أـنـ وـالـهـ هـذـاـ السـلـطـانـ كـوـيـلـ هـوـ الـذـيـ عـمـرـ هـذـاـ الـبـاـيـنـ. وـبـإـزـائـهـ مـسـجـدـ جـامـعـ لـلـمـسـلـمـينـ، وـلـهـ أـدـرـاجـ يـنـزـلـ مـنـهـ إـلـيـهـ فـيـتـوـضـاـ مـنـهـ النـاسـ وـيـغـتـسـلـونـ. وـحـدـثـنـيـ الـفـقـيـهـ حـسـينـ أـنـ الـذـيـ عـمـرـ الـمـسـجـدـ وـالـبـاـيـنـ أـيـضاـ هـوـ أـحـدـ أـجـادـادـ كـوـيـلـ، وـأـنـهـ كـانـ مـسـلـماـ، وـلـاـ إـسـلـامـهـ خـبـرـ عـجـيبـ نـذـكـرـهـ.

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بازاء الجامع

وـرـأـيـتـ أـنـاـ بـاـزـاءـ الـجـامـعـ شـجـرـةـ خـضـرـاءـ تـشـبـهـ أـورـاقـهـ أـورـاقـ التـينـ، إـلـاـ أـنـهـ لـيـنـةـ. وـعـلـيـهـ حـائـطـ يـطـيـفـ بـهـ، وـعـنـدـهـ مـحـرابـ صـلـيـتـ فـيـهـ رـكـعـتـيـنـ. وـاسـمـ هـذـهـ لـيـنـةـ.

الشجرة عندهم دَرَخت الشهادة وَدَرَخت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون
 الخاء المعجم وناء معلوقة) وأخبرت هنالك أنه اذا كان زمان الخريف من كل
 سنة ، تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد ان يستحيللونها إلى الصفرة ،
 ثم إلى الحمرة ، ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة : لا إله إلا الله محمد رسول الله .
 وأخبرني الفقيه حسين وجاءة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة ، وقرأوا
 المكتوب الذي فيها . وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من
 المسلمين والكافر ، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها في خزانة
 السلطان الخافر ، وهم يستشفون بها للمرضى . وهذه الشجرة كانت سبب إسلام
 جد كويل الذي عمر المسجد والبابين . فإنه كان يقرأ الخط العربي . فلما قرأها وفهم ما
 فيها أسلم وحسن إسلامه . وحكايتها عندهم متواترة . وحدثني الفقيه حسين أن
 أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى ، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلت ، ولم
 يترك لها أثر . ثم نبتت بعد ذلك ، وعادت كأحسن مما كانت عليه ، وهلك
 الكافر سريعاً . ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن . وهي مدينة كبيرة على خور كبير ،
 وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين . لأنه لا مسلم بهذه
 المدينة . ومرساها من أحسن المراسي ، ومازها عذب ، والفوفل بها كثير . ومنها
 يحمل للهند والصين . وأكثر أهلها براهمة . وهم معظمون عند الكفار ، وبغضون
 في المسلمين . ولذلك ليس بينهم مسلم .

حكاية

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم ، أن أحد البراهمة خرب
 سقفه ليصنع منه سقفاً لبيته ، فاشتعلت النار في بيته . فأحرق هو وأولاده
 ومتاعه . فاحترموا هذا المسجد ، ولم يتعرضوا له بسوء بعدها ، وخدموه ، وجعلوا
 بخارجه الماء ، يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله

الطير . ثم سافرنا من مدينة بدقن إلى مدينة فُندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهملاً وراء مفتوحة وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق . وبها لل المسلمين ثلاث محلات ، في كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل ، وهو عجيب ، له مناظر و مجالس على البحر . وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان ، وله أخ فاضل . وبهذه البلدة تشتت مراكب الصين . ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقايف وكسر اللام وضم القاف الثاني وآخره طاء مهملاً) ، وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار . يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس . ويجتمع بها تجارة الآفاق . ومرساها من أعظم مراسи الدنيا .

ذكر سلطان قالقوط

وسلطانها كافر يعرف بالسامري ، شيخ مسن يخلق لحيته ، كما تفعل طائفة الروم ، رأيته بها ، وسنذكره إن شاء الله . وأمير التجارة بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم ، يجتمع إليه التجار ، ويأكلون في سماطه . وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم ، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني ، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازروني نفع الله به . وبهذه المدينة الناخوذة مثقال ، الشهير الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس . ولما وصلنا إلى هذه المدينة ، خرج إلينا إبراهيم شاه بندر ، والقاضي ، والشيخ شهاب الدين ، وكبار التجارة ، ونائب السلطان الكافر والمسمى بقلاج ، (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الأطفال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم . ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد . فكانت فرحة تتبعها ترحة . وأقمنا بمرساها ، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة . وجعل

كل واحد منا في دار . وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ، ونحن في ضيافة الكافر ، وبحر الصين لا يسافر فيه إلا مراكب الصين . ولنذكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى الجنوك ، واحدتها جُنك (بجمع معقود مضloom ونون ساكن) ، والمتوسطة اسمها الزَّوَّ (بفتح الزاي وواو) ، والصغرى اسم أحدتها الكَمْ (بكافين مفتوحتين) . ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر فلعاً فيما دونها إلى ثلاثة ، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالخصر لا تخطط أبداً ، ويديرونها بحسب دوران الريح . وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ، ويخدم في المركب منها ألف رجل ، منهم البحريمة ستة ، ومنهم أربعين من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية ، وهم الذين يرمون بالنقط . ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفي والثلاثي والرباعي . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بchein كلان ، وهي صين الصين . وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب ، يصلون ما بينهما بخشب ضخم جداً ، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسار منها ثلاثة أذرع . فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلىهما فرش الأسفل ، ودفعوها في البحر ، وأندوا عمله ، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية الماء ينزلون فيغسلون ويقضون حاجتهم . وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم ، وهي كبار كالصواري ، يجتمع على أحدتها العشرة والخمسة عشر رجلاً ، ويجدون وقوفاً على أقدامهم . و يجعلون للمركب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار ، والمصرية منها يكون فيه البيوت والستداس ، وعليها المفتاح يسددها صاحبها ، ويحمل معه الجواري والنساء ، وربما كان الرجل في مصراته فلا يعرف به غيره من يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا إذا

وصلا بعض البلاد . والبحرية يسكنون فيه أولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزغبيل في أحواض خشب ، ووكليل المركب كأنه أمير كبير ، وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جاني بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاء إلى البلاد . وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين .

ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومتى ذلك

ولما حان وقت السفر إلى الصين ، جهز لنا السلطان السامری جنكاً من الجنوك الثلاثة عشر التي يمرسى قالقوط . وكان وكليل الجنك يسمى بسليمان الصدفي الشامي ، وبيني وبينه معرفة . فقلت له : أريد مصرية لا يشار肯ني فيها أحد ، لأجل الجواري . ومن عادتني أن لا أسافر إلا بهن . فقال : إن تجاه الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين . ولصهري مصرية أعطيكها ، لكنها لاسنداس فيها . وعسى أن تتمكن معاوضتها . فأمرت أصحابي فأوسقوا ما عندي من المئاع ، وصعد العبيد والجواري إلى الجنك ، وذلك في يوم الخميس . وأقمت لأصلي الجمعة وألحق بهم . وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع المهدية . ثم إن فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة فقال : إن المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح ، فذكرت ذلك للناخوذة ، فقال : ليس في ذلك حيلة ، فإن أحببت أن تكون في الككم فيه المصاري على اختيارك . فقلت : نعم . وأمرت أصحابي ، فنقلوا الجواري والمئاع إلى الككم . واستقروا به قبل صلاة الجمعة . وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر ، فلا يستطيع أحد ركوبه . وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها إلا الذي فيه المهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا ، والكم المذكور ، فبتنا ليلة السبت على الساحل ، لا يستطيع

الصعود الى الككم، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا. ولم يكن بقى معه إلا بساط أفترشه. وأصبح الجنك والكم يوم السبت على بعد من المرسى. ورمي البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فندرينا، فتكسر. ومات بعض أهله، وسلم بعضهم، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه، فرغبت في إعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يخرجها. وكانت قد التزمت خشبة في مؤخر الجنك. فانتدب لذلك بعض البحريه الهرمزيين فأخرجها، وأبي أن يأخذ الدنانير، وقال: إنما فعلت ذلك لله تعالى. ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية، فمات جميع من فيه. ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه، وتناثر دماغه، والملك سنبل قد ضرب مسماً في أحد صدغيه، ونفذ من الآخر. وصلينا عليهما ودفناهما. ورأيت الكافر سلطان قالقط في وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته إلى ركبته، وفي رأسه عامة صغيرة، وهو حافي القدمين، والشطر بيد غلام فوق رأسه، والنار توقد بين يديه في الساحل، وزبانيته يضربون الناس لثلا ينتهبا ما يرمي البحر. وعادة بلاد المليار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا في هذا البلد خاصة، فإن ذلك يأخذه أربابه. ولذلك عمّرت، وكثير تردد الناس إليها. ولما رأى أهل الككم ما حدث عن الجنك، رفعوا قلعهم وذهبوا، ومعهم جميع متاعي وغلاني وجواري، وبقيت منفرداً على الساحل، ليس معه إلا فتي كنت أعتقه. فلما رأى ما حل بي ذهب عني، ولم يبق عندي إلا العشرة الدنانير التي أعطانيها الجوكى، وبالساط الذي كنت أفترشه. وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسي كولم، فعزمت على السفر إليها، وبينها مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضاً من أراد ذلك. فسافرت في النهر، واكتفيت رجلاً من المسلمين يحمل لي الساط. وعادتهم إذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشى فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو. فكنا نفعل ذلك.

ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذي اكتريته، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا، ويعربد على، فيزيد خاطري. ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كنجي كري (وضبط اسمها بكاف مضوم ونون ساكن وجيم وباء مد وكاف مفتوح وراء مسكون وباء)، وهي بأعلى جبل هنالك. يسكنها اليهود، ولم يأْمِرُ منهم، ويؤدون الجزية لسلطان كولم.

ذكر القرفة والبقم

وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم، وهي حطبهم هنالك. ومنها كنا نقد النار لطبع طعامنا في ذلك الطريق. وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينتي كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واء)، وهي أحسن بلاد المليبار، وأسوقها حسان، وتجارها يعرفون بالصُّوليين. (بضم الصاد) لهم أموال عريضة، يشتري أحدهم المركب بما فيه، ويوسقه من داره بالسلع. وبها من التجار المسلمين جماعة، كبيرهم علاء الدين الأوجي من أهل آوة، من بلاد العراق. وهو راضي، ومعه أصحاب له على مذهبة، وهم يظهرون بذلك. وقاضيها فاضل من أهل قزوين. وكثير المسلمين بها محمد شاه بندر، وله أخ فاضل كريم اسمه تقى الدين. والمسجد الجامع بها عجيب، عمره التاجر خواجه مهذب. وهذه المدينة أول ما يواли الصين من بلاد المليبار، وإليها يسافر أكثرهم. والمسلمون بها أعزه محترمون.

ذكر سلطان كولم

وهو كافر يعرف بالتيروري (بكسر التاء المثلثة وباء مد وراء وواو مفتوحين وراء مكسورة وباء) وهو معظم للمسلمين. وله أحكام شديدة على السراق والدعار.

حكاية

وما شاهدت بكوم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم، وفر إلى دار الأوجي، وكان له مال كثير، وأراد المسلمون دفن المقتول، فمنعهم نواب السلطان من ذلك، وقالوا: لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به. وتركوه في تابوته على باب الأوجي، حتى أتنى وتغير. فمكثهم الأوجي من القاتل، ورغم أنهم أن يعطيهم أمواله، ويتركوه حياً، فأبوا ذلك وقتلوه. وحينئذ دفن المقتول.

حكاية

أخبرت أن السلطان كول ركب يوماً إلى خارجها، وكان طريقه فيما بين البستين، ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك، فأخذ جبة واحدة من العتبة سقطت من بعض البستين. وكان السلطان ينظر إليه فأمر به عند ذلك، فوسط، وقسم نصفين، وصلب نصفه عن يمين الطريق، ونصفه الآخر عن يساره، وقسمت جبة العتبة نصفين، فوضع على كل نصف منه نصف منها، وترك هنالك عبرة للناظرين.

حكاية

وما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفاً بعض تجار المسلمين، فشكى بذلك إلى ابن عمه، فوعده بالنظر في أمره، وقد على باب داره. فإذا بابن أخيه متقدلاً ذلك السيف. فدعاه، فقال: هذا سيف المسلم؟ قال: نعم. قال: اشتريته منه؟ قال: لا. فقال لأعونه: أمسكه. ثم أمر به، فضربت عنقه بذلك السيف. وأقمت بكوم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني، شيخ زاوية قالقوط، فلم أتعرف للككم خبراً.

وفي أثناء مقامي بها ، دخل إليها أرسال ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا مع أحد تلك الجنوک ، فانكسر أيضاً ، فكما هم تجار الصين ، وعادوا إلى بلادهم ، ولقيتهم بها بعد . وأردت أن أعود من كولم إلى السلطان لأن علمه بما اتفق على المهدية ، ثم خفت أن يتعقب فعلٍ ويقول: لِمَ فارقت المهدية؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جال الدين الهنوري ، وأقم عندـه ، حتى أتعرف بـخبر الكـكم ، فـعدت إلى قالـقط ، وـوـجـدتـ بها بعض مـراـكـبـ السـلـطـانـ . فـبـعـثـ فيهاـ أمـيرـاًـ منـ العـربـ يـعـرـفـ بـالـسـيـدـ أـيـ الـحـسـنـ ، وـهـوـ مـنـ الـبـرـدـارـيـةـ ، وـهـمـ خـواـصـ الـبـوـابـيـنـ ، بـعـثـهـ السـلـطـانـ بـأـمـوـالـ يـسـتـجـلـبـ بهاـ منـ قـدـرـ عـلـيـهـ مـنـ العـربـ مـنـ أـرـضـ هـرـمـزـ وـالـقـطـيـفـ لـمـحـبـتـهـ فيـ العـربـ ، فـتـوـجـهـتـ إـلـىـ هـذـاـ الـأـمـيرـ ، وـرـأـيـتـهـ عـازـمـاًـ عـلـىـ أـنـ يـشـتـوـ بـقـالـقطـ ، وـحـيـنـذـ يـسـافـرـ إـلـىـ بـلـادـ الـعـربـ . فـشـاـورـتـهـ فـيـ العـودـةـ إـلـىـ السـلـطـانـ فـلـمـ يـوـافـقـ عـلـىـ ذـلـكـ . فـسـافـرـتـ بـالـبـحـرـ مـنـ قـالـقطـ ، وـذـلـكـ آخـرـ فـصـلـ السـفـرـ فـيـهـ . فـكـنـاـ نـسـيرـ نـصـفـ النـهـارـ الـأـوـلـ ثـمـ نـرـسـوـ إـلـىـ الـغـدـ . وـلـقـيـنـاـ فـيـ طـرـيقـنـ أـرـبـعـةـ أـجـفـانـ غـزوـيـةـ . فـخـفـنـاـ مـنـهـاـ ، ثـمـ لـمـ يـتـعـرـضـوـاـ لـنـاـ بـشـرـ . وـوـصـلـنـاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ هـنـورـ ، فـنـزـلـتـ إـلـىـ السـلـطـانـ ، وـسـلـمـتـ عـلـيـهـ . فـأـنـزلـنـيـ بـدـارـ ، وـلـمـ يـكـنـ لـيـ خـدـيمـ . وـطـلـبـ مـنـيـ أـنـ أـصـلـيـ مـعـهـ الصـلـوـاتـ . فـكـانـ أـكـثـرـ جـلوـسـيـ فـيـ مـسـجـدـهـ . وـكـنـتـ أـخـتـ الـقـرـآنـ كـلـ يـوـمـ ، ثـمـ كـنـتـ أـخـتـ مـرـتـيـنـ فـيـ الـيـوـمـ . أـبـتـدـيـ الـقـرـاءـةـ بـعـدـ صـلـاـةـ الصـبـحـ فـأـخـتـ مـعـنـدـ الزـوـالـ ، وـأـجـدـدـ الـوـضـوـءـ وـأـبـتـدـيـ الـقـرـاءـةـ فـأـخـتـ الـخـتـمـةـ الثـانـيـةـ عـنـدـ الغـرـوبـ . وـلـمـ أـزـلـ كـذـلـكـ مـدـةـ ثـلـاثـةـ أـشـهـرـ ، وـاعـتـكـفـتـ فـيـهـ أـرـبـعـينـ يـوـمـاًـ .

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور

وكان السلطان جال الدين قد جهز اثنين وخمسين مرکباً وسفرته برسم غزو سندابور . وكان وقع بين سلطانها ولده خلاف ، فكتب ولده إلى السلطان جال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ، ويسلم الولد المذكور ، ويزوجه السلطان أخته . فلما

تجهزت المراكب ، ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد . ففتحت المصحف أنظر فيه ، فكان في أول الصفح يذكر فيه اسم الله كثيراً ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه ﴾^(١) فاستبشرت بذلك . وأتى السلطان إلى صلاة العصر ، فقلت له : إني أريد السفر . فقال : فأنت إذاً تكون أميرهم . فأخبرته بما خرج لي في أول الصفح ، فأعجبه ذلك ، وعزم على السفر بنفسه . ولم يكن ظهر له ذلك من قبل ، فركب مركباً منها ، وأنا معه ، وذلك في يوم السبت . فوصلنا عشي الاثنين إلى سندابور ، ودخلنا خورها ، فوجدنا أهلها مستعدين للحرب ، وقد نصبوا المجانق . فبتنا عليها تلك الليلة . فلما أصبح ، ضربت الطبول والأنفار والأبواق ، وزحفت المراكب ، ورموا عليها بالمجانق . فلقد رأيت حجراً أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان . ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء ، وبأيديهم الترسة والسيوف . ونزل السلطان إلى العكيري ، وهو شبه الشلير ، ورمي بنفسي في الماء في جملة الناس . وكان عندنا طريدة تان مفتوحة الماخر ، فيها الخيل . وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ويخرج . ففعلوا ذلك . وأذن الله في فتحها ، وأنزل النصر على المسلمين . فدخلنا بالسيف ، ودخل معظم الكفار في قصر سلطانها . فرمينا النار فيه فخرجوها ، وقبضنا عليهم . ثم إن السلطان أمنهم ، ورد لهم نسائهم وأولادهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف ، وأسكنهم بربض المدينة . وسكن السلطان القصر ، وأعطي الديار بمقربة منه لأهل دولته ، وأعطاني جارية منهن ، تسمى بلكري ، فسميتها مباركة . وأراد زوجها فداءها فأبيت ، وكسانى فرجية مصرية ، وجدت في خزائن الكافر . وأقمت عنده بستنابور من يوم فتحها ، وهو الثالث عشر لجاهادي الأولى إلى منتصف شعبان . وطلبت منه الأذن في السفر ، فأخذ علي العهد في العودة إليه . وسافرت في البحر إلى هنور ، ثم إلى فاكنور ، ثم إلى منجرور ، ثم إلى هيلي ، ثم إلى جرفتن ودهقتن وبدقتن وفندرينا

(١) الحج : ٤٠ .

وقالقوط ، وقد تقدم ذكر جميعها ، ثم إلى مدينة الشاليات ، (وهي بالشين المعجم والف ولام وباء آخر الحروف والالف وتاء معلوقة) ، مدينة من حسان المدن ، تصنع بها الثياب المنسوبة لها . وأقامت بها ، فطال مقامي ، فعدت إلى قالقط . ووصل إليها غلامان كانوا لي بالكتكم ، فأخبراني أن الجارية التي كانت حاملاً ، وبسببها كان تغير خاطري توفيت . وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري ، واستولت الأيدي على المتع ، وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة فعدت لما تعرفت هذا ، إلى هنور ثم إلى سندابور ، فوصلتها في آخر المحرم ، وأقامت بها إلى الثاني من شهر ربيع الآخر . وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها ، وهرب إليه الكفار كلهم . وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى ، فانقطعوا عنا ، وحضرنا الكفار وضيقوا علينا . ولما اشتد الحال خرجت عنها ، وتركتها محصورة ، وعدت إلى قالقط ، وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل ، وكانت أسمع بأخبارها . وبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقط وصلنا جزائر ذيبة المهل ، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب ، والمهل (بفتح الميم ولهاء) . وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة ، ويكون منها مائة فيما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب ، لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر . وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي يأخذها عند الخروج من الأخرى ، فإن أخطأ المركب سمتها ، لم يمكنه دخوها ، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح . وهي منقسمة إلى أقاليم ، على كل إقليم واليسمونه الكردوي . ومن أقاليمها إقليم بالبور (وهو ببائن معقودتين وكسر اللام وآخره راء) ، ومنها كَنْتوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهملاً) ، ومنها إقليم المهل ، وبه تعرف الجزائر كلها . وبها يسكن سلاطينها ، ومنها إقليم تَلَادِيب (بفتح التاء

المعلوّة واللام والف وdal مهمّل وباء مد وباء موحّدة)، ومنها إقليم كارايدو (بفتح الكاف وسكون الياء المسفوّلة وضم الدال المهمّل وواو)، منها إقليم التّم (بفتح التاء المعلوّة وسكون الياء المسفوّلة)، ومنها إقليم تَلْدُمَّتِي (بفتح التاء المعلوّة الأولى واللام وضم الدال المهمّل وفتح الميم وتشدّدها وكسر التاء الأخرى وياء)، ومنها إقليم هَلْدُمَّتِي، وهو مثل اللّفظ الذي قبله إلا أن الهاء أوله، منها إقليم بَرَوَيْدُو (بفتح الباء الموحّدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمّل وواو)، ومنها إقليم كَنْدَكَل (بفتح الكافين والدال المهمّل ولام)، ومنها إقليم مُلُوك (بضم الميم)، ومنها إقليم السويد (بالسین المهمّل)، وهو أقصاها. وهذه الجزائر كلها لا زرع بها، إلا أن في إقليم السويد منها زرعاً يشبه أتلي، ويجلب منه إلى المهل. وإنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون، يسمونه قلب الماس (بضم القاف)، ولحمه أحمر، ولا زفر له، إنما ريحه كريح لحم الأنعام، وإذا اصطادوه، قطعوا السمكة منه أربع قطع، وطبخوه يسيراً، ثم جعلوه في مكائيل من سعف النخل، وعلقوه للدخان. فإذا استحكم يبسه أكلوه. ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن، ويسمونه قلب الماس (بضم القاف).

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر الناجيل، وهو من أقواتهم مع السمك، وقد تقدم ذكره. وأشجار الناجيل شأنها عجيب. وتشمر النخل منها اثنتي عشر عذقاً في السنة، يخرج في كل شهر عذق، فيكون بعضها صغيراً وبعضها كبيراً وبعضها يابساً وبعضها أخضر، هكذا أبداً. ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل، حسبما ذكرنا لك في السفر الأول. ويصنعون من عسله الحلواء، فیأكلونها مع الجوز اليابس منه. ولذلك كله، وللسمك الذي يغذون به قوة عجيبة في الباء، لا نظير لها. ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك. ولقد كان لي بها أربع نسوة

وجوار سواهن، فكنت أطوف على جيعبن كل يوم، وأبيت عند من تكون ليتلها. وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك. ومن أشجارها الجموع^(١) والأترج والليمون والقلقصاص، وهم يصنعون من أصوله دقيقاً يعملون منه شبه الأطيرية، ويطبخونها بحليب النارجيل، وهي من أطيب الطعام. كنت أستحسنها كثيراً وآكلها.

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة، أكلهم حلال، دعاؤهم مجاب. وإذا رأى الإنسان أحد هم قال له: الله ربى، محمد نبى، وأنا أمي مسكون. وأبدائهم ضعيفة، ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة، وسلامهم الدعاء. ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها، فغشى على جماعة منهم كانوا بالجلس. ولا تطرقهم لصوص الهند، ولا تذعرهم، لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئاً أصابته مصيبة عاجلة. وإذا أتت أ杰فان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم، ولم يتعرضوا لأحد منهم بسوء. وإن أخذ أحد الكفار، ولو ليومونة، عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح، خوفاً من عاقبة ذلك. ولو لا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنائهم. وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة، وأكثر عمارتهم بالخشب. وهم أهل نظافة وتتنزه عن الأقدار. وأكثرهم يغسلون مرتبين في اليوم تنظيفاً لشدة الحر بها، وكثرة العرق. ويكثرون من الأدھان العطرية كالصلندلية وغيرها، ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو. ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أنت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وماء الورد ودهن الغالية، فيكحل عينيه، ويدهن بماء الورد ودهن الغالية، فتصقل بشرتها، وتزيل الشحوب عن وجهه. ولباسهم فوط، يشددون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان

(١) في إحدى طبعات الكتاب: الجمدون.

(بكسر الواو وسكون اللام وياء) وهي شبه الأحاجم . وبعضهم يجعل عمامة ، وبعضهم منديلاً صغيراً عوضاً منها . وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب ، وضع ثوبه عن كتفيه ، وكشف ظهره ، ومضى معه كذلك ، حتى يصل إلى منزله . ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ، ومضى إلى دار زوجته ، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره . فإذا وصل إليها رمت على رجله ثوباً يأخذه خدامه ، وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره ، وجعل فيها الودع ، ورمي المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجله . وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم ، لا بد من ثوب يرمي عند ذلك ، وسنذكره .

وبنيانهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقياً من الرطوبات ، لأن أرضهم ندية . وكيفية ذلك أن ينحووا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفاً ، ويعرضون عليها خشب النارجيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب . ولهم صناعة عجيبة في ذلك ، ويبنون في أسطوان الدار بيتاً يسمونه المالم (بفتح اللام) ، يجلس الرجل به مع أصحابه ، ويكون له بابان : أحدهما إلى جهة الأسطوان يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خالية مملوءة ماء ، ولها مستقى ، يسمونه الوالنج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) ، هو من قشر جوز النارجيل ، وله نصاب ، طوله ذراعان . وبه يسكنون الماء من الآبار لقرها . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع ، وأذقتهم مكنوسة نقية ، تظللها الأشجار . فالماشي بها كأنه في بستان . ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخاوية بالمال ، ويسحها بمحصير غليظ من الليف ، يكون هنالك ، ثم يدخل بيته . وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد .

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب ، أن تخرج إليه الكنادر ، وهي القوارب الصغار ، واحدتها كندرة (بضم الكاف والدال) . وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول أو الكرنبة ، وهي جوز النارجيل الأخضر ، فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ، ويكون نزيله ، ويحمل أمتعته إلى داره ، كأنه بعض أقربائه . ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج . فإذا حان سفره ، طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن . ومن لم يتزوج ، فالمرأة التي ينزل بدارها ، تطبخ له وتحدهه وتزوجه إذا سافر ، وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسير شيء من الإحسان . وفائدة المخزن ، ويسمونه البندر ، أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظاً بسوم معلوم ، سواء كانت السلعة تتساوي بذلك أو أكثر منه ، ويسمونه شرع البندر . ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب ، يسمونه البجّاصاز (بفتح الباء الموحدة للبندر) بيت في كل جزيرة من الخشب ، يسمونه البجّاصاز (بفتح الباء الموحدة والجم) وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) ، يجمع به الوالي وهو الكردورى جميع سلعه ، ويباع بها ويشتري . وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج . فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست ، وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعائم ، وهي من القطن ، ويحملون منها أواني النحاس . فإنها عندهم كثيرة ، ويحملون الودع ، ويحملون القنب (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) ، وهو ليف جوز النارجيل . وهم يدبغونه في حفر على الساحل ، ثم يصربونه بالمرازب ، ثم تغزله النساء ، وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب ، وتحمل إلى الصين والهند واليمن ، وهو خير من القنب . وبهذه الحال تخطوا مراكب الهند واليمن ، لأن ذلك البحر كثير الحجارة ، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر ، وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر . وصرف أهل الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه في البحر ، ويضعونه في حفر هنالك ، فيذهب لحمه ، ويبقى عظمه أبيض ، ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياه

آخر الحروف) ، ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء) ، ويسمون الثاني عشر ألفاً منه الكتّي (بضم الكاف وتشديد التاء المثلثة) ، ويسمون المائة ألف منه بستُّو (بضم الباء الموحدة والتاء المثلثة وبينهما سين مهمل) ، ويُباع بها بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب ، وربما رخص حتى يُباع عشر بساتي منه بدينار . ويبيعونه من أهل بنجالة بالأرز ، وهو أيضاً صرف أهل بلاد بنجالة . ويبيعونه من أهل اليمن ، فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم . وهذا الودع أيضاً هو صرف السودان في بلادهم ، رأيته يُباع بمالي وجوجو بحساب ألف وخمسين ل الدينار الذهبي .

ذكر نسائها

ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ، ولا سلطانهن تغطي رأسها . ويُشطن شعورهن ، ويُجتمعنها إلى جهة واحدة . ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها . ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس ، فلم أُستطع ذلك . فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة في خصومة إلا مسترة الجسد ، وما عدا ذلك لم تكن عليه قدرة . ولباس بعضهن قمص زائد على الفوطة ، وقمصهن قصار الأكمام عراضها . وكان لي جواري كسوتهن لباس أهل دهلي يغطين رؤوسهن ، فعاينهن ذلك أكثر ما زانهن إذ لم يتعدنه . وحلينهن الأساور وتجعل المرأة منها جلة في ذراعيها ، بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق ، وهي من الفضة . ولا تحمل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربها . ولهن الخلاخيل ، ويسمونها البَلِيل (بباء موحدة والف وباء آخر الحروف مكسورة) ، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ، ويسمونها البَسْدَر (بالياء الموحدة وسكن السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) . ومن عجيب أفعالهن أنهن يؤحرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها . وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يرثن

ذلك عيّاً، ويفعله أكثر بناتهم. فتتجدد في دار الإنسان الغني منهاهن العشرة والعشرين. وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمتها. وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرتبته فيه، فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها، ويبيقى عليها للآخرين. وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر. والتزوج بهذه الجزائر سهل، لزيارة الصداق وحسن معاشرة النساء. وأكثر الناس لا يسمى صداقاً، إنما تقع الشهادة، ويعطى صداقاً مثلها. وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء، فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة. وهن لا يخرجن عن بلادهن أبداً. ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهاهن. ولا تأكل المرأة عندهم خدمة زوجها لسواهما ، بل هي تأتيه بالطعام ، وترفعه بين يديه ، وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة ، فأكلت معى بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معى ، ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتني حيلة في ذلك.

ذكر السبب في إسلام هذه الجزائر وذكر العفاريت من الجن التي تضر بها في كل شهر

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني ، والفقير المعلم علي ، والقاضي عبد الله ، وجاءة سواهم ، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفاراً ، وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن ، يأتي ناحية البحر ، كأنه مركب مملوء بالقناديل . وكانت عادتهم إذا رأوه ، أخذوا جارية بكرأ فزيونها وأدخلوها إلى بدخانة . وهي بيت الأصنام ، وكان مبنياً على صفة البحر ، وله طاق ينظر إليه ، ويتركونها هنالك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتصلة ميتة . ولا يزالون في كل شهر يقترون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته . ثم إنه قدم عليهم

مغربي يسمى بأبي البركات البربرى ، وكان حافظاً للقرآن العظيم ، فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل ، فدخل عليها يوماً ، وقد جمعت أهلها ، وهن يبكين لأنهن في مأتم . فاستفهمهن عن شأنهن ، فلم يفهمنه . فأتى ترجان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها ، وليس لها إلا بنت واحدة ، يقتلها العفريت . فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضاً من بنتك بالليل . وكان ساطاً ، لا حية له ، فاحتملوه تلك الليلة ، وأدخلوه إلى بدخانة ، وهو متوضئ . وأقام يتلو القرآن ، ثم ظهر له العفريت من الطاق ، فدأوم التلاوة ، فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر . وأصبح المغربي ، وهو يتلو على حاله . فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ، ليستخرجوها البنت على عادتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربي يتلو ، فمضوا به إلى ملكهم ، وكان يسمى شنورازة (بفتح الشين المعجم وضم النون وواو وراء والف وزاي وفاء) ، وأعلموا بخبره ، فعجب . وعرض المغربي عليه الإسلام ، ورغبه فيه . فقال له أقم عندنا إلى الشهر الآخر ، فإن فعلت كفعلك ، ونحوت من العفريت أسلمت .. فأقام عندهم . وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته . ثم حل المغربي لما دخل الشهر إلى بدخانة ، ولم يأت العفريت ، فجعل يتلو حتى الصباح . وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الأصنام ، وهدموا بدخانة ، وأسلم أهل الجزيرة ، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها . وأقام المغربي عندهم معظمماً ، وتذهبوا بمذهبهم مذهب الإمام مالك رضي الله عنه . وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه ، وبنى مسجداً هو معروف باسمه ، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشاً في الخشب أسلم السلطان أحد شنورازة على يد أبي البركات البربرى المغربي . وجعل ذلك السلطان ثلث مجايا الجزائر صدقة على أبناء السبيل ، إذ كان إسلامه بسببيهم . فسمى على ذلك حتى الآن ، وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام .

ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه. فبينا أنا ذات ليلة في بعض شأنٍ، إذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير، ورأيت الأولاد، وعلى رؤوسهم المصاحف، والنساء يضربن في الطسوت وأواني النحاس. فعجبت من فعلهم، وقلت ما شأنكم؟ فقالوا: ألا تنظر إلى البحر؟ فنظرت فإذا مثل المركب الكبير، وكأنه مملوء سرجاً ومشاعل. فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة في الشهر. فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا.

ذكر سلطانة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة، وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي. وكان الملك لجدها ثم لأبيها، فلما مات أبوها ولـيـ أخـوهـاـ شـهـابـ الدـينـ،ـ وـهـوـ صـغـيرـ السـنـ.ـ فـتـزـوـجـ الـوـزـيـرـ عـبـدـ اللهـ ابنـ مـحـمـدـ الـخـضـرـيـ أـمـهـ،ـ وـغـلـبـ عـلـيـهـ،ـ وـهـوـ الـذـيـ تـزـوـجـ أـيـضاـ هـذـهـ السـلـطـانـةـ خـدـيـجـةـ بـعـدـ وـفـاةـ زـوـجـهـ الـوـزـيـرـ جـالـ الدـينـ،ـ كـمـاـ سـنـذـكـرـهـ.ـ فـلـمـ بـلـغـ شـهـابـ الدـينـ مـبـلـغـ الرـجـالـ،ـ أـخـرـجـ رـبـيـبـهـ الـوـزـيـرـ عـبـدـ اللهـ،ـ وـنـفـاهـ إـلـىـ جـزـائـرـ السـوـيـدـ.ـ وـاستـقـلـ بـالـمـلـكـ،ـ وـاسـتـوـزـرـ أـحـدـ مـوـالـيـهـ،ـ وـيـسـمـيـ عـلـيـ كـلـكـيـ،ـ ثـمـ عـزـلـهـ بـعـدـ ثـلـاثـةـ أـعـوـامـ،ـ وـنـفـاهـ إـلـىـ لـسـوـيـدـ.ـ وـكـانـ يـذـكـرـ عـنـ السـلـطـانـ شـهـابـ الدـينـ الـمـذـكـورـ أـنـ يـخـتـلـفـ إـلـىـ حـرـمـ أـهـلـ دـوـلـتـهـ وـخـواـصـهـ بـالـلـلـيـلـ،ـ فـخـلـعـوـهـ لـذـكـرـ وـنـفـوـهـ إـلـىـ إـقـلـيمـ هـلـدـتـنـيـ،ـ وـبـعـثـوـاـ مـنـ قـتـلـهـ بـهـاـ.ـ وـلـمـ يـكـنـ بـقـيـ مـنـ بـيـتـ الـمـلـكـ إـلـاـ أـخـوـاتـهـ خـدـيـجـةـ الـكـبـرـيـ وـمـرـيمـ وـفـاطـمـةـ،ـ فـقـدـمـوـاـ خـدـيـجـةـ سـلـطـانـةـ،ـ وـكـانـتـ مـتـزـوـجـةـ لـخـطـيـبـهـ جـالـ الدـينـ،ـ فـصـارـ وـزـيـرـاـ وـغـالـبـاـ عـلـىـ الـأـمـرـ،ـ وـقـدـمـ وـلـدـهـ مـحـمـدـاـ لـلـخـطـابـةـ عـوـضـاـ مـنـهـ.ـ وـلـكـنـ الـأـوـامـرـ إـنـماـ تـنـفـذـ بـاسـمـ خـدـيـجـةـ.ـ وـهـمـ يـكـتـبـونـ الـأـوـامـرـ فـيـ سـعـفـ النـخـلـ بـمـدـيـدـةـ مـعـوـجـةـ شـبـهـ السـكـينـ.ـ وـلـاـ يـكـتـبـونـ فـيـ الـكـاغـدـ إـلـاـ مـصـاحـفـ وـكـتـبـ الـعـلـمـ،ـ وـيـذـكـرـهـ الـخـطـيـبـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ،ـ وـغـيـرـهـاـ،ـ فـيـقـولـ:ـ اللـهـمـ اـنـصـرـ أـمـتـكـ الـتـيـ اـخـرـتـهـاـ عـلـىـ عـلـمـ عـلـىـ الـعـالـمـيـنـ،ـ وـجـعـلـتـهـ رـحـمـةـ لـكـافـةـ الـمـسـلـمـيـنـ،ـ أـلـاـ وـهـيـ السـلـطـانـةـ خـدـيـجـةـ بـنـتـ السـلـطـانـ جـالـ

الدين ابن السلطان صلاح الدين . ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ، ومضى إلى المشور ، وهم يسمونه الدار ، فلا بد له أن يستصحب ثوبين ، فيخدم لجهة هذه السلطانة ، ويرمي بأحدتها ، ثم يخدم لوزيرها ، وهو زوجها جمال الدين ، ويرمي بالثانية . وجندتها نحو ألف نفر من الغرباء ، وبعضهم بليدين . ويأتون كل يوم إلى الدار ، فيخدمون وينصرفون . ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر في كل شهر ، فإذا تم الشهر أتوا الدار ، وخدموها ، وقالوا للوزير : بلغ عنا الخدمة ، واعلم بأننا أتينا بطله ، مرتبنا . فيؤمر لهم به عند ذلك . ويأتي أيضاً إلى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطط ، وهم الوزراء عندهم ، فيخدمون ، وبلغ خدمتهم الفتىان ، وينصرفون .

ذكر أرباب الخطط وسيرهم

وهم يسمون الوزير الأكبر النائب عن السلطانة كَلَّكِي (بفتح الكاف الأولى واللام) ، ويسمون القاضي فَنْدُرِيَارْ قَالُوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن وdal مهملاً مفتوحاً وباء آخر الحروف والـf وـr وـq وـl وـm مضموم) ، وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضي ، وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين ، وأمره كأمر السلطان وأشد ، ويجلس على بساط في الدار . وله ثلاث جزائر ، يأخذ مجباها لنفسه . عادة قدية أجراها السلطان أحمد شورازة . ويسمون الخطيب هَنْدِيجَري (بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وباء مد وجيم مفتوح وراء وباء) . ويسمون صاحب الديوان الفَامِلداري (بفتح الفاء والميم والـd والـm مهملاً) ، واسم صاحب الأشغال مَا فَا كَلُو (بفتح الميم والكاف وضم اللام) ، واسم الحاكم فِتَنَا يَكَ (بكسر الفاء وسكون التاء المعلوقة وفتح النون والـf وباء آخر الحروف مفتوحة أيضاً وكاف) ، واسم قائد البحر مَا نَا يَكَ (بفتح الميم والنون والـyاء) . وكل من هؤلاء يسمى وزيراً . ولا سجن عندهم بتلك الجزائر ، إنما يحبس أرباب الجرائم في بيوت خشب ، هي معدة لأمتعة التجار ، ويجعل أحدهم في خشبة ، كما

يفعل عندنا بأسارى الروم.

ذكر وصولي إلى هذه الجزر وتنقل حالي بها

ولما وصلت إليها نزلت بجزيرة كنلوس، وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة. ونزلت بدار رجل من صلحائها، وأضافني بها الفقيه علي، وكان فاضلاً، له أولاد من طلبة العلم. ولقيت بها رجلاً اسمه محمد من أهل ظفار الحموض، فأضافني وقال لي: إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها. فابنهم لا قاضي عندهم. وكان غرضي أن أسافر منها إلى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم إلى الصين. وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر المتصوري، وهو من الحجاج الفضلاء.

ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشراً، ثم اكتفى كندرة يسافر فيها إلى المهل، بهدية للسلطانة وزوجها، فأردت السفر معه، فقال: لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك. فإن شئت السفر منفرداً عنهم فدونك، فأبيت ذلك، وسافر. فلubits به الريح، وعاد إلينا بعد أربعة أيام، وقد لقي شدائد. فاعتذر لي، وعزم علي في السفر معه ب أصحابي، فكنا نرحل غدوة، فتنزل في وسط النهار بعض الجزر، ونرحل فنبت بآخرى.

ووصلنا بعد أيام إلى إقليم التيم. وكان الكردوي يسمى بها هلالاً، فسلم علي وأضافني. وجاء إلي ومعه أربعة رجال، وقد جعل اثنان منهم، عوداً على أكتافهما، وعلقا منه أربع دجاجات، وجعل الآخران عوداً مثله، وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل. فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير. فأخبرت أنهم صنعواه على جهة الكرامة والإجلال. ورحلنا عنهم، فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان، وهو رجل فاضل من خيار الناس، فأكرمنا وأضافنا. وفي اليوم

الثامن نزلنا بجزيرة لوزير ، يقال له التلمذى . وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل ، حيث السلطانة وزوجها . وأرسينا بمرساهما . وعادتهم ان لا ينزل أحد من المرسى إلا ياذنهم . فأذنوا لنا بالنزول ، وأردت التوجه إلى بعض المساجد فمعنى الخدام الذين بالساحل ، وقالوا : لا بد من الدخول إلى الوزير .

وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عني : لا أعرفه ، خوفاً من إمساكهم إياي . ولم أعلم أن بعض أهل الفضول ، قد كتب إليهم معرفاً بخبرى ، وأني كنت قاضياً بدھلي ، فلما وصلت إلى الدار ، وهو المشور ، ونزلنا في سقائف على الباب الثالث منه ، وجاء القاضي عيسى اليمني ، فسلم علي ، وسلمت على الوزير ، وجاء الناخوذة إبراهيم عشرة أثواب ، فخدم لجهة السلطانة ، ورمى بثوب منها ، ثم خدم للوزير ، ورمى بثوب آخر ، ورمى بجميعها ، وسئل عنى فقال : لا أعرفه . ثم أخرجوا التنبول وماء الورد ، وذلك هو الكرامة عندهم ، وأنزلنا بدار ، وبعث إلينا الطعام ، وهو قصة كبيرة فيها الأرز ، وتدور بها صحف فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك . ولما كان بالغد مضيit مع الناخوذة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة ، عمرها الشيخ الصالح نجيب ، وعدنا ليلاً . وبعث الوزير إلى صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة ، فيها الأرز والسمن والخليل وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها ، وهم يسمونه القرّباتي (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والف ونون وباء) ، ومعنى ذلك ماء السكر . وأتوا بمائة ودعة للنفقة . وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفونني . فعرفوا خدام الوزير بأمرى ، فزاد اغتاباطي . وبعث عني عند استهلال رمضان ، فوجدت الأمراء والوزراء . وأحضر الطعام في موائد ، يجتمع على المائدة طائفة . فأجلسني الوزير إلى جانبه ، ومعه القاضي عيسى ، والوزير الفاملداري ، والوزير عمر دهرد ، ومعناه مقدم العسكر . وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والخليل والموز المطبوخ ،

ويشربون بعده عسل النار جيل مخلوطاً بالأفوايه ، وهو يهضم الطعام . وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته ، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ، ولم يدخل بها أحد منها لصغرها ، فردها أبوها لداره ، وأعطاني دارها ، وهي من أجل الدور . واستأذته في ضيافة القراء القادمين من زيارة القدم^(١) فأذن لي في ذلك ، وبعث إلى خسماً من الغنم ، وهي عزيزة عندهم ، لأنها مجيبة من المعبر والمليبار ومقدشو ، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير . فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك ، فطبع لي بها ، فأحسن في طبخه وزاد فيه ، وبعث الفرش وأواني النحاس ، وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير . واستأذته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فقال لي : وأنا أحضر أيضاً ، فشكرته وانصرفت إلى داري ، فإذا به قد جاء ، ومعه الوزراء وأرباب الدولة . فجلس في قبة خشب مرتفعة . وكان كل من يأتي من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ، ويرمي بثوب غير مخيط ، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها ، فأخذها القراء . وقدم الطعام فأكلوا ، ثمقرأ القراء بالأصوات الحسان ، ثم أخذوا في السماع والرقص . وأعدت النار ، فكان القراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ، ومنهم من يأكلها ، كما تؤكل الحلوا ، إلى أن خدت .

ذكر بعض إحسان الوزير إلى

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ، ومضيت معه ، فمررتنا ببستان للمخزن . فقال لي الوزير : هذا البستان لك ، وسأعمل لك فيه داراً لسكناك . فشكرت فعله ، ودعوت له . ثم بعث لي من الغد بخارية وقال لي خديه : يقول لك الوزير : إن أعجبتك هذه فهي لك ، وإنما بعثت لك بخارية مرهتية ، وكانت الجواري المرهتية تعجبني ، فقلت له : إنما أريد المرهتية ، فبعثها لي ، وكان اسمها

(١) أي : قدم آدم عليه السلام في جزيرة سيلان ، وسيأتي الحديث عنها .

قل استان ، ومعناه زهر البستان ، وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبتني . وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه ، ثم بعث إلى في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبرى . ولما كانت الليلة بعدها ، جاء الوزير إلى بعد العشاء الأخيرة في نفر من أصحابه ، فدخل الدار ، ومعه غلامان صغيران ، فسلمت عليه ، وسألني عن حالي ، فدعوت له وشكرته ، فالقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقة) ^(١) ، وهي شبه السبنية ، وأخرج منها ثياب حرير ، وحُقّاً فيه جوهر فأعطاني ذلك ، وقال لي : لو بعثته لك مع الجارية ، لقالت هو مالي جئت به من دار مولاي ، والآن هو مالك ، فأعطيه إياه . فدعوت له وشكرته ، وكان أهلاً للشكرا ، رحمة الله .

ذكر تغيرة وما أرده من الخروج ومقامي بعد ذلك

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث إلى أن أتزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستاذنا في ذلك . فعاد إلى الرسول ، وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحب أن يزوجك بنته ، إذا انقضت عدتها . فأبكيت أنا ذلك ، وخفت من شؤمها ، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول ، وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها . ولا بد لكل من يدخل ، تلك الجزيرة أن يحم ، فقوى عزمي على الرحالة عنها ، فبعث بعض الخلي بالودع ، واكتربت مرکباً أسافر فيه لبنيجالة . فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلى القاضي فقال : الوزير يقول لك : إن شئت السفر ، فأعطينا ما أعطيناك وسافر . فقلت له : إن بعض الخلي اشتريت به الودع ، فشأنكم وإيابه . فعاد إلى فقال : إنما أعطيناك الذهب ولم نعطيك الودع . فقلت له : أنا أبيعه ، وآتيكم بالذهب . فبعثت إلى التجار ليشتوروه مني ، فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا . وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه . ثم بعث إلى أحد خواصه وقال :

(١) هي التي تعرف باسم : البقة ، وهي منديل توضع فيه الأشياء ، ويصر عليها .

الوزير يقول لك: أقم عندنا، ولك كل ما أحبيت، فقلت في نفسي: أنا تحت حكمهم، وإن لم أقم مختاراً أقمت مضطراً، فالإقامة باختياري أولى. وقلت لرسوله: نعم، أنا أقيم معه، فعاد إليه ففرح بذلك، واستدعاني. فلما دخلت إليه قام إلي وعانقني وقال: نحن نريد قربك، وأنت ت يريد بعد عنا. فاعتذرته له، فقبل عذرني، وقلت له: إن أردتم مقامي فأنا اشترط عليكم شروطاً. فقال: قبلها فاشترط. فقلت له: أنا لا أستطيع المشي على قدمي، ومن عادتهم أن لا يركب أحد هناك إلا الوزير. ولقد كت لما أعطوني الفرس فركبته، يتبعني الناس رجالاً وصبياناً، يعجبون مني حتى شكوت له. فضررت الدنقرة، وبرح^(١) في الناس أن لا يتبعني أحد، والدُّنْقُرَةُ (بضم الدال المهمل وسكون التون وضم الناس أن لا يتبعني أحد، والدُّنْقُرَةُ (بضم الدال المهمل وسكون التون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بجديدة، فيسمع لها صوت على بعد. فإذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد. فقال لي الوزير: إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندي حسان ورمكة^(٢)، فاختر أيهما شئت. فاخترت الرمكة. فأتواني بها في تلك الساعة، وأتواني بكسوة. فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته؟ فقال: أبعث أحد أصحابك ليبيعه لك بينماجالة، فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك. فقال: نعم. فبعث حينئذ رفيقي أبي محمد بن فرحان، ويعثروا معه رجلاً يسمى الحاج علياً، فاتفق أن هال^(٣) البحر، فرموا بكل ما عندهم، حتى الزاد والماء والصاري والقربة. وأقاموا ست عشرة ليلة لا يقلع لهم ولا سكان ولا غيره. ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان، بعد جوع وعطش وشدائد وقدم على صاحبي أبو محمد بعد سنة، وقد زار القدم، وزارها مرة ثانية معي.

(١) أي: أعلن.

(٢) الرمكة: الفرس.

(٣) هال البحر، أي: هاج.

ذكر العيد الذي شاهدته معهم

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلى بكسوة، وخرجنا إلى المصلى، وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى، وفرشت الشياب فيها، وجعلت كتاتي الودع مينة ويسرة. وكل من له على طريقه دار من الأماء والكبار، قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز، ومدة من شجرة إلى أخرى شرائط، وعلق منها الجوز الأخضر. ويقف صاحب الدار عند بابها، فإذا مرَّ الوزير رمى على رجليه ثوباً من الحرير أو القطن، فيأخذه عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضاً، والوزير ماش على قدميه، وعليه فرجية مصرية من المراعز، وعمامة كبيرة، وهو متقلد فوطة حرير، وفوق رأسه أربعة شطور، وفي رجليه النعل، وجميع الناس سواه حفاة. والأبواق والأنفار والأطفال بين يديه، والعساكر أمامه وخلفه، وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى، فخطب ولده بعد الصلاة. ثم أتي بمحفة فركب فيها الوزير وخدم الأماء والوزراء، ورموا بالشياب على العادة. ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك، لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك. ثم رفعه الرجال، وركبت فرسى، ودخلنا القصر. فجلس بموضع مرتفع، وعنده الوزراء والأماء، ووقف العبيد بالترسسة والسيوف والعصي، ثم أتي بالطعام ثم الفوفل والتبنول، ثم أتي بصفحة صغيرة فيها الصندل المقااري. فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل. ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ، أهدي لهم من كولم، وهو في بلاد المليبار كثير. فأخذ الوزير سردينة وجعل يأكلها. وقال لي: كل منه، فإنه ليس بيلاينا. فقلت: كيف آكله وهو غير مطبوخ؟ فقال: إنه مطبوخ. فقلت: أنا أعرف به، فإنه بيلادي كثير.

ذكر تزوجي وولايتي القضاة

وفي الثاني من شوال اتفقت مع الوزير سليمان مانايك على تزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر ، فأجاب إلى ذلك ، وأحضر التنبول على العادة والصندل ، وحضر الناس ، وأبطأ الوزير سليمان ، فاستدعي ، فلم يأتِ ، ثم استدعي ثانية ، فاعتذر بمرض البنت . فقال لي الوزير سرّاً : إن بنته امتنعت ، وهي مالكة أمر نفسها . والناس قد اجتمعوا فهلن لك أن تتزوج بربية السلطان زوجة أبيها ، وهي التي ولده متزوج بنته؟ فقلت له : نعم . فاستدعي القاضي والشهدود ، ووقيت الشهادة ، ودفع الوزير الصداق ، ورفعت إلى بعد أيام ، فكانت من خيار النساء . وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تعيني وتبخر أثوابي ، وهي ضاحكة ، لا يظهر عليها تغير . ولما تزوجتها أكرهني الوزير على القضاء . وسبب ذلك اعتراضي على القاضي ، لكونه كان يأخذ العشر من التركات ، إذا قسمها على أربابها فقلت له : إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة ، ولم يكن يحسن شيئاً ، فلما وليت ، اجتهدت جاهدي في إقامة رسوم الشرع . وليس هناك خصومات ، كما هي ببلادنا . فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين . وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره . فحسمت علة ذلك . وأتي إلى بنحو خمسة وعشرين رجلاً من فعل ذلك ، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم ، ثم اشتدت في إقامة الصلوات ، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأئمة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجده لم يصل ضربته وشهرته . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المراقبة على ما هم بسيله ، وكتبت إلى جميع الجزاير بنحو ذلك وجهت أن أكسو النساء ، فلم أقدر على ذلك .

ذكر قدوم الوزير عبدالله بن محمد الخضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين إلى السويد وما وقع بيني وبينه

كنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته، وأحببته حباً شديداً. ولما بعث الوزير عنه، ورده إلى جزيرة المهل، بعثت له التحف، وتلقيته ومضيت معه إلى القصر فسلم على الوزير، وأنزله في دار جيدة. فكنت أزوره بها. واتفق أن اعتكفت في رمضان. فزارني جميع الناس إلا هو، وزارني الوزير جمال الدين، فدخل هو معه، بحكم المواقفة. فووّقت بيننا الوحشة. فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلى أخوال زوجتي ربيبته أولاد الوزير جمال الدين السنجري، فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبدالله، وأن ما لهم باق بيده، وقد خرجنوا عن حجره بحكم الشرع، وطلبو إحضاره بمجلس الحكم، وكانت عادتي إذا بعثت عن خصم من الخصوم، أبعث له قطعة كاغد مكتوبة، فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي، وإلا عاقبته، فبعثت إليه على العادة، فأغضبه ذلك، وحقدتها لي، وأضمر عداوتي، ووكل من يتكلّم عنه، وبلغني عنه كلام قبيح. وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين، وخدمتهم أن يوصلوا السبابية إلى الأرض، ثم يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم. فأمرت المنادي فنادي بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنه من خدم للوزير عبدالله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد. وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك. فزادت عداوته. وتزوجت أيضاً زوجة أخرى، بنت وزير معظم عندهم، كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحد شنوارازه. ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين، وعمرت ثلاثة ديار بالستان الذي أعطانيه الوزير. وكانت الرابعة هي ربيبة الوزير عبدالله، تسكن في دارها، وهي أحبهن إلى فلما صاحرت من ذكرته، هابني الوزير وأهل الجزيرة، وتخلوفوا مني لأجل

ضعفهم، وسعوا بيني وبين الوزير بالنائم، وتولى الوزير عبدالله كبر ذلك حتى
تمكنت الوحشة.

ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك

وأتفق في بعض الأيام أن عباداً من عبيد السلطان الذي شكته زوجته إلى
الوزير، وأعلمته أنه عند سرية من سرارى السلطان يزني بها. فبعث الوزير
الشهود، ودخلوا دار السرية، فوجدوا الغلام نائماً معها في فراش واحد،
وحبوسها. فلما أصبحت وعلمت بالخبر، توجهت إلى المشور، وجلست في
موضع جلوسي، لم أتكلم في شيء من أمرها. فخرج إلي بعض الخواص فقال:
يقول لك الوزير: ألك حاجة؟ قلت: لا. وكان قصده أن أتكلم في شأن السرية
والغلام. إذ كانت عادي أن لا تقطع قضية إلا حكمت فيها. فلما وقع التغير
وال الوحشة قصرت في ذلك. فانصرفت إلى داري بعد ذلك، وجلست بموضع
الأحكام. فإذا ببعض الوزراء، فقال الوزير: يقول لك: إنه وقع البارحة كيت
وكيت، لقضية السرية والغلام، فاحكم فيها بالشرع فقلت له: هذه قضية
لا ينبغي الحكم أن يكون فيها إلا بدار السلطان، فعدت إليها واجتمع الناس
وأحضرت السرية والغلام، فأمرت بضررها في الخلوة، وأطلقت سراح المرأة،
وحجبت الغلام. وانصرفت إلى داري، فبعث الوزير إلى جماعة من كبراء ناسه
في شأن تسريع الغلام، فقلت لهم: أتشفعون في غلام زنجي يهتك حرمة مولاه؟
وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له؟
وأمرت بالغلام عند ذلك، فضرب بقضبان الخيزران، وهي أشد وقعاً من
السياط، وشهرته بالجزيرة، وفي عنقه حبل. فذهبوا إلى الوزير فأعملوه. فقام
وقد، واستنشاط غضباً، وجمع الوزراء ووجوه العسكري، وبعث عنى فجئته.
وكانت عادي أن أخدم له، فلم أخدم. وقلت: سلام عليكم. ثم قلت

للحاضرين : اشهدوا علي أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه . فكلمني الوزير ، فصعدت وقعدت بموضع أقبله فيه ، وجاوبته أغاظ جواب . وأذن مؤذن المغرب ، فدخل إلى داره وهو يقول : ويقولون إني سلطان . وها أنذا طلبه لأغضب عليه ، فغضب علي . وإنما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند ، لأنهم تحققوا مكانتي عنده ، وإن كانوا على بعد منه ، فخوفه في قلوبهم متمكن . فلما دخلنا إلى داره بعث إلى القاضي المعزول ، وكان جريء اللسان ، فقال لي : إن مولانا يقول لك : كيف هتك حرمته على رؤوس الأشهاد ولم تخدم له ؟ فقلت له : إنما كنت أخدم له حين كان قلبي له طيباً ، فلما وقع التغير تركت ذلك ، وتحية المسلمين إنما هي السلام ، وقد سلمت . فبعثه إلى ثانية فقال : إنما غرضك الرحيل عنا ، فأعطي صداقات النساء وديون الناس ، وانصرف إذا شئت . فخدمت له على هذا القول ، وذهبت إلى داري ، فخلصت مما علي من الدين . وقد أعطاني في تلك الأيام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها . وكان يعطيني كل ما أطلبه ، ويجبني ويكرمني ، ولكنه غير خاطره ، وتخوف مني . فلما عرف أني قد خلصت الدين وعزمت على الرحيل ، ندم على ما قاله ، وتلكأ في الإذن لي في الرحيل . فحلفت بالأيمان المغلظة أن لا بد من رحيلي . ونقلت ما عندي إلى مسجد على البحر ، وطلقت إحدى الزوجات ، وكانت إحداهن حاملاً ، فجعلت لها أجلاً تسعه أشهر ، إن عدت فيها ، وإلا فأمرها بيدها . وحملت معها زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمهما لأبيها بجزيرة ملوك ، وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطانة . وتتوافقت مع الوزير عمر دهرد ، والوزير حسن قائد البحر ، على أن أمضي إلى بلاد المعبر . وكان ملكهما سلفي فأبي مدها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه ، وأنوب أنا عنه فيها . وجعلت بيبي وبينهم علامه : رفع أعلام بيض في المراكب . فإذا رأوها ثاروا في البحر . ولم أكن حدثت نفسي بهذا قط ، حتى وقع ما وقع من التغير . وكان الوزير خائفاً

مني يقول للناس: لا بد لهذا ان يأخذ الوزارة، إما في حياتي، وإما بعد مماتي. ويكثر السؤال عن حالي، ويقول: سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها على. وكان يخاف من سفري لثلاثة آتى بالجيوش من بلاد المغير. فبعث إلى أن أقيم حتى يجهز لي مركباً ف ABIET. وشكك أخت السلطانة إليها بسفر أنها معي، فأرادت منها فلم تقدر على ذلك. فلما رأت عزمها على السفر قالت لها: إن جميع ما عندك من الخلي هو من مال البندر، فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وله لك، وإن فرديه، وكان حلياً له خطر فردهه إليهم، وأنتأني الوزراء والوجوه، وأنا بالمسجد، وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم: لو لا أنا حلفت لعدت. فقالوا: تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبر قسمك وتعود. فقلت لهم: نعم: إرضاء لهم. فلما كانت الليلة التي سافرت فيها، أتيت لوداع الوزير فعانقني وبكي حتى قطرت دموعه على قدمي، وبات تلك الليلة يحرس الجزيرة بنفسه خوفاً أن يثور عليه أصحابي وأصحابي. ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير على. فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة، وأحبت الرجوع فطلقتها، وتركتها هنالك، وكانت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده، وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل. وبعثت عن جارية كنت أحبها، وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم.

ذكر النساء ذوات الثدي الواحد

وفي بعض تلك الجزائر، رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها، ولها ابنتان إحداهما كمثلها ذات ثدي واحد، والأخرى ذات ثديين، إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن، والآخر صغير لا لبن فيه. فعجبت من شأنهن، ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر ليس بها إلا دار واحدة فيها رجل حائط له زوجة وأولاد، ونخيلات نارجيل، وقارب صغير يصطاد فيه السمك. ويسيطر به إلى حيث أراد

من الجزائر. وفي جزيرته أيضاً شجيرات موز. ولم نر فيها من طيور البر الغير غرائب خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة وطاها بمركبنا. فغبطت والله ذلك الرجل، وودت أن لو كانت تلك الجزيرة لي، فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين. ثم وصلت إلى جزيرة ملوك، حيث المركب الذي للناخوذة إبراهيم، وهو الذي عزمت على الرحيل فيه إلى المعبر. فجاء إلى وعده أصحابه، وأضاعوني صيافة حسنة. وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكوادة، وهي الودع، وعشرين قدحًا من الأطوان، وهي عسل النارجيل، وعدداً معلوماً من التنبول والفوول والسمك في كل يوم. وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوماً، وتزوجت بها امرأتين. وهي من أحسن الجزائر، خضراء نضرة، رأيت من عجائبها أن الفصن ينقطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة. ورأيت الرمان بها لا يقطع له ثمر بطول أيام السنة. وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره، فأرادوا إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره، فوقع الشاجر بسبب ذلك، وعدنا إلى المهل، ولم ندخلها. وكتب إلى الوزير معلمًا بذلك، فكتب أن لا سبيل لأخذ السلاح. وعدنا إلى ملوك، وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين. وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جال الدين رحمه الله، وكانت السلطانة حاملاً منه، فولدت إثر وفاته، وتزوجها الوزير عبد الله. وسافرنا، ولم يكن معنا رئيس^(١) عارف. ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام، فسرنا نحو تسعه أيام. وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان، ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهباً في السماء كأنه عمود دخان. ولما وصلناها قال البحريه: إن هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمنين، إنما هذا

(١) وفي إحدى طبعات الكتاب: رئيس، والمقصود: ربان السفينة.

مرسى في بلاد السلطان إيري شكرولي، وهو من العتاة المفسدين. وله مراكب تقطع في البحر، فخفنا أن ننزل بمرساه. ثم اشتدت الرياح فخفنا الغرق فقلت للناخوذة: نزلي إلى الساحل، وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان، ففعل ذلك، وأنزلني بالساحل. فأثانا الكفار فقالوا: من أنت؟ فأخبرتهم أني سلف سلطان المعبر وصاحبـه، جئت لزيارته. وأن الذي في هذا المركب هدية له. فذهبوا إلى سلطانـهم فأعلموه بذلك، فاستدعاني فذهبـت له إلى مدينة بـطـالـة (وـضـبـطـ اسـمـهاـ بـفـتـحـ الـباءـ الـمـوـحـدةـ وـالـطـاءـ الـمـهـمـلـ وـتـشـدـيـدـهاـ)، وـهـيـ حـضـرـتـهـ، مدـيـنـةـ صـغـيرـةـ حـسـنـةـ، عـلـيـهـ سـورـ خـشـبـ، وـأـبـرـاجـ خـشـبـ. وـجـمـيعـ سـواـحـلـهاـ مـلـوـءـةـ بـأـعـوـادـ الـقـرـفـةـ. تـأـقـيـ بـهـاـ السـيـوـلـ فـتـجـمـعـ بـالـسـاحـلـ، كـأـنـهـ الـرـوـاـيـ، وـيـحـمـلـهـ أـهـلـ الـمـعـبـرـ وـالـمـلـيـيـارـ دـوـنـ ثـمـ. إـلـاـ أـنـهـ يـهـدـونـ لـلـسـلـطـانـ فـيـ مـقـابـلـةـ ذـلـكـ الثـوـبـ وـخـوـهـ. وـبـيـنـ بـلـادـ الـمـعـبـرـ وـهـذـهـ الـجـزـيـرـةـ مـسـيـرـ يـوـمـ وـلـيـلـةـ. وـبـهـ أـيـضاـ مـنـ خـشـبـ الـبـقـمـ كـثـيرـ، وـمـنـ الـعـودـ الـهـنـدـيـ الـمـعـرـوـفـ بـالـكـلـخـيـ، إـلـاـ أـنـهـ لـيـسـ كـالـقـمـارـيـ وـالـقـاقـقـيـ^(١)، وـسـنـذـكـرـهـ.

ذكر سلطان سيلان

واسمـهـ أـيـرـيـ شـكـرـوـتـيـ (بـفـتـحـ الـهـمـزةـ وـسـكـونـ الـيـاءـ وـكـسـرـ الـرـاءـ ثـمـ يـاءـ وـشـينـ مـعـجمـ مـفـتوـحـ وـكـافـ مـثـلـهـ وـرـاءـ مـسـكـنـةـ وـوـاـوـ مـفـتوـحـ وـتـاءـ مـعـلـوـةـ مـكـسـوـرـةـ وـيـاءـ)، وـهـوـ سـلـطـانـ قـويـ فـيـ الـبـحـرـ. رـأـيـتـ مـرـةـ وـأـنـاـ بـالـمـعـبـرـ، مـائـةـ مـرـكـبـ مـنـ مـرـاكـبـ بـرـسـمـ صـغـارـ وـكـبـارـ. وـصـلـتـ إـلـىـ هـنـالـكـ، وـكـانـتـ بـالـمـرـسـىـ ثـمـانـيـةـ مـرـاكـبـ لـلـسـلـطـانـ بـرـسـمـ السـفـرـ إـلـىـ الـيـمـنـ، فـأـمـرـ السـلـطـانـ بـالـاسـتـعـدـادـ، وـحـشـدـ النـاسـ لـهـمـاـيـةـ أـجـفـانـهـ. فـلـمـ يـشـوـاـ مـنـ اـنـتـهـازـ الـفـرـصـةـ فـيـهـاـ، قـالـواـ: إـنـاـ جـئـنـاـ لـهـمـاـيـةـ مـرـاكـبـ لـنـاـ تـسـيرـ أـيـضاـ إـلـىـ الـيـمـنـ. وـلـمـ دـخـلـتـ عـلـىـ هـذـهـ السـلـطـانـ الـكـافـرـ، قـامـ الـيـ وـأـجـلـسـيـ إـلـىـ جـانـبـهـ وـكـلـمـيـ بـأـحـسـنـ كـلـامـ، وـقـالـ: يـنـزـلـ أـصـحـابـكـ عـلـىـ الـأـمـانـ، وـيـكـوـنـوـنـ فـيـ ضـيـافـيـ إـلـىـ أـنـ

(١) القافقـيـ: نـبـاتـ هـنـدـيـ عـطـرـيـ الرـائـحةـ يـعـرـفـ بـ «ـالـمـالـ»ـ.

يسافروا . فإن سلطان المعبر ، بيبي وبينه الصحبة ، ثم أمر يانزالي . فأقمت عدة ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد . في كل يوم . وكان يفهم اللسان الفارسي ، ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد . ودخلت عليه يوماً وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده ، وأصحابه يميزون النقيس منها من غيره . فقال لي : هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها ؟ فقلت له : نعم ، رأيته بجزيرة قيس ، وجزيرة كش ، التي لابن السوامي . فقال : سمعت بها ثم أخذت منه حبات . فقال : أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه ؟ فقلت له : رأيت ما هو دونها . فأعجبه ذلك . وقال : هي لك . وقال لي : لا تستحي ، واطلب مني ما شئت . فقلت له : ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام ، وهم يسمونه (بابا) ، ويسمون حواء (ماما) . قال : هذا هين . نبعث معك من يوصلك . فقلت : ذلك أريد . ثم قلت له : وهذا المركب الذي جئت به ، يسافر آمنا إلى المعبر ، وإذا عدت أنا بعثتني في مراكبك . فقال نعم . فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب ، قال لي : لا أسافر حتى تعود ، ولو أقمت سنة بسببك . فأخبرت السلطان بذلك . فقال : يقيم في ضيافتي حتى تعود . فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم ، وبعث معي أربعة من الجوكيه الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمه ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد . وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير . ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران ، ثم رحلنا من هنالك إلى متار متندلي (وضبط ذلك بفتح الميم والنون وألف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن وداد مهمم مفتوح ولا مكسور وباء) ، مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان . أضافنا أهلها ضيافة حسنة . وضيافتهم عجول الجوميس يصطادونها بغاية هنالك ، ويأتون بها أحياه ، ويأتون بالأرز والسمن واللحوت والدجاج واللبن . وليس بالمدينة مسلم غير رجل خراساني انقطع بسبب

مرضه ، فسافر معنا . ورحلنا إلى بندر سلاوات (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المعمل واللام والواو والف وتأء معلوٰة) ، بلدة صغيرة . وسافرنا منها في أوغار كثيرة المياه ، وبها الفيلة الكثيرة ، إلا أنها لا تؤدي الزوار والغرباء . وذلك ببركة الشيخ أبي عبدالله بن خفيف رحمه الله ، وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم . وكان هؤلاء لكتار يمنعون المسلمين من ذلك ، ويؤذنونهم ولا يؤكلونهم ولا يبايعونهم . فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله ما ذكرنا في السفر الأول من قتل الفيلة لأصحابه ، وسلامته من بينهم ، وحمل الفيل له على ظهره ، صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ، ويدخلونهم دورهم ، ويطعمون معهم ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم . وهم إلى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ، ويسمونه الشيخ الكبير . ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الأول وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء) ، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد ، وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى بخور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به . وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاشوش (بشينين معجمين بينهما واو مضوم) ، وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه . وهو كان الدليل إلى القدم ، فلما قطعت يده ورجله ، صار الأدلة أولاده وعلاقته ، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكم كفار الهند أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها ، أو جعل في جلدتها وحرق . وكان الشيخ عثمان معظمًا ، فنقطعوا يده ورجله ، وأعطوه بجي بعض الأسواق .

ذكر سلطان كنكار

وهو يعرف بالكنار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) ، وعنده الفيل الأبيض . ولم أر في الدنيا فيلاً أبيض سواه ، يركبه في الأعياد ، ويجعل على جبهته

أحجار الياقوت العظيمة. واتفق له أن قام عليه أهل دولته، وسلموا عينيه،
وولوا ولده وهو هنالك أعمى.

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب الهرمان إنما يكون بهذه البلدة. فمنه ما يخرج من الخور
وهو عزيز عندهم، ومنه ما يحفر عنه. وفي جزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع
مواضعها، وهي متملكة. فيشتري الإنسان القطعة منها، ويحفر عن الياقوت،
فيجد أحجاراً بيضاء مشبعة، وهي التي يتكون الياقوت في أجوفها، فيعطيها
المحاكين، فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت. فمنه الأحر ومنه الأصفر
ومنه الأزرق ويسمونه النَّيْلَمْ (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف)،
وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فم (بفتح الفاء والنون) فهو
للسلطان، يعطي ثمنه ويأخذه. وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه. وصرف
مائة فم ستة دنانير من الذهب. وجميع النساء بجزيرة سيلان هن القلائد من
الياقوت الملون، و يجعلن في أيديهن وأرجلهن عوضاً من الأسوره والخاليل.
وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن. ولقد رأيت على جبهة
الفيل الأبيض سبعة أحجار منه. كل حجر أعظم من بيضة الدجاج. ورأيت عند
السلطان أبيري شكرولي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت، فيها دهن العود.
فجعلت أعجب منها، فقال: إن عندنا ما هو أضخم من ذلك. ثم سافرنا من
كنكار فنزلنا بمعارة تعرف باسم اسطا محمود اللوري (بضم اللام)، وكان من
الصالحين، واحتفر تلك المغارة في سفح جبل، عند خور صغير هنالك. ثم رحلنا
عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بُوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاي ونون
وهاء)، وبوزنه هي القرود.

ذكر القرود

والقرود بتلك الجبال كثيرة جداً، وهي سود الألوان، لها أذناب طوال. ولذكورها لحى كما هي للأدميين. وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان، يشد على رأسه عصابة من أوراق الاشجار، يتوكأ على عصا، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود وها عصي بأيديها. وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربع على رأسه؛ وتتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم، وتتأتي القرود فتقعد على بعد منه. ثم يكلمها أحد القرود الأربع فتنصرف القرود كلها. ثم يأتي كل فرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك، فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربع. وأخبرني بعض الجبوكة أنه رأى القرود الأربع بين يدي مقدمها، وهي تضرب بعض القرود بالعصي، ثم نتفت وبره بعد ضربه. وذكر لي الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصيحة لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها. وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها، فدخلت بنت له بعض البيوت، فدخل عليها، فصاحت به، فغلبها، قال: ودخلنا عليها وهو بين رجلها فقتلناه. ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران. ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتين اللتين أعطاهم سلطان هذه الجزيرة، حسبما ذكرناه في السفر الأول. ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز، وهو آخر العمارة. ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر، وكان من الصالحين، ثم رحلنا إلى مغارة السبيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مد وكاف)، وكان السبيك من سلاطين الكفار، وانقطع للعبادة هنالك.

ذكر العلق الطيار

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار، ويسمونه الزَّلْو (بضم الزاي واللام)، ويكون بالأشجار والخشاش التي تقرب من الماء. فإذا قرب الإنسان منه وثب

عليه . فحيثما وقع من جسده ، خرج منه الدم الكثير . والناس يعدون له الليمون ، يعصرونه عليه ، فيسقط عنهم . ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معه لذلك . ويدرك أن بعض الزوار من بذلك الموضع فتعلقت به العلق ، فأظهر الجلد ، ولم يعصر عليها الليمون ، فتنزف دمه ومات . وكان اسمه بابا خوزي (بالخاء المعجم المضوم والزاي) ، وهنالك مغارة تنسب إليه . ثم رحلنا إلى السبع مغارات ، ثم إلى عقبة اسكندر ، ثم مغارة الأصفهاني وعين ماء ، وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بفوطة كاه عارفان ، وهنالك مغارة النارنج ، ومغارة السلطان ، وعندها دروازة الجبل أي بابه .

ذكر جبل سرفدليب

وهو من أعلى جبال الدنيا . رأينا من البحر ، وبيننا وبينه مسيرة تسعه . ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله . وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد الأحمر على قدر الكف . ويزعمون أن في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام . وفي الجبل طريقان إلى القدم : أحدهما يعرف بطريق بابا ، والآخر بطريق (ماما) . يعنون آدم وحواء عليهما السلام . فاما طريق ماما طريق سهل ، عليه يرجع الزوار إذا رجعوا . ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ، وأما طريق بابا فصعب ، وعر المرتقى . وفي أسفل الجبل حيث دروازته ، مغارة تنسب أيضاً للإسكندر وعين ماء . وتحت الأولون في الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا منها السلسل ليتمسك بها من يصعد . وهي عشر سلاسل ، اثنتان في أسفل الجبل إلى حيث الدروازة ، وسبع متواالية بعدها ، والعشرة هي سلسة الشهادة . لأن الإنسان إذا وصل إليها

ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم خوف السقوط. ثم إذا جاوزت هذه السلسلة، وجدت طريقاً مهماً. ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال. وهي في موضع فسيح، عندها عين ماء تنسب إليه أيضاً ملائكة بالحوت، ولا يصطاده أحد. وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جانبي الطريق. وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم.

ذكر القدم

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء، مرتفعة بموضع فسيح. وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة، حتى عاد موضعها منخفضاً. وطواها أحد عشر شبراً. وأتى إليها أهل الصين قديماً، فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون، ويقصدونها من أقصى البلاد. وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر. فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر، ولم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل. والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشياً، وكذلك فعلنا.

ولما تمت الأيام الثلاثة، عدنا على طريق ماما. فنزلنا بمغارة شيث وهو شيث ابن آدم عليهما السلام، ثم إلى خور السمك، ثم إلى قرية كرمله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم)، ثم إلى قرية جبر كاوان (بفتح الجيم وباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وأخره نون)، ثم إلى قرية دل دينوة (بدالين مهملين مكسوريين بينهما لام مسكن وباء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وباء

تأييث) ، ثم الى قرية آت قلنجة (بهمزة مفتوحة و تاء مثناة مسكونة و قاف و لام مفتوحين و نون مسكن وجيم مفتوح) ، وهنالك (كان) يشتهر الشيخ أبو عبد الله ابن خفيف . وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل . وعند أصل الجبل في هذا الطريق دَرَخت روان ، ودرخت هي (بفتح الدال المهمل والراء و سكون الخاء المعجم و تاء معلومة) وروان (بفتح الراء والواو والف و نون) ، وهي شجرة عادية لا يسقط لها ورق . ولم أر من رأى ورقها^(١) ، ويعرفونها أيضاً بالماشية ، لأن الناظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه ، قريبة من أسفل الجبل ، والناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك . ورأيت هنالك جلة من الجوكين ملازمين أسفل الجبل يتنتظرون سقوط ورقها . وهي بحيث لا يمكن التوصل إليها أبداً . ولم أكذيب في شأنها ، من جلتتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيئاً . وذلك باطل . وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت ، وماهه يظهر في رأي العين شديد الزرقة .

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهملاً مكسور وباء مد ونون وواو مفتوحين وراء) ، مدينة عظيمة على البحر ، يسكنها التجار . وبها الصنم المعروف بدینور ، في كنيسة عظيمة ، فيها نحو ألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خسمائة من النساء بنات الهند ، وينعن كل ليلة عند الصنم ، ويرقصن . والمدينة ومحابيها وقف على الصنم . وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون ذلك . والصنم من ذهب على قدر الآدمي ، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان ، أخبرت أنها تضيئان بالليل كالقنديل . ثم رحلنا إلى مدينة قالبي (بالقاف وكسر اللام) ، وهي صغيرة ، على ستة فراسخ من دينور ، وبها رجل من المسلمين ، يعرف بالناخوذة إبراهيم . أضافنا بموضعه ورحلنا إلى مدينة

(١) أي : من رأى ورقها بعيداً عنها ، لعدم سقوطه والله أعلم .

كَانْتُو (بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو)، وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها، وبها يسكن الوزير حاكم البحر، جالسيني، ومعه نحو خمسة مائة من الحبشة. ثم رحلنا، فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة، وقد تقدم ذكرها، ودخلنا إلى سلطانها الذي تقدم ذكره، ووجدت الناخوذة إبراهيم في انتظاري، فسافرنا بقصد بلاد المغير. وقويت الريح، وكاد الماء يدخل في المركب، ولم يكن لنا رئيس عارف. ثم وصلنا إلى حجارة، كاد المركب ينكسر فيها. ثم دخلنا بحراً قصيراً. فتجلس المركب، ورأينا الموت عياناً، ورمي الناس بما معهم، وتواذعوا، وقطعنوا صاري المركب، فرمينا به. وصنع البحرية معدية من الخشب. وكان بيننا وبين البحر فرسخان، فأردت أن أنزل في المعدية. وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي. فقالا : أتنزل وتتركنا؟ فأتزرتها على نفسي، وقلت انزوا أنتا والجارية التي أحبها. فقالت الجارية : إني أحسن السباحة، فاتعلق بجمل المعدية، وأعوم معهم. فنزل رفيقاي، وأحدهما محمد بن فرحان التوزري، والأخر رجل مصرى، والجارية معهم، والأخرى تعم. وربط البحرية في المعدية حبلاً وسبحوا بها. وجعلت معهم ما عز علي من المتاع والجواهر والعنبر، فوصلوا إلى البر سالمين، لأن الريح كانت تساعدهم. وأقمت بالمركب، ونزل صاحبه إلى البر على الدقة. وشرع البحرية في عمل أربع من المعادي. فجاء الليل قبل تمامها، ودخل علينا الماء، فصعدت إلى المؤخر، وأقمت به حتى الصباح. وحينئذ جاء إلينا بعض الكفار في قارب لهم، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المغير، فأعلمناهم أنا من أصحاب سلطانهم، وهم تحت ذمته. فكتبوا إليه بذلك. وهو على مسيرة يومين في الغزو، كتبوا أنا إليه بما اتفق علي، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة، فأتوانا بفاكهه تشبه البطيخ تشرها، شجرة المقل. وفي داخلها شبه قطن، فيه عسلية يستخرجونها، ويصنعون منها حلواً يسمونها التل، وهي تشبه السكر. وأنوا بسمك طيب. وأقمنا ثلاثة أيام. ثم وصل من جهة

السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة من فرسان ورجال، وجاءوا بالدولة وبعشرة خيول، فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب وإحدى الجاريتين، وحلت الثانية في الدولة، ووصلنا إلى حصن هرّكَاتُو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف والف وتأء معلومة مضومة وواو)، وبتنا. وتركت فيه الجواري وبعض الغلبه والأصحاب، ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان.

ذكر سلطان بلاد المبر

هو غياث الدين الدامغاني، وكان في أول أمره فارساً من فرسان الملك مجرير ابن أبي الرجا، أحد خدام السلطان محمد، ثم خدم الأمير حاجي ابن السيد السلطان جلال الدين، ثم ولي الملك، وكان يدعى سراج الدين قبله. فلما ولي تسمى غياث الدين. وكانت بلاد المبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي، ثم صار بها صهري الشريف جلال الدين أحسن شاه، وملك بها خمسة أعوام، ثم قتل. وولي أحد أمرائه وهو علاء الدين أديجي (بضم المهمزة وفتح الدال المهملاً) وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم)، فملك سنة. ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ لهم أموالاً كثيرة وغنائم واسعة، وعاد إلى بلاده. وغزاهم في السنة الثانية، فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. واتفق يوم قتلهم أن رفع المغفر عن رأسه ليشرب، فأصابه سهم غرب، فمات من حينه. فولوا صهريه قطب الدين. ثم لم يحتمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوماً. وولي بعده السلطان غياث الدين، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كانت متزوجاً أختها بدحلي.

ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا. وكان قاعداً في برج خشب. وعادتهم بالهند أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف. ولم يكن

عندى خف، فأعطاني بعض الكفار خفّاً. وكان هنالك من المسلمين جماعة، فعجبت من كون الكافر كان أمّ مروءة منهم. ودخلت على السلطان، فأمرني بالجلوس، ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين. وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية، وهم يسمونها الخيام. ويعث بالفرش وبطعمتهم، وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام. كما يفعل ببلادنا. ثم اجتمعت به بعد ذلك، وألقيت له أمر جزائر ذيبة المهل، وأن يبعث الجيش إليها. فأخذ في ذلك بالعزّم، وعين المراكب لذلك. وعين المديمة لسلطانتها، والخلع للوزراء والأمراء، والعطایا لهم. وفوض إلى في عقد نكاحه مع اخت السلطانة، وأمر بسوق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر، وقال لي: يكون رجوعك بعد خمسة أيام. فقال له قائد البحر خواجه سرلك: لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن. فقال لي السلطان: أما إذا كان الأمر هكذا، فامض إلى فتن حتى تقضي هذه الحركة، وتعود إلى حضرتنا متّرة، ومنها تكون الحركة. فأقمت معه بخلال ما بعثت إلى الجواري والأصحاب.

ذكر ترتيب رحيله وشنیع فعله في قتل النساء والولدان

وكانت الأرض التي نسلكها غيضة واحدة من الأشجار والقصب، بحيث لا يسلكها أحد. فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد من في الجيش من كبير وصغير قدوم لقطع ذلك. فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه، فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال. ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس، طائفة بعد أخرى، ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشي. وكل من وجدوه من الكفار في الغيضة أسروه، وصنعوا خشبة محددة الطرفين، فجعلوها على كتفيه يحملها، ومعه امرأته وأولاده. ويؤتى بهم إلى المحلة. وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سوراً من خشب، يكون له أربعة أبواب. ويسموه الكتّكر

(بفتح الكافين وسكون التاء المعلوّه وآخره راء)، ويصنعون على دار السلطان كتكراً ثانية، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب، ارتفاعها نحو نصف قامة، ويوقدون عليها النار بالليل. ويبيت عندها العبيد والمشاةون، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب. فإذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحللة ليلاً، أو قد كل واحد منهم الحزمة التي بيده، فعاد الليل شبه النهار، لكثرة الضياء. وخرجت الفرسان في اتباع الكفار، فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام. وأتي إلى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم. فركزت بالخشب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده، ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم، ثم تذبح نساوهم، ويربطن بشعورهن إلى تلك الأخشاب، ويدبح الأولاد الصغار في حجورهن، ويتركون هنالك. وتنزل المحللة، ويشتغلون بقطع غيضة أخرى، ويصنعون بمن أسروه كذلك. وذلك أمر شنيع، ما علمته لأحد من الملوك. وبسببه عجل الله حينه. ولقد رأيته يوماً، والقاضي عن يمينه، وأنا عن شماليه، وهو يأكل معنا، وقد أتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع. فأشار إلى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه. ثم قال لهم: وزن أو بسر أو، معناه: وابنه وزوجته، فقطعت رقباهما. وصرفت بصري عنهم. فلما قمت وجدت رؤوسهم مطروحة بالأرض. وحضرت عنده يوماً، وقد أتى برجل من الكفار، فتكلم بما لم أفهمه. فإذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكيتهم، فبادرت القيام، فقال لي: إلى أين؟ فقلت: أصلي العصر. ففهمعني وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه. فلما عدت وجدته متশحطاً في دمائه.

ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الإسلام

وكان فيها يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديو (بفتح الباء الموحدة ولام والف ولام ثانية وdal مهملاً مكسور وvاء آخر الحروف مفتوحة وao مسكن)،

وهو من كبار سلاطين الكفار ، يزيد عسكته على مائة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفاً من المسلمين ، أهل الدعاية وذوي الجنایات والعيبد الفارين ، فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبّر ، وكان عسکر المسلمين بها ستة آلاف ، منهم النصف من الجياد ، والنصف الثاني لا خير فيهم ، ولا غناه عندهم . فلقوه بظاهر مدينة كُبَّان ، فهزّهم . ورجعوا إلى حضرة متّة ، ونزل الكافر على كُبَّان ، وهي من أكبر مدنه وأحصنه ، وحاصرها عشرة أشهر ، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة عشر يوماً . فيبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان ، ويتركوا له البلد . فقالوا له : لا بد من مطالعة سلطاناً بذلك . فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوماً . فكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم ، فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة ، فبكوا ، وقالوا : نبيع أنفسنا من الله . فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا ، فالموت تحت السيف أولى بنا . فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ، ونزعوا العهائم عن رؤوسهم وجعلوها في أعناق الخيل ، وهي عالمة من يزيد الموت . وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة ، وكانتوا ثلاثة . وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادر ، وكان فقيهاً ورعاً شجاعاً ، وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار . وركب السلطان في القلب ومعه ثلاثة آلاف ، وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة لهم ، وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي . وقصدوا محلّة الكافر عند القالية ، وأهلها على غرة ، وخيلهم في المراعي . فأغاروا عليها . وظن الكفار أنهم سراق . فخرجوا إليهم على غير تعبية ، وقاتلواهم . فوصل السلطان غياث الدين ، فأنهزم الكافر شر هزيمة ، وأراد سلطانهم أن يركب ، وكان ابن ثمانين سنة ، فأدركه ناصر الدين ابن أخي السلطان الذي ولّ الملك بعده ، فأراد قتله ، ولم يعرفه . فقال له أحد غلمانه : هو السلطان . فأسره وحله إلى عمه ، فأكرمه في الظاهر حتى جي منه الأموال والفييلة والخيل ، وكان يعده السراح . فلما استصفى ما عنده ، ذبحه وسلخه ، وملأ جلدته بالتبغ . فعلق على سور

مرة، ورأيته بها معلقاً، ولنعد إلى كلامنا فنقول: ورحلت عن المحلة، فوصلت إلى مدينة فتن (بفتح الفاء والباء والمنة المشددة ونون)، وهي كبيرة حسنة على الساحل، ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام، يصعد إليها على طريق خشب مسقف، فإذا جاء العدو ضموا إليها الأجنان التي تكون بالمرسى، وصعدوا الرجال والرمادة، فلا يصيب العدو فرصة. وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة، وبها العنبر الكثير والرمان الطيب. ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد القراء المولهين الذين يسدلون شعورهم على أكتافهم، ومعه سبع رباته، يأكل مع القراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثة فقيراً، لأحد هم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها. وأقمت بمدينة فتن، وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوباً للقوة على الجميع. وذكروا أن من جلة أخلاقها برادة الحديد، فأكل منها فوق الحاجة فمرض، ووصل إلى فتن. فخرجت إلى لقائه، واهديت له هدية. فلياً استقر بها بعث عن قائد البحر خواجه سرور فقال له: لا تستغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر. وأراد أن يعطيه قيمة الهدية فأبى، ثم ندمت، لأنه مات. فلم آخذ شيئاً. وأقام بفتن نصف شهر، ثم رحل إلى حضرته. وأقمت أنا بعده نصف شهر، ثم رحلت إلى حضرته، وهي مدينة متّرة (بضم اليم وسكون التاء المثلثة وفتح الراء)، مدينة كبيرة متّعة الشوارع. وأول من اتخذها حضرة صهري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه. وجعلها شبيهة بدھلي، وأحسن بناءها. وما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتاً ذريعاً، فمن مرض مات من ثني يوم مرضه أو ثالثه، وإن أبطأ موته فإلى الرابع. فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضاً أو ميتاً. واشتريت بها جارية على أنها صحيحة، فماتت في يوم آخر. ولقد جاءت إلي في بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه، ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام، نبيل كيس فطن. فشكّت

ضعف حالها، فأعطيتها نفقة، وهما صحیحان سویان. فلما كان من الغد جاءت
تطلب لولدها المذكور كفتاً، وإذا به قد توفي من حينه. وكنت أرى بمشور
السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتي أتي بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام
لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس. ولما دخل السلطان
متة، وجد أمه وامرأته وولده مرضى. فأقام بالمدينة ثلاثة أيام، ثم خرج إلى نهر
على فرسخ منها، كانت عليه كنيسة للكافار. وخرجت إليه في يوم خميس، فأمر
بأنزالي إلى جانب القاضي. فلما ضربت لي الأخيبة رأيت الناس يسرحون، ويوجـ
بعضهم في بعض. فمن قائل: إن السلطان مات، ومن قائل: إن ولده هو الميت.
ثم تحققنا بذلك، فكان الولد هو الميت، ولم يكن له سواه. فكان موته مما زاد في
مرضه. وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان.

ذكر وفاة السلطان وولایة ابن أخيه وانصراف عنه

وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين، وشعرت بذلك، فبادرت
الدخول إلى المدينة خوف الفتنة. ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالي بعده
خارجاً إلى المحلة، قد وجه عنه، إذا ليس للسلطان ولد. فطلب إلى الرجوع
معه، فأبى. وأثر ذلك في قلبه. وكان ناصر الدين هنا. خديماً بدھلي قبل أن
يملك عمه. فلما ملك عمه هرب في زي الفقراء إليه، فكان من القذر ملكه
بعده. ولما بويغ، مدحته الشعراء، فأجزل لهم العطاء وأول من قام منشداً
القاضي صدر الزمان، فأعطاه خمسة دينار وخلعة، ثم الوزير المسمى بالقاضي،
فأعطاه ألفي دينار دراهم، وأعطاني أنا ثلاثة دينار وخلعة. وبث الصدقات
في الفقراء والمساكين. ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه، نثرت عليه
الدنانير والدراريم في أطباق الذهب والفضة. وعمل عزاء السلطان غياث الدين،
فكأنوا يختمون القرآن على قبره كل يوم، ثم يقرأ العشارون، ثم يؤتى بالطعام

فيأكل الناس ، ثم يعطون الدراهم ، كل إنسان على قدره . وأقاموا على ذلك أربعين يوماً . ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة . وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه ، وطلبه بالأموال . وولي الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه إلى وأنما بفتنه ليتلقاني ، فتوفي سريعاً . فولي الوزارة خواجه سرور قائد البحر ، وأمر أن يخاطب بخواجه جهان ، كما يخاطب الوزير بدهلي . ومن خطابه بغير ذلك غرم دنانير معلومة . ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين ، وتزوجها بعده . وبلغه أن الملك مسعوداً زاره في محبسه قبل موته ، فقتله أيضاً ، وقتل الملك بهادر ، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء ، وأمر لي بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برس الجزائر . ثم أصابتني الحمى القاتلة هنالك ، فظننت أنها القاضية . وألهمني الله إلى التمر الهندي ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه ، وجعلته في الماء ثم شربته . فأسماني ثلاثة أيام ، وعافاني الله من مرضي . فكررت تلك المدينة ، وطلبت الإذن في السفر ، فقال لي السلطان : كيف تتسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد ؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم . فأبكيت ، وكتب لي إلى فتن لأسفار في أي مركب أردت . وعدت إلى فتن ، فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن ، فസافرت في أحدها ، ولقينا أربعة أjfان ، فقاتلتنا يسيراً ثم انصرفت . ووصلنا إلى كولم ، وكان فيَّ بقية مرض ، فاقمت بها ثلاثة أشهر . ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنوري ، فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكتور .

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا إلى الجزيرة المصغرى بين هنور وفاكتور ، خرج علينا الكفار في اثني عشر مركباً حربياً ، وقاتلوا قتالاً شديداً ، وتغلبوا علينا ، فأخذوا جميع ما

عندي مما كنت أدخله للشدائد ، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان ، وأخذوا ثيابي والزرادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء ، ولم يتركوا لي ساتراً خلا السراويل ، وأخذوا ما كان لجميع الناس ، وأنزلونا بالساحل . فرجعت إلى قالقط ، فدخلت بعض المساجد . فبعث إلى أحد الفقهاء بثوب ، وبعث القاضي بعامة ، وبعث بعض التجار بثوب آخر . وتعرفت هنالك بتزوج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين ، وبأن زوجتي التي تركتها حاملاً ولدت ولداً ذكرأ فخطر لي السفر إلى الجزائر . وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبد الله ، ففتحت المصحف ، فخرج لي ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا﴾^(١) فاستخرت الله ، وسافرت . فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذيبة المهل ، ونزلت منها بكلنوس . فأكرمني إليها عبد العزيز المقدشاوي وأضافني وجهز لي كندرة . ووصلت بعد ذلك إلى هلي ، وهي الجزيرة التي تخرج السلطانة وأخواتها إليها ببرسم الترجمة والسباحة ، ويسمون ذلك التتجز . ويلعبون في المراكب ، ويعيث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها . وجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين وأمها التي كانت زوجتي . فجاء الخطيب إلي ، وأتوا بالطعام . ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلمه بقدومي . فسأل عن حالي ، وعمن قدم معي . وأخبر أبي جشت برسـم حل ولدي ، وكان سنه نحو عامين . وأنتهـمـهـ تـشـكـوـ منـ ذـلـكـ . فقال لها : أنا لا أمنعـهـ منـ حلـ ولـدهـ . وصادـرـنيـ فيـ دـخـولـ الـجـزـيرـةـ ،ـ وأنـزلـنـيـ بـدارـ تـقـابـلـ بـرجـ قـصـرـهـ ،ـ ليـتـطـلـعـ عـلـىـ حـالـيـ .ـ وبـعـثـ إـلـيـ بـكـسوـةـ كـامـلـةـ ،ـ وـبـالـتـبـلـوـ وـمـاءـ الـورـدـ عـلـىـ عـادـتـهـ .ـ وجـشتـ بـثـوـبـيـ حـرـيرـ لـلـرـمـيـ عـنـ السـلـامـ ،ـ فـأـخـذـوـهـماـ ،ـ وـلـمـ يـخـرـجـ الـوـزـيـرـ إـلـيـ ذـلـكـ الـيـوـمـ .ـ وـأـتـيـ إـلـيـ بـوـلـدـيـ فـظـهـرـ لـيـ أـنـ إـقـامـتـهـ مـعـهـمـ خـيـرـ لـهـ .ـ فـرـدـدـتـهـ إـلـيـهـمـ ،ـ وـأـقـمـتـ خـسـةـ أـيـامـ وـظـهـرـ لـيـ أـنـ

(١) فصلت : ٣٠

تعجّيل السفر أولى. فطلبت الإذن في ذلك، فاستدعاني الوزير، ودخلت عليه وأتواني بالثوابين اللذين أخذوها مني، فرميتهما عند السلام على العادة. وأجلسني إلى جانبه، وسألني عن حالي، وأكلت معه الطعام، وغسلت يدي معه في الطست، وذلك شيء لا يفعله مع أحد. وأتوا بالتبول وانصرفت، وبعث إلي بأثواب وبساتي من الودع، وأحسن في أفعاله وأجل. وسافرت، فأقمنا على ظهر البحر ثلاثة وأربعين ليلة، ثم وصلنا إلى بلاد بنْجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح)، وهي بلاد متعددة كثيرة الأرز. ولم أر في الدنيا أرخص أسعاراً منها، لكنها مظلمة. وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة، معناه جهنم ملأى بالنعم. رأيت الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلاً دهلياً بدينار فضي، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم، ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء ، والرطل الدهلي عشرون رطلاً مغربية. رسمутهم يقولون: إن ذلك غلاء عندهم. وحدثني محمد المصمودي المغربي، وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديماً ومات عندي بدھلي، أنه كانت له زوجة وخادم، فكان يشتري قوت ثلاثة في السنة بثمانية دراهم، وأنه كان يشتري الأرز في قشره بحساب ثمانين رطلاً دهلياً بثمانية دراهم، فإذا دقه خرج منه خسون رطلاً صافية، وهي عشرة قناطير. ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضي وبسرهم الجوميس، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام ، تباع خمسة عشر بدرهم، ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ، ورطل السكر بأربعة دراهم، وهو رطل دهلي. ورطل الجلال بثمانية دراهم ورطل السمن بأربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين ، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثة ذراعاً يباع بدينارين ، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي. واشترت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة ، وكان لها حال

بارع . واشتري بعض أصحابي غلاماً صغير السن حسناً اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب . وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سُدْكَاوَان ، وضبط اسمها (بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون) ، وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم ، ويجتمع بها نهر الكنك الذي يمتد إلى الهند ، ونهر الجون ، ويصبان في البحر . وله في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكتوني .

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (باللغاء والخاء المعجم والراء) ، سلطان فاضل محب في الغرباء ، وخصوصاً الفقراء والمتصوفة . وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غيث الدين بلبن ، وهو الذي ولده معز الدين الملك بدھلي ، فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر ، وسمي لقاومها لقاء السعدين ، وقد ذكرنا ذلك ، وأنه ترك الملك لولده عاد إلى بنجالة ، فأقام بها إلى أن توفي ، وولي ابنه شمس الدين إلى أن توفي فولي ابنه شهاب الدين إلى أن غالب عليه أخوه غيث الدين بهادربور ، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غيث الدين تغلق فنصره ، وأخذ بهادربور أسيراً ، ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك ، على أن يقاسمه ملكه ، فنكث عليه ، فقاتلته حتى قتله ، وولي على هذه البلاد صهراً ، له فقتله العسكر ، واستولى على ملوكها على شاه ، وهو إذ ذاك ببلاد اللكتوني . فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين ، وهو مولى لهم ، خالف بسد كاوان وببلاد بنجالة ، واستقل بالملك . واشتدت الفتنة بينه وبين علي شاه . فإذا كانت أيام الشتاء والوحول ، أغارت فخر الدين على بلاد اللكتوني في البحر لقوته فيه ، وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها أغارت علي شاه على بنجالة في البر لقوته فيه .

حكاية

- وانتهى حب القراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحد هم نائباً عنه في
الملك بسد كاوان، وكان يسمى شيدا (بفتح الشين المعجم والدال المهمل بينها ياء آخر الحروف)، وخرج إلى قتال عدو له. فخالف عليه شيدا، وأراد الاستبداد بالملك، وقتل ولد السلطان فخر الدين، ولم يكن له ولد غيره. فعلم بذلك فكر عائداً إلى حضرته، ففر شيدا ومن اتبعه إلى مدينة سُرْهِكَاوَان، وهي منيعة.
- بعث الـ إطـان بالعساكر إلى حصاره، فخاف أهلهـ على أنفسـهمـ، فـقـبـضـواـ عـلـيـ شـيـداـ وـبـعـثـواـ إـلـىـ عـسـكـرـ السـلـطـانـ، فـكـتـبـواـ إـلـيـهـ بـأـمـرـهـ. فـأـمـرـهـ أـنـ يـبـعـثـواـ لـهـ رـأـسـهـ فـبـعـثـوهـ. وـقـتـلـ بـسـبـبـهـ جـمـاعـةـ كـبـيرـةـ مـنـ الـفـقـراءـ. وـلـمـ دـخـلـتـ سـدـكـاوـانـ لـمـ أـرـ سـلـطـانـهـ، وـلـاـ لـقـيـتـهـ، وـعـلـمـتـ أـنـ مـخـالـفـ عـلـىـ مـلـكـ الـهـنـدـ. فـخـفـتـ عـاقـبـةـ ذـلـكـ، وـسـافـرـتـ مـنـ سـدـكـاوـانـ بـقـصـدـ جـبـالـ كـامـرـوـ، وـهـيـ (ـبـفـتـحـ الـكـافـ وـالـمـيمـ وـضـمـ الرـاءـ). وـبـيـنـهاـ وـبـيـنـ سـدـكـاوـانـ مـسـيـرـةـ شـهـرـ، وـهـيـ جـبـالـ مـتـسـعـةـ مـتـصـلـةـ بـالـصـينـ، وـتـنـصـلـ أـيـضاـ بـبـلـادـ التـبـتـ حـيـثـ غـزـلـانـ الـمـسـكـ. وـأـهـلـ هـذـاـ الجـبـلـ يـشـهـونـ التـرـكـ، وـلـهـ قـوـةـ عـلـىـ الـخـدـمـةـ. وـالـغـلـامـ مـنـهـمـ يـسـاـوـيـ أـصـعـافـ مـاـ يـسـاـوـيـهـ الـغـلامـ مـنـ غـيـرـهـمـ. وـهـمـ مـشـهـورـونـ بـعـانـةـ السـحـرـ وـالـاشـتـغالـ بـهـ. وـكـانـ قـصـدـيـ بـالـمـسـيرـ إـلـىـ هـذـهـ الجـبـالـ لـقـاءـ وـلـيـ مـنـ الـأـوـلـيـاءـ بـهـاـ وـهـوـ الشـيـخـ جـلـالـ الدـينـ التـبـرـيزـيـ.

ذكر الشيخ جلال الدين

- وهذا الشيخ من كبار الأولياء، وأفراد الرجال. له الكرامات الشهيرة والتأثير العظيمة، وهو من المعمرين. أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسى ببغداد، وكان بها حين قتله، وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات، وهو ابن مائة وخمسين، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم، ولا يفطر إلا

بعد مواصلة عشر ، وكانت له بقرة يفطر على حليبيها ، ويقوم الليل كله . وكان نحيف الجسم طوالاً خفيف العارضين . وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ، ولذلك أقام بينهم .

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد ، وأوصاهم بتقوى الله ، وقال لهم : إني أسافر عنكم غداً إن شاء الله ، وخلفني عليكم الله الذي لا إله إلا هو ، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبراً محفوراً عليه الكفن والحنوط ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفونوه به ، رحمة الله تعالى .

كرامة له أيضاً

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكانه ، فأخبروني أن الشيخ قال للقراء الذين معه : قد جاءكم سائح من المغرب فاستقبلوه ، وأنتم أتوا بذلك بأمر الشيخ . ولم يكن عنده علم من أمري ، وإنما كوشف به ، وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها . وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فياكل منها القراء والواردون . وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبيها بعد عشر كما قدمناه ، ولما دخلت عليه قام إلي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري ، فأخبرته . فقال لي : أنت مسافر العرب . فقال له من حضر من أصحابه : والعجم يا سيدنا . فقال : والعجم ، فأكرموه . فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام .

حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مزعز فأعجبتني ، وقلت في نفسي : لبيت الشيخ أعطانيها . فلما دخلت عليه للوداع ، قام إلى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ، ولبس مرقعة ، فأخبرني القراء أن الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية ، وإنما لبسها عند قدومي ، وأنه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي ، ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها لأخينا برهان الدين الصاغرجي ، وهي له وبرسمه كانت . فلما أخبرني القراء بذلك ، قلت لهم : لقد حصلت لي بركة الشيخ ، بأن كسانني لباسه . وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم ، وانصرفت عن الشيخ . فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين ، وانتهيت إلى مدينة الخنسا . فافتقر مني أصحابي لكثرة الزحام ، وكانت الفرجية علي . فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم . فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ، ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه فأرددت الانفصال ، فمنعني وأدخلني على السلطان ، فسألني عن سلاطين الإسلام فأجبته ، ونظر إلى الفرجية فاستحسنها . فقال لي الوزير : جردها ، فلم يمكنني خلاف ذلك . فأخذها وأمر لي بعشرين خلعاً وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطري لذلك . ثم ذكرت قول الشيخ إنه يأخذها سلطان كافر . فطال عجيبي من ذلك . ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق ، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجده يقرأ ، والفرجية عليه بعينها ، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي ، فقال لي : لِمَ تقلبها وأنت تعرفها ؟ فقلت له : نعم ، هي التي أخذها مني سلطان الخنسا . فقال لي هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي . وكتب إلى أن الفرجية تصلك على يد فلان . ثم أخرج لي الكتاب فقرأته . وعجبت من صدق يقين الشيخ ،

وأعلمته بأول الحكاية. فقال لي: أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله، وهو يتصرف في الكون، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى.

ثم قال: بلغني أنه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة، وأنه يمتحن كل عام. لأنه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد، فلا يعرف أين ذهب. ولما وادعه الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حبْق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة. وسكون التون وقف)، وهي من أكبر المدن وأحسنها. يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو، ويسمى النهر الأزرق، ويسافر فيه إلى بنجالة وببلاد اللكتوني، وعليه التوابير والبساتين والقرى يمنة ويسرة، كما هي على نيل مصر. وأهلها كفار تحت الذمة، يؤخذون نصف ما يزدرون ووظائف سوى ذلك. وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوماً بين القرى والبساتين فكأنما نمشي في سوق من الأسواق، وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة، وفي كل مركب منها طبل، فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله، وسلم بعضهم على بعض. وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من القراء نول، وأن يعطى الزاد لمن لا زاد له منهم. وإذا وصل الفقير إلى مدينة أعطي نصف دينار. وبعد خمسة عشر يوماً من سفرينا في النهر، كما ذكرناه، وصلنا إلى مدينة سُرهـكاـوان وسـنـز (بضم السين المهملا والنون وسكون الراء)، وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ إليها. ولما وصلناها وجدنا بها جنكاً يزيد السفر إلى بلاد الجاوية. وبينها أربعون يوماً. فركبنا فيه وصلنا بعد خمسة عشر يوماً إلى بلاد البرـهـنـكار الذين أفواهمـ كـأـفـواـهـ الكلـابـ (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء)، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين المندولـا إلى غيرهـ، وسكنـاهـمـ فيـ بـيـوـتـ قـصـبـ مـسـقـفـةـ بـجـشـيشـ الأرضـ عـلـىـ شـاطـئـ الـبـحـرـ. وعـنـهـمـ مـنـ أـشـجـارـ المـوزـ وـالـفـوـفـلـ وـالـتـبـولـ كـثـيرـ.

ورجالهم على مثل صورنا إلا أن أنواهم كأفواه الكلاب . وأما نساوهم فلسن كذلك ، وهن جمال بارع . ورجالهم عرايا لا يستترون . إلا أن الواحد يجعل ذكره وأنثيه في جعبة من القصب منقوشة معلقة في بطنه ، وتستتر نساوهم بأوراق الشجر . ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة . أخبرونا أنهم يتناكحون كالبهائم ، لا يستترون بذلك . ويكون للرجل منهم ثلاثة امرأة فما دون ذلك أو فوقه ، وأنهم لا يزنون . وإذا زنا رجل منهم ، فحد الرجل أن يصلب حتى الموت ، أو يؤتى بصاحبها أو عبده فيصلب عوضاً منه ، ويسرح هو . وحد المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحداً بعد واحد بحضوره حتى تموت ، ويرمون بها في البحر . ولأجل ذلك لا يتكون أحداً من أهل المراكب ينزل إليهم ، إلا إن كان من المقيمين عندهم . وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة ، لأنها بعيدة من الساحل . ولا يتكون لهم لاستقائه خوفاً على نسائهم ، لأنهن يطمحن إلى الرجال الحسان . والفيلة كثيرة عندهم ، ولا يسعها أحد غير سلطانهم . ثم يشتري منهم بالأثواب . ولم يكلم غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم ، وأكثر التردد إليهم . ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار ، كل قارب من خشبة واحدة منحوته ، وجاءوا بالملوز والأرز والتبنول والفوفل والسمك .

ذكر سلطانهم

وأتي إلينا سلطانهم راكباً على فيل ، عليه شبه بردعة من الجلد ، ولباس السلطان ثوب من جلد المعزى ، وقد جعل الوبر إلى خارج ، وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات ، وفي يده حرية من القصب ، ومعه نحو عشرين من أقاربها على الفيلة . بعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والخوت الذي يكون بجزائر ذيبة المهل وأثواباً من بنجالية ، وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيلة

في أيام عيدهم. ولهذا السلطان على كل مركب ينزل بيلاده جارية وملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في مخزمنها وأصابع رجلها. ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحراً يهيج به البحر، فيهلك أو يقارب الأهلak.

حكاية

وأتفق في ليلة من ليالي إقامتنا ببرسادهم أن غلاماً لصاحب المركب من تردد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلاً، وتواجد مع امرأة أحد كبارائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل. وعلم بذلك زوجها، فجاء في جمع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به. فحملاه إلى سلطانهم. فأمر بالغلام فقطعت أنسياه وصلب. وأمر بالمرأة فجاءها الناس حتى ماتت. ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عنها جرى، وقال: إننا لا نجد بدآ من إمساء أحکامنا. ووهب لصاحب المركب غلاماً عوض الغلام المطلوب، ثم سافرنا عن هؤلاء. وبعد خمسة وعشرين يوماً وصلنا إلى جزيرة الجاوية (بالجيم)، وهي التي ينسب إليها اللبن الجاوي. رأيناها على مسيرة نصف يوم. وهي خضراء نضرة. وأكثر أشجارها النارجيل والغوفل والقرنفل والعود الهندي والشكري والبركي والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور. وبيع أهلها وشراوهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسوبك. والكثير من أفاويه الطيب التي ببلاد الكفار إنما هو منها، وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك. ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار، ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك. وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار، فيكافئهم كل إنسان على قدره. وصعد إلينا أيضاً نائب صاحب البحر، وشاهد من معنا من التجار، وأذن لنا في التزول إلى البر. فنزلنا إلى البندر، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر، بها دور اسمها السرّحى (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل)، وبينها وبين البلد أربعة أميال. ثم كتب بهروز نائب

صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومي ، فأمر الأمير دولسة بلقائي ، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي ، وتابع الدين الأصفهاني ، وسواهم من الفقهاء . فخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مراكب السلطان ، وأفراس سواه فركبت ، وركب أصحابي ، ودخلنا إلى حضرة السلطان ، وهي مدينة سُمَطْرَة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء) ، مدينة حسنة كبيرة ، عليها سور خشب وأبراج خشب .

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمانthem ، شافعي المذهب محب في الفقهاء يحضرن مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأْتِي إلى صلاة الجمعة مائشياً على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعاً وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكافار يعطونهم الجزية على الصلح .

ذكر دخلنا إلى دارة وإحسانه إلينا

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحاً مركوزة على جانبي الطريق ، وهي علامة على نزول الناس ، فلا يتجاوزها من كان راكباً . فنزلنا عندها ودخلنا المشور ، فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمى عمدة الملك . فقام إلينا وسلم علينا ، وسلمهم بالمصافحة ، وقدمنا معه . وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك ، وختمتها ودفعها لبعض الفتيا . فأتاه الجواب على ظهرها . ثم جاء أحد الفتيا بيُقْشة والبقبشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) ، هي السبنية فأخذها النائب بيده ، وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة يسمونها فردخانة ، على وزن زردخانة (إلا أن أولاً فاء) ، وهي موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح ، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة .

وكذلك الوزراء والأمراء الكبار . وأخرج من البقةة ثلاثة فوط : إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن ، وأخرى حرير وكتان . وأخرج ثلاثة ثواب ، يسمونها التحتانيات من جنس الفوط ، وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس ، تسمى الوسطانيات ، وأخرج ثلاثة ثواب من الأرمك ، أحدها أبيض ، وأخرج ثلاثة عائم . فلبست فوطة منها عوضاً عن السراويل على عادتهم ، وثوباً من كل جنس . وأخذ أصحاها ما بقي منها .

ثم جاءوا بالطعام ، أكثره الأرز ، ثم أتوا بنوع من الفقاع ، ثم أتوا بالتبول ، وهو علامة الانصراف ، فأخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا ، وخرجنا عن المشور ، فركبنا وركب النائب معنا . وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب ، وفي وسطها دار بناؤها بالخشب ، مفروشة بقطائف قطن يسمونها المحملات (بالميم والخاء المعجم) ، ومنها مصبوغ وغير مصبوغ .

وفي البيت أسرة من الخيزان ، فوقها مضربات من الحرير ، ولحف خفاف ، ومخاد ، يسمونها البوالشت . فجلسنا بالدار ، ومعنا النائب . ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين ، وقال لي : يقول لك السلطان هذا على قدرنا ، لا على قدر السلطان محمد . ثم خرج النائب ، وبقي الأمير دولسة عندي . وكانت بيبي وبينه معرفة . لأنه كان ورد رسولاً على السلطان بدھلي . فقلت له : متى تكون رؤية السلطان ؟ فقال لي : إن العادة عندنا أن لا يسلم القادر على السلطان . إلا بعد ثلاثة أيام ليذهب عنه تعب السفر ، ويثوب إليه ذهنه . فأقمنا ثلاثة أيام ، يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم ، وتأتيها الفواكه والطرف مساء وصباحاً . فلما كان اليوم الرابع ، وهو يوم الجمعة ، أتاني الأمير دولسة فقال لي : يكون سلامك على السلطان بمقدورة الجامع بعد الصلاة . فأتيت الجامع وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف والراء) ، ثم دخلت إلى السلطان ،

فوجدت القاضي أمير سيد ، والطلبة عن يمينه وشماله . فصافحني وسلمت عليه ، وأجلسني عن شمالي ، وسألني عن السلطان محمد ، وعن أسفاري فأجبته . وعاد إلى المذكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي . ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر ، فلما صلامها دخل بيته هناك ، فنزع ثياب التي كانت عليه ، وهي ثياب الفقهاء ، وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشياً ، ثم لبس ثياب الملك ، وهي الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه ، والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ، ركب من معه الخيل . وإذا ركب الفرس ، ركبوا الفيلة . ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل ، وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور . فنزلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكباً وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكري صفوفاً ، فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب ، وزراؤه أربعة ، فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم . وكذلك تفعل كل طائفة ، ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف النساء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكري ، ثم صف الفتىان والمهالك . ووقف السلطان على فيه إزاء قبة الجلوس ، ورفع فوق رأسه شطر مرصع ، وجعل عن يمينه خسون فيلاً مزينة ، وعن شمالي مثلها ، وعن يمينه أيضاً مائة فرس ، وعن شمالي مثلها ، وهي خيل النوبة ، ووقف بين يديه خواص الحجاب . ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه ، وأتى بخيل مجللة بالحرير ، لها خلا خيل ذهب وأرسان حرير مزركشة ، فرققت الخيل بين يديه . فعجبت من شأنها ، وكنت رأيت ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم .

ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك

وكان له ابن أخ متزوج بنته، فولاه بعض البلاد. وكان الفتى يتعشق بنتاً بعض الأمراء، ويريد تزوجها. والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح، فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها، فإن أعجبته صفتها تزوجها، وإلا تركها يزوجها أولياًها من شاءوا. والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم، لما يحوزون به من الجاه والشرف. وما استأمر والد البنت التي تعشقها ابن أخي السلطان، بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها. واشتد شغف الفتى بها، ولم يجد سبيلاً إليها. ثم إن السلطان خرج إلى الغزو، وبينه وبين الكفار مسيرة شهر. فخالفه ابن أخيه إلى سمتة، ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ، وادعى الملك، وبايده بعض الناس، وامتنع آخرون. وعلم عمه بذلك، فقفل راجعاً عائداً إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر، وأخذ الجارية التي تعشقها، وقصد بلاد الكفار بمل جاوه. ولهذا بنى عمه السور على سمتة. وكانت إقامتي عنده بسمترة خمسة عشر يوماً، ثم طلبت منه السفر إذ كان أوانه. ولا يتهدأ السفر إلى الصين في كل وقت. فجهز لنا جنكاً، وزودنا، وأحسن وأجمل جزاء الله خيراً، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك. وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة، ثم وصلنا إلى مل جاوه (بضم الميم)، وهي بلاد الكفار وطوها مسيرة شهرين، وبها الأفواية العطرة والعود الطيب القافقى والمماري، وفاقلة وقمارة من بعض بلادها، وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبن والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندى، وإنما معظم ذلك بمل جاوه. ولنذكر ما شهدناه منها، ووقفنا على أعيانه وحققتنا.

ذكر اللبان

و شجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك ، وأغصانها كأغصان الخرشف ، وأوراقها صغار رفاق ، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة . واللبان صمغية تكون في أغصانها . وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار .

ذكر الكافور

وأما شجرة الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ . ويكون الكافور داخل الأنابيب ، فإذا كسرت القصبة وجد في داخل الأنوب مثل شكله من الكافور . والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصبة ، حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان ، وإنما يتكون شيء منه . والطين المتأهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم ، بتجميد الروح ، وهو المسمي عندهم بالحردالة ، هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ، ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار .

ذكر العود الهندي

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط ، إلا أن قشرة رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له . وشجرته لا تعظم كل العظم ، وعروقه طويلة ، وفيها الرائحة العطرة . وأما عيدان شجرته وورقها ، فلا عطرية فيها . وكل ما في بلاد المسلمين من شجره فهو متملك . وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير

متملك . والمملوك منه ما كان بقاقة ، وهو أطيب العود . وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ، ويبيعونه لأهل الجاوية بالأنواع . ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع . وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه ، ويدفن في التراب أشهرأ ، تبقى فيه قوته ، وهو من أعجب أنواعه .

ذكر القرنفل

وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة ، وهي بلاد الكفار أكثر منها بلاد الإسلام ، وليس بمتملكة لكثرتها . والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان ، والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل ، هو الذي يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النارنج . وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب ، والزهر المتكون فيها هو البسباسة ، رأيت ذلك كله وشاهدته . ووصلنا إلى مرسي قاقدة ، فوجدناه به جلة من الجنوك معد للسرقة . ولمن يستعصي عليهم من الجنوك ، فإن لهم على كل جنك وظيفة . ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقدة (وهي بقافين آخرها مضموم ولا مها مفتوح) ، وهي مدينة حسنة ، عليها سور من حجارة منحوتة ، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحوال من العود الهندي ينقدونه في بيوتهم ، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمناً ، هذا إذا ابتعدوا فيما بينهم . وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن ، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير . والفيلة بها كثيرة جداً ، عليها يركبون ويحملون . وكل إنسان يربط فيلته على بابه ، وكل صاحب حانوت يربط فيلته عنده ، يركبه إلى داره ويحمل له . وكذلك جميع أهل الصين ، والخطا على مثل هذا الترتيب .

ذكر سلطان مل جاوه

وهو كافر ،رأيته خارج قصره جالساً على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط ، ومعه أرباب دولته . والعساكر يعرضون عليه مشاة ، ولا خيل هنالك إلا عند السلطان ، وإنما يركبون الفيلة ، وعليها يقاتلون . فعرف شأني ، فاستدعاني فجئت وقت : السلام على من اتبع المهدى ، فلم يفهوا إلا لفظ السلام . فرحب بي ، وأمر أن يفرش لي ثوب اقعد عليه . فقلت للترجمان : كيف أجلس على الشوب والسلطان قاعد على الأرض ؟ فقال : هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعاً ، وأنت ضيف ، وجئت من سلطان كبير ، فيجب إكرامك ، فجلست ، وسألني عن السلطان ، فأوجز في سؤاله ، وقال لي : تقم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسفر ، قد وضعه على رقبة نفسه ، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معاً وقطع عنق نفسه ، فوقع رأسه لحدة السكين ، وشدة إمساكه بالأرض . فعجبت من شأنه ، وقال لي السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم ؟ فقلت له : ما رأيت هذا قط . فضحك وقال : هؤلاء عبيدننا ، يقتلون أنفسهم في محبتنا . وأمر به فرفع وأحرق . وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا . وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه ، وعظموا لأجل فعله . وأخبرني من كان حاضراً في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به ، كان تقريراً لمحبته في السلطان ، وأنه يقتل نفسه في حبه ، كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه ، وجده قتل نفسه في حب جده ، ثم انصرفت عن المجلس . وبعث إلى بضيافة ثلاثة أيام . وسافرنا في البحر

فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوماً إلى البحر الكامل ، وهو الراكد وفيه حرة زعموا
 أنها من تربة أرض تجاوره . ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل
 هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب ، كما ذكرناه ، تجذف
 به فتجره . ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافاً كباراً كالصواري ،
 يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلاً أو نحوها ، ويقومون قياماً صفين ، كل
 صف يقابل الآخر . وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس . فتجذف إحدى
 الطائفتين الحبل ، ثم تتركه ، وتجذف الطائفة الأخرى . وهم يغدون عند ذلك
 بأصواتهم الحسان ، وأكثر ما يقولون : لعلى لعلى . وأقمنا على ظهر هذا البحر
 سبعة وثلاثين يوماً ، وعجبت البحرية من التسهيل فيه ، فإنهم يقيمون فيه خسین
 يوماً إلى أربعين ، وهي أنهى ما يكون التيسير من عليهم . ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي
 وهي (فتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) ، وملكتها هو المسمى
 بطالسي . وهي بلاد عريضة ، وملكتها يضاهي ملك الصين . وله الجنوك الكثيرة ،
 يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شيء . وأهل هذه البلاد عبدة أوثان ،
 حسان الصور ، أشبه الناس بالترك في صورهم ، والغالب على ألوانهم الحمرة ،
 و لهم شجاعة ونجد . ونساؤهم يركن الخيل ، ويحسن الرماية ، ويقاتلن كالرجال
 سواء . وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكري (وضبطها بكاف مفتوح وباء آخر
 المعرف مسكتة ولا مضموم وراء مكسور) ، وهي من أحسن مدنهم وأكبرها ،
 وكان يسكن بها ابن ملکهم . فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ، ونزل
 الناخوذة إليهم ، ومعه هدية لابن الملك ، فسلمهم عنه ، فأخبروه أن أباه ولاه بلداً
 غيرهم ، وولى بناته بتلك المدينة واسمها أردوحا (بضم الهمزة وسكون الراء وضم
 الدال المهمل وجيم) .

ذكر هذه الملكة

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيلوكري، استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب والكراني، وهو الكاتب، والتجار، والرؤساء، والتنديل، وهو مقدم الرجال، وسباه سالار، وهو مقدم الرماة، لضيافة صنعتها لهم على عادتها. ورغم الناخوذة مني أن أحضر معهم. فأتيت، لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم. فلما حضروا عندها، قالت لهم: هل بقي أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها الناخوذة: لم يبق إلا رجل واحد يخشى وهو القاضي بلسانهم، وبخشي (بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء وكسر الشين المعجمة)، وهو لا يأكل طعامكم. فقالت: ادعوه. فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة، فقالوا: أجب الملكة. فأتيتها، وهي بجلسها الأعظم، وبين يديها نسوة، بأيديهن الأزمة، يعرضن ذلك عليها، وحولها النساء القواعد، وهن وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل، وبين يديها الرجال. وجلسها مفروش بالحرير، وعليه ستور حرير وخشب من الصندل، وعليه صفائح الذهب. وبالمجلس مساطب خشب، منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغر كالخواجي والقلال والبواقيل. أخبرني الناخوذة أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالأفوايه، يشربونه بعد الطعام، وأنه عطر الرائحة حلو المطعم، يفرح ويطيب التكهة، ويهدم، ويعين على البقاء. فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية: حسن مسن يخشى مسن (خوشميسن يخشميسن)، معناه: كيف حالك؟ كيف أنت؟ وأجلستني على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربي، فقالت البعض خدامها: دواة وبتك كاتور (كتور) معناه: الدواة والكافر. فأتي بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم. فقالت: ما هذا؟ فقلت لها: تنكري (تنكري) نام، وتتنكري (بفتح التاء المثلثة وسكون النون وفتح الصاد وراء وباء) ونام (بنون

الف و Mime)، ومعنى ذلك اسم الله. فقالت: خشن (خوش)، ومعناه جيد. ثم سألتني من أي البلاد قدمت، فقلت لها من بلاد الهند. فقالت: بلاد الفلفل. فقلت: نعم. فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها فأجبتها.

فقالت: لا بد أن أغزوها وأخذها لنفسي، فإني يعجبني كثرة مالها وعساكرها. فقلت لها: أفعلي. وأمرت لي بأثواب وحل فيلين من الأرض وبجاموسين وعشرين من الضأن وأربعين أرطال جلاب وأربع مرتبطات، وهي أولانٍ ضخمة، ملوءة بالزنجيل والفلفل والليمون والعنباء. كل ذلك ملوح مما يستعد به للبحر، وأخبرني الناخوذة أن هذه الملكة في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال، وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء، فتغير على عدوها، وتشاهد القتال، وتبارز الابطال. وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عساكرها، وكادوا ينهزمون، فدفعت نفسها، وخرقت الجيوش، حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتل له، فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات، وانهزمت عساكره. وجاءت برأسه على رمح فافتكته أهلها منها بمال كثير. فلما عادت إلى أبيها ملكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها. وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها، فتقول: لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني. فি�تحامون مبارزتها، خوف المرة إن غلبتهم. ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوماً والرياح مساعدة لنا، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين. وإقليم الصين متسع، كثیر الخيرات والفوائد والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض. ويخترقه النهر المعروف بآب حياة، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضاً نهر السبر (السرور)، كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق تسمى كوه بوزنه، معناه جبل القرود، ومير في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين. وتكلته القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر، إلا أن هذا اكثراً عمارة وعليه التواعير الكثيرة.

وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصري، بل يفوقه، والأعناب والإجاص. وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الإجاص الذي بالصين. وبها بطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان. وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه. والقمع بها كثير جداً، ولم أر قمحاً أطيب منه، وكذلك العدس والحمص.

ذكر الفخار الصيني

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون وبصين كلان. وهو من تراب جبال هنالك، تقد فيه النار كالفحمر، وسنذكر ذلك، ويضيفون إليه حجارة عندهم. ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام، ثم يصبون عليها الماء، فيعود الجميع تراباً، ثم يخمرونه. فالمجيد منه ما خر شهراً كاملاً، ولا يزداد على ذلك. والدون ما خر عشرة أيام. وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص منها. ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم، حتى يصل إلى بلادنا بالغرب. وهو أبدع أنواع الفخار.

ذكر دجاج الصين

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً، أضخم من الأوز عندنا. وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الأوز عندنا. وأما الأوز عندهم فلا ضخامة لها. ولقد اشترينا دجاجة، فأردننا طبخها، فلم يسع لحمها في برمدة واحدة، فجعلناها في برمتين. ويكون الديك بها على قدر النعامة. وربما انتتف ريشها، فيبقى بضعة حراء. وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لي صاحبه: إن بلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك.

ذكر بعض من أحوال أهالي الصين

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهند. وملك الصين تترى من ذرية تنكيز خان. وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة لل المسلمين، ينفردون بسكناتهم. ولم فيها المساجد لإقامة الجمعة وسواها. وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها في أسواقهم. وهم أهل رفاهية واسعة عيش، إلا أنهم لا يختلفون في مطعم ولا ملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تخصي أمواله كثرة، وعليه جبة قطن خشنة. وجميع أهل الصين إنما يختلفون في أواني الذهب والفضة. ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرّجل الثالثة. والحرير عندهم كثير جداً، لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة، ولذلك كثراً، وهو لباس الفقراء والمساكين بها، ولو لا التجار لما كانت له قيمة. وبياع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير. وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه، ويجعل ذلك على باب داره. ومن كان له حسن قطع منها، جعل في إصبعه خاتماً، ومن كانت له عشر جعل خاتمين، ومن كان له خمس عشرة سموه السّتّي (بفتح السين المهمّل وكسر التاء المعلوّة) وهو يعني الكاريدي بمصر. ويسمون القطعة الواحدة منها بـ^ركالة (بفتح الباء الموحّدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام).

ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم. وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً، كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم. بقطع كاغد، كل

قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها ، بالشت (بناء موحدة والف ولا مكسور وسين معجم مسكن وناء معلوّة) ، وهو بمعنى الدينار عندنا . وإذا تزقت تلك الكواحد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك . ولا يعطى على ذلك أجراً ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان ، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء . وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء ، لم يؤخذ منه ، ولا يلتفت عليه ، حتى يصرفه بالبالشت ، ويشتري به ما أراد .

ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخطا ، إنما فحّمهم تراب عندهم ، منعقد كالطفل عندنا ، ولونه لون الطّفل ، تأتي الفيلة بالأحوال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه . فيقد كالفحّم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . وإذا صار رماداً عجنهو بالماء ويسوه وطبعوا به ثانية . ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ، ويضيفون إليه حجارة سواه ، كما قلنا .

ذكر ما خصوا به من إحكام الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات ، وأشدّهم إتقاناً فيها ، وذلك مشهور من حالمهم ، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه ، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه ، من الروم ولا من سواهم . فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنّي ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها ، إلا ورأيت صوري وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواحد ،

موضوعة في الأسواق.

ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصره مع أصحابي، ونحن على زي العراقيين. فلما عدت من القصر عشاً ، مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد أصقده بالحائط. يجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه.

وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى قصره ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم. وتنتهي حالمهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعث صورته إلى البلاد ، وبحث عنه. فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ. قال ابن جزي : هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قضية سابور ذي الأكتاف ، ملك الفرس ، حين دخل إلى بلاد الروم متذمراً ، وحضر وليمة صنعها ملوكهم ، وكانت صورته على بعض الأواني فنظر إليها بعض خدام قيسر ، فانطبعت على صورة سابور . فقال ملوكه : إن هذه الصورة تخبرني أن كسرى معنا في هذا المجلس. فكان الأمر على ما قاله ، وجرى فيه ما هو مسطور في الكتب.

ذكر عادتهم في تقييد ما في المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنو كهم السفر ، صعد إليه صاحب البحر وكتابه ، وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية ، وحينئذ يباح لهم السفر . فإذا عاد الجنك إلى الصين ، صعدوا إليه أيضاً وقابلوا ما قيدوه بأشخاص الناس ، فإن فقدوا أحداً من قيوده ، طالبوا صاحب الجنك . فإذا أُنْيَى ببرهان على موته أو فراره ، أو غير ذلك مما يحدث عليه ، وإنما أخذ فيه . فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يلي عليهم تفصيلاً جميع ما فيه

من السلع ، قليلها وكثيرها ، ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم . فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم ، عاد الجنك بجميع ما فيه مالاً للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين ، اللهم إلا أنه كان باهند ما يقرب منه ، وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مُقرّمها ، أغرم أحد عشر مغرماً ، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغامر .

ذكر عادتهم في منع التجار عن الفساد

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير في التزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين أو في الفندق ، فإن أحب التزول عند التاجر حصر ماله ، وضمنه التاجر المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف . فإذا أراد السفر بحث عن ماله ، فإن وجد شيئاً منه قد ضاع ، أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمه ، وإن أراد التزول بالفندق ، سلم ماله لصاحب الفندق وضمه ، وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه ، فإن أراد التسري اشتري له جارية ، وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق ، وأنفق عليها . والجواري رخيصات الأثمان ، إلا أن أهل الصين أجمعين يعيشون أولادهم وبناتهم ، وليس ذلك عيباً عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ، ولا يمنعون أيضاً منه إن اختاروه . وكذلك إن أراد التزوج تزوج . وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه . ويقولون : لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا ، فإنها أرض ضلال .

ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق

وببلاد الصين آمن البلد وأحسنها حالاً للمسافرين . فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعه شهور ، وتكون معه الأموال الطائلة ، فلا يخاف عليها . وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً ، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان

والرجال ، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء ، جاء الحاكم إلى الفندق ، ومعه الكاتب لكتابة أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، وختم عليها ، وأقفل باب الفندق عليهم . فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل واحد باسمه ، وكتب به تفصيلاً ، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له ، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه . وإن لم يفعل طلبه لهم . وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين إلى خان بالق . وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد ، وخصوصاً الدجاج والإوز . وأما الغنم فهي قليلة عندهم . ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر ، كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون . وهذه المدينة ليس بها زيتون ، ولا جمجمة بلاد أهل الصين والهند ، ولكنه اسم وضع عليها ، وهي مدينة عظيمة كبيرة ، تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس ، وتعرف بالنسبة إليها ، وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبارية . ومرساها من أعظم مراسى الدنيا ، أو هو أعظمها . رأيت به نحو مائة جنك كبار ، وأما الصغار فلا تخصى كثرة . وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين ، يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها . كمثل ما هي بلدة سجلامة ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم . والملمون ساكنون بمدينة على حدة . وفي يوم وصولي إليها رأيت بها الأمير الذي توجه إلى الهند رسولاً بالهدية ، ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك ، فسلم على ، وعرف صاحب الديوان بي ، فأنزلي في منزل حسن . وجاء إلى قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلى ، وهو من الأفضل الكرماء ، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهانى ، وهو من الصلحاء ، وجاء إلى كبار التجار ، فيهم شرف الدين التبريزى ، أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند ، وأحسنهم معاملة ، حافظ القرآن ، مكثر للتلاوة . وهؤلاء التجار لسكناتهم في بلاد الكفار ، إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا : جاء من أرض

الإسلام. وله يعطون زكوات أموالهم، فيعود غنياً، كواحد منهم. وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني، له زاوية خارج البلد، وإليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي إسحق الكازروني. ولما عرف صاحب الديوان أخباري، كتب إلى القان، وهو ملكهم الأعظم، يخبره بقدومي من جهة ملك الهند. فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني لبلاد الصين (صين الصين)، وهم يسمونه صين كلان، لأنها تشهد تلك البلاد، وهي في عهاته، بخلاف ما يعود جواب القان. فأجاب إلى ذلك، وبعث معي من أصحابي من يوصلني. وركبت في النهر، في مركب يشبه أجنفان بلادنا الغزوية، إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياماً، وجميعهم في وسط المركب، والركاب في المقدم والمؤخر، ويظللون على المركب بشباب تصنع من نبات بلادهم، يشبه الكتان، وليس به، وهو أرق من القنب.

و平安نا في هذا النهر سبعة وعشرين يوماً. وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية، نشتري بها ما نحتاج إليه، ونصلي الظهر. ثم ننزل بالعشى إلى أخرى. وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان (فتح الكاف)، وهي مدينة صين الصين، وبها يصنع الفخار، وبالزيتون أيضاً. وهناك يصب نهر آب حياة في البحر، يسمونه مجمع البحرين. وهي من أكبر المدن، وأحسنها أسوأها. ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين والهند واليمن. وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة، لها تسع أبواب، داخل كل باب أسطوان ومصاطب، يقع على الساكنون بها، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان، وأهل الرزمانات. ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة. وكذلك فيما بين الأبواب كلها. وفي داخلها المارستان للمرضى، والمطبخة لطبع الأغذية، وفيها الأطباء والخدم. وذكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب، لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام

والأرامل من لا مال لهم. وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم، وجعل هذه المدينة وما إليها من القرى والبساتين وقفاً عليها. وصور ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة، وهم يعبدونها. وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين، لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق، ولم قاض وشيخ. ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضي بينهم. وكان نزولي عند أحد الدين السنجاري، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذو الأموال الطائلة، وأقيمت عنده أربعة عشر يوماً، وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى على. وكل يوم يصنعون دعوة جديدة، ويأتون إليها بالعشرين الحسان والمغافن. وليس وراء هذه المدينة مدينة، لا للکفار ولا للمسلمين. وبينها وبين سد يأجوج وmajog ستون يوماً فيها ذكر لي، يسكنها کفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم. ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر إليها. ولم أر بذلك البلاد من رأى السد، ولا من رأى من رآه.

حكاية عجيبة

ولما كنت بصين كلان، سمعت أن بها شيخاً كبيراً قد أناف على مائتي سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها يتبعده فيه. فتوجهت إلى الغار، فرأيته على بابه، وهو نحيف شديد الحمرة، عليه أثر العبادة، ولا حية له. فسلمت عليه فأمسك يدي وشهما وقال للترجمان: هذا من طرف الدنيا، كما نحن من طرفها الآخر. ثم قال: لقد رأيت عجباً. أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة، والرجل الذي كان جالساً بين الأصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب؟ فقلت: نعم. فقال: أنا هو. فقبلت يده وفكرا ساعة، ثم دخل الغار، فلم يخرج إلينا. وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به. فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده. ووجدنا بعض

أصحابه ، ومعه جملة بوالشت من الكاغد . فقال : هذه ضيافتكم . فانصرفوا . فقلنا له : ننتظر الرجل . فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه . فإن عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك ، بل هو حاضر معك . فعجبت من ذلك ، وانصرفت . فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته ، فقالوا : كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء ، ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان . والذي ظنتموه أحد أصحابه هو هو . وأخبروني أنه كان قد غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة ، وكان السلاطين والأمراء والكهنة يأتونه زائرين ، فيعطيهم التحف على أقدارهم . وبأيامه الفقراء كل يوم ، فيعطي لكل واحد على قدره . وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر . وأنه يحدث عن السنين الماضية ، ويدرك النبي عليه السلام ، ويقول : لو كنت معه لنصرته . ويدرك الخليفتين عمر بن الخطاب وعلى ابن أبي طالب بأحسن الذكر ، ويثنى عليهما . ويلعن يزيد بن معاوية ، ويقع في معاوية . وحدثوني عنه بأمور كثيرة . وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال : دخلت عليه الغار ، فأخذ بيدي . فخليت إلى أبي في قصر عظيم ، وأنه قاعد فيه على سرير ، وفوق رأسه تاج ، وعن جانبيه الوصائف الحسان ، والفوواكه تساقط في أنهار هنالك ، وتخيلت أنني أخذت تفاحة لأكلها ، فإذا أنا بالغار ، وبين يديه ، وهو يضحك مني . وأصابني مرض شديد لازمني شهوراً ، فلم أعد إليه .

وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم . لكن لم يره أحد يصلى . أما الصيام فهو صائم أبداً . وقال لي القاضي : ذكرت له الصلاة في بعض الأيام ، فقال لي : أتدري أنت ما أصنع ؟ إن صلاتي غير صلاتك . وأخباره جميعها غريبة . وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت راجعاً إلى مدينة الزيتون .

ثم بعد وصولي إليها بأيام ، جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البر

والكرامة . إن شئت في النهر ، وإنما ففي البر . فاخترت السفر في النهر . فجهزوا لي
 مركباً حسناً من المراكب المعدة لركوب النساء ، وبعث الأمير معنا أصحابه ،
 ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار المسلمين أزواجاً كثيرة . ثم سرنا في الضيافة ،
 نتغدى بقرية ، ونتعشى بأخرى ، فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجهنفو
 (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون التون وفتح الجيم وسكون التون الآخر وضم
 الفاء وواو) وهي مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيح ، والبساتين محدقة بها ، فكأنها
 غوطة دمشق . وعند وصولنا ، خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار ،
 ومعهم الأعلام والطبلول والأبواق والأنفار وأهل الطرف . وأتوا بالخيل فركبنا ،
 ومشوا بين أيدينا ، لم يركب معنا غير القاضي والشيخ . وخرج أمير البلد
 وخدماته . وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم . دخلنا المدينة ، وهـا أربعة
 أسوار . يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان ، من حراس المدينة
 وسوارها ، يسمون البصوانان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد
 والمهمل وواو وألف ونون) ، ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون ،
 والأمير الحاكم على البلد ، ويسكن داخل السور الثالث المسلمين . وهـالك نزلنا
 عند شيخهم ظهير الدين القرلاني (بضم القاف وسكون الراء) ، ويسكن داخل
 السور الرابع الصينيون ، وهو أعظم المدن الأربع . ومقدار ما بين كل باب منها
 والذي يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه .

حكاية

وبينما أنا يوماً في دار ظهير الدين القرلاني ، إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء
 المعظمين عندهم . فاستؤذن له علي ، وقالوا : مولانا قوام الدين السبتي . فعجبت
 من اسمه ، ودخل إلى . فلما حصلت المؤانسة بعد التحية ، سمع لي أن أعرفه .
 فأطلت النظر إليه ، فقال : أراك تنظر إلي نظر من يعرفي ، فقلت له : من أي
 البلاد أنت ؟ فقال : من سبتة . فقلت له : وأنا من طنجة . فجدد السلام علي

وبكى حتى بكى تبكائه . فقلت له : هل دخلت بلاد الهند ؟ فقال لي : نعم ، دخلت حضرة دهلي . فلما قال لي ذلك تذكريت له ، وقلت : أنت البشري ؟ قال : نعم . وكان قد وصل إلى دهلي مع خاله أبي القاسم المرسي ، وهو يومنه شاب ، لا نبات بعارضيه ، من حذاق الطلبة ، يحفظ الموطأ . وكنت أعلم سلطان الهند بأمره ، فأعطيه ثلاثة آلاف دينار ، وطلب منه الإقامة عنده فأبى . وكان قصده في بلاد الصين ، فعظم شأنه بها ، واكتسب الأموال الطائلة . أخبرني أن له نحو خمسين غلاماً ومثلهم من الجواري . وأهدى إلى منهم غلامين وجاريتين وتحفـاً كثيرة . ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيما بعد ما بينها . وكانت إقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوماً .

osasفت منها إلى بلاد الصين ، على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني ، بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها . فمـتـ خرجت عن منزلي رأيت المنكرات الكثيرة ، فأقلقني ذلك ، حتى كنت ألازم المنزل ، فلا أخرج إلا لضرورة . وكـنـتـ إذا رأيت المسلمين بها ، فـكـأـنـيـ لـقـيـتـ أـهـلـيـ وـأـقـارـيـ . ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري ، أن سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام ، حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو (وهي بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة ويم وقف مضموم وطاء مسكونة ولا مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقـةـ ، وليس بها للمسلمين إلا أربعة من الدور أهلـهاـ من جهة الفقيه المذكور . نزلنا بدار أحدـهـ وأقـنـاـ عنـهـ ثلاثة أيام . ثم ودعت الفقيه وانصرفت . فركبت النهر على العادة ، نتفـدـىـ بـقـرـيـةـ وـنـتـعـشـىـ بأـخـرـىـ إلىـ أـنـ وـصـلـنـاـ بـعـدـ سـبـعـةـ عـشـرـ يـوـمـاـ إلىـ مـدـيـنـةـ الـخـنـسـاءـ ، وـاسـمـهـاـ عـلـىـ نـحـوـ اـسـمـ الـخـنـسـاءـ الشـاعـرـةـ . وـلـاـ أـدـرـيـ ، أـعـرـبـيـ هـوـ أـمـ وـاقـقـعـيـ . وـهـذـهـ مـدـيـنـةـ أـكـبـرـ مـدـيـنـةـ رـأـيـتـهـاـ عـلـىـ وـجـهـ الـأـرـضـ . طـوـلـهـاـ مـسـيـرـةـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ يـرـحلـ المسـافـرـ فـيـهاـ وـيـنـزـلـ .

وهي على ما ذكرناه من ترتيب عماره الصين ، كل واحد له بستانه وداره . وهي منقسمة إلى ست مدن ، سنذكرها . عند وصولنا إليها ، خرج إلينا قاضيها فخر الدين ، وشيخ الإسلام بها ، وأولاد عثمان بن عفان المصري ، وهم كبراء المسلمين بها ، ومعهم علم أبيض والأطبال والأنفار والأبواق . وخرج أميرها في موكيه ، ودخلنا المدينة . وهي ست مدن ، على كل مدينة سور ، ومحدق بالجميع سور واحد . فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثني القاضي وسواه أنهم اثنا عشر ألفاً في زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم . وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية ، على باب يعرف بباب اليهود . ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس ، وهم كثير . وأمير هذه المدينة من أهل الصين . وبتنا عنده الليلة الثانية .

وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ، ويسكنها المسلمين . ومدينتهم حسنة ، وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام . وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر ، عند دخولنا . ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري ، وكان أحد التجار الكبار . استحسن هذه المدينة فاستوطنها ، وعرفت بالنسبة إليه وأورث عقبه به الجاه والحرمة على ما كان عليه أبوهم من الإشارة على الفقراء والإعانة للمحتاجين . ولم زاوية تعرف بالعثمانية ، حسنة العماره ، لها أوقاف كثيرة . وبها طائفة من الصوفية . وبني عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة . وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير .

وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً . فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة . ولا يزالون يختلفون في أطعمتهم ، ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة . وركبوا معى يوماً ، فدخلنا إلى المدينة الرابعة ، وهي دار الإمارة . وبها سكنى الأمير الكبير قرطبي . ولما دخلنا من بابها . ذهب عني أصحابي ،

ولقني الوزير وذهب بي إلى دار الأمير الكبير قرطي. فكان من أخذذه الفرجية التي أعطانيها ولی الله جلال الدين الشيرازي ما قد ذكرته. وهذه المدينة منفردة لكسنی عبید السلطان وخدامه ، وهي من أحسن المدن الست . ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم ، وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام ، وأحجار الوقد . وفيه السفن للنزهة . والمشور في وسط هذه المدينة ، وهو كبير جداً . دار الإمارة في وسطه ، وهو يحف بها من جميع الجهات . وفيه سقائف ، فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . أخبرني الأمير قرطي أن عددهم ألف وستمائة معلم . كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين . وهم أجعون عبید القان ، وفي أرجلهم القبود ، ومساكنهم خارج القصر . ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة ، دون الخروج على باهها . ويعرضون كل يوم على الأمير مائة . فإن نقص أحدهم ، طلب به أميره . وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فلک عنه قيده ، وكان يخier في النظرين : إما أن يقيم في الخدمة غير مقيد ، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها . وإذا بلغ سنه خمسين عاماً اعتق من الأشغال وأنفق عليه ، كذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم . ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي ، فلم تغير عليه الأحكام . والشيخ بالصين يعظمون تعظيمًا كثيراً ، ويسمى أحدهم آطا ، ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قرطي

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) ، وهو أمير أمراء الصين ، أضافنا بداره ، وصنع الدعوة ، ويسمونها الطوى (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة . وأتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام . وكان هذا الأمير على عظمته يتناولنا الطعام بيده ، ويقطع اللحم

بيده . وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام ، وبعث ولده معنا إلى الخليج . فركبنا في سفينة تشبه الحراقة ، وركب ابن الأمير في أخرى ، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى ، وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي ، وكان ابن الأمير معجباً بالغناء الفارسي ، فغنوا شعراً منه . وأمرهم بتكريره مراراً ، حتى حفظته من أفواههم . وله تلحين عجيب وهو :

تا دل بمحنست داديم در بحر فکر افتاديم
جن (جون) در غاز استاديم قوي بمحراب اندری(اندریم)^(١)

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القلاع الملونة ومظلات الحرير . وسفنهم منقوشة أبدع نقش . وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون . وعدنا بالعشى إلى دار الأمير ، فبتنا بها . وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

حكاية المشعوذ

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة ، وهو من عبيد القان ، فقال له الأمير : أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء فارتقت حتى غابت عن الأ بصار ، ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد . فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير ، أمر متعلماً له فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا . فدعاه فلم يجيء ثلثاً . فأخذ سكيناً بيده كالمغتاظ وتعلق بالسir إلى أن غاب أيضاً ، ثم رمى بيد الصي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم

(١) معنى هذا الشعر : إننا منذ سلمنا أنفسنا للأحزان غرقنا في بحر التفكير ، ولكننا عندما نقف بالحراب لنصل إلى أقويه .

بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط، وهو ينفع، وثيابه ملطخة بالدم. فقبل الأرض بين يدي الأمير، وكلمه بالصيني وأمر له الأمير بشيء.

ثم إنه أخذ أعضاء الصبي، فألصلق بعضها ببعض، وركَّله برجله فقام سوياً. فعجبت منه. وأصابني خفقان القلب، كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند، حين رأيت مثل ذلك. فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت. وكان القاضي أفسر الدين إلى جاني، فقال لي: والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو، وإنما ذلك شعوذة. وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة، وهي من أكبر المدن، يسكنها عامة الناس. وأسواقها حسان، وبها الحذاق بالصناع، وبها تصنع الشياب الخنساوية. ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعه أبدع إلصاق، ودهنت بصبغ أحمر مشرق. وتكون هذه الأطباق عشرة: واحد في جوف آخر لبرقتها. تظهر لرأيها كأنها طبق واحد، ويصنعون غطاء يغطي جميعها. ويصنعون من هذا القصب صحافاً. ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها، ولا يحول. وتحلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها.

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها. وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتى وانان إلى المدينة السادسة. ويسكنها البحرية والصيادون والجلافطة والنجارون، ويدعون دودكاران (درودكران)، والأصباھية وهم الرماة، والبيادة وهم الرجال، وجيئهم عبيد السلطان. ولا يسكن معهم سواهم، وعددهم كثير. وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم. بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها، وجهز لنا الأمير قرطي مركباً بما يحتاج إليه من زاد وسواء، وبعث معنا أصحابه برسم التضييف.

وسائلنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين، ودخلنا إلى بلاد الخطأ (بكسر الخطاء المعجم وطاء مهمل)، وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة. ولا يكون في جميعها موضع غير معمور، فإنه إن بقي موضع غير معمور، طلب أهله أو من يوالهم بخراجه. والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر، من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق. وذلك مسيرة أربعة وستين يوماً. وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضراً غير مقيم، لأنها ليست بدار مقام، وليس بها مدينة مجتمعة، إنما هي قرى وبسائط، فيها الزرع والفواكه والسكر. ولم أر في الدنيا مثلها، غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة. وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة، حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بناء معجم والف ونون مسكن وباء معقود والف ولا مسكون وقاف)، وتسمى أيضاً خانقو (بناء معجم ونون مكسور وقاف وواو)، وهي حضرة القان، والقان هو سلطانهم الأعظم، الذي مملكته بلاد الصين والخطأ. وما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها، على العادة عندهم. وكتب إلى أمراء البحر بخبرنا، فأذنوا لنا في دخول مرساها، فدخلناه ثم نزلنا إلى المدينة، وهي من أعظم مدن الدنيا. وليس على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها. إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها، ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة حسبما نذكره. ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي، وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار، واستدعاه فأخذ الدنانير وقضى بها دينه، وأبى أن يسير إليه. وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده، وخطبه بصدر الجهان.

ذكر سلطان الصين والخطأ الملقب بالقان

والقان عندهم سمة لكل من يلي ملك الأقطار، كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور بأتايك واسمه باشاي (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون

الياء). وليس للكافر على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته.

ذكر قصره

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه. وأكثر عمارته بالخشب المنقوش، وله ترتيب عجيب. وعليه سبعة أبواب: فالباب الأول منها يجلس به الكتوال، وهو أمير البوابين. وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره، فيها الملايك البرددار، وهم حفاظ باب القصر، وعددتهم خمسة رجال. وأخبرت أنهم كانوا فيها تقدم ألف رجل. والباب الثاني يجلس عليه الإصباھية، وهم الرماة، وعددتهم خمسة. والباب الثالث يجلس عليه التزدارية (بالنون والزاي)، وهم أصحاب الرماح، وعددتهم خمسة. والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالناء المثناة والغين المعجم)، وهم أصحاب السيف والترس. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة. فالسقيفية العظمى يقعدها الوزير، على مرتبة هائلة مرتفعة، ويسمون ذلك الموضع المسند. وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفية سقيفية كاتب السر، وعن يمينها سقيفية كتاب الرسائل، وعن يمين سقيفية الوزير سقيفية كتاب الأشغال. وتقابل هذه السقائف سقائف أربع. إحداها تسمى ديوان الأشراف، يقعدها المشرف، والثانية سقيفية ديوان المستخرج، وأميرها من كبار الأمراء، والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من إقطاعاتهم، والثالثة ديوان الغوث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار، ومعه الفقهاء والكتاب. فمن لحقته مظلمة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد، يجلس فيها أمير الإخباريين. والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية، وأميرهم الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفتیان، وله ثلاث سقائف: إحداها سقيفية الحشان منهم، والثانية سقيفية الهنود، والثالثة سقيفية الصينيين. ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان بالق ، وجدنا القان غائباً عنها إذ ذاك . وخرج للقاء ابن عمه فیروز القائم عليه ، بناحية قراقرم وبش بالغ ، من بلاد الخطأ . وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة . وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي ، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود ، اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج ، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس . وأميرهم يسمى أمير طومان ، وكان من خواص السلطان ، وأهل دخلته حسين الفا زائداً إلى ذلك . وكانت الراجلة خمسة ألف . ولما خرج خالفاً عليه أكثر الأمراء ، واتفقا على خلعة . لأنه كان قد غير أحكام اليساق ، وهي الأحكام التي وضعها تنكizer خان جدهم الذي خرب بلاد الإسلام . فمضوا إلى ابن عمه القائم ، وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه ، وتكون مدينة الخنساء إقطاعاً له . فأبى ذلك ، وقاتلهم فانهزم وقتل . وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك . فزيست المدينة وضررت الطبول والأبواق والأنفار ، واستعمل اللعب والطرب مدة شهر .

ثم جيء بالقان المقتول ، وبنحو مائة من المقتولين بني عمه وأقاربه وخواصه . فحفر للقان ناووس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض ، وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحة ، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة ، وجعل معه أربع من الجواري ، وستة من خواص الماليك ، معهم أواني الشراب . وبني باب البيت ، وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم .

ثم جاءوا بأربعة أفراط فأجروها عند قبره حتى وقفت ، ونصبوا خشباً على القبر ، وعلقوها عليه . بعد أن أدخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه ، وجعل أقارب للقان المذكورون في نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم ، وصلبوا على قبور كبارهم . وكانوا عشرة : ثلاثة من الخيول على كل قبر ، وعلى

قبور الباقين فرساً فرساً. وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً لم يتخلَّف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكافر، وقد لبسوا أجعون ثياب العزاء، وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين. وأقام خواتين القان وخواصه في الأخيبة على قبره أربعين يوماً، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة. وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواء. وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا المضر. فأما الكفار من الهند وأهل الصين فيحرقون موتاهم، وسواهم من الأمم يدفون الميت ولا يجعلون معه أحداً. لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم، إذا مات ملوكهم صنعوا له ناووساً، وأدخلوا معه بعض خواصه وخدماته، وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم، بعد أن يكسرؤا أيديهم وأرجلهم، ويجعلون معهم أواني الشراب. وأخبرني بعض كبار مسورة، من يسكن بلاد كوبير مع السودان، واختصه سلطانهم، أنه كان له ولد. فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم، قال: فقلت لهم: كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم، ولا من ولدكم؟ وفديته منهم بمال عريض. ولما قتل القان كما ذكرنا، واستولى ابن عمه فيروز على الملك، اختار أن تكون حضرته مدينة قَرَاقُورُمْ (وضبطها بفتح القاف الأول والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية)، لقربها من بلادبني عميه ملوك تركستان وما وراء النهر. ثم خالفت عليه الأمراء من لم يحضر لقتل القان، وقطعوا الطرق، وعظمت الفتنة.

ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتنة، أشار على الشيخ برهان الدين وسواء أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتنة، ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز، فبعث معي ثلاثة من أصحابه، وكتب لي بالضيافة. وسرنا منحدرين في النهر إلى

الخنساء ، ثم إلى قنجهنفو ، ثم إلى الزيتون . فلما وصلتها وجدت الجنوκ على السفر إلى الهند ، وفي جملتها جنك للملك الظاهر ، صاحب الجاوية ، وأهله مسلمون . وعرفني وكيله ، وسر بقدومي . وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام ، فلما قاربنا بلاد طوالسي ، تغيرت الريح ، وأظلم الجو ، وكثير المطر ، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحراً لا نعرفه ، وخف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين ، فلم يتمكن ذلك . وأقمنا اثنين وأربعين يوماً لا نعرف في أي البحار نحن .

ذكر الرح

ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر ، وبينه نحو عشرين ميلاً ، والريح تحملنا إلى صوبه . فعجب البحريه وقالوا : لسنا بقرب من البر ، ولا يعهد في البحر جبل ، وإن اضطربنا الريح إليه هلكنا فلجلأ الناس إلى التضرع والإخلاص ، وجددوا التوبة ، وابتلهلنا إلى الله بالدعاء ، وتسلينا بنبيه ﷺ ، وندر التجار الصدقات الكثيرة ، وكتبتها لهم في زمام بخطي وسكنت الريح بعض سكون ، ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء ، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر ، فعجبنا من ذلك . ورأيت البحريه يبكون ويودع بعضهم بعضاً ، فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذي تخيلناه جيلاً هو الرح . وإن رأنا أهلكنا . وبيننا وبينه إذ ذاك أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى منَ علينا بريح طيبة ، صرفتنا عن صوبه ، فلم نره ، ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوية ، ونزلنا إلى سلطنة ، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزوة له ، وجاء بسيي كثير . فبعث لي جاريتين وغلامين ، وأنزلني على العادة ، وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه .

ذكر إعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجلوة، فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشور منبراً كبيراً، وكسوه بثياب الحرير. وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه، ومعها نحو أربعين من الخواتين، يرعن أذياها، من نساء السلطان وأمرائه وزرائه، وكلهن بadiات الوجه، ينظر إليهن كل من حضر من رفيع أو وضعيف. وليست تلك بعادة هن إلا في الأعراس خاصة. وصعدت العروس المنبر، وبين يديها أهل الطرف رجالاً ونساء، يلعبون ويغدون. ثم جاء الزوج على فيل مزين، على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة، والتساج على رأس العروس المذكور، عن يمينه فيساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء، قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة، وعلى رؤوسهم الشواشى المرصعة، وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية. ونشرت الدنانير والدرارهم على الناس عند دخوله. وقعد السلطان بمنظره له يشاهد ذلك. ونزل ابنه فقبل رجله، وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها، والخواتين يرعن عليها، وجاءوا بالغوفل والتبول. فأخذه الزوج بيده، وجعل منه في فمها. ثم أخذت هي بيدها وجعلت في فمه. ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تبول وجعلها في فمها، وذلك كله على أعين الناس، ثم فعلت هي كفعله. ثم وضع عليها الستر، ورفع المنبر عنها فيه، إلى داخل القصر. وأكل الناس وانصرفوا. ثم لما كان من الغد جمع الناس، وأجرى له أبوه ولاية العهد، وباعيه الناس، وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب. وأقمت بهذه الجزيرة شهرين، ثم ركبت في بعض الجنون.

وأعطاني السلطان كثيراً من العود والكافور والقرنفل والصندل، وزودني. وسافرت عنه، فوصلت بعد أربعين يوماً إلى كوم، فنزلت بها في جوار القزويني، قاضي المسلمين. وذلك في رمضان. وحضرت بها صلاة العيد، في

مسجدها الجامع . وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلاً . فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح . ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ، ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون . ثم سافرنا من كولم إلى قالقوط ، وأقمنا بها أياماً . وأردت العودة إلى دهلي . ثم خفت من ذلك ، فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار . وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين . ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا .

ذکر سلطان ظفار

ووُجِدَت سلطانها في هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث، الذي كان ملكاً بها حين وصوّل إليها فِي تقدُّم، ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر، التركي الأصل. وأنزلني هذا السلطان، وأكرمني. ثم ركبت البحر، فوصلت إلى مسقط (فتح الميم)، وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس، ثم سافرنا إلى مرسى القرىات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف وألف وفاء مثنية). ثم سافرنا إلى مرسى شبة (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها)، ثم إلى مرسى كلبة، ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب، ثم إلى قلهات، وقد تقدم ذكرها. وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز، وهي محسوبة من بلاد عمان. ثم سافرنا إلى هرمز، وأقمنا بها ثلاثة. وسافرنا في البر إلى كورستان ثم إلى اللار ثم إلى خنج بال، وقد تقدم ذكر جميعها. ثم سافرنا إلى كارزي (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسر الزاي)، وأقمنا بها ثلاثة.

ثم سافرنا إلى جِمْكَان (وُضِيَطَ اسْمُهَا بفتح الْجِمِّ وَالْمِيمِ وَالْكَافِ وَآخِرِهِ نُونٌ)،
ثم سافرنا منْهُمْ إلى مِيْمَن (وُضِيَطَ اسْمُهَا بفتح الْمِيمِ وَبَيْنِهِمَا ياءُ آخِرِ الْحُرُوفِ
مِسْكَنَةً وَآخِرِهِ نُونٌ)، ثم سافرنا إلى بَسْتَا (وُضِيَطَ اسْمُهَا بفتح الْبَاءِ الْمُوحَدَةِ

والسين المهمel مع تشديدها)، ثم إلى مدينة شيراز. فوجدنا سلطانها أباً أصحاق على ملكه إلا أنه كان غائباً عنها. ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة، وهو قد كف بصره، نفعه الله ونفع به. ثم سافرت إلى ماين، ثم إلى يزدخاص، ثم إلى كليل، ثم إلى كشك زر، ثم إلى اصبهان، ثم إلى تستر، ثم إلى الحوززا، ثم إلى البصرة، وقد تقدم ذكر جميعها. وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها، وهي قبر الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وحليمة السعدية، وأبي بكرة، وأنس بن مالك، والحسن البصري، وثبت البناي، ومحمد بن سيرين، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وحبيب العجمي، وسهل بن عبد الله التستري، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. ثم سافرنا من البصرة، فوصلنا إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزرناه. ثم توجهنا إلى الكوفة، فزرتنا مسجدها المبارك، ثم إلى الحلة، حيث مشهد صاحب الزمان، واتفق في بعض تلك الأيام أن ولها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم إلى مسجد صاحب الزمان، وانتظاره هنالك. ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الأمير، فأصابت ذلك الوالي علة مات منها سريعاً. فزاد ذلك في فتنة الراضة، وقالوا: إنما أصابه ذلك لأجل منعه الدابة، فلم تمنع بعد. ثم سافرت إلى صرصر، ثم إلى مدينة بغداد. وصلتها في شوال سنة ثمان وأربعين، ولقيت بها بعض المغاربة فعرفي بكائنها طريف، واستيلاء الروم على الخضراء. جبر الله صدع الإسلام في ذلك.

ذكر سلطان العراق.

وكان سلطان بغداد وال伊拉克 في عهد دخولي إليها في التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمّة السلطان أبي سعيد رحمه الله. ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق، وتزوج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجة ابن الأمير الجوبان، حسبما

كان فعله السلطان أبو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن . وكان السلطان حسن غائباً عن بغداد في هذه المدة ، متوجهاً لقتال السلطان أتابك افراسياب ، صاحب بلاد اللور . ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأنبار ، ثم إلى هيت ، ثم إلى الحديدة ، ثم إلى عانة . وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها . والطريق فيها بينها كثير العمارة ، كأن الماشي في سوق من الأسواق ، وقد ذكرنا أنها لم نر ما يشبه البلاد التي على نهر الصين إلا هذه البلاد . ثم وصلت إلى مدينة الرحبة ، وهي التي تنسب إلى مالك بن طوق . ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق ، وأول بلاد الشام . ثم سافرنا إلى السخنة ، وهي بلدة حسنة ، أكثر سكانها الكفار من النصارى . وإنما سميت السخنة لحرارة مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء ، يستحمون فيها ، ويستقون الماء ليلاً ، ويجعلونه في السطوح ليبرد . ثم سافرنا إلى تدمر ، مدينة نبي الله سليمان عليه السلام ، التي ينتها له الجن ، كما قال النابغة :

يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ثم سافرنا منها إلى مدينة دمشق الشام ، وكانت مدة مغبي عنها عشرين سنة كاملة . وكانت تركت بها زوجة لي حاملاً ، وتعرفت وأنا ببلاد الهند أنها ولدت ولداً ذكراً ، فبعثت حينئذ إلى جده للأم ، وكان من أهل مكتنasa المغارب أربعين ديناراً ذهباً هندياً . فحين وصولي إلى دمشق في هذه الكرة ، لم يكن لي هم إلا السؤال عن ولدي . فدخلت الجامع ، فوقق لي نور الدين السخاوي إمام المالكية وكبيرهم ، فسلمت عليه فلم يعرني . فعرفته بنفسي ، وسألته عن الولد . فقال مات منذ اثنتي عشرة سنة . وأخبرني أن فقيها من أهل طنجة يقيم بالمدرسة الظاهرية ، فسرت إليه لأسأله عن ولدي وأهلي ، فوجده شيخاً كبيراً ، فسلمت عليه وانتسبت له ، فأخبرني أن ولدي توفي منذ خمس عشرة سنة ، وأن الوالدة بقيت الحياة . وأقمت بدمشق الشام بقية العام والغلاء شديد ، والخبز قد انتهى إلى

قيمة سع أوaci بدرهم نقرة، وأوقيthem أربع أوaci مغربية. وكان قاضي قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين الملاطي، وكان من أصحاب الشيخ علاء الدين القونوي، وقدم معه دمشق، فعرف بها. ثم ولـي القضاء وقاضي قضاة الشافعية نقـي الدين بن السبكي، وأمير دمشق ملك الأمراء أرغون شـاه.

مکانی

ومات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق، وأوصى بمال للمساكين. فكان المتولى لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر. فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا واحتطفوا الخبز الذي يفرق عليهم، ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين. وبلغ ذلك الأمير أرغون شاه. فأخرج زبانيته، فكانتوا حيث ما لقوا أحداً من المساكين، قالوا له: تعال تأخذ الخبز. فاجتمع منهم عدد كثير. فحبسهم تلك الليلة، وركب من الغد، وأحضرهم تحت القلعة، وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم. وكان أكثرهم براء عن ذلك. وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا إلى حمص وحماء وحلب. وذكر لي أنه لم يعش بعد ذلك إلا قليلاً وقتل. ثم سافرت من دمشق إلى حمص ثم إلى حماه ثم إلى المعرة ثم إلى سرمين ثم إلى حلب. وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رُغْطَي (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهملة وباء آخر الحروف مسكونة).

حکایہ

وأتفق في تلك الأيام أن فقيراً يعرف بشيخ المشايخ، وهو ساكن في جبل خارج مدينة عنتاب، والناس يقصدونه ويتبركون به. وله تلميذ ملازم له، وكان متجرداً عزباً لا زوجة له، قال في بعض كلامه: إن النبي ﷺ كان لا

يصر عن النساء ، وأنا أصر عنهن . فشهد عليه بذلك ، وثبت عند القاضي ، ورفع أمره إلى ملك الأمراء ، وأقى به وبتلמידه الموفق له على قوله ، فأفتي القضاة الأربع ، وهم شهاب الدين المالكي ، وناصر الدين العديم الحنفي ، وتقى الدين الصائغ الشافعي ، وعز الدين الدمشقي الحنبلي ، بقتلها معاً ، فقتلا . وفي أوائل شهر ربيع الأول عام تسعه وأربعين ، بلغني الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزة ، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف في يوم واحد . فسافرت إلى حمص ، فوجدت الوباء قد وقع بها ، ومات يوم دخولي إليها نحو ثلاثة إنسان ، ثم سافرت إلى دمشق ووصلتها يوم الخميس ، وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام ، وخرجوا يوم الجمعة إلى جامع الأقدام ، حسبما ذكرناه في السفر الأول . فخفف الله الوباء عنهم ، فانتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعين في اليوم ، ثم سافرت إلى عجلون ثم إلى بيت المقدس ، ووجدت الوباء قد ارتفع عنهم . ولقيت خطيبه عز الدين بن جاعة ابن عم عز الدين قاضي القضاة بمصر ، وهو من الفضلاء الكرماء . ومرتبه على الخطابة ألف درهم في الشهر .

حكاية

وصنع الخطيب عز الدين يوماً دعوة . ودعاني فيمن دعا إليها ، فسألته عن سببها ، فأخبرني أنه نذر أيام الوباء ، أنه إن ارتفع ذلك ، ومر عليه يوم لا يصل فيه على ميت ، صنع الدعوة . ثم قال لي : وما كان بالأمس ، لم أصل على ميت ، فصنعت الدعوة التي نذرت . ووجدت من كنت أعهده من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى رحهم الله ، فلم يبق منهم إلا القليل ، مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلي العلائي ، ومثل الصالح شرف الدين الخشي شيخ زاوية المسجد الأقصى ، ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي ، فأضافني . ولم ألق بالشام ومصر من وصل إلى قدم آدم عليه السلام سواه .

ثم سافرت عن القدس ، ورافقي الوعاظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني ، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طلحه العبد الوادي . فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام ، وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام ، ثم سرنا إلى غزة ، فوجدنا معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء . وأخبرنا قاضيها أن الدول بها كانوا ثمانين ، فبقي منهم الرابع ، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة في اليوم .

ثم سافرنا في البر ، فوصلت إلى دمياط ، ولقيت بها قطب الدين النفوسي ، وهو صائم الدهر ، ورافقي منها إلى فارسكور وسمنود ثم إلى أبي صير (بكسر الصاد المهمel وياء وراء) ، ونزلنا في زاوية لبعض المصريين بها .

حكاية

وبينا نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد القراء فسلم ، وعرضنا عليه الطعام فأبى وقال : إنما قصدت زيارتكم ، ولم يزل ليته تلك ساجداً وراكعاً . ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر ، والفقير بركن الزاوية . فجاء الشيخ بالطعام ، ودعاه فلم يجيء . فمضى إليه فوجده ميتاً . فصلينا عليه ودفنه ، رحمة الله عليه . ثم سافرت إلى المحلة الكبيرة ، ثم إلى نحرارية ، ثم إلى أبيار ، ثم إلى دمنهور ، ثم إلى الإسكندرية . فوجدت الوباء قد خف بها ، بعد أن بلغ عدد الموتى إلى ألف وثمانين في اليوم . ثم سافرت إلى القاهرة ، وبلغني أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى واحد وعشرين ألفاً في اليوم . ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا ، رحمة الله تعالى .

ذكر سلطان مصر

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون . وبعد ذلك خلع عن الملك ، وولي أخيه الملك

الصالح. ولما وصلت القاهرة، وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، قد توجه إلى مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبي، لسفرهم في شهر رجب. وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا إلى عقبة أيلة، فارتفع عنهم. ثم سافرت من القاهرة إلى بلاد الصعيد، وقد تقدم ذكرها، إلى عيذاب. وركبت منها البحر، فوصلت إلى جدة. ثم سافرت منها إلى مكة، شرفها الله تعالى وكرمتها، فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين. ونزلت في جوار إمام المالكية الصالح الولي الفاضل أبي عبد الله محمد بن عبد الله المدعا بخليل. فصمت شهر رمضان بمكة، وكانت أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي. ولقيت من أعهد من أشياخها شهاب الدين الحنفي، وشهاب الدين الطبرى، وأبا محمد الياافى، ونجم الدين الأصفونى، والحرازى. وحججت ذلك العام، ثم سافرت مع الركب الشامي إلى طيبة، مدينة رسول الله ﷺ. وزرت قبره المكرم، زاده الله طيباً وتشريفاً، وصلت في المسجد الكريم، ظهره الله وزاده تعظىماً، وزرت من بالبقيع من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم، ولقيت من الأشياخ أبا محمد بن فردون. ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلا وتبوك، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى مدينة الخليل ﷺ، ثم إلى غزة، ثم إلى منازل الرمل، وقد تقدم ذكر ذلك كله، ثم إلى القاهرة. وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكلى على رب العالمين أبا عنان أيده الله تعالى، قد ضم الله به نشر الدولة المرinية، وشفى برకته بعد إشفائها البلاد الغربية، وأفاض الإحسان على الخاص والعام، وغمر جميع الناس بساقع الإنعام. فتشوقت النفوس إلى المثلول ببابه، وأملت لثم ركابه. فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية، مع ما شاقني من تذكار الأوان، والحنين إلى الأهل والخلان، والمحبة إلى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان.

بلاد بها نيطت علي تمامي وأول أرض مس جلدي ترابها

فركبت البحر في قرقرة لبعض التونسيين صغيرة، وذلك في صفر سنة
خمسين. وسرت حتى نزلت بجربة. وسافر المركب المذكور إلى تونس، فاستولى
العدو عليه. ثم سافرت في مركب صغير إلى قابس، فنزلت في ضيافة الأخوين
الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكي أميري جربة وقابس. وحضرت
عندما مولد رسول الله ﷺ، ثم ركبت في مركب إلى سفاقس، ثم توجهت في
البحر إلى بليانة، ومنها سرت في البر مع العرب، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة
تونس، والعرب محاصرون لها.

ذكر سلطان تونس

وكانت تونس في إيدى مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل
رب العالمين، علم الأعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجاد
الأجود، القانت الأول، الخاشع العادل، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين،
المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر دين الاسلام، الذي سارت الأمثال بجوده،
وشاع في الأقطار أثر كرمه وفضله، ذي المناقب والمناقب والفضائل والمائز،
الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين، المجاهد
في سبيل رب العالمين، قاهر الكفار ومبيدها، ومبدي آثار الجهاد ومعيدها،
ناصر الإيمان، الشديد السطوة في ذات الرحمن، العابد الزاهد، الرااكع الساجد،
الخاشع الصالح، أبي يوسف ابن عبد الحق، رضي الله عنهم أجمعين، وأبقى الملك
في عقبهم إلى يوم الدين. ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسي لما
بيني وبينه من مودات القرابة والبلدية. فأنزلني بداره، وتوجه معي إلى المشور،
فدخلت المشور الكريم وقتلت يد مولانا أبي الحسن رضي الله عنه، وأمرني
بالقعود فقعدت. وسألني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فأجبته. وسألني عن

ابن تيفراجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه . وإرادتهم قتله بالإسكندرية ، وما لقي من أذىهم ، انتصاراً منهم مولانا أبي الحسن رضي الله عنه ، وكان في مجلسه من الفقهاء الأئمأ أبو عبد الله السطى ، والإمام أبو عبد الله محمد بن الصباغ . ومن أهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبد الرفيع ، وأبو عبد الله بن هارون . وانصرفت عن المجلس الكريم . فلما كان بعد العصر استدعاني مولانا أبو الحسن ، وهو ببرج يشرف على موضع القتال ، ومعه الشيخ الأجلة أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التنالفي ، وأبو حسون زيان بن أمريون العلوى ، وأبو زكرياء يحيى ابن سليمان العسكري ، وال الحاج أبو الحسن الناميسي . فسألني عن ملك الهند فأجبته عما سأله .

ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس ، وكانت ستة وثلاثين يوماً . ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم أبو عبد الله الألبى ، وكان في فراش المرض ، وباحثني عن كثير من أمور رحلتي .

ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين ، فوصلنا إلى جزيرة سردانية ، من جزر الروم ، وها مرسي عجيب ، عليه خشب كبار دائرة به . وله مدخل كأنه باب ، لا يفتح إلا باذن منهم ، وفيها حصون . دخلنا أحدها ، وبه أسواق كثيرة ، وندرت لله تعالى إن خلصنا الله منها صوم شهرين متتابعين . لأننا تعرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها ليأسرونا .

ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تنس ، ثم إلى مازونة ، ثم إلى مستغانم ، ثم إلى تلمسان . فقصدت العباد ، وزرت الشيخ أبو مدين رضي الله عنه ونفع به ، ثم خرجت عنها على طريق مدرومة ، وسلكت طريق أخندقان . وبت بزاوية الشيخ إبراهيم . ثم سافرنا منها ، فبيتنا نحن بقرب أزغنغان ، إذا خرج علينا خمسون راجلاً وفارسان . وكان معى الحاج ابن قريuntas الطنجي وأخوه محمد ،

المستشهد بعد ذلك في البحر . فعزمنا على قتالهم ، ورفعنا علمًا ، ثم سالمونا
وسلمناهم ، والحمد لله ، ووصلت إلى مدينة تازى ، وبها تعرفت خبر موت والدتي
بالوباء رحها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازى ، فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعين إلى حضرة فاس ، فمثلت بين يدي مولانا الأعظم ، الإمام الأكرم ، أمير المؤمنين ، المตوكل على رب العالمين ، أبي عنان ، وصل الله علوه ، وكبت عدوه . فأنستني هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن آذقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وحلمه حلم ملك الروم ، وديانته ديانة ملك تركستان ، وعلمه علم ملك الجاوية . وكان بين يديه وزير الفاضل ذو المكارم الشهيرة والماهر الكثيرة أبو زيان ابن ودرار ، فسألني عن الديار المصرية ، إذ كان قد وصل إليها فأجبته بما سأله . وغمرني من إحسان مولانا أيده الله تعالى بما أعجزني شكره . والله ولي مكافأته . وألقيت عصا التسيير ببلاده الشريفة ، بعد أن تحققت بفضل الإنفاق أنها أحسن البلدان . لأن الفواكة بها متيسرة ، والمياه والأقوات غير متعدّرة . وقل إقليم يجمع ذلك ، ولقد أحسن من قال :

الغرب أحسن أرض ولـي دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى إليه
ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة، وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار
مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك، ولا ح فضل بلاد المغرب. فأقول: إن لحوم
الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثمانى عشرة أوقية بدرهم نقرة، والدرهم النقرة
ستة دراهم من دراهم المغرب، وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ثمانى عشرة
أوقية بدرهمين، وهذا ثلث النقرة. وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر
الآوقات. والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يلتفت إليه بالمغرب،

ولأن أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات، ويجعلون عليه السيرج والبسلا، وهو صنف من الجلبان، يطبخونه ويجعلون عليه الزيت، والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن، والبقلة الحمقاء يطبخونها كذلك، وأعين أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن، والقلقس يطبخونه. وهذا كله متيسر بالغرب، لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك. وأما الخضر فهي أقل الأشياء ببلاد مصر، وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام، وأما العنبر فإذا كان رخيصاً بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالم بدرهم نقرة، ورطلهم اثنتا عشرة أوقية. وأما في بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة، إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمناً، فان العنبر بيع بها بمحاسب رطل من أرطالم بدرهم نقرة، ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية. وإذا رخص ثمنه بيع بمحاسب رطلين بدرهم نقرة، والإيجاص بيع بمحاسب عشر أواق بدرهم نقرة، وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منها بثمانية قلوس، وهي درهم من دراهم المغرب. وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما بيع في بلادنا بالدرهم الصغير. وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالم بدرهمين ونصف درهم نقرة. فإذا تأملت ذلك كله بين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعاراً وأكثرها خيرات، وأعظمها مرفاق وفوائد. ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً إلى شرفها، وفضلاً إلى فضلها، ياماً مولانا أمير المؤمنين، الذي مد ظلال الأمان في أقطارها، وأطلع شمس العدل في أرجائها، وأفاض سحاب الإحسان في باديتها وحاضرتها، وطهرها من المفسدين، وأقام بها رسوم الدنيا والدين. وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته، واشتغاله بالعلم، وتفقهه، وصدقته الجارية، ورفع المظالم.

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

أما عدله فأشهر من أن يسطر في كتاب. فمن ذلك جلوسه للمشتكيين من رعيته، وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال

والنساء ، وتقديمه النساء لضعفهن . فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، ومن وصلت نوبتها نودي باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمين ، يكلمها دون واسطة . فإن كانت متظلمة عجل إنصافها ، أو طالبة إحسان وقع إسعافها . ثم إذا صلية العصر قرئت قصص الرجال ، وفعل مثل ذلك فيها . ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة ، فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية . وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام ، ويظهر فيه مثل هذا العدل . فإن ملك الهند عين بعض أمرائه لأخذ القصاص من الناس ، وتلخيصها ورفعها إليه ، دون حضور أربابها بين يديه . وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب . فإنه أيده الله عفا عن الكثير من تعرض لقتال عساكره والمخالفه عليه ، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يغفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه . وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى : **﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾**^(١) قال ابن جزي : من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله ، أفي منذ قدمي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد ، وهو أوائل عام سبعة وخمسين ، لم أشاهد أحداً أمر بقتله إلا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى قصاص أو حرابة ، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف .

ولم يسمع بمثل ذلك في ما تقدم من الأعصار ، ولا فيما تبعد من الأقطار . وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والإقدام ، مثل يوم قتالبني عبد الوادي وغيرهم . ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان ، وذكر ذلك عند سلطانهم فقال : هكذا وإنما فلا .

قال ابن جزي : لم يزل الملوك الأقدمون تفاخر بقتل الآساد وهزائم

(١) آل عمران : ١٣٤ .

الأعادي ، ومولانا أيده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد ، فإنه لما خرج الأسد على الجيش بواudi التجارين من المعمورة بجوز سلا ، وتحامته الأبطال ، وفرت أمامه الفرسان والرجال ، برب إلينه مولانا أيده الله غير محفل به ، ولا متهيب منه ، فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خر بها صريعاً للبيدين ولل Ferm . وأما هزائم الأعادي فإنها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم وإقدام فرسانهم ، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال . وأما مولانا أيده الله فإنه أقدم على عدوه منفرداً بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس ، وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل . فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الأعداء ، وانهزموا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والعاقبة للمتقين ، وما هو إلا ثمرة ما يمتاز به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض إليه . وأما استغالة بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد مجلس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ، ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم ، فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، وحديث المصطفى ﷺ ، وفروع مذهب مالك رضي الله عنه ، وكتب المتصوفة . وفي كل علم منها له القدر المعلى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقى نكته الرائقة من حفظه . وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنایته بالعلم إلى هذه النهاية . فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة ، ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي ، وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الأخيرة والصبح في الجماعة ، حتى رأيت ملازمة مولانا ، أيده الله ، في الصلوات كلها في الجماعة وقيام رمضان : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) .

(١) البقرة: ١٠٥

قال ابن جزي : لو أن عالماً ليس له شغل إلا بالعلم ليلاً ونهاراً، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم ، مع اشتغاله بأمور الأمة ، وتدبره لسياسة الأقاليم النائية ، و مباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك ، ونظره بنفسه في شكايات المظلومين . ومع ذلك كله فلا تقع مجلسه الكريم مسألة علم في أي علم كان ، إلا جلا مشكلها ، وباحت في دقائقها ، واستخرج غواصها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها . ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التصوفى ، ففهم إشارات القوم ، وخلق بأخلاقهم . وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعته ، وشفقته على رعيته ، ورفقه في أمره كله . وأعطى للآداب حظاً جزيلاً من نفسه ، فاستعمل أحسنها متزعاً ، وأعظمها موقعاً ، وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة ، روضة سيد المرسلين وشفعي المذنبين رسول الله عليه السلام ، وكتبهما بخط يده الذي ينجل الروض حسناً .

وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ، ولا رام إدراكه . ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى ، وأحاط علماً بمحصولها ، لاح له فضل ما وهب الله مولانا من البلاغة التي فطره عليها ، وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها . وأما صدقاته الجارية ، وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر ، فذلك ما لم يفعله أحد من الملوك ، غير السلطان أتابك أحمد . وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم ، والتصدق بالزرع على المستربين من أهل البيوت .

قال ابن جزي : اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات أموراً لم تخطر في الأوهام ، ولا اهتدت إليها السلاطين . فمنها إجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ، ومنها تعين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد

أيضاً، ومنها كون تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً متيسراً للانتفاع به ، ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشياخ واللازمين للمساجد بجميع بلاده ، ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الأصناف في عيد الأضحى، ومنها التصدق بما يجتمع في جمالي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان إكراماً لذلك اليوم الكريم وقياماً بحقه ، ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم ، واجتاعهم لإقامة رسمه ، ومنها إعذار اليتامي من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ، ومنها صدقته على الرمنى والضعفاء بأزواج الحرش ، يقيمون بها أودهم ، ومنها صدقته على المساكين بحضوره بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند رقادهم.

وذلك مكرمة لا يعلم لها نظير . ومنها بناء المرستانات في كل بلد من بلاده ، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى ، وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طلبهم ، إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكاره ، وضروب المآثر ، كافا الله أياديه ، وشكراً نعمه . وأما رفعه للمظالم عن الرعية ، فمنها الربت التي كانت تؤخذ بالطرقات ، أمر أيده الله بمحوها ، وكان لها مجبي عظيم ، فلم يلتفت إليه ، وما عند الله خير وأبقى ، وأما كفه أيدي الظلام فأمر مشهور ، وقد سمعته أيده الله يقول لعماله : لا تظلموا الرعية ، ويؤكده عليهم تلك الوصية .

قال ابن جزي : ولو لم يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلى رفعه التضييف الذي كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا ، لكنه ذلك أثراً في العدل ظاهراً ونوراً في الرفق باهراً ، فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق ما لا يحيط به الحصر . وقد صدر في أيام تصنيف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسجونين ، ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم ، ما هو اللائق بإحسانه ، والمعهود من رأفته ، وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار ، وكذلك صدر من التكيل بن ثبت جوره من القضاة والحكام ، ما فيه زجر الظلمة وردع المعذين .

وأما فعله في معاونة أهل الأندلس على الجهاد، ومحافظته على إمداد الغور بالأموال والأقوات والسلاح، وفته في عضد العدو بإعداد العدد وإظهار القوة، فذلك أمر شهير، لم يغب علمه عن أهل المغرب والشرق، ولا سبق إليه أحد من الملوك.

قال ابن جزي: حسب المنشوف إلى علم ما عند مولانا أいで الله من سداد القطر إلى المسلمين، ودفع القوم الكافرين، ما فعله في فداء مدينة طرابلس Africique. فإنها لما استولى العدو عليها، ومد يد العدوان إليها، ورأى، أいで الله، أن بعث الجيوش إلى نصرتها لا يتأتى بعد الأقطار، كتب إلى خدامه ببلاد إفريقيا أن يفدوها بالمال. ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين. فلما بلغه خبر ذلك قال: الحمد لله الذي استرجعها من أيدي الكفار بهذا التزير اليسير. وأمر للحين ببعث ذلك العدد إلى إفريقيا، وعادت المدينة إلى الإسلام على يديه. ولم يخطر في الأوهام أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزراً يسيراً حتى جاء بها مولانا أいで الله مكرمة بعيدة، وتأثيرة فائقة، قل في الملوك أمثالها وزع عليهم مثالها. وما شاع من أفعال مولانا أいで الله في الجهاد إنشاؤه الأجنان بجميع السواحل، واستكثاره من عدد البحر، وهذا في زمان الصلح والمهدنة، إعداداً لأيام الغزاة. وأخذ بالحزم في قطع أطعاف الكفار، وأكمل ذلك بتوجيهه، أいで الله، بنفسه إلى جبال جاناته في العام الفارط ليباشر قطع الخشب للإنشاء، ويظهر قدر ما له بذلك من الاعتناء، ويتولى بذاته أعمال الجهاد، مترجياً ثواب الله تعالى، ومؤقاً بحسن الجزاء.

ومن أعظم حسناته، أいで الله، عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء، دار ملكه العلي، وهو الذي امتاز بالحسن واتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب، وعمارة المدرسة الكبرى بالوضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبه فاس،

ولا نظير لها في المعمورة اتساعاً وحسناً وإبداعاً وكثرة ماء وحسن وضع. ولم أر في مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها. وعماره الزاوية العظمى على غدير الحمقى، خارج المدينة البيضاء، فلا مثل لها أيضاً في عجيب وضعها وبديع صنعتها. وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية سرياقوس (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر. وهذه أبدع منها وأشد إحكاماً وإنقاذاً. والله سبحانه ينفع مولانا، أいで الله، بمقاصده الشريفة، ويكافىء فضائله المنيفة، ويدم ل الإسلام والمسلمين أيامه، وينصر أوليته المظفرة وأعلامه.

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول؛ ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام الكريم، وعني فضل إحسانه العظيم، قصدت زيارة قبر الوالدة. فوصلت إلى بلدة طنجة وزرتها، وتوجهت إلى مدينة سبتة، فأقمت بها أشهراً، وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر، ثم عافاني الله. فأرادت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط، فركبت البحر من سبتة في شطي لأهل أصيلا، فوصلت إلى بلاد الأندلس، حرستها الله تعالى، حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذكور للمقيم والظاعن. وكان ذلك إثر موت طاغية الروم أفسوس، وحصاره الجبل عشرة أشهر، وظن أنه يستولي على ما بقي من بلاد الأندلس للمسلمين. فأخذه الله من حيث لم يحتسب، ومات بالوباء الذي كان أشد الناس خوفاً منه. وأول ملد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح. فلقيت به خطيبه الفاضل أبي زكريا يحيى بن السراج الرندي، وقاضيه عيسى البريري، وعنه نزلت وتطوّفت معه على الجبل، فرأيت عجائب ما بني به مولانا أبو الحسن، رضي الله عنه، وأعد فيه من العدد، وما زاد على ذلك مولانا، أいで الله. ووددت أن لو كتبت من رابط به إلى نهاية العمر.

قال ابن جزي : جبل الفتح هو معقل الإسلام المعترض شجّى في حلوق عبدة

الأصنام، حسنة مولانا أبي الحسن، رضي الله عنه، المنسوبة إليه، وقربته التي
قدمها نوراً بين يديه، محل عدد لجهاد، ومقر آساد الأجناد، والشغر الذي افتر
عن نصر الإيمان، وأذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان، ومنه
كان مبدأ الفتح الأكبر، وبه نزل طارق بن زياد، مولى موسى بن نصیر،
عند جوازه، فنسب إليه، فيقال له : جبل طارق، وجبل الفتح، لأن مبدأه كان
منه. وبقايا السور الذي بناه من معه باقية إلى الآن، تسمى بسور العرب.
شاهدتها أيام إقامتي به عند حصار الجزيرة، أعادها الله، ثم فتحه مولانا أبو
الحسن، رضوان الله عليه، واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكتهم له عشرين سنة
ونيفاً، وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك، وأيده بالأموال
الطاائلة والعساكر الجرارة. وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر، وذلك في عام
ثلاثة وثلاثين وسبعين، ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه. فبني به مولانا
أبو الحسن، رحمة الله عليه، المأثرة العظمى بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجاً
صغيراً، تهدم بأحجار المجانيق، فبنوها مكانه، وبنى به دار الصناعة، ولم يكن به
دار صنعة، وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء، الآخذ من دار الصناعة
إلى القرمدة. ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان، أيده الله، عهد تحصينه
وتحسينه، وزاد بناء السور بطرف الفتح، وهو أعظم أسواره غناه، وأعمها
نفعاً. وبعث إليه العدد الوافر والأقوات والمرافق العامة، وعامل الله تعالى فيه
بحسن النية، وصدق الإخلاص. ولما كان في الأشهر الأخيرة من عام ستة
وخمسين، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا، أيده الله، ومرة توكله
في أمره على الله، وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية. وذلك أن
عامل الجبل الخائن الذي ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزع يده
المغلولة عن الطاعة، وفارق عصمة الجماعة، وأظهر النفاق، وجح في الفدر
والشقاق، وتعاطى ما ليس من رجاله، وعمي عن مبدأ حاله السيء وماله،
وتوهم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تنفق على إطفائها كرائم الأموال، ويستعد

لاتقائها بالفرسان والرجال. فحكمت سعادة مولانا، أيده الله ببطلان هذا التوهم، وقضى صدق يقينه بانحراف العادة في هذه الفتنة، فلم تكن إلا أيام يسيرة، وراجع أهل الجبل بصائرهم، وثاروا على الشائز، وخالفوا الشقي المخالف، وقاموا بالواجب من الطاعة، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق، وأتي بها مصفدين إلى الحضرة العلية، فنفذ فيها حكم الله في المحاربين، وأراح الله من شرها. ولما خدت نار الفتنة أظهر مولانا، أيده الله، من العناية ببلاد الاندلس ما لم يكن في حساب أهلها، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد أبا بكر، المدعو من السمات السلطانية بالسعيد، أسعده الله تعالى، وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفالة الرجال، وأدر عليهم الأرزاق، ووسع لهم الإقطاع، وحرر بلادهم من المغارم، وبذل لهم جزيل الإحسان. وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر، أيده الله، ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل، وما اتصل به من التربة الحمراء. فصنع ذلك بالمشور السعيد، فكان شكلاً عجيبةً أتقنه الصناع إتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل، وشاهد هذا المثال، وما ذلك إلا لتشوّقه، أيده الله، إلى استطلاع أحواله وتهّمه بتحصينه وإعداده. والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه، ويتحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار، وشتَّ شمل عباد الصليب. وتذكرت حين هذا التقى قول الأديب البليف المفلق أبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي البنسي، رحمه الله، في وصف هذا الجبل المبارك من قصيده الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن علي^(١) التي أولاها:

(١) عبد المؤمن بن علي، هو: أمير دولة الموحدين بعد مؤسساها محمد بن تومرت، وقادت هذه الدولة بالغرب، واستولت على الأندلس، وطردت منه المرابطين، وكان حكمه من سنة ٥٢٥ هـ إلى سنة ٥٥٨ هـ (١١٣٠ - ١١٦٣ م).

لو جشت نار المدى من جانب الطور
قبست ما شئت من علم ومن نور
وفيها يقول في وصف الجبل، وهو من البديع الذي لم يسبق إليه، بعد وصفه
السفن وجوازها :

معظم القدر في الأجيال مذكور^(١)
له من الغم جيب غير مزروع
في الجو حائمة مثل الدنانير
بكل فضل على فوديه محور
منه معاجم أعود الدهارير
وساقها سوق حادي العير للعير
عجب أمر به من ماضٍ ومنظور
بادي السكينة مُعبرَ الأسارير
خوف الوعيدين^(٥) من دك وتسير

حتى رمت جبل الفتحين^(٢) من جبل
بن شامخ الأنف في سحنائه طلس^(٣)
نسبي النجوم على تكليل مفرقه
نرمي مسحته من ذوئبها
وادرد^(٤) من ثيابها بما أخذت
محنك حلب الأيام أشطرها
مقيد الخطو جوال الخواطير في
قد واصل الصمت والإطراق مفتكرةً
كأنه مكمد مما تعده

(١) سماه البلنسي: جبل الفتحين، لأنه أضاف إلى فتح طارق بن زياد للجبل فتح عبد المؤمن بن علي له في ذي القعدة سنة ٥٥٥ هـ.

(٢) أورد لسان الدين بن الخطيب (ذو الوزارتين) في كتابه: أعمال الأعلام فيما يوبع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، والذي حقق قسمه الثاني الذي يتعلق بأخبار الجزيرة الأندلسية، وعلق عليه الأستاذ إ. ليفي بروفنسال أبيات القصيدة هكذا:

حتى رمت جبل الفتحين من كثب بساطع من سناء غير مبهور
لله ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور

(٣) السحناه: الهيئة واللون، والطلس: جمع طلسة، وهي: الغبرة في سواد ، والسعابة الرقيقة .

(٤) الأدرد، مؤنه: درداء: من ذهبت أسنانه، وهو من نوع من الصرف، لأنه وصف على وزن الفعل، وقد صرف هنا لضرورة الشعر .

(٥) المقصود بالوعيدين: الوعيد بالدك للجبال، وتسيرها، وقد جاء هذا الوعيد في قول الله تعالى: =

أخلق به وجبار الأرض راجفة أن يطمئن غداً من كل مخدر

ثم استمر في قصيده على مدح عبد المؤمن بن علي.

قال ابن جزي : ولنعد إلى كلام الشيخ أبي عبد الله قال : ثم خرجت من جبل الفتح إلى مدينة رندة ، وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجلها وضعاً ، وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الريبع سليمان بن داود العسكري ، وقاضيها ابن عمي الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ولقيت بها الفقيه القاضي الأديب أبي الحجاج يوسف بن موسى المنشاوي ، وأضافني منزله ، ولقيت بها أيضاً خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف بالشندريخ ، المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ، ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبدالله الصفار وسواء . وأقمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت منها إلى مدينة مربلة ، والطريق فيها بينها صعب شديد الوعورة ، ومربلة بليدة حسنة خصبة . وووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين إلى مالقة ، فأرددت التوجّه في صحبتهم . ثم إن الله تعالى عصمني بفضله فتوجهوا قبلي ، فأسروا في الطريق ، كما سندكوه . وخرجت في أثرهم ، فلما جاوزت حوز مربلة ، ودخلت في حوز سهيل ، مررت بفرس ميت في بعض الخنادق ، ثم مررت بقفنة حوات^(١) مطروحة بالأرض ، فرابني ذلك ، وكان أمامي برج الناظور . فقلت في نفسي : لو ظهر هنا عدو لأنذر به صاحب البرج . ثم تقدمت إلى دار هنالك ، فوجدت فرساً مقتولاً . فبينما أنا هنالك ، إذ سمعت الصياح من خلفي ، وكنت قد تقدمت أصحابي ، فعدت إليهم ، فوجدت معهم قائد حصن سهيل ،

= «وَحْمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكِّنَا دَكَّةً وَاحِدَةً» ، المحقق: ١٤ ، قوله تعالى: «وَسَيِّرْ الجِبَالَ سِيرَأ» ، الطور: ١٠ ، قوله تعالى: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ» ، الكهف: ٤٧ ، قوله تعالى: «وَسَيِّرْتِ الْجِبَالَ فَكَانَتْ سَرَاباً» ، النبأ: ٢٠ ، قوله تعالى: «وَإِذَا الْجِبَالُ سِيرَتْ» ، التكوير: ٤٣ .

(١) الحوات : باائع الحيتان .

فأعلمني أن أربعة أجفان للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها إلى البر . ولم يكن الناظور بالبرج ، فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة ، وكانوا اثني عشر ، فقتل النصارى أحدهم ، وفر واحد ، وأسر العشرة . وقتل معهم رجل حotas ، وهو الذي وجدت قفته مطروحة بالأرض . وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ليوصلني منه إلى مالقة ، فبت عنده بمحصن الرابطة المنسوب إلى سهيل . والأجفان المذكورة مرساة عليه . وركب معه بالغد ، فوصلنا إلى مدينة مالقة ، إحدى قواعد الأندلس ، وببلادها الحسان جامدة بين مراافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفوائد . رأيت العنبر يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير . ورمانها المرسي الياقوتي لأنظير له في الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . قال ابن جزي : وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن علي الماليقي في قوله ، وهو من ملجم التج尼斯 :

مالقة حيت ياتينها فالفلك من أجلك يأتينها
نهي طبيبي عنك في علة ما لطبيبي عن حياتي نهي

وذيلها قاضي الجماعة أبو عبدالله بن عبد الملك بقوله في قصد المجانسة :

وحصن لا تننس لها تينها واذكر مع إليتين زياتينها^(١)

ومالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقصاصي البلاد . ومسجدها كبير الساحة ، شهير البركة ، وصحنه لأنظير له في الحسن ، فيه أشجار

(١) معنى البيتين الأولين : حياك الله يا تين مالقة ، فإن السفن تقصد مالقة من كل مكان لأجلك ، وقد نهاني الطبيب عن أكلك لمرضي . فلماذا نهاني طبيبي عنك وأنت حيائي ؟ والجتانس فيما بين : ياتينها ، ويأتينها ، وحياتي نهي ، وهو جناس ناقص لاختلاف الكلمات في بعض المعرف ، وفي الشكل ، ومعنى البيت الأخير الذي ذيل به البيتان السابقتان : لا تننس تين حصن ، واذكر كذلك ما تمتاز به من أنواع الزيتون وفيه جناس ناقص بين : لها تينها ، وزياتينها .

النارنج البعيدة . ولما دخلت مالقة ، وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبي عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبي جعفر ابن خطيبها ولـي الله تعالى أبي عبدالله الطنجالي قاعداً بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس ، يجتمعون ملاً برسم فداء الأسرى الذين تقدم ذكرهم . فقلت له : الحمد لله الذي عافاني ، ولم يجعلني منهم . وأخبرته بما اتفق لي بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث إلى بالضيافة ، رحـه الله . وأضافني أيضاً خطيبها أبو عبد الله الساحلي المعروف بالمعمم^(١)

ثم سافرت منها إلى مدينة بشـ، وبينها أربعة وعشرون ميلاً . وهي مدينة حسنة ، بها مسجد عجيب ، وفيها الأعناب والفواكه والتين ، كمثل ما بـمالقة . ثم سافرنا منها إلى الحمة ، وهي بلدة صغيرة ، لها مسجد بدـيع الوضع عجيب البناء . وبـها العين الحارة على صفة واديهـا ، وبينـها وبينـالبلد ميل أو نحوـه . وهـنالك بـيت لـاستحمام الرجال ، وبيـت لـاستحمام النساء .

ثم سافرت منها إلى مدينة غـرانـاطـة ، قـاعدة بلـاد الأندلس^(٢) ، وعـروس مـدنـها ، وخارجـها لا نـظـيرـ لهـ في بلـادـ الدـنـيـا ، وـهـ مـسـيـرةـ أربعـينـ مـيـلاً ، يـخـترـقـهـ نـهـرـ شـنـيلـ المشـهـورـ ، وـسـوـاهـ منـ الـأـنـهـارـ الـكـثـيرـةـ ، وـالـبـسـاتـينـ وـالـجـنـانـ وـالـرـيـاضـ وـالـقـصـورـ . وـالـكـرـومـ مـحـدـقـةـ بـهـ مـنـ كـلـ جـهـةـ . وـمـنـ عـجـيبـ مـوـاضـعـهـ عـيـنـ الدـمـعـ ، وـهـ جـبـلـ فـيـ الرـيـاضـ وـالـبـسـاتـينـ ، لـاـ مـثـلـ لـهـ بـسـوـاهـاـ . قـالـ اـبـنـ جـزـيـ : لـوـلاـ خـشـيـتـ أـنـ أـنـسـبـ إـلـىـ الـعـصـبـيـةـ لـأـطـلـتـ القـولـ فـيـ وـصـفـ غـرانـاطـةـ ، فـقـدـ وـجـدـتـ مـكـانـهـ . وـلـكـنـ مـاـ اـشـهـرـ كـاشـهـارـهـ ، لـاـ مـعـنـىـ لـإـطـالـةـ القـولـ فـيـهـ . وـلـهـ درـ شـيـخـنـاـ أـبـيـ بـكـرـ مـحـمـدـ بـنـ أـحـدـ بـنـ شـيـرـيـنـ الـبـسـتـيـ ، نـزـيلـ غـرانـاطـةـ ، حـيـثـ يـقـولـ :

(١) في إحدى طبعـاتـ الكـتابـ : المـعـرـوفـ بـالـعـمـ.

(٢) أـبـيـ فيـ عـهـدـ اـبـنـ بـطـوـطـةـ .

رَعَى اللَّهُ مِنْ غَرْنَاطَةِ مُتَبَوَا
 تَبَرَّمَ مِنْهَا صَاحِيْ عَنْدَ مَا رَأَى
 مَسَارِحُهَا بِالثَّالِجِ عَدْنَ جَلِيدَا
 هِيَ الثَّغْرُ، صَانَ اللَّهُ مِنْ أَهْلَتْ بِهِ
 وَمَا خَيْرٌ ثَغْرٌ لَا يَكُونُ بِرُودَا

ذِكْرُ سُلْطَانِ غَرْنَاطَةِ

وكان ملك غرناطة في عهد دخولي إليها السلطان أبو الحجاج يوسف بن السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر. ولم ألقه بسبب مرض كان به. وبعثت إلى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتقفت بها. ولقيت بغرناطة جلة من فضلاتها، منهم قاضي الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحد بن محمد الحسيني السبتي، ومنهم فقيها المدرس الخطيب العالم أبو عبدالله محمد بن إبراهيم البياني، ومنهم قاضيها وعالماها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم، الشهير بابن لب، ومنهم قاضي الجماعة، نادرة العصر وظرفة الدهر أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي البلعيبي. قدم عليها من المرية في تلك الأيام، فوق الاجتئاع به في بستان بالفقيه أبي القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم. وأقمنا هنالك يومين وليلة.

قال ابن جزي : كنت معهم في ذلك البستان ، ومتعبنا الشيخ أبو عبدالله (١) بأخبار رحلته ، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة . وكان معنا جلة من وجوه أهل غرناطة ، منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن أبو جعفر أحد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي . ولهذا الفتى أمر عجيب ، فإنه نشأ بالبادية ، ولم يطلب العلم ، ولا مارس الطلبة . ثم إنه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله :

(١) أي: ابن بطوطة

يَا مَنْ اخْتَارَ فِرْوَادِيَّ مُنْزَلًا بَابُهُ الْعَيْنُ الَّتِي تَرْمَقُهُ
فَتَحَّ الْبَابَ سُهَادِيَّ بَعْدَكَ فَابْعَثُوا طَيْفَكُمْ يُغْلِقُهُ
وَلَقِيتَ بِغَرْنَاطَةِ الشَّيْخِ وَالْمَتَصَوِّفِينَ مِنْهُمُ الْفَقِيهُ أَبَا عَلِيِّ عُمَرَ بْنِ الشَّيْخِ
الصَّالِحِ الْوَلِيِّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَحْرُوقِ، وَأَقْمَتَ أَيَامًا بِبَزَوِيَّتِهِ الَّتِي بَخَارَجَ
غَرْنَاطَةَ، وَأَكْرَمَنِي أَشَدَ الإِكْرَامِ.

وَتَوَجَّهْتَ مَعَهُ إِلَى زِيَارَةِ الزَّارِيَّةِ الشَّهِيرَةِ الْبَرَكَةِ الْمُعْرُوفَةِ بِرَابِطَةِ الْعَقَابِ،
وَالْعَقَابِ جَبَلٌ مَطْلَعٌ عَلَى خَارِجِ غَرْنَاطَةِ، وَبَيْنَهَا نَحْوُ ثَمَانِيَّةِ أَمْيَالٍ، وَهُوَ مَجَاوِرُ
لِمَدِينَةِ التَّبَرِّةِ الْخَرْبَةِ. وَلَقِيتَ أَيْضًا ابْنَ أَخِيهِ الْفَقِيهِ أَبَا الْحَسْنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدِ بْنِ
الْمَحْرُوقِ بِبَزَوِيَّتِهِ الْمُنْسُوبَةِ لِلْجَامِ، بِأَعْلَى رَبْضِ نَجْدِهِ، مِنْ خَارِجِ غَرْنَاطَةِ، الْمُتَصلِّ
بِجَبَلِ السَّبِيَّكَةِ، وَهُوَ شَيْخُ الْمَتَسَبِّبِينَ مِنَ الْفَقَرَاءِ.

وَبِغَرْنَاطَةِ جَمْلَةٍ مِنْ فَقَرَاءِ الْعِجمِ، اسْتَوْطَنُوهَا لِشَبَهِهَا بِبِلَادِهِمْ. مِنْهُمُ الْحَاجُ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ السَّمْرَقْدِيُّ، وَالْحَاجُ أَحْمَدُ التَّبَرِيزِيُّ، وَالْحَاجُ إِبْرَاهِيمُ الْقُونُوِيُّ، وَالْحَاجُ
حَسِينُ الْخَرَاسَانِيُّ وَالْحَاجَانُ عَلِيُّ وَرْشِيدِيُّ الْهَنْدِيَّانُ، وَسَوَاهِمُ.

ثُمَّ رَحَلتَ مِنْ غَرْنَاطَةَ إِلَى الْحَمَةِ، ثُمَّ إِلَى بَلْشِنَ، ثُمَّ إِلَى مَالْقَةِ، ثُمَّ إِلَى حَصْنِ
ذَكْوَانَ، وَهُوَ حَصْنٌ حَسَنٌ كَثِيرٌ بِالْمَيَاهِ وَالْأَشْجَارِ وَالْفَوَاكِهِ، ثُمَّ سَافَرْتَ مِنْهُ إِلَى
رَنْدَةَ، ثُمَّ إِلَى قَرْيَةِ بَنِي رِيَاحٍ. فَأَنْزَلْتَنِي شِيخُهَا أَبُو الْحَسْنِ عَلِيُّ بْنِ سَلِيمَانَ الرِّيَاحِيِّ، وَهُوَ
أَحَدُ كَرْمَاءِ الرِّجَالِ وَفَضَلَاءِ الْأَعْيَانِ، يَطْعَمُ الصَّادِرَ وَالْوَارَدَ، وَأَضَافَنِي ضَيَافَةً
حَسَنَةً. ثُمَّ سَافَرْتَ إِلَى جَبَلِ الْفَتْحِ، وَرَكِبْتَ الْبَحْرَ فِي الْجَفَنِ الَّذِي جَزَتْ فِيهِ
أَوْلًاً، وَهُوَ لِأَهْلِ أَصْبَلَا، فَوَصَلْتَ إِلَى سَبَّتَةِ. وَكَانَ قَائِدُهَا إِذَا ذَاكَ الشَّيْخُ أَبُو
مَهْدِيِّ عَيْسَى بْنِ سَلِيمَانَ بْنِ مُنْصُورٍ، وَقَاضِيَهَا الْفَقِيهُ أَبَا مُحَمَّدِ الزَّجَنْدَرِيِّ. ثُمَّ
سَافَرْتَ مِنْهَا إِلَى أَصْبَلَا، وَأَقْمَتَ بِهَا شَهُورًاً. ثُمَّ سَافَرْتَ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ سَلاِ،
فَوَصَلْتَ إِلَى مَدِينَةِ مَرَاكِشِ. وَهِيَ مِنْ أَجْلِ الْمَدَنِ، فَسِيقَةُ الْأَرْجَاءِ، مَتَسْعَةٌ

لأقطار. كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبين، وبها الصومعة الهاشمية العجيبة، صعدتها، وظهر لي جميع المد منها. وقد استولى عليه الخراب. فما شبهته إلا ببغداد، إلا أن أسواق بغداد أحسن.

وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه. قال ابن جزي : في مراكش يتراء، قاضيها الإمام التارخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي :

للله مراكش الغراء من بلد وحذا أهلها السادات من سكن
أن حلها نازح الأوطان مفترب أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
ينشا التحاسد بين العين والأذن بين الحديث بها أو العيان لها

ثم سافرنا من مراكش، صحبة الركاب العلي، ركاب مولانا أيده الله، فوصلنا إلى مدينة سلا، ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضراء النضرة ذات البساتين والجنتان، المحيطة بها بخائر الزيتون من جميع نواحيها. ثم وصلنا إلى حضرة فاس، حرستها الله تعالى، فوادعت بها مولانا أيده الله، وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان، فوصلت إلى مدينة سجلماسة. وهي من أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر. لكن تمر سجلماسة أطيب، وصنف إيرار منه لا نظير له في البلاد. ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري ، وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجهنفو من بلاد الصين. فيا شدة ما تباعدا ، فأكرمني غاية الإكرام، واشترت بها الجمال، وعلقتها أربعة أشهر.

ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاثة وخمسين، في رفقه مقدمها أبو محمد يند كان المسو في رحمه الله تعالى، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم. فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازى، وضبط اسمها (فتح التاء المثلثة والغين

المعجم وألف وزاي مفتوح أيضاً)، وهي قرية لا خير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسגדها من حجارة الملح، وسقفها من جلول الجمال. ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يحفر عليه في الأرض، فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة، كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين. ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة، وهم الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال، ومن أثلي المغلوب من بلاد السودان، ويصل السودان من بلادهم، فيحملون منها الملح. وبيع الحمل منه بأيوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً إلى عشرين، وربما انتهى إلى أربعين مثقالاً.

وبالملح يتصرف السودان، كما يتصرف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعاً، ويتباهون به. وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبن. وأقمنا بها عشرة أيام في جهد، لأن ماءها زعاق. وهي أكثر المواقع ذباباً، ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها. وهي مسيرة عشرة، لا ماء فيها إلا في النادر. ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران أبقاها المطر. ولقد وجدنا في بعض الأيام غدراً بين تلتين من حجارة، ماؤه عذب، فتروينا منه، وغسلنا ثيابنا. والكلمة بتلك الصحراء كثيرة، ويكثر القمل بها، حتى يجعل الناس في أنفاسهم خيوطاً فيها الزئبق، فيقتلها.

وكان في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة، فإذا وجدنا مكاناً يصلح للرعي رعينا الدواب به. ولم نزل كذلك حتى صاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري، فلم أتقدم بعد ذلك، ولا تأخرت. وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله، ويعرف بابن عدي منازعة ومشاجنة، فتأخر عن الرفقة، فضل. فلما نزل الناس، لم يظهر له خبر. فأشرت على ابن خاله بأن يكتري من مسوفة، من يقص

أثره لعله يجده فأبى ، وانتدب في اليوم الثاني رجل من مسوفة دون أجرة لطلبه ،
فوجد أثره ، وهو يسلك الجادة طوراً ، ويخرج عنها تارة ، ولم يقع له على خبر .
ولقد لقينا قافلة في طريقنا ، فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم . فوجدنا
أحدهم ميتاً تحت شجيرة من أشجار الرمل ، وعليه ثيابه ، وفي يده سوط . وكان
الماء على نحو ميل منه . ثم وصلنا إلى تاسر هلا (فتح التاء المثلثة والسين المهمل
والراء وسكون الهاء) ، وهي احساء ماء ، تنزل القوافل عليها ، ويقيمون ثلاثة
أيام . فـ تـ بـ حـونـ وـ يـ صـلـحـونـ أـ سـقـيـتـهـمـ وـ يـ مـلـأـنـهـاـ بـ الـ مـاءـ وـ يـ خـيـطـوـنـ عـلـيـهـاـ التـلـالـيـسـ
خـوفـ الـرـيـحـ ، وـ مـنـ هـنـالـكـ يـبـعـثـ التـكـشـيفـ .

ذكر التكشيف

التكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة ، فيتقدم إلى أيوالاتن
يكتب الناس إلى أصحابهم بها ، ليكتروا لهم الدور ، ويخرجون للقائهم بالماء ،
مسيرة أربع . ومن لم يكن له صاحب بأيوالاتن ، كتب إلى من شهر بالفضل من
التجار بها ، فيشاركه في ذلك . وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء ، فلا يعلم
أهل أيوالاتن بالقافلة ، فيهلك أهلها ، أو الكثير منهم . وتلك الصحراء كثيرة
الشياطين ، فإن كان التكشيف منفرداً لعبت به ، واستهواه حتى يضل عن قصده
فيهلك ، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر ، إنما هي رمال تسفيها الريح ، فترى
جبالاً من الرمل في مكان ، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه ، والدليل هنالك من
كثير تردد ، وكان له قلب ذكي . ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا
هو أعور العين الواحدة ، مريض الثانية ، وهو أعرف الناس بالطريق . واكتربنا
التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب ، وهو من مسوفة . وفي ليلة اليوم
السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا ، فاستبشرنا بذلك . وهذه الصحراء متربة
بشرقة ، ينشرح الصدر فيها ، وتطيب النفس . وهي آمنة من السراق . والبقر

الوحشية بها كثيراً، يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب. لكن لحمها يولد أكله العطش، فيتهموا كثيرون من الناس لذلك. ومن العجائب أن هذه البقرة إذا قتلت، وجد في كروشمها الماء. ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها، ويشربون الماء الذي فيه. والحيات أيضاً بهذه الصحراء كثيرة.

حكاية

وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان. ومن عادته أن يقبض على الحيات، ويbeth بها. وكانت أنياه عن ذلك، فلا ينتهي. فلما كان ذات يوم أدخل يده في حجر ضب ليخرجها، فوجد مكانه حية، فأخذها بيده. وأراد الركوب، فلمسه في سبابته اليمني، وأصابه وجع شديد. فنكوت يده، وزاد ألمه عشي النهار، فنحر جملًا وأدخل يده في كرشة وتركتها كذلك ليلة، ثم تناثر لحم إصبعه، فقطعواه من الأصل. وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحياة كانت قد شربت الماء قبل لسعه، ولو لم تكن شربت لقتله. ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا. ودخلنا صحراء شديدة الحر، ليست كالتي عهدنا. وكنا نرحل بعد صلاة العصر، ونسري الليل كله ونزول عند الصياح. وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع. ثم وصلنا إلى مدينة أيوالاتن في غرة شهر ربيع الأول، بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة. وهي أول عمالة السودان، ونائب السلطان بها فرما حسین، وفربا (بفتح الفاء وسكون الواو وفتح الباء الموحدة) ومعناه النائب. ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة، وتتكلف لسودان بحفظها، وتوجهوا إلى الفربا، وهو جالس على بساط في سقيف، أuanه بين يديه بأيديهم الرماح والقصي، وكبار مسوفة من ورائه. ووقف تاجر بين يديه، وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه، احتقاراً لهم. فعند ذلك

ندمت على قدومي بلادهم، لسوء أدبهم، واحتقارهم للأبيض. وقصدت دار ابن
 بداء ، وهو رجل فاضل من أهل سلا ، كنت كتبت له أن يكتري لي داراً ، ففعل
 ذلك . ثم إن مشرف أيوالاتن ، ويسمى مُنشاجو ، (بفتح الميم وسكون النون
 وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء في القافلة إلى
 ضيافته ، فأبيت حضور ذلك . فعزم الأصحاب على أشد العزم ، فتسوجهت
 فيمن توجه . ثم أتي بالضيافة ، وهي جريش أني مخلوطاً بيسير عسل ولبن ، قد
 وضعوه في نصف قرعة صبروه شبه الجفنة ، فشرب الحاضرون وانصرفوا . فقلت
 لهم : لهذا دعانا الأسود ؟ قالوا : نعم ، وهي الضيافة الكبيرة عندهم . فأيقتلت
 حينئذ أن لا خير يرتحي منهم ، وأردت أن أسافر مع حاجج أيوالاتن ، ثم ظهر لي
 أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم . وكانت إقامتي بأيوالاتن نحو خمسين يوماً .
 وأكرمني أهلهما ، وأضافوني . منهم قاضيها محمد بن عبدالله بن ينور ، وأخوه
 الفقيه المدرس يحيى . وببلدة أيوالاتن شديدة الحر ، وفيها يسير نخيلات ، يزرعون
 في ظلالها البطيء . ومؤاهم من أحساء بها ، ولحم الصأن كثير بها . وثياب أهلهما
 حسان مصرية ، وأكثر السكان بها من مسوقة . ولتسائها الجمال الفائق ، وهن أعظم
 شأنأ من الرجال .

ذكر مسوقة الساكنين بأيوالاتن

وشأن هؤلاء القوم عجيب ، وأمرهم غريب ، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ،
 ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه ، بل ينتسب لخاله ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخيه
 دون بنيه . وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهند .
 وأما هؤلاء فهم مسلمون حافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن : وأما
 نساوهم فلا يختشمن من الرجال ، ولا يحتاجن مع مواطنبيهن على الصلوات . ومن
 أراد التزوج منهاهن تزوج ، لكنهن لا يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت إحداهن

ذلك لمنعها أهلها . والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيةات . ويدخل أحدهم داره ، فيجد امرأته ومعها صاحبها ، فلا ينكر ذلك .

حكاية

دخلت يوماً على القاضي بأيوالاتن بعد إذنه في الدخول ، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بدعة الحسن ، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع ، فضحتك مني ولم يدركها خجل . وقال لي القاضي : لم ترجع ؟ إنها صاحبتي . فعجبت من شأنها ، فإنه من الفقهاء الحجاج ، وخبرت أنه استاذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته ، لا أدرى ، أهي هذه أم لا ؟ فلم يأذن له .

حكاية نحوها

دخلت يوماً على أبي محمد يندكان المسوبي الذي قدمنا في صحبته ، فوجدته قاعداً على بساط ، وفي وسط داره سرير مظلل ، عليه امرأة معها رجل قاعد ، وهما يتحدثان . فقلت له : من هذه المرأة ؟ فقال : هي زوجي . فقلت : ومن الرجل الذي معها ؟ فقال : هو صاحبها . فقلت له : أترضى بهذا ؟ وأنت قد سكنت بلادنا ، وعرفت أمور الشرع . فقال لي : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وأحسن طريقة ، لا تهمة فيها ، ولسن كنساء بلادكم . فعجبت من رعونته ، وانصرفت عنه ، فلم أعد إليه بعدها . واستدعاني في مرات ، فلم أجبه . ولما عزمت على السفر إلى ملي ، وبينها وبين أيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمسجد ، اكتريت دليلاً من مسافة ، إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة إلا من تلك الطريق ، وخرجت في ثلاثة من أصحابي . وتلك الطريق كثيرة الأشجار ، وأنشجارها عادية ضخمة ، تستظل القافلة بظل الشجرة منها ، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ،

لكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان ، وبعض تلك الأشجار قد استأنس داخلها ، واستنقع فيه ماء المطر ، فكأنها بئر ، ويشرب الناس من الماء الذي فيها . ويكون في بعضها النحل والعسل ، فيشتاره الناس منها . ولقد مررت بشجرة منها ، فوجدت في داخلها رجلاً حائطاً ، قد نصب بها مرته ، وهو ينسج . فعجبت منه . قال ابن جزي : إن بلاد الأندلس شجرتين من شجر القسطل ، في جوف كل واحدة منها حائطاً ، ينسج الثياب إحداهما بستداً وادي آش ، والأخرى ببشرة غرناطة .

وفي أشجار هذه الغابة التي بين أيوالاتن ومالي ما يشبه ثمرة الإجاص ، والتفاح والخوخ والمشمش ، وليس بها . وفيها أشجار تثمر شبه الفقوس ، فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق ، فيطبخونه ويأكلونه ، ويباع بالأسواق . ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول ، فيقلونها ويأكلونها ، وطعمها كطعم الحمص المقلو . وربما طحونها وصنعوا منها شبه الإسفنج ، وقلوه بالغرقي ، والغرقي (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثلثة) هو ثمر كالإجاص ، شديد الحلاوة ، مضر بالبيضان إذا أكلوه ، ويدق عظمه ، فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع ، فمنها أنهم يطبخون به ، ويسرجون السرج ويقلون به هذا الإسفنج ، ويدهنون به ، ويخلطونه بتراب عندهم ، ويصطحبون به الدور ، كما تستطح بالجير . وهو عندهم كثير متيسر ، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار ، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا . والقرع ببلاد السودان يعظم ، ومنه يصنعون الجفان . يقطعون القرعة نصفين ، فيصنعون منها جفتين ، وينشقونها نقشاً حسناً . وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه ، يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها ، وهي من القرع .

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً ولا ديناراً ولا درهماً . إنما يحمل

قطع الملح، وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم، وبعض السلع العطرية. وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت، وهو بخورهم. فإذا وصل قرية، جاءت نساء السودان بأني واللبن والدجاج ودقيق التبن والأرز والفوني، وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو، والعصيدة، ودقيق اللوبيا، فيشتري منهن ما أحب من ذلك. إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان، والفوني خير منه. وبعد مسيرة عشرة أيام من أيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغري (وضبطها بفتح الزاي والغين المعجم وكسر الراء)، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسمون وتجراته (بفتح الواو وسكون التون وفتح الجيم والراء والف وتأه مثناء وتأه تائيث). ويسكن معهم جماعة من البيضان، يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمون صَفَّنْوُ (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الأول والتون وضم الغين الثاني وواو). والسيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري (بضم التاء المثلثة وواو وراء مكسورة). ومن هذه القرية يجلب أني إلى أيوالاتن.

ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى النهر الأعظم، وهو النيل^(١) وعلىه بلدة كارسخو (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو)، والنيل ينحدر منها إلى كابرة (بفتح الباء الموحدة والراء)، ثم إلى زاغة (بفتح الزاي والغين المعجم)، ولكبارة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي. وأهل زاغة قدماه في الإسلام. ولم ديانة وطلب للعلم، ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تبكتو، ثم إلى كونگو، وسنذكرها، ثم إلى بلدة مولي (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين، وهي

(١) وَهِمَ ابْنَ بَطْرُوْتَةَ فِي قُولَهُ: إِنَّ النَّهَرَ الْأَعْظَمَ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ هُوَ النَّيلُ، فَإِنَّمَا هُوَ نَهَرُ الْبَيْجَرُ، فَهُوَ الَّذِي يَمْرُ بِالْبَلْدَانِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَمَنَابِعُهُ فِي شَمَالِ سِيرَالْيُونِ، وَلِيَبِرِيَا، وَيَصْبُرُ فِي الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ، أَمَّا نَهَرُ النَّيلِ فَنَقْعُدُ عَلَيْهِ دَنْقَلَةً، وَبِلَادَ الْتَّوْبَةِ، وَمَنَابِعُهُ فِي أُوْفَنْدَا، وَتَنْفَانِيَّةً، وَتَصْلِي إِلَيْهِ الْأَمْطَارُ الَّتِي تَسْقَطُ صَيْفًا عَلَى جَبَالِ الْحَبَشَةِ، فَيَكُونُ فِيْضَانَهُ.

آخر عمالة مالي، ثم إلى يوفى واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو مكسورة)، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم. ولا يدخلها الأبيض من الناس، لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها. ثم ينحدر إلى بلاد النوبة، وهم على دين النصرانية، ثم إلى دُنقُلة، وهي أكبر بلادهم (وضبطها ضم الدال والقاف وسكون التون بينهما وفتح اللام)، وسلطانها يدعى بابن كنز الدين، أسلم على أيام الملك الناصر، ثم ينحدر إلى جنادر، وهي آخر عمالة السودان، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر. ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل، كأنه قارب صغير. ولقد نزلت يوماً إلى النيل لقضاء حاجة، فإذا بأحد السودان قد جاء، ووقف فيها بيني وبين النهر. فعجبت من سوء أدبه، وقلة حياته، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال: إنما فعل ذلك خوفاً عليك من التمساح، فحال بيتك وبينه. ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنchora (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون التون)، وهو على خط عشرة أميال من مالي. وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكثيرهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النقويش المصري، ليكتروالي داراً، فلما وصلت إلى النهر المذكور، جزت في المعدية، ولم يعنني أحد، فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها، ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه، فوجده قد اكتفى لي داراً إزاء داره، فتوجهت إليها. وجاء صهره الفقيه المقرى عبد الواحد بشمعة وطعم، ثم جاء ابن الفقيه إلى من الغد وشمس الدين بن النقويش، وعلى الزودي المراكشي، وهو من الطلبة، ولقيت القاضي بالي عبد الرحمن، جاءني، وهو من السودان، حاج فاضل، له مكارم أخلاق، بعث إلى بقرة في ضيافته. ولقيت الترجان دُوغَا (بضم الدال وواو وغين معجم)، وهو من أفالصل السودان وكبارهم، وبعث إلى بشور، وبعث إلى الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني،

وقرعة من الغرقى ، وبعث إلى ابن الفقيه الأرز والفوبي ، وبعث إلى شمس الدين ضيافة وقاموا بمحقى أم قيام . شكر الله حسن أفعالهم . وكان ابن الفقيه متزوجاً بيته عم السلطان ، فكانت تتقدننا بالطعام وغيره . وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس ، يسمى القافي (بقاف والف وفاء) ، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام . فأصبحنا جميعاً مرضى ، وكنا ستة . فمات أحدنا ، وذهبت أنا لصلة الصبح ، فعشى على فيها ، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلاً فأتني بشيء يسمى تيدنـ (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء آخر الحروف وفتح الدال المهمـل وراء) ، وهو عروق نبات ، وخلطه بالأنيسون والسكر ، ولته بالماء فشربته ، وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة . وعافاني الله من الهاـك . ولكني مرضت شهرين .

ذكر سلطان مالي

وهو السلطان منسى سليمان ، ومنسى (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمـل) معناه السلطان ، وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء ، واتفق أني أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي ، ثم إنه صنع له طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن رضي الله عنه ، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب ، وحضرت معهم فأتوا بالربيعات وختم القرآن ، ودعوا مولانا أبي الحسن رحـه الله ، ودعوا منسى سليمان . ولما فرغ من ذلك ، تقدمت فسلمت على منسى سليمان ، وأعلمـه القاضي والخطيب وابن الفقيـه بجـالي ، فأجاـبـهم بلسانـهم فقالـوا لي : يقولـ لكـ السلطـانـ اـشـكرـ اللهـ فـقلـتـ :ـ الـحمدـ لـهـ ،ـ وـ الشـكرـ عـلـىـ كـلـ حـالـ .

ذكر ضيافـهمـ التـافـهـ وـتعـظـيمـهمـ لهاـ

ولـاـ انـصـرفـتـ بـعـثـ إـلـيـ الضـيـافـةـ فـوـجـهـتـ إـلـيـ دـارـ القـاضـيـ ،ـ وـبـعـثـ القـاضـيـ بـهـاـ معـ رـجـالـهـ إـلـيـ دـارـ اـبـنـ الفـقـيـهـ .ـ فـخـرـجـ اـبـنـ الفـقـيـهـ مـنـ دـارـهـ مـسـرـعاـ ،ـ حـافـيـ الـقـدـمـيـنـ ،ـ فـدـخـلـ عـلـيـ وـقـالـ :ـ قـمـ ،ـ قـدـ جـاءـكـ قـيـاشـ السـلـطـانـ وـهـدـتـهـ .ـ فـقـمـتـ ،ـ وـظـنـنـتـ أـنـهـ الـخـلـعـ

والأموال، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلو بالغرتي وقرعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجي من ضعف عقولهم، وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير.

ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلى

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين، لم يصل إلى فيهما شيء من قبل السلطان. ودخل شهر رمضان، وكانت خلال ذلك أتردد إلى المشور، وأسلم عليه، وأقعد مع القاضي والخطيب، فتكلمت مع دوغا الترجان، فقال: تكلم عنده، وأننا أعبر عنك بما يجب فجلس في أوائل رمضان، وقامت بين يديه، وقلت له إني سافرت بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولي بيلاذك أربعة أشهر، ولم تضفي، ولا أعطيتني شيئاً. فإذا أقول عنك عند السلاطين؟ فقال: إني لم أرك، ولا علمت بك فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه، وقالا: إنه قد سلم عليك، وبعثت إليه الطعام فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجوي علي ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالاً، ليلة سبع وعشرين من رمضان، يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثنتاً وأحسن إلى عند سفري بمائة مثقال ذهباً.

ذكر جلوسه بقبته

وله قبة مرتفعة باهيا بداخل داره، يقعده فيها أكثر الأوقات ولها من جهة المشور طبقات ثلاثة من الخشب، مغطاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب، أو هي فضة مذهبة، وعليها ستور ملف فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رفعت الستور فعلم أنه يجلس. فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حريم، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل، ضربت الأطبال والأبواق، ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثة من العبيد، في أيدي

بعضهم القسي ، وفي أيدي بعضهم الرماح الصفار والدرق ، فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ، ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ، ومعهما كبشان ، يذكرون أنها ينفعان من العين .

وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين ، فيدعون نائبه قنجاه موسى وتأتي الفرارية (بفتح الفاء) ، وهم الأمراء ، ويأتي الخطيب والفقهاء ، فيقدعون أمام السلاحدارية ميئنة ويسرة في المشور ، ويقف ، دوغا الترجان على باب المشور ، وعلىه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها ، وعلى رأسه عامة ذات حواشٍ ، لم في تعيمها صنعة بدعة ، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب ، وفي رجليه الخف والمهازيز ، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفآً غيره . ويكون في يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب ، والآخر من فضة ، وأستتها من الحديد .

ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور ، في شارع هنالك متسع ، فيه أشجار وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأطبال والأبواق ، بوقاتهم من أننياب الفيلة ، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ، ولها صوت عجيب وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف ، فمن أراد أن يكلم السلطان كلام دوغا ، ويكلم دوغا لذلك الواقف ، ويكلم الواقف السلطان .

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضاً في بعض الأيام بالمشور ، وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاثة درجات ، يسمونها التبني (بفتح الباء المعقود الأولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما) ، وتفرض بالحرير ، ويجعل المحاد علية ، ويرفع الشطر ، وهو شبه قبة من

الخمير ، وعليه طائر من ذهب على قدر البازى ، ويخرج السلطان من بابه في ركن القصر ، وقوسه بيده ، وكتانته بين كتفيه ، وعلى رأسه شاشية ذهب ، مشدودة بعصابة ذهب ، لها أطراف مثل السكاكين رقاد ، طولها أزيد من شبر ، وأكثر لباسه جبة حراء موبرة ، من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس ، ويخرج بين يديه المغنون ، بأيديهم قنابر الذهب والفضة ، وخلفه نحو ثلاثة من العبيد أصحاب السلاح . ويمشي مشياً رويداً ، ويكثر التأني وربما وقف ، فإذا وصل إلى النبي وقف ينظر في الناس ، ثم يصعد برفق ، كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار ، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين ، فيدعون ~~الثائب~~ والفراربة ، فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسین والكبشين معهما ، ويقف دوغاً على الباب ، وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار .

ذكر تذلل السودان لملوكهم وتتربيتهم له وغير ذلك من أحواهم

والسودان أعظم الناس تواضعاً لملوكهم ، وأشدهم تذللاً له ويحلفون باسمه فيقولون : منسى سليمان كي ، فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها ، نزع المدعو ثيابه ، ولبس ثياباً خلقة ، وزنزع عمامته ، وجعل شاشية وسحة ، ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقىم بذلة ومسكنة ، وضرب الأرض برفقيه ضرباً شديداً ، ووقف كالرافع يسمع كلامه .

إذا كلم أحدهم السلطان ، فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ، ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعل المغتسل بالماء ، وكنت أعجب منهم ، كيف لا تعمى أعينهم . وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام ، وضع الحاضرون عهائمه عن رؤوسهم ، وأنصتوا للكلام ، وربما قام أحدهم بين يديه ، فيذكر أفعاله في خدمته ، ويقول : فعلت كذا يوم كذا ، وقتلت كذا يوم كذا ، فيصدقه من علم ذلك وتصديقهم أن ينزع أحدهم وترقوسه ، ثم يرسلها ، كما يفعل إذا رمى ،

إِذَا قَالَ لِهِ السُّلْطَانُ : صَدَقْتَ ، أَوْ شَكَرْتَ ، نَزَعَ ثِيَابَهُ وَتَرَبَ وَتَرَبَ ، وَذَلِكَ عِنْهُمْ
مِنَ الْأَدْبِ . قَالَ ابْنُ جَزِيٍّ ، وَأَخْبَرَنِي الصَّاحِبُ الْعَالَمُ الْفَقِيهُ أَبُو القَاسِمِ
رَضِوانُ أَعْزَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الْحَاجُ مُوسَى الْوَنْجَرَاتِيُّ رَسُولًا عَنْ مَنْسَى سَلِيمَانَ إِلَى
مَوْلَانَا أَبِي الْحَسْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَجْلِسَ الْكَرِيمَ ، حَلَّ بَعْضُ نَاسِهِ
مَعَهُ قَفْةً تَرَابٌ فَيَتَرَبُّ لَهُمَا قَالَ لِهِ مَوْلَانَا كَلَامًا حَسَنًا ، كَمَا يَفْعُلُ بِبَلَادِهِ .

ذَكْرُ فَعْلَهُ فِي صَلَةِ الْعِيدِ وَأَيَامِهِ

وَحَضَرَتْ بَعْلَى عِيدِي الْأَضْحِيِّ وَالْفَطْرِ فَخَرَجَ النَّاسُ إِلَى الْمَصْلِيِّ ، وَهُوَ بِمَقْرَبَةِ
مِنْ قَصْرِ السُّلْطَانِ ، وَعَلَيْهِمُ الثِّيَابُ الْبَيْضُ الْحَسَانُ ، وَرَكْبُ السُّلْطَانِ ، وَعَلَى رَأْسِهِ
الْطَّيلِسَانُ وَالْسُودَانُ لَا يَلْبِسُونَ الطَّيلِسَانَ إِلَّا فِي الْعِيدِ ، مَا عَدَ الْقَاضِيُّ وَالْخَطَّيْبُ
وَالْفَقِيْهُ ، فَإِنَّهُمْ يَلْبِسُونَهُ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ وَكَانُوا يَوْمَ الْعِيدِ بَيْنَ يَدِيِ السُّلْطَانِ ، وَهُمْ
يَهْلِلُونَ وَيَكْبُرُونَ ، وَبَيْنَ يَدِيهِ الْعَلَامَاتُ الْحَمْرُ مِنَ الْخَرِيرِ ، وَنَصْبٌ عَنْدَ الْمَصْلِيِّ
خَيْرٌ فَدَخَلَ السُّلْطَانُ إِلَيْهِ وَأَصْلَحَ مِنْ شَأْنِهِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَصْلِيِّ ، فَقُضِيَتِ الْصَّلَاةُ
وَالْخَطْبَةُ ، ثُمَّ نَزَلَ الْخَطَّيْبُ ، وَقَعَدَ بَيْنَ يَدِيِ السُّلْطَانِ ، وَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ كَثِيرٍ وَهَنَالِكَ
رَجُلٌ بِيَدِهِ رَمْحٌ ، يَبْيَنُ لِلنَّاسِ بِلِسَانِهِمْ كَلَامَ الْخَطَّيْبِ ، وَذَلِكَ وَعْظٌ وَتَذْكِيرٌ وَثَنَاءٌ
عَلَى السُّلْطَانِ ، وَتَحْرِيصٌ عَلَى لِزُومِ طَاعَتِهِ ، وَأَدَاءِ حَقِّهِ . وَيَجْلِسُ السُّلْطَانُ فِي أَيَّامِ
الْعِيدَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ عَلَى الْبَيْنِيِّ وَيَأْتِيُ الْسَّلْحَدَارِيَّةُ بِالسَّلَاحِ الْعَجِيبِ مِنْ تِرَاكَشِ
الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ وَالسَّيْوَفِ الْمَحْلَةَ بِالْذَّهَبِ وَأَغْمَادَهَا مِنْهُ وَرِمَاحَ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ
وَدِبَابِيسِ الْبَلُورِ ، وَيَقْفَى عَلَى رَأْسِهِ أَرْبَعَةَ مِنَ الْأَمْرَاءِ ، يَشْرُدُونَ الذَّبَابَ ، وَفِي
أَيْدِيهِمْ حَلْيَةٌ مِنَ الْفَضَّةِ ، تَشَبَّهُ رَكَابُ السَّرْجِ وَيَجْلِسُ الْفَرَارِيَّةُ وَالْقَاضِيُّ وَالْخَطَّيْبُ
عَلَى الْعَادَةِ ، وَيَأْتِي دُوْغَا التَّرْجَانُ بِنَسَائِهِ الْأَرْبَعِ وَجَوَارِيَّهُ ، وَهُنَّ نَحْوَ مَائَةٍ عَلَيْهِنَّ
الْمَلَابِسُ الْحَسَانُ ، وَعَلَى رَؤُسِهِنَّ عَصَابَ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ ، فِيهَا مَفَاتِيحُ ذَهَبٍ
وَفَضَّةٍ ، وَيَنْصَبُ لِدُوْغَا كَرْسِيٍّ يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وَيَضْرِبُ بِالْآلَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ قَصْبٍ ،

وتحتها قريuntas ويغنى بشعر مدح السلطان فيه، ويدرك غزوته وأفعاله، ويغنى النساء والجواري معه، ويلعبن بالقصي، ويكون معه نحو ثلاثة من غلمانه، عليهم جباب الملف والاحمر، وفي رؤوسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ثم يأتي أصحابه من الصبيان، فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي، وهم في ذلك رشاقة وخفة بدعة، ويلعبون بالسيوف أجل لعب ويلاعب دوغا بالسيف لعباً بدعاً. وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان، فيأتي بصرة فيها مائتا مثقال من التبر، وينثر ما فيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية، فينزعون في قسيهم شكرأ للسلطان وبالغد يعطي كل واحد منهم لدواغا عطاء على قدره وفي كل يوم جمعة بعد العصر، يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه.

ذكر الأضحوكة في إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يوم عيد، وأتم دوغا لعبه، جاء الشعراء، ويسمون الجلا (بضم الجيم)، وأحدهم جالي، وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقار آخر كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة، فينشدون أشعارهم. وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ، يقولون فيه للسلطان: إن هذا البنبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان، وكان من حُسْن أفعاله كذا، وفلان كان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعده. ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبي، ويضع رأسه في حجر السلطان، ثم يصعد إلى أعلى البنبي فيوضع رأسه على كتف السلطان الأيمن، ثم على كتفه الأيسر، وهو يتكلم بلسانهم، ثم ينزل. وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قدماً عندهم قبل الإسلام، فاستمروا عليه.

حكاية

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام ، فأتى أحد فقهائهم ، وكان قد من بلاد بعيدة ، وقام بين يدي السلطان ، وتكلم كلاماً كثيراً فقام القاضي فصدقه ، ثم صدقها السلطان فوضع كل واحد منهم عمامته عن رأسه ، وترتب بين يديه وكان إلى جانبي رجل من البيضان ، فقال : أتعرف ما قالوه ؟ فقلت : لا أعرف فقال : إن الفقيه قد أخبر أن الجراد وقع ببلادهم ، فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد ، فهاله أمره ، فقال : هذا جراد كثير . فأجابت جرادة منها ، وقالت إن البلاد التي يكثر فيها الظلم ، يبعثنا الله لفساد زرعها . فصدقه القاضي والسلطان ، وقال عند ذلك للأمراء : إني بريء من الظلم ، ومن ظلم منكم عاقبته ، ومن علم بظالم ولم يعلمني به ، فذنوب ذلك الظالم في عنقه ، والله حسيبه وسائله . ولما قال هذا الكلام ، وضع الفرارية عمامتهم عن رؤوسهم ، وتبأوا من الظلم .

حكاية

وحضرت الجمعة يوماً فقام أحد التجار من طلبة مسافة ، ويسمى بأبي حفص ، فقال : يا أهل المسجد ، أشهدكم أن منسى سليمان في دعوتي إلى رسول الله ﷺ فلما قال ذلك ، خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئاً ؟ فقال : منشاجو أيوالاتن ، يعني مشرفها أخذ مني ما قيمته ستائة مثقال ، وأراد أن يعطيوني في مقابلته مائة مثقال خاصة فبعث السلطان إليه عنه للحين فحضر بعد أيام ، وصرفها للقاضي ، فثبت للناجر حقه فأخذها ، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله .

حكاية

واتفق في يوم إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمده المدعوة بقاسا ، ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة

السودان، ويدرك اسمها مع اسمه على المنبر، وسجناها عند بعض الفرارية، وولى في مكانها زوجته الأخرى بنجو، ولم تكن من بنات الملوك فأكثر الناس الكلام في ذلك، وأنكروا فعله، ودخل بنات عمه على بنجو يهنتها بالملكة، فجعلن الرماد على أذرعهن، ولم يتربن رؤوسهن ثم إن السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنتها بالسراح، وتربن على العادة فشكك بنجو إلى السلطان بذلك. فغضب على بنات عمه فخفن منه، واستجرن بالجامع فعفا عنهن، واستدعاهن، وعادتنهن إذا دخلن على السلطان، أن يتجردن عن ثيابهن، ويدخلن عرايا، ففعلن ذلك ورضي عنهن، وصرن يأتين بباب السلطان غدوأ وعشياً مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان. وصارت قاسا ترکب كل يوم في جواريها وعيدها، وعلى رؤوسهم التراب، وتقف عند المشور متنة لا يرى وجهها وأكثر الأمراء الكلام في شأنها، فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه: إنكم قد أكرتم الكلام في أمر قاسا، وأنها أذنبت ذنباً كبيراً.

ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة، فقيل لها: تكلمي بما عندك. فأخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان المارب عنه إلى كنبرني، واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه، وقالت له: أنا وجميع العساكر طوع أمرك، فلما سمع الأمراء ذلك قالوا: إن هذا ذنب كبير، وهي تستحق القتل عليه. فخافت قاسا من ذلك واستجررت بدار الخطيب وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد، وإن لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله، وكان قبله منسى مغا، وقبل منسى مغا منسى موسى، وكان كريماً فاضلاً يحب البيضان ويحسن إليهم؛ وهو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثلثاً، وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لدرك بن فقوص ثلاثة

آلاف مثقال في يوم واحد وكان جده سارق جاطه أسلم على يدي جد مدرك
هذا .

حكاية

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلاً من أهل تلمسان، يعرف بابن شيخ
اللبن، كان قد أحسن إلى السلطان منسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث،
وهو يومئذ صبي غير معتر، ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة، وهو سلطان،
فعرفه، وأدناه منه، حتى جلس معه على التبني، ثم قرره على فعله معه، وقال
للأمّراء: ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟ فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها،
فأعطه سبعين مثقالاً، فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعيدياً وخدماً،
وأمره أن لا ينقطع عنه، وأخبرني بهذه الحكاية أيضاً ولد ابن شيخ اللبن
المذكور، وهو من الطلبة يعلم القرآن بمال.

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً
في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من
سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان،
ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتراكتونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذوه
مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم
عليها، وإذا كان يوم الجمعة، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلى
لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته، فيبسطها له
بموضع يستحقه بها، حتى يذهب إلى المسجد، وسجاداتهم من سعف شجر يشبه
النخل، ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيضاء الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن

لأحد هم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، ومنها عنایتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه.

ولقد دخلت على القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له : ألا تسرحهم؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة، عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل. فقلت لمن كان معني، ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عن الشاب وضحك وقيل لي : إنما قيد حتى يحفظ القرآن. ومن مساوىء أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا بadierيات العورات. ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهم على تلك الصورة. فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه، تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه، وهن عرايا. ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعرى بناته، ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً ومنها ما ذكرته من الأضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير.

ذكر سفري عن مالي

وكان دخولي إليها في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاثة وخمسين، وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين. ورافقني تاجر يعرف بأبي بكر ابن يعقوب. وقصدنا طريق ميمة. وكان لي جمل أركبه. لأن الخيل غالبة الأئمان، يساوى أحدها مائة مثقال، فوصلنا إلى خليج كبير يخرج

من النيل ، لا يجاز إلا في المراكب . وذلك الموضع كثير البعض ، فلا يمر أحد به إلا بالليل . ووصلنا الخليج ثلث الليل ، والليل مقرن .

ذكر الخيل التي تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ، فعجبت منها ، وظننتها فيلة لكثرتها هنالك . ثم إني رأيتها دخلت في النهر . فقلت لأبي بكر ابن يعقوب : ما هذه الدواب ؟ فقال : هي خيل البحر ، خرجت ترعى في البر ، وهي أغاظ من الخيل . ولها أعراف وأذناب ، ورؤوسها كرؤوس الخيل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو ، وهي تعود في الماء ، وترفع رؤوسها وتتنفس . وخلف منها أهل المركب فقربوا من البر لثلا تغرقهم . ولم يحيلة في صيدها حسنة ، وذلك أن لهم رماحاً مثقوبة ، قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة ، فيضربون الفرس منها . فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته ، وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل ، فيقتلونه ويأكلون لحمه . ومن عظامها بالساحل كثير . وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة ، عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (فتح الميم والغين المعجم) ، وهو من حج مع السلطان منسى موسى لما حج .

حكاية

أخبرني فربامغا أن منسى موسى لما وصل إلى هذا الخليج ، كان معه قاض من البيضان يكى بأبي العباس ، ويعرف بالدكالي ، فأحسن إليه بأربعة آلاف مشقال لنفقته . فلما وصلوا إلى ميمة ، شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مشقال سرت له من داره . فاستحضر السلطان أمير ميمة ، وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها . وطلب الأمير السارق فلم يجد أحداً ، ولا سارق يكون بتلك البلاد . فدخل دار

القاضي، واشتد على خدامه، وهددهم. فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء، وإنما دفنتها بيده في ذلك الموضع، وأشارت له إلى الموضع. فأخرجها الأمير، وأتى بها السلطان، وعرفه الخبر، فغضب على القاضي، ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين، ثم رده إلى بلده. وإنما لم يأكله الكفار لبياضه، لأنهم يقولون: إن أكل الأبيض مضر، لأنه لم ينضج. والأسود هو النضج بزعمهم.

حكاية

قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، معهم أمير لهم. وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطاً كباراً، وتكون فتحة القرط منها نصف شبر، ويلتحفون في ملائف الحرير. وفي بلادهم يكون معدن الذهب. فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادمة، فذبّوها وأكلوها، ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك. وذكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي. ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج، فوصلنا إلى بلدة قري منسا، وقرى (بضم القاف وكسر الراء)، ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه، فأخبرني راعيه بذلك، فخرجت لأنظر إليه، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف. فبعثت غلامين كنت استأجرتها على خدمتي ليشتريا لي جلاً بزاغري، وهي على مسيرة يومين. وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر ابن يعقوب، وتوجه هو لينتظرنا بعيمة. فأقمت سبعة أيام، وأصافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة، حتى وصل الغلامان بالجمل.

حكاية

وفي أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيها يرى النائم كأن إنساناً يقول لي: يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم؟ فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم، في سفر ولا حضر. ثم رحلت إلى بلدة ميمة (بكسر الميم الأول وفتح الثاني) فنزلنا على آبار بخارجها.

ثم سافرنا منها إلى مدينة تُبُكْتُو (وضبط اسمها بضم التاء المثلثة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المثلثة الثانية وواو)، وبينها وبين النيل أربعة أميال. وأكثر سكانها مسوقة أهل اللثام، وحاكمها يسمى فربا موسى. حضرت عنده يوماً، وقد قدم أحد مسوقة أميراً على جماعة، فجعل عليه ثوباً وعمامه وسروالاً، كلها مصبوغة، وأجلسه على درقة، ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم. وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف بيده بالطويحن، وبها قبر سراج الدين بن الكويك، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية.

حكاية

كان السلطان منسى موسى لما حج، نزل بروض لسراج الدين هذا، ببركة الحبس خارج مصر، وبها ينزل السلطان. واحتاج إلى مال، فتسلفه من سراج الدين، وتسلف منه أمراوه أيضاً. وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال، فأقام بماله. فتووجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابن له. فلما وصل تبكتو أضافه أبو إسحاق الساحلي، فكان من القدر موته تلك الليلة. فتكلم الناس في ذلك، واتهموا أنه سمي. فقال لهم ولده: إني أكلت معه ذلك الطعام بعينيه. فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً، لكنه انقضى أجله. ووصل الوالي إلى مالي،

واقتضى ماله ، وانصرف إلى ديار مصر . ومن تبكتو ركب النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة . وكنا ننزل كل ليلة بالقرى ، فشتري ما تحتاج إليه من الطعام والسمن ، بالملح وبالعطريات وبجل العجاج . ثم وصلت إلى بلد أنسنت اسمه ، له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان ، مشهور بالشجاعة والشدة . لا يتعاطى أحد النزع في قوسه ، ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسماً ، واحتاجت بهذا البلدة إلى شيء من الذرة ، فجئت إليه ، وذلك يوم مولد رسول الله عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلمت عليه ، وسألني عن مقدمي . وكان معه فقيه يكتب له . فأخذت لوحاً كان بين يديه ، وكتبت فيه : يا فقيه ، قل لهذا الأمير : إننا نحتاج إلى شيء من الذرة للزداد ، والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سراً ، ويكلم الأمير في ذلك بلسانه . فقرأه جهراً ، وفهمه الأمير . فأخذ بيدي ، وأدخلني إلى مشوره ، وبه سلاح كثير من الدرق والقصي والرماح ، ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي ، فجعلت أقرأ فيه .

ثم أتي بمشروب لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهملا وسكون القاف وضم النون وواو) ، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن ، وهم يشربونه عوض الماء . لأنهم إن شربوا الماء خالصاً أضرّ بهم ، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن . ثم أتي ببطيخ أخضر فأكلنا منه ، ودخل غلام خاسي فدعاه وقال لي : هذا ضيافتكم ، واحفظه لئلا يفتر . فأخذته وأردت الانصراف ، فقال : أقم حتى يأتي الطعام . وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية ، فكلمتني بالعربي . فبيانا نحن في ذلك ، إذ سمعنا صراغاً بداره . فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك ، فعادت إليه ، فأعملته أن بتنا له قد توفيت ، فقال : إني لا أحب البكاء ، فتعالَّمْتُ إلى البحر ، يعني النيل . وله على ساحله ديار . فأتي بالفرس فقال لي : إركب . فقلت : لا أركبه ، وأنت ماش . فمشينا جميعاً ، ووصلنا إلى دياره على النيل . وأتي بالطعام فأكلنا . وودعه وانصرفت .

ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل . والغلام الذي أعطانيه باقٍ هندي إلى الآن . ثم سرت إلى مدينة كوكو ، وهي مدينة كبيرة على النيل ، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها . فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك ، وبها الفقوس العناني الذي لا نظير له . وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل ملي . وأقمت بها نحو شهر . وأضافني بها محمد بن عمر ، من أهل مكناة ، وكان ظريفاً مزاهاً فاضلاً ، وتوفي بها بعد خروجي عنها . وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازى ، وهو من دخل اليمن ، والفقىئ محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان .

ثم سافرت منها برسم تكذا في البر ، مع قافلة كبيرة للغدامسيين . دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة) ، ومعناه الذئب بلسان السودان . وكان لي جمل لركوبي ، وناقة لحمل الزاد . فلما رحلنا أول مرحلة وقفنا الناقة ، فأخذ الحاج وجين ما كان عليها ، وقسمه على أصحابه ، فتوزعوا حمله . وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي ، فأبى أن يرفع من ذلك شيئاً كما فعل غيره . وعطش غلامي يوماً ، فطلبت منه الماء ، فلم يسمع به . ثم وصلنا إلى بلاد برداة ، وهي قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل وميم مفتوح وفاء تأنيت) . ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم . والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأناً من الرجل . وهم رحالة لا يقيمون ، وبيوتهم غريبة الشكل ، ويقيمون أعواوداً من الخشب ، ويضعون عليها الحصر ، وفوق ذلك أعواود مشتبكة ، وفوقها الجلد أو ثياب القطن . ونساؤهم أتم النساء جمالاً ، وأبدعهن صوراً ، مع البياض الناصع والسمن . ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن . وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة ، يشربهن مخلوطاً بالماء غير مطبوخ ، عند المساء والصبح . ومن أراد التزوج منهن ، سكن بين في أقرب البلاد إليهن ، ولا يتتجاوزهن كوكو ولا أيوالاتن . وأصابني المرض في هذه البلاد ، لاشتداد

الحر وغابة الصفراء . واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوّة والكاف المعقوّدة والدال المهمّل مع تشديده) . ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزوّي . وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتي ، وهو من الأفاضل ، وأضافني جعفر بن محمد المسوبي . وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر ، وما زرها يجري على معادن النحاس ، فيتغير لونه وطعمه بذلك ، ولا زرع بها إلا يسير من القمح ، يأكله التجار والغرباء . وبيع بحساب عشرين مداً من أمدادهم بمثقال ذهب ، ومدهم ثلث المد ببلادنا . وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهب . وهي كثيرة العقارب . وعقاربها تقتل من كان صبياً لم يبلغ ، وأما الرجال فقلما تقتلهم .

ولقد لدغت يوماً وأنا بها ولداً للشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات حينه ، وحضرت جنازته . ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة . يسافرون كل عام إلى مصر ، ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولأهلها رفاهية وسعة مال ، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم ، وكذلك أهل ملي وأيوالاتن . ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالشمن الكثير .

حكاية

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجدها ، ثم بعث إلى القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالاً . ثم إن صاحبها ندم ورحب في الإقالة ، فقلت له : إن دللتني على سواها أقتلتك . فدلني على خادم لعلي أغويه ، وهو المغربي التادلي الذي أبي أن يرفع شيئاً من أسبابي حين وقعت ناقتي ، وأبى أن يسقي غلامي الماء حين عطش . فاشتريتها منه ، وكانت خيراً من الأولى ، وأقتلت صاحبي الأول . ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ، ورحب في

الإقالة، وألح في ذلك. فأبىت إلا أن أجازيه بسوء فعله، فكاد أن يجن أو يهلك
أسفًا. ثم أقتلته بعد .

ذكر معدن النحاس

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض، ويأتون إلى البلد،
فيسبكونه في دورهم. ويفعل ذلك عبدهم وخدمهم. فإذا سبکوه نحاساً أحمر،
صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق، وبعضها غلاظ. فتباع
الغلاظ منها بحساب أربعين قضيب بمثقال ذهب، وتتابع الرقاق بحساب ستة
وب四五ين قضيب بمثقال. وهي صرفهم، يشترون برقاقيها اللحم والخطب، ويشترون
أبغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحملون النحاس منها إلى مدينة
كوبر من بلاد الكفار، وإلى زغاي ، وإلى بلاد بربنو ، وهي على مسيرة أربعين
يوماً من تكدا . وأهلها مسلمون، لهم ملك اسمه إدريس ، لا يظهر للناس، ولا
يكلمهم إلا من وراء حجاب .

ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتیان وبالثياب المجددة. ويحمل
النحاس أيضاً منها إلى جوجرة وبلاد المورتین وسواها .

ذكر سلطان تكدا

وفي أيام إقامتي بها ، توجه القاضي أبو إبراهيم ، والخطيب محمد ، والمدرس أبو
حفص ، والشيخ سعيد بن علي ، إلى سلطان تكدا ، وهو بربري يسمى إزار
(بكسر الممزة وزاي ولف زاء)، وكان على مسيرة يوم منها ، ووُقعت بينه
 وبين التكركري ، وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة ، فذهبوا إلى الإصلاح
بينهما . فاردت أن ألقاه . فاكتريت دليلاً وتوجهت إليه ، وأعلمه المذكورون
بقدومي . فجاء إلي راكباً فرساً دون سرج ، وتلث عادتهم .

وقد جعل عوض السرج طنفحة حراء بديعة ، وعليه ملحفة وسراويل
وعمامه ، كلها زرق ، ومعه أولاد أخته ، وهم الذين يرثون ملكه . فقمنا إليه ،
وصافحناه . وسأل عن حالي ومقدمي ، فأعلم بذلك . وأنزلني بيت من بيوت
اليناطبيين ، وهم كالوصنان عندنا . وبعث برأس غنم مشوي في السفود ، وعقب
من حليب البقر . وكان في جوارنا بيت أمه وأخته ، فجاءتنا إلينا ، وسلمتا علينا .
وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة ، وهو وقت حلبهم ، ويشربونه ذلك
الوقت وبالغدو . وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه . وأقمت عندهم ستة أيام .
وفي كل يوم يبعث بكبشين مشوين ، عند الصباح والمساء . وأحسن إلى بناقه
وعشرة مثاقيل من الذهب ، وانصرفت عنه ، وعدت إلى تكدا .

ذكر وصول الأمر الكرم إلى

ولما عدت إلى تكدا ، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلوني ، بأمر
مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول إلى
حضرته العلية . فقبلته وامتثلته على الفور .

واشتريت جلين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً . وثلث ، وقصدت السفر إلى
توات . ورفعت زاد سبعين ليلة ، إذ لا يوجد الطعام فيها بين تكدا وتوات ، وإنما
يوجد اللحم واللبن والسمن يشتري بالأثواب ، وخرجت من تكدا يوم الخميس
الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين ، في رفقة كبيرة ، فيهم جعفر التواني ،
وهو من الفضلاء ، ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدا . وفي الرفقة نحو
ستمائة خادم . فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركري ، وهي أرض كثيرة
الأعشاب ، يشتري بها الناس من برابرها الغنم ، ويقددون لحمها ، ويحمله أهل
توات إلى بلادهم . ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء ، وهي مسيرة ثلاثة
أيام .

ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في بريه لا عمارة بها ، ألا أن بها الماء .
ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق
توات . وهنالك أحصاء ماء يجري على الحديد ، فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود
لونه .

وسرنا من هنالك عشرة أيام ، ووصلنا إلى بلاد هكار ، وهم طائفة من البربر
ملثمون لا خير عندهم ، ولقينا أحد كبرائهم ، فحبس القافلة حتى غرموا له
أثواباً وسوهاها . وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان . وهم لا يغترون فيه
ولا يعترضون القواقل ، وإذا وجد سراقها المتع بالطريق في رمضان لم يعرضوا
له ، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر . وسرنا في بلاد هكار شهراً ، وهي
قليلة النبات ، كثيرة الحجارة ، طريقها وعر . ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد
برابر ، أهل لثام كهؤلاء . فأخبرونا بأخبار بلادنا ، وأعلمنا أن أولاد خراج
وابن يغمور خالفوا ، وسكنوا تسبيت من توات . فخاف أهل القافلة من ذلك .
ثم وصلنا إلى بودا (بضم الباء الموحدة) ، وهي من أكبر قرى توات ، وأرضها
رمال وسباخ ، وثيرها كثير ليس بطيب ، لكن أهلها يفضلونه على ثمر سجلماسة .
ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت ، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل
أهلها التمر والجراد ، وهو كثير عندهم ، يختزنونه كما يختزن التمر ، ويقتاتون به ،
ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس ، فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد .
وأنقمنا ببودا أيام ثم سافرنا في قافلة ، ووصلنا في أوسط ذي القعدة إلى مدينة
سجلماسة . وخرجت منها في ثاني ذي الحجة ، وذلك أوان البرد الشديد ، ونزل
بالطريق ثلج كثير . ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير بخارى وسمرقند
وخراسان وببلاد الأتراك ، فلم أر أصعب من طريق أم جنبية . ووصلنا ليلة عيد
الاضحى إلى دار الطمع ، فأقمت هنالك يوم عيد الأضحى ، ثم خرجت ،
فوصلت إلى حضرة فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله ، فقبلت يده

الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك ، وأقمت في كنف إحسانه بعد طول الرحلة . والله تعالى يشكر ما أولا نيه من جزيل إحسانه ، وسابع امتنانه ، ويديم أيامه ، ويمنع المسلمين بطول بقائه . وه هنا انتهت الرحلة المسماة تحفة الناظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبعينة .

والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

قال ابن جزي

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة، أكرمه الله. ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر. ومن قال: رحال هذه الملة لم يبعد ، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة . واتخذ حضرة فاس مقرًا ومستوطناً بعد طول جولانه ، لما تحقق أن مولانا ، أいで الله ، أعظم ملوكها شأنًا ، وأعمهم فضائل ، وأكرمهم إحساناً ، وأشدهم بالواردين عليه عنابة ، وأتمهم بن ينتمي إلى طلب العلم حياة . فيجب على مثلي أن يحمد الله تعالى ، لأن وفقه في أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ ، بعد رحلة خمسة وعشرين عاماً. إنها لنعمة لا يقدر قدرها ، ولا يوفى شكرها . والله تعالى يرزقنا الإعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين ، ويبقى علينا ظل حرمته ورحمته ، ويحيزه عنا عشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين . اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتِيُّ العلم والدين ، وخصصته بالحلم والعقل الرصين ، فمد ملكته أسباب التأييد والتمكين ، وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين ، وأجعل الملك في عقبه إلى يوم الدين ، وأره قرة العين في نفسه وبنيه وملكه ورعايته ، يا أرحم الراحمين . وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعين

الفَهْرِسُ

- فَهْرِسُ الْأَعْلَامِ.
- فَهْرِسُ الْمَدُنِ وَالْقُرُبِ.
- فَهْرِسُ الْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ وَالْجَبَالِ
وَالْخَصْوَنِ وَالصَّحَارِيِّ.
- فَهْرِسُ الْمُحْتَوَىاتِ.

فهرس الأعلام

- إبراهيم بن أحد كجك بن تاج الدين . ٣٠٤
- إبراهيم بن أدهم ، ٨٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ .
- إبراهيم البنجي ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ .
- إبراهيم التترى . ٥٠٤
- إبراهيم الجمحي . ٩٦
- إبراهيم ابن السلطان محمود بن سبكتكين . ٤٣٣
- إبراهيم شاه ابن الأمير سنبيه . ٢٤٠
- إبراهيم شاه بندر . ٥٧٥
- إبراهيم القونوي ، ٥١٦ ، ٦٨٥ .
- الإبراهيمي (أمير) . ٩٢
- ابن بداع . ٦٩٠
- ابن البرهان . ٢٦٢
- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) .
- ابن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي) ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ١١١ .
- ، ١١٨ ، ٢٢٤ ، ٤٠٥ ، ٦٦٧ ، ١٩٨ .
- . ٦٨١ ، ٦٩٣ ، ٧٠٧ ، ٧١٥ .
- ابن تيفراجين . ٦٦٩ .
- آدم عليه السلام ، ٧٩ ، ١١٧ ، ١٥٨ ، ١٨٩ ، ٦١٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ .
- آزر . ١١٩
- آصف بن برخاء . ٣٥٨
- آل عثمان . ٣١٥
- إبراهيم (ابن الرسول ﷺ) . ١٣٨ ، ١٥٥
- إبراهيم الخليل عليه السلام . ٤٤ ، ٧٣ - ٧٥ ، ١٤٤ ، ١١٧ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٥٢ ، ١٥٠ .
- . ٢٢٩ ، ١٧٦ ، ١٧٣
- إبراهيم (الشريف خريطة دار) . ٤٩٩ ، ٥٠٠
- إبراهيم (الشيخ) . ٥٥٧
- إبراهيم (الناخوذة) . ٥٦٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٤ .
- . ٦١٣ ، ٦١٢
- إبراهيم بك . ٢٩٩
- إبراهيم بك بن سليمان بادشاه . ٣٢٦ .

- ابن قفل (الشيخ) . ٥١
- ابن قطب الملك . ٤٩٠
- ابن قلم شاه . ٣٠٠
- ابن كنز الدين . ٦٩٤
- ابن الكولي . ٤٦٥
- ابن الكومي . ٥٠٩
- ابن ماجة . ١٦٦
- ابن ملجم . ٢٧٩ ، ٢٢٩
- ابن ملك شاه . ٥٠١
- ابن المنير . ١٠٣
- ابن المؤيد . ٩٨
- ابن النعمن (الشيخ) . ٥٣
- ابن يعمور . ٧١٣
- ابني عبد الحكم . ٥٨
- أبو إبراهيم (القاضي) . ٧١١
- أبو إبراهيم إسحاق الجناتي . ٧١٠
- أبو أحد الجسني . ٣٩٢
- أبو إسحاق (السلطان) . ٢٢٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٣
- أبو إسحاق . ٢٤٠ ، ٣٨٢ ، ٤٦٥ ، ٦٦٢
- أبو إسحاق إبراهيم (الشندريخ) . ٦٨١
- أبو إسحاق إبراهيم بن حسين بن علي بن عبد الرفيع . ٣٦
- أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى . ٢٥٠
- أبو إسحاق بك بن الدندار بك . ٢٩٥
- أبو إسحاق الساحلي (الطويبين) . ٧٠٢ ، ٧٠٧
- ابن تيمية (تقي الدين) . ٩٢ ، ١١١ ، ٤٦٦ ، ١١٢
- ابن جبير . ١٠١
- ابن جزي (محمد بن محمد) . ٣٣ ، ٣٢ ، ٢٩ ، ٦٩٣ ، ٥٥ ، ٥٠ ، ٤١ ، ٣٧ ، ٣٥
- ابن حذيفة . ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٤ ، ٨٣
- ابن حمزة . ١٠١ ، ٩٠ ، ١٤٦ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١٠٢
- ابن حبيب . ٢٣١ ، ٢١٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٠ ، ١٨٥
- ابن حبان . ٦٤٣ ، ٣٧٤ ، ٣٢١ ، ٦٢٧ ، ٢٤٦
- ابن حديدة . ٦٨٤ ، ٦٧٤ ، ٦٧٧ - ٦٨١
- ابن خزيمة . ٦٩٩ ، ٦٩٢ ، ٦٨٦
- ابن الجوزي . ٧٠٨
- ابن حبان . ١٦٦
- ابن حديدة . ٣٤
- ابن خزيمة . ١٦٦
- ابن الخليلي . ٢٤٩
- ابن رواحة (التاجر) . ٤٦
- ابن الزهراء (الفقيه) . ١١٢
- ابن زيري . ٦٨٧
- ابن شيخ اللبن : ٧٠٣
- ابن عباس . ١٤٩ ، ١٦٦
- ابن عبد الرزاق . ٣٢٧
- ابن عبد الحميد . ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧
- ابن عدي . ٦٨٧
- ابن العميد (القاضي) . ٥٣
- ابن قرمان . ٢٩١
- ابن قريعات الطنجي . ٦٦٩

- أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز . ٢٣٥
- أبو بكر بن نقطة . ٥٠
- أبو بكر بن يعقوب . ٧٠٦ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥
- أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان . ٣٤
- ابن يفمراسن بن زيان . ٣٤
- أبو تراب التخسي . ٣٧٥
- أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي . ٦٨٤
- أبو جعفر المنصور . ١٤٦ ، ١٥٦ ، ١٧٧ ، ٢٣٤
- أبو حامد الغزالى . ٣٩٤
- أبو الحجاج الأقصري . ٢٨٩ ، ٧٠
- أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل ... آبن نصر . ٦٨٤
- أبو الحسن (الأمير) . ٥٨١
- أبو الحسن (حاكم قسطنطينية) . ٣٥
- أبو الحسن (مولانا) . ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٩٥ ، ٦٩٥ . ٦٩٩
- أبو الحسن الأقطاراني . ٢٨١
- أبو الحسن البياري . ٢٥٠
- أبو الحسن بن جبير . ٢٣١
- أبو الحسن الخرقاني . ٣٩٥
- أبو الحسن بن زرق الله . ١٦٧
- أبو الحسن الزيلعي . ٢٥٧ ، ٢٥٨
- أبو الحسن ابن أبي سعيد ابن أبي يوسف ابن عبد الحق (سلطان تونس) . ٦٦٨ ، ٦٦٩
- أبو إسحاق الكازروني . ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٥٧٥ ، ٥٦١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦
- أبو إسحاق بن محمد شاه ينجو . ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩
- أبو أيوب الأنصارى . ١٣٩ ، ١٣٠
- أبو البركات البربرى . ٥٩٠
- أبو البركات بن الحاج . ٣٧٤
- أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السلمي البلعبي . ٦٨٤
- أبو البركات محمد بن محمد إبراهيم السلمي ابن الحاج البلفيقي . ٣٥
- أبو بكر . ٦٦٢
- أبو بكر (خطيب الشافعية) . ٣٣١ ، ٣٣٠
- أبو بكر أحد بن الحسن الحرشى . ٢٢٥
- أبو بكر خان ابن السلطان علاء الدين . ٤٤٤ ، ٤٤٣
- أبو بكر الشبلي . ٢٣٦
- أبو بكر بن الشيخ عمر . ٢٦٢
- أبو بكر الشيرازي . ١٦٦
- أبو بكر الصديق رضي الله عنه . ١٠٩ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٩٩ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٨ ، ١٩٧ ، ٢١٥ . ٢٧٩
- أبو بكر الصنبرى . ٨٨
- أبو بكر العجمي . ٦٦
- أبو بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي . ٦٨٣

- . أبو حنيفة ، ٢٣٥ ، ٢٩٠ ، ٣٨٨ .
- . أبو داود ، ١٦٦ .
- . أبو الدرداء ، ١١٥ .
- . أبو دلف محمد ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .
- . أبو الريبع سليمان بن داود العسكري ، ٦٨١ .
- . أبو زكريا يحيى بن السراج الرندي ، ٦٧٧ .
- . أبو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري ، ٦٦٩ .
- . أبو زكريا بن يعقوب ، ٤٠ .
- . أبو زيان ابن ودرار ، ٦٧٠ .
- . أبو زيد عبد الرحمن ، ١٦٣ ، ٢٨٤ .
- . أبو زيد عبد الرحمن بن أبي العباس بن خلوف ، ٢٥٠ .
- . أبو زيد عبد الرحمن الصوفي ، ٢٥٧ .
- . أبو سعيد (السلطان) ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ - ٢٤٠ ، ٤٦٨ ، ٣٩٣ .
- . أبو سعيد بهادرخان ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
- . أبو سعيد فرج بن قاسم (ابن لب) ، ٦٨٤ .
- . أبو سعيد ابن أبي يوسف عبد الحق (عثمان المريني) ، ٣٣ .
- . أبو سعيد المريني ، ٢٤٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ .
- . أبو سليمان الداراني ، ١١٥ .
- . أبو الششتري ، ٢٩٩ .
- . أبو الصبر أبوب الفخار ، ٢٥٠ .
- . أبو الطيب بن أبي عبد الله التفزاوي ، ٣٥ .
- . أبو الحسن الشاذلي ، ٤٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٢٨٩ .
- . أبو الحسن العبادي العراقي ، ٥٢٤ .
- . أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر الداودي ، ٢٣٥ .
- . أبو الحسن علي ، ٣٣ .
- . أبو الحسن علي بن أحمد بن الحمروق ، ٦٨٥ .
- . أبو الحسن علي بن زرق الله الأنجيري ، ١٦٦ .
- . أبو الحسن علي بن سليمان الرياحي ، ٦٨٥ .
- . أبو الحسن علي بن فرغوس ، ١٦٧ .
- . أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي ، ١٠٣ .
- . أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي ، ٨٨ .
- . أبو الحسن علي بن النبيه ، ٢٣٢ .
- . أبو الحسن اللخمي ، ٣٧ .
- . أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي ، ١٢٤ .
- . أبو الحسن المكي بن محمد بن منصور بن علان العرضي ، ٢٢٥ .
- . أبو الحسن النامسي ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ .
- . أبو حسون زيان بن أمريون العلوى ، ٦٦٩ .
- . أبو الحسين بن جبير ، ٨٥ .
- . أبو حفص ، ٧٠١ .
- . أبو حفص (المدرس) : ٧١١ .
- . أبو حفص عمر البكري ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
- . أبو حفص عمر النسفي ، ٣٨٥ .

- أبو عبد الله بن أبي جعفر بن عبد الله
الطنجياني . ٦٨٣ .
- أبو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك
الزبيدي . ٢٢٥ .
- أبو عبد الله بن خفيف ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٦١٢ ، ٦٠٩ ، ٦٠٧ .
- أبو عبد الله الرازمي . ٥١ .
- أبو عبد الله بن رشيد . ٣٧٤ .
- أبو عبد الله الزبيدي . ٣٥ .
- أبو عبد الله الزواوي . ٣٤ .
- أبو عبد الله الساحلي . ٦٨٣ .
- أبو عبد الله السطفي . ٦٦٩ .
- أبو عبد الله السمرقندى . ٦٨٥ .
- أبو عبد الله بن عبد الملك . ٦٨٢ .
- أبو عبد الله بن عطاء الله . ٢٥٠ .
- أبو عبد الله الفاسى . ٤٢ .
- أبو عبد الله بن فردون . ١٣٥ .
- أبو عبد الله بن الكتاد . ٣٦ .
- أبو عبد الله محمد . ١٣٥ ، ٢٧٠ .
- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البىانى . ٦٨٤ .
- أبو عبد الله محمد بن إدريس (الإمام الشافعى) . ٥٦ ، ٢٢٥ ، ٥٨ .
- أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر علي بن .
إبراهيم النفزاوى . ٣٤ .
- أبو عبد الله محمد بن أبي قيم . ٣٧ .
- أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله
القرشى الزبيدى . ٣٤ .
- أبو عبادة البحتري . ٨٧ .
- أبو العباس (الخليفة فى مصر) ، ٤٦٥ .
- أبو العباس أحد الأندلسى . ٤٧٠ .
- أبو العباس الإبىانى . ٢٥٧ .
- أبو العباس أحد الأندلسى . ١٦٠ .
- أبو العباس أحد . ٢٧٠ .
- أبو العباس أحد الرفاعى ، ١٩٥ ، ١٩٦ .
- أبو العباس بن أبي الربيع سليمان . ١٦٩ .
- أبو العباس العباسي . ٤١٤ .
- أبو العباس بن عبد الظاهر . ٦٩ .
- أبو العباس بن أبي علي البلنسي . ٢٥٠ .
- أبو العباس الغمارى . ١٦٧ .
- أبو العباس الفاسى . ١٣٧ ، ١٣٨ .
- أبو العباس المرسى . ٤٣ .
- أبو العباس بن نافوت . ٢٥٠ .
- أبو العباس النهاوندى . ٢١٢ .
- أبو عباس بن يعقوب الأصم . ٢٢٥ .
- أبو عبد الرحمن عبد الرحمن بن مصطفى . ٧٨ .
- أبو عبد الله بن إبراهيم . ١٩٣ .
- أبو عبد الله الأبلى . ٦٦٩ .
- أبو عبد الله أحد بن حنبل . ٢٣٦ .

- أبو العلاء المعري . ٨٤ ، ٨٨ .
- أبو علي حسن المحجوب . ٧٧ .
- أبو علي الزبيدي . ٢٥٧ .
- أبو علي عمر بن أبي عبد الله محمد بن المحروق . ٦٨٥ .
- أبو علي عمر بن عبد الرفع . ٦٦٩ .
- أبو علي عمر بن علي بن قداح المواري . ٣٦ .
- أبو عمر عثمان بن عبد الواحد التنالفي . ٦٦٩ .
- أبو عمر بن الوليد بن الحاج التجيبي . ١٠٩ .
- أبو عمran عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى . ٢٣٥ .
- أبو عنان فارس . ٣٠ ، ٣٣ ، ٦٣ .
- أبو عنان المريفي ، ٢٤٥ ، ٣٩٥ ، ٦٦٧ .
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى . ٣٨٦ .
- أبو غرة بن سالم بن مهنا بن جاز بن شيبة . ١٩٠ .
- أبو الفتح كشاجم . ٨٨ .
- أبو الفتح محمد بن سيف الدين قلاوون . ٥٦ ، ٦١ .
- أبو الفتح بن وكيع . ٥٠ .
- أبو الفتیان بن جبوس . ٨٨ .
- أبو الفداء . ١٥٩ .
- أبو عبد الله محمد بن سيد الناس الحاجب . ٣٤ .
- أبو عبد الله محمد بن الصباغ . ٦٦٩ .
- أبو عبد الله محمد ابن أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصاري . ٣٦ .
- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن . ١٥٣ ، ١٦٠ .
- أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى . ٦٨٦ .
- أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي البنسي . ٦٧٩ .
- أبو عبد الله محمد بن الفقيه . ١٦٣ .
- أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن نفيس الحسيني . ١٩٣ .
- أبو عبد الله محمد بن القاضي أبي العباس .. ابن أبي القاسم الجراوي . ٢٥٠ .
- أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي . ٧٧ .
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغرناطي . ١٣٥ .
- أبو عبد الله المرسي . ٢٥٠ .
- أبو عبد الله المرشدي . ٤٧ ، ٤٦ .
- أبو عبد الله المفسر . ٣٤ .
- أبو عبد الله بن هارون . ٦٦٩ .
- أبو عبد الله بن ياسين . ٤٠ .
- أبو عبيد . ٣٨ .
- أبو عبيد الله محمد بن جابر . ٢٤٧ .
- أبو عبيدة بن الجراح . ٧٩ ، ١٠٤ .

- أبو محمد عبد الله بن علي الرشاطي . ٥١
- أبو محمد عبد الله بن فرحان . ٦٦٠
- أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي . ٥١
- أبو محمد عبد الوهاب . ٥٨
- أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالقي . ٦٨٢
- أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المتنكي . ٢٣٢
- أبو محمد عبيد الله الحضرمي . ٢٥٠
- أبو محمد بن فرحان . ٥٩٧
- أبو محمد بن فرخون . ٦٦٧
- أبو محمد بن القابلة . ٢٥٠
- أبو محمد بن مسلم . ٢٥٠
- أبو محمد بن نبهان . ٢٨٠
- أبو محمد اليافعي . ٦٦٧
- أبو محمد يندكان المسوفي ، ٦٨٦ ، ٦٩١ .
- أبو مدین (الشيخ) . ٦٦٩
- أبو مدین شعیب بن الحسین . ١١٤
- أبو مسلم الخلولاني . ١١٥
- أبو المظفر حسن (أبو المواهب) ، ٢٦٦ . ٢٦٧
- أبو المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد الليثي . ١٢٤
- أبو مهدي عيسى بن سليمان بن منصور . ٦٨٥
- أبو النجاة (ولي) . ٤٧
- أبو غني . ١٦٧
- أبو القاسم بن بنون . ٥٠
- أبو القاسم الجبید ، ٢١٢ ، ٢٣٦ .
- أبو القاسم بن شعبان . ٥٨
- أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسيني السبتي . ٦٨٤
- أبو القاسم محمد بن أبي عبد الله بن عاصم . ٦٨٤
- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري . ٣٦٦
- أبو القاسم محمد بن محمد بن أبي الحسن سهل ابن مالك الأزدي . ١٣٦
- أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ٦٨١
- أبو القاسم المرسي . ٦٥٠
- أبو هلب . ١٥٦
- أبو محمد البشري . ٦٨٦
- أبو محمد بن أبي بكر بن عبيسي ، ٢٦٩ . ٢٧٠
- أبو محمد الترجندری . ٦٨٥
- أبو محمد الشروي . ١٣٧
- أبو محمد الصناعي . ٢٥٦
- أبو محمد عبد الله . ١٣٥
- أبو محمد عبد الله بن أحد بن حويه السرخي . ٢٣٥
- أبو محمد عبد الله بن أحد بن حوية بن يوسف بن أئین السرخي . ١٢٤
- أبو محمد عبد الله الحسني . ٦٩
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل .
- ابن بهرام الدارمي . ٢٣٥

- أبو نواس . ٢٤٦
 أبو هاشم عبد الله الزبيدي . ٢٧٠
 أبو هريرة . ٧٤
 أبو الريح سبع بن خلف الأسد . ١٠٢
 أبو الوقت عبد الأول بن شعيب الشنجري . ٢٣٥
 أبو الوليد إسماعيل . ٢٥٨ ، ٢٥٧
 أبو يحيى (السلطان) . ٣٤
 أبو يحيى ابن أبي زكريا يحيى بن أبي إسحاق إبراهيم ابن أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبي حفص . ٣٦
 أبو يحيى عبد الرحمن بن نباتة . ٩٠
 أبو يزيد البسطامي . ٣٩٥
 أبو يعقوب السوسي . ٣٦
 أبو يعقوب بن عبد الرزاق . ٢٥٢
 أبو يعقوب يوسف . ٨٢ ، ٨٠ ، ١٦٧
 أبي بن كعب . ١٣١ ، ١١٤
 أتيل بن كيش بن جماز . ٢٦٦
 أثير الدين أبو حبان محمد بن يوسف بن حيان . ٦٤
 أحسن شاه (الشريف) . ٤٩٩
 أحسن شاه (السلطان) . ٦١٨
 أحد (أتابك) . ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٦٧٤
 أحد (علم مولانا جلال الدين) . ٣٠١
 أحد بن إياس (خواجه جهان) . ١٩٢
 ، ٤٥٧ ، ٤٥٢ ، ٤٥١ ، ٤٢٥ ، ٣٨٦
 ، ٤٩٤ ، ٤٩٢ ، ٤٧٨ ، ٤٦٨ ، ٤٦٤
 أخنون = إدريس عليه السلام . ٥٩
 إدريس (الملك) . ٧١١
 إدريس عليه السلام = أخنون . ٥٩ ، ٢٢٩
 أرتنا (الأمير) . ٢٤٠
 أرخان بك . ٣٠٧

- أردوجا (خاتون) (خاتون) ، ٣٤٣ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٥٥٧ .
 أفراد الدين (القاضي) ٦٥٤ .
 أفراسيا (أتا بك) ٢٤٠ .
 أفراسيا (أتا بك) ٦٦٣ .
 أفراسيا بـن أحد (أتا بك) ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
 أفلاطون ٣١٣ .
 ألفونس ٦٧٧ .
 إلياس عليه السلام ٢٨١ ، ٥٦٤ .
 إلياس ٢٠١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ .
 إلياس (الناخوذة) ٥١١ ، ٥٦١ .
 أم حبيبة بـن أبي سفيان (أم المؤمنين) ١١٤ .
 أم سلمة رضي الله عنها ١٨٢ .
 أم الفضل زوج مهنا بن عيسى ٩٤ .
 أم كلثوم بـنت الرسول عليه السلام ١١٥ .
 أم كلثوم بـنت علي بن أبي طالب ١١٥ .
 أم محمد عائشة بـنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني ١٢٥ .
 أم مريم عليها السلام ١١٥ .
 أمير علي ٣٠٣ .
 الأمين ٢٣٥ .
 أنس بن مالك ١٩٩ ، ١٥٨ ، ٦٢٢ .
 أوحد الدين السنجاري ٦٤٧ ، ٦٤٨ .
 أوزبك (السلطان) ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٥٣٦ ، ٣٧٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧ .
 أولو خاتون ٣٤٠ .
 أولو خان ٤٤٧ .
- أرمان (الباز الأشهر) ١١٤ .
 أرغون شاه ١١٥ ، ٣٨٩ .
 أرغون شاه ٦٦٤ .
 أرغون الدودار ٦١ ، ٨٩ ، ١٨٢ .
 أرن بغـا ٤١٦ .
 أرون بغـا ٥٢٠ ، ٥١٣ .
 إزار (السلطان) ٧١١ .
 الأزد بن يغوث ٢٨٠ .
 الأزرقي ١٤٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ .
 إسحاق عليه السلام ٧٣ ، ٧٤ .
 أسد الدين رميثة بن أبي نمي بن أبي أسد ابن علي بن قتادة ١٦١ .
 أسد الدين كيخسرو الفارسي ٦١٧ .
 أسعد بن زرار ١٣٠ .
 الإسكندر (المقدوني) ٣٠٠ .
 الإسكندر ٦١٠ .
 إسماعيل (الفقيه) ٥٦٦ ، ٥٦٧ .
 إسماعيل الأفغاني ٣٩٨ .
 إسماعيل عليه السلام ١٤٩ .
 إسماعيل ابن الملك الناصر ١٧٠ .
 الأشرف (الملك) ٩٣ .
 أشهب بن عبد العزيز ٥٨ .
 أصيـن بن الفرج ٥٨ .
 أطا أولياء ٣٩٧ .
 أعظم (ملك البايزيدي) ٥١٠ .

- بدر الدين السلخني الموراني . ٧٣
 بدر الدين عبد الله المنوفي . ٦٤
 بدر الدين العسقلاني . ٩١
 بدر الدين علي السخاوي . ١١٠
 بدر الدين الفصال ٤١٦ ، ٥١٣ .
 بدر الدين بن قرمان ٣٠١ ، ٣٠٠ .
 بدر الدين القوامي ٣٤٧ ، ٣٤٥ .
 بدر الدين المعيري . ٥٧٢
 بدر الدين الميداني . ٣٧٦
 بدر الدين النقاش . ٢٥٦
 بركة زيرة (زيزاء) . ١٢٦
 برنطية (الأمير) . ٣٩٧ ، ٣٩٦
 برهان الدين ٤٣ ، ٤١٦ ، ٣٨٦ .
 برهان الدين (الشيخ) . ٦٥٨
 برهان الدين إبراهيم الأندلسبي . ٧٠
 برهان الدين إبراهيم . ١٦٦
 برهان الدين الأعرج ٤٢٢ ، ٤٠٨ ، ٤٢ .
 برهان الدين بن البركح . ٤٦٦
 برهان الدين الجعبري . ٧٤
 برهان الدين ابن بنت الشاذلي . ٦٤
 برهان الدين الصاغرجي ٤٦٨ ، ٤٢٦ ، ٦٢٦ .
 برهان الدين الصفافي . ٦٤
 برهان الدين عبد الحق . ٦٤
 برهان الدين العجمي . ١٦٦
 برهان الدين بن الفركاح . ١١٠
 برهان الدين الكازروني . ٦٤٦
- أوس القرني . ١١٤
 أيابك (السلطان) . ٣٠٤
 إيت كجك ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
 أيدمور ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
 إيري شكرولي ٦٠٨ ، ٦٠٥ .
 أبوب عليه السلام . ١١٧
- ب**
- بابا خوزي . ٦١٠
 باسرؤ (سلطان) . ٥٧١
 بتون خاتون . ٣١٦
 بشينة . ١٨٦
 بمحجي . ٣٠٣
 البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي) . ٦٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٦٦ ، ٤٢٢ ، ٤٠٨ ، ٤٢ .
 بختيار (الأمير) . ٤٩٣
 بختة (جارية) . ٢٦٩
 بدر الحبشي . ٥٥٢
 بدر الدين (الملك) . ٦٢٠
 بدر الدين الأعرج . ٣٦٣
 بدر الدين بن البابه . ٦٢
 بدر الدين بن جاعة . ٦٣
 بدر الدين الحسني . ٦٥
 بدر الدين بن الزهراء . ٩٠

- برهان الدين المصري . ٩٩
 برهان الدين الموصلي . ٢٤٧
 البسطامي (الشيخ) . ٤٢٥
 بشاي أغلي . ٣٨١
 بشتك . ٦٢
 بشر الحافي . ٢٣٦
 بشير (الملك) . ٥٤٠
 بغداد خاتون . ٢٣٩
 بقلاج (نائب السلطان) . ٥٧٥
 بكتمور (الأمير) . ٢٨٨ ، ٦١
 بلال الحبشي (مؤذن الرسول) . ١١٤ ، ٣٢٦
 بلال ديو (السلطان) . ٦١٦
 بلوذرة . ٥١٠
 البلنسي . ٦٨٠
 بنو أسد . ١٩٥
 بنو أمية . ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣
 بنو حرام . ٢٥٤
 بنو حنيفة . ٢٨٨
 بنو حيون . ١٦٣
 بنو سفاف . ٢٨٦
 بنو شيبة . ١٥٢
 بنو العباس . ١٠٧
 بنو عبد شمس . ١٥٢
 بنو فضيل . ٦٨
 بنو كامل . ٢٨٩
 بنو كنانة . ١٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
 بيبي مريم . ٢٧٨
 بيهان أغيلى . ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣
 بيهان الششنكير . ١٢٦
 بونة . ٣٥
 بيهان الششنكير . ٤٩٤
 بيهان الدين زكرياء . ٤٨٧
 بيهان الدين الحشني . ٢٠٤
 بيهان الدين أبو زكرياء الملتحاني . ٢٠٢
 بيهان الدين بن سلامة . ١٣٤
 بيهان الدين الطبرى . ١٦٣ ، ٧٠
 بيهان الدين عبد العزيز . ٧٠
 بيهان الدين بن عقيل . ٦٤
 بيهان الدين بن العلكي . ٥٣١
 بيهان الدين بن غانم . ٨٢
 بيهان الدين ابن الفلکي . ٤٦٤
 بيهان الدين كشت اسب . ٤٩٢
 بيهان الدين الملتحاني . ٥٢٤
 بيهان الحجازي . ٦٢
 بيهانور (الملك) . ٦٢٠
 بهرام جور . ٥٥٠
 بهرام خان (السلطان) . ٤٥٨
 بهرام (الملك) . ٤٧١
 بهرام جور . ٥٢٠
 بيهان محمود . ٢١٨
 بهلوان الشولي . ٢٢٧
 بوزن أغلي . ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣
 بيبي مريم . ٢٧٨

بیدرة (الأمير) . ٣٥٣

بیرم (الملك) . ٤٥٠

بیلُون (الخاتون) . ٣٥٠ ، ٣٤٢ ، ٣٣٨

. ٣٦٨

ت

تاج الدين (أمير بخت) . ٥٢٢

تاج الدين الأردويلي . ٦٤٥

تاج الدين بن حناء . ٦٥

تاج الدين الرفاعي . ٧٨

تاج الدين السلطانيوكي . ٣٢٣

تاج الدين الكولي . ٥١٢ ، ٥١١

تاج الدين بن الكويك . ٢٤٩

تاج الدين محمود . ٢١٢

. ٤٧٧

ترابك خاتون . ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩

الترمذى ناصر الدين . ٤٦٦

تغلق شاه (السلطان) . ٤٤٧ ، ٤٤٦

، ٤٢٦ ، ٤٥١ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨

، ٤٣٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٢ ، ٤٨٣

تقبغا (الأمير) . ٣٧٦

. ٦٢

تقى الدين . ٥٧٩

تقى الدين الإخنائي . ٦٣

تقى الدين بن دقيق العيد . ٦٤

تقى الدين بن السبكي . ٦٦٤

. ٦٩

ث

ثابت البناي . ٦٦٢

ج

جاروق . ٣٠٢

جالنسى . ٥٦٣

الجاوى (الأمير) . ٧٣

جبريل . ١٣٣ ، ٧٤ ، ٥٨

جرجيس (الملك) . ٣٥٩ ، ٣٦١

- جرجيس (النبي) . ٢٤٤ .
 جعفر التواني . ٧١٢ .
 جعفر الصادق . ٣٩٥ .
 جعفر بن محمد المسوبي . ٧١٠ .
 الجلطي . ٣٧٦ .
 جلال (القاضي) . ٥٥٩ ، ٥١٠ .
 جلال الأفغاني . ٤٨٩ ، ٤٨١ ، ٥٦٣ ، ٥٦١ .
 جلال الدين . ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٥٠٧ .
 جلال الدين (مولانا) . ٣٠١ ، ٣٠٠ .
 جلال الدين (سلطان لار) . ٤٣٩ ، ٢٨٥ ، ٤٣٩ .
 جلال الدين . ٤٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٤١ .
 جلال الدين (القاضي) . ٣٩٤ ، ٩٨ .
 جلال الدين . ٤٦٥ ، ٤٨٩ .
 جلال الدين أحسن شاه . ٦١٤ .
 جلال الدين أرزنجاني . ٢٩١ .
 جلال الدين التبريزي . ٦٢٤ .
 جلال الدين السمرقندى . ٣٦٦ .
 جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه . ٣٧٣ .
 جلال الدين سنجر . ٣٧٤ .
 جلال الدين الشيرازي . ٦٥٢ .
 جلال الدين بن صلاح الدين صالح . ٢٢٨ .
 جلال الدين عبد الحق . ٩٧ .
 جلال الدين العمادي . ٣٦٧ .
 جلال الدين بن الفقيه . ١٩٠ .
 جلال الدين بن الفلكي التوريزي . ٢٢٠ .
 جلال الدين فيروز شاه . ١٦٨ .
 جلال الدين فيروز شاه الخلجي . ٤٣٩ .
- جلال الدين القزويني . ١١٠ .
 جلال الدين الكيحي . ٤١٤ ، ٥٢٠ .
 جلال الدين محمد بن أحمد الأفشهري . ١٥٣ .
 جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني . ١٠٩ .
 جلال الدين أبو هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي . ٢٢٥ .
 جلال السلطنة . ٥٠٩ .
 جلوخان . ٢٣٨ .
 جلول (الشيخ) . ٥١٠ .
 جمال الإسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ... بن الحكم الدوادي . ١٢٤ .
 جمال الدين (السلطان) . ٥٦٧ ، ٥٨١ .
 جمال الدين (نائب الكرك) . ٦٢ .
 جمال الدين (الوزير) . ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٩ .
 جمال الدين . ٦٠٤ .
 جمال الدين الأسيوطى . ١٣٥ .
 جمال الدين البزي . ٤٦٦ .
 جمال الدين بن جملة . ١١٢ .
 جمال الدين الحويزائى . ٦٤ ، ٢٢٨ .
 جمال الدين السادى . ٥٣ ، ٥٢ .
 جمال الدين بن السديد . ٧٠ .
 جمال الدين السنجاوى . ٢٤٧ .
 جمال الدين السنجري . ٦٠٠ .
 جمال الدين بن شجرة . ٩٢ .

ح

- جال الدين الشريسي . ٨٣
 جال الدين علي ابن أبي المنصور . ٨٦
 جال الدين بن اللوكي ١٩٧ .
 جال الدين محمد بن حسن ٥٦٧ .
 جال الدين محمد المنوري ٥٦٥ .
 جال الدين الملاطي ٦٦٤ .
 جال الدين المطري . ١٣٥
 جال الدين بن مطهر . ٢١٥
 جال الدين المغزي ١٤١ .
 جال الدين المغربي الغرناطيي ٤٧٤ ، ٥٥٨ .
 جال الدين المنوري ٥٨١ ، ٦٢٠ .
 جال اللث ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
 الجمالي (الأمير طوغان) ٤٥ .
 الجمالي (الوزير) ٦٢ .
 جمعة (الشيخ أبو ستة) ٥٧٠ .
 جيل ١٨٦ .
 جندار (الأمير) ٢٥٩ .
 جهان (الملك) ٥٠٩ .
 جهان (أم السلطان) ٤١٦ ، ٤٢٥ ، ٥١٣ ، ٥١٢ ، ٥١٤ .
 جهان أحد بن إياس ٣٨٢ .
 جهة ٢٨٩ .
 الجوبان (الأمير) ٩٤ ، ٢٣٨ ، ٢٠٦ .
 جونه (محمد شاه) ٤٤٨ .
 جوهر ٢٠٣ .
 جيجا أغأ ٣٦٩ ، ٣٦٧ .
- حاجب قصة شمس الدين ٥٢٧ .
 الحاج العدوبي . ٣٤٢ .
 حاجي بن السيد السلطان جلال الدين . ٦١٤ .
 حاجي كاون (ابن عم السلطان أبي سعيد) ٤٥٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ .
 الحارث بن مضاض الجرهمي ١٥٥ .
 الحافظ (السلطان) ٣٨٩ .
 حبيب بن أوس (أبو ثام) ٢٣١ .
 حبيب بن مسلمة ٩١ .
 حبيب العجمي ١٩٩ ، ٦٦٢ .
 حبيب التجار ٩١ .
 الحاج بن يوسف ١٥٦ ، ١٧٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ .
 حجة الدين (القاضي) ١٩٨ .
 الحدربي (ملك البحارة) ٧٢ .
 حدق (مرية الملك الناصر) ٢٥٠ .
 الحراري ٦٦٧ .
 حزوقيل (النبي) ٣٨٨ .
 حسام الدين (الأمير) ٩٢ ، ٩١ .
 حسام الدين البخاري ٣٤٥ .
 حسام الدين بن غام ٨٣ .
 حسام الدين محمود ٢٠٢ .
 حسام الدين المشاطي ٧٠ .
 حسام الدين الياغي ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦ .

- الحسين بن علي رضي الله عنه ٥٧ ، ٧٨ .
 حسن (الشيخ) . ٣٧٧
 حسن (قائد البحر) . ٦٠٢
 حسن (الناخوذة) . ٥٦٥
 الحسن البصري . ٦٦٢
 حسن (ابن عمّة السلطان أبي سعيد) . ٦٦٢
 الحسن بن أبي الحسن البصري ١٩٩ .
 الحسن بن زيد ١٣٢ .
 الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ١٣٩ ، ١٣٨ ، ٤٣
 حسن الجراني . ١٩٣
 الحسن حبيب العجمي . ٢١٢
 حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان . ٢٤٠
 حسن المغربي . ١٧١
 حسن الوزان . ٥٧٢
 حسين (السلطان) . ٣٩٠ ، ٣٨٩ ، ٣٨٤ - . ٣٩٢
 حسين (الشريف) . ٣٠٢
 حسين (الفقيه) . ٥٧٣ ، ٥٧٤
 حسين الخراساني . ٦٨٥
 حسين السلاط . ٥٧١
 حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري . ٣٨٨ ، ٣٨٢
 حسين بن شمس الدين محمد بن محمود بن علي . ٢١١
 خودوند عالم . ٤١٦
 خديجة (السلطانة) . ٦٢١
 خديجة (أم المؤمنين) عليها السلام . ١٢٦ ، ١٥٥
 خديجة بنت السلطان جلال الدين . ٥٩١
 خرد (الحاج) . ٣٨٨

- ٥
- | | | |
|---|-------------------|--|
| دادا أمير علي . | ٣٢٣ ، ٣٢٤ . | خصيب . ٦٧ . |
| دانيال (الشيخ) . | ٢٨٥ ، ٢٥٠ . | خربينه . ٢٣٧ . |
| دانيال العجمي . | ١٥٣ . | |
| داود عليه السلام . | ٤٤ ، ١٣١ . | خسروخان ناصر الدين . ٤٤٦ ، ٤٤٥ . |
| داود (أخو أبي المواهب) . | ٢٦٧ . | ٤٤٩ ، ٤٤٨ . |
| داود بن علي . | ٣٨٧ . | الحضر عليه السلام . ١١٨ ، ٢٠١ ، ٢٨١ . |
| داود بن قطب الملك . | ٥٠٣ ، ٥٠٤ . | ٣٢٦ ، ٣٣٣ . |
| داود (حفيد أحد شنورازة) . | ٦٠٠ . | |
| داود الطائي . | ٢١٢ ، ٢٣٦ . | حضر (الحاج الهندي) . ٢٧٦ . |
| دلجي التترى . | ٤٩١ . | حضر بان . ٣٠٧ . |
| دلشاد الهندي . | ٤٨ ، ٢٣٩ . | حضر بك ابن السلطان محمد بن آبدين . ٣١٠ . |
| دلشاد بنت دمشق خواجه ابن الأمير الجوبان . | ٦٦٢ . | حضر بك بن يونس بك . ٢٩٤ . |
| الدمطراسى . | ٩٤ ، ٩٥ ، ٢٣٨ . | حضر العجمي . ١٦٦ . |
| دمشق خواجه بن جوبان . | ٢٣٧ ، ٢٣٨ . | خطاب الأفغاني . ٥٥٩ ، ٥٥٢ . |
| دمورخان (السلطان) . | ٣١٤ . | خليل (السلطان) . ٣٨٨ . |
| الدندرير (الأمير) . | ٣٢٩ . | خليل ابن السلطان اليسور . ٣٨٣ ، ٣٨٢ . |
| دُنوكول (السلطان) . | ٥٦٤ . | خواجه إسحاق . ٥٦٣ . |
| دنيا خاتون . | ٢٣٧ ، ٢٤٧ . | خواجه أمير علي التبريزى . ٤٩٠ . |
| دهقان (ملك البريد) . | ٤١٥ . | خواجه بهر ه . ٥٦٣ . |
| دوغا (الترجان) . | ٦٩٤ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ . | خواجه سرلك (قائد البحر) . ٦١٥ . |
| | ٧٠٢ ، ٧٠٠ . | خواجه سرور (قائد البحر) . ٦١٨ . |
| دولة شاه (الملك) . | ٤٩٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ . | خواجه كافي . ٢١٣ . |
| دولسة . | ٦٣١ ، ٦٣٠ . | خواجه لؤلؤ . ٢٣٩ . |
| دينار (الملك) . | ٢٤٠ . | خواجه مهذب . ٥٧٩ . |

ركن الدين بن السلطان شمس الدين

للمش ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤١ .

ركن الدين زكرياء . ٤٣ .

ركن الدين العجمي ، ١٧٠ ، ١٩٩ .

ركن الدين بن القوبع . ٦٤ .

رميثة ، ١٧٤ ، ١٦٥ ، ١٧٥ .

روبيل . ٨٠ .

روز جهان القبلي . ٢٢٤ .

ذ

دو الكفل عليه السلام . ١١٧ .

د

رابعة العدوية . ٧٧ .

الراشد . ٢٣٥ .

الراضي . ٢٣٥ .

الريبع بن سليمان المرادي . ٢٢٥ .

رتن . ٤١٠ .

رجب البرقعي ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٥٥١ .

رجب النهر (الشيخ) . ٣٣٣ .

رجو (السلطان) . ٥٥٢ .

الرشيد . ٩٠ .

رشيد الدين الألفي . ٢٥٢ .

رشيدي الهندي . ٦٨٥ .

رضي الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني . ٢٢٥ .

رضي الدين يحيى . ٣٦٧ .

رضية شقيقة معز الدين . ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رُغطى (ال حاج) . ٦٦٤ .

ركن الدين . ٤١٦ ، ٤٦٥ .

ركن الدين ابن الشيخ شمس الدين أبو عبد الله بن بهاء الدين زكرياء . ٤٤٧ .

ركن الدين أبو شمس الدين بن بهاء الدين زكرييا القرشي . ٤٠٨ .

ركن الدين بهاء الدين بن أبي زكرييا الملتافي . ٤٩٣ ، ٤٨٦ .

ز

زاده الأصبهاني (الشيخ) . ٥٦٢ .

زاده الحرباوي . ٢٥٠ .

زاده الخراساني ، ٢٢١ ، ٢٢٩ .

زاده الدمشقي . ٤٦٧ .

زاد المال (جارية) . ٢٦٩ .

زاده النهاوندي (الشيخ هود) . ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

Zahadeh (الست) . ٢٤٨ .

زيادة (زوجة هارون الرشيد) . ١٥٤ .

زيادة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور . ١٨٧ ، ١٨٦ .

الزبير بن العوام ، ١٣٨ ، ١٩٩ ، ٥٤٢ .

. ٦٦٢ .

زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدس . ٢٢٥ .

زر كوب (الشيخ) . ٢٢٥ .

. ١٨٦ .

- ساطي بنت السلطان خدابنده . ٢٣٨
 سالار عود (الشيخ) . ٥٣٩ ، ٥٠٦
 سالارو (القاضي) . ٤١٥
 سالم بن عبد الله الهندي . ٢٦١
 السامری . ٥٧٥ ، ٥٣٢
 السبیک (السلطان) . ٦٠٩
 سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن
 عمر القزوینی . ٢٣٥
 سراج الدين أبي عبد الله الحسین ... بن علي
 ابن المسيح بن عمران الربيعي . ١٢٤
 سراج الدين عمر . ٢٤٩
 سراج الدين عمر المصري . ١٣٤
 سراج الدين بن الكویک . ٧٠٧
 سرتیز (الملوك) . ٤٠٥ ، ٤١١
 سرور . ٢٠٣
 سری السقطی . ٢١٢ ، ٢٣٦
 سعاد التلکی . ٥٥٧
 سعادة الجراني . ١٥٣
 سعید البحائی . ٩٧
 سعد بن أبي وقاص . ٢٢٩ ، ١٨٨
 سعد بن عبادة . ١١٥
 سعد الدين (الإمام) . ٣٣١ ، ٣٢٩
 السعدي (أمير) . ٤٨
 السعدي (الشيخ) . ٢٢٦
 سعید بن علي . ٧١١ ، ٧١٠
 سعید المراکشی . ١٣٦
 سعید المکی . ٣٩٧
- ذکریا علیہ السلام . ١٠٦
 ذکریاء أبو بھی بن احمد بن أبي حفص
 . ٤٠
 زیان (الحاج) . ٦٨٩
 زید بن أبي نمی . ٢٥٤
 زید بن ارقام . ٢٢٨
 زید بن ثابت . ١٥٢ ، ٢٢٨
 زین بن علی بن زین العابدین بن الحسین بن
 علی رضی اللہ عنہ . ٢٥٧
 زین الدین بن الأصیل . ٢٤٩
 زین الدین المقدسی . ٣٦٧
 زین العابدین علی بن الحسین بن علی بن أبي
 طالب رضی اللہ عنہ . ٢٠٣
 زینب بنت علی بن أبي طالب . ١١٥
 زینب بنت کمال الدین احمد ... ابن احمد
 المقدسی . ١٢٥
 زین الدین بن مخلوف . ٦٤
 زین الدین بن الواعظ . ٤٧
 زین الدین الطبری . ١٦٥
 زین الدین مبارک . ٤٤٤
 زین العابدین . ١٠٥
- س
- سابور ذی الاکتاف . ٦٤٣
 سارة . ٧٤
 ساروجة الرومي . ٣٥٢
 ساروجة الصغیر . ٣٦٢

- سعید المندی (الشیخ) ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ .
- سهل بن عبد الله التستّری ۱۹۹ ، ۲۰۰ .
- سہل بن حنظة ۱۱۵ .
- سهیل نصر الله ۵۰۵ .
- سویتة (الأمير) ۲۰۶ .
- سیبویه ۱۹۸ .
- سیف الدوّلة بن حمدان ۸۵ ، ۸۶ .
- سیف الدین ۳۸۶ .
- سیف الدین البخارزی ۳۷۵ .
- سیف الدین بهادر ۶۱۷ .
- سیف الدین تقزدمور ۲۵۰ .
- سیف الدین تنکیز ۱۱۲ ، ۷۶ .
- سیف الدین الجوبان ۱۲۵ ، ۱۸۲ .
- سیف الدین الطنطاش ۹۲ .
- سیف الدین بن عضبة ۳۶۶ .
- سیف الدین عطیفة بن أبي غمی ۱۵۵ .
- سیف الدین عمر ۶۶۱ .
- سیف الدین غدا بن هبة الله بن عیسیٰ بن مهنا ۴۷۷ ، ۴۷۵ - ۱۶۸ .
- سیف الدین کاشف ۱۷۰ .
- سیف الدین یملک ۲۵۰ ، ۱۷۲ .
- سعید المندی (الشیخ) ۱۶۷ ، ۱۷۰ ، ۱۷۱ .
- سفیان الثوری ۱۰۷ .
- سُکینة بنت الحسين بن عليٰ كرم الله وجهه ۲۲۹ ، ۱۱۵ .
- سلاں ۱۲۶ .
- سلطیة (الأمير) ۳۳۶ .
- سلف الدین یملک ۴۷ .
- سلمان الفارسی ۱۴۰ .
- سلمان علیه السلام ۴۴ ، ۷۳ ، ۸۰ ، ۱۳۱ .
- سلمان (ابن السلطان) ۳۰۷ .
- سلمان بادشاہ ۳۲۴ .
- سلمان بن عبد الملك ۱۳۲ .
- سلمان خان ۴۶۸ ، ۴۶۹ .
- سلمان شاه ۴۴۱ .
- سلمان الصفدي الشامي ۵۷۷ .
- سلمان مانایک ۵۹۵ ، ۵۹۶ ، ۵۹۹ .
- سنان ۲۹۷ ، ۲۹۸ .
- سنبل ۲۰۳ ، ۵۰۲ ، ۵۶۳ .
- سنبل (الملك) ۵۷۷ .
- سنبل الجامدار ۵۴۹ .
- سنجر شقيق ماه حق ۴۴۲ .
- سنبل المندی ۳۵۰ .
- سہل بن رافع بن أبي عمر... ابن مالک ۱۳۰ .
- ابن النجار .

ش

- شرف الدين موسى . ٣٢١ .
- شرف الدين موسى بن صدر الدين سليمان . ٢٠٣ .
- شرف الملك (السلطان) . ٤٨٩ .
- شرف الملك (أمير بخت) . ٥٠٧ ، ٥٠٨ .
- الشريف أمير علي . ٥٣٦ .
- الشريف المازندراني . ٤٢٥ .
- شعيب عليه السلام . ٨٠ .
- شعيب المغربي . ١٥٤ .
- شمس الدين . ٤٢٥ ، ٤٥٦ .
- شمس الدين (الأمير) . ٦٧ .
- شمس الدين (القاضي) . ٧٣ ، ٢٣١ .
- شمس الدين (ابن العارفين) . ٥٤٣ .
- شمس الدين الأصبهاني . ٦٤ .
- شمس الدين الأندكاني . ٤٦٧ .
- شمس الدين البذخاني . ٥٣٧ ، ٥٣٦ .
- شمس الدين بن تاج العارفين . ٤٨٨ .
- شمس الدين ابن بنت التنببي . ٤٢ .
- شمس الدين السندي . ٢٠٤ .
- شمس الدين ابن الصاحب تاج الدين ابن حناء . ٦٤ .
- شمس الدين البوشنجي . ٤٢٥ ، ٤١٦ .
- شمس الدين التبريزي . ٤٧٥ .
- شمس الدين الحريري . ٦٤ ، ٦٣ .
- شمس الدين الدمشقي الحنفي . ٣٢٢ .
- شمس الدين الذهبي . ٤٦٦ .
- شادي خان ابن السلطان علاء الدين . ٤٤٢ ، ٤٤٤ .
- الشافعي (الإمام) . ٦٧٣ .
- شامر بن دراج الخفاجي . ١٩٤ .
- شاه أفغان . ٥٠٨ .
- شاه بك (السلطان) . ٣٢٢ .
- شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا . ٢٩٩ .
- شداد بن عمر . ١٧٥ .
- شديد الدين أبو الوقت ... ابن شعيب بن إبراهيم السجزوي . ١٢٤ .
- شرف جهان . ٥٥٠ .
- شرف الدين (القاضي) . ٦٦ ، ١١٠ ، ١١٣ .
- شرف الدين الأذرعي . ١٢٥ .
- شرف الدين بن عبد الرحيم . ٦٨ .
- شرف الدين بن العجمي . ٩٠ .
- شرف الدين بن محسن . ١٠٢ .
- شرف الدين التبريزي . ٦٤٥ .
- شرف الدين الحموي . ٩٢ .
- شرف الدين الخراساني . ٢٢١ .
- شرف الدين الخشي . ٦٦٥ .
- شرف الدين الدميري . ٥٠ ، ٦٨ .
- شرف الدين الزواوي . ٦٤ ، ١١١ .
- شرف الدين السحاووي . ٤٩ .
- شرف الدين سليمان الملياني . ٦٦٦ .
- شرف الدين قاسم بن شنان . ١٤٠ .

- شمس الدين بن ناصر الدين بن غياث .
الدين بلبن ٤٥٠ .
- الدين بن النقويش ٦٩٤ ، ٦٩٥ .
- شهاب الدين (القاضي) ٣٤٧ .
- شهاب الدين (السلطان) ٤٣٣ ، ٥٩٥ .
٦٠٠ - ٦٠٢ .
- شهاب الدين (القاضي) ٦٦٥ .
- شهاب الدين أبو بكر محمد بن نباتة القرشي .
٨٩ .
- شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهورودي ٢١٢ .
- شهاب الدين أحمد ٧٠ ، ٢١١ .
- شهاب الدين أحمد بن إبراهيم بن فلاح بن محمد الإسكندرى ١٢٥ .
- شهاب الدين أحمد بن أبي طالب ... ابن بيان الدين (ابن الشحنة) ١٢٣ .
- شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي ١٢٤ .
- شهاب الدين أحمد بن علي ١٦٤ .
- شهاب الدين أحمد الجامي ٣٩٣ .
- شهاب الدين الأرمني ٩٢ .
- شهاب الدين بن البرهان ١٦٤ ، ١٦٦ .
- شهاب الدين بن جهيل ١١٠ .
- شهاب الدين الحموي ٢٩٣ ، ٢٩٢ .
- شهاب الدين الحنفي ٦٦٧ .
- شهاب الدين الرومي ٥٣٧ .
- شهاب الدين الزرندي ١٣٧ .
- شمس الدين بن الريحياني ٢٩١ .
- شمس الدين السائل ٣٣٠ .
- شمس الدين السعاني ٢٢٦ .
- شمس الدين السمناني ٤٦٨ .
- شمس الدين السنجري ٣٦٧ ، ٣٦٩ .
- شمس الدين بن عبد الله بن عمار ١٢٥ .
- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسي ١٠١ .
- شمس الدين بن عدلان ٦٤ .
- شمس الدين الفوشنجي ٥٢١ ، ٥١٧ .
- شمس الدين بن القصبي ١١٠ .
- شمس الدين القلوى ٥٠ .
- شمس الدين كردن بريدا ٣٨١ .
- شمس الدين كلاد وز ٥٦١ .
- شمس الدين لليمش ١٦٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٦ .
- شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهاكاري ١٢٥ .
- شمس الدين محمد ... ابن أبي عمر المقدسي ١٢٥ .
- شمس الدين محمد بن سالم الغزي ٧٧ .
- شمس الدين محمد الخلبي ١٦٦ .
- شمس الدين محمد بن علي ٢٨٢ .
- شمس الدين محمد الشامي ١٥٤ .
- شمس الدين محمد الشيرازى ٤١٣ .
- شمس الدين المصري ٣٦٤ .

- ص
- | | |
|---|--|
| صاحب الزمان . ٢٤٣ ، ٢٣٠ | شهاب الدين السايلي . ٣٤٧ |
| صارور بك . ٣٣١ | شهاب الدين ابن السلطان جلال الدين . ٥٩١ |
| صارم الدين بن الشيباني . ٩١ | شهاب الدين بن السلطان شمس الدين . ٤٥٠ |
| صاروخان (السلطان) . ٣١٢ | شهاب الدين بن السلطان علاء الدين . ٤٤٤ ، ٤٤٢ |
| الصالغاني . ٢١٤ | شهاب الدين الشرابشي . ١١٣ |
| صالح عليه السلام . ١٢٦ ، ٧٩ | شهاب الدين بن شيخ الجام ، ٤٧٧ ، ٤٨٢ |
| الصالح (الملك) . ٢٤٧ | شهاب الدين ، ٤٨٤ ، ٤٨٣ |
| صالح بن علي . ٥٤ | شهاب الدين بن الصباغ . ٦٩ |
| الصالح (شقيق الملك الناصر) . ٦٦٧ | شهاب الدين الطبرى . ٦٦٧ ، ٧٧ |
| صالح نور الدين علي . ٧١ | شهاب الدين بن عبد الغفار . ٧٠ |
| صبيح (الملك) . ٥٣٥ | شهاب الدين علي الرجاء . ٢١٢ |
| صدر الجهان . ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٦٩ ، ٤٨٤ | شهاب الدين فاضل . ١٦٣ |
| صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي . ٥٢١ ، ٥٢٠ | شهاب الدين قلندر . ١٨٤ |
| صدر الدين الحنفي . ٤١٣ | شهاب الدين الكازروني . ٤٦٣ ، ٥٢٠ |
| صدر الدين سليمان الفينيكي . ٣٢٣ | شهاب الدين . ٤٦٥ ، ٥٧٥ |
| صدر الدين سليمان اللکزی . ٣٦٤ | شهاب الدين محمد بن سنان الغوري . ٤٣٢ |
| صدر الدين سليمان المالکی . ٤٩ | شهاب الدين بن مسکین . ٧١ |
| صدر الدين العماري . ١٢٥ | شهاب الدين بن ملك نائب . ٤٤٣ |
| صدر الدين الكهراني . ٤٣١ | شهاب الدين النويري . ١٦٤ |
| صدر الزمان بهاء الدين . ٦١٥ | شهر الله . ٥٠١ |
| صدر الشريعة (القاضي) . ٣٧٥ ، ٣٧٢ | الشيباني . ٤٠٩ |
| صرصري (الفقيه) . ٥٧٢ | شيث بن آدم . ٦١١ |
| صفية بنت عبد المطلب . ١٣٨ | شير سياه . ٣٩٦ |
| صفي الدين (القاضي) . ٤٦ | |
| صفي الدين الطبرى . ٢٥٨ | |

صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلي
٣٢١ ، ٢٤٧ .

صلاح الدين (أمير الإسكندرية) ٤٠ .

صلاح الدين (السلطان) ٨٠ .

صلاح الدين بن أيوب (الملك الصالح)
٧٥ .

صلاح الدين خليل بن كيكليدي العلائي
٦٦٥ .

الصناعي ١٤٩ .

صنهاجة (قبيلة) ٢٦٩ .

صهيب رضي الله عنه ٢٩٨ .

ض

ضياء الدين ٤١٦ ، ٣٨٦ .

ضياء الدين أبو النجيب السهروردي ٢١٢ .

ضياء الدين خداوند زادة ٥١٣ ، ٥١٦ .

ضياء الدين السمناني ٤٨٣ .

ضياء الملك بن شمس الملك ٤٩٩ .

ضياء الملك ٥٠٠ .

ط

الطائع ٢٢٥ .

طارق بن زياد ٦٧٨ ، ٦٨٠ .

طاش خاتون ٢٢٢ ، ٢١٨ .

طالش ٢٣٨ .

طاهر بن شرف الملك ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

طرمشيرين ٥٣٠ ، ٥٥٦ .

طشط (الأمير) ٦١ .

ع

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ١٠٥ ،
٩٦ ، ٩١ ، ٨٢ ، ٧٥ .

عاتكة بنت الحسين ٢٢٩ .

- عاد . ٢٧٠ .
 عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . ١٣٨ .
- عبد الله بن الزبير . ١٥٦ ، ١٧٦ .
 عبد الله بن عمر رضي الله عنها ، ١٢٩ .
- عبد الله بن محمد الحضرمي . ٥٩١ .
 عبد الله بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن إبراهيم الفربيري . ١٢٤ .
- عبد الله التوزري . ١٦١ .
 عبد الله التونسي . ٢٨٩ .
- عبد الله الصفار . ٦٨١ .
 عبد الله الكردي . ٢٤٦ .
- عبد الله الكفيف . ١٠٩ .
 عبد الله المرشدي . ٥٤٩ .
- عبد الله المصري . ٣١٥ .
 عبد المؤمن بن علي . ٦٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٠ .
- عبد الله المروي . ٤٩٨ ، ٥٠٧ .
 عبد المحسن الإسكندرى . ٩٧ .
- عبد المؤمن . ٥٢٠ .
 عبد الواحد (الفقيه) . ٦٩٤ .
- عبد الواحد المكتناسي . ٧١ .
 عبد الوهاب . ٤٧ .
- عبد (الفقيه) . ٤٥٠ .
 عبد الله بن عبد الله بن عمر . ١٣٢ .
- عتبة الغلام . ١٩٩ .
 عثمان (الشيخ) . ٦٠٩ .
- عثمان بن سند . ١٩٨ .
 عثمان بن عفان رضي الله عنه . ٩١ ، ١٠٦ .
- عاشرة (الحارية) . ٦٢٢ .
 عامر بن ذؤيب . ٢٥٥ .
- عامر الشرق . ١٧٥ .
 عباس (الشيخ) . ٣٩٨ .
- العباس بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ) .
 ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ٤٦٧ .
- عبد الحميد العجمي . ١٣٥ .
 عبد الجليل المغربي . ٧٣ .
- عبد الرحمن الإسفايني . ٢٢٢ .
 عبد الرحمن بن أبي بكر . ١٥٧ .
- عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب . ١٣٨ .
 عبد الرحمن بن القاسم . ٥٨ .
- عبد الرحمن بن محمد ... ابن يوسف المزني
 الكلي . ١٢٥ .
 عبد الرحمن القناوي . ٧٠ .
- عبد الرحيم البيساني . ١٠٣ .
 الشيخ عبد الرحمن القناوي . ٢٨٩ .
- عبد العزيز الأردويلي . ٤٦٦ ، ٢٢٢ .
 عبد العزيز المقداشاوي . ٦٢١ .
- عبد القيس بن أفصى . ٢٨٧ .
 عبد الله (الفقيه) . ٢٥٢ .
- عبد الله (القاضي) . ٥٨٩ .
 عبد الله (الوزير) . ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٢١ .
- عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري . ٢٩٠ .

- عطيفة (الأمير) ١٦٥، ١٦٨، ١٧٤، ١٧٥. ٢٥٠، ١٧٥
- عفيف الدين التوزري ٣١٣، ٣٣١. ٣٧٢
- عفيف الدين عبد الله ١٣٥.
- عفيف الدين عبد الله بن أسد ١٦٥.
- عفيف الدين الكاساني ٤٨٤. ٤٨٥
- عقيل بن أبي طالب ١٣٨.
- عكاشة بن محسن الأسد ٣٨٨.
- علاء الدين (الأمير) ١٣٣، ٢٤٢.
- علاء الدين (السلطان) ٤٢٦، ٤٨٢. ٥٠٤
- علاء الدين بن الأثير ١٩٧.
- علاء الدين أديجي ٦١٤.
- علاء الدين أرتنا ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤. ٣٠٥
- علاء الدين الأصي ٣٣٠.
- علاء الدين الأوجي ٥٧٩.
- علاء الدين بن البهاء ٩٧.
- علاء الدين بن غانم ٨٣، ١٢١.
- علاء الدين بن هلال ١٥٥، ٢٤٩.
- علاء الدين خداوند زاده ٣٨٣، ٣٨٦.
- علاء الملك الخراساني (فصيح الدين) ٤١٢، ٤١٣. ٤١١
- علاء الدين الخلجي ٤٧٠.
- علاء الدين الرومي ٢٩١، ٣٢٦.
- علاء الدين السلطانيوكي ٣١٦.
- عطيفة بن أبي نعي بن أبي أسد بن علي بن قتادة ١٦١.
- عثمان بن جوق ٣١٥.
- عثمان بن الشيرازي ٦٠٧.
- عثمان المرتدي ٤١٠.
- عز الدين (الشيخ) ٣١١، ٣٠٤.
- عز الدين بن أحمد الرفاعي ٣١١.
- عز الدين بن الأشمرين ٥٠.
- عز الدين بن بدر الدين بن جاعة ٦٣. ٦٦٧
- عز الدين بن جاعة ٦٦٥.
- عز الدين البتاني ٥٥٦.
- عز الدين بن مسلم ١١٢، ١١٠.
- عز الدين الدمشقي ٦٦٥.
- عز الدين الزبيري ٥٤٣، ٥٥٦.
- عز الدين فرشتي ٣٠٦.
- عز الدين القلاسي ١٢١.
- عز الدين المليجي ٤٩.
- عز الدين الواسطي ١٣٤، ١٦٦.
- عزيزان (الشيخ) ٣٨٦.
- عزيز الخمار ١٩٦، ٥٣٦، ٥٠٩. ٥٣٧
- عصف الدين (الإمام) ٤٦٨.
- عصف الدين الحسيني ٢٢٣.
- عصف الدين الشونكاري ٤٦٨.
- العطوفاني ٢٨٩.

- علي بن أبي بكر بن عبد الله بن رؤبة القلانيسي . ١٢٤
- علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٦٥ ، ٩٦ ، ١١٤ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٧٦ ، ١٩٨ - ١٩٦ ، ١٩٤ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ ، ٢٧٩ ، ٦٦٢ ، ٦٤٨ ، ٣٠٠ .
- علي بن أبي القاسم الجنيد ٢١٢ .
- علي بن أحد كجك بن ناج الدين الرفاعي . ٣٠٤
- علي بن إدريس المصيري ٢٧٤ .
- علي بن أرزق ٣٤٣ .
- علي بن جعفر الرازي ٧٤ .
- علي بن حبيب التنوخي ٣٧ .
- علي بن حجر الأموي ١٤٠ ، ١٤١ .
- علي بك بن سليمان باد شاه ٣٢٢ .
- علي بن سهل ٢١٢ ، ٢١١ .
- علي بن شداد ١٧٥ .
- علي بن صبيح ١٧٥ .
- علي بن منصور ٣٧٠ .
- علي بن موسى الرضا ٢٣٤ ، ١٩١ .
- علي بن موسى الكاظم ... ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ٣٩٠ .
- علي الحيدري ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥١٠ .
- علي الزودي المراكشي ٦٩٤ .
- علي شاه ابن جلال الدين الكيحي ٢٨٢ .
- علاء الدين علي بن شمس الدين محمد . ٢٤٩ ، ٢٤٥
- علاء الدين طرمشيرين ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ .
- علاء الدين علي المصري (ابن الشرايشي) . ٤٦٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٤ .
- علاء الدين علي بن يوسف (ابن عبد الله الشافعي) . ١٢٥ .
- علاء الدين القسطموني ٢٩٨ .
- علاء الدين القونوي ١١٠ ، ٦٦٤ .
- علاء الدين الكردي ٩٢ .
- علاء الدين الكرماني ٤٣٠ .
- علاء الدين محمد ٢٤١ ، ٣٢٣ .
- علاء الدين محمد شاه الخلجي ٤٤٣ ، ٤٤١ .
- علاء الدين الملطاني ٤٢٥ .
- علاء الدين النيلي ٤٣١ .
- علم الدين ابن الشيخ فريد الدين البداوي . ٤٢٢ .
- علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي . ١٢٤ .
- علم الدين بن سالم ٧٣ .
- علي (الفقيه المعلم) ٥٦٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣ .
- عليا (ال حاج) ٥٩٧ .
- علي أغبوب . ٧١٠ .

- عمر بك ابن السلطان محمد بن آبدين .
 . ٣٤٢ ، ٢٢٠ علي شاه جيلان .
 علي شاه كر . ٥٠٦
 علي كلكي . ٥٩١
 علي المدي . ٦٨٥
 عياد الدين . ٤١٦ ، ٣٨٦
 عياد الدين (الشيخ) . ٤٩٣
 عياد الدين الحفي . ١٠٩
 عياد الدين الحوراني . ١١٠
 عياد الدين سرتيز . ٤٦١ ، ٣٨١
 عياد الدين السمناني . ٥٢٨ ، ٥٢٧
 عياد الدين السمناوي . ٤٧٥ ، ٤٦٦
 عياد الدين الشونكارى . ٢٨٢
 عياد الدين القيسري . ١٢١
 عياد الدين الكندي . ٤٧ ، ٤٦ ، ٤١
 عياد الدين النابسي . ٧٧
 عياد الملك (الأمير) . ٤٨٧
 عياد الملك سرتيز . ٤٦٠
 عمار بن ياسر رضي الله عنه . ٢١٦ ، ٨٤
 عمر (الأمير) . ٣١١
 عمر بك . ٣٠٧
 عمر بن الخطاب (الفاروق) رضي الله عنه .
 ، ١٣٣ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٩ ، ١٢٨
 ، ٦٤٨ ، ٢٧٩ ، ٢١٥ ، ١٥٨ ، ١٣٩
 عمر دهرد . ٦٠٢ ، ٥٩٤
 عمرو بن العاص . ٦٠ ، ٥٦ ، ٥٤
 عمر بن عبد العزيز . ١٠٩ ، ٨٥ ، ٨٤
 غدا بن مهنا (الأمير) . ٤٠٩ ، ١٣٢
- غ
- غازي جلبي . ٣٢٦
 غامد (قبيلة) . ١٧٧
 غدا بن مهنا (الأمير) . ٤٧٦ ، ٤٧٥ ، ٤٤٠

- فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام . ٤٧٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ .

غياث الدين . ٥٢٢ .

فاطمة بنت الرسول رضي الله عنها . ١١٥ .

غياث الدين (السلطان) . ٣٨٩ ، ٦١٧ .

. ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٥٤ .

. ٦١٩ ، ٦٢٠ .

فتح التكروري . ٥٢ .

غياث الدين (ملك هراة) . ٢٣٨ .

فتح الدين بن دقيق العيد . ٧٠ .

غياث الدين محمد ... ابن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر . ٤٧٠ ، ٤٧٩ .

فتح الله (شونويس) . ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ .

غياث الدين بلبن (السلطان) . ٤٢٧ ، ١٦٩ .

فتح الموصلي . ٢٤٨ .

. ٤٣٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٥ .

فتح الدين (الأمير) . ٣٢٥ .

غياث الدين بهادر بورة . ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

فتح الدين (القاضي) . ٢٥٠ ، ٦٥١ .

. ٤٤٧ ، ١٩٢ شاه .

فتح الدين بن الريفي . ٤١ .

غياث الدين تغلق . ٤٩١ ، ٤٩٣ .

فتح الدين ابن الشیخ شهاب الدين الكازروني . ٥٨٠ .

غياث الدين حفيد الخليفة المستنصر . ٤٢٦ .

فتح الدين بن مسكن . ٤٦ ، ٤٧ .

غياث الدين الدامغاني . ٥٥٦ ، ٦١٤ .

فتح الدين عثمان . ٥٧٥ .

غياث الدين محمد بن خواجه رشيد . ٢٣٧ .

فتح الدين فخرة (السلطان) . ٦٢٣ .

غياث الدين محمد بن عبد القادر ... ابن الخليفة المستنصر بالله . ٣٨٥ .

. ٦٢٤ .

غياث الدين القبطي . ٦٢ ، ١١٢ .

غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف ابن عبد العزيز . ١٦٩ .

غياث الدين النويري . ٦٧ .

غيتيمور (الملك) . ٣٩١ .

قریباً حسین . ٦٨٩ .

ف ف

فریبا سلیمان . ٧٠٨ .

فاطمة بنت أسد بن هاشم (أم علي بن أبي طالب) . ١٣٩ .

فریبا منعا . ٧٠٥ .

فاطمة بنت تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر . ٢٣٥ .

فریبا موسى . ٧٠٧ .

فوج الزنجاني . ٢١٢ .

فريید الدين . ٤٣ .

فريید الدين البنداوی . ٤٢٢ .

فضالۃ بن عیید . ١١٥ .

۲

فاطمة بنت أسد بن هاشم (أم علي بن أبي طالب) ١٣٩.

فاطمة بنت تاج الدين أبي الحسن علي بن علي بن أبي البدر ٢٣٥.

- | | | |
|------------------------------------|---------------------------|--|
| قراسنكور (الأمير) . | ٩٥، ٩٤، ٩٣ . | فضل الله . ٥٠١ |
| | ٢٣٩ . | فضل الله الرضوي . ٣٦٧ |
| القرطي . | ٥٧ . | فياض (أمير) . ١٨٦ |
| قرطي (الأمير) . | ٦٥٤، ٦٥٢، ٦٥١ . | فiroز . ٣٨١ |
| | ١٥٨ . | فiroز (الملك) . ٥٢٠، ٤١٠، ٥٠٣ |
| القزويني (القاضي) . | ٦٦٠ . | فiroز البخشاني . ٥٥٠ |
| القسطلاني . | ٧٢ . | فiroز شاه . ٢٣٨ |
| قطب الدين . | ٤٤٩، ٤٤٨ . | فiroز خان . ٤٨١ |
| قطب الدين (السلطان) . | ٤٢٩، ٤٢٨ . | فiroز خوندة . ٤٧٤ |
| | ٥٥٣، ٥٣٤، ٥١٢، ٤٨٣ . | فiroز ملك (ال حاجب) . ٤٥٥ |
| قطب الدين أيك . | ٤٣٢ . | |
| قطب الدين قمتهن طوران شاه . | ١٧٠ . | |
| | ٢٤٠، ٢٨٣، ٢٧٨، ٢٦٩ . | |
| | ٢٨٥ . | ق |
| قطب الدين حيدر . | ٣٩٤ . | القائم . ٢٣٥ |
| قطب الدين حيدر العلوى . | ٤١٤ . | القادر . ٢٣٥ |
| قطب الدين ابن السلطان علاء الدين . | ٤٢٦ . | قازان (ملك التتر) . ٨٦، ٢٤٧، ٥٥٠ |
| قطب الدين بن علاء الدين الخلجي . | ٤٧٠ . | قازغان، قازان (ملك العراق) . ٢٣٧، ٥٣٤، ٢٤١ |
| قطب الدين النفوذاني . | ٦٦٦ . | قاضيخان صدر الجهان . ٤٤٦، ٤٤٥ |
| قطب الدين النيسابوري . | ٣٩٥ . | القاملداري (الوزير) . ٥٩٤ |
| قطب الملك . | ٥٢٦، ٥٢٢، ٤١٥ . | القاھر . ٢٣٥ |
| قطلوخان . | ٤٢٥، ٤٥١، ٤٩٨، ٤٩٨، ٥٠٠ . | قبولة (الملك الكبير) . ١٦٩ |
| | ٥٠٩، ٥٢٥، ٥٠٩ . | قبولة الهندى . ٢٥٤ |
| قطلودمور (الأمير) . | ٣٦٥، ٣٣١، ٢٢١ . | قبولة (الملك) . ٤٥٨ |
| | ٣٧٢، ٣٦٧ . | قم (السلطان) . ٥٥٢ |
| قل استان (الجارية) . | ٥٩٦ . | قم بن العباس بن عبد المطلب . ٣٨٤، ٤٦٩ |
| قلاؤون (الملك) . | ١٥٣، ١٣٣، ٩٩ . | |

- كراي (ملك) . ٥٢٠
 الكركي (والي الإسكندرية) . ٤٥
 كسرى ، ٢٢٠ ، ٥٢٠ ، ٥٥٠ ، ٦٤٣ ، ٥٥٠ .
 كشلوخان ، ٤١٣ ، ٤٤٩ ، ٤٤٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٣ .
 كشلي خان (الأمير) . ١٩٢
 كعب الأخبار . ١١٤
 كفالي قراس . ٣٥٣
 كفالي نقوله الرومي . ٣٥٣ ، ٣٥٢
 كمال بورومي . ٤٩٤
 كمال الدين (القاضي) . ٤٣٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٧
 كمال الدين الأشموني . ٤٨٢ ، ٤٨٠
 كمال الدين البجورى . ٥٢٤
 كمال الدين بن البرهان الغزنوى ، ٤٥٢
 كمال الدين بن الزملکاني . ٨٩
 كمال الدين صدر الجهان . ٤٢٥
 كمال الدين عبد الله ... ابن أبي عمر المقدسي . ١٢٥
 كمال الدين عبد الله الأصفهاني . ٦٤٥
 كمال الدين عبد الله الغاري . ٤٣٢ ، ٥٤٠
 كمال الدين الغزنوى . ٤٦٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٦
 كمال الدين كُرك (الملك) . ٤٢٥ ، ٤٩٨
 كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوى (صدر الجهان) . ٤٣٢
 كمال الدين المراغي . ٧٧
- قلجدن (الأمير) . ٤٩٧
 قلندر يوسف . ٥٢
 قمر الدين . ٥٥٦
 قمر الدين (الأمير) . ٦١٤
 قنجاه موسى . ٦٩٧
 قواص الدين . ٤١٧
 قواص الدين (القاضي) . ٣٨٦
 قواص الدين بن طاورس . ١٩١ ، ١٩٠
 قواص الدين السبتي . ٦٤٩
 قواص الدين الطمغجي . ٢١٨
 قواص الدين الكرماني . ٦٤
 قواص الدين بن مكين . ٨٣
 قوصون . ٦٢
 قيران (ملك صفار) . ٤٩٧
 قيسار . ٦٤٣
 قيسار الرومي . ٤١١

ك

- كافور . ٣٧١ ، ٢٠٣
 كافور الساقى . ٥٤٤ ، ٥٤٩
 كافور الشريدار . ٥٤٢
 كبك (الملك) . ٨٣
 كبك (الخاتون) . ٣٤٨ ، ٣٤٢ ، ٣٣٨ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٧٧
 كبيشي بن منصور بن جمار . ١٣٨
 كُجك خاتون . ٣٤٠

- . ٤٤٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٢ (قطب الدين) .
- مبارك شاه ٤١٦ .
- مبارك شاه السمرقندى ٥٢٠ ، ٥١٢ .
- المتّقى ٢٣٥ .
- المتوكل ٢٣٥ .
- مثقال (الناخوذة) ٥٧٥ .
- مجد الدين ٣٠٥ .
- مجد الدين (القاضي) ٢١٩ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٤٦٧ ، ٦٦٢ .
- مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداد ٢١٤ .
- مجد الدين الأقصري ٦٤٠ .
- مجد الدين بن حرمي ٦٥ .
- مجد الدين القاسم ... ابن المعلى ١٢٥ .
- مجد الدين القونوي ٣١٥ ، ٣١٤ .
- مجد الدين موسى الحسني ١٩٧ .
- مجد الدين النابلسي ٧٨ .
- مجير بن ذي الرجا ٤٥٨ ، ٦١٤ .
- محمد (النبي المصطفى الرسول ﷺ) ٢٩ ، ٨٠ ، ٧٤ - ٢٦ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٢ .
- ١٢٦ ، ١١٤ ، ٨٤ ، ١٠٧ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٥٩ - ١٥٤ ، ١٥٢ ، ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢٠٤ ، ١٩٩ ، ١٩٨ ، ٢٢٨ ، ٢٩٥ ، ٢٥٦ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨ .
- الكتّار (السلطان) ٦٠٧ .
- كتيبة (الرأي) ٤٩٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٩ .
- كُوبل (السلطان) ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
- كي خسر و ٤٣٧ .
- كي قباد ٤٣٧ .
- ل**
- لسان الدين بن الخطيب ٦٨٠ .
- لقمان السرخسي ٣٩٤ .
- لوط (النبي) ١٦٧ ، ٧٤ ، ٧٥ .
- لؤلؤ (ملوك) ٦٢ .
- لؤلؤ دمشق خواجه ٢٣٨ .
- لولا (قائد المركب) ٥٧١ .
- ليفي بروفيسال ٦٨٠ .
- م**
- ماجوج ٦٤٧ .
- مالك بن أنس (أبو عبد الله) ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٧٧ ، ٥٦٧ ، ٥٩٠ ، ٦٧٣ .
- مالك بن دينار ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٦٢٢ .
- مالك بن طوق ٨٦ ، ٦٦٣ .
- ماه حق (زوجة السلطان علاء الدين) ٤٤٢ .
- مبارك (زين الدين) ٤٧ .
- مبارك ابن الأمير عطية ٢٥١ .
- مبارك خان (السلطان) ٤٥٨ .
- مبارك خان ٤٧٥ ، ٤٨٠ .
- مبارك خان بن السلطان علاء الدين

- محمد الدوري . ٤٠٧
- محمد بن رافع . ١٢٥
- محمد بن رمية بن أبي نمي . ٢٣٠
- محمود بن سبكتكين . ٤٧٧
- محمد السلحدار . ٦١٧
- محمد بن سيرين . ٦٦٢
- محمد شاه (الطاهر) . ٣٩٤
- محمد شاه (ملك الهند) . ٤٠٥ ، ١٦٨ ، ٤٠٥
- محمد شاه . ٤٢٧ ، ٤٠٧
- محمد شاه بندر . ٥٧٩
- محمد شاه بن تغلق شاه . ٤٤٦
- محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه . ٤٥٢
- محمد شاه بن مظفر . ٢٤٠
- محمد شاه ينحو . ٢٢٣ ، ٢١٨ ، ٢١٣
- محمد بن شميلة بن أبي نمي . ٢٦٦
- محمد بن طغribل بن عبد الله بن الفراز الصريفي . ١٢٤
- محمد بن عبد الله . ٧١٢ ، ٢١٢
- محمد بن عبد الله بن ينور . ٦٩٠
- محمد بن عبد الله عمويه . ٢١٢
- محمد بن عثمان . ١٦٤
- محمد بن عثمان الحنبلي . ١٦٥
- محمد العدني . ٢٧٤
- محمد العريان . ٥٤٩ ، ٥٥٠
- محمد بن علي . ٩٦
- محمد بن غياث الدين . ٤٩١
- ، ٤٧٠ ، ٣٨٨ ، ٣١٨ ، ٣٠٧ ، ٢٩٨
- ، ٥٦٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨
- . ٧١٥ ، ٧٠٨ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣ ، ٦٦٨
- محمد (حفيد الخليفة المستنصر) . ٤٧٣
- محمد (الخطيب) . ٧١١
- محمد (السلطان) . ٤٨٣ ، ٦٣١
- محمد بن آيدين . ٣٠٦
- محمد أوزبك . ١٨٢ ، ٢٣٨ ، ٣٢٨ - ٣٣٠
- . ٣٣٠ ، ٣٣٢
- محمد بن إبراهيم . ١٧٥
- محمد بن أبي سهل . ٧٥
- محمد بن أبي الشريقي الحربياوي . ٤٦٩
- . ٤٧١
- محمد بن البرهان . ١٦٥
- . ٣٣٦ ، ٣٣٥
- محمد البطائحي . ٤١٠
- محمد بن بيرم . ٥٥٣
- محمد التوفيري . ٥٥٣
- محمد بن تومرت . ٦٧٩
- . ٣٩٨
- محمد الجرجي . ٢٦٦
- محمد جلي (السلطان) . ٢٩٦
- . ٣٤
- محمد بن الحسن العسكري . ٢٣٠
- . ٢٥٠ ، ١٨٤
- . ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢١٥ ، ٩٤
- محمد خدابنده . ٣٣٣
- محمد خواجه الخوارزمي . ٣٣٣

- المرتضى (ملك مراكش) . ٧٢
 مرذك أغاث . ٣٩٨
 مرزوق (الشيخ) . ٥٠
 مرغلية (جاربة) . ٣١٤
 مروان (ابن الحكم) . ١٣٢
 المسترشد . ٢٣٥
 المستضيء . ٢٣٥
 المستظاهر . ٢٣٥
 المستعصم . ٢٣٥
 المستعصم بالله . ٣٧٤
 المستعظم بالله (الخليفة العباسى) . ٦٢٤
 المستعين . ٢٣٥
 المستقيم بالله . ٤١٠
 المستكفى . ٢٣٥
 المستجدى . ٢٣٥
 المستنصر بالله أبو جعفر بن الظاهر . ٢٣٤
 المستنصر . ٢٢٥ ، ٣٢٣ ، ٤٧٣ .
 مسعود (سلطان) . ٣٩٠ ، ٣٨٩
 مسعود (الملك) . ٦٢٠
 مسعود آباد . ٤٦٩
 مسعود بن المنتصر . ٣٤
 مسلم . ١١٤
 مسلم بن عقيل بن أبي طالب . ٢٢٩
 مسلمة بن عبد الملك . ٣٥٣
 مصر خواجه . ٢٣٨
 مصلح الدين (الفقيه) ، ٢٩٥ ، ٢٩٤
 . ٣١٢
- محمد بن فرحان التوزري . ٦١٣
 محمد بن الفقيه . ٦٩٤
 محمد بن الفقيه الجزوئي . ٦٩٤
 محمد بن فهد القرشي . ١٦٥
 محمد المراكشى . ٧٢
 محمد المصمودى . ٦٢٢
 محمد المهروى . ٣٩٦
 محمد الناقورى . ٥٦٦
 محمد بن النجيب (أجدار ملك) . ٤٩٧
 محمد النسابوري . ٦١٨
 محمد المروي . ٥٤٢
 محمد المروي الكتوال . ٤١٦
 محمد المداني الصوفى . ٤٦٩
 محمد بن واسع . ٢٦٢
 محمد بن الوزير جمال الدين . ٦٢١
 محمود (الفقيه) . ٢٠٩
 محمود الخيوفى . ٣٧٢
 محمود بن سبكتكين . ٣٩٨
 محمود الكبا . ٤٣٠
 محمود اللورى . ٦٠٨
 محيى الدين (المدرس) . ٣٠٦
 محيى الدين الحمصى . ٩٢
 محيى الدين بن محيى بن علي العلوى . ١٢٥
 المختار بن أبي عبيدة . ٢٢٩
 مخلص الملك النذر باري . ٤٨٤
 مدرك بن فتوص . ٧٠٣ ، ٧٠٢
 مرادبك . ٢٩٨

- المطيع لله . ٢٣٥
 مظفر ابن الدياة . ٥٤٣
 مظفر الدين . ٣٣٠
 مظفر الدين (الشيخ) (٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤) .
 مظفر شاه بن الأمير محمد شاه بن مظفر . ٢١٩
 مظهر الدين . ٣٣٠
 معاذ بن جبل رضي الله عنه . ٢٥٦
 معاوية بن أبي سفيان (١١٤، ١٠٩، ١٠٧) . ٦٤٨، ١٣٤
 معبد الجهنمي . ٢٥٧
 المعتز . ٢٣٥
 المعتصم . ٢٣٥
 المعتصد . ٢٣٥
 المعتمد . ٢٣٥
 معروف خواجه (٢٤٩، ٢٤٢) .
 معروف الكرخي . ٢٣٤
 معز الدين ابن الشيخ فريد الدين البذواني . ٤٢٢
 معز الدين ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن . ٤٢٨
 معز الدين بن السلطان شمس الدين للمش . ٤٣٤
 معز الدين ابن السلطان ناصر الدين ، ٤٣٨ . ٤٣٩
 المعظم (الملك) . ١٢٧
 معين الدين الباخري . ٥٥٠
- مُغْلَة . ٢٩٩
 المغيث (الملك) . ٢٧٣، ٢٧٠
 مغيث ابن ملك الملوك . ٤٧٨
 مغيث الدين محمد بن عاد الدين السمناني . ٥٣٨
 مقبل (الملك) . ٥١١
 مقبل التلنكي . ٥٦٢
 مقبول التلنكي . ١٧٠
 المقتدر . ٢٣٥
 المقتفي . ٢٣٥
 المكتفي . ٢٣٥
 ملك زاده . ٤١٦
 ملك زادة ابن اخت خداوند زادة (الترمذي) . ٥٢٠، ٥١٣
 ملك شاه (الأمير) . ٤٤٤
 ملك فiroz . ٤٥٨
 ملك مقبل (نائب الوزير) . ٥٠٩، ٥٠٨
 ملك نائب (الأمير) . ٤٤٢
 مشاد الدينوري . ٢١٢
 المنتصر . ٢٣٥
 منجور . ٥٥٤
 منسى سليمان (٦٩٥، ٦٩٩، ٦٩٨، ٦٩١) . ٧٠٦، ٧٠٢
 منسى مغا . ٧٠٢
 منسى موسى . ٧٠٥، ٧٠٣، ٧٠٢
 منشاجو . ٦٩٠
 المنصور (ملك ماردين) . ٢٤٧

ن

- ناصر (ال حاج) . ٥٦٢
- الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون (الملك الناصر) ٦١ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٤٩ ، ٨٣ ، ٧٢ ، ٦٨ ، ٩١ -
- ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٩ - ١١٣ ، ١٢١ ، ١٦٣ ، ١٥٥ ، ١٣٣ ، ١٢٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٨ ، ٢٣٠ ، ٣٣٠ ، ٣٧٨ ، ٥٣٠ ، ٥٥٠ ، ٣٠١ ، ٦٦٧ ، ٦٧٧ ، ٦٩٤ .
- الناصر بن الملك المغيث (الملك) . ٦٦١
- ناصر الدين . ٥٥٦
- ناصر الدين (أمير المؤمنين) . ٦١
- ناصر الدين (السلطان) ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ .
- ناصر الدين (ملك مل) . ٥١٠
- ناصر الدين ابن ملك مل . ٥٥٩
- ناصر الدين الأسيوطى . ٢٤٩
- ناصر الدين بن السلطان شمس الدين للمش . ٤٣٥ ، ٤٣٤
- ناصر الدين بن شمس الدين للمش . ١٦٨
- ناصر الدين بن العديم . ٩٠
- ناصر الدين بن عين الملك . ٥٥٨
- ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن . ٦٢٣
- منصور أبي نبي . ٢٥٢
- منصور بن شكل . ١٤٠
- منصور بن عمر . ١٧٥
- منصور بن لبيدة بن أبي نبي . ٢٦٦
- منورت . ٥٦٣
- المهدي . ٢٣٥
- المهدي . ٢٣٥
- المهدي (الإمام) . ٩٧
- المهدي (ال الخليفة) . ١٥٢ ، ١٤٦
- المهدي بن أبي جعفر المنصور . ١٣٢
- المهردار (الأمير) . ٤٩٣
- مهنا بن عيسى . ٩٣
- مودود الجستي . ٣٩٢
- موسى (الشيخ) . ٧٢
- موسى (الفقيه) . ٣١٣
- موسى عليه السلام . ١١٥ ، ٨٠ ، ٤٤ ، ١١٧
- موسى بن قرمان . ٣٠١ ، ٢٥٠
- موسى الكاظم بن جعفر الصادق . ٢٣٤
- موسى المزرق . ١٧٥
- موسى بن نصیر . ٦٧٨
- موسى الوبغراطي . ٦٩٩
- ميغائيل (القائد) . ٣٥٠
- مير حسن . ٢٣٨
- ميناس بك . ٢٩٩

- ناصر الدين بن ناهض . ٥٥
- ناصر الدين الترمذى . ٤٦٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ .
- ناصر الدين خسرو شاه . ١٩٢ ، ٤٤٥ .
- ناصر الدين الخوارزمي . ٤٥٨ ، ٥٣٨ .
- ناصر الدين الدرقندى . ٢١٥ .
- ناصر الدين العدم . ٦٦٥ .
- ناصر الدين الفارى . ٢٦٠ .
- ناصر الدين الكافى الهمروى . ٥١٩ ، ٥٣٢ .
- ناصر الدين مطهر بن شمس الدين محمد الأدھرى . ١٩٠ ، ٤٢٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ .
- ناصر الدين بشير الأنصارى . ٨٤ .
- النعمان بن المنذر . ١٩٤ .
- نعمان الدين الخوارزمي . ٣٦٤ .
- نَفَّطِي (الأمير) . ٣٤٤ ، ٣٤٢ .
- نكبة (الملك) . ٤٦٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ .
- نكبة الدوادار . ٥٢٥ .
- نفيسة بنت الحسن بن علي بن الحسين بن علي . ٥٧ .
- نوح عليه السلام . ١٨٩ ، ٢٢٩ ، ٢٤٥ .
- نور الإسلام . ٣٦٧ ، ٣٦٦ .
- نور الدين (السلطان) . ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .
- نور الدين (السلطان) . ١١٣ ، ٢٥٠ .
- نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العبيسي . ٨٣ .
- نور الدين أبو اليسر بن الصائغ . ١١٠ .
- نور الدين بن الزجاج . ٣٧٤ .

نور الدين الزيداني ٢٢٨ .

نور الدين السخاوي ١٢١ ، ٦٦٣ .

نور الدين الشيرازي ٤٨٧ .

نور الدين علي بن داود بن يوسف بن علي

ابن رسول (السلطان) ١٧٤ .

نور الدين علي ... ابن يوسف بن علي بن

رسول ٢٥٨ .

نور الدين القاضي ٢٤٩ .

نور الدين الكرلاني ٤٣٠ .

نور الدين الكرماني ٥ ، ٢٠٨ ، ٣٦٦ .

وزيرة بنت عمر بن المنجاة ٢٢٥ .

وشل ١٦٩ .

الوليد بن عبد الملك بن مروان ١٠٤ ،

١٣٢ .

ونار (الأمير) ٤١٠ ، ٤٠٩ .

ي

يأجوج ٦٤٧ .

ياقوت ١٢٥ ، ١٢٦ .

ياقوت الحبشي ٤٣ .

ياقوت الحموي ١٨١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٩ .

يجي بن أحد كجك بن ناج الدين الرفاعي

٣٠٤ .

يجي الباخري ٣٧٥ .

يجي الخراساني ٢٠٤ .

يجي السلاوي ٩٧ .

يجي عليه السلام ١٠٧ .

هابيل بن آدم ١١٧ .

هاجر (أم اسماعيل عليه السلام) ١٤٩ .

المادي ٢٣٥ .

هارون بك ٣٦٨ .

هارون الرشيد ١٨١ ، ٣٩٤ .

هةة الله ابن الفلكي التبريزى ٥٢٢ ، ٥٢٠ .

هرمس الأول ٥٩ .

هريب (السلطان) ٥٦٧ .

هلاجون (الأمير) ٤٩٧ .

هلاون بن تنكizer ٤١٠ .

هام الدين ٣٦٧ .

هود عليه السلام ١٠٧ .

هود بن عابر ٢٧٠ .

هوشنج (الملك) ٤٢٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

و

وائلة بن الأسعف ١١٥ .

الواشق ٢٣٥ .

واصل بن عطاء ٢٥٧ .

وَجِين (ال حاج) ٧٠٩ .

وجيه الدين البياني ٥٥٦ .

وجيه الدين الصنهاجي ٤٢ .

وحيد الدين عمر ٢١٢ .

وجيه الدين الكاساني ٤٣٣ .

وجيه الملك ٥٥١ .

وزيرة بنت عمر بن المنجاة ٢٢٥ .

وشل ١٦٩ .

هـ

هابيل بن آدم ١١٧ .

هاجر (أم اسماعيل عليه السلام) ١٤٩ .

المادي ٢٣٥ .

هارون بك ٣٦٨ .

هارون الرشيد ١٨١ ، ٣٩٤ .

هةة الله ابن الفلكي التبريزى ٥٢٢ ، ٥٢٠ .

هرمس الأول ٥٩ .

هريب (السلطان) ٥٦٧ .

هلاجون (الأمير) ٤٩٧ .

هلاون بن تنكizer ٤١٠ .

هام الدين ٣٦٧ .

هود عليه السلام ١٠٧ .

هود بن عابر ٢٧٠ .

هوشنج (الملك) ٤٢٥ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

- | | | |
|----------------------------|-------------|----------------------|
| يوسف عليه السلام . | ٧٤ ، ٨٠ . | يخشي خان (السلطان) . |
| يوسف بن أحد (أتابك) . | ٢٠٥ ، ٢٠٦ . | يزيد بن معاوية . |
| يوسف بغرة . | ٤٦٠ ، ٤٨٢ . | يعقوب (النبي) . |
| يوسف بن رسول . | ١٥٣ . | ينقي . |
| يونس (النبي عليه السلام) . | ٧٥ ، ٢٤٤ . | يَنْتَجْ (السلطان) . |
| | ٢٤٥ . | يهودا . |

فهرس المدن والقرى

- ١
- | | |
|-------------------|-------------------------------|
| أرمينية . | ٩١ |
| أزاق . | ٣٣٨ ، ٣٣٣ |
| أزغنان . | ٦٦٩ |
| أسفي . | ١٧٢ |
| الإسكندرية . | ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ |
| | ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٤٧ - ٤٥ |
| | ، ٢٣٨ ، ٦٠ ، ٥٥ |
| | ، ٤٢٢ ، ٤٠٨ ، ٥٠٩ ، ٦٦٦ |
| | ، ٦٦٩ |
| أسنا . | ٢٨٩ ، ٧١ |
| أسوان . | ٥٤ |
| أسيوط . | ٢٨٩ ، ٦٨ |
| أشمون . | ٥٣ |
| الأشمونين . | ٢٨٩ |
| اصطنبول . | ٣٥٧ ، ٣٥٩ |
| أصفهان (أصفهان) . | ١٨٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ - ٢١٣ |
| | ، ٢٩٣ ، ٢٤٠ ، ٢١٩ ، ٢١٨ ، ٢١٥ |
| | ، ٦٦٢ ، ٦٤٠ ، ٣٧٠ ، ٣٠٤ |
| أصفون . | ٢٤٩ |
| أصيلا . | ٦٨٥ |
| أطراز . | ٣٧٣ ، ٣٧٤ |
| أطراز (طراز) . | ٣٨٣ |
| آت قلنجة . | ٦١٢ |
| آسياد باد . | ٤٤٨ |
| آوة . | ٥٧٩ ، ١٩٨ ، ١٩٠ |
| أبجيري . | ٤٢٣ |
| الأبلة . | ١٧٠ |
| أبو سرور . | ٥٧٠ |
| أبو صير . | ٦٦٦ |
| أبيار . | ٦٦٦ ، ٤٩ |
| أجودهن . | ٤٢٥ ، ٤٢٢ |
| أجين . | ٥٥٨ |
| أخيم . | ٢٨٩ ، ٦٩ |
| أخذدقان . | ٦٦٩ |
| أدفو . | ٢٨٩ ، ٧١ |
| أذربيجان . | ٢١٥ |
| أزان . | ٩١ |
| أرز الروم . | ٣٠٥ ، ٧٨ |
| أرزنجان . | ٣٠٥ |
| أرض اللور . | ٢٠٢ |
| أرمانت . | ٢٨٩ ، ٧٠ |

- إفريقيا ٣١١ ، ٣٥٧ .
 افريقيا ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ١٦٣ .
 أفغان بور ٥٣٦ .
 أفغانبور ١٩٥ .
 أق شهر ٢٩٤ .
 الأقصر ٢٨٩ ، ٧٠ .
 أقصرا ٣٠٢ ، ٦٤ .
 أقليبية ٣٦ .
 أكروهه ٥١٢ .
 أكريدور ٢٩٥ ، ٢٩٤ .
 أكك ٣٥١ .
 ألكات ٣٧٢ .
 أماصية ٣٠٤ .
 أمروها ٥٣٧ .
 أم عبيدة ١١٤ ، ١٩٥ .
 الأنبار ٦٦٣ ، ٦٥٥ .
 الأندلس ٣٦ ، ٤١ ، ٥٢ ، ١٩٩ ، ٣١٥ .
 ٣٢٦ ، ٣٧٢ ، ٦٧٦ - ٦٨٢ ، ٦٧٩ .
 ٦٩٢ .
 أنطاكية ٩١ ، ٩٢ ، ٢٩١ .
 أنطاليا ٢٩٤ ، ٢٩١ .
 أوجا ١٩١ .
 أوجه ٤١٤ ، ٥٠٧ .
 أوغندا ٦٩٣ .
 آيا سلوق ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١٣ .
 إيدج ٢٤٠ ، ٢٠٩ ، ٢٠٦ .
 آيلاتن ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ .
 بابا سلطوق ٣٥١ ، ٣٦٢ .
 بال ٢١٧ .
 بالم ٤٢٦ .
 بجایة ١٤١ ، ٣٤ .
 بمحججي ٣٣٣ .
 بمنور ٥٣٦ .
 البحرين ١٩٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٤٠ .
 ٥٧٥ .
 بخاري ٩٥ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ٢١٠ .
 ٣٣٥ ، ٤١٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨١ .
 ٣٧٢ - ٣٧٥ .
 ٧١٣ ، ٤٣٦ .
 بخت ٤٨٩ .
 ٥٢٢ ، ٥٢٠ ، ٥١٠ ، ٥٠٧ .
 ٥٢٤ .
 بدر ١٤٢ ، ١٨٥ .
 بدر كوت ٤٩٨ ، ٥٠٠ .
 ٥٠٦ .
 بدفتن ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ .
 ٥٨٢ .
 بذاون ٤٢٢ .
 برتيلك ٣١٦ .
 برج بوره ٥٤٩ ، ٥٥٠ .
 ٣٠٠ .
 برجنين ٣٠٠ .
 بردماتة ٦٨٩ ، ٧٠٩ .
 بُردوه ٢٩٤ .
 برشانة ١٩٩ .

- بُرص ١١٧ .
 بُرضا ٣١٤ ، ٣١٥ .
 بُرغمة ٣١٣ .
 بُركة المترجم ١٨٧ .
 بِركي ٣١٠ ، ٣٠٦ .
 البرلس ٥١ .
 بُرلو ٣٢٢ .
 البرهنةكار ٤٢٧ .
 بَرْوَن ٥٥٦ ، ٥٥٣ ، ٣٩٧ .
 بَزد ٢١٩ .
 بَسْتا ٦٦١ .
 بسطام ٣٩٥ .
 بش بالغ ٦٥٧ ، ٣٨٣ .
 بُصري ١٢٥ ، ١٢٦ .
 البصرة ٦٤ ، ١٩٤ ، ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
 بلش ٦٨٣ ، ٣٥ .
 بلغار ٣٤٦ ، ٣٤٥ .
 البلقاء ١٢٦ .
 بلوذرة ٥٠٨ .
 بليانة ٦٦٨ .
 بلي كسرى ٣١٣ ، ٣١٤ .
 بنجالة ٤٣٨ ، ٤٧١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٨ .
 بعلبك ٩٩ ، ١٠٠ .
 بغداد ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١١٧ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ١٨٦ .
 بنج هير ٣٩٧ .
 بندر سلاوات ٦٠٧ .
 هرایج ٥٠٥ .

البهنسا (البهنسة) . ٢٨٩ ، ٦٦
بوش . ٢٩٠ ، ٦٦
بيانة . ٥٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٤٣
بيت الأهة . ١١٩
بيت لحم . ٣٦١ ، ٣٥٦ ، ٧٥
بروت . ٨٠ ، ٣٥٦ ، ٤٩٨ ، ٤٨٣ ، ٤٥٠ ، ٤٤٤ ، ٤٩٨ ، ٥٣٨ ، ٥٠٧ ، ٥٠٦ ، ٥٠٠
بيهق . ٣٨٩

ت

تاج بوره . ٥٤٧
تادلي . ٧٠٩
تازي . ٦٧٠
تاسرهلا . ٦٨٨
تانه . ٢٦٠
التبت . ٦٢٤
تبريز . ٩٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٢
تبوک . ١٢٧ ، ١٢٧ ، ٦٦٧
تدمر . ٦٦٣
تركستان . ٨٣ ، ٣٣٨ ، ٣٩٤ ، ٣٩٤ ، ٦٧٣ ، ٦٧٠ ، ٦٥٨
ترمذ . ٣٦٦ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٤ ، ٤١٦ ، ٥٢٠
تروجة . ٤٦
تسرت . ٢٠٢ - ٦٢٢ ، ٢٠٥
تساريف . ١٨٢
تعز . ٢٥٨

ث

التعلبة . ١٨٧

ج

الجام . ٤٨٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٠ .
جبر كاوان . ٦١١
جلة . ٩٧ ، ٩٥ ، ٢٩٠
الجحفة . ١٤٣
جدة . ٤٣ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ٦٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٢

٦

- خان بالق ، ٥٩ ، ٦٢٦ ، ٦٣٩ ، ٦٤٥ ،
 . ٦٥٧ ، ٦٥٥ .
 . ٣٧٣ . الختن

خراسان ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،
 ، ٢٣٥ ، ٣٠٠ ، ٢٨١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٧
 ، ٣٨٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٠ ، ٣٧٤ ، ٣٦٨

2

- الحاج ترخان ، ١٨٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣ ،
 . ٣٦٤
 حاسك (مرسي) . ٢٧٤
 حانسي . ٤٢٥ ، ٤٩٩ ، ٥١٢ .
 الحبشه . ٢٥٩ ، ٦٩٣ .
 الحجاز . ١١١ ، ٩٧ ، ٦٥ ، ٤١ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ١١٥
 ، ٢٠٩ ، ٢٠٣ ، ١٩٣ ، ١٦٧

- الدقهلية . ١٣٥
 دلاص . ٦٦
 دل دينة . ٦١١
 دمشق . ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ - ٩٩ ، ٨٩ ، ٨٣ - ١١ ، ١١٧ ، ١١٣ - ١٠٩ ، ١٠٥
 ، ٢١٤ ، ٢١٣ ، ٢٠٤ ، ١٢٥ - ١١٩ ، ١١٥ ، ١١٣ - ١٠٩ ، ١٠٥
 ، ٣٥٦ ، ٣٢٣ ، ٢٧٠ ، ٢٥٣ ، ٢٤٦
 ، ٥٥٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧١
 . ٦٦٥ - ٦٦٣ ، ٦٤٩ ، ٦٤٠
 دمشق الصغيرة . ٩٤
 دمنهور . ٤٧ ، ٤٦٦
 دمياط . ٥١ - ٦٦٦ ، ٢٩١ ، ٥٥ ، ٥٣
 دنقلة . ٦٩٣ ، ٦٩٤
 ده قتن . ٥٧٣ ، ٥٨٢
 دهلي . ١٤١ ، ١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٦٩ ، ١٩٥
 - ٤٢٥ ، ٤١٩ ، ٤١٤ ، ٣٧٠ ، ٤٢٤
 ، ٤٤٨ ، ٤٣٢ ، ٤٣٩ - ٤٣٩ ، ٤٣٠
 ، ٤٧٣ ، ٤٥٣ ، ٤٥١ ، ٤٥٠
 ، ٤٩٤ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٨١
 ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٤٩٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٦
 ، ٥٠٣ ، ٥٠١ ، ٤٩٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٦
 ، ٥٢٣ ، ٥١٥ ، ٥١٣ ، ٥١٢ ، ٥٠٧
 ، ٥٣٩ ، ٥٣٨ ، ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٥٢٤
 ، ٥٥٤ ، ٥٥٣ ، ٥٥١ ، ٥٥٠ ، ٥٥٨ ، ٥٥٧
 ، ٦١٤ ، ٥٩٤ ، ٥٨٨ ، ٥٥٨ ، ٥٥٧
 ، ٦٢٠ - ٦١٨ ، ٦٢٣ ، ٦٢٢ ، ٦٣١
 . ٦٦١ ، ٦٥٠
 دور أباد . ١٩٣
- ٤١٥ ، ٤٠٧ ، ٣٩٥ - ٣٨٧
 ، ٤٩٠ ، ٤٨٣ ، ٤٦٣ ، ٤٣٢ ، ٤١٦
 ، ٥٢٠ ، ٥٠٧ ، ٥٠٣ ، ٥٠٢ ، ٤٩٣
 . ٦٧٧ ، ٦٢٢ ، ٧١٣ ، ٦٥٤ ، ٥٢٤
 الخطأ . ٦٥٧ ، ٦٥٥ ، ٦٤١ ، ٤٦٨ ، ٣٧٣
 خليص . ١٨٥ ، ١٤٣
 الخليل . ٦٦٦ ، ٣٧٨ ، ٣٥٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣
 . ٦٦٧
 خنج بال . ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٢٨١ ، ٦٦١
 الخنساء (الخنساء) . ٥٤١ ، ٥٩ ، ٦٢٦
 . ٦٥٠ ، ٦٥٧ ، ٦٥٥ ، ٦٥٩
 خوارزم . ٢٢١ ، ٢١٠ ، ١٨٢ ، ٧٠ ، ٧٠
 - ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٦٧ - ٣٧١
 . ٦٤٠ ، ٣٧٣
 خور الخيزران . ٦٠٩
 خور السمك . ٦١
 خور فكان . ٢٨٠
- ٣
- داد . ٥٢٢
 دارا . ٢٤٦
 داريا . ١١٥
 دبابورو . ٤٤٨
 دبال بور . ٤٤٦
 دبيل . ٩١
 درعة . ٦٨٧
 دروازة بالم . ٤٢٧

- دوله أباد (الكتكة) . ١٩٢ ، ٤١٤ ، ٤٤١ ، ٣٥٧ ، ٣١١ .
- رومية . ٤٤٣ ، ٤٥٧ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥ .
- رَوْتَكْل . ٤٩٥ .
- الري . ٢٤٠ .
- ريغة . ٤١ .
- زاغة . ٦٩٣ .
- زاغري . ٧٠٦ ، ٦٩٣ .
- الزاوه . ٣٩٤ ، ٣٩٠ .
- الزبداني . ١٠٠ .
- زيد . ٢٥٧ ، ٢٥٦ .
- زرعة (أزرع) . ١٢٥ .
- زرود . ٢٤٩ .
- زكي . ٢٨٠ .
- زغاي . ٧١١ .
- الزيتون . ٦١١ ، ٥٧٦ ، ٥٤١ ، ٥٩ ، ٣٩ .
- الزيدین . ٦٤٨ ، ٦٤٥ ، ٦٥٨ .
- زيلع . ٢٦١ .
- س
- ساوة . ١٩٨ .
- سبتا . ٣٢٦ ، ٦٧٧ ، ١٦٧ .
- سجستان . ٢٣٨ ، ٢٨٤ ، ٣٩٢ .
- سجلامة . ٦٤٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧١٣ .
- السخنة . ٦٦٣ .
- سد كاوان . ٦٢٤ ، ٦٢٣ .
- السرا . ٣٣٠ ، ٣٥١ ، ١٨٢ ، ٥٩ .
- دو طوى . ١٥٦ .
- رابي . ٥٥٢ .
- رابغ . ١٤٣ ، ١٤٢ .
- رأس أبي محمد . ٢٨٩ .
- رامز . ٢٠٢ .
- رامين . ٢٤٠ .
- رباط الفتح . ٣٨٧ ، ٣٥٧ .
- الربوة . ١١٨ .
- الرحبة . ٦٦٣ .
- الرصافة . ٢٣٥ .
- الرملة . ٧٨ ، ١٠١ ، ٢٩٠ .
- رندة . ٦٨٥ ، ٦٨١ .
- الروحاء . ١٤٢ .
- الروم . ٢٩٠ .
- ذ
- د
- ر
- س

- ، ٤٤٧ ، ٤٤١ ، ٤٣٢ ، ٤٢٨ ، ٤٢٣ . ٥٣٦ ، ٥٣٥ ، ٣٧٠ ، ٣٦٤
 ، ٤٥٢ ، ٤٦٩ ، ٤٦٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٥ . سراجونق ٣٦٤
 ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٤٩٣ . سرادق ٣٩
 . ٥٤٠ ، ٥٢٦ ، ٥٢٢ ، ٥٠٨ . سرت ٣٨
 سندادي آس ٦٩٢ . السّرّاجة ٢٥٥ ، ٢٥٦
 سنديلة ٥٠٣ . سرخس ٣٩٤ ، ٣٩٠
 سزهکاوان ٦٢٤ ، ٦٢٧ . سرداق (سوداق) ٣٣٨
 سواكن ٢٥٣ ، ٢٥٤ . سردق ٣٥١
 . السودان ٧١ . سرستي ٤٢٥ ، ٤٦٩ ، ٤٩٩ ، ٤١٢
 سوسة ٣٧ . سر من رأى (سامترا) ٢٤٣
 سوستان ٥٤٠ . سرمين ٨٥
 سُونُس ٣٠٤ . سرياقص (سرياقوس) ٦٤ ، ٦١
 السويس ١٣٤ . سفاقص ٦٦٨
 سيراليون ٦٩٣ . سفالله ٢٦٦
 سيري ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٧٠ ، ٤٢٩ . سلا ٦٨١ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠
 سizar (سيزار) ٣٨٩ . السلطانية ٩٤ ، ٢٤٠
 سيناء ٧٢ . سمرقند ٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٨٤
 سيواس ٣٠٣ . ٧١٣ ، ٤٣٦ ، ٤١٦ ، ٣٨٥
 سيوستان ٣٩٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١١ . سمنان ٣٩٠
 . سمنود ٥٤ ، ٦٦٦
 ش سهل ٥٤١
 الشاليات ٥٨٣ ، ٢٦٠ سنجار ٢٤٦
 الشام ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٣ ، ٧٢ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٥٩ ، ٥٩ ، ١٧٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٢ ، ٤٣ ، ٤٣
 - ٨٢ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ٩٤ ، ٩١ ، ٨٩ ، ٨٦ ، ٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨١ ، ٣٣٥ ، ٢٨٣
 - ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١١ ، ١٠٦ ، ١٠٢ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٢ ، ٣٨٥
 ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٣ ، ٤١٠ ، ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٣
 ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ - ٤١٢ ، ٤٠٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٤

- صهيون ٣٦٦، ٩٢، ١٩١
 صور (مرسى على بحر المند) ٧٩، ٢٧٦.
 صوماء ٢١٣.
 الصومال ٢٦١.
 صيدا ٨٠.
 الصين ٣٩، ٤٣، ٥٩، ٢٢٧، ٢٧٢،
 ٣٤١، ٣١٥، ٣١١، ٣٣٨، ٣١٥
 ، ٣٧٣ - ٣٧١، ٣٧٠، ٣٦٨
 ، ٣٧٣، ٣٧٠، ٣٧٦
 ، ٥٤١، ٥١٣، ٣٨٠، ٣٧٩
 - ٥٧٥، ٥٧٤، ٥٧٢، ٥٥١، ٥٤٢
 ، ٥٨٧، ٥٧٧، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٤
 ، ٦٢٤، ٦٢٦، ٦٢٤، ٦٣٣
 ، ٦٣٩، ٦٤٦ - ٦٤٦، ٦٥١،
 ٦٣٧.
 صين كلان ٥٧٦، ٦٤٠، ٦٤٦، ٦٤٧.
ط
 الطائف ١٤٦، ١٥٦، ١٦٧.
 طبرية ٨٠.
 طرابلس (إفريقية) ٣٨، ٦٧٦.
 طرابلس (الشام) ٨٢، ٩٧، ٩٨،
 ٢٩٠.
 طغيمور ٢٤٠.
 طنجة ٣٣، ١٦٦، ١٦٧، ٢٥٠،
 ٦٤٩.
 طوالسي ٦٣٧، ٦٣٩، ٦٥٩.
 طوس ١٩١، ١٩٨، ٣٨٩، ٣٩٠،
 ٣٩٤.
- ٢٥١، ٢٤٧، ٢١٤، ٢٠٣، ١٩١
 ، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦،
 ٣٠٢، ٣٢٤، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧
 ، ٣٢٥، ٣٥٦، ٣٣٨، ٣٦٢، ٣٦٣
 ، ٣٦٦، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٩٤، ٦٦٣
 ، ٦٦٥، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٧.
 شونكارة ٤٦٧، ٤٦٨.
 شيا ٢٨٠.
 شيراز ٢١٢ - ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢
 ، ٢٢٥، ٢٢٣، ٢٤٠، ٢٢٧ - ٢٢٥
 ، ٢٩٣، ٢٤٠، ٤٦٧، ٤٦٥، ٣٨٢، ٣٠٤
ص
 صاغر ٥٥٨، ٥٦٠، ٥٦١.
 الصالحة ٧٢، ١١٦، ١١٧.
 صحار ٢٨٠.
 صرصر ٦٦٢.
 الصفا ١٣٣، ١٤٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٠
 ، ٢٤٩، ١٧٦، ١٧٢.
 صفاقس ٣٧، ٣٨.
 الصفراء ١٤٢.
 صفين ١١٤.
 صنصرة ٦٩٤.
 صنعاء ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٠.
 الصنمين ١٢٥.
 صنوب ٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢٦.

طيبة (الأقصر) . ٦٠
طيفي . ٢٧٨

ظ

ظفار الحموض (ظفار) . ٢٦٧ ، ١٠٧
. ٦٦١ ، ٥٩٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٣ ، ٢٦٩

ظفر آباد . ٥٠١

ظهار . ٥٥٨ ، ٥٥٧ ، ٤٩٦

ع

عاتة . ٦٥٥

عبادان . ٢٠١ ، ٢٠٠

عجلون . ٦٦٥ ، ٧٩

المجم الأعاجم . ١٦٤ ، ٣٧٨ ، ٣٦٨

عدن . ٢٦٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٠ ، ١٦٨

العذيب . ١٨٨

العراق . ٤٨ ، ٤٩ ، ٩٤ ، ٩٣ ، ٤٩ ، ١٠٢

. ١٦٤ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١١٨ ، ١١٧. ١٧٤ ، ١٨٨ ، ١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨١ ، ١٧٤. ٢٠٥ ، ١٩٧ ، ١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٩١. ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢١٨ ، ٢١٤ ، ٢٠٦. ٢٢٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩. ٣٠٥ - ٣٠٢ ، ٣٠٠ ، ٢٨٤ ، ٢٦٦. ٣٢٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦. ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩. ٤٥٧ ، ٤٠٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٣٩٠. ٥٧٩ ، ٥٣٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٠ ، ٤٦٨. ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٧٧ ، ٦٧٠ ، ٦٧٧

ال العراقيين . ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢٨١
. ٣٤٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٠٧ ، ٣٧٨ ، ٣٦٣
. ٣٩٥

العراق العجم . ٩٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٠

العراق العرب . ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٠٢

عسفان . ١٤٣ ، ١٨٥

عسقلان . ٧٨

العسكرية . ٥٤

العطراوي . ٧١

عقبة اسكندر . ٦١٠

عقبة أيلة . ١٢٦ ، ٦٦٧

عقبة السوق . ١٤٣

عقبة الصوان . ١٢٦

العقر . ٢٤٣

العقيق . ١٤١

عكفة (عكا) . ٧٩ ، ٨٠ ، ٢٩٠

العلا . ٦٦٧ ، ١٢٧

علابور . ٥٥٢ ، ٥٥١

العلايا . ٢٩١ ، ٢٩٠

عمان . ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠

. ٥٧٣ ، ٣٣٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨١

. ٦٦١

العمق . ٩٢

عنتاب . ٦٦٤

عوض . ٥٠١

عيذاب . ٤٣ ، ٧٢ - ٧٠ ، ٨٣ ، ٢٥٣

. ٦٦٧ ، ٢٨٩

عين الرصد . ٢٤٥

فندارينه . ٢٦٠

فندرينا . ٥٨٢ ، ٥٧٥

فيكية . ٣٥٣ ، ٣٢٣

فوا . ٤٧

فوجة . ٣١٢

فiroزان . ٢١٠

غات . ٧١٣

غرناطة . ٣٣ ، ١٩٣ ، ١٤١ ، ١٤٠

. ٦٨٣ ، ٦٩٢ ، ٦٨٥

غزة . ٧٣ ، ٦٦٧ ، ٢٩٠ ، ٧٧

غزنة . ٣٨٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣

. ٥٠٧ ، ٥٠٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧١

غضنة . ٢٥٧

غور الشام . ٣٩٠

غوطة كاه عارفان . ٦١٠

ق

قبس . ٦٦٨ ، ٣٨ ، ٣٧

القادسية . ١٨٨

فاشان . ٢٤٠ ، ١٩٨

قاقلة . ٦٣٥ ، ٦٣٣

قاليقوط . ٣٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٠ ، ٥٧٠

، ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٥

. ٦٦١ ، ٦٢١ ، ٥٨٣ ، ٥٨١

القاهرة . ٥٤ ، ٦١ ، ٧١ ، ٦٥ ، ٦١

. ٦٦٧ ، ٦٦٦ ، ١١٦

قباء . ١٣٩

قتوج . ٤٢٥

القحة . ٢٥٦

القدس (بيت المقدس) . ٧٧ ، ٧٥ ، ٧٤

، ١٢٢ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١١٥

، ٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٥٦ ، ٢٩٠

. ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٣٧٨

قرأ أخاج . ٢٩٦

. ٢١٦ ، ٩٤

غ

غات . ٧١٣

غرناطة . ٣٣ ، ١٩٣ ، ١٤١ ، ١٤٠

. ٦٨٣ ، ٦٩٢ ، ٦٨٥

غزة . ٧٣ ، ٦٦٧ ، ٢٩٠ ، ٧٧

غزنة . ٣٨٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣

. ٥٠٧ ، ٥٠٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧١

غضنة . ٢٥٧

غور الشام . ٣٩٠

غوطة كاه عارفان . ٦١٠

ف

فارس . ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ ، ٢١٩ ، ٢١٥

، ٤٦٣ ، ٣٣٥ ، ٣٤٦ ، ٤١٢ ، ٢٨٦

. ٥٧٥ ، ٥٧٣ ، ٥٧١ ، ٤٦٨

فارسكور . ٦٦٦ ، ٥٣

فاس . ٣٨ ، ٣٩٥ ، ٢٥٩ ، ٢٤٥ ، ٦٧٠

. ٧١٥ ، ٧١٣ ، ٦٨٦ ، ٦٧٦

فاكتور . ٢٦٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧١ ، ٥٨٢

. ٦٢٠

فتن . ٥٧٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨

. ٦٢٠

فربر . ١٢٤

فرغان . ٢٤٠

فرغاني . ٤٨٩

الفسطاط . ٥٤ ، ٦٠

- قرافر ٣٨٣ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ .
القرم ١٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٣ .
قونية ٣٠١ ، ٣٠٠ .
القريات ٢٨٠ .
قري منسا ٧٠٦ .
قرية بني رياح ٦٨٥ .
- ك**
- القدسية ٣٥ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ٣١١ .
كابرية ٦٩٣ .
كابل ٣٩٨ .
كارزي ٦٦١ .
كارسخو ٦٩٤ .
казرون ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٦ .
كاشغر ٣٧٣ .
كاهر ٧١٢ .
كاوي ٥٦٣ .
كاوية ٣١٧ ، ٣١٨ .
كبان ٦١٧ .
كبح ٣٨٢ ، ٢٤٠ .
كبنوك ٣١٨ .
كرا ٤٤٠ .
كرامانكبور ٤٤٠ .
كريلاء ٣٧٠ ، ٢٣٠ .
كردي بولي ٣٢٢ ، ٣٢١ .
كرلله ٣١٦ .
كرمان ٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٢٤٠ ، ٤٣٠ .
كُرمي ٦١١ .
الكسوة ١٢٥ .
- القطائع ٥٤ .
قفحق ٥٩ ، ٦١ ، ١٧٠ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ .
قل حصار ٢٩٥ ، ٢٩٦ .
قلهات ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
قليلعة ٢١٤ .
قم ١٩٨ ، ٢٤٠ .
قمارة ٦٣٣ .
قنا ٢٨٩ ، ٧٠ .
قنجنفو ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٩ ، ٦٨٦ .
قندهار ٣٩٨ ، ٥٦٣ .
قندوس ٣٩٥ ، ٣٩٦ .
قنسرين ٩٠ ، ٩١ .
قنة ٥٥٠ .
قنج ٥٠٣ ، ٥٠٢ .

- كشك زر ٦٦٢ .
 الكعبة الشريفة (البيت العتيق) ١٣٣ ،
 ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ -
 ٢٤٩ ، ٢٤٩ ، ١٨٤ .
 الكفأ ٣٢٨ .
 الكفار ٣٣٨ .
 كلبا ٢٨٠ .
 كلنبو ٦١٣ .
 كلنوس ٦٢١ .
 كلؤا ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
 كليل ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٦٢ .
 كميش ٣٠٤ .
 كبات (كتبابة) ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٦٠ ،
 ٤٦٣ - ٤٦٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
 ٥٦٣ - ٥٦١ ، ٥١١ - ٥٠٨ .
 كتبيل ٥٠٢ .
 كنجي كري ٥٧٩ .
 كندكل ٥٨٤ .
 كنكار ٦٠٨ .
 كهف آدم ١١٨ .
 كوب ٦٥٨ ، ٧١١ .
 كوتاهية ٢٩٦ .
 كورستان ٢٨٤ ، ٢٨١ .
 الکوفة ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ -
 ٢٤٣ ، ٢٤٣ ، ٥٧٢ ، ٢٤٩ ، ٢٤٣ .
 كوكو ٧٠٥ ، ٧٠٩ .
 كول ٥٤٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٤٨٨ .
 كولم ٥٧٨ ، ٥٧٢ ، ٥٦٨ ، ٢٦٠ ، ٣٩ ،
 ٥٨١ ، ٥٩٨ ، ٦٢٠ ، ٦٤٠ ، ٦٦٠ .
 كيل ٦٦١ .
 كيلير ٥٥٢ .
 كيش ٢٤٠ .
 كيلوكري ٦٣٧ ، ٦٣٨ .
 ل
 لاذق (دون غزله) ٢٩٨ ، ٢٩٦ .
 اللاذقية ٧٩ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .
 الالار ٢١٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ .
 الالارنة ٣٠١ .
 الاهري ٤١٢ ، ٤١١ .
 الاهور ٤٣٣ ، ٤٩٧ .
 اللجون ١٢٦ .
 اللكتوني ٤٣٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥١ .
 الالور ٦٦٣ ، ٢٩٥ .
 ليبيا ٢٨٠ .
 ليبريا ٦٩٣ .
 م
 مابين ٢١٣ .
 الماجر ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ .
 ماجول ٢٠٢ .
 ماردین ٢٤٧ .
 مازونة ٦٦٩ .
 كشك زر ٦٦٢ .
 الكعبة الشريفة (البيت العتيق) ١٣٣ ،
 ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ،
 ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ -
 ٢٤٩ ، ٢٤٩ ، ١٨٤ .
 الكفأ ٣٢٨ .
 الكفار ٣٣٨ .
 كلبا ٢٨٠ .
 كلنبو ٦١٣ .
 كلنوس ٦٢١ .
 كلؤا ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
 كليل ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٦٢ .
 كميش ٣٠٤ .
 كبات (كتبابة) ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٦٠ ،
 ٤٦٣ - ٤٦٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
 ٥٦٣ - ٥٦١ ، ٥١١ - ٥٠٨ .
 كتبيل ٥٠٢ .
 كنجي كري ٥٧٩ .
 كندكل ٥٨٤ .
 كنكار ٦٠٨ .
 كهف آدم ١١٨ .
 كوب ٦٥٨ ، ٧١١ .
 كوتاهية ٢٩٦ .
 كورستان ٢٨٤ ، ٢٨١ .
 الکوفة ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ -
 ٢٤٣ ، ٢٤٣ ، ٥٧٢ ، ٢٤٩ ، ٢٤٣ .
 كوكو ٧٠٥ ، ٧٠٩ .
 كول ٥٤٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٣ ، ٤٨٨ .
 كولم ٥٧٨ ، ٥٧٢ ، ٥٦٨ ، ٢٦٠ ، ٣٩ ،
 ٥٨١ ، ٥٩٨ ، ٦٢٠ ، ٦٤٠ ، ٦٦٠ .
 كيل ٦٦١ .
 كيلير ٥٥٢ .
 كيش ٢٤٠ .
 كيلوكري ٦٣٧ ، ٦٣٨ .
 ل

- المرية . ٦٨٤

المالق . ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٥

مالقة . ٦٨٥

المالوه . ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٧٦ ، ٥٥٧

مالي . ٢٩١ ، ٢٩١ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ - ٧٠١ ، ٧٠٩ ، ٧٠٧ ، ٧٠٤

ماورة النهر . ٤٦٩ ، ٣٧٦ ، ٣٣٨ .

ماين . ٦٦٢

متة . ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦١٧ ، ٦١٩

المحلة الكبرى (الكبيرة) . ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤

مشهد الرضا . ٣٩٤

مدرومة . ٦٦٩

مصر (الديار المصرية) . ٤١ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٧ ، ٥٣ - ٥١ ، ٤٩ ، ٧٠ - ٦٥ ، ٦١ ، ٥١ ، ٤٧

المدينة البيضاء . ٦٧٧ ، ٦٧٦

المدينة المنورة ، مدينة الرسول (طيبة) . ٤٢

مرالظهران (بطن مر) . ١٤٣ ، ١٨٤ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٤٥

مراغة . ٩٤

مراكش . ٦٨٥ ، ٦٨٦

مربلة . ٦٨٢ ، ٦٨١

مرهوة . ٥٥١

المرهنة . ٤٤٠

مرزو . ٣٨٨

المروة . ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٥ ، ١٧٢ ، ٦٣٩ ، ٦٦٨ ، ٦٦٦ ، ٦٦٥ ، ٦٤١ ، ٦٧١ ، ٦٧٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٧

- . ٦٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٣٠ . ٧١٣ ، ٧١٠
- متكلجاً . ٣١٧ . مصياف . ٩٣
- مكران . ٣٨٢ ، ٢٤٠ . مطربني . ٣١٩ ، ٣١٨
- مكناسة . ٧٠٩ ، ٦٨٦ ، ٦٦٣ . المطرية . ١٣٥
- الملاحين . ٢٤٨ . معان . ١٢٦
- ملتان . ٣٩٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨١ ، ١٩٢ . المغير . ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦
- ، ٤٣٧ ، ٤١٨ - ٤١٤ ، ٤١١ ، ٤٠٥ ، ٤٩٨
- ، ٤٩٣ ، ٤٨٦ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٢ ، ٥١٢ ، ٤٩٩
- ، ٥٣٧ ، ٥٠٨ ، ٥٩٣ ، ٥٨٣ ، ٥٦٨ ، ٥٥٧ ، ٥٥٦
- مليطين (بلطيم) . ٥٠ . ٦١٤ ، ٦١٣ ، ٦٠٣ ، ٦٠٢ ، ٥٩٥
- ملك بور . ٥٢٢ . ٦١٧
- مليانة . ٣٤ . المغرة (مغرة النعسان) . ٨٤ ، ٦٦٤
- المليبار . ٥٧١ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٦٨ . مغاراة الأصفهاني . ٦١٠
- ، ٥٩٨ ، ٥٧٩ ، ٥٩٥ ، ٥٧٨ ، ٥٧٣ . مقامس . ٢٠٠
- ، ٧٩٠ . المقرب . ٣٩ ، ٤١ ، ١٤٣ ، ٨٢ ، ٤١ ، ١٧٢ ، ١٤٣
- منى . ١٤٥ ، ١٨٣ ، ١٨١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ . ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٣٥٧ ، ٣١٥ ، ١٩٤
- منار مندي . ٦٠٦ . ، ٣٧٢ ، ٣٩٤ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ ، ٥٢٠
- منبع . ٩٠ . ، ٦٧٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٠ ، ٦٤٠ ، ٥٧٢
- مبسي (مبستا) . ٢٦٥ . ، ٦٧٩ ، ٦٨١
- منجورر . ٥٨٢ ، ٥٧١ ، ٢٦٠ . مغربية . ٣١٢
- منف . ٦٠ . مكة . ٤٥ ، ٤٥ ، ٦٨ ، ١١٨ ، ١٣٣ ، ١٣٦
- منفلوط . ٢٨٩ . ، ١٤٣ ، ١٤١ ، ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٣٧
- منكبور . ٤٧٤ . ، ١٧٥ - ١٦٠ ، ١٥٧ ، ١٥٦ ، ١٥٥
- منلوى (ملوى) . ٢٨٩ ، ٦٨ . ، ١٧٢ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٦٨ ، ١٦٧
- منوف . ٥٠ . ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٧ - ٢٤٩ ، ٢٥٥
- المنية، المانيا (منية ابن الخطيب) . ٦٦ ، ٥٣ . ، ٢٨٨ ، ٤٤٤ ، ٤٢٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٤ ، ٢٨٨

- نهر واللة ٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٥٠٨ .

نيسابور ٣٩٤ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣١١ .

نيتوى ٢٤٤ .

هـ

هجر (الحسا) ٢٨٧ .

هرة ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢ .

هرمز (موغ أستان) ١٧٠ ، ٢٤٠ ، ٢١٧ .

هزار أسطون ٥٢٢ .

هزار أمروها ١٩٥ ، ٥٣٦ .

هكار ٧١٣ .

هلي ٦٢١ .

همدان ٢٤٠ .

هنج ٢١٧ .

الهند ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ١٢٢ .

- ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٧١ - ١٦٨ ، ١٤١ ، ١٩٢ ، ١٩٠ .

- ٢٢٠ ، ٢١٧ ، ٢٠٠ ، ١٩٣ ، ٢٥٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٢٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٤ - ٣٧٣ .

الموصل ١٨٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ - ٢٤٢ .

مولي ٦٩٣ .

المولحة ٢٤٥ .

ميلاس ٢٩٩ .

مبيمة ٧٠٤ ، ٧٠٦ .

ميسمن ٦٦١ ، ٢١٦ .

ن

نابللس ٧٨ .

نبلان ٢١٠ .

نذر بار ٥٦٠ .

نجد ١٨٥ ، ١٨٦ .

النجف ١٨٨ .

نخلة ٥٠٨ .

النحرارية ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٦٦ .

نخشب ٣٧٥ .

نزروا (نزوی) ٢٧٩ .

نسترو ٥٠ .

نصف ٣٨٥ .

نصيبين ٢٤٦ .

نكدة ٣٠٢ .

- . وادي بحسر ١٨٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ .
 . وادي المنصورة ١٩٩ .
 . وادي نخلة ١٤٦ ، ١٦٠ .
 . واسط ١١٤ ، ١٩٤ - ١٩٦ .
 . وبكنة ٣٧٢ .
 . وجدة ١٤٥ .
 . ورقو ٢٤٠ .
 . ورنا ٣٨٤ ، ٣٩٠ .

ي
 الياميان (الياميان) ٣٧٤ .
 يخت ٢٢١ .
 يزد ٢٤٠ .
 يزد خاص ٢١٣ ، ٦٦٢ .
 يزمير (إزمير) ٣١١ .
 يزنیک ٣١٦ .
 الیامة (حجر) ٢٨٨ .
 اليمن ٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٩
 ، ٢٦٩ - ٢٥٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩
 ، ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٧ ، ٣٣٥
 ، ٤١٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٥٣٠ ، ٥٧١
 ، ٥٨٨ ، ٥٨٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٣
 . ٦٧٠ ، ٦٤٦ ، ٦٢٠ ، ٦٠٥
 ينجا ٣١٧ ، ٣١٨ .
 يوفي ٢٦٦ .
- ١، ٣٩٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٨٦
 ، ٤٠٨ - ٤٠٦ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٤
 ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٨ - ٤١٠ ، ٤٢٢
 ، ٤٣٦ ، ٤٣٤ ، ٤٣٣ ، ٤٢٦ - ٤٢٤
 ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥
 ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٤
 ، ٤٨١ ، ٤٨٨ ، ٤٩٥ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥١٧
 ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٨ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥
 ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٢
 - ٥٧١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٠
 ، ٦٠٢ ، ٥٨٧ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٧٤
 ، ٦١٤ ، ٦٢٤ ، ٦٣٩ ، ٦٤٤ - ٦٤٣
 ، ٦٤٦ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٦٣
 ، ٦٦٩ ، ٦٧٢ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ .
 هند خير ٣٩٥ .
 هيتور ٢٦٠ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ - ٥٨٣ .
 . ٦٢٠ .
 هو ٦٩ ، ٢٨٩ .
 هيٰت ٦٦٣ .
 هيٰلي ٥٧٢ ، ٥٨٢ .

و
 وادي سلا ٢٠٠ . ٣٥٧
 وادي السمك ١٨٥ .
 وادي العروس ١٨٥ .
 وادي كرمة ١٩٣ .

فهرس

الأنهار والبحار والجبال والجزر والخصون والصحاري

- الأنهار
- آب حياة ، ٦٣٩ ، ٦٤٦ .
أبسمى . ٣٥٧ .
أتل . ٣٦٦ ، ٣٦٣ .
الأزرق . ٦٢٧ ، ٢٠٢ .
الأسود . ٣٠٢ .
اصطفيلى . ٣٥٣ .
الوصو . ٣٦٤ .
بلخشان . ٢٠٣ .
بنج آب . ١٩١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ .
تورة . ١١٨ .
الجون . ٥٩ ، ٤٣٥ ، ٤٨٣ ، ٥٥٤ ، ٦٢٣ .
جيون . ٥٨ ، ٥٩ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
النيل . ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ .
دجلة . ٥٩ ، ٢٠٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ .
دجيل . ٢٤٣ .
ركن آباد . ٢١٣ .
- السرور ، السرو . ٦٣٩ .
السرور ، ٥٣٦ ، ٥٠٥ ، ٥٣٩ .
السرور . ١٩٦ .
سيخون . ٥٨ ، ٥٩ .
شنيل . ٦٨٣ .
العاشي . ٨٤ ، ٨٧ ، ٩١ .
الفرات . ٥٨ ، ٥٩ ، ١٨٨ ، ٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٤ .
. ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٢٩ ، ٢٠٠ .
قويق . ٨٧ .
الكنك (نهر الفانج) . ٥٩ ، ٤٢٤ ، ٤٠٦ .
. ٤٣٨ ، ٤٨٣ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٣٩ .
. ٦٢٣ .
اللجنون . ٥٥٢ .
النيجر . ٦٩٣ .
. ٧٢ ، ٧١ ، ٤٣١ ، ٤٠٥ ، ٢٨٩ .
النيل . ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ .
. ٢٣٧ ، ٢٣١ ، ٢٠٠ ، ٥٩ .
. ٧٠٥ ، ٦٩٣ ، ٦٣٩ .
. ٧٠٧ ، ٧٠٨ .

- البحار**
- بحر فارس . ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ . ٢٨٦
- قزوين . ٥٧٩
- البحر الميت (بحيرة لوط) . ٧٤
- البحر الهندي (بحر الهند) . ٢٨٦ ، ٢٦٧ . ٢٨٦
- بحر اليمن . ٢٨٦
- الجبال**
- أبو قبيس . ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٨٠ . ١٥٨
- أحد . ١٤٠
- الأحر . ١٤٥ ، ١٥٨ . ٩٩
- بدخشان . ٥٢٠ ، ٣٩٧ ، ٣٨٧ . ٣٩٧
- بشاي . ٣٩٧
- ثير . ١٥٨
- ثور . ١٥٨
- جاناته . ٦٧٦
- الجودي . ٢٤٥
- حراء . ١٣٧ ، ١٥٨ . ٣٤
- السبيكة . ٦٨٥
- جبل طارق . ١٩٣
- الطبول . ١٤٢
- عرفة . ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٨١ . ٦٨٠ ، ٦٧٩ ، ٦٧٧
- الفتح ، الفتحين . ٦٨٥ ، ٦٨١
- قاسيون . ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ . ٦٦٩
- الجزر**
- أوال . ٢٨٧
- بالبور . ٥٨٣
- برويدو . ٥٨٤
- بيرم . ٥٦٤
- تلاديپ . ٥٨٣
- تلمتي . ٥٨٤
- التيم . ٥٨٤
- جاوية (الجاوه) . ٥٧٥ ، ٥٨٣ ، ٦٢٧ . ٦٢٤
- ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٤ ، ٦٥٩ . ٦٧٣ ، ٦٧٠
- جربة . ٤١ ، ٦٦٨ .
- الجزيرة الخضراء . ١٩٣
- ذيبة المهل . ٢٢٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٤٢٠ . ٥٧٥ ، ٥٦٨ ، ٥٥٧ ، ٥٠١ ، ٥٨٣ . ٦٢١ ، ٦١٥ ، ٦٠٤ ، ٦٠٠ ، ٥٩٠ . ٦٢٨
- سردانية . ٦٦٩

- سرندیب ٣٢٣، ٣١٥، ٥٩٣، ٦٠٤ .
 جمبر ١٢٥ .
 ذکوان ٦٨٥ .
 الرابط ٦٨٢ .
 شُغر بکاس ٩٢ .
 طواس ٢٩٨ .
 العلیقة ٦٣ .
 قدموس ٩٣ .
 القُصیر ٧٩، ٩٢، ٢٨٩ .
 کالیور ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٩٧ .
 . ٥٥٣، ٥٤٣
 الکرك ١٣٥، ٩٩، ١٢٦ .
 المرب ٩٩ .
 المینقة ٩٣ .
 هرکاتو ٦١٤ .
الصحاری
 أبوهر ٤١٨، ٤٢١، ٤٩٣ .
 أبوشنج ١٢٤، ٣٩٠ .
 برغیس (بدغیس) ٣٩١، ٣٩٠ .
- سقطرة ١٦٨ .
 سُمطرة ٦٢٣، ٦٢٠، ٦٥٩ .
 سندابور ٢٦٠، ٢٩٠، ٥٥٨، ٥٦٤ .
 . ٥٨٣ - ٥٨١، ٥٦٧، ٥٦٦ .
 السوید ٥٩١، ٥٨٤ .
 سیلان ٢٢٣، ٢٢٤، ٥١١، ٥٧٨ .
 . ٥٧٥، ٥٨٣، ٥٩٥، ٥٩٧، ٦٠٤ .
 . ٦٢١، ٦٠٨، ٦٠٥ .
 الطیر ٢٧٥ .
 قیس ٦٠٦، ٢٨٣ .
 کارایدو ٥٨٤ .
 کش ٦٠٦ .
 کلیوس ٥٨٣، ٥٩٣ .
 مصریة ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦ .
 ماؤک ٦٠٤، ٦٠٢، ٥٨٤ .
 هلدمتی ٥٨٤ .
- الخصوص**
 حصن الأکراد ٨٣ .
 بُغراں ٩٢، ٩١ .

فهرس المحتويات

الصفحة

الموضوع

٥	بين يدي الكتاب
١٣	ابن بطوطة
٢٣	ابن جزي
٢٥	تعليق ابن خلدون على الرحلة
٢٩	مقدمة الرحلة
٣٢	بدء الرحلة والخروج من طنجة
٣٦	ذكر سلطان تونس
٣٩	ذكر أبواب الإسكندرية ومرساها
٣٩	ذكر المنار
٤٠	ذكر عمود السواري
٤١	ذكر بعض علماء الإسكندرية
٤١	حكاية الفأل الحسن
٤٢	كرامة لأبي الحسن الشاذلي
٤٣	ذكر حزب البحر المنسوب إليه
٤٥	حكاية المشاجرة بين المسلمين والنصارى
٥٢	حكاية لحية الشيخ جمال الدين
٥٦	ذكر مسجد عمرو بن العاص

٥٧	ذكر قرافة مصر ومزاراتها
٥٨	ذكر نيل مصر
٥٩	ذكر الأهرام والبرابي
٦١	ذكر سلطان مصر
٦١	ذكر بعض أمراء مصر
٦٣	ذكر القضاة بمصر
٦٣	حكاية الملك الناصر ونظره في المظالم
٦٤	ذكر بعض علماء مصر وأعيانها
٦٥	ذكر يوم المحمل
٦٦	حكاية خصيب
٦٨	حكاية منبر الملك الناصر
٦٦	ذكر المسجد المقدس
٦٦	ذكر قبة الصخرة
٧٧	ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس
٧٧	ذكر بعض فضلاء القدس
٨١	حكاية أبي يعقوب يوسف
٩٢	حكاية الملك الناصر والأمير حسام الدين
٩٣	حكاية تتبع الملك الناصر لقتلة أخيه
٩٥	حكاية أدهم الزاهد
٩٦	حكاية الم Heidi الكاذب
٩٨	حكاية ابن المؤيد المجاء
٩٩	حكاية الصالحين اللبنانيين وحار الوحش
١٠٤	ذكر جامع دمشق المعروف بجامعبني أمية
١٠٩	ذكر الائمة بهذا المسجد

الموضوع

الصفحة

١٠٩	ذكر المدرسين والمعلمين به
١١٠	ذكر قضاة دمشق
١١١	حكاية الفقيه ابن تيمية
١١٢	ذكر مدارس دمشق
١١٢	حكاية الشيخ الصالح ظهير الدين
١١٣	ذكر أبواب دمشق
١١٤	ذكر بعض المشاهد والمزارات بها
١١٤	حكاية في سبب تسميته بذلك
١١٦	حكاية الطاعون الأعظم بدمشق
١١٦	ذكر أرباض دمشق
١١٧	ذكر قاسيون ومشاهدة المباركة
١١٨	ذكر الربوة والقرى التي توالىها
١١٩	ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها
١٢٠	حكاية الملوك الصغير والصحفة
١٢٢	ذكر ساعي بدمشق ومن أجازني من أهلها
١٢٨	طيبة مدينة الرسول ﷺ
١٢٩	ذكر مسجد رسول الله وروضته الشريفة
١٣٠	ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم
١٣٣	ذكر المنبر الكريم
١٣٤	ذكر الخطيب والإمام بمسجد رسول الله
١٣٤	حكاية سراج الدين قاضي المدينة وخطيبها
١٣٥	ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به
١٣٥	حكاية الشيخ الذي جبَّ نفسه
١٣٦	ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة

١٣٧ حكاية الشيخ الذي ضاع في الجبال
١٣٧ حكاية أبي العباس الفاسي الذي عثر به لسانه
١٣٨ ذكر أمير المدينة الشريفة
١٣٨ ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة
١٤١ حكاية رؤيا علي بن حجر
١٤٥ ذكر مدينة مكة المعظمة
١٤٦ ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه
١٤٧ ذكر الكعبة المعظمة الشريفة
١٤٨ ذكر المizarب المبارك
١٤٩ ذكر الحجر الأسود
١٥٠ ذكر المقام الكريم
١٥٠ ذكر الحجر والمطاف
١٥١ ذكر زمزم
١٥٢ ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة
١٥٤ ذكر الصفا والمروة
١٥٥ ذكر الجبانة المباركة
١٥٦ ذكر بعض المشاهد خارج مكة
١٥٧ ذكر الجبال المطيبة بمكة
١٦٠ حكاية الفقيهين اللذين ضلوا طريقها
١٦١ ذكر أميري مكة
١٦١ ذكر أهل مكة وفضائلهم
١٦٢ ذكر قاضي مكة وخطيبها
١٦٣ حكاية مباركة
١٦٤ حكاية قطع يد البارق

الصفحة	الموضوع
١٦٥	ذكر المجاورين بمكة
١٦٧	حكاية في فضيلة
١٦٨	حكاية الشيخ سعيد الهندي
١٧١	حكاية حسن المجنون
١٧٢	ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أثتمهم
١٧٣	ذكر عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة
١٧٤	ذكر عادتهم في استهلال الشهور
١٧٥	ذكر عادتهم في شهر رجب
١٧٦	ذكر عمرة رجب
١٧٨	ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان
١٧٩	ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم
١٨٠	ذكر عادتهم في شوال
١٨٠	ذكر إحرام الكعبة
١٨١	ذكر شعائر الحج وأعماله
١٨٣	ذكر كسوة الكعبة
١٨٤	ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى
١٨٨	ذكر الروضة والقبور التي بها
١٩٠	ذكر نقيب الأشراف
١٩٠	حكاية الشريف أبي غرة
١٩٤	مدينة واسط
١٩٥	حكاية الرقص على النار
١٩٦	مدينة البصرة
١٩٨	حكاية اعتبار

الصفحة	الموضوع
١٩٩	ذكر المشاهدة المباركة بالبصرة
٢٠٤	حكاية الشيخ الكرم
٢٠٥	ذكر ملك إيدج وتسير
٢٠٦	حكاية عادات أهل إيدج
٢٠٧	حكاية جنازة ابن السلطان
٢١١	كرامة لهذا الشيخ
٢١٥	حكاية هي تسبب في تعظيم هذا الشيخ
٢١٧	ذكر سلطان شيراز
٢٢١	حكاية ملك الهند مع الخراسانيين
٢٢١	حكاية تناسها
٢٢٢	ذكر بعض المشاهد بشيراز
٢٢٣	كرامة لهذا الشيخ
٢٢٥	حكاية الشيخ في شيراز
٢٢٧	كرامة لبعضهم
٢٢٨	مدينة الكوفة
٢٣١	مدينة بغداد
٢٣٣	ذكر الجانب الغربي من بغداد
٢٣٤	ذكر الجانب الشرقي منها
٢٣٥	ذكر قبور الخلفاء ببغداد
٢٣٦	ذكر سلطان العراقين وخراسان
٢٤٠	ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد
٢٤٤	مدينة الموصل
٢٤٧	ذكر سلطان ماردین في عهد دخولي إليها
٢٤٨	حكاية القاضي الذي أنصف المرأة

الموضوع

الصفحة

٢٥٢	حكاية الأعمى والخاتم
٢٥٢	حكاية العديلة التي فيها عشرة آلاف درهم
٢٥٤	ذكر سلطانها
٢٥٥	ذكر سلطان حل
٢٥٧	كرامة الشيخ أحد بن العجيل
٢٥٨	ذكر سلطان اليمن
٢٦٠	حكاية الكبش الذي اعتق عبداً
٢٦٢	ذكر سلطان مقدشو
٢٦٦	ذكر سلطان كُلُوا
٢٦٦	حكاية من مكارمة
٢٧٠	ذكر التنبول
٢٧١	ذكر النارجيل
٢٧٣	ذكر سلطان ظفار
٢٧٤	ذكر ولی لقيناه بهذا الجبل
٢٧٦	كرامة للحاج خضر المندی
٢٨٠	ذكر سلطان عُمان
٢٨٠	حكاية السلطان مع المرأة التي أغواها الشيطان
٢٨٢	حكاية سلطان هرمز
٢٨٤	حكاية الفقراء في مدينة لار
٢٨٥	ذكر سلطان لار
٢٨٦	ذكر مغاص الجوهر
٢٨٨	حكاية الجارية التي وهبها الملك الناصر لبكتمور
٢٩١	ذكر سلطان العلايا
٢٩٢	ذكر الأخية الفتيان

الصفحة	الموضوع
٢٩٤	ذكر سلطان أنطاليا
٢٩٥	ذكر سلطان أكريدور
٢٩٦	ذكر سلطان قُل حصار
٢٩٨	ذكر سلطان لاذق
٢٩٩	ذكر سلطان ميلاس
٣٠١	حكاية مولانا جلال الدين الرومي
٣٠١	ذكر سلطان الـ ^{الـ} إيزندة
٣٠٦	ذكر سلطان بركي
٣٠٩	حكاية الطبيب اليهودي
٣٠٩	حكاية أخرى: الحجر الذي نزل من السماء
٣١٢	ذكر سلطان مغنيسية
٣١٣	ذكر سلطان برغمة
٣١٤	ذكر سلطان بلي كسري
٣١٥	حكاية الفقير الذي مات ليلة عاشوراء
٣١٥	ذكر سلطان برصا
٣٢٠	حكاية الحاج السارق
٣٢٢	ذكر سلطاناتها
٣٢٤	ذكر سلطان قصطمونية
٣٢٧	حكاية الروافض الذين لا يأكلون الأرانب
٣٢٩	حكاية الراهب الذي يفطر على حبة فول
٣٣٠	ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد
٣٣٨	ذكر السلطان المعلم محمد أوزبك خان
٣٤٠	ذكر الخواتين وترتيبهن
٣٤١	ذكر الخاتون الكبرى

الموضوع

الصفحة

٣٤٢	ذكر الخاتون التي تلي الملكة
٣٤٢	ذكر الخاتون الثالثة
٣٤٣	ذكر الخاتون الرابعة
٣٤٣	ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك
٣٤٤	ذكر ولدي السلطان
٣٤٥	ذكر سفري إلى مدينة بلغار
٣٤٥	ذكر أرض الظلمة»
٣٤٦	ذكر ترتيبهم في العيد
٣٥٠	ذكر سفري إلى القسطنطينية
٣٥٥	ذكر سلطان القسطنطينية
٣٥٧	ذكر المدينة
٣٥٨	ذكر الكنيسة العظمى
٣٥٩	ذكر المانستارات بقسطنطينية
٣٦١	ذكر الملك المترهب جرجيس
٣٦١	ذكر قاضي القسطنطينية
٣٦٢	ذكر الانصراف عن القسطنطينية
٣٦٤	كرامة له
٣٦٧	أمير خوارزم
٣٦٩	حكاية ومكرمة لهذا القاضي والأمير
٣٦٩	حكاية الخاتون ترابك
٣٧٠	ذكر بطيخ خوارزم
٣٧٠	حكاية الشريف من أهل كربلاء
٣٧٣	ذكر أولية التتر وتغريبهم بخارى وسواها
٣٧٦	ذكر سلطان ماوراء النهر

الموضوع

الصفحة

٣٧٦	حكاية الملك كبك والواعظ بدر الدين
٣٧٧	حكاية عن أحكان كبك
٣٧٨	حكاية فضائل الملك طرمشيرين
٣٨٥	حكاية عن ملك الهند
٣٨٧	حكاية الأميرة التي بنت مسجداً
٣٨٨	ذكر سلطان هراة
٣٨٩	حكاية الرافضة
٣٩١	حكاية الملك الذي اقترف منكراً
٣٩١	حكاية هي سبب قتل الفقيه نظام الدين
٣٩٣	حكاية الشيخ شهاب الدين
٣٩٥	كرامة له
٤٠٥	ذكر البريد
٤٠٨	ذكر الكركدن
٤١٠	حكاية صلب العساكر وسلح جلودها
٤١١	ذكر السفر في نهر السند
٤١٣	ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة
٤١٤	مكرمة لهذا الملك
٤١٥	ذكر أمير ملتان وترتيب حاله
٤١٦	ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة
٤١٨	ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها
٤٢٠	ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند
٤٢١	ذكر غزوة لنا بهذا الطريق
٤٢٢	ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار
٤٢٦	ذكر وصفها

الموضوع

الصفحة

٤٢٧	ذكر سور دهلي وأبوابها
٤٢٨	ذكر جامع دهلي
٤٢٩	ذكر الحوضين العظيمين بخارجها
٤٣٠	ذكر بعض مزاراتها
٤٣٠	ذكر بعض علمائها وصلحائتها
٤٣١	حكاية صوت الفقير خوفاً من العذاب
٤٣٢	كرامة له
٤٣٢	ذكر فتح دهلي ومن تداووها من الملوك
٤٣٣	ذكر السلطان شمس الدين للمش
٤٣٤	ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين
٤٣٥	ذكر السلطانة رضية
٤٣٥	ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين
٤٣٦	ذكر السلطان غياث الدين بنَبَنَ
٤٣٦	حكاية الفقير مع بنَبَنَ
٤٣٨	ذكر السلطان معز الدين بن ناصر
٤٣٩	ذكر السلطان جلال الدين
٤٤١	ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي
٤٤٣	ذكر ابنه السلطان شهاب الدين
٤٤٣	ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين
٤٤٥	ذكر السلطان، خسروخان ناصر الدين
٤٤٧	ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه
٤٥٠	ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك
٤٥٠	ذكر مسir تغلق إلى بلاد الكتوبي وما تصل بذلك إلى وفاته
٤٥٢	ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه

الموضوع

.....	ذكر وصفه
.....	ذكر أبوابه ومشرورة وترتيب ذلك
.....	ذكر ترتيب جلوسه
.....	ذكر دخول الغرباء وأصحاب المدايا إليه
.....	ذكر خروجه للعديد وما يتصل بذلك
.....	ذكر جلوسه يوم العيد وذكر السرير الأعظم والبخرة العظمى
.....	ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره
.....	ذكر ترتيب الطعام الخاص
.....	ذكر ترتيب الطعام العام
.....	ذكر بعض أخباره في الجود والكرم
.....	ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني وحكايته
.....	ذكر عطائه لشیخ الشیوخ رکن الدین
.....	ذكر عطائه للواعظ الترمذی ناصر الدین
.....	ذكر عطائه لعبد العزیز الاردویلی
.....	ذكر عطائه لشمس الدین الأندکانی
.....	ذكر عطائه لعاصد الدین الشونکاری
.....	ذكر عطائه للقاضی مجد الدین
.....	ذكر عطائه لبرهان الدین الصاغرجی
.....	ذكر عطائه حاجی کاون وحكایتہ
.....	ذكر قدوم ابن الخلیفۃ علیہ واخبارہ
.....	حکایۃ من تعظیمه إیاہ
.....	حکایۃ نھوہا عن کرم السلطان ملطفہ
.....	حکایۃ عن بخل ابن الخلیفۃ
.....	حکایۃ بخله علی ابنه

الموضوع

الصفحة

٤٧٣	ذكر مأعطيه السلطان للأمير سيف الدين غدا
٤٧٤	ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان
٤٧٧	ذكر سجن الأمير غدا
٤٧٨	ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوند زاده
٤٧٩	حكاية في تواضع السلطان وإنصافه
٤٧٩	حكاية مثلها
٤٧٩	حكاية مثلها
٤٨٠	ذكر اشتداده في إقامة الصلاة
٤٨٠	ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع
٤٨٠	ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لإنصاف المظلومين
٤٨١	ذكر إطعامه في الغلاء
٤٨١	ذكر فتكات هذا السلطان ومانقم من أفعاله
٤٨٢	ذكر قتله لأخيه
٤٨٢	ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلاً في ساعة واحدة
٤٨٢	ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله
٤٨٤	ذكر قتله للفقيه المدرسي عفيف الدين الكاساني وفقيقين معه
٤٨٥	ذكر قتله أيضاً لفقيقين من أهل السنن كانوا في خدمته
٤٨٦	ذكر قتله للشيخ هود
٤٨٨	ذكر سجنه لابن ناج العارفين وقتله لأولاده
٤٨٨	ذكر قتله للشيخ الحيدري
٤٨٩	ذكر قتله لطوغان وأخيه
٤٨٩	ذكر قتله لابن ملك التجار
٤٩٠	ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات
٤٩٠	ذكر تخريبه لدهلي ونفي أهلها وقتل الأعمى والمقعد

الموضوع

الصفحة

٤٩١	ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته منه على بهادر بوره
٤٩٢	ذكر ثورة ابن عمه وما تصل بذلك
٤٩٣	ذكر ثورة كشلوخان وقتله
٤٩٤	ذكر الواقعة بجبل قراجيل على جيش السلطان
٤٩٥	ذكر ثورة الشريد جلال الدين ببلاد المغير
٤٩٧	ذكر ثورة هلاجون
٤٩٨	ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان
٤٩٨	ذكر الإرجاف بموته وقرار الملك هو شنج
٤٩٩	ذكر ماهم به الشريف إبراهيم من الثورة ومال حالة
٥٠٠	ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك
٥٠١	ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك
٥٠٦	ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفته علي شاه كر
٥٠٧	ذكر فرار أمير بخت وأخذة
٥٠٨	ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند
٥٠٨	ذكر خلاف القاضي جلال
٥٠٩	ذكر خلاف ابن الملك مل
٥١٠	ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كنبية
٥١١	ذكر قتال مقبل وابن الكولي
٥١٢	ذكر الغلاء الواقع بأرض الهند
٥١٣	ذكر وصولنا إلى دار السلطان وعند قدومنا وهو غائب
٥١٣	ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها
٥١٥	ذكر الضيافة
٥١٦	ذكر وفاة بنبي وما فعلوا في ذلك
٥١٨	ذكر إحسان السلطان والوزير في أيام غيبة السلطان عن الحضرة

الموضوع

الصفحة

٥١٩	ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان
٥١٩	ذكر قدوم السلطان ولقائنا له
٥٢١	ذكر دخول السلطان إلى حضرته وأمرنا به من المراكب
٥٢١	ذكر دخولنا إليه وما أنعم به من الإحسان والولاية
٥٢٥	ذكر عطاء ثانٍ أمر لي به وتوقيته مدة
٥٢٦	ذكر طلب الغرماء مالم قبلي ومدحه للسلطان وأمره بخلاص ديني
٥٢٨	ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجيه معه
٥٣٠	ذكر الجمل الذي أهديته للسلطان
٥٣١	ذكر الجملين اللذين أهديتها إليه والخلوأ وأمره بخلاص ديني
٥٣٢	ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضررة
٥٣٤	ذكر مافعلته في ترتيب المقبرة
٥٣٥	ذكر عادتهم في إطعام الناس في الولاية
٥٣٦	ذكر خروجي إلى هزار أمروها
٥٣٨	ذكر مكرمة لبعض الأصحاب
٥٣٨	ذكر خروجي من محلة السلطان
٥٣٩	ذكر ماهمَّ به السلطان من عقابي وماتدار كني من لطف الله تعالى
٥٣٩	ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا
٥٤٠	ذكر بعث السلطان عني وإبانتي الرجوع إلى الخدمة
٥٤١	ذكر وأمرني به من التوجّه إلى الصين في الرسالة
٥٤١	ذكر سبب بعث الهدية للصين
٥٤٣	ذكر غزوة شهدناها بكور
٥٤٤	ذكر محنتي بالأسر وخلاصي منه
٥٤٩	حكاية هذا الشيخ
٥٥٠	حكاية القاضي

الموضوع

الصفحة

٥٥٢	حكاية أمير مدينة رابري
٥٥٢	ذكر أمير علابور واستشهاده
٥٥٤	ذكر السحرة الجوكرية
٥٥٤	حكاية المرأة التي أكلت قلب الصبي
٥٥٥	حكاية عن سحر الجوكرية
٥٥٧	حكاية الشيخ إبراهيم الذي أحيا الأرض الموات
٥٥٨	حكاية ابن اخت الوزير وجاريته
٥٥٨	حكاية الفiran التي تأكل الرجال
٥٦٠	ذكر سوق المحنين
٥٦١	حكاية الثلاثة الذين اتفقوا على قتل أنفسهم
٥٦٢	حكاية الأعورين
٥٦٣	ذكر سلطان قندهار
٥٦٣	ذكر ركوبنا البحر
٥٦٤	ذكر سلطان قوقة
٥٦٥	حكاية هذا الجوكرى
٥٦٧	ذكر سلطان هنور
٥٦٧	ذكر ترتيب طعامه
٥٧٠	ذكر الفلفل
٥٧١	ذكر سلطان فاكنور
٥٧٣	ذكر سلطانها
٥٧٣	ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي ي زيارة الجامع
٥٧٤	حكاية المسجد الذي خربه أحد البراهمة
٥٧٥	ذكر سلطان قالقوط
٥٧٦	ذكر مراكب الصين

الموضوع

الصفحة

٥٧٧	ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومتى ذلك
٥٧٩	ذكر القرفة والبقم
٥٧٩	ذكر سلطان كولم
٥٨٠	حكاية المقتول الذي لم يدفن حتى يسلم قاتله
٥٨٠	حكاية السلطان الذي قتل صهره بحبة عنبة
٥٨٠	حكاية السلطان الذي قتل ابن أخيه لأنه اغتصب سيفاً
٥٨١	ذكر توجهنا إلى الفزو وفتح سنديبور
٥٨٤	ذكر أشجارها
٥٨٥	ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم ومساكنهم
٥٨٨	ذكر نسائها
٥٨٩	ذكر السبب في إسلام هذه الجزائر وذكر العفاريت التي تضر بها
٥٩١	ذكر سلطانية هذه الجزائر
٥٩٢	ذكر أسباب الخطط وسيرهم
٥٩٣	ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقل حالي بها
٥٩٤	ذكر بعض إحسان الوزير إلى
٥٩٦	ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك
٥٩٨	ذكر العيد الذي شاهدته معهم
٥٩٩	ذكر تزوجي ولائي القضاء
٦٠٠	ذكر قدوم الوزير عبدالله بن محمد الذي نفاه السلطان وما وقع بيني وبينه
٦٠١	ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك
٦٠٣	ذكر النساء ذوات الثدي الواحد
٦٠٥	ذكر سلطان سيلان
٦٠٧	ذكر سلطان كنكار
٦٠٨	ذكر الياقوت

الصفحة

الموضوع

٦٠٩	ذكر القرود
٦٠٩	ذكر العلق الطيار
٦١٠	ذكر جبل سرنديب
٦١١	ذكر القدم
٦١٤	ذكر سلطان بلاد المغير
٦١٤	ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين
٦١٥	ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان
٦١٦	ذكر هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الإسلام
٦١٩	ذكر وفاة السلطان وولادة ابن أخيه وانصراف عنه
٦٢٠	ذكر سلب الكفار لنا
٦٢٣	ذكر سلطان بنجالة
٦٢٤	حكاية حب السلطان للفقير شيدا
٦٢٤	ذكر الشيخ جلال الدين
٦٢٥	كرامة له
٦٢٥	كرامة له أيضاً
٦٢٦	حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له
٦٢٨	ذكر سلطانهم
٦٢٩	حكاية عقاب الزناة
٦٣٠	ذكر سلطان المخارة
٦٣٠	ذكر دخولنا إلى داره وإحسانه إلينا
٦٣٢	ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه
٦٣٣	ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك
٦٣٤	ذكر اللبناني
٦٣٤	ذكر الكافور

الموضوع

الصفحة

٦٣٤	ذكر العود الهندي
٦٣٥	ذكر القرنفل
٦٣٦	ذكر سلطان مل جاوه
٦٣٦	ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه
٦٣٨	ذكر هذه الملكة
٦٤٠	ذكر الفخار الصيني
٦٤٠	ذكر دجاج الصين
٦٤١	ذكر بعض من أحوال أهالي الصين
٦٤١	ذكر دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون
٦٤٢	ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم
٦٤٢	ذكر مخصوصوا به من إحكام الصناعات
٦٤٣	ذكر عادتهم في تقييد ما في المراكب
٦٤٤	ذكر عادتهم في منع التجار عن الفساد
٦٤٤	ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق
٦٤٧	حكاية عجيبة
٦٤٩	حكاية مولانا قوام الدين السبتي
٦٥٢	ذكر الأمير الكبير قرطبي
٦٥٣	حكاية المشعوذ
٦٥٥	ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان
٦٥٧	ذكر قصره
٦٥٧	ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتلها
٦٥٨	ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند
٦٥٩	ذكر الرخ
٦٦٠	ذكر إعراس ولد الملك الظاهر

الموضوع

الصفحة

٦٦١	ذكر سلطان ظفار
٦٦٢	ذكر سلطان العراق
٦٦٤	حكاية مختطفى الحبز وقتلهم
٦٦٤	حكاية شيخ مدينة عنتاب
٦٦٥	حكاية نذر الخطيب عز الدين
٦٦٦	حكاية الفقير الذى قضى ليته فى الصلاة ثم أصبح ميناً
٦٦٦	ذكر سلطان مصر
٦٦٨	ذكر سلطان تونس
٦٧١	ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله
٦٨٤	ذكر سلطان غرناطة
٦٨٨	ذكر التكشيف
٦٨٩	حكاية التاجر التلمساني الذى يبعث بالحيات
٦٩٠	ذكر مسوقة الساكين بآيوالاتن
٦٩١	حكاية القاضي وصاحبته
٦٩١	حكاية خورها
٦٩٥	ذكر سلطان مالي
٦٩٥	ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها
٦٩٦	ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلى
٦٩٦	ذكر جلوسه بقبته
٦٩٧	ذكر جلوسه بالشور
٦٩٨	ذكر تذلل السودان لملكيهم وتربيتهم له
٦٩٩	ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه
٧٠٠	ذكر الأصحوكة في إنشاد الشعراة للسلطان
٧٠١	حكاية الجراد في بلاد الظالمين

الموضوع

الصفحة

٧٠١	حكاية عن عدل السلطان
٧٠١	حكاية السلطان الذي غضب على زوجته
٧٠٣	حكاية من وضع معروفاً مع السلطان
٧٠٣	ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها
٧٠٤	ذكر سفري عن مالي
٧٠٥	ذكر الخيل التي تكون بالنيل
٧٠٥	حكاية القاضي أبي العباس
٧٠٦	حكاية السودان الذين أكلوا الخادمة
٧٠٧	حكايتي مع الحلم
٧٠٧	حكاية موت سراج الدين
٧١٠	حكاية شرائي خادمة
٧١١	ذكر معدن النحاس
٧١١	ذكر سلطان تكدا
٧١٢	ذكر وصول الأمر الكرم إلى
٧١٥	قال ابن جزي
٧١٩	فهرس الأعلام
٧٥٧	فهرس المدن والقرى
٧٧٤	فهرس الأنهر والبحار والجزر والখصون والصحارى
٧٧٧	فهرس المحتويات

مطبع العيتاني مطب. ٦٧٥١، بيروت - لبنان